مفتاح تحقيق التاريخ الإسلامي
كتاب القرن الرابع عشر الهجري

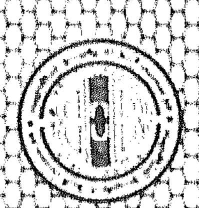
محمد رسول الله

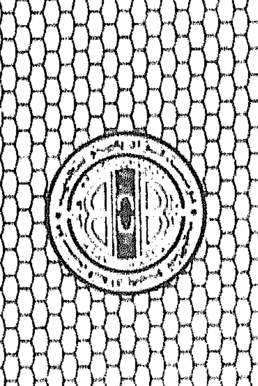
صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

بقلم
محمد الصادق إبراهيم عرجون

دار القلم
دمشق





محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

مفتاح تحقيق التاريخ الإسلامي
كتاب القرن الرابع عشر الهجري

محمد رسول الله ﷺ

صلّى الله عليه وسلّم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

بقلم
محمد الصّادق ابراهيم عرجون
عميد كلّية أصول الدّين بجامعة الأزهر سابقاً

الجزء الثالث

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص. ب ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

دار البشير
للطباعة والنشر والتوزيع جدة : ٢١٤٦١ - ص. ب : ٢٨٩٥ - هاتف : ٦٦٥٧٦٢١

دَعَائِمُ بنَاءِ الأُمَّةِ الإسلاميّة

بعد تثبيت عقيدتها

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعامة الأولى

بناء المسجد الأعظم بالمدينة المنورة

كانت المرحلة الأولى في سير الرسالة الخالدة، خاتمة رسالات السماء، رسالة محمد خاتم النبيين ﷺ في مكة مرحلة تأسيس العقيدة التوحيدية، وتثبيتها بإقامة البراهين القاطعة عقلاً ونقلاً، ونصب منائر الأدلة الساطعة على مشارف طرائق سيرها، سواء أكانت الأدلة تكوينية مبثوثة في عناصر الكون ومظاهر الطبيعة، أم كانت تنزلية، تنزَّل بها الوحي لهداية العقول وتنوير القلوب، وتحصين هذه العقيدة التي هي المقصود الأعظم والغاية العظمى لجميع رسالات الله تعالى إلى أهل الأرض من أن تحوم حولها حوائم الشبهات الإلحادية وأساطير الوثنيات المادية، وتقويض أبنية الشرك، وسِدَانات الأصنام والأوثان في جميع صورها وأشكالها وسائر ضروب الشرك وألوانه وتطهير القلوب والعقول من رواسب موروثات الجاهلية.

وقد كانت هذه المرحلة أطول مراحل سير الرسالة الخالدة زمناً، وأملأها حجاجاً فكرياً، وأفعمها نضالاً عقلياً، وأبلغها إيقاظاً للفطرة الإنسانية.

كان الجهاد فيها جهاداً منطقياً يستنطق القرآن الكريم في دلائل آياته على عظمة الكون وخالقه ومدبره، وكان سلاح الجهاد فيها الصبر الحمّال لفوادح البلاء، يقول الله تعالى في جهاد هذه المرحلة: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً، فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾[1].

---

(١) سورة الفرقان آيتا (٥١، ٥٢).

قال الزمخشري في تفسيره: ولو شئنا لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى و(لبعثنا في كل قرية) نبياً ينذرها، وإنما قصرنا الأمر عليك، وعظمناك به، وأجللناك، وفضلناك على سائر الرسل ـ أي لعموم رسالتك وخصوص رسالاتهم ـ فقابل ذلك بالتشدد والتصبر، (فلا تطع الكافرين) فيما يريدونك عليه، وإنما أراد بذلك تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم، والضمير ـ أي في قوله (به) ـ للقرآن. . . . والمراد أن الكفار يجدّون ويجتهدون في توهين أمرك، فقابلهم من جدك واجتهادك، وعضك بالنواجذ بما تغلبهم به وتعلوهم، وجعله جهاداً كبيراً لما يحتمل فيه من المشاق العظام، لأنه ﷺ نذير جميع القرى، لعموم رسالته، لأن الله لو بعث في كل قرية نذيراً لوجبت على كل نذير مجاهدة قريته، فاجتمعت على رسول الله ﷺ تلك المجاهدات كلها، فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم، فقال له (وجاهدهم) بسبب كونك نذير كافة القرى جهاداً كبيراً جامعاً لكل مجاهدة، فلم يكن في هذا الجهاد قتال، ولا رد للاعتداء، وإنما هو جهاد الحجة البالغة والبرهان القويم في سياق من فنون الاعجاز والهداية وبراعة البيان.

ولما اكتمل بناء العقيدة التوحيدية في هذه المرحلة، وظهر شامخاً، وطيد الدعائم، راسخ الأركان، ثابت القواعد، لا تهزه أعاصير الحياة، ولا تقف أمامه هلهلة الإلحاد الفكري وسخافات الوثنية المادية وترهات أباطيل الشرك وخزعبلات الجهالات، ولا ينال منه فجور العناد، وعتو الاستكبار، وطغيان الكفر.

وحتى إذا استيأس رسول الله ﷺ من رجاء الأمل في عجاف ملأ الفجور أمره الله تعالى بالهجرة إلى طيبة حيث وداعة الإيمان، ولطف العشرة، والوفاء بالعهد وشدة البأس على كل من تسوِّل له نفسه المساس بالدعوة إلى الله ورسالة الخلود، ليقيم فيها معالم رسالته ـ بعد أن أرسى قواعدها على قوة الحق وهدى البرهان ونور الحجة ـ على أساس من التشريع الحكيم المحكم الذي يستمد حكمته وأحكامه من منابع العقيدة التوحيدية.

هذا التشريع الذي يضع علامة مساند بنائها في تعبداتها وسياسة

حكمها، ونظام حياتها الاجتماعية في معاشها ومعاملاتها بتبادل المصالح بين أفرادها وجماعاتها، وبينها وبين المجتمعات الإنسانية كلها في أرجاء الأرض ـ على عُمُد من العدالة التي تعطي لكل ذي حق حقه، وتضع إلى جانب كل حق واجباً تقتضيه إراحة الحق على أهله، فكل من أخذ حقاً فعليه أن يؤدي للمجتمع واجباً.

اختيار الله تعالى لمكان المسجد الأعظم

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة مهاجراً إليها من مكة نزل أول ما نزل في مشارفها على بني عمرو بن عوف في قباء، فأسس مسجدها وأكمل بناءه، ثم ترحل عنهم إلى داخل المدينة، وكان الأنصار في محلاتهم وديارهم يخرجون للقائه ﷺ، كلما مرّ بدار قوم منهم أخذوا بزمام ناقته يتضرعون إليه ويرجون منه أن ينزل فيهم حيث العدد والعدة والمنعة والثروة، فكان ﷺ يتلطف بهم شاكراً، ويدعو لهم، ويقول خيراً، ويطلب إليهم أن يَدَعوا الناقة تواصل سيرها، فإنها مأمورة، ومسيَّرة بإذن الله وأمره، وزمامها بيده ﷺ، لا يثنيها عن اتجاهها ولا يكفها. وواصلت القصواء سيرها ورسول الله ﷺ عليها، يحف به جموع أصحابه من المهاجرين والأنصار، حتى بلغت فناء أبي أيوب ـ خالد بن زيد الأنصاري النجاري ـ في محلّة بني مالك بن النجار، فبركت هناك، وتلحلحت، وألقت بجرانها، ورزمت ولزمت مكانها، فلم تنهض منه، وكان موضع بروكها وما حوله مربداً مملوكاً لغلامين يتيمين في حِجْر أبي أمامة أسعد بن زرارة، نقيب بني النجار، الذي اتخذ في ناحية من المربد مسجداً يصلي فيه بأصحابه، ويجمِّع بمن حضره من المسلمين الجمعة قبل مقدم رسول الله ﷺ، فلما قدم رسول الله ﷺ، كان يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم ـ كما في حديث أبي التيّاح عن أنس بن مالك عند البيهقي.

مكان المسجد قبل البناء وشراؤه من مال أبي بكر

ثم أمر ﷺ بالمسجد، فأرسل إلى بني النجار، فجاؤوا فقال لهم ﷺ: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم» ـ أي مربدكم الذي كان حائطاً وبستاناً عامراً ـ فقال بنو النجار: لا، والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، وهم يريدون أن يتحملوا ثمنه للغلامين سهل وسهيل ابني عمرو من أموالهم، فأبى رسول الله ﷺ **أن يقبله بغير ثمن.**

وقد حكى ابن القيم عن الزهري أن النبي ﷺ ساوم الغلامين بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله فأبى ﷺ، فابتاعه منهما بعشرة دنانير أدّاها من مال أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري أن النبي ﷺ دعا الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى ﷺ أن يقبله منهما هبة، حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً.

وإطلاق وصف اليتم على الغلامين وقت مساومتهما وبيعهما كان باعتبار ما كان قبل ذلك وقبل بلوغهما، وحين تم بيعهما كانا بالغين، فصحّ بيعهما، ويكون ذكر بني النجار في المساومة، لحضورهم المساومة مع الغلامين، ثم بيعهما، وهذا التأويل أليق برواية الصحيح من أن المساومة والبيع وقعا من الغلامين، أما إذا كان البيع قد وقع ممن له حق التصرف في أموالهما بالإصلاح والإنماء والعدل، فتكون مساومة النبي ﷺ لهما وإسناد البيع إليهما لحضورهما مجلس المساومة والبيع، ويكونان قد أرادا إرضاء النبي ﷺ، فقال: بل نهبه إليك يا رسول الله، فلما أبى ﷺ قبوله بغير ثمن تمت المساومة والبيع مع وصيهما الذي كانا في حَجره، وأسندت إليهما تطييباً لخاطرهما.

وعند ابن إسحق أن الغلامين كانا في حجر معاذ بن عفراء، فلما سأل رسول الله ﷺ عن المربد لمن هو؟ قال معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان في حجري ووصايتي، وسأرضيهما عنه فاتخذه مسجداً، وما في البخاري من أن الغلامين كانا في حجر أسعد ابن زرارة هو الثَّبْتُ المعوّل عليه لصحته، ولما روي أن أسعد بن زرارة عوض الغلامين عن المربد نخلاً في بني بياضة، وعند الزبير بن بكار أن أبا أيوب أرضى الغلامين عن ثمن مربدهما وليس هذا اختلافاً، ولكنه تنافس في الخير، لإرضاء رسول الله ﷺ وتحقيق رغبته الكريمة في أن يبني للدعوة وأهلها المسلمين مسجداً عاماً جامعاً، يجمع أفراد جماعات المجتمع المسلم الجديد توحيداً لصفهم، وتوطيداً لدعائم الأخوة بينهم، ولكن الثابت الصحيح أن رسول الله ﷺ أبى أن يأخذ المربد هبة، لا من الغلامين، ولا ممن كانا في

وصايته وحجره، واشتراه ودفع ثمنه من مال أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وعند الشيخين من حديث أنس بن مالك: أنه كان في موضع المسجد نخل وخِرَب، ومقابر للمشركين، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت، وبالعظام فغُيِّبت، وبالخِرَب فسويت، وبالنخل فقطعت.

وصف المربد الذي صار أعظم مسجد في الدنيا

وقال ابن سعد في الطبقات: وكان في المربد ماء مسجل - أي نزيز تقذف به الأرض - فسيروه حتى ذهب. ولما تم إصلاح الأرض وتسويتها أمر ﷺ باتخاذ اللبن - أي الطوب النيىء - فاتُخذ، ثم شرع في بناء المسجد، وعمل فيه ﷺ بنفسه الشريفة، كما جاء في حديث عائشة عند البخاري أنه ﷺ كان ينقل اللبن معهم في بنائه، ليرغِّب المسلمين في هذا العمل الصالح، ويشجعهم، وينشطهم، فنهض في العمل المهاجرون والأنصار بهمة وعزيمة وإخلاص ودأب، وكانوا ينشدون الشعر وهم يعملون، ليبعثوا في أنفسهم النشاط، وليذهبوا عنها ما عسى أن يعتريها من فتور واسترخاء، وكان النبي ﷺ يشاركهم الإنشاد وهم يقولون من شعر عبدالله بن رواحة:

هذا الحمالُ، لا حمال خيبر ... هذا أبرّ ربنا وأطهر

نهوض الصحابة في بناء المسجد والنبي ﷺ يشاركهم العمل

ثم يتحولون إلى لون آخر من شعره أيضاً إذهاباً للسأم، كما ذكره ابن بطّال في شرحه للبخاري، ونقله ابن حجر في الفتح وأقره:

اللّهم إن الأجر أجرُ الآخرة ... فارحم الأنصار والمهاجره

ونسب بعضهم هذا الرجز إلى امرأة من الأنصار، وقد اختلفت عبارات الرواة في بعض ألفاظه، فعند الشيخين من حديث أنس جاء:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة ... فانصر الأنصار والمهاجره

وقال ابن سعد في الطبقات: وكانوا يرتجزون، ورسول الله ﷺ معهم وهو يقول:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة ... فانصر الأنصار والمهاجره

كما جاء في رواية أنس عند البخاري ومسلم، وقد ذكر ابن كثير في (البداية والنهاية) هذا الرجز فقال: وجعل رسول الله ﷺ يقول، وهو ينقل معهم التراب:

هــذا الحمـالُ، لا حمـال خيبـر   هــذا أبــر ربــنــا وأطــهــر

ويقول ﷺ:

لاهُــمَّ إن الأجـر أجـر الآخــره   فــارحـم الأنصــار والمـهــاجــره

تحقيق إنشاد الشعر منه ﷺ وهو يعمل مع الصحابة

ثم ذكره مرة أخرى في حديث أنس الذي جاء فيه: فكان فيه - أي المربد - ما أقول لكم، كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خِرَب، وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخِرَب فسُوِّيت، وبالنخل فقطع، قال أنس: فصفُّوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه حجارة، فجعلوا ينقلون ذلك الصخر، وهم يرتجزون، ورسول الله معهم يقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخره   فــانصــر الأنصــار والمـهــاجــره

ثم قال ابن كثير: وقد رواه البخاري في مواضع أخر، ومسلم من حديث أبي عبد الصمد، وعبد الوارث بن سعيد، وقد ذكر الزرقاني رواية الشيخين عن أنس، وليس فيها لفظ (إنه) في قول الرجز: اللهم إنه.

وفي طبقات ابن سعد: وبنىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل - ﷺ - ينقل معهم الحجارة بنفسه، ويقول: اللهم لا عيش إلا عيش الآخره. فاغفر للأنصار والمهاجره.

وقد قدمنا أن ابن كثير ذكر أن النبي ﷺ كان ينقل معهم التراب، ويقول في الرجز الثاني: لاهُـمَّ إن الأجر أجر الآخرة.

وهي رواية زعم الداودي في شرح البخاري أن ابن رواحة قالها هكذا (لاهُمَّ)، فأتى به بعض الرواة على المعنى أي فقال: (اللهم)، وإنما يتزن هكذا - أي (لا همّ) - وقد رد الدماميني زعم الداودي بأنه توهيم للرواة بلا داعية

لاحتمال أن الشاعر قاله بألف ولام على جهة الخزم، وهو من عيوب الشعر، لكنه لا ينفي أن يعد ما وقع فيه شعراً، وهذا رد كما يرى غير قوي، ويكفي في ضعفه أنه قائم على الاحتمال.

وقال ابن إسحق: وارتجز المسلمـون وهم يبنونه، يقولون: لا عيش إلا عيش الآخره. . . اللهم ارحم الأنصار والمهاجره. قال عبد الملك ابن هشام: هذا كلام وليس برجز، ثم ذكر قول ابن إسحق: فيقول رسول الله ﷺ:

لا عــيش إلا عــيش الآخـــره، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار.

ويظهر أن ابن إسحق أراد من رواية هذا الشعر بصورة غيّرته عن شعريته إلى كلام لا يوصف بالشعر، أن يدفع ما استُشكل به إنشاد النبي ﷺ هذا الرجز مع أصحابه وهم يعملون في البناء على وزنه الشعري من معارضته لقول الله تعالى في نَضْحه عن رسول الله ﷺ من قول أعدائه: إنه شاعر، أتى بشعر، وليس برسول أتى بكتاب هداية: وهذا ـ إذا صحّ أنه أراده ابن إسحق ـ مردود بما يأتي:

قال ابن شهاب الزهري: ولم يبلغنا أنه ﷺ تمثل بشعر تام غير هذا البيت، وهذا صريح في استجازة الزهري أن النبي ﷺ يتمثل ببيت من الشعر كامل الوزن، ولا يكون في ذلك معارضة لنفي الشعر عنه، وقد ناقش ابن حجر كلام الزهري، فقال: ولا اعتراض عليه ـ أي الزهري ـ ولو ثبت أنه ﷺ أنشد غير ما نقله، لأنه نفى أن يكون بلغه، ولم يطلق النفي، أي أن الزهري اعتمد في نفيه تمثل النبي ﷺ بغير هذا البيت على ما بلغه، ولو ثبت أن النبي ﷺ تمثل بغير هذا الشعر على استقامة وزنه ولم يبلغ الزهري فلا اعتراض بذلك على الزهري، لأنه لم يطلق النفي، أي لم يقل، ولم يتمثل النبي ﷺ بشعر تام غير هذا البيت، ونفيُ أن يكون قد بلغ الزهري أن النبي ﷺ تمثل ببيت تام من الشعر غير هذا البيت لا ينفي وقوع أن يكون النبي ﷺ قد تمثّل ببيت أو أبيات تامة الوزن، إذ لا تلازم بين نفي البلاغ ونفي الوقوع.

لا تعارض بين إنشاد النبي ﷺ شعراً موزوناً وبين نفي الشعر عنه

وقد استشكل قول الزهري: تمثل ـ أي النبي ﷺ ـ بشعر تام بقوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ وهذا استشكال ضعيف جداً لأن إنشاد بيت من شعر شاعر على الوجه الذي قاله الشاعر من تمام الوزن لا يدخل تحت المنفي في الآية الكريمة، لأن المنفي بها هو إنشاء الشعر لا إنشاده والتمثل به، وفي ظل هذا الاستشكال الواهي ذهب ابن إسحق ومن قال بقوله إلى أن النبي ﷺ كان يقول: اللهم ارحم المهاجرين والأنصار، ليخرجه عن وزن الشعر، فيصير كلاماً لا شعراً موزوناً، وهذا قصور في فهم معاني القرآن ومراميه، لأن الآية إنما جاءت لتنفي أن يكون النبي ﷺ شاعراً جاء بشعر أنشأه كما ينشىء الشعراء قصائدهم ومقطوعاتهم، وهل إنشاد بيت من الشعر والتمثل به يجعل من المنشد والمتمثل شاعراً، هذا مالا يتوهمه من له أدنى إلمام ومعرفة بالشعر وقوانينه، والأدب ومنازعه وفنونه.

ومن هذا القصور ما زعمه الكرماني من أن النبي ﷺ كان يقف على الآخرة والمهاجرة بالتاء متحركة، ليخرجه عن الوزن، قال ابن حجر يرد ما زعمه الكرماني: لم يذكر مستنده، وكلام الزهري يرده، بل فيه ـ أي في زعم الكرماني ـ الوقف على متحرك، وليس عربياً، فكيف ينسب إلى سيد الفصحاء؟.

الإشارة إلى الخلافة الراشدة في وضع أساس المسجد الأعظم

وفي دلائل البيهقي عن الحسن: لما بنى ﷺ المسجد أعانه أصحابه، وهو معهم يتناول اللبن حتى اغبَّر صدره ﷺ، وفي حديث سفينة مولى رسول الله ﷺ عند البيهقي، وحديث عائشة عند أبي يعلى برجال الصحيح أنه ﷺ لما ابتدأ في وضع أساس مسجده وضع حجراً، ثم قال: «ليضع أبو بكر حجره إلى جنب حجري، ثم ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبي بكر، ثم ليضع عثمان حجره إلى جنب حجر عمر، ثم ليضع علي». فسئل ﷺ عن ذلك، فقال: «هؤلاء الخلفاء من بعدي» هكذا رواه الزرقاني في شرح المواهب وافياً.

وقد نقل ابن كثير عن البيهقي حديث سفينة بنحو مقارب لسياق الزرقاني، ولم يذكر فيه علياً رضي الله عنه، فقال: جاء أبو بكر بحجر

فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه، ثم جاء عثمان بحجر فوضعه، فقال رسول الله ﷺ: «هؤلاء ولاة الأمر من بعدي» وهو كما يُرى، لم يُذْكر فيه عليّ. قال ابن كثير: ثم رواه البيهقي من حديث يحيى بن عبد الحميد الحِمّاني، عن حشرج عن سعيد، عن سفينة بمثل رواية أبي يعلى، غير أنه لم يذكر فيه علياً رضي الله عنه.

تحقيق روايات أحاديث الخلافة

وقد علَّق ابن كثير على سياقات البيهقي لحديث سفينة بطريقيه، فقال: وهذا الحديث بهذا السياق غريب جداً، والمعروف ما رواه الإمام أحمد عن أبي النضر، عن حشرج الأشجعي، وعن بهز، وزيد بن الحباب، وعبد الصمد وحماد بن سلمة، كلاهما عن سعيد بن جمهان، عن سفينة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخلافة بعدي ثلاثون عاماً، ثم يكون من بعد ذلك الملك» ثم قال سفينة: أمسك، خلافة أبي بكر سنتين، وخلافة عمر عشر سنين، وخلافة عثمان اثنتا عشرة سنة، وخلافة علي ست سنين.

ثم قال ابن كثير: ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طريق سعيد ابن جمهان، وقال الترمذي: حسن، لا نعرفه إلا من حديثه، ولفظه «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً عضوضاً».

قلت: وأخرجه مسلم في باب الإمارة، ولا ندري لماذا لم يذكره ابن كثير وهو أرفع درجة ممن ذكرهم.

وقد استهدف ابن كثير ـ كما يظهر ـ من سياقه رواية أحمد، والتنبيه على روايات أبي داود، والترمذي، والنسائي وذكر لفظ الترمذي في مدة الخلافة الراشدة، وما يعقبها من ملك عضوض ردّاً للروايات التي لم يذكر فيها علي رضي الله عنه، وهي حرية بالرد، ولا ندري لماذا لم يتعرض ابن كثير لحديث عائشة عند أبي يعلى، وهو ـ كما قال الزرقاني ـ برجال الصحيح، وفيه ذكر علي بعد عثمان رضي الله عنهما، وهو أقوى في الرد من حديث سفينة عند أحمد، لاحتمال أن يكونا حديثين، ولا ينفي الاحتمال أن الذي روى عن سفينة في جميع الطرق هو سعيد بن جمهان، لاحتمال أن حديثهما عن سفينة.

وأخرج الإمام أحمد عن طَلْق بن علي اليمامي الحنفي، قال بنيت

إعجاب النبي ﷺ بعمل طلق الحنفي في بناء المسجد

المسجد مع رسول الله ﷺ، فكان يقول: «قربوا اليمامي من الطين فإنه أحسنكم له مسيساً» وأخرج الإمام أحمد عن طَلْق أيضاً، قال: جئت إلى النبي ﷺ وأصحابه يبنون المسجد، وكأنه لم يعجبه عملهم، فأخذت المسحاة، فخلطت الطين، فكأنه أعجبه، فقال: «دعوا الحنفي والطين فإنه أضبطكم للطين» وأخرج ابن حبان عن طَلْق، فقال: فقلت: يا رسول الله أأنقل كما ينقلون؟ قال: «لا، ولكن اخلط لهم الطين، فأنت أعلم به».

تميز اجتهاد عمار ابن ياسر في بناء المسجد الأعظم

وفي البخاري عن أبي سعيد أن المسلمين كانوا يحملون لبنة، لبنة، وكان عمّار بن ياسر ينقل لبنتين، وفي جامع معمر: أن عماراً كان يحمل لبنتين، لبنة عنه ولبنة عن النبي ﷺ، أي حين يكون النبي ﷺ مشغولاً عنهم من الأمر بما يختص بالدعوة، أو بمصالح المسلمين، وإلا فهو ﷺ كان يعمل معهم في حمل اللبن أو الحجارة أو التراب، ما لم يشغله عن المشاركة لأصحابه شاغل أهم منها، وفي رواية لأبي بكر الاسماعيلي، وأبي نعيم أن النبي ﷺ لما رأى عماراً يحمل لبنتين وأصحابه يحملون لبنة، لبنة، قال له: «يا عمار ألا تحمل كما يحمل أصحابك» قال عمار: إني أريد من الله الأجر، فقال له عليه الصلاة والسلام بعد مسح ظهره، ونفض التراب عنه: «للناس أجر، ولك أجران، وآخر زادك من الدنيا شربة لبن، وتقتلك الفئة الباغية».

وفي مواهب القسطلاني أن الزين المراغي قال في كتاب (تحقيق النصرة) أن النبي ﷺ وضع رداءه فوضع الناس أرديتهم، وهم يعملون، ويقولون. قال الزرقاني: والذي رواه الزبير بن بكار عن مجمع عن أم سلمة، قال قائل من المسلمين:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... ذاك إذا لَلْعملُ المضلل

وآخرون يقولون:

لا يستوي من يعمر المساجدا ... يدأب فيها قائماً وقاعداً

ومن يُرى عن التراب حائداً

وفي رواية الزبير بن بكار أن الذي قال هذا الرجز علي بن أبي

طالب، قال ابن هشام: سألت غير واحد من علماء الشعر عن هذا الرجز فقالوا: بلغنا أن علياً ارتجز به فلا يُدرى أهو قائله أم غيره، وإنما قال ذلك مباسطة ومطايبة، كما هو عادة الجماعة إذا اجتمعوا على عمل وليس ذلك طعنا في أحد.

تحقيق حول رواية قصة بين عظيمين من السابقين

وذكر البيهقي عن الحسن قال: لما بنى ﷺ المسجد أعانه أصحابه، وهو معهم يتناول اللبن حتى اغبرَّ صدره، وكان عثمان بن مظعون رجلاً (متنطعاً) ـ كلمة جافية ما نظن أن الحسن في فضله وسمو أدبه يقولها، وإن كان الذين رووا القصة، فسروا هذه الكلمة بقولهم: متغالياً، متأنقاً في التنظف، ولكن هذا التفسير لا ينفي جفوة الكلمة بالنسبة للسُبَّق من أصحاب رسول الله ﷺ، ولو أن التعبير عنها كان بما فسرت به لكان أجمل ـ وكان عثمان بن مظعون ـ كما قال الرواة ـ يحمل اللبنة فيجافي بها عن ثوبه، فإذا وضعها نفض كمّه ونظر إلى ثوبه، فإن أصابه شيء من التراب نفضه، فنظر إليه علي بـن أبي طالب، فأنشد يقول:

لا يستـوي من يعمـر المسـاجـدا ... إلى تمـام الـرجـز المتقـدم

فسمعها عمار بن ياسر، فجعل يرتجز بها، ولا يدري من يعني بها، فمر بعثمان بن مظعون فقال عثمان له: يا ابن سمية لأعرفن بمن تعرض، ومعه حديدة، فقال: لتكفن أو لأعترضن بها وجهك، فسمعه النبي ﷺ فغضب، ثم قالوا لعمار: إنه ـ أي النبي ﷺ ـ غضب فيك، ونخاف أن ينزل فينا قرآن، فقال عمار: أنا أرضيه كما غضب، فقال: يا رسول الله، ما لي ولأصحابك؟ قال ﷺ: «ما لك ولهم؟» قال عمار: يريدون قتلي، يحملون لبنة، لبنة، ويحملون عليَّ لبنتين، فأخذ رسول الله ﷺ بيده وطاف به المسجد وجعل يمسح وفرته، ويقول: «يا ابن سمية، ليسوا بالذين يقتلونك، تقتلك الفئة الباغية».

وهذه القصة ذكرها ابن إسحق، وتبعه فيها البيهقي، وساقها مرسلة عن الحسن البصري، ومراسيل الحسن قيل فيها: إنها ريح، أي لا اعتداد بها لأنها لا تثبت للنظر الممحص، والتمحيص الناقد، وقد قيل في الحسن أنه يروي عن كل أحد.

وهذا الرجز الذي قامت القصة الواهية على ركائزه تردد أهل العلم بالشعر ـ كما يقول ابن هشام ـ في كون علي رضي الله عنه هو قائله ومنشؤه، أو هو مما تمثل به من شعر غيره، حين نظر إلى عثمان بن مظعون ـ كما يقول مرسل الحسن ـ ينفض ثوبه من التراب تنظفاً وتجملاً.

ومهما يكن فإن مرسل الحسن يوحي بأن علياً رضي الله عنه قصد التعريض بعثمان بن مظعون، وأن عمّاراً سمعه من علي فارتجز به، وإن كان لا يدري عمار من عنى علي بهذا الرجز، فلما أكثر عمّار من إنشاد هذا الشعر ظن ابن مظعون أن عماراً يقصده معرضاً به، فغضب لنفسه، وتهدد عماراً بما زعمه مرسل الحسن عند البيهقي، وسمع النبي ﷺ تهديد ابن مظعون عماراً فغضب ﷺ لعمار، وقال ـ كما يقول ابن إسحق ـ : «ما لهم ولعمار، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، إن عمّاراً جلدة ما بين عيني وأنفي، فإذا أُبلغ ذلك بالرجل، فلم يستبق فاجتنبوه».

وفي رواية مرسل الحسن أن النبي ﷺ أخذ بيد عمار، وطاف به المسجد وجعل يمسح وفرته ويقول: «يا ابن سمية؟ ليسوا بالذين يقتلونك، تقتلك الفئة الباغية».

ورواية ابن إسحق تحمل في طياتها قرائن ضعفها، لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يعتبر تهديد ابن مظعون عماراً ـ بما زعمته الرواية ـ دعوة إلى النار، ولا يمكن أن يقول ﷺ عن عثمان بن مظعون من أجل كلمة دفع بها عن نفسه في زعم الرواية، أنه يدعو عماراً إلى النار.

ومما يدل على وهن هذه القصة وضعفها في تفاصيلها وتعاريجها التي ساقها بها ابن إسحق عن رواته والبيهقي في مرسل الحسن أن ابن سعد في الطبقات لم يذكرها إطلاقاً، ولم يذكر هذا الرجز الذي قامت على دعائمه.

وأن ابـن كثير لم يعرج عليها في (بدايته) ولم يذكر رجزها مع أنه أطنب في إيراد وتحقيق الروايات التي ذكرت قول النبي ﷺ لعمار تقتلك الفئة الباغية، ومع أنه ساق كلام ابن إسحق، وفيه الرجز المذكوروقصته،

لكنه رحمه الله في فضله وعلمه وورعه لم يستجز ذكر هذا الرجز وقصته الضعيفة، كما لم يستجز ابن هشام تسمية عثمان بن مظعون، واكتفى بقوله: فلما أكثر عمّار من إنشاد هذا الرجز ظن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أنه إنما يعرِّض به، وقد غمز ابن هشام ابن إسحق، فقال: وقد سمّى ابن إسحق الرجل.

قال السهيلي في (روضه): وذكر ابن إسحاق قول الرجل لعمار: قد سمعت ما تقول يا ابن سمية.

ثم قال السهيلي: قال ابن هشام: وقد سمّى ابن إسحق الرجل، وكره ابن هشام أن يسميه كي لا يُذكر أحد من أصحاب رسول الله ﷺ بمكروه، فلا ينبغي إذاً البحث على اسمه.

وهذا لون من الأدب النفسي والتعبير الرفيع الذي يجب أن يحاط به الحديث عن أصحاب رسول الله ﷺ إذا ثبت وقوع بعض الهنات من بعضهم استجابة لدواعي البشرية في فورة غضب، تكريماً لهم، وإعظاماً لفضلهم على الحياة، فما بالك بما تذكره قصص واهية واهنة؟.

وممن أهملها ولم يذكر رجزها ولا قصتها ابن القيم في (الهدي).

ومما يدل على وهن هذه القصة إلى جانب ما تقدم ما اشتملت عليه من ألفاظ نابية جافية لم تعهد من الصحابة في أحاديثهم ومحاوراتهم، ولو استغضب بعضهم بعضاً إلا قليلاً مما يصدر عن غير السابقين الأولين.

وهذه الرواية المرسلة تصف الصحابي الجليل النبيل عثمان بن مظعون بأنه رجل (متنطِّع) وهي كلمة جافية نابية لا يصف بها مهذب مهذباً، ولو أن رواية القصة كانت صحيحة لأحاط بها أدب التعبير، ولخرجت إلى الناس خالية عن مثل هذه الألفاظ الجافية، ولأمكن وصف رجل في مثل سابقة عثمان بن مظعون وفضله ونبله وشجاعته بغير هذه الكلمة التي تنادي على قائلها بأنه لا يبالي من أين أخذ، ولا إلى أين يسير في تعبيره، والحسن البصري أحد سادة التابعين في فضله وورعه وخوفه من الله تعالى يبعد جداً

أن تصدر منه هذه الكلمة في وصف رجل من أفضل أصحاب رسول الله ﷺ أو يرويها عن غيره.

فكيف يسوغ إذا لمن يرجو لله وقاراً في أصحاب نبيه ﷺ الذين آزروه، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، وصبروا على شدائد المحن، ولأواء البلاء، ولا سيما الرعيل الأول فيهم - وعثمان بن مظعون من سابقيهم - أن يصف أحدهم بألفاظ سوقية جافية وهم الأعلون في كمال النعوت والصفات؟.

وأي منقصة يعيّر بها هذا الصحابي المتنظف المتجمل - لو صحت هذه القصة - في أن يجافي باللبنة وهو يحملها عن ثوبه، فإذا وضعها نفض كمه، وهو دائب مع إخوانه في العمل لم يقصر عنهم في شيء.

أما سمية التي كنّى ببنوتها ابن مظعون عماراً رضي الله عنها - كما تقول الرواية - فهي أفضل أم لأفضل بيت في الإسلام، وهي أول شهيدة في الإسلام، فالكنية بها مفخرة المفاخر، ومنقبة الشرف والمكارم، وكان رسول الله ﷺ يكني بها عماراً، ويناديه يا ابن سمية، تنويهاً بفضلها وسابقتها.

وهل عرف عن رسول الله ﷺ أنه يغضب لأمر غير شرعي؟ وإذا غضب ﷺ لأمر استوجب الغضب شرعاً، فهل عرف عنه ﷺ السكوت على ذلك، دون أن يفهم من أغضبه خطأه ويرشده إلى الحق، ويهديه إلى الصواب، هذا ما لم يعرف قط في أخلاق رسول الله ﷺ في تربيته أصحابه.

* * *

قال ابن كثير بعد ذكره رجز: لا عيش إلا عيش الآخره: فيقول رسول الله ﷺ:

لا عيش إلا عيش الآخره   اللهم ارحم المهاجرين والأنصار

فدخل عمار بن ياسر، وقد أثقلوه باللبن، فقال: يا رسول الله؟ قتلوني، يحملون علي ما لا يحملون، قالت أم سلمة رضي الله عنها: فرأيت

رسول الله ﷺ ينفض وفرته بيده ـ وكان رجلاً جعداً ـ وهو يقول: «ويح ابن سمية؟؟ ليسوا بالذين يقتلونك إنما تقتلك الفئة الباغية».

وليتأمل الناظر في تلطف النبي ﷺ بعمار، وهو ينفض وفرته بيده الشريفة، أليس ذلك من أرفع درجات التنظيف والتجميل؟ غير أن هذا أسمى وأجل مما فعل ابن مظعون بنفسه، وأخذ عليه ـ في زعم مرسل البيهقي ـ لأن هذا فعل رسول الله ﷺ :بيده الشريفة بمن يستصفي من أعلياء أصحابه، وهم أحباؤه وأصفياؤه والمقّربون إلى قلبه الأطهر الرحيم.

ثم علق ابن كثير على حديث أم سلمة فقال: هذا منقطع من هذا الوجه، بل معضل بين محمد بن إسحق وبين أم سلمة، وقد وصله مسلم في صحيحه من حديث شعبة عن خالد الحذّاء، عن سعيد والحسن ابني أبي الحسن البصري عن أمهما خَيْرة، مولاة أم سلمة عن أم سلمة، قالت: قال رسول الله ﷺ : «تقتل عماراً الفئة الباغية» ورواه مسلم من حديث ابن علية، عن ابن عون، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة، قالت إن رسول الله ﷺ قال لعمار وهو ينقل الحجارة: «ويح لك يا ابن سمية؟ تقتلك الفئة الباغية» وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الحسن، يحدث عن أمه، عن أم سلمة قالت: لما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يبنون المسجد جعل أصحاب النبي ﷺ يحمل كل واحد منهم لبنة، لبنة، وعمار يحمل لبنتين، لبنة عنه، ولبنة عن رسول الله ﷺ، فمسح النبي ﷺ ظهره وقال: «ابن سمية للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك شربة من لبن، وتقتلك الفئة الباغية».

قال ابن كثير: وهذا إسناد على شرط الشيخين، وليتأمل النظّار بعين الإنصاف في هذه الروايات التي ساقها ابن كثير وأكثرها عن الحسن البصري صاحب مرسل البيهقي ليجدها خالية عن الرجز وقصته، وهي روايات أثبت سنداً من مرسل الحسن عن البيهقي وقد عرفت أن بعضها على شرط الشيخين، وكل ذلك مما يضعف قصة مرسل الحسن عند البيهقي، وينفي أن تكون آفته من الحسن، لأن روايات ابن كثير الصحيحة أكثرها عن الحسن

من طريق أمه خيرة مولاة أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها.

وفي رواية مسلم عن أبي سعيد أن قول النبي ﷺ لعمار: «وتقتله الفئة الباغية» كان في حفر الخندق، وهذه الرواية من أقوى ما يدل على وهْي مرسل الحسن عند البيهقي الذي ذكرت فيه القصة ورجزها، لأنها من إخراج الصحيح، فهي أرفع سنداً من جميع ما روي في قتل الفئة الباغية عماراً.

وقد استشكل البيهقي رواية مسلم، وحكم فيها بالوهم، فقال: ويشبه أن يكون قوله في حفر الخندق وهماً. وهذا عجيب جداً من الإمام أبي بكر البيهقي في فضله، وسعة علمه، ودرايته بعلوم السنة والحديث!! ثم قال البيهقي: أو أنه ـ أي رسول الله ﷺ ـ قال ذلك في بناء المسجد، وفي حفر الخندق، ولم يبين البيهقي وجه استشكاله حتى يحتاج إلى ادِّعاء الوهم في رواية الصحيح، لردها وتقديم غيرها عليها، إذ لا يلزم أن يكون هذا الإخبار المعجز لعمار «تقتلك الفئة الباغية» قد قيل في بناء المسجد، وليس هنا ما يمنع أن يكون قد قيل في حفر الخندق، كما ثبت في رواية مسلم، وحيث جاء النص بأصح سند أنها قيلت في حفر الخندق وجب المصير إليه، وقد جوّز البيهقي أنها قيلت مرتين، مرة في بناء المسجد، ومرة في حفر الخندق، وهذا تجويز ضعيف، لا تقتضيه ضرورة.

فالقصة ورجزها ضعيفة الثبوت، واهية الإسناد، ما كان ينبغي أن يُطنطن بها، وهي تذكر صاحبين جليلين من طلائع السابقين الأولين، الذين أدّبهم الله بأدب النبوة المطهَّرة وربَّاهم في حضنها بما لا يليق بمكانتهما.

ولولا خشية أن تكون هذه القصة مدعاة إلى تناول الصحابة رضي الله عنهم بما لا ينبغي من رعاية الأدب، وأدب الرعاية ممن لا يعرف للصحابة رضي الله عنهم قدرهم، ويقدِّر لهم مكانتهم، ويعرف لهم منتهم في عنق كل مسلم، لأنهم هم الذين هدانا الله بهم إلى الإسلام والإيمان، وهم الذين نقلوا إلينا الهدى والنور والعلم والمعرفة والأدب، لأضربنا عنها صفحاً تنزيهاً لكتابنا في شرف موضوعه، وتنزهاً عن نشرها فيه.

ولا يغترن أحد بما جاء في بعض روايات الأحداث من ألفاظ متحاملة لا تتفق وما عرف عن سمت الصحابة وأخلاقهم وآدابهم في القول والعمل، لأن هذه الروايات ـ وإن صحَّ سند بعضها ـ فهي متزيدة بمداد الحماسة والاسترسال من بعض الرواة، وقد نبه العلماء على ذلك، وأبى كثير من حذّاق الرواة المحدِّثين ذوي الإخلاص والورع أن يذكروا ما جاء في ألفاظها من جفوة التعبير.

ولو أدرك التوفيق الرواة الذين يتساهلون في نقل كل ما يسمعون من ألفاظ نابية فتمثلوا قدر الصحابة ومنزلتهم من الإسلام وتاريخه وهدايته وتبليغ دعوته لاقتصروا على لب المعنى من الحقائق التي تقصد إلى تحقيقها الأحاديث والآثار مما ثبت لهم طريقه وصح سنده.

* * *

السنة في بناء المساجد القصد وعدم الغلو في التحسين والزخرفة

وأتم الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى أمته نعمته العظمى بإتمام بناء أفضل مسجد، بناه أفضل نبي مرسل بأفضل دين، وكان بناء هذا المسجد الأطهر بناء متعبد تكنفه البساطة، وتسوده السماحة الفطرية، ويحوطه النور من أقطاره، وتحف به الهداية من جوانبه، وجعل ذرعه مربعاً مائة ذراع طولاً، في مائة ذراع عرضاً، أو أقل قليلاً، وجعل سقفه جريد النخل المطيَّن، وكانت قبلته إلى بيت المقدس، وهي من جذوع النخل، وكذلك عمده التي يعتمد عليها سقفه.

وفي (روض) السهيلي: وجعلت قبلته من اللبن، ويقال: بل من حجارة منضودة، بعضها على بعض، وجعل له ثلاثة أبواب، وأسس بالحجارة داخلة في باطن الأرض، نحو ثلاثة أذرع.

قال ابن بطّال: وهذا يدل على أن السنة في بناء المسجد القصد، وترك الغلو في تحسينه، فقد كان عمر مع كثرة الفتوح في أيامه وسعة بيت المال عنده لم يغيره عما كان عليه، وفي دلائل البيهقي عن عبادة من طريق يعلى ابن شداد بن أوس: أن الأنصار جمعوا مالاً، فأتوا به النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله ابن لنا هذا المسجد، وزينه ـ أي جدِّد لنا بناءه وزخرفه ـ إلى متى

نصلِّ تحت هذا الجريد؟ فقال ﷺ: «ما لي رغبة عن أخي موسى، عريش كعريش موسى» وفي مرسل شَهْر بن حَوْشب: لما أراد النبي ﷺ أن يبني المسجد: قال: «ابنوا لي عـريشاً كعريش موسى، ثمامات، وخشبات، وظلة كظلة موسى، والأمر أعجل من ذلك» قيل: وما ظلة موسى؟ قال: «كان إذا قام أصاب رأسه السقف» فلم يزل المسجد كذلـك حتى قبض رسول الله ﷺ.

قال الزرقاني في شرح (المواهب): وذكر في (الأوج) أن قامة موسى وعصاه ووثبته سبعة أذرع، فهو تشبيه تام لأنه جعل ارتفاع المسجد سبعة أذرع، وقد ذكر ابن كثير: أن قامة موسى وعصاه ووثبته عشرة أذرع.

ولا معارضة بين مرسل ابن حوشب وما ثبت في الصحيح من أن جدران المسجد بنيت باللبن، لأن المراد في مرسل ابن حوشب النص على البساطة في بنيان المسجد وعدم التأنق والزخرفة في بنائه، وهذا متحقق في وصف البناء الذي ورد في الصحيح.

وأما ما ورد عند ابن عائذ أنه ﷺ صلَّى في المسجد وهو عريش اثني عشر يوماً، ثم بناه وسقفه، فالمراد به ما كان في المربد قبل أن يبني المسجد النبوي من مصلّى أقامه أسعد بن زرارة كان يصلي فيه بأصحابه ويجمع لهم قبل أن يصل النبي ﷺ إلى المدينة، ويدل لذلك حديث النوار، أمِّ زيد بن ثابت قالت: أنها رأت أسعد بن زرارة قبل أن يقدم النبي ﷺ يصلِّي بالناس الصلوات الخمس، ويجمِّع بهم في مسجد بناه في مربد سهل وسهيل، قالت النوّار: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ لما قدم صلّى بهم في ذلك المسجد، وبناه هو فهو مسجده، قال الزرقاني فإن صحّ حديث النوار فكأنه ﷺ هدم بناء أسعد وزاد فيه، أو زاد بدون هدم لضيقه عن المسلمين، وهذا التأويل الذي ذهب إليه الزرقاني لا ينـافي ما ثبت في الصحيح عن بناء المسجد النبوي.

وقد ظل المسجد على الحال التي بناه عليها رسول الله ﷺ من البساطة وعدم التزيين والزخرفة حياة رسول الله ﷺ وحياة أبي بكر الصديق رضي الله

عنه، وحياة عمر، وإن كان قد وسعه عمر وزاد فيه، لكنه بناه على بنيانه في عهده ﷺ وأعاد عمده خشباً.

فلما تولَّى عثمان رضي الله عنه زاد فيه زيادة كبيرة وبناه وحسّنه، ففي حديث ابن عمر عند البخاري وأبي داود أن المسجد كان على عهده ﷺ مبنياً باللبن وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر، وبناه على بنيانه في عهد رسول الله ﷺ، وأعاد عمده خشباً، ثم غيّره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصَّة، وجعل عمده حجارة منقوشة وسقفه بالساج، وحسّنه بما لا يقتضي الزخرفة، ومع ذلك أنكر عليه بعض الصحابة، ففي صحيح مسلم أن عثمان رضي الله عنه أراد بناء المسجد، فكره الناس ذلك، وأحبوا أن يدعه على هيئته.

نهج النبي ﷺ في بناء بيوته كنهجه في بناء مسجده قصداً وبساطة

ثم بنى رسول الله ﷺ بيتين إلى جنب المسجد، بيتاً لزوجه أم المؤمنين سَوْدة بنت زمعة رضي الله عنها وبيتاً لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها استعداداً للدخول بها، لأنه ﷺ كان قد عقد عليها بمكة وسنُها ست أو سبع سنين، ودخل بها في المدينة وسنها تسع سنوات، قال ابن شهاب الزهري ـ كما رواه أبو عمر في الاستيعاب ـ إن النبي ﷺ تزوج عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما في شوال سنة عشر من النبوة، قبل الهجرة بثلاث سنين، وعرّس بها في المدينة في شوال على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجره إلى المدينة.

وذهب ابن حجر إلى أنه ﷺ دخل بها في شوال من السنة الأولى للهجرة، وذكر رواية ابن سعد عن الواقدي إن عائشة رضي الله عنها قالت: أعرس بي على رأس ثمانية أشهر.

وكان ما بناه رسول الله ﷺ من البيوت لزوجاته على نهج بناء مسجده في البساطة، مبنية باللبن وسقفها جذوع النخل والجريد، وقد روى السهيلي عن الحسن بن أبي الحسن البصري قال: كنت أدخل بيوت النبي ﷺ وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدي.

وقال الواقدي: كان لحارثة بن النعمان منازل قرب المسجد وحوله،

فجعل كلما أحدث النبي ﷺ أهلاً نزل له حارثة عن منزل بقدر حجرة حتى صارت منازل حارثة كلها لرسول الله ﷺ.

ولما أمر الوليد بن عبد الملك بهدم بيوت أمهات المؤمنين، وإدخالها في المسجد وكتب بذلك إلى واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز فهدمت بكى الناس وحزنوا، وقال سعيد بن المسيب: ليتها تركت ليراها الناس فيزهدوا في التكاثر والتفاخر.

وقال أبو أمامة سهل بن حنيف: ليتها تركت ليرى الناس ما رضي الله لنبيه ﷺ، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده!!

* * *

مقاصد بناء المسجد الأعظم في دار الهجرة وحكمة السبق فيه

قدّمنا أن النبي ﷺ مكث بمكة بعد بعثه رسولاً نبياً ثلاثة عشر عاماً، مرّت كلها عليه وعلى طلائع الإيمان برسالته في كفاح مرير، ونضال صبور، وهو ﷺ يؤسس عقيدة التوحيد، وإخلاص التعبد لله وحده، ويقيم صرحها الشامخ، متوحدة بالدعوة إليها، لا يخلطها بغيرها من شرائع الحق والهدى، وبراهينها تتوالى، وأدلتها تتتابع، وحججها تتوارد، وآياتها تتنـزل، تثبيتاً لقواعدها، وتشييداً لأصولها، وتوطيداً لدعائمها، وترسيخاً لأركانها، وتركيزاً لمساندها، لأنها هي لب لباب دعوته ودعوة جميع إخوانه الأنبياء والمرسلين.

ولكن ذلك لم يلق من أحلاس الوثنية البليدة، وأراذل ملأ الشرك والجحود إلا عناداً عتيّاً، وفجوراً في الكفر لم ينالوا من ورائه إلا خذلاناً قهر جبريتهم المستكبرة، وكسر شوكتهم الظالمة، وخضد شرّتهم المتهاوية، وفلّ عزائمهم المتهافتة، وغمز قناتهم المتآكلة، وأمال رؤوسهم على صدورهم ومناكبهم، وأرعب قلوبهم، وزلزل أقدامهم، وهدّ أركان غرورهم، وطمأن من تعاليهم، وأذل بأوهم، وهتك عنجهيتهم، وحرق أكبادهم، وأورثهم غيظاً أذاب أفئدتهم، وخلع عليهم عاراً لم يمحه إلا ذرية مِنْ بعدهم، نبتت بذورها منهم في رياض الإيمان والهدى والنور، فاستنارت قلوبهم، وأشرقت عقولهم، فعلموا أن الحق لله وحده، واستشعروا الإيمان بكل ما كفر به آباؤهم، وحملوا بعد ما علموا لواء دعوة الحق خفاقاً في الآفاق مهديين

هادين، داعين إلى الله، مجاهدين، ففتح الله على أيديهم القلوب والعقول، واستنقذوا البشرية من أوحال الشرك، وخبال التظالم الاجتماعي، ونير الجهالة الفكرية، والاستعباد البشري، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾[١]. وإذ يقول عز شأنه: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك،فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾[٢].

ولمّا لم يبق في هؤلاء المشركين من أخابث ملاحدة الوثنية، ومن حولهم ممن يقتدون على آثارهم بصيص من أمل، وكانت الدعوة إلى الله وتوحيده قد بلغت من أرض العرب آفاقاً متباعدة، وتسامع بها الناس في مضارب قبائلهم ومحافل مواسمهم وأسواقهم، وشغلت من تفكيرهم وحياتهم حيزاً يقومون ويقعدون به، وهم ما بين قليل مقبل لا ينكر وكثير منكر وهو مدبر ومتحير أبلس في حمأة الشك، لا يتقدم ولا يتأخر - فتح الله لنبيه ﷺ أبواب الفرج، وآتاه زمام النصر، فأذن له أن يهاجر بدعوته إلى جو تتنسم فيه الدعوة نسائم الرجاء والأمل، وأراه دار هجرته، بعد أن جعل له من أهلها جنداً لرسالته وقدّم له بيعتهم على احتضان دعوته بما فيها من عضٍّ السيوف، وقتل الأبطال، ونهك الأموال، وعداوة الأبيض والأسود، والرضا بموعود الله لهم من جزيل الثواب وعظيم المآل في جنة عرضها السموات والأرض.

وهاجر إليهم ﷺ بعد أن اطمأن على هجرة أصحابه قبله، الذين استقبلهم إخوانهم الأنصار بأصدق الحب وأوفى الوفاء.

ولم يكد رسول الله ﷺ يطأ أرض المدينة المنورة بقدمه الشريفة وينزل رحله في دار أبي أيوب الأنصاري ويتنفس أنفاس الراحة من أعباء سفر الهجرة، ذلك السفر الطويل الشاق - حتى بدأ يفكر ويعمل منذ اللحظة الأولى في بناء مسجده الأعظم.

---

(١) سورة محمد آخر آياتها.

(٢) سورة المائدة آية (٥٤).

وكان بروك القصواء ـ وهي مأمورة ـ في مربد سهل وسهيل يتيمي بني النجار، ورسول الله ﷺ على ظهرها مرخٍ زمامها لا يثنيها ولا يكفها، ولا ينهنها ولا يقيمها ولا ينيخها، إيذاناً إلّهياً بأن هذا المربد هو المستقر والمستودع، وهو مكان المسجد الأعظم، ومنازل رسول الله ﷺ، وبيوت أزواجه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

وبدأ رسول الله ﷺ بالسؤال عن المربد (لمن هو)، فأخبر أنه ليتيمين من بني النجار، في حجر بعضهم، وأرسل إلى بني النجار، فحضروا وفيهم الغلامان سهل وسهيل، فقال ﷺ: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا» أي أخبروني بثمنه الذي يرضيكم، فأرادوا أن يعطوه لرسول الله ﷺ هبة بغير ثمن، وهم يرضون الغلامين سهلاً وسهيلاً عن ثمنه، فأبى رسول الله ﷺ أن يأخذه إلا بالثمن، واشتراه، ودفع ثمنه من مال أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ولم يمهل ﷺ في العمل، بل بدأ مع أصحابه في تسوية أرض المربد وقطع ما فيه من النخيل والأشجار، وأعدّها للبناء، وأمر ﷺ بعمل اللبن فعمل، ونقله مع أصحابه، مع نقل الحجارة والتراب، وحفروا أساسه في باطن الأرض، وعيّن ﷺ قبلته إلى بيت المقدس، ونصب فيها جذوع النخل لتكون معالم لها وابتدأ البناء، وهو ﷺ يعمل فيه بنفسه الشريفة كأقوى وأنشط ما يكون العمل، يحمل اللبن، وينقل الحجارة، ويقف بنفسه يشرف على العمل كله، يرشد وينصح، ويوجه ويسدد، يرى خلط الطين للبناء فلا يعجبه عمل عامله، فيخصص له من هو أهله وحاذقه (طَلْق بن علي اليمامي الحنفي) ويقول: «قرِّبوا اليمامي من الطين، فإنه أحسنكم له مسيساً» وفي رواية: «دعُوا الحنفي والطين فإنه أضبطكم للطين» ويسأله طَلْق أن ينقل كما ينقلون، فيقول له: «لا، ولكن اخلط لهم الطين، فأنت أعلم به».

ويشارك ﷺ أصحابه في إنشادهم الأراجيز والأشعار، ويرفع صوته بمقاطعها وهزجها، شحذاً لهممهم، وإذهاب الملالة والسأم عنهم، وتحبيب العمل إلى نفوسهم، وترغيباً لهم في أفضل الأعمال، وأشرف منازل الخير

والهدى والنور، وتشجيعاً لهم على الدأب ومواصلة العمل في تأسيس وإنجاز ما يجمع كلمتهم، ويؤكد وحدتهم، وتقوية عزائمهم على المضي قدماً في إقامة منابع نشر الدعوة، ولفت أنظارهم إلى ما يجب أن تكون له الصدارة من الأعمال في حياتهم أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، هادية رائدة وقائدة للإنسانية في مستقبلها، وتعويداً لهم على تحمل المشاق، وخوض غمرات الصعاب في سبيل إقامة عظائم الأعمال، لتكون هذه العظائم هداياهم إلى الحياة، بعد أن أراهم ﷺ ذلك كله رأي أعينهم في مشاركتهم جميع ما يتطلب البناء من عمل وجهد.

* * *

لم تكن عناية رسول الله ﷺ الفائقة ببناء مسجده الأعظم منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها قدمه الشريفة أرض المدينة المنورة، هذه العناية التي بلغ من شأنها في الاهتمام والتقديم على أي عمل من الأعمال التأسيسية في مستقره ودار هجرته، ومأرز رسالته، وموئل دعوته، وعاصمة أمته، وقاعدة جهاده ـ لمجرد أن يكون هذا المسجد الأعظم مصلى، تقام فيه الجماعة والجمعة، أو مجرد متعبد للمؤمنين، يئلُون إليه في تعبداتهم، صلاة أو ذكراً وتسبيحاً، لأن الإسلام في سماحته وسمو مقاصده، وعموم دعوته، ويسر شرائعه وأحكامه لا يعرف التصومع للعبادة؛ لأن الأرض كلها، مشارقها ومغاربها، حاضرها وباديها موئل للصلاة والتعبد لله تعالى بذكره وتقديسه، فالمؤمن يعبد الله تعالى في كل مكان من الأرض في ظل ما جاء به هذا الدين الحنيف من أحكام التعبد وشرائعه.

وقد قال النبي ﷺ فيما خصه الله به من خصائص التكريم والتيسير على أمته: «جعلت لي الأرض مسجداً» وكان ﷺ يصلِّي حيث أدركته الصلاة من أرض الله، وهو ﷺ الأسوة المتبعة لأمته أينما كانوا من أرض الله تعالى، فالمسلم يصلِّي حيث أدركته الصلاة، لا يتقيد في أداء فرائضه من الصلوات وسائر التعبدات بمكان معين، أو ببناء خاص، فهو يصلِّي في مصنعه ومزرعته، ومتجره ومدرسته، وبيته ومسجده، وحيثما نزل في سفره.

المقصد الأول من بناء المسجد الأعظم بالمدينة

وإنما كانت هذه العناية العظمى من النبي ﷺ بالبدء في تأسيس وبناء هذا المسجد الأعظم منذ اللحظة التي ألقت فيها (المأمورة) بجرانها، ورزمت إيذاناً بأن الأمر الإلهي انتهى بها إلى مستقرها، فنزل عنها رسول الله ﷺ وقال: «ها هنا المنزل إن شاء الله» - لأن حاجة الدعوة إلى الله، وتبليغ الرسالة والسير بها قدماً في طريق هدايتها كانت تقتضي اقتضاء لازماً لا ثنية فيه؛ أن يكون للدعوة مكان عام يتناسب مع عمومها وخلودها، تأرز إليه، ويأوي إليه حملتها في صدرهم وورودهم، يتساوَوْن فيه، لا يملك أحد من الناس فيه شيئاً، ولا يحجر على مؤمن دخوله والتعبد فيه آناء الليل ولحظات النهار، ولا يمنع مؤمن التعلم فيه والتعليم في زواياه وأرجائه ورحابه.

مكان تملكه أمة الإسلام حيثما كان أفرادها وجماعاتها، ويحمي هذه الملكية العامة رسول الله ﷺ ويصونها ما دام بين ظهراني أمته، فإذا فارقها إلى الرفيق الأعلى انتقل واجب هذه الصيانة إلى القائم على أمته من بعده.

ولأن الضرورة في الاستقرار كانت تقتضي اقتضاءً لازماً أن يكون لرسول الله ﷺ مكان عام يتسع له ولأصحابه والقادمين عليه طلباً للهداية ورغبة في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته، يتلقى فيه الوحي، وتتنزل عليه فيه آيات الله، فيتلوها على أصحابه في جموعهم التي تفوق حد التواتر القطعي الذي لا يحتمل الريب، ليتفقهوا في حقائقها ومعانيها ويقفوا منه ﷺ على مقاصدها ومراميها، ليبلِّغوها إلى الناس كما سمعوها، لتصير فيما بينهم وبين من بلغته عنهم عملاً يتكيفون به في سلوكهم.

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازماً أن يكون للمجتمع المسلم الجديد مكان عام يجتمعون فيه إذا دعت الأحداث إلى مشاورات في مهمات الأمور، التي تعتور الدعوة وهي ماضية في سيرها.

المقصد الثاني

والشورى دعامة من دعائم هذا الدين الحنيف، دين الإسلام والتوحيد والسلام سنها رسول الله ﷺ لتكون نهج أمته في حياتها من بعده، ليقيها مغبة الاستبداد الفردي، وأسواء التظالم والبغي، لأن الأمة إذا أقامت حياتها على

التشاور فيما ينوبها سلم لها مستقبلها، واستنارت طريقها للخروج من مزالق الأحداث ومضائق الأزمات.

المقصد الثالث

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازماً أن يكون للمجتمع الجديد مكان عام يدرس فيه العلم بأوسع وأعم معانيه، ليشمل العقيدة وبراهينها، ويشمل التعبد وأحكامه، ويشمل نظام الحياة في المعاملات ليقوم الناس فيها بالقسط، ويشمل سياسة الأمة وعلاقاتها مع بعضها أفراداً أو جماعات، أو مع غيرها حكومات وشعوباً، ليواكب هذا المجتمع الحياة في سيرها وأطوارها، حتى لا تتخلف قافلة الإسلام ومجتمعه عن سائر قوافل الحياة.

وهذا المجتمع الإسلامي مكلف أن يأخذ بيده زمام موكب الحياة، يقودها بهدايته التي ترتكز على قوائم العدل والإخاء، وهذا هو منبع خيرية أمة الإسلام التي امتن الله بها على هذا المجتمع المسلم الجديد باعتباره نواة يخرج منها باسقات الخير والنور والهدى في قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾[1] وهي التي كُلِّفوها في حياتهم ضماناً لتحقيق هذه الخيرية في قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾[2].

المقصد الرابع

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازماً أن يكون لهذا المجتمع المسلم الجديد الذي يتسع ويتزايد ويتعاظم كمّاً وكيفاً مكان عام جامع يأوي إليه الغريب الذي أقدمته الرغبة في الهداية، ويأوي إليه الفقير الذي ليس له مايكنُّه ولا ما يأوي إليه من مسكن، والمسكين الذي لا يجد ما يسد خلّته ممن ليس لهم رغبة في الدنيا والتنافس على حطامها وزخارفها، ولكنهم تبتلوا إلى الله، وانقطعوا لعبادته، وتعلم العلم وتعليمه، من الذين

---

(١) سورة آل عمران آية (١١٠).

(٢) سورة آل عمران آية (١٠٤).

قال الله فيهم: ﴿يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾[1].

وقد جعلت لهم في المسجد الأعظم ظُلّة يأوون إليها، وهم ضيوف الإسلام، إذا جاءت للنبي ﷺ صدقة أعطاها لهم خالصة وإذا جاءته هدية نال منها وأعطاهم سائرها، وكان أعيان الصحابة يتنافسون في الإحسان إليهم وإطعامهم، فكان الرجل من ذي الوُجْد يذهب بالرجل والرجلين من هؤلاء المنقطعين إلى الله، وكان سعد بن عبادة يذهب بثمانين منهم كل ليلة يطعمهم ويكرمهم.

وكانوا يقلّون ويكثرون حسب طوارىء الحياة، وهم المعروفون بأهل الصُّفَّة، وفي البخاري من حديث أبي هريرة قال: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفّة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار، وإما كساء، قد ربطوا الأكسية في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساق ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته.

قال الإمام ابن تيمية كما حكاه عنه ابن حجر في الفتح: جملة من أوى إلى الصفة مع تفرقهم قيل: أربعمائة، وقيل: أكثر.

المقصد الخامس والسادس

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازماً أن يكون لهذا المجتمع الجديد مكان عام لا يضيق عن إيواء جريح كتائب الله وجنده في معارك الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، ليكون هذا الجريح قريباً من رسول الله ﷺ ليعوده متى شاء، وينظر في أمره، ويقوم بحاجته، لأنه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وكان من هؤلاء الجرحى سعد بن معاذ سيد الأوس، فقد رماه ابن العَرِقة بسهم أصاب أكحله، وذلك في غزوة الخندق، قبيل قريظة، فأمر النبي ﷺ بضرب فسطاط له في المسجد، قال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب: وكان رسول الله ﷺ قد أمر بضرب فسطاط في المسجد لسعد ابن معاذ، فكان يعوده في كل يوم، حتى توفي سنة خمس من الهجرة، بعد

---

(١) سورة الكهف آية (٢٨).

الخندق بشهر، وبعد قريظة بليال، بعد أن حكّمه رسول الله ﷺ فيهم، فحكم فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.

المقصد السابع

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازماً أن يكون لهذا المجتمع المسلم الجديد مكان عام يتسع لقادة كتائب الجهاد، وعقد الألوية، وتسمية القادة، وتسيير الجيوش، وعقد رايات الدعاة إلى الله لنشر الهداية وتبليغ الرسالة، وتحطيم الشرك والوثنية، ونشر العدالة الاجتماعية والإخاء والمحبة بين الأفراد والأمم والشعوب، وإخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم والمعرفة.

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازماً أن يكون لهذا المجتمع المسلم الجديد مكان ينبعث منه بريد الإسلام بالأخبار والإمدادات الروحية والمادية، وتخرج منه رسائل القائد الأعظم إلى قادة الجيوش وأمراء الولايات لتبيين حكم شرعي، أو إخبار بتدبير سياسي أو حربي، أو عقد معاهدة صلح أو هدنة حرب، ويتلقى فيه بريد المجاهدين ورسل القادة ببشائر النصر أو طلب العون والمدد، وتستقبل فيه أموال الغنائم لتقسم بين مستحقيها، ويستقبل فيه وفي رحابه الأسرى ليقضي فيهم رسول الله ﷺ بما أراه الله، ليتأسّى به مِنْ بعده خلفاؤه الراشدون، حتى يكون المجتمع المسلم كله على علم تام بأحوال جيوشه وولاياته وسائر ما يجري في شأنه، ويعرف مدى ما تبلغه الدعوة إلى الله في انتشارها، ومدى استقرارها في القلوب والعقول ليأخذ لكل أمر عدته.

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازماً أن يكون لهذا المجتمع المسلم الجديد مكان عام تراقب منه حركات أعداء الإسلام الظاهرين من المشركين واليهود وتجمعاتهم للوثوب عليه، والأخفياء من المنافقين ومرضى القلوب وتبييتاتهم أسوأ المكر وأخبث الكيد لهذا الدين الذي كان غصة في حلاقيمهم، وهؤلاء وأولئك منبثون في الداخل والخارج، لا يألون المسلمين خبالاً وعنتاً، يخونون عهودهم ويغدرون بهم، ويتربصون بهم الدوائر، ويتحينون لهم الفرص للإيقاع بهم والوثوب عليهم، ليتخذ قادة

المسلمين حذرهم، ويتقوا خياناتهم وغدرهم وأسوأ تدابيرهم، لحماية المجتمع المسلم، ودفع الضرر عنه.

فهذا المسجد الأعظم إنما بدأ بتأسيسه وبنائه رسول الله ﷺ أول ما بدأ من عمل في مستقره ودار هجرته في مطلع مَقْدمه ليكون نموذجاً يحتذى في بساطة المظهر، وعمق وعموم المخبر، ليحقق به أعظم الأهداف، وأعمها بأقل النفقات وأيسر المشقات.

إجمال وتلخيص لمقاصد بناء المسجد الأعظم بالمدينة

فهو قد أنشىء ليكون متعبداً لصلاة المؤمنين وذكرهم لله تعالى، وتسبيحهم له، وتقديسهم إياه بحمده وشكره على نعمه عليهم، يدخله كل مسلم ويقيم فيه صلاته وعباداته، لا يضارّه أحد، ما دام حافظاً لقداسته ومؤدياً حق حرمته.

وهو قد أنشىء ليكون ملتقى رسول الله ﷺ بأصحابه والوافدين عليه، طلباً للهداية ورغبة في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته، وليكون مهبطاً للوحي وتنزلاته بآيات الله وشرائعه وأحكامه، وعلومه ومعارفه الإلّهية، التي ينبثق منها كل علم نافع، وكل معرفة هادية.

وهو قد أنشىء ليكون جامعة للعلوم والمعارف الكونية والعقلية والتنزلية، التي حث القرآن الكريم على النظر فيها، وليكون مدرسة يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم وثمرات عقولهم، ومعهداً يؤمه طلاب العلم من كل صوب ليتفقهوا في الدين ويرجعوا إلى قومهم مبشرين ومنذرين، داعين إلى الله هادين، يتوارثونها جيلاً بعد جيل، وزمناً بعد زمن، ومكاناً عن مكان، فهو البؤرة المشعة بالنور على أرجاء الأرض ورحابها وساحاتها بمن فيها وما فيها ينشر التربية الاستقلالية التي لا تذيب الفرد في أتون المجتمع، ولا تهمل المجتمع وهو صورة من الأفراد الذين عني الإسلام بتربيتهم بمعارفه وعلومه، تلك التربية التي تعتمد على الوحي المنزل من عند الله الحكيم الخبير، ثم هي لا تغفل العقل وراء ذلك، والتي تهذب النفس وتعلي الغرائز ولا تقتلها، وتنمي الوجدان والعواطف والإخاء الودود.

وكان النبي ﷺ في حياته الشريفة بين ظهراني أصحابه، يعلمهم

ويهديهم ويرشدهم ويوجههم، يعلمهم الكتاب والحكمة، ويأخذ بهم في تطبيق ما علمهم إلى واقع العمل والسلوك، حتى تتكيف أنفسهم بما علمهم ليكون كل واحد منهم صورة حية لهداية الإسلام وعلومه ومعارفه وآدابه وأخلاقه وسياساته ونظمه في الحياة على شتى مناحيها، تمشي على الأرض، يراها الناس ويشيرون إليها، بما تترجمه أحوالهم بأنهم جميعاً دعاة الخير ورسل الهداية.

وهذا المسجد الأعظم قد أنشىء ليجد فيه الغريب مأوى، وابن السبيل مستقراً لا تكدره منَّة أحد عليه، فينهل من رفده ويعب من هدايته ما أطاق استعداده النفسي والعقلي، لا يصدّه أحد عن علم أو معرفة أو لون من ألوان الهداية، فكم من قائد تخرج فيه، وبرزت بطولته من بين جدرانه، وكم من عالم استبحر علمه في رحابه، ثم خرج به على الناس يروي ظمأهم للمعرفة؟ وكم من داع إلى الله تلقّى في ساحاته دروس الدعوة إلى الله فكان أسوة الدعاة، وقدوة الهداة، وريحانة جَذَبَ القلوبَ شذاها فانجفلت إليها تأخذ عنها الهداية لتستضيء بأنوارها؟.

وكم من حكيم أوتي في ظله الحكمة، وهو ينشرها على الناس في بسمته وأدبه وخلقه، الكلمة الطيبة هي بريده إلى القلوب، والبسمة الحلوة هي طريقه إلى العقول، والإشراقة المنيرة هي معراجه إلى الأرواح، فكان نموذجاً للمربي لعلمه وعمله وسلوكه وخلقه وآدابه. وكم من سياسي كان قبل أن يدخل إلى رحابه راعي إبل أو سارحاً بغنم، فلما وصل إليه وبهره نوره ألقى على رماله وحصواته عصا التسيار، وخاض لجج البحث، فكان منه العقل الدهيّ، والسياسي الحاذق الذي يظن الظن فإذا هو حق اليقين، فكان من قادة العقول في أمة الإسلام.

وكم من أعرابي جلف لا يفرق بين الأحمر والأصفر وفد عليه فدخله، ورأى أصحاب رسول الله ﷺ حوله هالة تحف به، يسمعون منه وكأن على رؤوسهم الطير، فسمع معهم، وكانت عنده نعمة العقل مخبأة تحت ستار الجهالة، فانكشف له غطاء عقله، فعقل وفقه، واهتدى واستضاء، ثم عاد

إلى قومه إماماً يدعوهم إلى الله ويربيهم بعلمه الذي علم، وسلوكه الذي سلك، فآمنوا بدعوته، واهتدوا بهديه، فكانوا سطراً منيراً في كتاب التاريخ الإسلامي.

وهذا المسجد الأعظم أنشىء ليجد فيه الفقير والمسكين ملجأ يلجأ إليه في أمن واستقرار نفسي وحسي، يرزقه الله فيه على يدي نبيه ﷺ بما يشاء، وعلى أيدي أهل الفضل والسعة من أصحابه بما يسدّ خَلّته، لا يسألون شيئاً، ولا يطلبون من أحد رفداً، ولا يتطلعون إلى عطاء، ولكنهم اعتصموا بالله تعالى، وتبتلوا إليه في محاريب الرضا واليقين، يدعونه بالغداة والعشي، يريدون وجهه، فيرزقهم من حيث لا يحتسبون، يخلطهم النبي ﷺ بعيشه، ويقاسمهم ما يأتيه من الهدايا، ويخصُّهم بجميع الصدقات، راضية أنفسهم، طيبة قلوبهم، مشغولين بآخرتهم عن دنيا الناس.

وهذا المسجد الأعظم قد أنشىء ليكون قلعة لاجتماع المجاهدين إذا استنفروا، تعقد فيه ألوية الجهاد والدعوة إلى الله، وتخفق فيه فوق رؤوس القادة الرايات للتوجُّه إلى مواقع الأحداث، وفي ظلها يقف جند الله في نشوة ترقب النصر أو الشهادة.

وهو قد أنشىء ليجد فيه المجتمع المسلم الجديد ركناً في زواياه ليكون مشفى يستشفي فيه جرحى كتائب الجهاد، ليتمكن نبي الله ﷺ من عيادتهم والنظر في أحوالهم والاستطباب لهم ومداواتهم في غير مشقة ولا نصب، تقديراً لفضلهم.

وهو قد أنشىء ليكون مبرداً لبريد الإسلام، منه تصدر الأخبار، ويبرد البريد، وتصدر الرسائل، وفيه تُتلقى الأنباء السياسية سِلْمًا أو حرباً، وفيه تتلقى وتقرأ رسائل البشائر بالنصر، ورسائل طلب المدد، وفيه ينعى المستشهدون في معارك الجهاد ليتأسّى بهم المتأسون وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون.

وهو قد أنشىء ليكون مرقباً للمجتمع المسلم، يتعرف منه على

حركات العدو المريبة ويرقبها، ولا سيما الأعداء الذين معه يساكنونه، ويخالطونه في بلده من شراذم اليهود وزمر المنافقين، ونفايات الوثنية، الذين عَسُوا في الشرك فلم يتركوه، ليحذر المجتمع المسلم عاقبة كيدهم وسوء مكرهم وتدبيرهم، ويأمن مغبة غدرهم وخياناتهم.

هذه المقاصد الضرورية كانت تقتضي تجمعها في مكان واحد عام حياة المجتمع المسلم

وهذه كلها مقاصد ضرورية، قصد إليها رسول الله ﷺ حين جعل أول عمل يقوم به منذ لحظة وصوله إلى دار هجرته ومستقره ومستقر دعوته، حيث تنطلق منها رسالته إلى آفاق الدنيا هادية مصلحة، هو بناء هذا المسجد الأعظم، وقد وقعت شواهدها وأمثلتها على مسمع ومرأى من رسول الله ﷺ، وقد كان كل مشهد منها يحتاج إلى بناء خاص ليكون موئلاً لتحقيق مقصدها، ولكن الحياة إذ ذاك لم تكن لتسمح بتحقيق التوسع في الإنشاء والتعمير، لا من جهة الفراغ الزمني ولا من جهة القدرة المادية، فالزمن بجميع ثوانيه ودقائقه ولحظاته، وأيامه وشهوره وأعوامه كانت تستغرقه الدعوة إلى الله، وهي في أمس الحاجة إليه من كل فرد في المجتمع المسلم الناشىء، وأما القدرة المادية فكانت محدودة جداً بما في أيدي الأنصار من أموال قاسموها إخوانهم المهاجرين وواسوهم بأكثر مما تطيق طبائع البشر عن طيب نفس ورضا منهم، بل آثروهم على أنفسهم، فكان حسب ما كان في أيديهم من مال أن يقوم بهذه المكارم.

هذا إلى ما هو أهمّ من ذلك، وهو وضع مبدأ البساطة المادية وهو مبدأ قصد إليه رسول الله ﷺ في أول ما قصد، ذلك أنه ﷺ أراد أن تقوم حياة المسلمين على عدم الزخرف والفخفخة الجوفاء، والتعمق في المظاهر؛ ليتفرغ المسلمون إلى مهمتهم العظمى في هذه الحياة، وهي مهمة الدعوة لله ونشر رسالة الهدى والنور والخلود، وهداية الضالِّين وإرشاد التائهين، ورد الشاردين إنقاذاً للإنسانية مما هي مرتطمة فيه من ردغ الخبال، وحمأة الرذائل، وشيوع الفساد والظلم.

فهذا المسجد الأعظم كان في إنشائه آية من آيات الله العظمى في بساطة مظهره يوم أن بناه النبي ﷺ وجعله ساحة للعمل في نشر الدعوة إلى

الله، كما جعله مجمعاً لتحقيق مقاصده النبيلة العظيمة التي تنبع من منابع الرسالة الهادية كما ذكرناها في غير إيعاب.

ولقد بلغ الله تعالى بهذا المسجد الأعظم قمة المجد في الحياة الجادة التي انبعثت من رحابه، وهو شامخ الأركان في بساطته وتواضع بنائه، ويسر مدخله ومخرجه، فسارت من ساحته الدعوة إلى الله ترفل إلى أرجاء الأرض وأقطارها وآفاقها، فتحاً وهداية واصلاحاً.

كان إنشاء المسجد الأعظم في المدينة المنورة مصدر إشعاع للهداية ومبعث الفكر الإسلامي في الحياة

فمن هذا المسجد الأعظم في مقاصده وأهدافه الذي واكب بها الفطرة الإنسانية في صفائها، بعيداً عن خداع الحياة وزخارفها وزينتها المترفة وُحِّدت الأمة العربية توحيداً لم تشهده في تاريخها الطويل، فصارت بعد حياة قبلية مشتتة متقاطعة محتربة أمة واحدة مسلمة متآخية، مجتمعة الكلمة، حملت ألوية الهداية، وفتحت بها البلاد والقلوب والعقول، وأنقذت البشرية من عبودية الملوك والأباطرة، وقوضت معالم الشرك، وقضت على الوثنية في جميع شكولها وصورها، ووطدت منائر العدل والتآخي بين الأفراد والجماعات.

ومن هذا المسجد الأعظم انبعث الفكر الإسلامي عقيدة وتعبداً، ونظاماً وهداية إلى أقطار الأرض، علماً ومعرفة لا تعرف التفلسف الأجوف في صفاء عقيدتها، وبساطة تعبداتها، وعدالة أنظمتها الاجتماعية، واستقامة سلوكها الخلقي، وتهذُّب آدابها النفسية، ووضوح تفكيرها العقلي في ظل الحرية المهذبة ووحدة الحقوق والواجبات.

بل من هذا المسجد الأعظم قام بناء الأمة الإسلامية شامخاً متسامياً في حياتها الإيمانية ويقينها الراسخ بحقائق الغيب العليا، التي تنزَّل بها وحي الله تعالى على سائر أنبيائه ورسله، وهي الحقائق التي لا تقبل التفلسف والتعقيد، ولا يداخلها منطق الغرور في العقول الجامحة، وفي عقيدتها التوحيدية الخالصة، التي لا تشوبها شوائب الوثنيات القديمة أو المحدثة، وثنيات البداوة أو الحضارة، وثنيات العلم المنطلق بغير ضوابط من دين أو عقل أو حدود، وثنيات العقول الجامحة التي لاتثنيها عن جموحها حكمات

اللّجم في وثبات الغرور.

وفي حياتها الفكرية النابعة من إيمانها وتوحيدها وتعبدها لله الواحد الأحد، وحياتها السياسية التي يقيمها لها العدل بموازين الاستقامة في الحقوق والواجبات.

وحياتها النظامية (المتطورة) مع أطوار الحياة، والأخذ والإعطاء في تبادل المصالح بين الأفراد والجماعات، والأمم والشعوب.

وحياتها الاجتماعية التي تعرف للفرد حق وجوده عزيزاً كريماً، ولا تغمطه حق حياته الحرة الكريمة، والتي تعرف للمجتمع حق قيامه أمة وشعباً، ولا تغض من حياته موئلاً لأفراده الذين يشكلون صورته الاجتماعية، ويصورون في سلوكهم حقيقته وطموحه وأهدافه، ومقاصده في الحياة.

وحياتها الحضارية التي أقامها هذا المسجد الأعظم على بساطة المظهر، بعيدة عن تعقيدات الترف وزخرف الرغائب الشهوية، وعلى التعمق في المخبر، لتغوص إلى أغوار الحياة وأعماقها تعرفاً على معالمها وأسرارها، مستقلة، لا تتبع ولا تحاكي ولكنها تأخذ، وتعطي أكثر مما تأخذ، لضخامة رصيدها من المعرفة الصادقة والعلم الموجه، وإذا أخذت فإنما تأخذ وهي مرتدية برداء الحرية المهذبة لما في طبيعتها الإيمانية من قوة على هضم الحقائق وتمثيلها إلى ما يوافق استعدادها المحكم.

كل ذلك صنعه هذا المسجد الأعظم لهذه الأمة المختارة لقيادة الإنسانية، فلم تقعد به بساطة بنائه أن جعل من رعاء الشاء سادة ذادة، وقادة أبطالاً، ودعاة إلى الله هداة رادة، ملوكاً على الأسرة، يحكمون بما أنزل الله، وعلماء كانوا أساتذة الدنيا فضلاً وعلماً وعملاً، وخلقاً وسلوكاً واستقامة على الحق.

حتى إذا زخرفت المساجد وخرجت على نمط البساطة الذي قام عليه بناء هذا المسجد الأعظم انهارت من الداخل نفوس المترفين، وبخع الأسف نفوس المستضعفين، وتنافس في شهوات التزخرف الفارغون من عواصم

الإيمان، وتزّيد الجاهلون في تزخرفهم، وتقيَّلوا في عمارة بيوت الله ومساجده عمارة بيوت الشيطان من الكنائس والبيع والصوامع، حتى صارت المساجد في أمصار الإسلام وأوطانه حصوناً سامقة، تصك بقاماتها وجدرها متراكم السحاب، ولكنها خاوية خالية، لا تجد لها عُمّاراً من جند الله وعباده، وحملة العلم وطلابه، ودارسي المعرفة وأهلها، فقد هجر هذه الحصون المسجدية المؤمنون وسكنها طائر البوم، ينعق فيها ناعياً أهلها وعمّارها.

زخرفة المساجد والتغالي في بنائها كان مبدأ انهيار القوة الروحية في بناء شخصية الأمة الإسلامية

ووقف المد الإسلامي، وانحسر سير الدعوة إلى الله، وباء المسلمون بالتخلُّف في مخبرهم، وتحقيق مقاصد إسلامهم الذي ارتضاه الله لهم ديناً، يعتصمون به عن الانحدار في مهاوي الجهالة والاستعباد، وابتعدوا عن الأسوة بنبيهم ﷺ، ومالت رؤوسهم على مناكبهم، وناموا نومة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ﴿قال أنّ يحيي هذه الله بعد موتها، فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾.

فهل آن للمسلمين أن يبعثوا من مرقدهم، ليعلموا أن الترف والتزخرف سُمُّ الحياة القاتل للأمم والشعوب، لعل وعسى، ولكن أنّى؟ ومتى؟ وكيف؟ و﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

مرافق الإنفاق التي ينبغي التنافس في إنشائها

إن الأمة الإسلامية أوتيت في أوطانها من نعم الله وخزائن فضله ومنابع الثراء ما لم يؤت أحد من العالمين، وهي إذا أحسنت القيام على هذه النعم في منابعها وأحسنت استغلالها بالعلم والمعرفة، والخبرة المدبرة، والسياسة الحكيمة والاستقلال في التفكير، وعدم التبعية الموجهة، كان في يدها زمام القيادة التعميرية الموجهة، إنشاء وتأسيساً، وبناء وتعميراً، وإنتاجاً وتثميراً، ولنذكر بعض النماذج من مرافق الخير التي ينبغي أن يتنافس فيها المتنافسون.

المرفق الأول من مرافق التنافس في أعمال الخير والبر

فالمدارس والمعاهد والجامعات العلمية هي أزكى مواطن التنافس في ميادين الإصلاح والتعمير.

ومدن الإسكان لطلاب العلم ورواد المعرفة، وافدين وغير وافدين، وإعداد بيوت للأساتذة والمعلمين من أهل الدرس والبحث في جوانب هذه

المرفق الثاني من مرافق الخير والبر

المدن الإسكانية، بنظام يحفظ هيبة الاحترام الأبوي للأساتذة وأسرهم، مع توافر وسائل التصون والاحتشام التي يأمر بها الدين، وتحرص عليها أشد الحرص آداب الاجتماع ـ أوسع مجالات العمل للقادرين أفراداً وجماعات، محكومين وحكومات.

المرفق الثالث من مرافق الخير

وإنشاء المشافي والوحدات الصحية في حنايا الوطن المسلم، في كل بلد وقرية وحَيّ ومحلة وضاحية ومدينة لنشر الوقاية من الأمراض، وعلاج ما يقع منها، وحماية الأمة من انتشار الأوبئة ـ هي أفسح ميادين الخير والبر والعمل الصالح.

المرفق الرابع من مرافق الخير

وإقامة المكتبات العامة في مدن الإسلام وعواصم أوطانه، وقصبات حواضره وبواديه وقراه، وكل مكان يكون مأهولاً بمن يتأهل للإطلاع والقراءة، على نظام يحبب للناس شيباً وشباباً القراءة والعلم والمعرفة وتغذيتها بالكتب القديمة والحديثة، في كل فن من فنون العلم والمعرفة، حتى يستطيع كل مؤهل للقراءة أن يجد طلبته ويحقق رغبته ـ أعظم ما ينفق في سبيله المال لخير الأمة وإعلاء التفكير في الأمم والشعوب.

وهذه المكتبات العامة في حقيقتها دور ثقافة، ومدارس حرة للشعب، ومعاهد تعليم للعامة، وجامعات شعبية لتعليم الخاصة الذين قامت حواجز الحياة دون إتمامهم مراحل التعليم الرسمي.

وكم من هؤلاء المعوّقين بما ليس في طاقتهم إزاحته من طريقهم، من هو على استعداد فكري وفراغ زمني لينهض بتحصيل ما فاته لو أنه وجد فرصة تسعفه ليعوض ما تسرب من زمنه لأمور خارجة عن إرادته؟.

وكم من هؤلاء المعوّقين من شمَّر ونهض، واتخذ من المكتبات العامة جامعته العلمية، فجد واجتهد حتى فاز وظفر بما ظفر به الذين لم يعوقوا، بل كان رجل أمة، قدم لأمته من الأفكار والعمل ما أسهم في تقدمها العلمي والحضاري؟.

وإنشاء دور الضيافة لإيواء الفقراء والمعوزين وذوي الحاجة من أبناء

السبيل، في نظام يكفل القضاء على مذلّة السؤال، ويرفع من شأن السّؤال، ويزيل من جبين الأمة وصمة التعطل والمتعطلين، ويوجه القادرين على العمل إلى المشاركة في الحركة الجادة والعمل المفيد، ويعين العاجز على تحمل مشاق الحياة ـ من أفضل أعمال البر.

المرفق الخامس من مرافق التنافس في عمل الخير وخلود الذكر

وإقامة دور كفالة اليتامى الذين فقدوا حنان الأبوة بفقدهم من يقوم على إعالتهم وإحسان تربيتهم، ويوجههم توجيهاً صالحاً يعدّهم ليكونوا لبنات قوية في مجتمعهم المسلم ـ أجل ما تنفق في سبيله رغائب الخير والبر.

المرفق السادس

وبناء الملاجىء لإيواء المشرّدين من أبناء الأمة، وتعليمهم ما يعتمدون عليه في حياتهم من عمل بدني أو فكري، وكشف ما عسى أن يكون قد وهبوه من خصائص مخبوءة في طبائعهم لم تتح لها فرصة الظهور، ومن استعداد جُبلوا عليه، يدفع بهم إذا وُجِّه إلى آفاق الحياة الصالحة الخيرة ـ هدف من أهداف الحياة الاجتماعية في تربية الأمم والشعوب، ومقصد من مقاصد البر في تربية الأفراد والجماعات.

المرفق السابع

كل ذلك وغيره مما تتطلبه الحياة الصالحة الجادة، ويجمل فيه البذل، ويحمد في سبيله الإنفاق من أهل الفضل والسَّعة الذين خصهم الله بنعمة الاقتدار المادي والثراء المالي، مما يعود على الأمة بالنفع الجزيل مجالات للتنافس اقتضاء لثواب الله وفضله في الدنيا والآخرة.

أما المساجد فهي مع كونها من أعظم ما تَشَرَّف به حياة المسلم؛ لأنها عنوان إخلاص الإيمان، ورسوخ اليقين، ومتعبدات الإسلام، وموائل الذكر، ومجاميع العلم، ومنازل المعرفة، ومجتمعات الصالحين، ومحافل المتقين، ينطلق من رحابها النداء الأشرف، والدعاء الأكرم، يدعو المؤمنين إلى السمو بأرواحهم، وتطهير أفئدتهم، وتصفية قلوبهم، وتزكية عقولهم بتكبير الله تعالى وحده وإخلاص الدين لوجهه، وإسلام الوجه لجلال قدسه، استشعاراً لنعمة الحرية من التعبد لغيره عز شأنه، تلك الحرية التي أوتيها الإنسان في شرف إنسانيته ـ فقد رسم لها الإسلام في أحكام شرعه نهجاً في إنشائها يحقق أهدافها، ولا يصدّ عمّارها عن المقصود الأعظم من إعظامها

للمسجد المسلم في بنائه هدفان يحققهما منهج البساطة النسبية

وإعلاء شأنها، بعد أن فتح الله على المسلمين أبواب الاقتدار المالي والثراء المادي في إنشاء ما تحتاج إليه الأمة من منشآت كان يقوم بمهمتها المسجد في مطلع حياة الإسلام للضرورة المقتضية لذلك، وقد انتهى أمدها، ولم تعد مما يطلب من المسجد القيام به، بل لا يصلح أن تحمل على المسجد القيام بها.

وبهذا أصبح المسجد مختصاً بأمرين، ينشأ ليقوم بهما، وتؤدّى بهما مهمته العظمى في الإسلام، وهما مرتبطان به أوثق الارتباط، وبين أحدهما والآخر من الوشائج القوية ما بين المقدمات والنتائج، أو ما بين الوسيلة والهدف، أو ما بين الأسباب والمسببات.

ذانك هما: أولاً ـ التعبد لله تعالى بإقامة الصلوات، والذكر، والتسبيح وسائر ما يحقق تقديس التوحيد وإخلاص العبودية لله عز شأنه، وقد نبّه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً﴾[1].

وثانياً ـ البحث العلمي ودراسته، وتعليم رواد المسجد من طلاب العلم والمقيمين في أروقته ومساكنه علوم الإسلام الشرعية ووسائلها من فنون اللغة والأدب، وعلوم الكون.

وهذان الهدفان هما اللذان ينبغي أن يضعهما نصب عينيه من يريد أن يبني لله تعالى مسجداً، يطلب به رضاءه وثوابه، ونفع أمته ومجتمعه المسلم.

على الحكومات المسلمة أن تكون قدوة للأفراد في بناء المساجد

وعلى الحكومات المسلمة أن تكون قدوة للأفراد والجماعات في ذلك، بل عليها أن تلزم الأفراد والجماعات بالتزام ذلك، فلا تترك أحداً يخرج بالمسجد في بنائه عن الصورة التي تحقق هذين الغرضين بوسائلهما المعينة على تحققهما، وذلك بالتزام نهج البساطة المادية الذي يحقق الغاية التعبدية والدراسة العلمية المقصودة من إنشاء المساجد وبنائها في المواطن التي تخلو منها أو التي تضيق مساجدها بروادها من المتعبدين والدارسين، وفي البساطة المادية، إلى جانب توفير المال لتقام به مؤسسات أخرى تحتاج إليها الأمة، حماية لرواد المساجد ونزلائها من شواغل القلب، وفتنة العقول وإفساد روح

(١) سورة الجن آية (١٨).

العبادة والإقبال على الدراسة العلمية بما استحدث فيها من تزخرف ورسومات وتزيين، وتعالٍ في نضد الحجارة المنحوتة المزركشة، ونصب العمد الرخامية الضخمة ذات التكاليف الباهظة المجلوبة من خارج بلاد الإسلام، ونقوش الفسيفساء، وكتابة الآيات أو الأشعار بماء الذهب والفضة؛ مضاهاة لأبنية الكنائس والبيع والصوامع من متعبدات ذوي القلوب الفارغة من الإيمان بالله تعالى، العامرة بالوثنيات ومراسمها، من كل ما خرج بالمساجد عن أهدافها والمقصود منها، بهذا الإسراف السفيه، والتبذير الأحمق الذي يخالطه الرياء والتباهي والتفاخر.

إن المساجد لله تعالى، أمر الإسلام بإقامتها ورغَّب في بنائها ليعبد فيها الله وحده، ويذكر فيها اسمه بألسنة طاهرة وقلوب مخلصة، وأرواح مشرقة بنور العبودية لا تشغلها الزخارف والزينات عن الخشوع والضراعة لله بين يديه في أشرف وأفضل مواقف العبودية، رضيها الإسلام مواطن لدراسة علومه ومعارفه، وهذا هو أعظم أهدافها أو هو هدفها الأعظم الذي يجب أن يحرص عليه المسلمون في بناء مساجدهم أينما كانوا في أوطانهم من أرض الله.

ولكن المسلمين منذ أن فتحت عليهم أبواب الدنيا وزخارفها ومتعها، وكثر في أيديهم المال، وعمهم الثراء بما فتحوه من بلاد وما غنموه من مال، وما ثمّروه من طارف وتليد، أفراداً وحكومات ضلّوا عن سواء السبيل في حياتهم، وامتطوا صهوة الترف والتبذير، وأخذ من يوسم بالخير منهم يتنافس في التعالي ببناء المساجد، وزخرفتها، والمبالغة فيما ينفق عليها مبالغة فاحشة، جعلت من هذه المساجد قلاعاً خربة، لا تجد من يدخلها للتعبد فيها بالصلاة والذكر، بل لدراسة العلم، حتى انصرف عنها عمارها من عباد الله المؤمنين، فخوت على عروشها، تنعى من بناها وأسرف فيما أنفق فيها، من ﴿الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾.

وها هي ذي الشواهد والأمثلة قائمة، فَمْن ينظر إلى مساجد الفاطميين والمماليك في مصر يعرف صدق ما قلنا، ففي ميدان قلعة محمد علي تجد

شواهد للتغالي والتبذير انتهت إلى الخراب والإهمال

المساجد متراصة على الجوانب آخذاً بعضها بجدران بعض، في ارتفاعات شاهقة وحجارة ضخمة كحجارة قبور الفراعنة وأهراماتهم وآثار وثنياتهم، لا يكاد يدخلها أحد للصلاة والعبادة، فضلاً عن دراسة العلم، ومن يدخلها فإنما يدخلها مكدوداً متعباً لينام فيها ساعة من نهار. وفي حي الجمالية وباب الفتوح حيث مسجد الحاكم الذي أصبح مأوى لكل ما ينفر منه الطبع السليم، وإلى جوانبه مساجد لإخوانه من أمراء الفاطميين والمماليك تنادي على أهلها بالحماقة، وليس في أرض الإسلام بلد يخلو من هذا الطيش الأحمق في التعالي والتفاخر في بناء المساجد، والبعد بها عن نهج الإسلام في بساطة الفطرة وتحقيق هدف التعبد ودراسة العلوم والمعارف.

ومن أعجب العجب أن هذه المساجد استولت عليها مصلحة هي أبعد ما تكون عن الدين ومقاصده، تلك هي مصلحة الآثار التي جعلت من هذه المساجد آثاراً للفرجة والعبث، وتنزه الوافدين من الفرنجة، بحجة معرفة الفن الإسلامي في أبنية مساجده، وهذه المصلحة إنما تُعنى أشد العناية بحفظ الصبغة الأثرية لهذه المساجد، ولا يعنيها قط أن تحقق غرضاً من أغراض إنشائها، وإن ربك لبالمرصاد.

ولا يفهمَّن أحد من كلامنا أننا نقصد أن نجعل من بناء المساجد صورة نرجع بها إلى نوع من السذاجة والبساطة المادية تحط من قدرها، وتنزل بها عن مكانتها التي أذن الله بها من الإعظام والتشريف، ولكننا نقصد إلى الإهابة بالمسلمين في شتى أوطانهم أن يعودوا إلى فطرة الإسلام في بناء المساجد، فيجعلوا منها بيوتاً للعبادة، ودراسة العلوم والمعارف لا صياصيّ وقلاعاً أشبه بحصون المحاربين القدامى من اليهود وغيرهم، ونقصد أن ندعوهم حكومات وأفراداً وجماعات إلى الاقتصاد في نفقات التغالي والتعالي والمبالغة المبذرة في بناء المساجد، لتبقى لها قدسيتها الروحية التي لا تضاهى، ولا تحاكي أبنية الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولتبقى لها في النفوس مكانتها التعبدية الإسلامية التي تحفظ لها وشائجها التاريخية بأول وأعظم مسجد أسسه وبناه سيد المرسلين في دار هجرته ومستقره، ولقد بكى أعلياء الأئمة من علماء الأمة يوم غُيِّر المسجد النبوي عن وضعه الأشرف إلى هذا

التعالي والتزخرف الذي شغل العباد عن روح العبادة من الخشوع والضراعة لله الواحد القهار.

ولا يعوزنا ضرب المثل وذكر الشاهد على البساطة المادية النِّسبية التي تحقق الهدف من بناء المساجد، دون أن تمس قدرها من التعظيم والتشريف والتكريم، ولنا في مسجد عمرو بن العاص فاتح مصر المثل الأعلى وهو أعظم مساجد الإسلام ـ عدا الحرمين الشريفين ـ في تحقيق هدف المسجد الإسلامي، وهو أول مسجد بني في مصر، وقد مرّت عليه قرون وهو في بساطته المادية النِّسْبية.

نماذج للبساطة المادية النسبية باقية على الدهر

وها هوذا يربض في فسطاط مصر ممثلاً لما ينبغي أن تكون عليه أبنية المساجد في الإسلام، وهي في أرفع صورها التعبدية والدراسية، فهذا المسجد المبارك منذ أنشىء كان وما يزال متعبد المؤمنين الصادقين، ومدرسة الدارسين من أعلام الأئمة وعلماء الأمة من المحدِّثين والمفسرين والفقهاء والمتكلمين، واللغويين، والأدباء والمؤرخين، ولو لم يكن له من المفاخر إلا حلقة الإمام الشافعي، وحلقات تلاميذ مالك بن أنس من بني عبد الحكم وأضرا بهم لكفاه في سجل الفخر والتكريم، وهو على كل حال نهج في بناء مساجد الإسلام في الحواضر والعواصم الباقية على الدهر، تشهد بأن بساطة البناء النسبية لا تغمط عظمة الهدف، ولا تغض من مقاصد الإسلام في مساجده الجامعة.

ولن يبعد الأزهر العامر ـ ردّ الله غربته على الإسلام ـ عن التمثيل الجامع الشامل لنهج البناء المسجدي، الذي جمع منذ أنشىء بين التعبد ودراسة العلم والبحث عن المعرفة، ولم تغيره الأطوار التي مرّت عليه عن بساطته النسبية باعتباره مسجد حاضرة الإسلام وعاصمة العلم والمعرفة وقيادة الفكر الإسلامي العربي.

وها هوذا رابض بأروقته وزواياه، وخزائن كتبه العلمية، التي شملت كل فن عقلي أو نقلي في علوم الشريعة عقيدة وتعبداً، ونظاماً في المعاملات بين الأفراد والجماعات ـ ومساكن طلابه الوافدين إليه من كل صَوْب

وحدب، وليس في أوطان الإسلام وطن إلاّ وله في الأزهر العامر رُواق ومكتبة أو مكتبات على اختلاف فرق الإسلام ومذاهبه الفقهية والعقدية، وليس هناك عالم يفد على الأزهر إلاّ وله فيه (دولاب) أو خزانة يحفظ فيها متاعه وكتبه، وسائر ما يحتاج إليه من مطالب الحياة، ولطلابه في أروقتهم و(حاراتهم) خزائن كخزائن معلِّميهم من المدرسين الأساتذة، يحفظون فيها متاعهم وكتبهم ووسائل تهيئة أطعمتهم، وهو بهذا الوضع المدرسي المعهدي الجامعي يملي على الدنيا علوم الإسلام ومعارفه، وفنون العرب اللغوية والأدبية، وأفكار المفكرين وحصائل عقول الباحثين واجتهاد المجتهدين.

لم تمنعه بساطة بنائه النسبية الخالية عن التعقيد والتغالي والتعالي في جملتها التي جمعت له بين المسجدية الجامعة في مظهرها التعبدي، وبين الجامعية الدراسية والمعهدية الباحثة، وبين إسكان طلابه والراغبين من علمائه المتبتلين في محاريب البحث العلمي، المنقطعين للمعرفة ـ من أن يكون منبره في سموه حساً ومعنى أقرب منابر مساجد الإسلام إلى السماء، وأن مسجديته أجل مسجدية في الإسلام، وجامعيته الدراسية أخطر وأفخم جامعات الإسلام ومدارسه ومعاهده.

وقد كان وضعه هذا نموذجاً يحتذى في المسجدية الدراسية، فأسست على غراره في صور مصغرة من بنائه ونهجه مدارس مسجدية للمذاهب الفقهية المعروفة في أوطان الإسلام، ومدارس لفن الحديث النبوي، وعلوم السنة، استكملت أهدافها المسجدية المدرسية، فخصصت فيها أمكنة للصلاة والعبادة، وأمكنة للدراسة والبحث، وأمكنة أخرى لسكنى طلبتها وما تتطلبه حياتهم في إقامتهم الدائمة من خزائن لحفظ أمتعتهم وكتبهم ووسائل معيشتهم، وفيها مكتبات عامة للطلاب والأساتذة والمدرسين، تزخر بالمراجع النادرة المخطوطة والمطبوعة التي يقوم على حراستها من العبث وصونها من الضياع وحفظه أمناء، ولتمكين الباحثين من مراجعة ما يطلبون من قضايا العلم ومسائل البحث والدراسة.

وهذه المدارس المسجدية منثورة حول الأزهر العامر ـ وهو بينها كالأب

الرشيد تتمثل فيه القدوة الصالحة والأسوة القويمة الراشدة ـ وكلها تنادي بأن بساطة المظهر القائمة عليها في بنائها ونظامها لا تغض من عظمة المخبر المطلوبة منها، وإن عدم المبالغة في الإسراف البنائي لا يعوق الوصول إلى الهدف، ولا سيما إذا كان هذا الهدف تعبدياً وبحثاً دراسياً لقضايا العلم والمعرفة، وإنهاض العقل ليقوم بمسؤوليته الفكرية.

وقد انتشر هذا النوع من المساجد المدرسية، والمدارس المسجدية في صعيد مصر حيث الأسر العريقة في نسب العلم والمعرفة، كبيت القشيريين الذي أنجب ابن دقيق العيد وأضرابه من أعلام العلماء في مدارس قوص وغيرها.

فالبساطة البنائية التي ندعو إليها في بناء المساجد المدرسية ـ وكل مساجد الإسلام يجب أن تكون مدرسية في عملها ـ أمر نسبي يتمشّى مع سمة العصر وصفاء الفطرة ويحقق الهدف من المسجدية المدرسية، بروح حريصة على الوسطية التي هي عنوان الأمة الإسلامية، يقول الله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾[1] والوسطية في بناء المساجد المدرسية هي التي مدح الله بها عباده المتقين في قوله تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قَواماً﴾ مع عدم التفرقة بين الإعداد للعبادة والإعداد للبحث والدراسة، لأن العبادة والعلم توأمان في ميلاد الفكر الإسلامي، وهما صنوان لا يفترقان في حياة الإسلام.

ما يجب أن يتوافر للمسجد المدرسي المسلم لضمان تحقيق أهدافه ومقاصده

والذي يجب أن نخصه بالتنبيه إليـه في هذا الاستطراد الذي ساقتنا إليه ضرورة الحديث عن بناء المساجد ومناهج تأسيسها وإقامتها في أوطان الإسلام وبلاده تأسياً بأعظم مسجد في الإسلام بناه رسول الله ﷺ، وأبى أن يغير بساطة بنائه إذ عرض عليه الأنصار المال لهذا التغيير، وقال: «ما بي رغبة عن أخي موسى، عريش كعريش موسى، والأمر أعجل من ذلك»

إن أول دعائم الإصلاح في تحقيق مهمة المسجد في الإسلام وهي

---

(١) سورة البقرة آية (١٤٣).

العبادة المتلقّاة عن الشارع، والدراسة العلمية التي تجعل من العبادة صورة منيرة قائمة على الهدى والرشاد ـ بعد وجود قائم على خدمة المسجد، حفيظ على طهارته، أمين على أمتعته ـ تخصيص عالم تقي فقيه الدين، فقيه النفس، يرقب الله في عمله، لكل مسجد، يؤم المؤمنين في صلواتهم ويجمِّع بهم، ويعلمهم أحكام الشريعة من مصدريها الكتاب والسنة، وفقه الأئمة المتقدمين الذين استنبطوا هذه الأحكام قبل حدوث التفريعات الفرضية، التي قد تنتهي الحياة ولا تقع فيها، ومع ذلك يحاول أصحابها أن يستخرجوا لها أحكاماً في تعسف وعصبية مذهبية أذهبتا نضارة الفقه الإسلامي الأصيل الذي نبتت بذوره في رياض الاجتهاد الصالح المستقيم على أيدي فقهاء الأئمة من سلف الأمة، وأطالت الكتب الفقهية وضخمت حجمها، وعقَّدت أسلوبها، ونفَّرت النفوس من النظر فيها والرجوع إليها.

وتخصيصُ عالم بأوصافه الفاضلة لكل مسجد يقتضي دراسة تخصصية في الفقه الإسلامي وأصوله، وما يتصل بذلك من علوم القرآن والسنة، وبيان مقاصدهما حتى يكون إمام المسجد المدرسي أو إمام المدرسة المسجدية مستكملاً لشرائط الإمامة في إحاطته بأحكام العبادة والبحث العلمي، غير واقف عند اجتهاد أحد أئمة الاجتهاد، وغير واقف عند مجرد الروايات الحديثية من كتب الحديث، بل يجب أن يكون علياً بصحة ما يروى في الكتب ولو كان منسوباً لأعلاها وأصحها سنداً وليكون مستكملاً لشرائط البحث العلمي، وهذا يتطلب دراسة تخصصية في مؤسسة تنشأ لتخريج علماء وأئمة المساجد، ولا يتحقق ذلك إلا إذا فُرِّغ قلب هذا الإمام العالم من مشاغل العيش الكريم له ولأسرته، وضمان تعليم أولاده على نفقة الدولة، التي يجب أن تتكفل بجميع ما تستلزمه حياتهم من رعاية وعلاج وتوفير الكتب وأدوات الدراسة في جميع مراحل التعليم، وإعدادهم للمواطنة الصالحة المنجبة النافعة.

وحينئذ فلابد لهذا الإمام من مسكن يأويه مع أسرته، مستكملاً منافع السكنى الكريمة المريحة، على أن يكون هذا المسكن متصلاً بالمسجد اتصالاً كريماً لا يكشف عورة ولا يخدش حياء.

ومن البداهة أن يكون لهذا الإمام راتب مالي مجز في حياته الخاصة وراء ما تحققه له الدولة، يغني نفسه عن التطلع إلى الاشتغال بأمر من أمور الكسب، ليكون وقته كله ملكاً للأمة في العبادة والتعليم والبحث.

ويجب أن تشتمل وثيقة عمله إماماً ومعلماً بأي مسجد من مساجد المسلمين المدرسية على نص يمنعه من الاشتغال بأي عمل غير عمله في المسجد إماماً ومعلماً.

وقد لا يغني ذلك في بعض البيئات والمدن الواسعة التي يكثر فيها رواد المساجد المدرسية عن تناوب عدد من العلماء، يقل ويكثر بحسب حاجة المجتمع الذي يعيش في هذه البيئة إلى فنون العلم وألوان المعرفة.

ولا بد لكل مسجد مدرسي من وجود مكتبة عامة، تتوافر فيها مراجع البحث والدراسة وتتوافر لها وسائل القراءة المريحة، والدراسة المتثبتة والبحث المتعمق، ويكون لهذه المكتبة أمين حفيظ، يقظ، مثقف، خبير بما فيها من الكتب والمراجع لإسعاف طلاب البحث ورواد الدراسة بما يطلبون من هذه المراجع التي يجب أن تكون المراجعة فيها في قاعة خاصة بالقراءة والمطالعة، لا تخرج عن حيزها حفاظاً عليها من العبث والضياع.

وقد يتطلب الأمر في بعض الأحوال أن يكون في هذه المكتبة المسجدية آلة كاتبة، وكاتب خبير بالعمل عليها لنقل ما يحتاج إليه الباحث من نص في مرجع من هذه المراجع التي يجب أن يحظر حظراً باتاً إخراج كتبها إلى خارج المكتبة.

فالمسجد الإسلامي اليوم يجب أن يقوم على دعائم البساطة النسبية في البناء، ونعني بالبساطة النسبية أن يكون تفاوت بناء المساجد حسب بيئاتها ومجتمعاتها، فمسجد المدينة الكبيرة بما فيها من مظاهر العمران وكثافة السكان لا يكون في بنائه كمسجد القرية المحدودة في مظاهرها الحضارية وعدد سكانها، وقد ضربنا المثل بمسجد عمرو بن العاص بالنسبة للعاصمة المصرية، وذكرنا مساجد صعيد مصر المدرسية بالنسبة للمدن المحدودة في

مظاهر حضارتها وعدد سكانها.

وإذا كان الهدف الأول لإنشاء المسجد هو التعبد، فدراسة العلم، وقيام حلقات للبحث والتفقه في دين الله هو الهدف الثاني لإقامة المسجد المسلم، بل إن الدراسة العلمية والتعبد بالذكر والصلاة يجب أن يمتزجا امتزاجاً يوحِّد بينهما في كونهما هدفاً واحداً لإنشاء المسجد المسلم الذي يجب أن يكون متوافر المرافق الضرورية ليريح روّاده الذين يتخولونه بالوفود إليه آناً بعد آن، كما يجب أن يكون قيّمه من أعلام العلماء المنقطعين للدراسة والبحث والإفادة، وأن تكون مكتبته عامرة بالكتب من كل الفنون العلمية شرعية وأدبية، مما أوضحناه في كلامنا السابق.

منهج البساطة في بناء المسجد وتوافر ضرورياته يجعله متعبداً ومدرسة ومعهداً للعلم وجامعة للتخصص الحر

هذا هو المنهج الذي يجب أن يقوم عليه تأسيس المساجد المسلمة المدرسية وبناؤها، ليكون دار ثقافة وعلم للوافدين عليه والمقيمين فيه للدراسة والبحث، وهذا المنهج هو الذي يحقق تربية الأمة وحمايتها من خداع المذاهب المخربة للعقيدة والخلق والسلوك.

ولو أن المسلمين التزموا بالبساطة النسبية في بناء مساجدهم المدرسية، وتركوا تنافس الرياء في زخرفتها والتغالي في تزيينها والتعالي في بنائها لتوافر لديهم من المال ما يحقق كل ما يطلب في المسجد المسلم، وكل ما يطلب منه في المشاركة في تربية الأمة تربية واعية يسودها الإيمان الحقيقي والعلم المستنير والمعرفة المضيئة.

وعلى الحكومات المسلمة أن تكون قدوة صالحة لشعوبها أفراداً وجماعات فيما تنشئه من المساجد لتكون مدارس للشعب يتلقى فيها دروس التربية المهذبة فالسلوك المستقيم، وعلى الحكومات المسلمة أن تفرض سلطانها الشرعي في منع الإسراف والتبذير في إنشاء مساجد الأفراد والجماعات، وأن تحول ما يزيد على ضرورة البناء إلى مرافق المسجد وما يتطلبه للقيام بمهمته.

الدعامة الثانية
التي يستند عليها بناء المجتمع المسلم
هي المؤاخاة بين عناصر هذا المجتمع
على الحب في الله

أثر المسجد في تربية الإيمان وحراسته عن تسللات الإلحاد والانحراف

كان البدء في توجيه حياة المجتمع المسلم ببناء المسجد الأعظم في دار الهجرة وعاصمة الإسلام ومنطلق الدعوة إلى الله تعالى وشيجةً لربط سير هذا المجتمع، وهو يحمل لواء الدعوة إلى توحيد الله بالملأ الأعلى، ليكون هذا المجتمع المسلم مفتوح القلب على أنوار السماء، وهي تتنزل عليه آيات بينات من الهدى والرحمة، والعدالة والسماحة، والإخاء والمحبة، متسامياً بعقيدته وتعبداته، وأخلاقه وسلوكه عن الإخلاد إلى الأرض كما يخلد عبيد الوثنية المادية إليها، يلهثون في أقطارها وراء سراب ترابي إذا جاؤوه لم يجدوه شيئاً.

فالمسجد الذي يحرص المجتمع المسلم على مقوِّماته الروحية حفاظاً على قدسية مسجديته آية من آيات الله تعالى، الذي يقيمها الإسلام منارة ليهتدي بها السائرون في مفاوز الحياة، وهي محفوفة بأخطار التعاريج والالتواءات التي يتيه في تعاريجها الذين تتخطَّفهم شياطين الوثنيات المادية، وذئاب الإلحاد، فتلقي بهم في مهاوي الضلال والدمار، إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وتخلب لبك مظاهرهم، ولكنهم في مخبرهم يحيون في قلق بئيس، ويعيشون في اضطراب مخيف، ويصرعون هلكى في فجاج الفتن والطمع الشره الذي يأكل فلا يشبع، ويجمع فلا يقنع.

أما المؤمن الذي أنس بإيمانه إلى قدسية المسجد، واطمأن قلبه إلى رَوْحه ورَيْحانه وهديه ومعالم آياته، يعيش فيه ساعة يدخل في رحابه لينفض عن نفسه أثقال الحياة ومتاعب الكد والسعي في مناكب الأرض تطلباً لرزق حلال إن كثر في يديه قال به هكذا وهكذا، ينفقه في مصالح مجتمعه وأمته،

يواسي إخوانه، ويحسن إلى جيرانه، ويريش المحتاج الذي مسّه ضرٌّ الفاقة، ويبني ويؤسس مرافق للخير والبر، لا يُغلّ يده عن إحسان أو إصلاح، ولا يبسطها كل البسط في سفَه وتبذير.

وإن قل رزقه في يديه صبر صبراً جميلاً، يحفُّه الرضا عن الله، وعن الحياة، لا يسخط ولا يضجر ولا ييأس، ولكنه يستقبل غده بأمل فسيح، ورجاء في رحمة الله التي تشدّه إلى العمل، فيعمل ويتحرك، وهو قرير العين راضي النفس، لا يحسد ولا يحقد، ولا يتمنى على الله الأماني، وهو مرهق بوطأة الكسل البليد، لأن إيمانه ومكانة مسجده في نفسه، وعرفانه حق الله عليه، وحق نفسه ومجتمعه الذي يذكره به مسجده تتداركه بألطاف الأمل الفسيح، وكلما رانت عليه هاجسات الخواطر السوداء هبت عليه من نفحات مسجده نسمات الإيمان واليقين تذكره بفرج الله ورحمته، ويهتف به هاتف الذكرى، يقول الله تعالى: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعدما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد﴾[1] ويوقظه من غفلته منادياً: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾[2].

فالمسجد في الإسلام قوة روحانية تبعث في النفس المؤمنة أشعة الرضى، ومغالبة الملمّات، التي تنقشع بأضوائها حنادس اليأس، وتفتح أمام المؤمن أبواب الحياة، يدخلها بإيمانه من أي باب يهديه إلى مفاتيح غيبه معرفته بمنازل غيث الرجاء في رحمة الله وفضله وإحسانه.

والمسجد في الإسلام محفل المؤمنين، ومجمع المتقين، والتقوى وقاية من الانزلاق في منحدرات القنوط ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾[3].
والمسجد في الإسلام دار كل مؤمن، ومأوى كل متعبِّد، يتساوى فيه جميع المسلمين من كل جنس ولون، لا يتفاوتون فيه بأمر من أمور الدنيا ومظاهرها، فلا يُقيم فقرٌ فقيراً من مكانه الذي أدركه قبل غيره، ولا يُجْلس

(١) سورة الشورى آية (٢٨).
(٢) سورة الروم آية (٥٠).
(٣) سورة الحجر آية (٥٦).

ثراءً ثرياً في مكان جلس فيه غيره من عامة المسلمين أو خاصتهم، فالمسلمون جميعاً في المسجد سواسية على اختلاف أجناسهم وألسنتهم وأوطانهم وألوانهم، ولا يتميز في المسجد حاكم عن رعية محكوم، ولا يختص فيه أحد بشيء إلا ما خصه به الإسلام في شرائعه وأحكامه.

المساواة بين المؤمنين هي منبع المؤاخاة

هذه المساواة الحقيقية التي يملكها كل مسلم بحكم الإسلام في كل مسجد من مساجد الإسلام، وهي روح الأخوة الإيمانية التي يعقدها الإيمان بين كافة المؤمنين، ومن ثَمّ جاء الإخبار عن هذه الأخوة الإيمانية في الكتاب الكريم دستور الإسلام الأعظم باعتبارها أمراً واقعاً في الوجود الإسلامي أينما كان إشعاراً بأن الإيمان هو صاحب عقدها بين أفراد الجامعة الإيمانية، فقال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[1].

وإذا كانت هذه المساواة هي منبع الأخوة الإيمانية، وكان المسجد المسلم هو منبع تلك المساواة ـ كان من الطبيعي أن تكون جميع صور المؤاخاة وألوانها وضروبها بين أفراد المؤمنين وجماعاتهم نابعة من المسجد وتربيته لأفراد الأمة باعتبارها أثراً من آثاره، وعملاً من أعماله في صياغة وحدة الأمة، وحدة تقوم على دعائم العقيدة التوحيدية وتعبداتها ونظام معاملاتها وسلوكها الاجتماعي، وأخلاقها، وأوضاعُ الحياة في كل شأن من شؤون الأمة السياسية والمعاشية، محكومة بعمل المسجد باعتباره المدرسة التوجيهية في حاضر الأمة ومستقبلها.

فالمؤاخاة تتنوع إلى نوعين من الأخوّة بين أفراد المجتمع المسلم.

المؤاخاة الإيمانية ليس لها ميثاق سوى قوة الإيمان

النوع الأول ـ المؤاخاة الإيمانية، وهذا النوع من المؤاخاة يعقده الإيمان بين أفراد المتآخين، ذلك الإيمان الذي يملأ القلب والعقل والروح، ويوقظ الفطرة أصيلة ويصقلها من صدأ الشرك والوثنية، ويطوِّع الجوارح لتكون طوع ما وقر في القلب من قوة الإيمان، ويسند هذه الأخوّة الإيمانية ما ثبت في العقل من إدراكات مستنيرة المنبع والمصب قبل أن يحجبها رواسب الجهالة

---

(١) سورة الحجرات آية (١٠).

الوثنية، كما يدعمها ما ارتسم في مرآة الفطرة الإنسانية الأصيلة من صور الخير والهدى، كانت مغيبة وراء أسداف الصدأ الذي ران على الفطرة من طول ما عانت من آثار الجاهلية الجاهلة، ثم كشف عنها الإيمان بعد تسليط مصابيح إشراقاته عليها، فانجابت عنها حنادس الشرك الغبيّ، وظلمات الوثنية البليدة، فأشرقت هذه الفطرة أصيلة بنور ربها، وتبلجت في إشراقها زاهرة منيرة.

هذه الأخوة الإيمانية لا تحتاج في وجودها إلى مواثيق تعقدها أو عهود تضبطها؛ لأن وجودها مع الإيمان أو بالإيمان لازم لا يتخلف، فهي منه كالنتيجة من المقدمات الصادقة، أو كالمسبب من سببه المباشر، أو كالمعلول من علته المؤثرة.

فأواصرها معقودة في نفس كل مؤمن مع كل أخ مؤمن، مع انبثاق نور الإيمان في القلب وظهور آثاره في مدارك العقل وتنوّره في إشراقات الروح، ومن ثَمَّ هي موجودة بين طلائع الإيمان بأكمل صورها في كل أمة مسلمة، لكنها قد تتفاوت قوة في آثارها تبعاً لقوة الإيمان، فكل مؤمن في طلائع الإيمان هو أخو كل مؤمن منهم، يترافقون ويتواسون بهذه الأخوة الإيمانية، وبها يتحاملون أثقال الحياة ويتعاطفون بالمودة والتراحم، ويتقاسمون الآمال والآلام، ويتشاركون في السراء والضراء، يؤدي كل أخ عن أخيه، ويتبادلون المحبة في الله ولله، وليس أحدهم أحظى بما فيه يده من أخيه، بل إن هذه الأخوة الإيمانية تسامت في إشراقاتها الواقعية إلى الإيثار الذي أثنى به الله تعالى على من تحلّى بحليته مرتبطاً بوشيجة الإيمان.

فهؤلاء المتآخون بالإيمان إذا فرحوا لغبطة دخلت عليهم أو على أحدهم فرحوا كلهم على سواء، وإذا ابتأسوا لمساءة نالت بعضهم ابتأسوا جميعاً، متعاطفين متراحمين، فهم في أخوتهم الإيمانية كأعضاء الجسد الواحد، إذا تألم منه عضو تألم لألمه كل عضو في أعضاء الجسم.

وهذا النوع من الأخوة الإيمانية هو الذي كان بين المهاجرين بعضهم مع بعض في مكة قبل الهجرة، ولم يثبت بطريق صحيح أن هذا النوع من

الأخوة كان له ميثاق ملزم عقده رسول الله ﷺ بين رجل معين من المهاجرين وآخر منهم مسمى لأخوته.

وكان النبي ﷺ بمقتضى شدة حرصه على حوافظ الإيمان بين المؤمنين وبمقتضى ما جبل عليه من محبتهم جميعاً يسره أن يرى مظاهر الأخوة الإيمانية الفطرية مشرقةً قويةً بين أصحابه وخلصائه من طلائع الإيمان، وكان ﷺ يؤكد برعايته هذه المظاهر الأخوية بإظهار رغبته في تقوية أواصرها، وتنمية وشائجها، وتوثيق عواصمها بينهم بالمحبة والترافق والتواسي، وتبادل المودة في ذرائع العيش وتقلبات الحياة.

وما رواه الترمذي من طريق حكيم بن جبير، عن جُمَيع بن عمير التيمي، عن ابن عمر قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، فجاء عليّ تدمع عيناه، فقال: يا رسول، آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخ بيني وبين أحد؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» قال صاحب تحفة الأحوذي في شرحه: فيه حكيم بن جبير، وهو ضعيف، ورمي بالتشيع، ثم قال: وأخرجه - أي هذا الحديث أحمد في المناقب عن عمر بن عبدالله، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ: آخى بين الناس وترك علياً حتى بقي آخرهم، لا يرى له أخاً، فقال: يا رسول الله، آخيت بين الناس وتركتني؟ قال النبي ﷺ: «ولم تراني تركتك؟ تركتك لنفسي، أنت أخي، وأنا أخوك، فإن ذكرك أحد - أي يعيب عليك عدم مؤاخاة النبي ﷺ: بينك وبين أحد من أصحابه - فقل أنا عبدالله وأخو رسوله» أي أخوّة خاصة، هي أخوة الكفالة والتربية والرعاية الأبوية، التي تفوق في مظاهرها وآثارها الأخوة العامة، فلا أحتاج مع هذه الأخوة لأشرف وأفضل أخ إلى أخوة أحد من الناس بعدها، ولهذا جاء في حديث أحمد قوله: لا يدّعيها بعدي إلا كذاب.

المؤاخاة بين النبي ﷺ وعليّ - إن صح حديثها - مؤاخاة خاصة

وهذه الأخوة الخاصة سبقت الأخوة الإيمانية، لأنها كانت في أساسها من باب الرعاية الأبوية التي أضفاها النبي ﷺ على ربيبه علي رضي الله عنه منذ أن اختاره الله له، فضّمه إلى نفسه الكريمة، واحتضنه في كفالته وتربيته والقيام بشؤونه وهو طفل جعله مع أولاده رعاية وكفالة وتربية ومحبة.

فلما أسلم علي رضي الله عنه طليعة للسابقين الأولين أراد رسول الله ﷺ أن يشيِّد بناء هذه الرعاية الخاصة، فأعلن على سمع الدنيا أن هذه الرعاية التربوية والكفالة الأبوية قد صارت في الإسلام ـ بعد أن شبَّ علي رضي الله عنه عن الطوق، ومشى إلى الرجولية بخطى البطولة الإسلامية ـ أخوة في الإيمان مثل أخوة النبي ﷺ لجميع أصحابه وخلصائه.

بيد أن أخوته ﷺ لعلي تمتاز على غيرها من أخوة الإيمان العامة التي كانت بين أفراد المهاجرين قبل الهجرة بما كان لعلي رضي الله عنه من منزلة خاصة عند النبي ﷺ، اقتضتها وشائج الأسرة التي كان عليّ أحد أفرادها، ولهذا خلّفه ﷺ بعده في الهجرة ليرد ودائع الناس التي كانت عند النبي ﷺ إلى أهلها، وأنامه على فراشه، وأمره أن يتسجَّى ببرده ليرى أعداؤه المتربصون به أنه ﷺ نائم في فراشه، وهذه منزلة لم تكن لأحد من المهاجرين.

ويؤكد ذلك قول أبي عمر بن عبد البر في (الاستيعاب): ولم يتخلف عليّ عن مشهد شهده رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة إلّا تبوك، فإنه خلفه رسول الله ﷺ على المدينة وعلى عياله بعده في غزوة تبوك وقال له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» فهذا كله يدل على أخوة خاصة أرفع درجات من الأخوة الإيمانية العامة، أغنت علياً عن الدخول في المؤاخاة العامة التي كانت بين المهاجرين بعضهم مع بعض، والتي كان النبي ﷺ ينمِّيها بكل وسيلة حتى ظن بعض الناس أنه ﷺ عقد مؤاخاة خاصة بين كل مهاجر ومهاجر آخر، كالذي ذهب إليه أبو عمر بن عبد البر ومن تابعه فإنه قال: إن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض وآخى بين المهاجرين والأنصار، وقال في كل واحدة من المؤاختين لعلي رضي الله عنه: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» وآخى بينه وبين نفسه.

ولا ندري ما الحكمة في أن يكرر النبي ﷺ قوله لعلي رضي الله عنه: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» مرة في عقد أخوة المهاجرين بعضهم مع بعض، ومرة في عقد الأخوة بين المهاجرين والأنصار، فجعل من كل

مهاجري أخاً لأنصاري، وعليّ رضي الله عنه يعلم منزلته الخاصة الرفيعة عند النبي ﷺ، فلا يحتاج لتأكيد ذلك بتكرار هذا القول من النبي ﷺ.

وقال أبو عمر بن عبد البر: وقد روينا من وجوه عن علي رضي الله عنه أنه كان يقول: أنا عبدالله وأخو رسوله لا يقولها أحد غيري إلا كذاب.

وهذا بظاهره يتعارض مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «ليتني رأيت إخواننا»؟ فقال له أصحابه: ألسنا إخوانك؟ قال ﷺ: «أنتم أصحابي، وإخواني الذين يأتون بعدي، يؤمنون بي ولم يروني» فهذا الحديث صريح في إثبات أخوة كل مؤمن لرسول الله ﷺ، وأخوة رسول الله ﷺ لكل مؤمن ممن جاء بعده وآمن به ولم يره، فكيف يكون من يقول: أنا أخو رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ أخي كذاباً؟ إلا إذا أريد بالأخوة الثابتة لعلي رضي الله عنه أخوة خاصة ـ هي المستفادة من قول النبي ﷺ لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» فهذه منزلة رفيعة في الأخوة، لا يدّعيها أحد غير علي رضي الله عنه إلا كان كاذباً في ادّعائه.

والمؤاخاة بين حمزة ابن عبد المطلب وزيد ابن حارثة من قبيل المؤاخاة الخاصة

ويجري هذا المجرى في المؤاخاة الخاصة ما جاء في بعض الروايات من المؤاخاة بين سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وبين الحب زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، فهي من باب الرعاية الخاصة التي كان يضفيها حمزة رضي الله عنه من مظاهر صفوة الود والمحبة والتواسي والارتفاق على زيد رضي الله عنه، لما كان يرى من شدة حب رسول الله ﷺ له، وإيثاره بأنواع المكارم والإكرام، ولما كان عليه زيد من رفيع الشمائل، وجميل المحامد، وكريم الفضائل، ودماثة الأخلاق، والتفاني في خدمة رسول الله ﷺ، وإيثاره البقاء في ظله عبداً على أبيه وأمه وإخوته وعشيرته حراً، مما عقد بينه وبين حمزة ـ وهما من أحب الناس وآثرهم عند رسول الله ﷺ ـ أواصر أخوة أغزر أثراً في صفو المودّة من مجرد أخوة الإيمان، فهي أخوّة إفضال وتكرّم، وتكريم متفضِّل، وهي أثر من آثار فتوّة حمزة وبطولته، وللفتوّة والبطولة مآثر لا تعرفها الحياة إلا لأهل الفتوّة وأبطال الرجال، وقد وجد هذا الأثر في نفس زيد رضي الله عنه تجاوباً توثّقت به

عرى المودة والإخلاص فكانت أخوة تجمع معالم الإخاء ومآثره.

وقد بلغت هذه المؤاخاة بين حمزة وزيد رضي الله عنهما مبلغاً رفيعاً، حتى أوصى حمزة لزيد في غزوة أحد إن نزل به قدر الله، وكان حمزة في هذه الوصية كأنه قد قرأ في لوح الغيب أنه ملاقٍ ربه في أشرف موقف لإعلاء كلمة الله، فرأى أن أحب الناس إليه ـ بعد رسول الله ﷺ ـ وأوفاهم بأخوته، وآثرهم عنده هو الحِبُّ الذي نشأ في حضن النبوة، وتربّى في حَجرها، وتأدب بآدابها، الكريم على الله وعلى رسوله ﷺ زيد بن حارثة، فأوصى إليه، مؤثراً له على قراباته وإخوانه المؤمنين، والوصية تشمل أول ما تشمل الوُلْد إذا كانوا صغاراً، يحوجهم اليتم إلى مزيد من الرعاية والعطف وإحسان التربية الرحيمة والود المواسي، والظاهر أن مؤاخاة حمزة وزيد الخاصة كانت في المؤاخاة الإيمانية بين المهاجرين بمكة، قال صاحب (عيون الأثر): وذكر سنيد عن داود أن زيد بن حارثة وأسيد بن الحضير أخوان وهو حسن إذ هما أنصاري ومهاجري.

وكان من أعظم ذلك أنه لما قضى رسول الله ﷺ أعمال عمرة القضية وأعدّ للرحيل من مكة، وفاء بوعده لأهلها أن يخرج عنهم بعد ثلاثة أيام، ولم يقبلوا تألفه لهم، إذ كان قد تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية ـ خالة عبدالله ابن عباس وأشقائه ـ فدعاهم إلى أن يحضروا طعام وليمته عليها، ويؤاكلوه ويؤاكلهم تألفاً لهم، فأبى عليهم فجور العناد أن يقبلوا هذه الدعوة الكريمة.

قصة أمامة بنت حمزة وكفالتها

وخرج ﷺ، وخرج معه أصحابه الذين رافقوه في أداء هذه العمرة ـ وفيهم عليّ بن أبي طالب ومعه زوجه فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين في هودجها وفيهم زيد بن حارثة، وفيهم جعفر بن أبي طالب ـ وخلّف رسول الله ﷺ مولاه أبا رافع على ميمونة ليخرج بها إذا هدأ الناس، فأقام أبو رافع حتى أمسى فخرج بها ومن معها، فأتاه بها بسَرِف، فبنى بها رسول الله ﷺ، ومن غرائب موافقات الأقدار أنها رضي الله عنها ماتت بسرف وفيها دفنت بعد مضي قرابة نصف قرن، فقد قيل أنها توفيت سنة ست وستين، وفي تصاريف الأقدار آيات لله تعالى لا يعلم أسرارها وخفاياها إلا هو عز شأنه ـ

تبعته أمامة ابنة حمزة، وهي تنادي، يا عم، يا عم، فتناولها عليّ رضي الله عنه فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك، فحملتها فاطمة معها، حتى إذا دنوا من المدينة، وقاربت الرحال أن تلقي عصى التِسْيار اختصم علي، وزيد، وجعفر رضي الله عنهم، في أيهم هو أولى بأمامة بنت حمزة يكون وليها وراعيها وكافلها، وتكون عنده في أهله وولده، فكلَّم زيد فيها رسول الله ﷺ، وهو وصي حمزة ووديده في الأخوة الإيمانية الخاصة، فقال علي رضي الله عنه: أنا أخذتها وأخرجتها من بين أظهر المشركين، وهي ابنة عمي، وعندي بنت رسول الله ﷺ وهي أحق بها، وقال جعفر رضي الله عنه: هي ابنة عمي، وخالتها تحتي، يعني زوجه أسماء بنت عميس، وهي أخت سلمى بنت عميس، زوج حمزة، وأم ابنته أمامة، وقال زيد رضي الله عنه: ابنة أخي، يعني ما كان بينه وبين حمزة من أخوة الود والمحبة التي عززتها وصية حمزة له لما حضر القتال يوم أحد، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم» فلم تزل أمامة عند جعفر رضي الله عنهما حتى قتل في غزوة مؤتة، رضي الله عنه وقد أوصى بها إلى علي، فمكثت عنده، حتى بلغت فعرضها على النبي ﷺ ليتزوجها، فقال ﷺ: «إنها ابنة أخي من الرضاع» أي لا تحل لي، لأن حمزة رضي الله عنه أخو رسول الله ﷺ من الرضاع، أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب، ثم زوّجها رسول الله ﷺ من سلمة ابن أم سلمة أم المؤمنين وقال ﷺ حين زوج أمامة من سلمة: «هل جزيت سلمة؟» وذلك أن سلمة هو الذي زوج أمه، أم سلمة من رسول الله ﷺ، وكان أكبر من أخيه عمر بن أبي سلمة.

وإنما أرخينا العنان للقلم قليلاً في هذه القصة لما فيها من اللطائف والفوائد النبوية، ولما فيها من ذكر المؤاخاة بين حمزة وزيد رضي الله عنهما منسوبة إلى أن النبي ﷺ قد آخى بينهما حين آخى بين المهاجرين، فهي من دلائل وقوع المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض، وقد ذكرها بهذا التصوير الحاكم في كتاب (الإكليل) وأبو سعيد النيسابوري في كتابه (شرف المصطفى) غير أن سند الحديث لم يعرف بالصحة على وجه رجيح، فهو ليس من قواطع النصوص التي يرد بها على من أنكر وقوع المؤاخاة بين المهاجرين

بعضهم مع بعض، وفي طليعة هؤلاء المنكرين الإمام ابن تيمية، قال الزرقاني في شرح المواهب: وأنكر ابن تيمية هذه المؤاخاة بين المهاجرين، خصوصاً بين المصطفى وعلي، وزعم أن ذلك من الأكاذيب، وأنه لم يواخ بين مهاجري ومهاجري، قال: لأنها ـ أي المؤاخاة ـ شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً، ولتتألف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاته لأحد، ولا لمؤاخاة المهاجرين بعضهم لبعض.

إنكار ابن تيمية المؤاخاة بمكة بين المهاجرين خاصة ورد ابن حجر عليه ومناقشة هذا الرد

قال الزرقاني: وقد ردّه الحافظ ـ أي رد كلام ابن تيمية ـ بأنه ردّ للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، فآخى بين الأعلى والأدنى، ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر حكمة مؤاخاته لعلي لأنه هو الذي كان يقوم به من الصبا قبل البعثة، واستمر ذلك بعدها، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد لأن زيداً مولاهم، فقد ثبتت أخوتهما وهما من المهاجرين.

وقد ذكروا في هذه المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض أن النبي ﷺ آخى بين أبي بكر وعمر وبين طلحة والزبير، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، كما رواه الحاكم.

وهذا يردّ كلام ابن حجر في رده على ابن تيمية، أو على الأقل يوهنه ويضعفه، لأن ابن حجر يقول في رده: لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض، بالمال والعشيرة فآخى النبي ﷺ بين الأعلى والأدنى.

والمذكور على أنه نموذج للأشخاص الذين آخى بينهم النبي ﷺ أنه آخى بين أبي بكر وعمر، وطلحة والزبير، وعثمان وعبد الرحمن بن عوف، فأين الأعلى وأين الأدنى في هؤلاء المذكورين، وكلهم أعلون مالاً وعشيرة؟

وفي قول ابن حجر رداً لكلام ابن تيمية: بأنه ردّ للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة ضَعْف، لأنه يقال له وهو الحافظ للنصوص: أين النص الذي رُدّ بالقياس؟ إن كان معوّله على ما رواه الحاكم وأبو سعيد النيسابوري وابن

إسحاق فهو معوّل واهٍ لا يستند إلى رواية صحيحة، ولو كانت هناك رواية صحيحة لذكرها ابن حجر في ردِّه، فلما لم يذكر شيئاً تلوح عليه دلائل الصحة المسلَّمة علم أنه لا رواية صحيحة يعتمد عليها في إثبات المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض قبل الهجرة، وابن حجر شغوف جداً بتكثير الروايات فيما يعثر عليه منها، والنص الذي يمتنع رده بالقياس والمعقول هو النص القاطع في دلالته على موضوعه.

وأما قول ابن حجر: إن كلام ابن تيمية إغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، فيقال في رده: فأين القوة بالمال والعشيرة في مؤاخاة أبي بكر وعمر، وطلحة والزبير، وعثمان وعبد الرحمن وكلهم أقوياء بالمال والعشيرة؟

على أن هذه المؤاخاة التي يقول بها ابن حجر قد تبدلت أشخاصُها في مؤاخاة المدينة بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، وهي المؤاخاة المجمع على أن النبي ﷺ أمر بها وعقدها بين المهاجرين والأنصار، فجعل لكل مهاجري أخاً من الأنصار، فكان أبو بكر الصديق أخاً لخارجة بن زيد الأنصاري الخزرجي، وآخى بين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الأنصاري، وآخى بين الزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقْش الأنصاري، وآخى بين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر الأنصاري النجاري، وآخى بين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك الأنصاري.

فهل نُسخت المؤاخاة الأولى التي كانت بين المهاجرين بعضهم مع بعض - عند من يقول بها - بهذه المؤاخاة الثانية التي كانت بين كل مهاجري وأنصاري؟ وهذا ما لم نعلمه قولاً لأحد من العلماء.

أما المؤاخاة بين حمزة وزيد - التي قد يتشبث بها من يقول: بالأعلى والأدنى والقوي والضعيف بالمال والعشيرة - فهي من قبيل المؤاخاة الخاصة، كما بيّناها من قبل. وزيد بن حارثة كان من أعلا الأعلياء، وأقوى الأقوياء، لأنه مولى رسول الله ﷺ، فهو هاشمي بالموالاة، ويزيد على ذلك أنه حِبّ رسول الله ﷺ الذي جعل له الله القيام بأمره كله، فالمؤاخاة بينه وبين حمزة

ابن عبد المطلب ليست من باب الأعلى والأدنى، ولا من باب الأقوى والأضعف، لأن علو نسب حمزة وقومه قد أخذ منها زيد رضي الله عنه بنصيب وافر، لأنه مولاهم ومولى القوم منهم.

متابعة ابن القيم وابن كثير شيخهما ابن تيمية في إنكار المؤاخاة بين المهاجرين خاصة

وقد تقيَّل ابن تيمية في إنكاره المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض تلميذه ابن القيم، فقال في (الهدي): وقيل: إنه ﷺ آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض، واتخذ علياً أخاً لنفسه، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار، وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بينهم، ولو آخى ﷺ بين المهاجرين كان أحق الناس بأخوته أحب الخلق إليه، ورفيقه في الهجرة، وأنيسه في الغار، وأفضل الصحابة وأكرمهم عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد قال ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أفضل» وفي لفظ «ولكن أخي وصاحبي».

وهذه الأخوة في الإسلام وإن كانت عامة، كما قال ﷺ: «وددت أن قد رأينا إخواننا؟» قالوا: ألسنا إخوانك؟ قال: «أنتم أصحابي، وإخواني قوم يأتون من بعدي، يؤمنون بي ولم يروني» فللصدِّيق من هذه الأخوة أعلى مراتبها كما له من الصحبة أعلى مراتبها، فالصحابة لهم الأخوة ومزية الصحبة، ولأتباعه بعدهم الأخوة دون الصحبة. إهـ كلام ابن القيم.

وكذلك جرى في شوط متابعة ابن تيمية في إنكاره المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض تلميذه الثاني الحافظ أبو الفداء ابن كثير، فقال في (البداية والنهاية): أما مؤاخاة النبي ﷺ وعليّ فإن من العلماء من ينكر ذلك، ويمنع صحته، ومستنده في ذلك أن هذه المؤاخاة إنما شرعت لأجل ارتفاق بعضهم مع بعض، وليتألف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبي ﷺ لأحد منهم، ولا مهاجري آخر كما ذكر من مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة، اللَّهم إلا أن يكون النبي ﷺ لم يجعل مصلحة عليّ إلى غيره، فإنه كان ممن ينفق عليه رسول الله ﷺ من صغره في حياة أبيه أبي طالب، وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاهم زيد بن حارثة، فآخاه بهذا الاعتبار. إهـ كلام ابن كثير.

وهذا الذي قاله ابن كثير في بيان وجه المؤاخاة ـ إذا صحت سنداً ـ بين سيدنا رسول الله ﷺ وعلي بن ابي طالب، وبين حمزة وزيد بن حارثة هو من باب الرعاية الخاصة ـ كما ذكرناه سابقاً ـ وليس هو من باب المؤاخاة الملزمة التي كانت بين المهاجرين والأنصار بالمدينة بعد الهجرة.

بيد أن ابن القيم قد ناقض نفسه، فأثبت في كتابه (الهدي) نفسه في الكلام على عمرة القضية عند الحديث في أخذ ابنة حمزة من مكة، واختصام عليّ وزيد وجعفر في أيهِّم يكون وليها وكافلها، وتكوَّن عنده ما نفاه في كتابه (الهدي) نفسه عند الحديث عن المؤاخاة، الذي أنكر فيه أشد الإنكار المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض، فقال مشيّداً لإثبات المؤاخاة بين المهاجرين بمكة: وقول زيد: (ابنة أخي) يريد الإخاء الذي عقده رسول الله ﷺ بينه وبين حمزة لما واخى ﷺ بين المهاجرين، فإنه واخى بين أصحابه مرتين، فواخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض قبل الهجرة على الحق والمواساة، فآخى بين أبي بكر وعمر، وبين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وعبدالله بن مسعود، وبين عبيدة ابن الحارث وبلال، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله.

تناقض ابن القيم إذْ أثبت ما نفاه من مؤاخاة المهاجرين خاصة

وفي المرة الثانية آخى بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك بعد مقدمه المدينة. إهـ.

وهذا تناقض عجيب من ابن القيم، فهو ينفي أمراً من أمور تاريخ الإسلام وأحداثه، ويدعم نفيه وإنكاره بأدلة يسوقها وهو مقتنع بها، ثم هو يثبت هذا الأمر، ويشيّد إثباته بأدلة يذكرها وهو مقتنع بها، ولله في خلقه آيات تدل على أن الكمال المطلق له وحده، والإنسان هو الإنسان.

وقد عرض الإمام عز الدين بن عبد السلام ـ كما ذكر ذلك الزرقاني ـ لقضية المؤاخاة بما يشعر بأنه لا مانع من وقوع المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض في مكة قبل الهجرة، ومن وقوعها بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، والمؤاخاة الأولى هي المتنازع في وقوعها من النبي ﷺ بين العلماء،

وهي التي أنكرها ابن تيمية وزعم أنها من الأكاذيب، وأما المؤاخاة الثانية وهي التي عقدها رسول الله ﷺ بالمدينة بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار فهي موضع إجماع بين العلماء.

رأي العز بن عبد السلام في إمكان وقوع المؤاخاة مرتين، مرة بين المهاجرين بعضهم مع بعض قبل الهجرة ومرة بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة

ويؤخذ من كلام العز بن عبد السلام أن المؤاخاة في حالتيها وإن اقتضاها أصل الإسلام إلا أنه لما كان المقصود بها المعاضدة والمناصرة بين كل مسلم ومسلم فهي أخوة ناشئة عن الإسلام، أكدها أمر النبي ﷺ أمْر نَدب فكانت بهذا الأمر الندبي في أعلا مراتب الأخوة المتناصرة الناشئة بالإسلام، فأمر النبي ﷺ بالأخوة في قوله: و«تآخوا، أخوين، أخوين» ليس مُنشأ لشيء لم يكن موجوداً بين المسلمين، وإنما هو مؤكد لأمر أنشأه الإسلام، وهذا التأكيد تضمَّن أن أخوة الالتزام التي تضمّنها أمر النبي ﷺ فيه إلى جانب الالتزام مواعدة بالثواب والخير وترتب الآثار، فتكون الأخوة التي أنشأها الإسلام وأكدتها المواعدة أعلى مرتبة من مراتب الأخوة التي لم تكن معها مواعدة، لأنها تضمنت طلباً بالمواعدة لم يكن موجوداً بأصل الإسلام.

رأي العز بن عبد السلام في إمكان وقوع المؤاخاة بصورتيها

بيد أن العز بن عبد السلام رحمه الله لم يعرِّج على نص نقلي يدلُّ على أن النبي ﷺ عقد مؤاخاة بين المسلمين بمكة قبل الهجرة، وأنه آخى بين نفسه الزكية وبين عليّ رضي الله عنه، وهذه المؤاخاة هي موضع النزاع بين العلماء وهي التي أنكرها ابن تيمية ومن تبعه في هذا الإنكار.

وكلام عز الدين بن عبد السلام إنما ينصب على إمكان توجيه الأمر بالمؤاخاة أو عقد ميثاقها بين المسلمين قبل الهجرة وبعدها، غير أن كلامه ـ رحمه الله ـ خرج في أسلوب لا يخلو من غموض وإغراب أشبه بالتفلسف الخطابي، وفيه ما لا يقنع ولا يسلم له.

قال رحمه الله: الأخوة حقيقية ومجازية، فالحقيقية المشابهة، يقال هذا أخو هذا، لأنه شابهه في خروجه من البطن الذي خرج منه، ومن الظهر أيضاً، وآثارها المعاضدة والمناصرة، فتستعمل في هذه الآثار من باب التعبير بالسبب عن المسبب، ومنه قوله تعالى: «إنما المؤمنون أخوة» هو خبر معناه

الأمر أي لينصر بعضهم بعضاً، وقوله ﷺ: «المؤمن أخو المؤمن» خبر أيضاً بمعنى الأمر.

ولما انقسمت الحقيقية إلى أعلا المراتب كالشقيق، وإلى ما دون ذلك، كالأخ للأب أو للأم كانت المجازية كذلك، فالأخوة الناشئة عن الإسلام هي المرتبة الدنيا من المجازية، ثم إنه لما كملت بالأخوة التي سنّها رسول الله ﷺ بمؤاخاته بين جماعة من أصحابه، ومعناها أنه ـ ﷺ ـ أقر أمر ندب أن يعين كل واحد أخاه على المعروف، ويعاضده وينصره، فصار المسلمان في هذه الأخوة الثانية في أعلا مراتب الأخوة المجازية كالشقيقين في الحقيقية.

فإن قيل: هذه الأخوة مستفادة من أصل الإسلام، فإنه يقتضي المعاونة على كل أمر؟ جوابه أن الأمر الثاني مؤكد لا منشىء لأمر آخر، لأنه لا يستوي مَنْ وعدته بالمعروف من المسلمين ومن لم تعده، فإن الموعود قد وجد في حقه سببان، الإسلام والمواعدة، وهذه الأخوة هي التزام ومواعدة، ولا شك أن طلب الشارع للوفاء بالخير الموعود به أعلى رتبة من طلب الخير الذي لم يعد به، فقد تحقق طلب لم يكن ثابتاً بأصل الإسلام. اهـ كلام العز.

ومن أغرب وأعجب ما جاء في مؤاخاة المهاجرين بعضهم لبعض ما ذكره ابن إسحق في مغازيه وسيرته ـ وهي من المراجع لأحداث السيرة النبوية، بل هي من أهم المصادر للكاتبين في وقائع السيرة الشريفة، قديماً أو حديثاً ـ وذلك إذ يقول: وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال ـ أي رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنا، ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين» ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: «هذا أخي» فكان رسول الله ﷺ، سيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين الذي ليس له خطير، ولا نظير من العباد، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله ﷺ وعمّ رسول الله ﷺ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين، ولذلك أوصى إليه حمزة يوم أحد حين حضره القتال، إن حدث به

منهج ابن إسحاق في المؤاخاة وظاهرة التشيع في هذا المنهج

حادث الموت وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين، الطيار في الجنة، ومعاذ بن جبل أخو بني سَلِمة أخوين.

قال عبد الملك بن هشام في تهذيبه المغازي الإسحاقية: وكان جعفر ابن أبي طالب غائباً يومئذ في الحبشة.

وهذه غمزة من ابن هشام لابن إسحق، فكأنه يقول له: أين جعفر وقت هذه المؤاخاة إنه بعيد الدار في غيبة لا يدري مداها، ففيم كانت هذه المؤاخاة بين رجلين أحدهما هاشمي مهاجري، غائب غيبة بعيدة مجهولة العودة والآخر أنصاري، وحكمة مشروعية المؤاخاة من الترافق والتعاضد والمؤاساة على الحق والمعروف والموادة في العشرة لا تتحق بين غائب لا يعرف متى يؤوب، وبين حاضر يحبس على مؤاخاة ربما لا تتحقق.

وجعفر بن أبي طالب لم يَعُدْ من الحبشة إلا بعد فتح خيبر، في السنة السابعة من الهجرة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بدأت في السنة الأولى من الهجرة وهم يبنون المسجد الأعظم، وقد قدم جعفر على رسول الله ﷺ ولواء النصر بفتح خيبر يخفق على رؤوس المسلمين، وكان فرح رسول الله ﷺ بقدوم جعفر عليه عظيماً، فقد استقبله والتزمه وقبَّل بين عينيه وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسرّ، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟».

ولا يحتاج ما في كلام ابن إسحق من تنفس شيعي متدسس، تفوح من ألفاظه رائحته إلى كبير عناء في الكشف عنه، وهو مما أبِن به، وإن حاول ابن إسحاق إخفاءه بما أضفاه على عباراته من ألفاظ لها دوي الحق وجهارته وقوته، وبما تطوّع به في غير حاجة إليه من إظهار التبرئة لنفسه أن يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل. وليس فيما ذكره مسنداً إلى رسول الله ﷺ، ولم ينفرد به من قوله ﷺ لأصحابه بعد الهجرة: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين» ما يشعر ولو تلميحاً بتهمة تقتضي التبرئة منها، ولعله قصد به التمهيد والتوطئة إلى قوله: فأخذ بيد علي، وقال: «هذا أخي».

وقد وهّن ابن حجر في تقريبه كلام ابن إسحاق، ولم تخدعه تبرئته

لنفسه، فقال: وابن إسحاق متَّهم بالتشيّع وهو مدلِّس، ولم يذكر لكلامه سنداً، أي فلا اعتداد به لقوة ضعفه.

وهذا الذي زعمه ابن إسحاق في المؤاخاة مصدّراً بمؤاخاة رسول الله ﷺ لعليّ رضي الله عنه، وبمؤاخاة حمزة بن عبد المطلب لزيد بن حارثة إنما كان في مكة قبل الهجرة ـ عند من يقول بمؤاخاة المهاجرين بعضهم لبعض ـ وهي التي أنكرها ابن تيمية في ردِّه على ابن المطهِّر الرافضي الكذّاب، وقال عنها ابن تيمية: إنها من الأكاذيب.

بيد أن عبارة ابن إسحق بيّنة في أن هذه المؤاخاة بين رسول الله ﷺ وعليّ رضي الله عنه، وبين حمزة وزيد بن حارثة إنما وقعت بالمدينة بعد الهجرة كما قيدها بذلك ابن حجر في الفتح عند سوقه لكلام ابن إسحق.

ولا وجه لهذه المؤاخاة بين مهاجري ومهاجري بعد الهجرة بالمدينة، ولا تظهر لها حكمة تقتضيها، ولا تنطبق عليها حكمة مشروعية المؤاخاة.

ورسول الله ﷺ وهو سيّد المرسلين، وإمام المتَّقين، ورسول رب العالمين، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد أخ لجميع المؤمنين، سواء منهم من تميز بشرف الصحبة مع الإخاء الإيماني أم من لم يكن له فضل الصحبة، ولكن كان له الإخاء الإيماني الذي يعم جميع المؤمنين على مدى الأزمان والأجيال، ممن قال فيهم رسول الله ﷺ: «وددنا لو رأينا إخواننا» فقال له أصحابه: أو لسنا إخوانك؟ قال: «أنتم أصحابي، وإخواني الذين يأتون بعدي، يؤمنون بي ولم يروني».

وقفة مع ابن إسحاق في مناقشة منهجه في المؤاخاة وبيان ما فيه من ضعف

وابن إسحاق يعمد في إخفاء تشيّعه إلى أسلوب عجيب، فهو يهمل صور المؤاخاة التي صحَّ سندها صحة لا سبيل إلى الطعن فيها، ويذكر صوراً مشتبهة بألفاظ لها رنين، وأوصاف لا يردها أحد عن موصوفها، ولكنها تخفي بين طياتها ما يرمي إليه المتشيِّعون، فنراه يعمد إلى سيد الخلق فيذكره ﷺ في صدر عبارته التي افتتح بها حديث المؤاخاة بنعوت هو ﷺ أهلها وصاحبها وأحق بها، بل هو ﷺ أهل لما هو أخطر وأعظم منها؛ تمهيداً وتوطئة لمؤاخاته

علياً، وعلي رضي الله عنه في شرفه وسابقته وسامق فضله أهل لهذه المؤاخاة التي كانت له مع أكرم البشر ﷺ قبل أن يبعث إلى الناس نبياً ورسولاً، واستمرت في عظمتها محفوفة بحنان الأبوة، وعواطف التربية حتى جاء الإسلام فتسامت بالإيمان والحب والفداء والإخلاص، ولكنها كانت وبقيت أخوة خاصة، فعليّ رضي الله عنه كان منذ طفوليته محبواً من رسول الله ﷺ بما هو فوق أخوة الإيمان والمعاضدة والمناصرة، لأنه نشأ في حَجْر رسول الله ﷺ مع أولاده في بيته، ينفق عليه ويتعهده بالتربية وغرس أكرم المكارم في نفسه حتى نشأ في الإسلام وحيداً في فضله وشرفه، لا ضريب له في شمائله.

ثم يعمد ابن إسحق إلى سيد الشهداء، فتى الفتيان، أسد الله وأسد رسوله، وأنضر أغصان دوحة عبد المطلب بن هاشم وأشجع بني عبد مناف، عم رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب، ويذكر إخاءه لزيد بن حارثة حِبّ رسول الله ﷺ ومولاه وخاصته، وزيد في فضله وشرفه واختصاصه برسول الله ﷺ، وشدة محبته له أهل لإخاء حمزة رضي الله عنهما، ولكن هذه الأخوة بينهما كانت أخوة خاصّة، تقصد إلى الرعاية وحسن المعاشرة، كما ذكرناه سابقاً، وأوضحنا آثارها، ولم تكن من قبيل الأخوة التي عقدها رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ليترافقوا بينهم ويتعاضدوا ويتناصروا.

ثم وثب ابن إسحاق إلى ذكر المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار دون تمهيد أو توطئة؛ بعد ذكر المؤاخاة بين سيد الخلق محمد ﷺ وعليّ رضي الله عنه، وبين حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وبين جعفر بن أبي طالب، وهو في غيبته البعيدة المدى، المجهولة الأوبة، ومعاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي، فذكر المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وذكر كل مهاجري كان أخاً لأنصاري.

وكأن ابن إسحق أجدب فكره وعقم علمه، ولم يجد فيهما شواهد ومثلاً للمؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض غير ما ذكره من مؤاخاة

رسول الله ﷺ علياً، ومؤاخاة حمزة زيداً، وقد بيّنا بما لا يدع مجالاً للشك أن رعاية النبي ﷺ لعليّ رضي الله عنه، وحدبه عليه كان من قبيل رعاية التربية وحدب الكفالة، وإخلاص المودّة التي غمره بها ﷺ منذ آواه إلى كنفه، وجعله مع أولاده في بيته، ينفق عليه كما ينفق عليهم، وهو في مَيْعة الطفولية حتى مَنّ الله عليه بالإسلام، وشرفه بالسبق في مضمار الإيمان برسالة الخلود التي جاء بها محمد ﷺ ومشى في مدارجها حتى بلغ مدرج الرجولية، فكان صنديدها، وبطل الجهاد لإعلاء كلمتها.

وكان رضي الله عنه بحكم ما أضفاه عليه رسول الله ﷺ من حب أخوي، ورعاية أبوية، وتقدير لسوابقه ومواقفه البطولية أخص الناس به فيما ليس لغيره مجال فيه، من أمور تخص رسول الله ﷺ في حياته الخاصة وحياة أسرته، فكانت أخوته للنبي ﷺ أخوة خاصة، نبتت جذورها مع مدارج التربية الأبوية والرعاية الكافلة، والمحبة الوارفة.

وبيّنا أن الأخوة التي كانت بين أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وحِبّه كانت من قبيل المودة التي تكون بين الصديقين، والرعاية التي تكون بين الودودين إذا مزج الصفاء الروحي بين روحَيْهما، فكانا في وفاء الرعاية والمعاضدة كأنهما نفس واحدة في جسدين.

وبيّنا أن المؤاخاة المزعومة بين جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين، الطيار في الجنة، وهو في غيبته التي طال أمدها ومعاذ بن جبل الأنصاري مؤاخاة لا محصَّل لها، فهي إن كانت فكأنها لم تكن، لأن جعفراً رضي الله عنه عاد من الحبشة مع أصحابه بعد فتح خيبر سنة سبع من الهجرة، واستشهد سنة ثمان من الهجرة في غزوة مؤتة، فبين عودته واستشهاده بضعة شهور، وعاش معاذ رضي الله عنه بعد جعفر إلى سنة عشر من الهجرة، وتوفي بالطاعون في الشام، وكان يوم توفي في ريعان الشباب وميْعة الفتوّة، إذ لم يتجاوز سنه الرابعة والثلاثين.

ومما يوهّن قول ابن إسحاق في مؤاخاة جعفر ومعاذ رضي الله عنهما أن

الواقدي ـ ولعله أرسخ قدماً في السير والمغازي من ابن إسحاق ـ ينفيها نفياً باتاً، فابن عبد البر يقول في (الاستيعاب): وآخى رسول الله ﷺ بين معاذ ابن جبل وعبدالله بن مسعود، ثم قال ابن عبد البر: قال الواقدي: هذا ما لا اختلاف فيه عندنا، ثم حكى ابن عبد البر قول ابن إسحق فقال: وقال ابن إسحق: آخى رسول الله ﷺ بين معاذ بن جبل وبين جعفر بن أبي طالب.

نفي الواقدي المؤاخاة بين جعفر ومعاذ ابن جبل

وقال صاحب «العيون»: وأنكر الواقدي هذه المؤاخاة لغيبة جعفر بالحبشة، وعند سنيد أن المؤاخاة كانت بين ابن مسعود ومعاذ بن جبل.

وكان ابن إسحق في قفزته إلى الحديث عن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار حفيظاً على إثارة ما بدأ به حديث المؤاخاة من رهج التشيع، فذكر أول ما ذكر في هذه المؤاخاة أبا بكر الصدِّيق، وخارجة بن زيد، رضي الله عنهما، وأراد أن يعرّف بالصدِّيق، فقال: وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابن أبي قحافة وخارجة بن زيد، أخوين.

وتعريف الصديق بعد ذكره باسمه، وأخص خصائصه في الإسلام، والتَّرضي عنه بأنه (ابن أبي قحافة) تعريف يدعو إلى التعجب، لأن ابن إسحق عرّف أبا بكر بذكر خصيصته العليا التي لا يشاركه فيها أحد من المؤمنين إلا بضرب من الإلحاق والمجاز، فقال وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ ابن أبي قحافة ـ وخارجة بن زيد أخوين، فما قيمة قوله في التعريف (ابن أبي قحافة)؟ وهو وإن كان زيادة في التشريف فإنه لا فائدة له في التعريف، فهو من نافلة القول، لأن الصدِّيقية التي عرّف بها ابن إسحق أبا بكر بن أبي قحافة تطوي تحت جناحيها جميع خصائص أبي بكر في فضله وتقدمه على الأولين والآخرين من أتباع الأنبياء والمرسلين في رسوخ اليقين، لأنه رضي الله عنه كان بهذه الصدِّيقية سيد المؤمنين، والرفيق الحميم في الهجرة التي فرق الله بها بين الحق والباطل، وهو بهذه الصدِّيقية الأنيس في الغار الذي جعل نفسه فداء لرسول الله ﷺ، فما هذا التعريف الأجوف لقمة الفضل الأعرف الأشرف؟

وصنيع ابن إسحق في سياقته حديث المؤاخاة ـ وهي من أهم وأعظم أحداث بناء المجتمع المسلم في مستقره الجديد منساباً إلى مستقبله البعيد ـ يحمل في حناياه وهج تنفّسه برِئة شيعية، والإنسان في عقله وإسلامه يمكن أن يكون محباً غير متعصب، وإلا فهل ضاق علم ابن إسحاق بأحداث السيرة النبوية ـ وهو حامل لوائها، وإمام رواياتها ـ أن يجد في محصوله الروائي الضخم شواهد ومثلاً للمؤاخاة بين المهاجرين بعضهم لبعض، ما دام هو من القائلين بها المشيدين لبنيانها ـ غير ما ذكر من مؤاخاة رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه، ومؤاخاة حمزة بن عبد المطلب زيد بن حارثة رضي الله عنهما، كما وجد غيرهُ من القائلين بهذه المؤاخاة؟

تهافت كلام ابن إسحاق في الحديث عن مؤاخاة المهاجرين خاصة وعدم جدواه

وقد ذكرنا ما ذكره ابن عبد البر من المُثُل والشواهد لهذه المؤاخاة مؤيداً لما ذكره بحديث الحاكم والترمذي عن عبدالله بن عمر من طريق جُمَيع ابن عمير التيمي، وبيّنا ما فيه في مكانه.

ثم سكتت حماسة ابن إسحاق ليخلص من مضيق مؤاخاة المهاجرين بعضهم مع بعض التي لم يسعفه فكره بغير ما سنح له، فذهب إلى الحديث عن مؤاخاة المهاجرين مع الأنصار، وذكر منها مؤاخاة جعفر بن أبي طالب معاذ بن جبل، وقد كشفنا عنها وبيّنا ما فيها من ضعف يشكك في وقوعها.

ثم أخذ ابن إسحاق يذكر بعض أسماء المتآخين في مؤاخاة المهاجرين مع الأنصار، وذكر منهم مَنْ قيل إنه آخى بينهم في مؤاخاة المهاجرين بعضهم مع بعض غير من ذكره أخاً له في المؤاخاة الثانية، فقال: كان أبو بكر الصديق، وخارجة بن زيد الأنصاري الخزرجي ـ أخوين، وقد كان أبو بكر الصدِّيق في مؤاخاة المهاجرين خاصة أخاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الأنصاري الخزرجي أخوين. وقد كان عمر رضي الله عنه أخاً لأبي بكر الصديق. وعبد الرحمن بن عوف، وسعد ابن الربيع الأنصاري الخزرجي أخوين ـ وقد كان عبد الرحمن بن عوف في مؤاخاة المهاجرين أخاً لعثمان بن عفان ـ والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة ابن وقش، أخو بني عبد الأشهل أخوين. وقد كان الزبير بمكة أخاً لطلحة ابن

عبيد الله، وعثمان بن عفان، وأوس بن ثابت الأنصاري النجاري أخوين - وقد كان عثمان بن عفان في مؤاخاة المهاجرين خاصة أخاً لعبد الرحمن ابن عوف، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين - وقد كان طلحة في مؤاخاة مكة أخاً للزبير بن العوام.

ولا ندري هل كانت المؤاخاة بين المهاجرين بمكة - عند من يقول بها - قاصرة على من ذكرهم ابن إسحاق، ولم تقع بين غيرهم من سائر المؤمنين في مكة قبل الهجرة؟ أو أن ابن إسحق أراد ألا يستوعب، واقتصر على ذكر من يؤدي غرضه، ويحقق ما يبغي من أن رسول الله ﷺ سيد المرسلين، وهو من لا خطير له ولا نظير كان أخاً لعلي رضي الله عنه في المؤاخاة بين المسلمين سابقاً ولاحقاً، والله تعالى هو العليم بذات الصدور.

وممن جرى من المتقدِّمين على القول بوقوع المؤاخاة بين المهاجرين خاصة بعضهم مع بعض محمد بن سعد تلميذ الواقدي راوياً لذلك عن شيخه الواقدي.

ابن سعد يصرح عن شيخه الواقدي بأن مؤاخاة المهاجرين خاصة كانت بالمدينة والرد على ذلك

بيد أن رواية الواقدي بأسانيدها المتعددة كما ذكرها تلميذه محمد بن سعد في الطبقات أصرح في الغرابة، وأدعى إلى العجب، لأن هذه الرواية صريحة في أن هذه المؤاخاة بين المهاجرين خاصة بعضهم مع بعض إنما كانت بالمدينة بعد الهجرة، وهذا عجيب في غرابته، لأنه لا وجه لعقد مؤاخاة بين المهاجرين خاصة بعضهم مع بعض بالمدينة بعد الهجرة.

قال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر - يعني شيخه الواقدي - حدثنا محمد بن عبدالله عن الزهري، قال: وحدثنا موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: وحدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن إبراهيم بن يحيى بن زيد بن ثابت قال: وحدثنا موسى بن ضَمْرة بن سعيد، عن أبيه، قالوا: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض، وآخى بين المهاجرين والأنصار، آخى بينهم على الحق والمؤاساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام، وكانوا تسعين رجلاً، خمسة وأربعون رجلاً من المهاجرين، وخمسة وأربعون من الأنصار، ويقال: كانوا مائة، خمسون

من المهاجرين، وخمسون من الأنصار، وكان ذلك قبل وقعة بدر، وأنزل الله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾[1] فنسخت هذه الآية ما كان قبلها، وانقطعت المؤاخاة في الميراث، ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه.

فقول الرواية في جميع أسانيدها: لما قدم رسول الله ﷺ آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض قول عجيب، لم نره قولاً لأحد ممن ذهب إلى القول بوقوع مؤاخاة بين المهاجرين خاصة، بعضهم لبعض، لأن المؤاخاة كانت للارتفاق والمعاضدة والمناصرة والمؤاساة، والمهاجرون بعد هجرتهم إلى المدينة لا يختصون بهذه الأمور التي جعلها الشارع حكمة المؤاخاة، وإنما يختصون بها في مكة قبل الهجرة، فإن صح وقوع مؤاخاة خاصة بينهم فموضعها مكة، وزمنها قبل الهجرة، إذ لا وجه مطلقاً لعقد مؤاخاة بين المهاجرين خاصة بعضهم لبعض في المدينة بعد الهجرة، لأن المهاجرين تركوا أموالهم وراءهم بمكة، وفرّوا إلى الله بدينهم وعقيدتهم، فكانوا أحوج إلى المؤاخاة مع الأنصار لتتحقق حكمة المؤاخاة بالمؤاساة والتعاضد والتناصر والارتفاق.

وهذا هو ما صرّح به القائلون بالمؤاخاة بين المهاجرين خاصة بعضهم مع بعض، وقد نقله ابن حجر في الفتح عن ابن عبدالبر، وصدّر به الزرقاني في شرح المواهب فقال: كانت المؤاخاة بين الصحابة مرتين، الأولى بمكة قبل الهجرة، بين المهاجرين بعضهم بعضاً على الحق والمواساة، فآخى بين أبي بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، كما رواه الحاكم، وهذا الحديث ضعيف، أخرجه الحاكم من طريق جُمَيع التيمي عن عبدالله بن عمر، وفيه أن علياً رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، إنك آخيت بين أصحابك، فمن أخي؟ قال ﷺ لعلّي: «أنا أخوك» وجُمَيع ابن عُمَير متكلم فيه بالجرح، قال فيه البخاري: في أحاديثه نظر، ووافق البخاري على ذلك ابن عدي، وقال فيه ابن نمير: كان من أكذب الناس، وقال فيه ابن حبان: كان رافضياً يضع الحديث، وأهون ما قيل فيه ما قاله

(١) آخر آية من سورة الأنفال.

ابن حجر في التقريب: صدوق يخطىء ويتشيع.

وقد سبق أن ذكرنا أن أحد رجال سند هذا الحديث في رواية الترمذي حكيم بن جبير، وهو ضعيف، رمي بالتشيِّع كما قال صاحب تحفة الأحوذي، فقول الترمذي فيه: حسن غريب، لا ينجيه من حكم الضعف، ولا اعتبار بتصحيح الحاكم فإنه معروف بالتساهل في التصحيح، فالحديث سواء أكان برواية الحاكم أم هو برواية الترمذي لا تقوم به حجة.

النوع الثاني من المؤاخاة
المؤاخاة الاجتماعية التكافلية

بيّنا فيما سبق أن حياة المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الخاص قامت على دعائم الحب الذي عقد الإيمان أواصره، فبلغ بأفراد هذا المجتمع أن جعلهم في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى عضو منه ألماً سَرَى ذلك الألم إلى سائر أعضاء الجسم، وإذا شعر قلب أي فرد من أفراد هذا المجتمع بفرحة غبطة انتشى بها سروراً كل قلب بين جوانح كل مسلم.

كان الحب الموحِّد للإحساس والشعور أساساً للمؤاخاة في نوعيها الإيماني والاجتماعي

وبلغ هذا الحب بأفراد هذا المجتمع أن جعل وشائج المودة والإخاء مشاركة في الحب، يتقاسمها المؤمنون فيما بينهم، تراحماً، ومناصرة، ومعاضدة، وارتفاقاً، وكان هذا الحب عنصراً أساسياً في تكامل الإيمان، فلا يكمل إيمان مؤمن إلا إذا جعل من هذا الحب الأخوي ميزاناً لا تميل إحدى كفتيه إلى جانب واحد، فالذي ينبغي أن يكون في قلب المؤمن لأخيه المؤمن من الحب على مثل ما في قلبه لنفسه، لأن الدعامة التي ارتكز عليها بناء هذا الحب في نفس المؤمن هي النُّصفة فيه حقاً واجباً لا ثنية فيه، وكان شعار هذه النُّصفة قول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

ومعنى هذا أن يكون ارتكاز الإيمان في نفس كل مؤمن على نوع من الحب لأخيه المؤمن يتساوى فيه الشعور والإحساس بينهما، وعندئذ يرتفع من البين (أنا وأنت) و(لي ولك) ويحل محلهما: أنا أنت في الآمال والآلام، وتجري حياتهما على هذا الأساس سوية السلوك، موحدة الهدف والوسائل.

وقد كانت الأخوة الإيمانية التي أسسها هذا الحب مظهراً من أعظم مظاهر وشائج الحياة الاجتماعية التي ارتبط بها هذا المجتمع في تحركاته نحو النمو الذاتي، فبلغت به مبلغاً عجزت البشرية أن تحقق مثله في تاريخها بين أفراد أي مجتمع آخر من مجتمعاتها العقدية والاجتماعية.

كان مجتمع هذا الحب مجتمع الفضائل في أرفع صورها

فكان هذا المجتمع المسلم القائم على الحب مجتمعاً صافياً من كدورة (الأنانية)، لا يعرف الكراهية والتغالب على مظاهر الحياة، ولا يعرف التباغض والحقد، ولا يعرف الحسد الموبق، والتظالم المهلك، فالمؤمن في هذا المجتمع أخو المؤمن، لا يظلمه ولا يخذله. وكان هذا المجتمع المسلم مجتمع الصفح والعفو، ومقابلة الإساءة بالإحسان، وكان مجتمع الصبر والاحتمال، ومجتمع التربية الذاتية، يربي نفسه ويهذبها ليعدّها لمستقبل طويل المدى، عريض المأوى.

بيد أنه كان مجتمعاً يعيش في جو خانق من الكراهية له ولرسالته الإصلاحية، والفكرية، والكيد لدعوته، دعوة الحق والخير والنور والهدى، ولكنه اعتزل هذا الجو البغيض، واعتكف في مدرسته الأولى (دار الأرقم)، كريماً على نفسه، يتلقّى وحي ربه بتوحيده وإخلاص العبودية له حتى أسس عقيدتها التوحيدية، وشيّدها، ورفع سَمْكها، وأعلى بنيانها، ونصب للسالكين منائرها، وأقام لهم معالمها، ومهد فجاجها، وأنار للسارين سبلها، ووطّد للعقول أدلتها وبراهينها بعد أن أطلق هذه العقول من أغلالها، وحررها من ربقة مواريث الأسلاف الفكرية الجاهلة، تلك العقول التي كانت تعيش في عماية التقليد البليد، وحماقة الوثنية البلهاء ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[١] بلى، ﴿وإنا على آثارهم مقتدون﴾[٢].

يحملون بين جوانحهم قلوباً لا تفقه الحق، ولا تعرف الخير، وفي حنايا هاماتهم عقول لا تفرق بين ضياء الشمس وظلمة الليل، فهم كما

---

(١) سورة البقرة آية (١٧٠).

(٢) سورة الزخرف آية (٢٣).

وصفهم الله عز شأنه: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾[1] كلما دعاهم داعي الحق والهدى أصرُّوا على عنادهم وفجور كفرهم، وتولَّوا مدبرين، وهم يجمحون.

كانت الهجرة تطلعاً إلى جو ينمو فيه الحب والصفاء

فلما استيأس المجتمع المسلم أن يجد عند مجتمع الحقد والكراهية للحق في القرية الظالم أهلها منفذاً للهداية تدخل منه إلى قلوبهم، بعد أن أكمل بناء العقيدة التوحيدية شامخاً، ودعمه بركائز من البراهين والدلائل لا تنقض عراها ولا تحل وثائقها، لم ير بدّاً من التطلُّع إلى جو نقي من الحقد والكراهية للحق ونور الهداية، تتنسم فيه الدعوة إلى الله نسيم الحب الطهور والإخاء الصفيّ، وتتنفس فيه الرسالة الخالدة الخاتمة أريج الحياة الكريمة، حيث تجد عقولاً تعقل، وقلوباً تفقه، وأبصاراً ترى نور الهداية مشرقاً، وضياء الحق ساطعاً، فتقبل عليه، وتجد آذاناً تسمع خرير غيث الإيمان وهو يتنزل في أودية الأفئدة نميراً مصفّى، فيطربها وتسرع إليه منتشية بلحنه، مأخوذة برشف حلاوته، فكانت الهجرة إلى المدينة بعد البيعة الكبرى هجرة ليس لها زاد تحمله معها إلا أخوة الإيمان، القائمة على دعائم الحب، فلا مال، ولا نسب، ولا سبد ولا لبد.

فالمهاجرون إن كانوا جماعة اعتقبوا مركباً إن وجدوه، وإلا ففي أقدامهم مراكب لهم، قُوتُهم ورق الأشجار، ومص النوى، وإن كانوا أفراداً ففي الصبر على اللأواء متاع للمقوين.

الهجرة غيّرت مجرى الحياة في مستقبل أعداء الرسالة الخالدة

ووصلوا إلى مستقرهم أفراداً وجماعات فتلقّاهم إخوة البيعة الكبرى ومن آمن معهم من أقوامهم وعشائرهم، يتنافسون في إنزالهم منازلهم حتى استهموا عليهم حباً لهم ووفاء بعهدهم، وقدم على أثرهم رسول الله ﷺ، ونزل حيث أنزله الله تعالى، وازداد الإقبال على قبول دعوة الحق، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وقد أسلم أهله، وانضَووا تحت لواء الرسالة الخالدة إلا قليلاً ممن عسا في الجاهلية، وأدركته سن اليأس العقلي، ويبس

(١) سورة الأعراف آية (١٧٩).

جلده على شِرْكها ووثنيتها فأصبح كالشن المخرّق، وارتد بعد علم إلى جهالة لا تعقل، لا يدري ما يقول، ولا يقول ما يعقل، فكان مع أمثاله أسطورة أثرية تمثل تفاهة الشرك وحماقة الوثنية في جانب منهار من المجتمع المدني، تئل إليهم شراذم اليهود الذين شرقوا بالمجتمع المسلم منذ أن تمّت البيعة الكبرى بمكة، وعاد بآثارها الإيمانية الغامرة الأنصار إلى مدينتهم، يدعون إلى الله هداة مهديين، ويتحدّثون عن رسول الله ﷺ حديثاً نسجه الحب والاعتزاز، وهم يعلنون انتظار مقدمه ليقود المجتمع المسلم إلى آفاق العزة والنصر المبين، ويتسمع اليهود إلى أحاديثهم وما فيها من تعظيم لرسول الله ﷺ، وتقدير لخطره وسمو مكانته في أنفسهم، وما يكنونه له ولأصحابه من حب فاق حبهم لأنفسهم وأبنائهم وعشائرهم، فيتميزون غيظاً، وينفطرون حقداً، ويتحرّقون حنقاً، ويتهامسون بما ينتظرهم من مستقبل مظلم، ويقرؤون في لوح الغيب مستقبل المجتمع المسلم مضيئاً مشرقاً، سيّاحاً سروباً، ويحسون شدة الخناق عليهم، ويشعرون بما ينتظر مواليهم من الأوس والخزرج من سيادة في مدينتهم، وقد كانوا من قبل تابعين لهم، يعظّمونهم ويعرفون لهم فضلهم عليهم بالعلم والمعرفة لأنهم أهل الكتاب الأول، ويعرفون لهم امتيازهم عليهم في الثراء وكثرة الأموال، ويعرفون لهم فوقهم عليهم في طرائق اكتساب هذا المال ووسائل إنمائه بالتجارة والزراعة والصناعة.

وها هم أولاء الموالي قد شمخوا بآنافهم، وتساموا عليهم، ينقضون عرى فضلهم عليهم في العلم والمعرفة إذْ جاءهم العلم وجاءتهم المعرفة سلْسلاً من نمير السماء، فاستغنوا عنهم بما فتح الله لهم من أبواب الهداية المسلمة بما جاءهم به خاتم النبيين محمد ﷺ، والعلم والمعرفة هما أساس التبعية التي كانت تجرُّهم إليهم.

فإذا علم هؤلاء الموالي من العلم الإلٓهي، وعرفوا من المعرفة الربانية ما يقيمون به صرح حياتهم الاجتماعية والاقتصادية فماذا بقي لليهود عليهم من سلطان؟ لا شيء، لا، بل إن اليهود أصبحوا يعيشون في قلق بالغ واضطراب نفسي يخشون أن تدور عليهم دائرة السَّوء، فيكونوا تابعين بعد

أن كانوا متبوعين، وطالبين خضّعاً بعد أن كانوا أعزة مطلوبين، وسائلين مُسْتَجْهَلين بعد أن كانوا علماء مسؤولين، ومحتاجين عالة بعد أن كانوا سادة عائلين، بل يخاف أن تنقلب عليهم الحياة في تصاريفها كلها فيصبحوا سوقة خدمة بعد أن كانوا قادة مخدومين، فكيف المخرج من هذا المأزق الذي أدخلهم في مضايقه الحقد الأسود والحسد اللعين؟ وإلى أين يكون المهرب وقد استحكمت حول تراقيهم حلقات الذل والهوان؟

ولا سيما وقد قدم محمد ﷺ على أصحابه، وأخذ بيده زمام مجتمعه المسلم، ينمّيه ويقويه ويرشده.

وها هوذا مجتمعه المسلم يزداد كل يوم عدداً وقوة ونظاماً، يقيم حياته على أسس من الخير والحق والهدى والرشاد والحب والعزة والعلم والمعرفة، واستقلال الرأي وكرامة الفرد والجماعة.

وها هي ذي قريش بهيلها وهيلمانها، وعتوها واستكبارها، وفجور ملئها تنتفض فرقاً، وتتزايل مفاصلها رعباً من محمد ﷺ وأصحابه الذين ألقوا إليه مقاليد أمورهم، وسلموا له زمام طاعتهم في الشدة والرخاء، يحاربون من يحارب، ويسالمون من يسالم، وقد عاهدوه أن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وذراريهم ويفدون دعوته بكل ما يملكون، ولو أتى على أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

لا، ليس هذا فقط هو ما يتوجس منه اليهود خيفة وتتطاير منه عقولهم رعباً، بل الخوف كل الخوف أن يجتذب محمد ﷺ إلى حظيرة دعوته، عباهلة اليهود وساداتهم في العلم والمعرفة فيؤمنوا برسالته ويصدقوه في دعوته ـ وقد فعل ذلك سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم عبدالله بن سلام، وتبعته عمته خالدة فأسلما أول ما سمعا بمقدم رسول الله ﷺ، وفي هذا الطامّة الكبرى التي لا مدفع لها، ولا طاقة لليهود على ردِّها في حرب مواجهة بالسلاح، فماذا إذاً؟ وتدسّسُوا إلى نفايات من خلّفتهم حروب الأوس والخزرج قبل دخول الإسلام عليهم ممن بقي على شركه ووثنيته، فأفضوا إليهم بذات صدورهم، وحرضوهم على أن يقفوا معهم في وجه هذا المجتمع

المسلم القهّار السحوق.

وتفقّأ بيض نقائمهم على أن يدفنوا رؤوسهم المخادعة، فلا يروا ولا يسمعوا، وزقزق «بوم» النفاق يومئذ، وهو منتوف الخوافي والقوادم، ضعيف مستضعف، سقيم هزيل، ورنق عليه طائر شؤم اليهود، واحتواه تحت جناحيه يزقه ويربّيه، وفي اليهود جبن رعديد، طبعوا عليه، ورثه عنهم المنافقون، فكانوا جبناء رعاديد، ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ يرعبون مما لا يرعب منه ﴿لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدّخلاً لولّوا إليه وهم يجمَحُون﴾[1].

صورة مجتمع المدينة يوم الهجرة إليها وما يتطلبه إصلاحه من حكمة وحزم

هكذا كان مجتمع المدينة يوم قدم رسول الله ﷺ والمهاجرون من أصحابه إليها في تركيبه من عناصر مختلفة متنافرة دينياً، وفكرياً، واجتماعياً، واقتصادياً وأهدافاً ووسائل، فهو مجتمع معقّد التركيب، يستوجب سياسة متأنية، لتجعل من المجتمع المسلم سيد الموقف.

وفي تصوير هذا المجتمع المدني المتنافر وما كان عليه من أخلاط في تركيبه يروي البيهقي في الدلائل بسنده عن ابن شهاب الزهري، قال: أخبرني عبد الرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك، أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً وكان يهجو رسول الله ﷺ، ويحرِّض عليه كفار قريش في شعره.

وكان رسول الله ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاط، منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله ﷺ، ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، هم أهل الحَلْقة، والحصون، وهم حلفاء للحيين: الأوس والخزرج، فأراد رسول لله ﷺ استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلماً وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلماً وأخوه مشرك.

وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أشدَّ الأذى، فأمر الله رسوله والمسلمين بالصبر على

(١) سورة التوبة آية (٥٧).

ذلك، والعفو عنهم، ففيهم أنزل الله جل ثناؤه: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾[1] وفيهم أنزل الله: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حَسَداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾[2].

المنافقون كانوا أفراخاً في أوكار اليهود

ولم يذكر الزهري المنافقين بين أخلاط المجتمع المدني، لأن النفاق كان يومئذ لا يزال نفساً محترقاً من أنفاس اليهود، يتردد في صدورهم جمراً خامد الاشتعال، لّما يبرز إلى أجاجير الحياة الاجتماعية في المدينة عنصراً ذا أثر، إذْ لم تكن عناصره الشرِّيرة، ومقوماته الخبيثة قد وجدت في صورة لها ذاتيتها المتميزة، وكان المنافقون لا يزالون أفراخاً لم تستزغب، جعل اليهود لهم أحضانهم أوكاراً، يقضون فيها أمد الحضانة حتى يستريش زغبهم، ليطيروا به في آفاق الفساد والإفساد، حاملين على أجنحتهم خبائث الفتن التي يلقِّنهم إياها أساتذة الخبث والغدر اليهود ليلقوها بين المجتمع المسلم، وهم متدثِّرون بمظاهر الإسلام تقية أن تأخذهم سيوفه، ليفكوا بها عرى أواصره الإيمانية ويحلّوا عقد وشائجه الأخوية، ويفرقوا كلمة أهله، ليسهل عليهم وعلى أساتذتهم من أخابث اليهود النيّل منه.

والنفاقُ سلاح خبيث، صنعه اليهود في مصانع إجرامهم ليتقّوا به مواجهة المجتمع المسلم بأنفسهم، وليجعلوا من ربائبهم المنافقين دريئة يدفعون بها وطأة المسلمين.

والمنافقون هم الأداة الطيّعة في أيدي اليهود وتفكيرهم، ولكن هؤلاء المنافقين كانوا مقهورين أذلة، لا يعيشون إلا في الظلام، شعارهم الكذب، ودثارهم الغدر والخيانة، ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾ لا يخرجون من فضيحة حتى تظللهم فضيحة أسوأ منها.

وهكذا كان المنافقون أول أمرهم أضعف شأناً من نفايات الشرك

---

(١) سورة آل عمران آية (١٨٦).

(٢) سورة البقرة آية (١٠٩).

بالمدينة، ومن شراذم اليهود فيها، فلم يبرز لهم كيان ذاتي يتميزون به، ولكن أعمالهم الخبيثة التي كان يسخرهم اليهود لتدبيرها والقيام بها تحت جنح الظلام أبرز من شخصياتهم المحطمة بالقهر والمهانة، فهم بأعمالهم عنصر من أخبث عناصر المجتمع المدني المختلط الذي أراد رسول الله ﷺ استصلاحه بما أوتيه من الحكمة وحسن التدبير.

بين الزهري وابن القيم في تصوير المجتمع يوم الهجرة

وقد نحا ابن القيِّم في (الهدي) نحواً آخر في ذكر أخلاط مجتمع المدينة، حين قدمها رسول الله ﷺ، اقتصر فيه على ذكر الأخلاط المعادية لله ورسوله، وذكر فيهم المنافقين، فقال: ولما قدم النبي ﷺ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم، وقسم حاربوه، ونصبوا له العداوة، وقسم تاركوه، فلم يصالحوه، ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن، ليأمن الفريقين، وهم المنافقون، فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى، فصالح يهود المدينة، وكتب بينهم وبينه كتاب أمن، وكانوا طوائف حول المدينة، بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، قلنا: بل أدخلهم بالتبعية في كتاب المؤاخاة التكافلية ولم يخصهم بكتاب موادعة وأمن.

ثم ذكر ابن القيِّم ما كان من كل طائفة من هذه الطوائف اليهودية من غدر وخيانة لرسول الله ﷺ وللمسلمين، وما كان من رسول الله ﷺ إليهم من التأديب والمحاربة والجلاء عن المدينة جزاء خياناتهم وغدرهم.

والظاهر من كلام ابن القيِّم وسياقه، أنه يصف موقفاً للكفار عموماً من رسول الله ﷺ ومن المجتمع المسلم بعد الهجرة، سواء أكان أولئك الكفار من أهل المدينة كاليهود والمنافقين، أم كانوا من خارج المدينة كقريش في مكة ومن حولها من حلفائهم وأحابيشهم، أم كانوا من الأعراب الذين يقيمون حول المدينة، بدليل تصنيفه طوائف الكفار لأن في هذا التصنيف ما

يتفق مع موقف كفار المدينة من اليهود والمنافقين، وفيه ما يتفق مع موقف قريش ومن حولها، وفيه ما يتفق مع موقف الأعراب المتربِّصين حول المدينة، وهو كافٍ في إعطاء صورة عن أخلاط مجتمع المدينة.

بخلاف كلام الزهري، فإنه نص في وصف أخلاط المجتمع المدني خاصة الذي أراد رسول الله ﷺ استصلاحهم اجتماعياً ليتميز فيهم موقف المجتمع المسلم الذي جعل الله له قيادة الحياة في ظل شريعته الخاتمة الخالدة.

استصلاح المجتمع المدني المتنافر يبدأ بتصحيح التركيب الاجتماعي للمجتمع المسلم

وبدأ النبي ﷺ يخطو نحو استصلاح هذا المجتمع المدني المركّب من أخلاط وعناصر متضادة متنافرة، وكان من الضروري أن تكون الخطوة الأولى في هذه البداءة نحو المجتمع المسلم الذي وحّدته العقيدة الدينية وحزمه الإيمان في آصرة من الأخوة الإيمانية، والإيمان قوة روحية عارمة، ولكنها لا تستطيع وحدها أن تخضع لقوتها القوى المادية التي تقف من ورائها الغرائز بكل ما لها من رغائب وشهوات يعيش بها الإنسان في هذه الحياة.

ولا نريد بالقوى المادية ما يعني لقمة العيش ووسائلها، فذلك أدنى مراتبها، وأهون درجاتها، لأن لقمة العيش ووسائلها أيسر على المجتمع المسلم من أن يُدخلها عنصراً في تركيبه الاجتماعي، هذا التركيب الذي يصور عناصر بناء هذا المجتمع ومقوماته الذاتية، ومعالم شخصيته المسلمة.

القوى المادية لا تعني لقمة العيش وإنما تعني الإحساس بوحدة الشعور

وإنما نريد بالقوى المادية الإحساس الداخلي بوفرة الشعور الموحّد بين أفراد المجتمع المسلم وجماعاته، والإحساسُ بوفرة الشعور النفسي الموحّد لأهداف ووسائل الحياة لهذا المجتمع المسلم، وإن كان من طبيعته المساواة في حالتي الشبع والجوع بل المساواة في حالتي المسْغَبة والتعفف في الشبع، لكن هذه المساواة في حالتي الشبع والجوع لا تكون مقصودة لهذا المجتمع المسلم قصداً ذاتياً يحسب له حسابه، وإنما ينساق لها انسياقاً تبعياً لوفرة الشعور النفسي، ويتحقق منها ما يتحقق، وهو محمود في حالتي القلّة والكثرة، بل في حالتي الفقدان والعدم، وفي هذا ما يزيل الإبهام في تفسير القوى المادية بالإحساس الداخلي بوفرة الشعور الموحّد بين أفراد المجتمع المسلم وجماعاته.

وإنما قلنا إن البداءة في الخطوة الأولى الاستصلاحية كان من الضروري أن تكون موجّهة نحو المجتمع المسلم، لأن هذا المجتمع المسلم الموحد بعقيدته الإيمانية كان مختلف التركيب الاجتماعي، ولكن هذا الاختلاف في عناصر تركيبه لم يكن اختلافاً تنافرياً، يدفع بعضه بعضاً، وإنما كان اختلافاً توافقياً، يسند بعضه بعضاً.

ولا يصعب على العقل الاجتماعي أن يفهم كون الاختلاف توافقياً في تركيب هذا المجتمع المسلم، لأن تركيب المجتمع من شخصيات متمايزة المظاهر لا باختلاف في تركيبه المادي، ووحدةُ الحركة وبواعثها إلى الهدف الموحد توافق في السلوك الموصل إلى الهدف.

بيد أن هذا الاختلاف التوافقي كان في حاجة إلى ما يزيل آثار تلك المظاهر، ليرده إلى وحدة الهدف والغاية، وهذا الذي يجعله ضروري البدء بتصحيح تركيبه، لتستقيم معالمه.

اختلاف تركيب المجتمع المسلم اختلاف توافقي لا تنافر فيه

أما مظاهر الاختلاف التوافقي في المجتمع المسلم فهي ماثلة في عناصره المادية وشخصياته المتمايزة بمظاهرها، فقد كان مركباً من المهاجرين الذين هجروا أوطانهم وتركوا فيها أموالهم وأولادهم وعشائرهم، وإحساساتهم النفسية بكل ما تركوه وراءهم، فداء لعقيدتهم، وخرجوا بإيمانهم مهاجرين إلى الله، لا يأسون على شيء مما تركوه لله، ولا تعلّقت نفوسهم بشيء منه، ومضوا قُدُماً لا ينظرون وراءهم إلى ما هجروه في سبيل ما ينتظرهم من حياة حرّة كريمة، وثواب جزيل في الحياة الآخرة.

وكان في هذا المجتمع المسلم الأنصار ﴿والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[1].

وكان في هذا المجتمع المسلم الوافدون لطلب الهداية، والإيمان بالله ورسوله من أبناء القبائل الذين يقدمون على رسول الله ﷺ ليتفقّهوا في

---

(١) سورة الحشر آية (٩).

الدين، مندمجين في تركيب المجتمع المسلم.

عناصر تركيب المجتمع المسلم ومظاهر اختلافها

وكان لكل عنصر من هذه العناصر الداخلة في تركيب هذا المجتمع مقوماته التي تميزه، وهذه المقومات مختلفة المنشأ، ومختلفة الأثر في مجرى الحياة وأسلوبها ووسائلها.

فلو أن هذه العناصر تركت باختلافاتها للوحدة الإيمانية في العقيدة لكانت الحياة الاجتماعية لهذا المجتمع المسلم مجموعة من التفاريق السلوكية التي تذهب بالمجتمع المسلم في حياته مذاهب شتى، لا يجمعها إلا وحدة العقيدة.

فالأنصار في هذا المجتمع هم أصحاب المأوى والمستقر، يقيمون في بلدهم ومنازلهم، ويعملون في مزارعهم وبساتينهم وتجاراتهم، وينمّون أموالهم وثرواتهم، وينفقون على أنفسهم وأهليهم مما رزقهم الله من هذا المال النامي بالعمل فيه. والمهاجرون الذين جاؤوا إلى هذا البلد الطيب مهاجرين إلى الله خاوية من الدنيا وأسبابها ووسائلهاوفاضهم، خَلِيّة من متاعها عيابهم، فهم لا يملكون في مستقرهم الجديد مأوى ولا مسرحاً، ولا بد لهم أن يعيشوا كما يعيش الناس، وأن يعملوا لحياتهم كما يعمل الناس، وأن يتحركوا في سبيل إعاشة من يعولون.

وليس في الإسلام الذي اعتنقوه ديناً وارتضوه نظاماً لحياتهم رهبانية يدّرعها المسلم عاكفاً عليها، لا يتحرك ولا ينهض ولا يعمل ليقيم حياته على الجد والعمل النافع له، المفيد لمجتمعه الذي يعيش عنصراً في تركيبه الاجتماعي.

والوافدون لطلب الهداية والانضواء إلى حظيرة المجتمع المسلم أوزاع مختلفون في أوضاعهم الاجتماعية، ففيهم الفقير الذي يعيش على الطّوى صابراً محتسباً متعففاً، وفيهم الضعيف الذي لا يستطيع أن يعمل لو أتيحت له فرصة العمل، وفيهم المليء الذي قدم ومعه أسبابه وله وسائله، يتحرك بها ينمّيها ويأخذ ويعطي، ويكسب ويربح، وفيهم القوي على العمل

بجسمه، فيعمل ليعيش، وفيهم الصُّنّاع الذي يعمل بيده وفكره فيحيا بصنعته مع الناس حياة كريمة.

أعداء المجتمع المسلم من أخلاط المجتمع المدني

ولهذا المجتمع المسلم على اختلاف تركيبه الاجتماعي أعداء في الداخل والخارج يتربّصون به، ويأتمرون عليه، ويكيدون له، ويمكرون به، ويدبِّرون له المزالق، وهؤلاء الأعداء ممّكنون من وسائل الحياة وسعة أسبابها، وهم شرِّيرون خبثاء، يتقنون من ضروب الفساد والإفساد ما يبعث في أنفسهم الشريرة حمية الوقوف أمام سير الدعوة إلى الله وتبليغ رسالاته بالقوة المادية، والتدبير الماكر، والمكر الكائد والغدر الختون.

وشر هؤلاء الأعداء وأخبثهم وأقدرهم على شن هجوم العداوة للمجتمع المسلم هم اليهود، الذين غصُّوا بقيام هذا المجتمع المسلم، ورأوا فيه مجتمعاً رهيباً، سوف يسلبهم عزهم، ويقضي على مقومات حياتهم، ويقوِّض سلطانهم على (يثرب) التي يتحكمون في مصيرها ومصير أهلها، ويهدم أكاذيبهم في دعاوى الاختصاص بالعلم والمعرفة، ويذهب بأباطيلهم التي خدعوا بها مواليهم من الأوس والخزرج حتى استعبدوهم بهذا الضلال والخداع والتمويه، ويذهب بقوتهم المادية التي يتعزّزون بها في صياصيهم وحصونهم وآطامهم وقلاعهم التي شيدوها حول مساكنهم حماية لأموالهم وتراثهم الذي جمعوه من دماء البشر بغياً وعدواً.

ويأتي بعد اليهود في شدة العداوة للمجتمع المسلم بقايا نفايات الشرك الأحمق والوثنية البلهاء، ممّثلين فيمن عسا من جذوع الجاهلية الخاوية، وأفلت من سيف الأحداث التي مرت بين الحيين: الأوس والخزرج في حروبهم الطاحنة التي قدّمها الله تعالى لنبيه ﷺ لتكون منظفة للطرق أمام سير دعوته، ونشر رسالته بمن طحنتهم رحاها فألقت بهم إلى مهاوي الفناء.

وهؤلاء الذين خلّفوا وراء المعارك المدمرة ـ على ما بهم من عجز عن الحركة المادية والفكرية ـ هم الذين يملكون من وسائل الحياة ما خلّفه لهم الظاعنون إلى أودية الفناء من أهاليهم وعشائرهم الذين أكلتهم الحروب في جاهليتهم، فهم إن لم يستطيعوا سلّ السيوف فلن يعجزوا عن إمداد من

يقدر على موارد الحتوف، فلهم بما في أيديهم من مال وسلاح، وما في أفكارهم من تجارب وخبرات قدرة على معاضدة القادرين على الحركة من أعداء المجتمع المسلم، ومناصرتهم ومعاونتهم في كل ما يمكن أن ينال من هذا المجتمع الذي لا يريدون له البقاء ماضياً بدعوته إلى الله، يبلِّغ رسالات ربه، وينشر على العالمين نوره وهداياته.

ووراء اليهود ونفايات الشرك والوثنية في شدة العداوة للمجتمع المسلم المنافقون الذين اتخذوا من أحضان اليهود أمهدة لأسوأ المكر وأخبث الائتمار، واتخذوا من إظهار شعائر الإسلام وإبطان أكفر الكفر وأفجر الفجور ذريعة إلى مخالطة المجتمع المسلم، يسمعون منه ما يقول، ويبصرون حركاته، ويرصدون أنفاسه، وينقلون أسراره وأحواله إلى شياطينهم من اليهود والمشركين، ويمكرون به ما وسعهم المكر والكيد، ويخادعونه، وفيه سمّاعون لهم من ضعاف الإيمان ومرضى القلوب، ذوي الشخصيات المهزوزة التي تعبث بها هزاهز النفاق، يأخذون منهم أخبار المجتمع المسلم، ويشيعون بينهم الأراجيف والأكاذيب ليثبطوا عزائم هؤلاء الضَّعْفى، ويلقُوا إليهم شآبيب الفتن والتخذيل، ليكسروا شوكة المجتمع المسلم، ويخرقوا بين صفوفه خروق الفرقة، ويبثُّوا فيه بثيث التنازع والمنابذة.

هكذا كانت حالة المجتمع المدني بأخلاطه حين قدم رسول الله ﷺ المدينة، واتخذها مقراً له ولدعوته، وموئلاً لأصحابه، ومنبعاً لتبليغ رسالته، ومأرزاً لطلاب هدايته.

وهكذا كان حال المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي، وموقفه من نفسه في التركيب المتخالف في عناصره، وموقفه من أعدائه وهم في قوتهم المادية، وكثرة عددهم، وتوافر عدتهم، مع قلة عدده، وضعف عدته.

فكان لا بد في سبيل استصلاح المجتمع المدني المتنافر أشد التنافر في عناصر تكوينه ومقومات وجوده من البدء أولاً بتصحيح التركيب الاجتماعي للمجتمع المسلم الذي وحدته العقيدة الإيمانية، وبقي ما وراءها مشتت المنازع، مختلف المصادر والموارد.

وتصحيحُ تركيب المجتمع المسلم اجتماعيـاً حتى تكون لـه وحدة اجتماعية توازي وحدته الإيمانيـة، لا يتحقق إلا بإزالـة جميع الفـوارق الاجتماعية بين أفراده وجماعاته، وإحلال المسـاواة الشعوريـة محل تلك الفوارق التي خلفتها رواسب التاريخ القريب والبعيد.

والإسلام لا يعتمد في إصلاحاته الاجتماعية على منطق القانـون والإلزام القاهر، ولكنه يعتمد على منطق التربية وإيقاظ الضمير، والتسامي بالإحساس والشعور إلى الرضا المُقْنِع، والإقناع المرضي، القائم على الفهم والتفاهم، وتصحيح موازين الحياة في أسباب العيش ومظاهر الاجتماع في سلوك الأفراد والجماعات.

تصحيح تركيب المجتمع المسلم اجتماعياًلا يتحقق إلاّ بإزالة الفوارق تربوياً

ومنطقُ القانون بإلزامه القاهر في إصلاح المجتمعات اجتماعياً بإزالة الفوارق المادية عسرُ المسلك، وعر المنطلق، ضيِّق المنفذ، مبغِّض للنفوس، منافٍ للطبيعة ومدركات العقول، لأنه يتطلب تنازلاً عن حق مملوك بالقانون إلى فضيلة لا يحتمها هذا القانون، وهذه التنازلات ضد الغرائز الإنسانية الحريصة كل الحرص على الحرية المطلقة في الملكية وتصرفاتها، لأنها حرمان لمن يملك من حرية التمتع بما يملك، وإمتاع لمن لا يملك بما لا يملك.

أما منطق التربية والضمير فيعتمد على الإحساس بمرارة الحرمان عند من لا يملك وهو يحس بمتعة من يملك، وفي هذا الإحساس آلام وتعذيب للنفس البشرية لا يشعر بهما إلا من يملك حساً مرهفاً ينغِّص عليه متعته بما يملك، وهو مستطيع أن يجعل متعته بما يملك كاملة المهنأ إذا أمتع معه من لا يملك دون إفساد متعته بالمنّ والأذى.

وهذا أمر لا تكفي في تحقيقه نصوص القوانين، ولا تحققه سياط العقوبات تُمزَق بها جلود الذين لا يفرِّطون في حق حريتهم في التمتع بما يملكون، وإنما يتطلب منهجاً تربوياً في إصلاح المجتمعات والأمم والشعوب والأفراد والجماعات، وهذا المنهج التربوي هو منهج الإسلام الذي امتاز به في استصلاح أمته اجتماعياً.

فهو إذْ يقول في كتابه المبين: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ يعقد بهذا النص الصريح بين أفراد مجتمعه أخوة إيمانية، لها ركائزها ومقوماتها، وأهم تلك الركائز والمقومات (الحب) المتبادل بين أفراد المجتمع على سواء في آثار هذا (الحب) والمساواة في الآثار المترتبة على الحب ممكنة الحصول، وإن كانت المساواة في نفس الحب غير ممكنة، لأن الآثار يملكها الفرد، فهو يملك المساواة فيها، وأما الحب فهو أمر قلبي، لا يملكه الفرد ولا يملك المساواة فيه.

كان الحب أساس هذا التصحيح التربوي

ولهذا جاءت الوصاة من النبي ﷺ، وهو القيّم على إصلاحات المجتمع اجتماعياً وعقائدياً، تكليفاً بما هو في حيِّز الإمكان، فقال ﷺ فيما رواه البخاري عن أنس وكذلك رواه أحمد والنسائي، ورواه مسلم **بزيادة:** «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» فقوله ﷺ: «حتى يحب لأخيه» دون أن يقول: «حتى يحب أخاه حبّه لنفسه» إعجاز في التعبير التربوي وإقامة لمنهج الضمير في الإصلاح الاجتماعي، لأن حب المسلم لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه تكليف يدور في منطقة الإمكان، لأنه مساواة في أثر الحب، لا في نفس الحب، وهذا حب لله تعالى، وروى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ إن الله يقول يوم القيامة: «أين المتحابون بجلالي؟ أظُلُّهم اليوم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلِّي» وقد ترجم لهذا النووي بقوله: (الحب في الله) ثم ذكر بعده تحت هذه الترجمة حديث المدرجة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أن رجلاً زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته مَلَكاً، فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله أحبك كما أحببته فيه» وعند الشيخين والنَّسائي عن أنس عن رسول الله ﷺ «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وكذلك يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

وهذا الحب الذي تقوم على دعائمه المؤاخاة في الله مما ينبغي أن يكون

معلوماً لدى المتحابين، روى أبو داود عن المقدام بن معد يكرب عن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه» وروى أبو داود أيضاً عن أنس بن مالك أن رجلاً كان عند النبي ﷺ، فمر به رجل، فقال: يا رسول الله إني لأحبُّ هذا، فقال لـه النبي ﷺ: «أعلمته؟» قال: لا، قال: «أعلمه» فلحقه فقال: إني أحبك في الله فقال: أحَبَّك الذي أحببتني له.

وإذا توافرت دوافع الحب على أية درجة من درجاته تهيأت به النفوس ليتولد عندها الحس المرهف الذي يبعث في النفس المشاركة في ألم الحرمان من المتعة، وهو ألم يستطيع القادر على المتعة المحب لأخيه ما يحب لنفسه أن يمحوه من نفسه بمشاركة أخيه في المتعة بما يملك، وعندئذ يشعر بنشوة كمال المتعة تحتل من قلبه مكان ألم الحرمان من قلب أخيه قبل أن يشركه معه في متعته، وهو في الحقيقة قد أمتع نفسه متعة كاملة لا يعتريها تنغيص الإحساس بألم الحرمان.

هذا المنهج التربوي الشعوري النابع من الضمير بالحب هو الذي اتخذه رسول الله ﷺ وسيلة لتصحيح التركيب الاجتماعي للمجتمع المسلم، فجعل ﷺ من الحب دعامة لهذا التصحيح الاجتماعي.

والحب هو الاحساس الذي قام عليه صرح الإيمان في إيجابيته وقدرته على التحكم في عرامة الغرائز وجموحها ليجعل منها مساعداً لتولد الاحساس بالمشاركة الأخوية في موجبات الإيمان ومتطلباته.

ومن ثَمّ عمد رسول الله ﷺ في عقد ميثاق المؤاخاة الاجتماعية بين المهاجرين والأنصار إلى (الحب) في أرفع صوره، وأظهر معالمه، فجعله دعامة هذه المؤاخاة، فقال لهم: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين».

والتآخي في الله هو البؤرة المشعّة بالضوء الدافىء في المنهج التربوي الشعوري الذي قامت على أساسه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، لأن المؤاخاة في الله ترفع السُّجف عن النفس البشرية التي كانت تحجب عنها الحس المرهف وهو في داخلها، ذلك الحس المولّد للشعور بالمشاركة في ألم

الحرمان عند من لا يملك المتعة بوسائل الحياة الكريمة الطيبة.

فإذا تآخى في الله من يملك مع من لا يملك توحدت مشاعرهما وإحساساتهما، واتصل قلباهما بوشيجة الحب في الله، فلا يرى أحدهما أن له حقاً في شيء إلا إذا كان أخوه في الله شريكه في هذا الشيء على قدم المساواة، بل إلا إذا كان أخوه في الله أثيراً بهذا الشيء، وهذه الذروة في الإيثار هي معجزة المؤاخاة في الله، التي تحققت تحقيقاً كاملاً فيما بين المهاجرين والأنصار، فكانت واقعاً مشهوداً، نزل به الكتاب مدحة للأنصار، لم يعرف تاريخ البشرية لها نظيراً قط في مجتمعاته، والمعجزات لا تتكرر تكرراً ذاتياً.

الحب أساس المؤاخاة الاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم

والإعجازُ في آية الإيثار إنما كان في تحويل الطبيعة البشرية عن مسارها الغريزي وتحويل القلوب عن مدارها (الأناني)، وقد تعاورت على الإنسانية في تاريخها البعيد السحيق، وفي تاريخها الداني القريب مذاهب ونحل وفلسفات لا تحصى ولا تعد، أرادت ـ كما زعمت ـ أن تحقق للإنسانية وحدة في العدل الاجتماعي، بَلْه الإيثار، فعجزت عجزاً مخزياً، وباءت بفشل ذريع وخسران مبين، وأظهر شواهد ذلك في واقع الحياة الشيوعية في إلحادها وفجور كفرها.

والقرآن الكريم إذْ يصور ذلك إنما يصوره على أنه نموذج للمؤاخاة في الله، القائمة على الحب، وهذه المؤاخاة شريعة إسلامية عامة عموم الرسالة زماناً ومكاناً وجيلاً، فهي ليست خصِّيصة بالمهاجرين والأنصار، وإنما هي للأمة الإسلامية أينما وجدت من أرض الله، وخصيصة المهاجرين والأنصار كانت في مظهر التطبيق الواقعي لهذه المؤاخاة، وهي لا تزال قائمة المعالم في شرائع الإسلام، تنتظر من يطبِّقها كما طبقها المهاجرون والأنصار وقد بدأ الإسلام بهم غريباً في تطبيق تشريعاته، فأعزَّهم الله به، وسيعود على أيدي من ادخرهم الله في غيبه غريباً في تطبيق شرائعه تطبيقاً عملياً يعيده قوة ومدداً روحية يعزهم الله به كما أعزّ من طبقه من أسلافهم، والحياة قُلَّب، والأيام دُول، والأمور بيد الله، يعزّ بها من يشاء ويذلّ بها من يشاء.

التطبيق الواقعي لشرعة المؤاخاة نقطة تحول في حياة المجتمع المسلم

لقد كان التطبيق الواقعي لشرعة المؤاخاة في الله نقطة تحوّل في حياة المجتمع الإسلامي، سجّلها القرآن آيات تتلى ويتعبّد بها، فقال تعالى: ﴿والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يُوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1].

فالدار هي المدينة المنوّرة، والذين تبوؤها هم أهلها من الأوس والخزرج الذين توّجهم الله بلقب (الأنصار) حين أن تبوؤا الإيمان بعد تبوئهم الدار، فالدار مباءة الحس المادّي، والإيمان مباءة الشعور الروحي، فكما أحاطت بهم دارهم حساً فاستقروا بها آمنين مطمئنين، متمكّنين فيها تمكن المظروف بالظرف، وهي محيطة بهم في إيوائها لهم وحمايتهم من كل سوء يريدهم من خارج دارهم إحاطة الظرف بالمظروف، كذلك أحاط بهم في إحساسهم الإيمان، فكان مستقرهم الروحي، ومتوطنهم الشعوري، لتمكنهم منه أفضل تمكن، واستقامتهم على موجباته استقامة لا تعدلها إلا استقامة الأمن والاستقرار الحسيَّيْن اللذين يشعر بهما كل من أوى إلى داره ومتوطئه بعد رحلة من القلق المذعور.

أسرار هذه الشرعة في آية: ﴿والذين تبوؤا والإيمان﴾

وفي التعبير عن المدينة المنوّرة بلفظ (الدار) إشعار بأنها دار خاصة لكل متوطن بها متبوىء لها، فهي بالنسبة لأهلها كدار خاصة للفرد يهنأ بالأمن والاستقرار وهو في داخلها، وفي هذا الإشعار نوع من الأنس السِّريّ في النفس، يزيدها رَوْحاً وطمأنينة، فالأنصار في دارهم وإيمانهم متمكنون من الأمن والاستقرار المادي والروحي، تتنزل عليهم السكينة فتحفهم بنورها، كأنها سياج من الرحمة مضروب عليهم، لا يلحقهم فزع ولا يدخل عليهم قلق.

أما قوله تعالى: ﴿من قبلهم﴾ فالضمير فيه للمهاجرين، ومعناه أن الأنصار هم الذين تبوؤا المدينة المنورة داراً لهم، وتبوؤا معها الإيمان من قبل هجرة المهاجرين إليهم، لأن المهاجرين وإن تبوؤا الإيمان قبل الأنصار، لأنهم

---

(١) سورة الحشر آية (٩).

سبقوهم إليه، وتمكنوا منه أعظم تمكن، وتمكن هو منهم أبلغ تمكن، لكنهم لم يتبوؤا مع الإيمان داراً يتمكَّنون فيها من الاستقرار الحسِّي المادي، والأمن على أنفسهم وإيمانهم من فزعات الأعداء وسطواتهم، فكان للمهاجرين في تبوء الإيمان دون تبوء الدار، وكان للأنصار تبوؤهما معاً في قرن واحد، فالقبلية بالنظر إلى جمع تبوء الدار مع تبوء الإيمان، حتى كأنهما أمر واحد في التمكن والاستقرار.

معنى «القبلية» في قوله تعالى: ﴿ والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم ﴾

ومن لطائف القرآن الحكيم أنه ساق مدحة المهاجرين قبل مدحة الأنصار مفتتحاً لها بقوله: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون﴾[1] فجعل فَقْد بعض ما كان مدحة للأنصار من تبوء الدار والإيمان مدحة للمهاجرين، لأنهم فقدوه ابتغاء فضل الله ورضوانه، ونصرهم الله بنصر دينه، ونصر رسوله بنصر رسالته ودعوته، ووصفهم بأنهم هم الصادقون، وأن الناس تبع لهم في ذلك، فقال يشرِّفهم بهذا الاختصاص: (أولئك هم الصادقون) وقال لعامة المؤمنين: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[2].

فالقبلية بهذا المعنى مدحة للأنصار، جاءت لتشعرهم بموجباتها نحو إخوانهم الذين هاجروا إليهم تاركين ديارهم وأموالهم ابتغاء فضل الله ورضوانه، والتفرغ لنصرة دينه، ونصرة رسوله، فالدار التي فقدها المهاجرون بما فيها من أموال وفلذّات أكباد إنما فقدوها تقرباً بفقدها إلى الله، فأووا إلى الأنصار يتبوؤن معهم دارهم، دار الأمن والاستقرار مع سبق تبوئهم الإيمان قبل الأنصار، فكمل لهم بهذه الهجرة تبوء الدار والإيمان، وانفردوا بسبق تبوئهم الإيمان فضيلة لا يشاركهم فيها غيرهم من سائر المؤمنين وفي طليعتهم الأنصار، الذين جعلوا من الإيواء والنصرة دعامتين للمؤاخاة القائمة على الحب الصادق، فقيل في وصفهم: ﴿يحبُّون من هاجر إليهم﴾، وهذا حب في

(١) سورة الحشر آية (٨).
(٢) سورة التوبة آية (١١٩).

الله، ولله، جعله الله فضيلة لهم ميّزهم بها في مقابلة وصف المهاجرين بأنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله، وتعرضاً لفضله، المنهمر عليهم غيثه ديمة لا ينقطع ولا يفتر، وهم يحملون بين جوانحهم قلوباً عامرة بالحب لإخوانهم الأنصار، الذين وصفوا بالإخلاص الصفيّ، الذي كان ثمرة الحب في الله، ولله، فقيل عنهم: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ أي أنهم لا تستشرف نفوسهم إلى فضل ناله إخوانهم المهاجرون من سبقهم بالإيمان، وتضحيتهم بمفارقة ديارهم وأموالهم، وانتهاضهم لنصرة دين الله ورسالاته، ولا يتطلعون إلى شيء منه تطلباً له أو مشاركة فيه.

معنى الحاجة التي لا يجدها الأنصار في صدورهم من أجل ما أوتي المهاجرون

وليست الحاجة المنفية التي لا يجدها الأنصار في صدورهم من أجل ما أوتي إخوانهم المهاجرون من منن الله وفواضله، وإنعاماته عليهم، وإكرامه لهم هي اختصاصهم بغنائم بني النضير ونحوها من الأمور المادية التي تيسّر لقمة العيش وإشباع البطون، لأن هذه الأمور المادية في ضآلة قيمتها، وتفاهة وزنها المعنوي في موازين التسامي الإنساني، وضعف آثارها في الحياة الروحية لا توزن مع الفضائل النفسية التي استأثر بها المهاجرون في حياتهم الإيمانية يوم أن كانوا هدفاً للعتو المستكبر، والفجور المتجبر في مكة قبل الهجرة - قد نفاها الحب في الله، ولله، وسما عليها في آفاقه المشرقة بنور الهداية التي تخللت مشاعرهم، وملكت عليهم إحساساتهم، فلم تترك في أنفسهم لها مجالاً يجعلها ذات وزن في حياتهم، ذلك الحب المقدّس الذي كان عنوان مدحة الأنصار في مقابل مدحة المهاجرين، وبهذا الحب أثنى الله تعالى على الأنصار فقال في وصفهم به: ﴿يحبُّون من هاجر إليهم﴾ ولعلك لمحت أننا جرينا على أن الضمير في قوله تعالى: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة﴾ يعود على الذين يحبون من هاجر إليهم وهم الأنصار، والضمير في قوله ﴿أوتوا﴾ يعود على المهاجرين، وهو المعنى المحقّق للمقصود من الآية، فهو أرجح عندنا مما سواه.

والحبُ الذي يسجله رب العزة تبارك وتعالى في محكم كتابه آيات بيِّنات، تتلى ويتعبد بها في روعة إعجازها، وبراعة أسلوبها، وسمو منهجها في الهداية - لا يمكن أن يبقى معه في حنايا النفس المؤمنة آثار حزازة تَنْفَس على

المهاجرين ما آتاهم الله من مكارم الإيمان والتضحية في سبيله بالديار والأموال، بله متعة مادية زائلة تافهة.

وصفات المدحة السلبية لا تذكر في مقامها إلا إذا كانت ممكنة الوقوع، فيكون نفيها عنصراً من عناصر المدح المقتضية إحلال ما يقابلها من صفات إيجابية في بناء المدحة المشرّفة.

فإذا قيل في وصف الأنصار بعد وصفهم بحبهم المهاجرين ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ كان معنى ذلك أن هؤلاء الأنصار سَمُوا في حبهم لإخوانهم المهاجرين إلى ذروة الصفاء والإخلاص ووحدة الشعور، وامتلأت صدورهم بهذا الحب القدسي ، فلم تعد تتسع لشيء معه، إلا أن يكون ذلك الشيء أثراً من آثار الحب، وليس ذلك إلا ذروة الفضائل، وهو إيثارهم على أنفسهم بكل مكرمة، ولو كانوا هم في أشد الحاجة إليها.

كيف وقد قال رسول الله ﷺ للأنصار حين وقعت في يده غنائم بني النضير: « إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة ؟» فقالت الأنصار بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة، ولا نشاركهم فيها.

فالأنصار هم الذين آثروا المهاجرين بالغنيمة، وكانت في أيديهم لو أرادوها وتعلقت بشيء منها أنفسهم، ووجدوا لها حاجة في صدورهم؛ إذ عرض النبي ﷺ عليهم قسمتها بينهم وبين إخوانهم المهاجرين، فالنبي ﷺ لم يخصّ بالغنيمة المهاجرين إلا بعد أن كشف غطاء الحياء من نفوس الأنصار عن الحب الذي يكنّونه لإخوانهم المهاجرين، حتى يعلم الذين لا يعلمون أن هذا الحب لم يترك في نفوس الأنصار مكاناً لِتَطلّع واستشراف إلى شيء مما حُبي به المهاجرون من فضائل سبقوا بها كل سابق، بَلْه حزازة من أجل لعاعة مادية تنتهي إلى ذرّات من التراب تحت الأقدام.

ومجيء قوله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾ عقيب قوله عز شأنه: ﴿يحبّون من هاجر إليهم﴾ بيان لثمرة هذا الحب، وهي ثمرة سَمَا بها الأنصار إلى آفاق لم تصل إليها البشرية في تاريخها البعيد السحيق، ولا في تاريخها الداني القريب، تلك هي ثمرة الإيثار على النفس التي أثمرها الحب الإيماني، والحب الاجتماعي.

الإيثار بجميع صوره ثمرة الحب في الله، ولله

والإيثار صور وألوان، وضروب وأنواع، فقد يكون إيثاراً بشيء محبوب يمكن الاستغناء عنه، وقد يكون إيثاراً بشيء مطلوب، ولكن لا يبلغ طلبه والحاجة إليه مكان الضرورة التي لا يستغنى عن مطلوبها إلا بضرب من الحرمان الوجيع، وقد يكون إيثاراً بشيء تتطلبه الضرورة البالغة مبلغ الفداء والتضحية بالنفس وفلذات الأكباد، وقد يكون إيثاراً بما ينقص الكمال ويشوِّه الوضع السليم، وقد يكون إيثاراً بما يستوجب المدح والثناء، وقد يكون إيثاراً بما يدفع سبّة أو يبرىء من تهمة.

ولا شك أن أرفع مراتب الإيثار، وأجلّ أنواعه وصوره هو الإيثار بما تحتاج إليه النفس المؤثرة لغيرها عليها حاجة تبلغ بها مكان الضرورة التي يكون تركها لإيثار غيرها بموجبها مفضياً إلى نوع من التضحية الأليمة القاسية، التي قد تعرِّض النفس إلى تلفها، أو تعرضها إلى ما لا طاقة لها بتحمله من مهانة وذلة وحرمان.

وهذا النوع من الإيثار هو الذي أثنى به الله جل وعز على الأنصار في مدحتهم الغراء فقال في وصفهم: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ والخصاصة - كما يقول ابن فارس - الإملاق والثُّلمة في الحال، وهذا تصوير لمبلغ الضرورة التي وصلوا إليها في حاجتهم إلى ما يؤثرون به غيرهم على أنفسهم.

ثم وُصفوا بالفلاح على جهة الاختصاص به في مقابلة اختصاص المهاجرين بالصدق في عزائمهم والإخلاص في إيمانهم، فقيل فيهم بعد تقرير أنهم بهذا الإيثار صفَت نفوسهم من كُدورات التطّلعات والحزازات، وأخلصوا الحب لإخوانهم المهاجرين، وطهّروا من رشح الشح فتوقّوه

بفضيلة الكرم والسخاء المؤثر: ﴿ومن يُوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.

الإيثار كان عملاً إيجابياً في واقع الحياة

وقد كان هذا الإيثار من الأنصار لإخوانهم المهاجرين في مؤاخاتهم الاجتماعية عملاً إيجابياً في واقع الحياة، سجلته الوقائع والأحداث، قال ابن سيّد الناس في كتابه (عيون الأثر): وذكر أبو عبدالله الحاكم في كتاب (الإكليل) له بإسناده إلى الواقدي، عن معمر بن راشد، عن الزهري، عن خارجة بن زيد، عن أم العلاء قالت: طار لنا عثمان بن مظعون في القرعة، فكان في منزلي حتى توفي، قالت: فكان المسلمون والمهاجرون في دورهم وأموالهم، فلما غنم رسول الله ﷺ بني النضير دعا ثابت بن قيس ابن شمّاس، فقال: «ادع لي قومك» فقال ثابت: الخزرج يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ «الأنصار كلها» فدعا له الأوس والخزرج، فتكلم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين، وإنزالهم إياهم في منازلهم وأموالهم، وأثرتهم على أنفسهم، ثم قال: «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاءالله عليّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم؟» فتكلم سعد بن عبادة، وسعد ابن معاذ، فقالا: يا رسول الله، بل تقسم بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا.

ونادت الأنصار: رضينا وسلَّمنا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار» فقسم رسول الله ﷺ ما أفاء الله عليه، وأعطى المهاجرين، ولم يعطِ أحداً من الأنصار شيئاً إلا رجلين، كانا محتاجين، سهل بن حنيف، وأبا دُجانة، وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحُقَيق، وكان سيفاً له ذكر عندهم.

وذكر البلاذري في فتوح البلدان أن رسول الله ﷺ قال للأنصار: «ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال، فإن شئتم قسمت هذه ـ أي غنائم بني النضير ـ وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً، وإن شئتم أمسكتم أموالكم

وقسمت هذه فيهم خاصة» فقال الأنصار: بل اقسم هذه فيهم، واقسم لهم من أموالنا ما شئت، فنزلت: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: جزاكم الله يا معشر الأنصار خيراً، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوي:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلَّتِ
أبوا أن يَملُّونا ولو أن أمنا تلاقي الذي يلقون منّا لملَّتِ

عرفان المهاجرين وتقديرهم لفضل إخوانهم الأنصار

وقد قدّمنا حديث حُمَيد الطويل عن أنس بن مالك قال: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال رسول الله ﷺ: «لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم لهم».

وهذا القول من المهاجرين من أعظم الإعظام والتقدير لصنيع الأنصار معهم، وعرفان بالجميل في صورة من أروع ما يمكن أن تصوره الكلمة الصادقة المخلصة.

وفي إجابة رسول الله ﷺ لهم إشعار بأن العمل العظيم لا يجزيه إلا عمل عظيم، وقد أرشدهم ﷺ إلى هذه المجازاة المتوازية في الفضل مع أكرم المكارم التي أسداها إليهم إخوانهم الأنصار، بالمواساة في القليل، والبذل من الكثير، وكفايتهم المؤنة، ومشاركتهم في المهنأ، حتى خشي المهاجرون أن يذهب الأنصار بالأجر كله، فقال لهم رسول الله ﷺ: «لا» لن يذهبوا بأجركم ما عرفتم لهم فضلهم بالثناء عليهم بما هم أهله، وما عرفتم لهم فضلهم في حبكم ومؤاخاتكم، وما دعوتم لهم أن يتولّى الله عنكم جزاءهم.

كان الحب الأخوي أساس المؤاخاة التكافلية الاجتماعية

كان هذا الحب الأخوي بين المهاجرين والأنصار هو الأساس الذي قامت على دعائمه المؤاخاة الاجتماعية التي عقدها النبي ﷺ بين أصحابه بعد مقدمه المدينة، فقد كانت هذه المؤاخاة من أسبق الأعمال التي قام بها رسول الله ﷺ أول ما استقّر في مقامه، وأخذ في بناء مسجده الأعظم، قال ابن

حجر في (الفتح): واختلفوا في ابتداء المؤاخاة، فقيل: بدأت بعد الهجرة بخمسة أشهر ـ وهذا الذي صدّر به القسطلاني في (المواهب) ونسبه شارحه الزرقاني لأبي عمر بن عبد البر، ثم حكى أقوالاً أخرى هي التي ذكرها ابن حجر، وزاد عليها الزرقاني، فقال: وقيل: بثمانية أشهر، وقيل، بسبعة، وقيل: بسنة وثلاثة أشهر قبل بدر، ولم يذكر الزرقاني القول بتسعة أشهر، ويظهر أنه هو القول بسبعة أشهر، وحرِّفت السبعة تحريفاً مطبعياً إلى التسعة لقرب رسمهما، وعند أبي سعيد النيسابوري صاحب كتاب (شرف المصطفى): كان الإخاء بينهم في المسجد، وهو مخالف لما رواه البخاري في الصحيح عن عاصم عن أنس بن مالك، قال عاصم: قلت لأنس: أبلغك أن رسول الله ﷺ قال: «لا حلف في الإسلام» فقال: قد حالف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار في داري.

ورواه أبو داود عن عاصم أيضاً، قال: سمعت أنس بن مالك يقول: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا، فقيل له: أليس قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام» قال أنس: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا مرتين أو ثلاثاً.

وقول أنس: مرتين أو ثلاثاً يحتمل أن أنساً قال ذلك لسائله مرتين أو ثلاثاً لتأكيد قوله، ويحتمل أن قوله: مرتين أو ثلاثاً متعلق بقوله: حالف رسول الله ﷺ، ويكون المعنى حينئذ أن المحالفة من رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار وقعت في دارهم مرتين أو ثلاثاً أي أنها تكررت.

واختلاف الألفاظ في زمان ومكان المؤاخاة ليس اختلافاً حقيقياً، لأن المؤاخاة لم تقع دفعة واحدة في مكان واحد، وإنما وقعت على دفعات في أمكنة متعددة، فذكر كل قائل فيها ما وقع إليه ووصله إلى علمه.

بدء المؤاخاة كان من أسبق الأعمال في تصحيح تركيب المجتمع المسلم

والظاهر أن ابتداءها كان في المسجد وهو يُبْنى، والنبي ﷺ مشغول في بنائه مع أصحابه من المهاجرين والأنصار، وكان ذلك المكان الطاهر، والعمل الشريف الخالص لوجه الله تبارك وتعالى أنسب الأمكنة لبدء المؤاخاة لما فيهما من اقتضاء الترافق والتعاون والتعاضد، والتواسي والتناصر، والتوادد وتقوية

آصرة الأخوة الإيمانية، فآخىٰ رسول الله ﷺ بين العاملين معه في بناء المسجد أولاً، ثم آخى بين قوم آخرين في دار أنس، وتكرر ذلك منه ﷺ حتى استوعبت المؤاخاة عدد طلائع المهاجرين والأنصار، وكانوا نحو المائة، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار.

والمؤاخاة التي وقعت في دار أنس بن مالك هي التي سمّاها أنس حِلْفاً، وفسّر سفيان بن عيينة الحلف في قول أنس: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في داري بالمؤاخاة، فقال: حمل العلماء قول أنس على المؤاخاة، وقد ردّ هذا التفسير ابن حجر محتجاً بأن سياق حديث عاصم عن أنس يقتضي أنه أراد المحالفة حقيقة، وإلا لما كان الجواب مطابقاً، وهذا كلام من ابن حجر لا تحقيق فيه لأن الحلف المنفي في قوله ﷺ: «لا حلف في الإسلام» إنما هو حلف الفتن والظلم والبغي، والحلف المثبت الذي قال فيه النبي ﷺ: «وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة» إنما هو حلف مناهضة الظلم والبغي، ومناصرة المظلوم كحلف المطيِّبين الذي حضره رسول الله ﷺ قبل بعثته مع عمومته، وقال فيه: «لقد حضرت في الجاهلية حلفاً ما يسرني أن لي حُمْر النَّعَم وأني لم أحضره» وقد قدّمنا قول ابن القيم في تأويل قوله ﷺ: «لا حلف في الإسلام» بمعنى أنه لا موجب إلى إحداث حلف في الإسلام، لأن الإسلام يوجب المعاونة على الحق ونصرة المظلوم، فلا حاجة وراء هذا الذي يوجبه الإسلام إلى إحداث أحلاف، ويؤيد ذلك ما رواه الإمام أحمد والترمذي ـ وحسّنه ـ عن عبدالله بن عمرو بن العاص يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «أوفوا بحلف الجاهلية، فإن الإسلام لم يزده إلا شدة، ولا تحدِثوا حِلْفاً في الإسلام» وهذا أيضاً يؤيد تفسير سفيان بن عيينة بأن قول أنس: حالف، معناه آخى، وجمعُ البخاري بين الإخاء والحلف في إحدى تراجمه في كتاب الأدب من الجامع الصحيح لا ينافي ذلك، لأنه يكون من عطف التفسير، وقد قصده البخاري ليرد على من فهم أن الذي فعله رسول الله ﷺ في دار أنس محالفة لا مؤاخاة، وذلك ينافي قوله ﷺ في حديث أحمد والترمذي: «ولا تحدثوا حِلْفاً في الإسلام» وإنما سمّى أنس رضي الله عنه ما وقع في داره حلفاً لبيان أنها مؤاخاة ميثاقية مؤكدة كما يتأكد الحلف بين

المتحالفين على الحق والخير ونصرة المظلوم.

والذي يدلُّ على أن المؤاخاة الاجتماعية كانت في مرات متعددة، وأماكن مُختلفة ذكرها في كتب الصحيح، البخاري ومسلم وكتب السنن وغيرها مفرقة الوقائع والأشخاص، فالبخاري ذكر حديث مؤاخاة عبد الرحمن بن عوف لسعد بن الربيع الأنصاري عدة مرات في عدة مواضع، ذكره في باب البيوع، وباب الكفالة، وباب النكاح، وباب الأدب، وفي مناقب الأنصار، ووقع فيه هنا: (كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه) وذكر تحت هذه الترجمة قصة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وعرض سعد على عبد الرحمن أنه من أكثر الأنصار مالاً، وأنه يقاسمه ماله، وينزل له عن أعجب زوجتيه إليه، فيطلقها ليتزوجها بعد انقضاء عدتها، فشكر له عبد الرحمن أريحيته ومكرمته، ودعا له بالبركة في أهله وماله، وقال له: دلّني على السوق، فدلَّه عليه وغدا عبد الرحمن إلى السوق يتجر، ويأخذ ويعطي، ويبيع ويشتري حتى أثرى وكثر ماله، وكان ميمون النقيبة في التجارة، وجعل يغدو إلى السوق كل يوم، فيربح، وتزوج امرأة من الأنصار أمهرها وزن نواة ذهباً، ورآه النبي ﷺ وعليه صفرة الطيب، فقال له «مَهْيَم» فقال: تزوجت امرأة من الأنصار، فقال له رسول الله ﷺ: «أولم ولو بشاة».

وقائع مفرقة من المؤاخاة في الصحاح والسنن

ثم ذكر البخاري بعد هذه الترجمة بعد حديث عبد الرحمن وسعد ابن الربيع حديث مؤاخاة سلمان الفارسي وأبي الدرداء، وفي كتاب العلم ذكر البخاري حديث عمر بن الخطاب: كان لي أخ من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، وقد ذكر ابن إسحق في تسميته المتآخين أن أخا عمر المذكور في الحديث هو عتبان بن مالك، لكن البخاري ذكره بلفظ: كنت أنا وجار لي من الأنصار، وروى مسلم في صحيحه مؤاخاة أبي عبيدة وأبي طلحة من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: آخى رسول الله ﷺ بين أبي عبيدة بن الجراح، وبين أبي طلحة، وكذلك رواه أحمد، وهذا خلاف ما ذكره ابن إسحق، فقد جعل أبا عبيدة أخاً لسعد بن معاذ، ووافقه ابن سيّد الناس في كتابه (عيون الأثر)، ولا شك أن رواية

ابن سيد الناس وابن كثير يذكران جملة صالحة من أسماء المتآخين

مسلم أرجح سنداً، ونقل ابن كثير في (البداية والنهاية) ما ذكره ابن إسحق، وتعقّبه، فقال: وفي بعض ما ذكره نظر، أما مؤاخاة النبي ﷺ وعليّ، فإن من العلماء من ينكر ذلك ويمنع صحته ـ ولعل ابن كثير يشير بذلك إلى شيخه الإمام ابن تيمية ومستنده ـ أي مستند المنكر لمؤاخاة النبي ﷺ علياً في ذلك ـ أن هذه المؤاخاة إنما شرعت لأجل ارتفاق بعضهم من بعض وليتألف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبي ﷺ لأحد منهم، ولا مهاجري لمهاجري آخر، كما ذكره من مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة، اللّهم إلاّ أن يكون النبي ﷺ لم يجعل مصلحة علي لغيره، فإنه كان ممن ينفق عليه ﷺ من صغره في حياة أبيه أبي طالب، وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاهم زيد بن حارثة، فآخاه بهذا الاعتبار، وهكذا ذكره لمؤاخاة جعفر ومعاذ ابن جبل فيه نظر كما أشار إليه عبد الملك بن هشام، فإن جعفر بن أبي طالب إنما قدم في فتح خيبر في أول سنة سبع، فكيف يؤاخي بينه وبين معاذ بن جبل أول مقدمه ﷺ إلى المدينة، اللّهم إلا أن يقال أنه أرصده إذا قدم حين يقدم، وقوله: وكان أبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوين مخالف لما رواه أحمد، حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت عن أنس ابن مالك أن رسول الله ﷺ آخى بين أبي عبيدة بن الجراح وبين أبي طلحة، وكذا رواه مسلم منفرداً به عن حجّاج بن الشاعر، عن عبد الصمد بن عبد الوارث به، وهذا أصح مما ذكره ابن إسحق من مؤاخاة أبي عبيدة وسعد ابن معاذ.

اعتراض ابن كثير على ابن إسحاق وتركه الاعتراض على الواقدي

وقد قدّمنا تفصيل بعض أنظار ابن كثير على ابن إسحق مدعماً بالحجة البينة والله ولي التوفيق.

وقد اكتفى ابن كثير في قصة بنت حمزة رضي الله عنهما عند الحديث على عمرة القضية بكلام الواقدي، وفيه: أن عمارة بنت حمزة ـ كذا يسميها الواقدي، والمشهور أنها (أمامة) ـ كانت بمكة، فلما قدم رسول الله ﷺ كلم عليّ بن أبي طالب رسول الله ﷺ فقال: علام نترك ابنة عمنا يتيمة بين ظهراني المشركين، فلم ينه النبي ﷺ عن إخراجها، فخرج بها، فتكلم زيد

ابن حارثة وكان وصي حمزة، وكان النبي ﷺ قد آخى بينهما حين آخى بين المهاجرين فقال زيد: أنا أحق بها ابنة أخي.

ولم يعقّب ابن كثير على كلام الواقدي المثبت لوقوع المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم لبعض، وقد سبق حكاية ابن كثير قول من أنكر هذه المؤاخاة وذكره مستنده في ذلك، وسكوت ابن كثير عن كلام الواقدي أخف من تناقض ابن القيم في نفي هذه المؤاخاة وإثباتها، والحقيقة علمها عند الله تعالى، وليس لنا إلا الأدلة، فحيثما ظهرت كان الحق الاجتهادي معها.

تحقيق نفي التوارث بالمؤاخاة
بين المهاجرين والأنصار

ذكر جمهور المفسِّرين والمحدِّثين والمؤلفين في السيرة النبوية من القدامى أن المتآخين من المهاجرين والأنصار كانوا يتوارثون بالمؤاخاة دون ذوي الأرحام وقرابة النسب، حتى كانت وقعة بدر، فنزلت آية ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ فنسخت ما كان من توارث بالمؤاخاة.

قال أبو جعفر الطبري في قوله: (أولئك بعضهم أولياء بعض) يقول: هاتان الفرقتان يعني المهاجرين والأنصار، بعضهم أنصار بعض، وأعوان على من سواهم من المشركين، وأيديهم واحدة على من كفر بالله، وبعضهم إخوان بعض دون أقربائهم الكفار، وقيل: إنما عنى بذلك أن بعضهم أولى بميراث بعض، وأن الله ورّث بعضهم من بعض بالهجرة والنصرة دون القرابة والأرحام، وأن الله نسخ ذلك بعدُ بقوله: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ ثم ذكر عن ابن عباس في قوله: (أولئك بعضهم أولياء بعض) يعني في الميراث، جعل الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام.

ثم قال: كانوا يتوارثون بينهم إذا توفي المؤمن المهاجري ورثه الأنصاري بالولاية في الدين.

ثم روي عن مجاهد قوله: الثلاث الآيات خواتيم الأنفال فيهن ذكر ما كان من ولاية رسول الله ﷺ بين مهاجري المسلمين وبين الأنصار في الميراث، ثم نسخ ذلك آخرها.

وروي عن عبدالله بن كثير قوله: (إن الذين آمنوا وهاجروا): بلغنا أنها كانت في الميراث، ثم ذكر قول قتادة: لبث المسلمون زماناً يتوارثون بالهجرة.

وهكذا أدار الكلام على التوارث بالهجرة أو الولاية: مع أن حكايته لهذا القول جاءت بصيغة التمريض في قوله: وقيل: إنما عنى بذلك أن بعضهم أولى بميراث بعض.

أما في سورة الأحزاب فقد ذكر قول قتادة: لبث المسلمون زماناً يتوارثون بالهجرة، ثم عقَّبه بقول ابن زيد ـ والمراد به عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وهو ضعيف بما يشبه الاتفاق على ضعفه، فقال: قال ابن زيد في قوله: (وأولو الأرحام) إلى قوله (معروفاً) كان النبي ﷺ قد آخى بين المهاجرين والأنصار أول ما كانت الهجرة، وكانوا يتوارثون على ذلك، وقال القرطبي في آيات آخر الأنفال ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ قال ابن عباس: أولياء بعض في الميراث، فكانوا يتوارثون بالهجرة... فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿وأولو الأرحام﴾ أخرجه أبو داود ـ ومراده حديثا ابن عباس، الأول ما رواه عكرمة في ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر، فنسخ ذلك الأنفال ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ والثاني حديث سعيد بن جبير الذي رواه البخاري وقدّمنا ذكره. ثم قال القرطبي: وقيل ليس هنا نسخ، وإنما معناه في النصر والمعونة، وهذا من أحسن ما قيل، وقد نسب صاحب روح المعاني عدم النسخ إلى الأصم، واعترض عليه بما هو مدفوع مردود، كما ألمح إليه الرازي فيما سنسوقه من كلامه.

وذكر القرطبي في تفسير آية ﴿وأولو الأرحام﴾ من سورة الأحزاب قال: وفيه قولان: أحدهما أنه ناسخ للتوارث بالهجرة، وذكر في ذلك قولاً لقتادة قال فيه: كان نزل في سورة الأنفال ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ فتوارث المسلمون بالهجرة... ثم نسخ ذلك في هذه السورة ـ أي سورة الأحزاب ـ بقوله: ﴿وأولو الأرحام بعضهم

أولى ببعض﴾، الثاني أن ذلك ناسخ للتوارث بالحلف والمؤاخاة في الدين، وهو مأخوذ من كلام القاضي ابن العربي الذي جعل القول الأول في النصرة والثاني في الميراث.

وقال أبو حيان في تفسير (وأولو الأرحام) في سورة الأحزاب: كان أولاً بالمدينة توارث بأخوة الإسلام وبالهجرة، ثم حكم تعالى أن أولي الأرحام أحق بالتوارث من الأخ في الإسلام أو بالهجرة في كتاب الله... من المؤمنين والمهاجرين، أي أولى من المؤمنين الذي كانوا يتوارثون بمجرد الإيمان ومن المهاجرين الذين كانوا يتوارثون بالهجرة.

أقوال المفسرين في التوارث بالمؤاخاة الاجتماعية

قال الناصر البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب، حتى نسخ بقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ ثم قال البيضاوي: (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ أي من توليهم في الميراث، ثم قال: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ في التوارث من الأجانب ﴿في كتاب الله﴾ في حكمه أو في اللوح، أو في القرآن ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ من المواريث، والحكمة في إناطتها بنسبة الإسلام، والمظاهرة أولاً، واعتبار القرابة ثانياً.

وقال الزمخشري في كشّافه في قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا﴾ هاجروا أي فارقوا أوطانهم وقومهم حباً لله ورسوله هم المهاجرون، والذين آووا إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم هم الأنصار ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ أي يتولى بعضهم بعضاً في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون القرابات حتى نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ ثم قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿إلاّ تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ أي إلاّ تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين، وتولٍّ بعضهم بعضاً حتى التوارث تفضيلاً لنسبة الإسلام على

القرابة، ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار، ولم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة - تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة.

ثم قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام﴾: أولو القرابات أولى بالتوارث، وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة (في كتاب الله) تعالى، في حكمه وقسمته، وقيل: في اللوح، وقيل: في القرآن، وهو آية المواريث.

الاختلاف في ناسخ التوارث بالمؤاخاة

وقول الزمخشري: وهو آية المواريث، يعني به أن آية المواريث في سورة النساء هي في الحقيقة الناسخة لحكم التوارث بالهجرة والنصرة، وردّ هذا الحكم إلى القرابة النسبية، ولم يكن الناسخ على الحقيقة هو قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ وغاية ما أفادته آية ﴿وأولو الأرحام﴾ الإشارة إلى الناسخ الحقيقي بقولها: ﴿أولى ببعض في كتاب الله﴾ وتأويل الكتاب بالقرآن، والقرآن إنما نسخ حكم التوارث بالهجرة والنصرة - في زعم القائلين به - بآية المواريث المفصِّلة لحقوق الوارثين بحسب قرابتهم النسبية، وآية المواريث من سورة النساء.

وهذا مخالف لجميع أقوال من قالوا بالتوارث بالهجرة، لأنهم مجمعون على أن الناسخ لهذا الحكم هو قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ وإن اختلفوا في تعيين الناسخ من آيتي ﴿وأولو الأرحام﴾ هل هي آية الأنفال - كما ذهب إليه الزمخشري ومن تبعه من المفسرين - أو هي آية سورة الأحزاب، كما ذهب إليه قتادة في رواية الطبري عنه.

ثم إن قول الزمخشري في بيان الناسخ لحكم التوارث بالهجرة من كتاب الله المذكور في آية ﴿وأولو الأرحام﴾: وهو آية المواريث بعيد جداً، لأن آية المواريث من سورة النساء، وهذه السورة نزلت بعد سورة الأنفال، والأنفال نزلت بعد البقرة، التي كانت أول سورة نزلت بالمدينة، فلا يعقل أن يراد بآية ﴿وأولو الأرحام﴾ الناسخة لحكم التوارث بالهجرة آية الأنفال، لأن آية المواريث التي قال الزمخشري أنها هي المرادة من قوله: ﴿في كتاب الله﴾ بتأويل (الكتاب) بالقرآن متأخرة النزول تبعاً لسورتها، وهي النساء، لأنها

نزلت بعد الأنفال بزمن غير قليل، فكيف ينسخ ما لم ينزل من القرآن ـ وهو آية المواريث ـ ما نسخ بما سبق نزوله في آية ﴿وأولو الأرحام﴾؟ اللّهم إلا أن يقال: إن قوله: ﴿وأولو الأرحام﴾ نسخ حكم التوارث بالهجرة إجمالاً ـ أي أوقف العمل به ـ ثم جاءت آية المواريث مفصلة لهذا الإجمال، مبينة موضع وحق كل وارث.

وقد أعاد الزمخشري في تفسير قوله: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ من سورة الأحزاب ما قاله في أختها من سورة الأنفال، فقال: كان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة، لا بالقرابة، ثم نسخ ذلك لما دجا ـ أي دبّ وسعى وانتعش ـ الإسلام، وعزّ أهله، وجعل التوارث بحق القرابة (في كتاب الله) في اللوح، أو فيما أوحى الله إلى نبيه، وهو هذه الآية، أو في آية المواريث أو فيما فرض الله.

ثم قال الزمخشري: (من المؤمنين والمهاجرين) يجوز أن يكون بياناً لأولي الأرحام، أي الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب، ويجوز أن يكون لابتداء الغاية، أي أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الولاية في الدين، ومن المهاجرين بحق الهجرة.

ويلاحظ أن الزمخشري هنا جعل الناسخ ما أوحاه الله إلى نبيه ﷺ وهو هذه الآية، أي آية ﴿وأولو الأرحام﴾ أو في آية المواريث، على أساس إمكان إرادتهما في تأويل (كتاب الله) من قول الله تعالى في الآيتين (في كتاب الله)، ثم قال الزمخشري: فإن قلت: ممّ استثنى (أن تفعلوا)؟ قلت: من أعم العام في معنى النفع والإحسان كما تقول: القريب أولى من الأجنبي إلا في الوصية، تريد أنه أحق منه في كل نفع من ميراث وهبة وهدية وصدقة وغير ذلك إلا في الوصية، والمراد بفعل المعروف التوصية، لأنه لا وصية لوارث.

وهذا كله مبني على التنزّل مع القائلين بثبوت التوارث بين المهاجرين والأنصار بالمؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بينهم بعد الهجرة، دون ذوي الأرحام، ولا شك أن التوارث حكم شرعي، ينقل ملكية المال ممّن كان

مالكاً له قبل موته إلى مالك أو مالكين آخرين بعد موت المورِّث، ومحال أن يثبت هذا الحكم إلا بنص قاطع لا يحتمل التأويل، ونسخ حكم التوارث بالمؤاخاة دون ذوي الأرحام لا يثبت إلا بثبوت أمرين:

نسخ حكم التوارث بالمؤاخاة لا يقع شرعاً إلاّ إذا ثبت هذا التوارث بنص شرعي

أولاً ـ ثبوت الحكم المنسوخ قبل نسخه بنص ثابت.

ثانياً ـ ثبوت إبطال هذا الحكم المنسوخ وإزالته عن دائرة طلب التكليف به بنص ثابت بيِّن يبطل المطالبة به، وإحلال الناسخ محله.

وليس لدينا نص قاطع يثبت التوارث بالمؤاخاة، ويحرم منه ذوي القرابة النسبية، ولعل أمثل ما جاء في التوارث بالمؤاخاة ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون، والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ قال: موالي: ورثة ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجريّ الأنصاريّ، دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ نسخت، ثم قال: ﴿والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث، فيوصى له.

فابن عباس رضي الله عنه فسّر المعاقدة على قراءة ﴿عاقدت أيمانكم﴾ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وجعل هذه المؤاخاة سبباً يرث به المهاجري أخاه الأنصاري، وأن هذا الميراث ذهب ونسخ بقوله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ أي ورثة، وبقي من نصيب الذين عاقدت أيمانكم ـ **أي آخيتموهم ـ النصر والرفادة والنصيحة، والتبرع بالوصية.**

وظاهر أن هذا الذي قاله ابن عباس رأي اجتهادي لم يعرف رفعه إلى رسول الله ﷺ، ولم يأت نص ثابت عنه ﷺ يفيد أن المؤاخاة التي عقدها بين أصحابه من المهاجرين والأنصار كانت سبباً في ميراث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه.

ولم نعثر على حادث أو واقعة طُبِّق فيها حكم التوارث بين المهاجرين

لم نجد واقعة تطبيقية للتوارث بالمؤاخاة مع توافر موجباتها

والأنصار بمقتضى عقد الأخوة، وهو حكم شرعي لا بد له من وقائع في التنفيذ، ولم نر أحداً من الرواة وأهل العلم ذكر أن فلاناً المهاجري ورث فلاناً الأنصاري للأخوّة التي بينهما، إلا ما وجدناه في تفسير القرطبي من أن الزبير بن العوام وهو مهاجري ورث كعب بن مالك الأنصاري للأخوة التي كانت بينهما، وهذا غلط بيّن ووهم، وَهَل فيه القرطبي، وقد نبهنا على ذلك، اللّهم إلاّ أن يكون في العبارة خطأ، والذين ذكروا أسماء المتآخين من المهاجرين والأنصار كابن إسحق وابن كثير، وابن سيّد الناس ذكروا أن كعب بن مالك الانصاري الشاعر كان أخاً لطلحة بن عبيد الله، وأن الزبير ابن العوام كان أخاً لسلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري، والمعروف في تاريخ الصحابة كما في استيعاب ابن عبد البر، وإصابة ابن حجر أن كعب ابن مالك متأخر الوفاة عن الزبير، لأن كعباً توفي في زمن معاوية سنة خمسين أو ثلاث وخمسين، وهذا قاطع بأن وفاته كانت بعد وفاة الزبير الذي استشهد وهو منصرف يوم الجمل سنة ست وثلاثين كما في الإصابة لابن حجر.

وقد خالف قتادة ابن عباس في ناسخ حكم التوارث بالمؤاخاة، فجعله قول الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ وقد عرفنا أن ابن عباس جعل الناسخ ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ حيث فسّر ﴿الموالي﴾ بالورثة. أخرج الطبري في تفسيره عن قتادة قال في قوله تعالى من سورة الأحزاب: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ لبث المسلمون زماناً يتوارثون بالهجرة، والأعرابي المسلم لا يرث من المهاجرين شيئاً، فأنزل الله هذه الآية، فخلط المؤمنين بعضهم ببعض، فصارت المواريث.

فابن عباس رضي الله عنه جعل ميراث المهاجريّ الأنصاريّ بالمؤاخاة المرادة ـ عنده ـ من قوله تعالى: ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ وجعل الناسخ لهذا الميراث قوله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ أي ورثة.

أما قتادة فجعل التوارث بين المهاجرين والأنصار بالهجرة، أي بالمؤاخاة بينهم بعد الهجرة، ولم يتعرض لقوله: ﴿والذين عاقدت﴾ وجعل

الناسخ لهذا التوارث قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ وهي آية سورة الأحزاب.

وهنا قد يتساءل متسائل في كلام قتادة فيقول: كم هو مقدار الزمن الذي لبثه المسلمون وهم يتوارثون بالمؤاخاة بينهم بعد الهجرة، قبل نزول هذه الآية الناسخة لحكم التوارث بالمؤاخاة، وهي من سورة الأحزاب؟

مناقشة رأي قتادة في التوارث بالمؤاخاة

والمعروف أن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كانت من أسبق الأعمال التي قام بها رسول الله ﷺ، وقد بيّنا أنها لم تكن دفعة واحدة، وإنما كانت في دفعات مختلفة ومرات متعددة، وقد بدأت بعد الهجرة بخمسة أشهر في المسجد الأعظم، وهو يُبنى، وهذا أقل تقدير ذهب إليه العلماء، وقيل: بل بدأت المؤاخاة بعد الهجرة بسبعة أشهر، أو ثمانية، أو تسعة، كما ذكر ذلك ابن حجر وابن عبد البر، وقيل إنها بدأت بعد الهجرة بسنة وثلاثة أشهر، قبل وقعة بدر.

وهذا الاختلاف ظاهره مشكل، ولكن إشكاله سهل الحل بما قلناه من أن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لم تتم في مرة واحد، وإنما وقعت مفرّقة في أزمنة وأمكنة وبواعث مختلفة على مرّات متعددة، كانت كل مرة منها تشمل فريقاً من المهاجرين ومثلهم من الأنصار يقلون أو يكثرون على حسب الدواعي والبواعث، فإذا كانت قد بدأت بعد الهجرة بخمسة أشهر في المسجد الأعظم وهو يُبنى فتكون قد استمرت تتجدد وتحدث في مرات حتى قبيل وقعة بدر.

والآية التي جعلها قتادة ناسخة للتوارث بالمؤاخاة جاءت في سورة الأحزاب وهذه السورة الكريمة نزلت باتفاق بعد سورة الأنفال بزمن لا يقل عن ثلاث سنوات، لأن الأنفال بدرية، نزلت عقب بدر في السنة الثانية، وهي كلها في قصتها وانتصاراتها وغنائمها وما وقع فيها وما أعقبها من أحداث وتشريعات، أما سورة الأحزاب فقد نزلت بعد غزوتها المعروفة بغزوة الخندق، وفيها من الأحكام والتشريع والحديث عن المنافقين وأساتذتهم اليهود القرظيين الخبثاء، وغير ذلك من صور المجتمع المسلم في

حاضره وما ينبغي أن يكون عليه في مستقبله ما يجعلها من أمهات سور التشريع القرآني، وغزوة الخندق وهي الأحزاب كانت سنة خمس من الهجرة.

وقد جاء في سورة الأنفال التي سبقت في نزولها سورة الأحزاب بنحو ثلاث سنين أخت آية الأحزاب (وأولو الأرحام) التي جعلها قتادة ناسخة لحكم التوارث بالمؤاخاة والآيتان تتفقان، بل تتوحدان جملاً، وألفاظاً، وحروفاً، في صدرهما، وهو موضع الاستشهاد منهما على النسخ عند القائلين به في نسخ حكم التوارث بالمؤاخاة.

الاختلاف في ناسخ حكم التوارث بالمؤاخاة بين آيتي الأنفال والأحزاب وقوله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾

فلماذا اختار قتادة ومن ذهب إلى قوله آية الأحزاب فجعلها ناسخة لحكم التوارث بالمؤاخاة، وترك آية الأنفال مع سبق نزول الأنفال بزمن مديد على نزول الأحزاب؟ وما هو محمل آية الأنفال في المعنى المراد منها إذا لم تكن ناسخة لحكم التوارث بالمؤاخاة؟ وما المقصود من الأولوية في قوله تعالى في الآيتين: ﴿أولى ببعض﴾؟ وإذا كان لها محمل في آية الأنفال غير نسخ حكم التوارث، وهو ما ينبغي أن يكون عند من لم يجعلها ناسخة؛ فلماذا تختص آية الأنفال بهذا المحمل دون آية الأحزاب؟ ولماذا لا يكون المحمل في الآيتين واحداً، وهما متوحدتا القالب والأسلوب في محل الدلالة؟ ولا سيما أن الحكم الذي قيل عنه إنه منسوخ ـ وهو حكم التوارث بالمؤاخاة بإحدى الآيتين ـ لم يثبت بنص قاطع، فهو في حيِّز العدم، والمعدوم لا ينسخ.

وقد كان الزمن بين بدء المؤاخاة وبين نزول آية الأحزاب التي جعلها قتادة ناسخة لحكم التوارث بالمؤاخاة متطاولاً، كما يفيده قول قتادة: وقد لبث المسلمون زماناً يتوارثون بالهجرة،وفي هذا الزمن وقعت حروب بين المسلمين وأعدائهم استشهد فيها كثير من المسلمين، مهاجرين وأنصاراً ولو لم يكن إلا غزوة أحد لكفى، وقد قتل فيها من المسلمين المهاجرين والأنصار سبعون رجلاً، ولم نعثر على قول لأحد من أهل العلم ورواة الوقائع وناقلي الأحداث من المؤرخين ذكر فيه أن فلاناً المهاجري ورث فلاناً أخاه الأنصاري بما كان بينهما من مؤاخاة، دون ذوي رحمه.

وقد خالف قتادة في جعله آية الأحزاب هي الناسخة جمهرة المفسرين

كالزمخشري في كشّافه، والبيضاوي في (أنواره) وأبي السعود في (إرشاده) وغيرهم ممن جاء بعد الزمخشري فتبعه، فجعلوا الناسخ آية الأنفال، وقد قدمنا كلام الزمخشري في ذلك.

رأي ابن كثير في موافقته قتادة وما يلاحظ عليه

وقد ذهب ابن كثير مذهب قتادة في جعله ناسخ حكم التوارث بالحلف والمؤاخاة آية الأحزاب، فقال في تفسيره وقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ أي في حكم الله ﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾ أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجريّ يرث الأنصاريّ دون قراباته وذوي رحمه، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبير - وهو تلميذ ابن عباس - وغير واحد من السلف والخلف.

وقد أورد فيه ابن أبي حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام، فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي بكر المصعبي من ساكني بغداد، عن عبد الرحمن ابن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه، قال: أنزل الله عز وجل فينا خاصة، معشر قريش والأنصار ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وذلك أنّا معشر قريش لما قدمنا المدينة، قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان، فواخيناهم، وواَرثناهم، فآخى أبو بكر رضي الله عنه خارجة بن زيد، وآخى عمر فلاناً، وآخى عثمان رضي الله عنه رجلاً من بني زريق بن سعد الزرقي، ويقول بعض الناس غيره، قال الزبير: وآخيت أنا كعب بن مالك فجئته فانتقلته، فوجدت السلاح قد أثقله فيما يرى، فوالله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا، ما ورثه غيري حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة فرجعنا إلى مواريثنا.

ويلاحظ على ابن كثير:

أولاً - أنه ذكر التوارث بالحلف مع التوارث بالمؤاخاة، والتوارث بالحلف أمر جاهلي، والتوارث بالمؤاخاة - عند من يقول به - حكم شرعي

إسلامي، وقد جمعهما ابن كثير في نسخهما بآية ﴿وأولو الأرحام﴾ من سورة الأحزاب.

وقول ابن عباس ـ وهو العمدة في التوارث بالمؤاخاة ـ ليس فيه تعرض للتوارث بالحلف.

وثانياً ـ أن ابن كثير ساق حديث ابن أبي حاتم، ولم يعقِّب عليه ببيان مرتبته من الصحة أو الضعف، وهذا على خلاف عادته، ولم يعرف عنه أن سكوته عن التعقيب يفيد تصحيح الحديث.

وثالثاً ـ أن حديث ابن أبي حاتم صريح في القول بأن الزبير بن العوّام كان أخا لكعب بن مالك الأنصاري، ولم يذكر هذه المؤاخاة بينهما أحد ـ فيما علمنا ـ ممن سمّى المتآخين من المهاجرين والأنصار، ولكنهم ذكروا أن كعباً كان أخا طلحة بن عبيد الله، وأن الزبير كان أخا سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري.

ورابعاً ـ أن قول الزبير رضي الله عنه في الحديث: لو مات ـ أي كعب ابن مالك ـ يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري صريح في أن الأخ المهاجري يرث جميع تركة أخيه الأنصاري دون ذوي رحمه، بالغة ما بلغت، ولم يذكر حال بعض ذوي الأرحام من الأنصار إن كانوا مسلمين، فهل يحرمون من ميراث ذوي قراباتهم من أجل المؤاخاة بين مورِّثهم وبين أحد المهاجرين؟ مع أن ولاية الدين ذكرت في بعض الأحوال سبباً في التوارث كالمؤاخاة.

وخامساً ـ إن ميراث المهاجري جميع ما يتركه أخوه الأنصاري ـ كما هو نص حديث ابن أبي حاتم ـ دون ذوي رحمه ولو كانت لهم ولاية الدين ـ لم يظهر له أثر قط في أموال الأنصار، وقد كانوا أصحاب ثروات وأرضين زراعية وبساتين، وتجارات، ولم نر من ذكر من أهل العلم والمؤلفين أن شيئاً من ثرواتهم وأملاكهم انتقل من ملكية أحدهم إلى ملكية أخيه المهاجري بتوارث المؤاخاة أو ولاية الدين، مع تصريح الزبير في حديث ابن أبي حاتم الذي ساقه ابن كثير بأن كعب بن مالك لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه

غيره، وهذا يفيد عموم الحكم، وقد قلنا إن وقائع الحروب بين المسلمين من المهاجرين والأنصار وأعدائهم من المشركين واليهود لم تنقطع، ولا بد أن يكون قد استشهد في هذه الوقائع عدد من الأنصار فورثهم إخوانهم من المهاجرين، ولكنّا لم نر شيئاً من ذلك مسطوراً في روايات التاريخ ومصادر الأحداث والوقائع.

وسادساً ـ إن قول الزبير رضي الله عنه: فوجدنا الأنصار نعم الإخوان، فواخيناهم ووارثناهم يفيد بمقتضى صيغة المفاعلة أن التوارث كان من الجانبين، على معنى أن يرث المهاجريّ الأنصاري وأن يرث الأنصاريّ المهاجريّ.

وهذا مخالف لصريح قول ابن عباس: فيرث المهاجريّ الأنصاريّ، إذ جعل الميراث من جانب واحد فالمهاجريّ وارث والأنصاري موروث كما حكاه ابن كثير في قوله: كما قال ابن عباس وغيره، كان المهاجريّ يرث الأنصاريّ دون قراباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ.

ولا يجدي شيئاً الاعتذار عن ذلك بأن المهاجرين قدموا ولا مال لهم، فهم كانوا ذوي الحاجة، لأن كثيراً منهم عزفت أنفسهم عن أن يكونوا عبئاً على إخوانهم الأنصار فعملوا في التجارة وغيرها، ودرَّ عليهم الرزق مبكراً، وربحوا وكثر مالهم كما يدل عليه حديث عبد الرحمن بن عوف وأخيه سعد ابن الربيع، وقد ثبت أن سعد بن الربيع الأنصاري استشهد قبل عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنهما بسنين، لأن سعداً كان من شهداء غزوة أحد، دفن مع ابن عمه خارجة بن زيد الذي كان أخاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما في قبر واحد.

لو كان ثمة توارث بالمؤاخاة لورث عبد الرحمن بن عوف أخاه سعد بن الربيع ولورث أبو بكر أخاه خارجة بن زيد

ولم يعرف قط أن عبد الرحمن بن عوف ورث سعد بن الربيع بالمؤاخاة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ دون ذوي رحم سعد وقراباته، كما لم يعرف قط أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه ورث خارجة بن زيد الأنصاري أخاه بالمؤاخاة وصهره، وغزوة أحد التي استشهد فيها سعد بن الربيع وخارجة ابن زيد كانت بالبداهة التاريخية أسبق من غزوة الخندق التي نزلت عقبها سورة

الأحزاب، وفي صدرها آية نسخ التوارث بالمؤاخاة وولاية الدين ـ عند من يقول بهذا التوارث ـ ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾.

* * *

ولعل هذا الاضطراب هو الذي حمل بعض أهل العلم على حمل التوارث المنسوخ بآية ﴿وأولو الأرحام﴾ على التوارث بالحلف الذي كان معروفاً في الجاهلية ومعمولاً به قبل الإسلام، فقد أخرج الطبري في تفسيره عن قتادة فقال: كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر، فنسخ ذلك.

ولعل تسمية المؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار حلفاً في حديث أنس عند البخاري ومسلم وأبي داود وغيرهم كان هو الحامل على القول بالتوارث بالمؤاخاة.

وقول الطبري: فنسخ ذلك ليس معناه النسخ الشرعي الذي هو إزالة حكم شرعي ثبت بنص من الشارع والإتيان بحكم شرعي خير منه في الرفق بالأمة، وتحقيق مصلحة للمجتمع أو درء مفسدة عنه، وإنما معناه إزالة أمر جاهلي تعارفته الجاهلية وعملت به بحكم شرعي مؤتنف جاء به نص من الشارع، وهو هنا إثبات التوارث بموجباته النسبية كما تضمنته آية المواريث المشار إليها في آيتي الأنفال والأحزاب بقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ بتأويل (كتاب الله) بالقرآن، وتكون حينئذ آية المواريث هي المرادة بما (في كتاب الله).

اضطراب النقل عن ابن عباس

ومن العجيب أن التوارث بالحلف مروي عن ابن عباس من أصح الطرق عنه، فقد أخرج الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان الرجل يعاقد الرجل، فإذا مات ورثه الآخر، فأنزل الله عز وجل ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ قال ابن عباس: يقول: إلا أن توصوا إلى أوليائكم الذين عاقدتم، وقد رواه أبو داود بأوضح من هذا فقال: عن عكرمة

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر، فنسخ ذلك الأنفال ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾.

وهذا كلام منسجم السياق، قاطع بأن التوارث قبل نزول آية المواريث المحكمة كان بالحلف والتعاقد الجاهلي، فأبطله الله تعالى وأزال آثاره، وهذا معنى قول من عبّر عن هذا الإبطال والإزالة بالنسخ، ولم يكن التوارث بالمؤاخاة، والأكثر على أن الناسخ المزيل لهذا الأمر الجاهلي هو آية ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ من سورة الأحزاب، والذي يظهر أن إزالة التوارث بالتحالف كان بآية الأنفال، لأنها أسبق نزولاً وتقريراً لحكم الميراث إجمالاً.

فالتوارث بالحلف ليس توارثاً شرعياً، وإنما هو أمر من أمور الجاهلية وعاداتهم، ولعله كان معمولاً به في صدر الإسلام قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت رجعت بالمسلمين إلى أنسابهم.

يقول الأستاذ رشيد رضا صاحب المنار: والقرآن لم يشرع للناس الإرث بالتحالف، وإنما أبطله ونسخ ما كان عليه الناس فيه بنزول آية المواريث.

وذهب بعض العلماء إلى حمل المعاقدة في قوله تعالى: ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ على ما كان في **الجاهلية من أحلاف** يتوارثون بها، ورشحوا هذا التأويل بقوله ﷺ فيما رواه أبو داود عن جبير بن مطعم: «لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة» ولا تعارض بين قوله ﷺ في صدر الحديث: «لا حلف في الإسلام» وقوله بعده: «وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة» وقد جعلهما أبو داود حديثاً واحداً، بَيْد أن البخاري روى «لا حلف في الإسلام» عن عاصم في قوله: قلت لأنس: أبلغك أن رسول الله ﷺ قال: «لا حلف في الإسلام» فقال أنس في ردِّه على عاصم: قد حالف النبي ﷺ بين قريش والأنصار في داري.

والمراد بقريش في كلام أنس المهاجرون خاصة، وقد رواه أبو داود بلفظ «حالف بين المهاجرين والأنصار» في دارنا مرتين أو ثلاثاً.

وحديث أنس يثبت الحلف في الإسلام بقوله: حالف النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا فلما قيل له: إن رسول الله ﷺ قال: «لا حلف في الإسلام» لم يزدهم في الرد على قوله الذي قاله أولاً.

التوفيق بين نفي الحلف وإثباته في نظر ابن القيم وابن الأثير

وفي نفي التعارض والتوفيق بين حديث نفي الحلف في الإسلام، وحديث إثباته في قول أنس، وحديث: «وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة» قال ابن القيّم رحمه الله تعالى: فالظاهر - والله أعلم - أن المراد بالحديث «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة» أن الله تعالى قد ألف بين المسلمين بالإسلام وجعلهم به إخوة متناصرين، متعاضدين، يداً واحدة بمنزلة الجسد الواحد، فقد أغناهم الإسلام عن الحلف، بل الذي توجبه أخوة الإسلام لبعضهم على بعض أعظم مما يقتضيه الحلف.

فالحلف إن اقتضى شيئاً يخالف الإسلام فهو باطل، وإن اقتضى ما يقتضيه الإسلام فلا تأثير له، ولا فائدة فيه، وإذا كان قد وقع الحلف في الجاهلية ثم جاء الإسلام بمقتضاه لم يزده الإسلام إلا شدة وتأكيداً.

وأما الحلف الذي أبطله الإسلام فهو تحالف القبائل بأن يقوم بعضها مع بعض وينصره، ويحارب من حاربه ويسالم من سالمه، فهذا لا يعقد في الإسلام، وما كان منه قد وقع في الجاهلية فإن الإسلام يؤكده ويشدّه إذا كان موجبه في الإسلام التناصر والتعاضد والتساعد على إعلاء كلمة الله تعالى، وجهاد أعدائه وتأليف الكلمة وجمع الشمل - إهـ.

فالحلف الذي نفاه رسول الله ﷺ في قوله: «لا حلف في الإسلام» ليس هو المؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ بين أصحابه المهاجرين والأنصار، وهي التي أطلق عليها أنس رضي الله عنه اسم الحلف في قوله: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا، لأن المؤاخاة في صورتها

الاجتماعية التي عقدها النبي ﷺ بين غصني المجتمع المسلم في طليعة تكوينه وقال لهم فيها: «تآخوا في الله أخوين، أخوين» هي أقوى دعائم تركيب المجتمع المسلم في خلوده ومستقبل حياته.

ويشبه أن يكون أنس رضي الله عنه في إطلاقه على المؤاخاة الاجتماعية اسم الحلف أنه فهم من قول تلميذه عاصم الأحول وقد سأله: أبلغك أن رسول الله ﷺ قال «لا حلف في الإسلام»؟ أن هذا من قبيل النهي الذي يتناول في فهم السائل مثل المؤاخاة الاجتماعية التي عقدها النبي ﷺ بين أصحابه في دار أنس، فجاء رد أنس على السائل بما يوحي أن المؤاخاة نوع من التحالف، ولم يغب عن وعي أنس رضي الله عنه أنَّ ما كان عقده النبي ﷺ إنما هو مؤاخاة اجتماعية للتناصر والتعاضد بين المسلمين لإعلاء كلمة الله تعالى.

وذهب ابن الأثير في كتابه (النهاية) في التوفيق بين الحديثين مذهباً لا يبتعد في خلاصته عن كلام ابن القيِّم، فقال: أصل الحلف المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والإنفاق، فما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال والغارات فذلك الذي نهى عنه بقوله: «لا حِلْف في الإسلام» وما كان منه على نصرة المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيِّبين وما جرى مجراه فذلك الذي قال فيه: «وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة».

وظاهر من توفيق الشيخين ابن القيم وابن الأثير الميل إلى حديث «لا حلف في الإسلام» ويقوِّي ذلك تفسير ابن عيينة الحلف في حديث أنس بالأخوة، واعتراض ابن حجر على هذا التفسير مدفوع، ويشد من أزر هذا الاتجاه ما رواه أحمد، والترمذي وحسّنه عن عبدالله بن عمرو بن العاص، يرفعه إلى رسول الله ﷺ: «أوفوا بحلف الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة، ولا تُحْدِثوا حِلْفاً في الإسلام».

وهذا نهي صريح عن إحداث أحلاف في الإسلام، لأن أخوة الإيمان وأخوة التناصر والتعاضد فيهما غُنْية عن هذه الأحلاف التي يكون الغرض

منها التساعد على نصرة الحق والخير، وأما ما كان منها للفتن والظلم فمنهي عنه في الإسلام بمقتضى عموم قواعده في تحقيق العدل وإعطاء كل ذي حق حقه.

معارضة تفسير ابن عباس لقوله تعالى: ﴿ والذين عاقدت أيمانكم﴾ وقوله: ﴿ ولكل جعلنا موالي ﴾

وقد قدمنا الكلام على حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري بتفسير ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ وحملها على المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين أصحابه المهاجرين والأنصار بعد مقدمه المدينة وأنهم كانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة فيرث المهاجري أخاه الأنصاري دون ذوي رحمه، ثم نسخ ذلك بقول الله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ أي ورثة كما فسرها ابن عباس رضي الله عنه، وصرّح بأنها نسخت التوارث بالمؤاخاة، وقلنا: إن هذا الفهم من الحبر ابن عباس فهم اجتهادي لا يلزم حمل الآيتين عليه لإثبات التوارث بالمؤاخاة إذا وجد ما يعارضه في حمل المعاقدة في ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ على معنى آخر غير المؤاخاة.

وقد وجد هذا المعارض في حديث داود بن الحصين عند أبي داود في سننه في كتاب الفرائض، قال ابن الحصين: كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع، وكانت يتيمة في حجر أبي بكر، فقرأت ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ فقالت: لا تقرأ ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ إنما نزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن حين أبى الإسلام، فحلف أبو بكر أن لا يورثه، فلما أسلم أمر نبي الله ﷺ أن يؤتيه نصيبه.

والتوارث بالحلف كان في الجاهلية موجوداً معمولاً به بين المسلمين في صدر الإسلام، فلما نزلت آية الميراث رجع المسلمون في توارثهم إلى أنسابهم طبق ما جاء في الآية من تعيين السهام ومواضعها.

ذكر ابن حجر في الفتح من طريق سعيد بن جبير قال: كان الرجل يعاقد الرجل فيرثه، وعاقد أبو بكر مولى فورثه، وأخرجه السيوطي في (الدر) عن سعيد بن جبير أيضاً قال: إن أبا بكر رضي الله عنه عاقد رجلاً في الجاهلية فورثه أبو بكر.

وذكر القائلون بالتوارث بالحلف أن الحليف كان يرث السدس من تركة حليفه، ثم أبطل هذا التوارث الحليفي بقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وشرع الله لعباده أحكام الميراث كما جاءت في آيتها من سورة النساء.

ويظهر أن النقل عن ابن عباس مضطرب، فقد أخرج أبو داود عنه من طريق عكرمة قال: (والذين آمنوا وهاجروا. . . والذين آمنوا ولم يهاجروا) فكان الأعرابي لا يرث المهاجر، ولا يرثه المهاجر، فنسختها ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وهذا أيضاً محمول على الحلف في الجاهلية، وعلى إبطال أثره، والآية التي قيل: إنها ناسخة يراد من نسخها إبطال حكم الجاهلية وإحلال حكم شرعي مؤتنف محله بوضع الميراث في مواضعه النسبية.

لا وجه للميراث بالمؤاخاة مع نبل موقف الأنصار كما سجله القرآن

ولا تكاد تظهر حكمة معقولة في جعل المؤاخاة الاجتماعية سبباً للتوارث بين المهاجرين والأنصار، مع ما هو ثابت بالنص القطعي الذي أنزله الله تعالى قرآناً يتلى ويُتعبَّد به المؤمنون إلى يوم القيامة من حبِّ الأنصار لإخوانهم المهاجرين حباً جعلهم يؤثرونهم على أنفسهم بما في أيديهم وما يملكون، ولو كان الأنصار في أشد الحاجة لهذا الذي يؤثرون به المهاجرين.

وقد كان هذا الإيثار حقيقة عملية واقعة في مجرى الحياة، ولم يكن خيالاً فضفاضاً يتمدّح به، لأن الله تعالى الحكيم الخبير هو الذي أخبر به في كتابه الحق المبين، وجعله مدحة أثنى بها على الأنصار ثناء تنقطع دون الوصول إليه أعناق الرغائب وتقصر دون غاياته الآمال.

فما قيمة هذا الميراث مهما عظم قدره مع هذا الحب والإيثار الذي لم يترك وراءه حاجة لمهاجري تعتريه في حياته ليسدّها بهذا الميراث؟ وما قيمة هذا الميراث الإلزامي الجبري الذي يولد في الصدور حزازات وضغائن عند ذوي الرحم المحرومين من هذا الميراث؟ بل ما قيمته مع قول رسول الله ﷺ للأنصار: «إن إخوانكم - أي المهاجرين - قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم» فقال الأنصار: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير

ذلك» قالوا وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر» قالوا: نعم، فهل ترك ذلك مكاناً للتوارث الإلزامي الجبري بالمؤاخاة؟ ثم هل يمكن تحقق هذا التصوير الباهر، والرسول هو الذي عرضه على الأنصار مع وجود التوارث بالمؤاخاة وهو حق جبري إلزامي؟ لا، بل ما قيمة هذا التوارث الجاهلي مع هذا الثناء الرغيب الذي أثنى به المهاجرون على الأنصار إذ قالوا لرسول الله ﷺ: ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. فقال لهم رسول الله ﷺ ليخفف عنهم عبء المنّة بالنعمة «لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم لهم».

وكيف يتصور أن المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين أصحابه ليصحح بها تركيب مجتمعه المسلم وجعل أساسها الحب في الله، ولله، يدخل فيها عنصر التوريث الجبري الإلزامي، الذي إن رضيته النفوس الأبية فإنما ترضاه لو ارتكز على نص شرعي من الله ورسوله، وحينئذ يكون الرضا به استسلاماً وتسليماً لأمر الله ورسوله ﷺ فهو أمر مقبول بالعقول لا بالقلوب؟

في الحب أكبر غُنْية عن إلزام إجباري بالميراث

إن الحب هو الذي أقام على دعائمه رسول الله ﷺ المؤاخاة الاجتماعية بين أصحابه المهاجرين والأنصار، لتصحيح التركيب الاجتماعي للمجتمع المسلم الجديد بإزالة الفوارق المادية بين أفراده وجماعاته، إزالة لا تعتمد على سياط العقوبة والقهر القانوني، ولكنها تعتمد على الحب المُؤثِر، بعد أن وحّدت بين أفراده العقيدة الإيمانية.

هذا الحب الذي نهد في مهد الترافق والتواسي والتعاضد والتساعد كان فيه غُنية عن هذا الإلزام الجبري في التوارث، الذي إن رضيته النفوس البشرية فإنما ترضاه لأنها لم تجد عنه بديلاً يقيم الحياة بين أفراد المجتمع، ولكن مالها وله وهي تجد استجابة الضمير بما هو أفضل وأجل وأعظم ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾.

لقد بلغ الحب بالمسلمين في المجتمع المسلم الأول مبلغاً من التعاطف

المواسي والتراحم الودود، يصوره ما رواه أبو داود والترمذي عن أنس ابن مالك قال: لقد رأيتنا وما الرجل المسلم أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم.

ويصوره ما رواه البخاري في مواضع من صحيحه أن عبد الرحمن ابن عوف آخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع، وكان سعد من أكثر الأنصار مالاً، فعرض على عبد الرحمن أن يقاسمه ماله وأن يطلّق له أعجب زوجتيه إليه ليتزوجهابعد انقضاء عدتها، فأبى عبد الرحمن، وشكر لسعد فضله وإيثاره، واستشهد سعد في غزوة أحد وعاش بعده عبد الرحمن ابن عوف ولم يعرف أنه ورثه.

وكيف يصح تشريع الميراث بالمؤاخاة ورسول الله ﷺ يعرض على الأنصار تخييرهم يوم أفاء الله عليه بني النضير وغنائمهم - فكانت خالصة له ﷺ لا تدخل تحت طائلة التخميس - بين أن يقسم هذه الغنائم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين ويبقى المهاجرون كما كانوا معهم في دورهم وأموالهم، وبين أن يخص بغنائم النضير المهاجرين، ويتركوا للأنصار دورهم وأموالهم، فتنادى الأنصار جميعاً بأن يخص ﷺ بهذه الغنائم إخوانهم المهاجرين، ويبقوا على ما كانوا عليه من مشاركة الأنصار في دورهم وأموالهم، فيُنزل الله تعالى مدحتهم بأنهم ﴿يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾.

فأين الميراث إذاً وكان فيه غنية عن هذا التخيير لو كان قد كان، لكنه لم يكن، لأن الحب لا يعرف الإلزام القانوني، ولا يعرف القهر في التواسي والتراحم الودود، مما يصوره موقف الأنصار من إخوانهم المهاجرين.

والظاهر أن روايات التمسك بأحلاف الجاهلية التي كان الميراث عنصراً من عناصر عقدها كان ذا أثر في فهم أن الميراث كان داخلاً في مقومات المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

ومما يزيد زعم أن التوارث كان أثراً من آثار المؤاخاة الاجتماعية التي

في بعض روايات التوارث بالمؤاخاة غموض يوهنها

عقدها رسول ﷺ بين أصحابه المهاجرين والأنصار ـ غموضاً أن هذا الميراث لم يبيّن في رواية ابن عباس، وهي العمدة في القول به، هل كان شاملاً لجميع تركة المتوفى على معنى أن تنتقل ملكية ثروته بأنواعها من عقار ومال سائل وتجارة وزراعة إلى وارثه بالمؤاخاة ويحرم منها ذوو رحمه، أو كان من قبيل ما كان عليه في الجاهلية من الاقتصار على توريث السدس كما جاء في بعض الروايات، أو كان له تقسيم آخر لم يذكر في الروايات؟

على أن أصح بعض الروايات في المؤاخاة المشتملة على ذكر الميراث تقول ـ كما في رواية البخاري في الفرائض عن ابن عباس رضي الله عنه: لما قدموا ـ أي المهاجرون ـ المدينة كان يرث المهاجريّ الأنصاريّ دون ذوي رحمه، بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم، فنزلت ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾.

وظاهر هذه الرواية أن الذي نسخ ميراث المؤاخاة هو قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام﴾ وهذا مخالف لما جاء في كتاب التفسير من البخاري عن ابن عباس نفسه أن الذي نسخ ميراث المؤاخاة هو قوله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ حيث فسّر ابن عباس (الموالي) بالورثة.

ومما يلاحظ على رواية الفرائض من البخاري أنها جعلت الميراث من جانب واحد، فقالت: لما قدموا المدينة كان يرث المهاجريّ الأنصاريّ فاقتصرت على ذلك ولم تذكر المقابل، وهو أن يرث الأنصاري المهاجريّ تحقيقاً للتوارث المشروع بالمؤاخاة عند من يقول به، فإن قيل: إن الأسلوب جرى على الاكتفاء بذكر أحد الجانبين ليدل على الجانب الآخر، قلنا: ليس هذا مما يصح فيه الاكتفاء لأنه تشريع أحكام مؤتنفة ينبغي فيها الشمول.

وقد بيّنا أن الاعتذار عن مثل ذلك بأن الذي يحتاج للتصريح بالنص عليه هو ميراث المهاجري من الأنصاري ـ لأن المهاجرين كانوا هم أصحاب الحاجة للريش والإرفاد ـ لا يجدي غناء في هذا المقام، لأن من المهاجرين من عمل في التجارة وغيرها فتموّل، وملك من المال ما بلغ فوق حاجاته.

فكان من البيّن أن يجيء النص محققاً للتوارث من الجانبين ـ لو كان هناك توارث بالمؤاخاة ـ والنص على جانب واحد يدل على أن المقصود إنما هو المواساة والإرفاد، وإطلاق اسم الميراث عليه لتحتُّمه في شرعة المروءات والمكارم.

رأي محكم متعمق للإمام الرازي ينفي التوارث بالمؤاخاة

وقد أحكم الإمام فخر الدين الرازي القول في هذه المسألة فقال في تفسيره ـ وأظنه منفرداً بجوهرة لآلئه ـ من سورة الأنفال: واعلم أن الله تعالى لما ذكر هذين القسمين في هذه الآية ـ أي المهاجرين والأنصار ـ قال: ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ واختلفوا في المراد بهذه الآية، فنقل الواحدي عن ابن عباس والمفسرين كلهم أن المراد هو الولاية في الميراث، وقالوا جعل الله تعالى سبب الإرث الهجرة والنصرة دون القرابة، وكان القريب الذي آمن ولم يهاجر لم يرث من أجل أنه لم يهاجر، ولم ينصر.

واعلم أن لفظ الولاية غير مشعر بهذا المعنى، لأن هذا اللفظ مشعر بالقرب على ما قررناه، ويقال السلطان ولي من لا ولي له ولا يفيد الإرث، وقال تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ولا يفيد الإرث، بل الولاية تفيد القرب، فيمكن حمله على غير الإرث، وهو كون بعضهم معظماً للبعض، مهتماً بشأنه، مخصوصاً بمعاونته ومناصرته.

قلنا: وقد نسي الإمام الرازي ما هو أقطع في الاستدلال على أن لفظ الولاية معناه القرب والنصرة، أو اكتفى بما ذكر للدلالة على ما لم يذكر، من قبيل الإيجاز المُفْهِم تفادياً عن الإسهاب والتطويل.

وذلك قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ قال الزمخشري في تفسيرها: في كل شيء من أمور الدين والدنيا... فيجب عليهم أن يكون أحبَّ إليهم من أنفسهم، وحكمه عليهم أنفذ من حكم أنفسهم عليهم، وحقّه آثر لديهم من حقوق أنفسهم، وشفقته عليهم أتم من شفقتهم على أنفسهم، وأن يبذلوها دونه، ويجعلوها فداء له إذا أعضل خطب، ووقاءه إذا لقحت حرب، وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم، ولا ما تصرفهم عنه، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وصرفهم عنه، لأن

كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين وما صرفهم عنه فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار.

أو هو أولى بهم على معنى أنه أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم، كقوله تعالى: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

وعن النبي ﷺ «ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة» اقرؤا إن شئتم ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ «**فأيما** مؤمن هلك وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، وإن ترك دَيْناً أو ضياعاً **فإليّ**» وهذا أبين - في موضوعنا - من البيان، لأن رسول الله ﷺ فسّر بما لا يدع مجالاً لتفسير غيره مع تفسيره؛ ولا سيما ما أوضحه في الحديث المفسِّر للآية من قوله ﷺ: «**فأيما** مؤمن هلك وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا» فأين الميراث في معنى لفظ الولاية هنا؟.

والمقصود أن يكون المسلمون يداً واحدة على الأعداء، وأن يكون حب كل واحد لغيره جارياً مجرى حبه لنفسه، وإذا كان اللفظ محتملاً لهذا المعنى كان حمله على الإرث بعيداً عن دلالة اللفظ، لا سيما وهم يقولون: إن ذلك الحكم صار منسوخاً بقوله تعالى في آخر الآية ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وأي حاجة تحملنا على حمل اللفظ على معنى لا إشعار لذلك اللفظ به، ثم الحكم بأنه صار منسوخاً بآية أخرى، مذكورة معه؟

هذا في غاية البعد، اللّهم إلا إذا حصل إجماع المفسرين على أن المراد ذلك، فحينئذ يجب المصير إليه إلا أن دعوى الإجماع بعيد.

قلنا: وقول الرازي: اللهم إلا إذا حصل إجماع المفسرين إلى آخر هذه الفقرة من كلامه، غير مسلّم.

ملاحظة مهمة على كلام الإمام الرازي

أولاً - لأنه نقل في مفتتح كلامه عن الواحدي أن هذا قول المفسرين كلهم وفي مقدمتهم ابن عباس رضي الله عنه وهذا نقل لإجماع المفسرين، لأن التأكيد بلفظ (كلهم) دليل على أن أحداً لم يخالف في ذلك، وهذا

كالمناقض لقوله: اللّهم إلاّ إذا حصل إجماع المفسرين على أن المراد ذلك فحينئذ يجب المصير إليه، وقوله: إلا أن دعوى الإجماع بعيد، لا محصل له بعد كلام الواحدي.

ثانياً ـ أن هـذا الاجماع الذي نقله عن الواحدي إجماع طائفة، هم طائفة المفسرين، ولم يقل أحد إن إجماع طائفة من الأمة ـ عدا الصحابة رضوان الله عليهم ـ حجة يجب المصير إليها، ما لم يعتمد إجماعهم على دليل نصي، فحينئذ يكون المصير إلى موجب الدليل، لا إلى الإجماع، على أننا قد ذكرنا من أقوال بعض المفسرين المعتمدة على روايات حديثيّة ما يخالف هذا الإجماع المزعوم، ومن العجيب أن بعض هذه الروايات المخالفة جاءت عن ابن عباس رضي الله عنه، وهو صاحب القول بتفسير الموالاة بالميراث الذي اعتمد عليه القائلون بميراث المولاة.

ثم قال الرازي في قوله: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ الذين قالوا: المراد من قوله تعالى: ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ ولاية الميراث، قالوا: هذه الآية ناسخة له، فإنه تعالى بيّن أن الإرث كان بسبب النصرة والهجرة، والآن قد صار ذلك منسوخاً فلا يحصل الإرث إلا بسبب القرابة، وقوله: (في كتاب الله) المراد منه السهام المذكورة في سورة النساء.

وأما الذين فسروا تلك الآية بالنصرة والمحبة والتعظيم قالوا: إن تلك الولاية لما كانت محتملة للولاية بسبب الميراث بيّن الله تعالى في هذه الآية أن ولاية الإرث إنما تحصل بسبب القرابة، إلا ما خصه الدليل فيكون المقصود من هذا الكلام إزالة هذا الوهم، وهذا أولى، لأن تكثير النسخ من غير ضرورة ولا حاجة لا يجوز إهـ.

ومما يدل على عدم صحة حمل الولاية في آية ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ على ولاية الميراث، وعلى أن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لم تكن قط سبباً للتوارث بينهم، وأن التوارث إنما كان بالأنساب قبل الهجرة وبعدها ما رواه الدارمي عن ابن سيرين فقال: حدثنا سعيد بن المغيرة قال: قال ابن المبارك: حدثنا ابن عون عن محمد قال: ذكر عنده قول من يقول في الجميل

فأنكر ذلك، وقال: قد توارث المهاجرون والأنصار بنسبهم الذي كان في الجاهلية.

فقوله رحمه الله: قد توارثوا بنسبهم الذي كان في الجاهلية صريح في أن الهجرة والمؤاخاة لم تحدث ميراثاً غير ميراث النسب.

المؤاخاة على الحب في الله
أقوى دعائم بناء حياة الأمة
فإذا وهت تآكل بنيانها

لم يكن هدف المؤاخاة مجرد أمر مادي يعيش به الإنسان

حينما بدأ رسول الله ﷺ وهو يرفع مع أصحابه قواعد مسجده الأعظم بالمدينة ليكون دار الإسلام والمسلمين، ومحفل الإيمان والمؤمنين، ومجمع الهداة والمهتدين ومربى الدعاة إلى الله ـ بتصحيح التركيب الاجتماعي للمجتمع المسلم بعقد المؤاخاة الاجتماعية بين أفراد هذا المجتمع الجديد على الحب في الله، والحب لله، وقال لأصحابه: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين» ـ لم يكن ﷺ يقصد بهذه المؤاخاة عملاً موقوتاً يمكّن به طلائع وجود هذا المجتمع ـ من المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأبناءهم وعشائرهم في سبيل الحفاظ على عقيدتهم التوحيدية وإيمانهم برسالة نبيهم إيماناً مازج أرواحهم وعقولهم وقلوبهم ودماءهم، واستولى على مشاعرهم واحساساتهم، وقد أحاطت بهم الفاقة الماديّة من كل جانب، ومسّتهم الحاجة والإعواز مسّاً أليماً موجعاً، فهاجروا إلى إخوانهم أنصار الله بالمدينة، ليجدوا عندهم متنفساً تستريح إلى أريج نسائمه الإيمانية أنفسُهم، وليكوّنوا معهم مجتمع الإيمان والحب في الله، ولله، مجتمع التضحية والفداء للحفاظ على عقيدتهم والعمل على نشر دعوة نبيهم في آفاق الحياة، هداية، وبراً، وعدلاً، ورحمة ـ من لقمة عيش، يقيمون بها أصلابهم، وتحفظ لهم رمق حياتهم، وتُبْقي على ذماء أنفسهم، لينهضوا بواجبهم الأصيل في تبليغ رسالة ربهم، وإعلاء كلمة الله بتقويض صروح الوثنية المادية البليدة، وإزالة معالم الشرك الغبيّ الجهول ورفع راية الحق، ونصرة المظلوم، ونشر العدل والمساواة، والقضاء على الاستعباد المادي والاستبداد البشري.

لأن لقمة العيش أدنى مراتب الإحسان عند من يملكون أحط قدر من الشعور الإنساني والإحساس الوجداني، فهي لا تستأهل أن تكون في حساب الرغائب العليا التي يحفل بها ذوو المكارم المتسامية إلى ذرا الفضائل من المصطفين لقيادة الإنسانية بمبادىء الحوافز الروحية والعقلية التي تقود الفكر الإنساني في مسيرته الكونية، وهو يكشف عن أسرار الكون في عناصره الطبيعية، ليقيم على أساسها حضارة إنسانية يسعد بها كل إنسان.

وهؤلاء المصطفون لا تعنيهم المبادىء المادّية الهابطة إلا بقدر ما يرون لها من أثر الذرائع الموصلة إلى عظائم الأمور، وعندئذ ينظرون إلى هذه المبادىء المادية نظراً يُعلي من قدرها، ويرفعها عن مزالق الرغائب الرخيصة الهابطة.

فالنبي ﷺ وهو المثل الأعلى في التسامي بمبادىء رسالته السامية بخصائصها، الخالدة في عمومها؛ لا يمكن أن يقصد - وهو يعمل على تصحيح التركيب الاجتماعي لمجتمعه المسلم الذي يعدّه لقيادة الحياة إلى آفاق العزة والكرامة - إلى مجرد تمكين طلائع هذا المجتمع من لقمة العيش في ضآلة قيمتها وخفة وزنها وتفاهة دلالتها على مقاصد هذا المجتمع الرائد القائد، لأنه المجتمع الذي ناطت به العناية الإلٰهية والحكمة الربانية منصب قيادة الإنسانية بما أودع فيها من استعداد ومقوّمات وعناصر فكرية، وإدراكات عقلية، وتنّورات قلبية، وإشراقات روحية إلى ذروة التقدم الحضاري علماً ومعرفة وسلوكاً، وعملاً تطبيقياً لمدركات الحياة والكشف عن أسرارها المسخّرة للإنسان، ليأخذ من الوقوف على بعض تلك الأسرار علمياً أهبته لتحويل هذه الأسرار من نظريات فكرية إلى عمل إيجابي ينهض بالإنسانية نهوضاً تستطعم به نعم الله عليها، وتتذوق برشفه حلاوة العلم الذي كشف ويكشف لها الأغطية عن عناصر الكون، وما انطوت عليه هذه العناصر من خفايا وأسرار مادية وروحية مفعمة بالخير والنوافع والفوائد التي ترفع من قدر الإنسان في تفكيره وعمله في الحياة.

أجل، لم يكن رسول الله ﷺ يقصد قط بالمؤاخاة الاجتماعية التي بدأ بها في تصحيح التركيب الاجتماعي لمجتمعه المسلم إلى مجرد تمكين الذين

هدف المؤاخاة هو العمل على تحقيق أهداف الرسالة الخالدة رسالة الإسلام

أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، وآوَوْا إلى إخوانهم الأنصار من لقمة العيش، وهي أدنى مطالب الحياة عند الذين يقدِّرون الحياة قدرها، وإنما قصد رسول الله ﷺ من هذه المؤاخاة الاجتماعية إلى أمر خطير، وهدف بعيد الغَوْر، عميق المستقر، يستمد خطره وعظمته من مقاصد الرسالة الخاتمة الخالدة، ومن تَمَثُّل غايات دعوته ﷺ، ومن مكانة أمته ومنزلتها التي وضعها الله تعالى في إطارها القيادي لتحقيق أهداف هذه الرسالة العظمى ومقاصدها، ومناهجها التربوية، وطرائق سلوكها في قيادة الإنسانية إلى مقدورها الفكري في الآفاق الحضارية المشرقة بنور الإيمان.

وأهداف رسالته ﷺ ومقاصد دعوته أن يجعل من الإنسانية كلّها في مشارق الأرض ومغاربها أمة واحدة، متآخية متحابة بروح العقيدة التوحيدية، تؤمن بالله رباً وتؤمن برسالاته منهجاً وطريقاً إلى سعادة الحياتين، حياة الوسائل، وحياة المقاصد والغايات الخوالد، وتفرده بالتعبدّ له وحده في وحدة أساسها النشأة الموحَّدة في مادة التوالد الأصيل، المخبر عنه في قول الخلّاق العليم: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾[1] وحدة يحوطها الحب الأخوي، ويسودها العدل المطلق في مغاديها ومراحاتها على اختلاف أوطانهم وأزمانهم وأجيالها، وتظللها المساواة في الحقوق والواجبات، فلا يبقى بينها أفراد أو جماعات، وأمم وشعوب تُفاضل بين غربي وشرقي، ولا بين أبيض وأسود إلا بقدر ما أوتي كل فرد من استعدادات عقلية، وما أوتي من روح تعاونية تؤدي للحياة أقصى ما تطيق من خير وإصلاح يجد فيه المجتمع الإنساني ما يصبو إليه بعيداً عن حب الذات المولّد (للأنانية) المفسد للفطرة الأصيلة المفرِّق للجماعة المتآخية، والمفاضل بين الناس في الرغائب الشهوية الدُّنيا، المتلاهي عن القيم الروحية المستهتر بقدرات العقل الإنساني ووثبات الفكر، والخلق كلهم عيال الله، يعولهم بنعمه، ويربيهم بفضله وإحسانه، وخير الناس أنفعهم للناس.

وأول مدارج الوحدة الإنسانية مدرجة الوحدة النشئية التي تجعل من

(١) سورة الحجرات آية (١٣).

التآخي في التوالد حقيقة مادية واقعية في حياة البشرية منذ أول وجودها، كما جاءت بذلك النصوص القرآنية الحكيمة المحكمة، ثم جاءت الرسالة الخاتمة لتوحّد سلائل الإنسانية وأنسالها بالإيمان بإله واحد، هو الذي خلقهم من نفس واحدة، خلق منها زوجها، وبثّ منهما السلائل والأنسال رجالاً ونساء، ليكونوا أخوة في الإيمان كما كانوا أخوة في النشأة الأولى ﴿وإلـٰهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾[1].

وقد قامت الرسالة الخاتمة الخالدة أول ما قامت به من عمل أن وطدت دعائم هذه الوحدة الإيمانية، ورسّخت ركائزها على أسس من مدركات العقول وقواطع البراهين الكونية.

وبهذا التآخي المتكامل بين الوحدتين النشئية والإيمانية ـ وهما مما انفرد الله بهما إبداعاً وهَدْياً ـ تمّت القاعدة العظمى للرسالة الخاتمة الخالدة، وهذه القاعدة هي الأساس الذي قام عليه كل ما جاء بعده من تشريعات تعبّدية، وأحكام عملية اجتماعية، وبهذا تتضح معالم رسالة المجتمع المسلم أينما حلّ من أرض الله.

منزلة المجتمع المسلم من الإنسانية في تحقيق أهداف الرسالة الخالدة

أما مكانة المجتمع المسلم ومنزلته من الإنسانية لتحقيق أهداف رسالته، فهي مكانة الأب المشفق الرحيم من أولاده في تنشئتهم وتربيتهم، وإعدادهم لمواجهة الحياة بكل ما فيها من آلام وآمال.

فالأب لأولاده في دور طفوليتهم هو الساعي الدؤوب لطلب الرزق الطيب، ليقوتهم حتى تشتد سواعدهم وتقوى سوقهم على حمل صدورهم وهاماتهم بما فيهما من أفكار وأسرار، لينطلقوا في فضاء الحياة ساعين عاملين.

ولكن هذا الأب المشفق الرحيم تفرض عليه أبوته أن لا يغفل عن النظر في مواطىء أقدام أولاده، ليعرف ماذا تطأ هذا الأقدام خشية أن تسيخ بهم مواطىء الرخاوة، أو أن تقسو عليهم ناشفات المواطىء فتدمي أقدامهم

---

(١) سورة البقرة آية (١٦٣).

وتعوقهم عن المضي قُدُماً في تحقيق شرائف رغائبهم.

فهو في نظره إلى مواطىء أقـدام أولاده مرشد قويم وناصح أمين، وموجّه عليم، يرجو ويأمل يرشد ويقوّم، وينصح ويسدد، يكشف عن المزالق، ويجنبهم الوقوع فيها، وينير منائر الطريق وينبىء عن المعالم، ويرجو لهم التوفيق.

والأب لأولاده في دور الشباب والتوثب هو السند القوي، يأخذ بيد من يعثر في توثبه، ويريش المحتاج في سعيه حتى يتغلب على حاجته، ويهدي الضال في طريقه، ويخرج الحَيْران من دياجير حيرته، ويثبته في أمره ويعلّم الجاهل حتى ينقذه من مضايق جهالته، ويشجِّع الموفق على الاستمرار في أخذه بأسباب توفيقه، ويحفز الكسول على الحركة والنهوض حتى يلحق بأخوته.

والأب لأولاده في دور رجوليّتهم أخ ورفيق، وصاحب وصديق، يشـاورهم ويسمع لمشـورتهم، ويشاركهم الـرأي والعمل، وينصفهم في مشاركته لهم ويستهديهم، ويتهدَّى برأيهم إذا لمعت في أفقه لوامع الإشراق المنير، يأخذ منهم في غير مطمع، ويعطيهم في غير سرف ولا تبذيـر، ويعلِّمهم ويتعلَّم منهم، هكذا ينبغي أن يكون موقف المجتمع المسلم من الإنسانية كلها أينما حلَّت، وهي مكانة القائد من جيشه، ولهذه المكـانة أوضاعها وشرائطها في إنجاح مهمتها، فهي مكانة الآمر المطاع الذي يدرس ويخطط للسلم والحرب والذي يجب عليه أن يكون على أتم علم بما يجري من حوله في الحياة، حتى لا يفاجأ بقاصمة الظهر، والذي يجب عليه أن يوفر لحشوده وكتائبه جميع ما يحتاجون إليه من سلاح ودُرْبة ومهارة، والذي يجب عليه أن يوفر لجنده طعامهم وملابسهم ومساكنهم في غير سرفٍ يقتل النخوة، ولا شظف يميت الأمل في أنفسهم، والذي يجب عليه أن يكون يقظ البصر والبصيرة، لا ينيم ولا ينام.

وهي مكانة الرائد من أهله، والرائد لا يكذب أهله، وعليه أن يكون حَذِراً لا يُخْدع في رأيه لهم، يختار في ريادته المرعى الخصب، والمأمن الذي لا

يؤتى، والمستقر الذي لا يقتحم.

وهي مكانة المربي في مدرسته ومعهده وجامعته، ومكانة المربي هي مكانة الأب الحازم من أولاده، يتألّفهم إليه بالمحبة المتوقرة ويقرِّبهم إلى قلبه بالعاطفة الواعية، ويعطيهم بسلوكه في حياته الخاصة والعامة معاقد الأسوة الصالحة المصلحة، يقرأ معهم ويسمع منهم، ويناقشهم في غير عنت ولا إعنات، ويفيدهم من كل جديد في مجالات التربية النفسية والفكرية والبدنية، تغلب رحمته غضبه، فلا يقسو على المنحرف قسوة تخرجه إلى النشوز والشذوذ، ولا يتميّع مع المتساهل ميعة تفسد خلقه وتهلهل أواصر نفسه، ولا يضيق صدره بأحاديثهم، ولا يهجم معهم على مالم يعرف، فتذل أمانتهم، ولا يكذب لهم أو عليهم فتسوء به عقيدتهم وتذهب الثقة به من قلوبهم وعقولهم، ويعز انتفاعهم به في سلوكهم ومناحي تربيتهم.

هذه مكانة المجتمع المسلم التي وضعه الله في إطارها بالنسبة إلى الإنسانية كلها أينما وجدت في فجاج الأرض ومناكبها، فهو للإنسانية بمنزلة الأب المشفق الرحيم، ومنزلة القائد اليقظ الحذر، ومنزلة الرائد الناصح الأمين والمعلِّم المربي الحكيم، لا تطغى أبوته في رحمتها على قيادته في حزمها وحذرها، ولا تعلو ريادته في نصحها وأمانتها على تربيته السلوكية وحكمتها.

فالمجتمع المسلم هو كل ذلك في أفراده وجماعاته مع الإنسانية كلها في قيادته لها، أفراداً وجماعات، وأمماً وشعوباً، ومن هنا كانت دعائم التربية الأولى لهذا المجتمع المسلم قائمة على توزيع الخصائص القيادية المقومة لشخصية هذا المجتمع في أفراده وجماعاته، ليتسنى له بهذا التوزيع الخصائصي القيام بواجباته في قيادة الإنسانية إلى آفاقها الحضارية المقدورة لها على اختلاف استعداداتها في التفكير ومدركات العقول، وتقلبات القلوب، والألوان واللغات، وأساليب المنطق ووسائل العيش، وتفاوت جوانب الحياة في الفقر والثراء، والاعواز والترف، والإيمان والإلحاد، والعلم والجهل، والحق والباطل، والرشد والغي، والهدى والضلال.

وهذا في الواقع تشريف للمجتمع المسلم، وتكليف لقادته وذوي رأيه

منزلة المجتمع المسلم من الإنسانية تشريف وتكليف

ومفكريه، لأنه في سموه وتساميه شرف ليس فوقه شرف، وهو في باهظ مشاقه وقساوة متاعبه، وأثقال أعبائه وفوادح حمله تكليف تنوء تحت وطأته شوامخ الراسيات.

بيد أنه تكليف محبب إلى نفوس هذا المجتمع قبل أن تصدأ مراياها، للشعور الإيماني الصادق الذي يعمر قلب كل مسلم بأن خاتمية رسالة الإسلام للشرائع الإلٓهية تجعل من المحال أن يأتي منهجٌ إلٓهي في العقيدة والتشريع يستدرك على هذه الرسالة الخاتمة في عقيدتها التوحيدية وتشريعاتها الاجتماعية.

وهذا يقتضي كمال أصولها ورسوخ قواعدها، ويقتضي تحميل المؤمنين بهذه الرسالة الخاتمة أن يكونوا في تساميهم بواجباتهم على مستوى مسؤوليتهم عن نشر هذه الرسالة وتبليغ دعوتها والحفاظ عليها وحمايتها في الكمال الإيجابي العملي، وإلا فما الذي كان يحمل خبّاباً وبلالاً وسمية أم عمار ابن ياسر على صبرهم الذي فاق كل صبر، وهم تحت سياط البلاء والعذاب لا يستعفون.

فهؤلاء الذين ربّتهم رسالة الإسلام إذا نهضوا بواجب قيادة الإنسانية في حياتها الفكرية والاجتماعية، نهضوا وهم موقنون بما يلقون في مسيرة رسالتهم من باهظات الآلام ومشقات التكليف القيادي.

وقد كانت في طلائعهم مُثُلٌ عُليا لهذا الإيقان، احتملوا به ما تتفسخ تحت وطأته الشم الصِّلاد، فهم كانوا بهذا الاحتمال الصبور آية من آيات الله في هذا المجتمع المسلم، أقامها الله برهاناً على ما أودع في رسالتهم الخاتمة الخالدة من قوى ذاتية تكمن في عقيدتها التوحيدية وتشريعاتها الاجتماعية، وتربيتها لمعتنقي مبادئها تربية جعلت منهم مصنعاً لقادة الإنسانية ما كانوا قائمين بأمر رسالتهم، آخذين بمبادىء تربيتها التي خرَّجت الرعيل الأول في قيادة الإنسانية بسلطانهم الروحي، وعزوفهم عن التكالب المادي لإشباع الرغائب الشهوية.

الانحراف عن سمت الرسالة ومنهجها نزع زمام القيادة من يد المجتمع المسلم

حتى إذا انحرفوا عن سمتها، ومالت بهم زخارف الدنيا عن صراطها المستقيم نزلوا عن ذرا أمجادهم إلى مهاوي التهالك الماديّ، فأخلفوا الله ما وعدوه، وتفرقت كلمتهم، وتشتّت جمعهم، وطمع فيهم من لا يدفع عن نفسه، فاستُعبدوا فكرياً واجتماعياً، وانحسر المد الإسلامي، وتوقف سير الرسالة الخاتمة الخالدة، وعلا صوت الدعايات الطبولية تكذب، وتكذب، حتى خُيِّل إليها أنها تصدق في كذبها، واحلولى في أذواق الفارغين عن حقيقة الإيمان طعم هذا الدعايات الكاذبة، فتخيلوا أن الألسنة المتفيهقة تستطيع أن تقوم مقام الأسنَّة المشرعة، فأكذبهم الله، وأبى عليهم - إذا أرادوا أن يكونوا كما كانوا أعزة قادة - إلا أن يعودوا كما بدؤوا أمة واحدة، تقتحم الغمرات في سبيل استعادة مجدها السليب، وتقدم أضعاف ما قدمت من ضحايا، وتخوض بحار العلم والمعرفة مع الخائضين، وتجعل من هذا العلم الكوني العملي وسيلة تقدمها الحضاري، بغير استجداء وذلّة.

والعلم لا وطن له، ولا مالك له إلا من يتخذه قوة يستكشف بها أسرار الكون ليطوِّع عناصره فيما تشيّد به صروح العزة والكرامة ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.

والإعداد للقوة التي تبلغ أقصى طاقات المجتمع المسلم مادياً وعملياً يحمل في منطوقه ومفهومه الاستقلال في العلم والعمل، وهذا الاستقلال يعني أن تكون الأفكار والأيدي الصانعة التي تعد القوة أفكاراً وأيدياً من صميم المجتمع المسلم في وطن مسلم، ومصانع مسلمة، تعمل بآلات ووسائل مسلمة.

والخدعة الكبرى التي يعيشها المجتمع المسلم في حاضره هي خدعة الخبرة والخبراء، وهذه الخدعة استعباد فكري واجتماعي وصناعي مقنّع، يأخذ وينهب ولا يقدم إلا فتاتاً فاسداً من بقايا موائده الصناعية.

فإذا لم يتخلّص المجتمع المسلم من هذه الخدعة المستعبدة الناهبة فلن يحصل في حياته المخدوعة على طائل، بل سيظل منهبة مخدوعة للناهبين الخادعين، ولن يستطيع أن يعدّ من القوة ما أمره الله به، والدعايات الخطابية

لا سُوق لها عند الخادعين الناهبين.

هذه هي حالة المجتمع المسلم في حاضره، وتلك مكانته ومنزلته في تربيته الأولى التي أعدتـه بها رسالته الخاتمة الخالدة لقيادة الإنسانية.

وقد جاءت بهذا الإعداد القيادي نصوص صريحة كانت ولا تزال ملء سمع الزمان في مجال التطبيق الواقعي قروناً كثيرة في أجيال وأوطان مختلفة اتسع فيها نشر الرسالة، وعلا فيها صوت الدعوة إلى الله، وتم فيها فتح كثير من الممالك التي كانت تعيش في ظلام عبودية الأبـاطرة من الأكـاسرة والقياصرة، فصنعت منهم جميعاً أمة واحدة، عرفت وحدة النشأة، واعتنقت الوحدة الإيمانية في العقيدة التوحيدية والتعبدّ لله وحده، وفي أنظمة الحياة الاجتماعية في المعاملات على رغم اشتعال نيران الفتن الداخلية التي كانت في سعارها وسطوة أخذها كفيلة بتدمير كل خير، لولا الاعتصام التربوي بمبادىء الرسالة الخالدة التي رسّخت أصولها في العقول والقلوب والأرواح رسوخاً جعل المجتمع المسلم في جمهرته وغمرته الكاثرة يولي ظهره للفتن، ويقبل على الجهاد هادياً فاتحاً ومعلّماً قائداً.

الاعتصام بمنهج الرسالة كان أقوى عوامل القيادة في غمرة الفتن الداخلية

وقد تأسست في هذه القرون حضارات مسلمة رفيعة الذرا، شامخة البنيان، تخطَّت الحدود والحواجز في قوة فتية، تثب وثباً، ودلفت إلى القارة الأوربية بعد أن جعلت من البحر الأبيض المتوسط بجزره بحيرة إسلامية، ولو لم يكن للمجتمع المسلم وهو يعيش داخلياً في أتون الفتن إلا فتحُ الأندلس، وإقامته فيها حضارة مسلمة عاشت أكثر من خمسة قرون ولا تزال لها خصائصها الفكرية والروحية والاجتماعية والأدبية والعمرانية لكفى بذلك مثلاً مضروباً في تاريخ الحضارات الإنسانية.

بيد أن الأمر لم يقف عند هذا، بل تخطَّى الفتح التربوي للمجتمع المسلم فوطىء مواطن الحضارات الوثنية، فدخل الصين وأنشأ فيها حضارة مسلمة لها خصائصها الذاتية في روحانيتها وتفكيرها، ولولا الثورة الإلحادية الشيوعية لكان لتلك الحضارة المسلمة في الصين أثر مشهود، وأنشأ الفتح التربوي المسلم في الهند امبراطورية مسلمة ضخمة لا تزال حضارتها قائمة

الشخوص والآثار، تتحدث عن نفسها وعن مؤسسيها.

ولقد شرَّق الفتح التربوي المسلم وغرّب، وجاس خلال القارة العملاقة آسيا، ووضع في أرجائها وممالكها معالم تربيته، وأقام فيها دعائم حضارته التي لا تزال تحكي عن الماضي العريق، وتبكي الحاضر المظلم السحيق.

ولقد كان للمجتمع المسلم وجود غامر بتربيته الأصيلة في جمهوريات الاتحاد السوفيتي الشيوعي الملحد الكفور حيث كانت بعض جمهوريات هذا الاتحاد الشيوعي الكفور صورة مشرقة من صور الوطن المسلم الذي أقامه المجتمع المسلم قبل أن تظهر الشيوعية الملحدة بقرون، لا تدانيها صورة حضارية في الفكر والعلم والمعرفة مستمدة من خصائص المجتمع المسلم في التربية، وقبر شيخ الدنيا في السنة ورواية الحديث النبوي الإمام محمد ابن إسماعيل البخاري أصدق شاهد للتاريخ.

ولكن الشيوعية الملحدة الحاقدة على المجتمع المسلم أبى عليها حقدها الملحد إلا أن تدمر في وحشية جنونية كل أثر لهذا المجتمع المسلم الذي اتخذت منه عدوها اللدود.

نصوص القيادة في القرآن الحكيم ـ النص الأول ـ

إن النصوص القرآنية التي قلدت المجتمع المسلم قلائد القيادة الإنسانية لا تزال أصواتها جهيرة تنادي مجتمعها المسلم ليقوم من رقدته، ويمسح عن عينيه رمص الهوان والذلة، ويأخذ في مسيرته على الجادة، وقد نصبت له المعالم، وأقيمت له على حفافي طريق نهوضه المنائر بمداد التاريخ على كواغد الامكانات الضخمة التي تفجرت ينابيعها في أوطان هذا المجتمع المسلم، والتي ينظر إليها أعداؤه وهم يتلمّظون لاختطافها من بين يديه، ولم يكفهم ما نهبوه منها على مدى مرور الزمان، فهل من سميع؟

يقول القرآن الكريم: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾[1] وهذه دعوة إلى

(١) سورة آل عمران آية (١٠٤).

المجتمع المسلم كله في جميع أوطان الإسلام أن يكون داعياً إلى الخير، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر.

وهذا التعميم في تكليف المجتمع المسلم كله أن يكون داعياً للخير جرياً على أن (مِنْ) في قوله منكم بيانية، والمعنى: ولتكونوا جميعاً داعين إلى الخير، آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، على حسب استعداد كل فرد وطاقته المادية والفكرية، وليست (مِنْ) للتبعيض لأن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمور نسبية يتفاوت الأفراد والجماعات في القيام بها، ولكن كل فرد في المجتمع المسلم مكلّف بقدر استطاعته وهذا من قبيل التكافل السلوكي، ولهذا ختمت الآية بتسجيل الفلاح بأسلوب الاختصاص لجميع الذين يقومون بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقالت: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾.

النص الثاني

ويقول القرآن العظيم مخبراً عن خصيصة المجتمع المسلم القيادية ووسائلها: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾[1] فهذا إخبار تضمّن وعداً من الله تعالى بأن المجتمع المسلم هو خير مجتمع إنساني أُخرج للناس من وراء أستار الغيب في الوجود ليقود الإنسانية إلى آفاق الإصلاح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذا يعني طهارة الشخصية القيادية القائمة على الدعوة إلى الخير، وقوله تعالى: ﴿وتؤمنون بالله﴾ إشعار بأن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا لم تكن مؤسسة على الوحدة الإيمانية فلن تؤتي أكلها، ولن تجني الحياة منها ثمرتها، فهو من قبيل التنبيه على الأساس الذي يستبقي البناء.

النص الثالث

ويقول القرآن العزيز: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[2] والوسطية في هذه الآية هي الخيرية التي أخرج عليها المجتمع المسلم ليكون المثل الأعلى في القيادة الروحية، والقيادة الفكرية، والقيادة الاجتماعية، لأن هذا المجتمع أخرج

---

(١) سورة آل عمران آية (١١٠).

(٢) سورة البقرة آية (١٤٣).

للناس من ضمير الغيب بعد أن اكتمل للحياة رشدُها بعقيدة لا إفراط فيها ولا تفريط، عقيدة لا تحابي الروح وتعطيها كل رعاية وعناية وتهمل القالب البدني الذي اتسع ليكون مثوى الروح على عظم جلالها وكثرة أطوارها، فلا يتحيف هذا القالب البدني فيحرمه من مقوماته حتى يعجز عن إيواء الروح في مستقره ومثواه.

ولا يحابي هذا القالب المادي فيعطيه كل رغائبه المادية حتى تفسد عناصره، وتتفتت مقوماته، وتطغى غرائزه وشهواته على مطالب الروح فتتجمد حتى تستحيل إلى مادة مظلمة عمياء أو إلى ما يشبه المادة المظلمة العمياء، ويرتكس فيه المعنى الإلٰهي الذي يقود الحياة بزمامه وهدايته، فالعقيدة التي أخرج بها هذا المجتمع المسلم إلى الناس عقيدة فطرية، لا تعقيد فيها ولا تفلسف يكد الفكر ويشق عليه ويعنّت العقل، ويجافي إشراقات الروح وتنور القلب ورقة الوجدان، كما أن هذه العقيدة لا تَمَيُّع فيها تميعاً يذهب بفتوة الإدراكات العقلية، ويحد من توثبات الفكر ومغامراته في مجالات استكشافاته العلمية الطبيعية.

وهذا المجتمع المسلم كما أُخرج للناس بهذه العقيدة الفطرية الوجدانية، أُخرج لهم بفكر منطلق بأجنحة الحرية، لا تقيده أغلال التقليد الأبله للآباء والأجداد، ولكنه في انطلاقه لا يكبو ولا يجمح، لأنه متوازن الخطا في انطلاقه، وكأنما خفقُ أجنحته منائرُ مضيئة تهديه بما ترسله في طريقه من أضواء كاشفة وأصوات دالّة ترشده وتسدّده.

وهذا المجتمع المسلم أُخرج للناس وفي يده ميزان العدل الذي لا يميل بالفرد فيسقطه من كفة الحياة، ويجعله قطعة من آلة تعمل بغير إرادة، ولا يميل مع الجماعة ميلاً يجعل وجود الفرد أشبه بالمهملات التي يستغني عنها، ولا يميل بالمجتمع ميلاً يظلمه، فيجعله كمية من أعضاء مفككة الأواصر، لا ارتباط بينها، وكل عضو يستطيع أن يستأثر بما ينفعه في خاصته، ولو كان ذلك النفع على حساب موت الآخرين.

وبهذا التركيب العقيدي والفكري والاجتماعي الذي أُخرج به

الوعد بالنصر إذا حقق المجتمع المسلم عوامل القيادة

المجتمع المسلم إلى الناس وضع الله تعالى في يده زمام القيادة الإنسانية فقال: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ لأنه بتركيبه المحكم كان هو الرقيب المهيمن على الحياة الذي يهدي وينصح ويرشد، ويبصر، ويقيل العثرة، ويهيىء الفرصة، وإنما كانت له هذه الرقابة وهذه الهيمنة على حياة الناس لأنه يحمل في يده الميزان الذي يزن كل عمل فردي أو جماعي، وهذا الميزان إنما جاءت به إليه رسالته الخالدة على يد رسولها المعلِّم الصدوق ﷺ، ومن هنا كان هذا الرسول الأعظم هو الشهيد على خيرة أمته وعدالتها لأنه الرقيب المهيمن عليها، الذي يزكِّيها في شهادتها على الناس، كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ وهذه الشهادة من الرسول الأعظم ﷺ لأمته تتمثل فيما وضعه بين يديها من مبادىء رسالته الخاتمة الخالدة المهيمنة على رسالات الأنبياء والمرسلين، كما بينها القرآن العظيم ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾[1] فهيمنة القرآن الحكيم على الكتب الإلهية التي سبقته شهادة منه على صدق هذه الكتب فيما جاءت به من عند الله قبل التبديل والتحريف، والقرآن الحكيم هو دستور رسالة المجتمع المسلم التي يقود بزمامها الحياة والناس، بما أنزل فيه من النور والهدى والحكمة ونظم القيادة، وشهادة الرسول ﷺ على عدالة أمته ووفائها بشرائط القيادة التي نيطت بها لأنها خير أمة أخرجت لتقوم بموجبات هذه القيادة، بيانٌ لمنزلته ﷺ بوصفه المربِّي الأعظم، والمعلِّم العليم الأكمل في إعداده لطلائع المجتمع المسلم لتسلم زمام القيادة، وليكونوا من بعده قدوة لمن يأتي بعدهم من القادة والدعاة إلى الله لتجنيب الإنسانية مزالق الزلل والتعثر، والأخذ بمبادىء الخير والإصلاح.

وإذا حقق المجتمع المسلم ما نيط به من قيادة الإنسانية مادياً وفكرياً وروحياً واجتماعياً بما عُلِّم كان محققاً لموعود الله له بالنصر في قوله تعالى: ﴿ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكنّاهم في الأرض

---

(١) سورة المائدة آية (٤٨).

أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾[1] وربط نصر الله تعالى لهذا المجتمع المسلم بنصر هذا المجتمع لله تعالى بنصر رسالته ـ بيان لما يجب أن تستهدفه قيادة الإنسانية في سيرها، وهو نصر رسالة الله بإقامة معالمها ونشرها بين الناس في أرجاء الأرض أينما كانوا منها، بما مكّن لهذه القيادة من أسباب النصر التي تستوجب شكر المنعم، ولمّا كانت الصلاة أعظم صور شكر الربوبية لما فيها من أخلص مظاهر العبودية أبرزت في صورة من الأسلوب الشرطي الذي يقتضي التلازم بين جانبيه من الشرط والجواب، ثم عطفت عليها أختها (الزكاة) وهي واليتها في فضل الشكر، لأنها الركن الاجتماعي الذي يعقد أواصر المحبة والإخاء بين أفراد المجتمع المسلم.

والتمكين من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإصلاح ما يفسد من جوانب المجتمع المسلم في قيادته للحياة هو الوسيلة العظمى للعمل القيادي لهذا المجتمع، وهو يشمل التمكين المادي بإعداد القوة المادية لردع أعداء الله وأعداء الحياة الصالحة، إلى جانب إقامة حدود الله بالقوة القاهرة لزجر العابثين بمعالم الاستقامة الخارجين على مبادىء الرسالة الخالدة.

ويشمل التمكين الروحي الذي يستهدف طهارة النفس، والتمكين الفكري الذي يطلق الفكر المسلم في رياض العلم والمعرفة ليَعْلَم ويُعَلِّم، ويشمل التمكين التربوي في المنهج السلوكي المستقيم الذي يقتدي به في مسيرة الحياة الخلقية السالكون على نهج القيادة الذي رسمته مبادىء الرسالة الخالدة في كتابها الحكيم.

العدل أساس المنهج السلوكي في قيادة الإنسانية

وهذا المنهج السلوكي هو الذي يربط المجتمع المسلم في قيادة الإنسانية بمنهج إلزامي، لا يعرف اللّجاجة، ولا يرضى إلا بالصراحة الصارمة، ذلك هو منهج إقامة العدل بين الأفراد والجماعات والأمم والشعوب، لأن العدل في شمول مواطنه هو دعامة القيادة الموفقة، يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين

(١) سورة الحج آيتا (٤٠، ٤١).

والأقربين﴾[1] وهذا نص قرآني صريح في تكليف المجتمع القيادي المسلم تحقيق العدل على أتم صوره وأكمل أحواله، فالعدل على النفس، وعلى أقرب ذوي القربى كالعدل مع غير النفس وأبعد البعداء، وفي قوله تعالى: ﴿كونوا﴾ أمر للمجتمع المسلم في جميع أفراده وجماعاته أينما حلّوا من أرض الله، وحيثما كانوا في أوطانهم المتقاربة أو المتباعدة، وهو أمركينونة يشعر بمادته بالإلزام والالتزام، والتهيؤ والانبعاث للقيام بإقامة منهج العدل في الحياة، وفي قوله: ﴿قوّامين﴾ بصيغة المبالغة إيماء إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم من النهوض بإقامة معالم العدل، بكل ما أوتي من قوة ماديّة وروحية، مشمّراً على ساق العزم في بذل الجهد والتحفز للعمل في سبيل توطيد دعائم العدل الاجتماعي، حتى تكون إقامة العدل دَيْدَن هذا المجتمع المسلم الذي وضع الله في يده زمام قيادة الإنسانية في حياتها الخالدة (المتطورة) في تفكيرها ووسائل عيشها.

ولا يمكن أن يوطّد في النفوس العدل حتى يكون خُلقاً للمجتمع يقوم به كل فرد على نفسه، وعلى غيره من أقرب ذوي القربى وأكثرهم مودة ومحبة، فينصف من نفسه، ومن والديه وكل من يمت إليه بصلة عن طريقهما، وحتى يكون العدل خلقاً للمجتمع يقوم في غير تكلف ولا تردد.

والقرآن الكريم ـ وهو دستور المجتمع المسلم ـ لا يقف في أسلوبه الذي يحض به على الاستمساك بالعدل عند سفح الحياة، ولكنه يتولج إلى مداخل الضمير الإنساني، ويأبى عليه أن يخضع في إقامة العدل لعاطفة تتملّق الغني لغناه وسعة ثروته من المال، أو يتملّق عاطفة الرحمة، فيرحم الفقير لفقره، فيلوي عنه عنق العدل حتى لا يرى ما يقع منه من ظلم وتحيف على الحق.

والقرآن بذلك لا يرضى للمجتمع المسلم أن يحمله تعزز الغني بثرائه وغناه على أن لا يقام معه العدل، ويظلم له الفقير، ولا يرضى لهذا المجتمع المسلم أن تحمله الرحمة للفقير، فَيُحَابي بظلم الغني لأجله.

---

(١) سورة النساء آية (١٣٥).

ولا يرضى القرآن الحكيم لمجتمعه المسلم وقد شرّفه الله فوضع في يده زمام قيادة الإنسانية أن يميل مع الهوى ويخضع للعواطف فيحيد عن العدل لياً بالحق وإعراضاً عن النّصفة، لأن الله تعالى الذي شرّف هذا المجتمع بخيريته وإخراجه للناس قائداً للحياة بهذه الخيرية وحمله أمانة العدل الاجتماعي ـ خبيرٌ بما يكون منهم من إعراض عن الحق لو أعرضوا عنه محاباة لقرابة أو صداقة أو نكصوا عن إقامة معالمه والجهر به انخداعاً بفقر الفقير والرحمة له، فيجازيهم بما يعلم مما انطوت عليه صدورهم.

يقول الطبري فيما يرويه عن قتادة: إن الله تعالى رضيَ العدل لنفسه، وهو ميزان الله في الأرض، به يرد من الشديد على الضعيف، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على المحق، وبالعدل يصدِّق الصادق، ويكذّب الكاذب، ويرد المعتدي ويرنّخه ـ أي يذله ـ وبالعدل يصلح الناس.

وقد جاءت أخت هذه الآية في نسب أسلوبها وألفاظها لتكمل صورة إقامة العدل على أتم وجوهه لتقرر أن موازين العدل يجب أن يتساوى فيها المحب والمبغض، والقريب والبعيد، والصديق والعدو فقالت: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمَّنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[1] فصورة الخطاب الكينوني هنا (كونوا) الذي يجعل من العدل طبيعة في خلائق المجتمع المسلم الذي نيط به قيادة الإنسانية، هي صورته هناك لأن العدل أمانة هذا المجتمع المسلم العظمى التي حملوها ليؤدِّها إلى الناس في حياتهم.

بَيْد أن الأمر اختلف في الآيتين اختلافاً جمع متفرق مواطن العدل باعتباره أصلاً من أصول الرسالة الخالدة الخاتمة الذي يعم الحياة من جميع جوانبها، ففي الآية الأولى وجّه الأمر للمجتمع المسلم بأشرف أوصافه ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلى أن يكون قوّاماً بالعدل ولو كان في ذلك مراغمة منازع الحب والود والقربى، وفي هذه الآية الثانية وجّه الأمر للمجتمع بعنوانه

---

(١) سورة المائدة آية (٨).

المشرف إلى أن يكون قوّاماً بالعدل ولو كان في ذلك مراغمة جميع عواطف البغض والعداوة.

وملتقى الآيتين الكريمتين في توجيه المجتمع المسلم توجيهاً صارماً لا هوادة فيه إلى أن يكون نهّاضاً بالعدل قائماً به بين الناس لتستقيم له قيادته للإنسانية، وليخلص له التوجه إلى الله في إخلاص العبودية له وحده، لا تحمله محبة مهما عظمت أو بغض مهما اشتد على الإعراض عن إقامة العدل إحقاقاً للحق، وإنصافاً للمظلوم، ونصراً للضعيف.

وقد كان هذا المنهج القيادي أول عهد أعطته أول خلافة لرسول الله ﷺ في المجتمع المسلم القائد للحياة تبياناً لمنزلة العدل في قيادة الناس لإصلاحهم، ذلك هو قول الصدّيق أبي بكر رضي الله عنه في أول خطبة خطبها عقب بيعته بالخلافة الراشدة فقال رضي الله عنه: (إني وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، ألا وإن القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له).

منهج العدل في قيادة الإنسانية لا يعرف الفوارق بين الناس

وهذا المنهج الأقوم في وجوب إقامة العدل بين الناس يعم الناس جميعاً، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، ولا بين قويِّهم وضعيفهم، ولا بين عالمهم وجاهلهم، ولا بين راعيهم ومرعيِّهم، ولا بين حاكمهم ومحكومهم، ولا بين أميرهم ومأمورهم، ولا بين صالحهم وفاسقهم، بل ولا بين مؤمنهم وكافرهم، لأنه منهج يعطي لقيادة المجتمع المسلم للإنسانية سلطاناً يرد به غويّها إلى الرشد، ومنحرفها عن مزالق الانحراف، وشاردها إلى الجادة، ليستقيم له طريق العيش الكريم، ويأخذ بيد ضعيفها حتى يمكنه من السير مع ركب الحياة، ويريش مُمْلِقها ليعمل وينهض، ويكف يَدَ سفهائها عن الإسراف في أموالهم، ويعلم جاهلها، ويفتح طرائق البحث الفكري أمام مفكِّريها، يتبنى بما مكّنه الله في الأرض من أسباب مادية وروحية نظرياتهم في بحوثهم وأفكارهم، فيتيح لها أن ترى النور، وتبرز إلى الوجود حقائق تفتح أمام المجتمع المسلم آفاق التحكم في الطبيعة وآثارها، وتكشف له عن أسرار الكون في عناصره المادية والروحية، ليزداد إيماناً مع إيمانه، ويأخذ مكانه في

الحياة عالماً ومعلّماً، ورائداً قائداً، يبتكر ويبدع، ويعمل ويصنع، ويستقل باستخراج كنوز أوطانه المخبوءة في سمائها وأرضها، ويحميها أن تكون نهبة للناهبين، ليحقق للإنسانية في قيادته لها أبوته الرحيمة المشفقة العالمة المعلمة.

يقول الإمام الرازي في تفسيره: اعلم أن التكاليف وإن كثرت إلا أنها محصورة في نوعين: التعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله، فقوله: ﴿كونوا قوّامين﴾ إشارة إلى النوع الأول، وهو التعظيم لأمر الله، ومعنى القيام لله هو أن يقوم لله بالحق في كل ما يلزمه القيام به من إظهار العبودية وتعظيم الربوبية.

وقوله: ﴿شهداء بالقسط﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله ومعناه: لا تحاب في شهادتك أهل ودِّك وقرابتك، ولا تمنع شهادتك أعداءك وأضدادك.

ثم يقول الرازي: وقوله تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا﴾ اي لا يحملنَّكم بغض قوم على ألا تعدلوا فيهم، والآية عامة، والمعنى: ولا يحملنكم بغض قوم على أن تجوروا عليهم وتجاوزوا الحد فيهم، بل اعدلوا فيهم وإن أساؤوا إليكم، وأحسنوا إليهم وإن بالغوا في إيحاشكم، فهذا خطاب عام، ومعناه: أمر الله تعالى جميع الخلق بأن لا يعاملوا أحداً إلا على سبيل العدل والإنصاف، وترك الميل والظلم والاعتساف.

ويقول القرطبي: ودلّت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه، وإن المثلة بهم غير جائزة وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك، فليس لنا أن نقتلهم بمثله قصداً لإيصال الغم والحزن إليهم.

ومن ثم كانت تربية المجتمع المسلم وإعداده لقيادة الإنسانية بخصائصه التي احتواها منهجه التربوي حفيّة أشد الحفاوة بشرعة العدل، فتعددت آياتها ونصوصها، وكثرت الوصية بها، وجاءت في مواضع من القرآن العظيم، تدل كثرتها على شدة العناية بها لأنها ميزان الحكم على نهج قيادة الإنسانية في صلاحيته لتحقيق ما تصبو إليه الإنسانية المهذبة من تقدم ورقي.

هدف الرسالة هو الذي رسم منهج تركيب المجتمع المسلم في قيادته للإنسانية

وإذا كان هذا هو هدف رسالة محمد ﷺ التي ختم الله بها الرسالات الإلٓهية، فكانت خالدة خلود الحياة، وكانت هذه هي مكانة المجتمع المسلم ومنزلته من تحقيق هذا الهدف الخطير العظيم ـ كان من الواجب أن يكون تركيب المجتمع المسلم متساوقاً مع مكانته الاجتماعية، ومتمشياً مع منزلته التكليفية في تحقيق هدف الرسالة الخاتمة الخالدة، ليجعل من ذرائع تحقيق هذا الهدف ووسائله عملا إيجابياً في واقع حياة الإنسانية التي وحّدها الله في نشأتها بقدرته وإبداعه، وبعث فيها رسولاً فوحَّدها في عقيدتها التوحيدية وحياتها الاجتماعية، وقد ختم الله تعالى به الرسالات الإلٓهية، فكانت رسالته جامعة في أصولها لرسالات الرسل من قبله، وكانت كاملة التشريع في إعطاء الحوادث المتجددة أحكامها بما اشتملت عليه من قواعد تحمل في طياتها تحقيق مصالح العباد في إطار العدل الاجتماعي.

وقد تم توحيد الإنسانية إيمانياً بعد إشعارها بتوحيد النشأة قبل الهجرة إلى المدينة حيث اكتمل في هذا التوحيد الإيماني تركيب المجتمع المسلم اكتمالاً لا يحتاج فيه إلى مزيد، لأن المرحلة المكية التي قضتها الرسالة في مكة منذ إشراق شمسها حتى هاجرت مع حماتها إلى مستقرها بالمدينة المنورة كانت كلها لتحقيق هذا التوحيد الإيماني، وتثبيت دعائمه، وتوطيد أسسه على ركائز مدركات العقل، ومناهج العلم والمعرفة.

اكتمال وحدة العقيدة بمكة كان حافزاً على الهجرة

وقد نزلت في هذه المرحلة سور وآيات تبيان العقيدة التوحيدية، بما يتبعها من يوم الجزاء وما يقع فيه، وحديث الأنبياء والرسل وموقف أقوامهم من رسالاتهم، وموقفهم من أقوامهم، وما بذلوا من أنفسهم وحياتهم، وما كان من عواقب ذلك من نصر للحق الذي جاء به الرسل، وما كان معهم من حجاج عقلي، وقد أربى ذلك على أكثر من ثمانين سورة بما لم يدعِ مجالاً لشبهة إلا ردَّها وأبطلها، ولا أبطولة إلا مزّق أديمها ونسفها نسفاً، ولا أكذوبة إلا بهرجها وفنّدها، ولا فرية إلا زيّفها، ولا عنادٍ إلا أذله، ولا عتوٍ إلا أركسه، ولا استكبار إلا أخنعه، ولا تعنت إلا أماط اللثام عن فجوره، ولا جحود إلا نكّسه، ولا مماراة بالباطل إلا كشف عن عوارها.

ولما ضاقت على أحلاس الشرك وعبيد الوثنية المادية الملحدة الحيل، واستنفدوا كل وسائل الإعنات والتعذيب والقسوة والإيذاء قولاً وعملاً، ولم تترك لهم الرسالة الخاتمة الخالدة منفذاً ينفذون منه إلى مواقفتها بمجادلتهم الباطلة ومحاجّتهم الكسيحة، بعد أن شكت أيديهم من طول ما حملت من سياط الجبروت، وجنادل التعذيب والافتنان في صب فوادح البلاء على طلائع الإيمان من السابقين الأولين، وضاقت على المؤمنين الأرض بما رحبت، ولم يجدوا لهم متنفّساً في أوطانهم بين أهلهم وعشيرتهم لتبليغ رسالة الله، ونشر دعوة نبيهم ﷺ التي آمنوا بها إيماناً امتزج بأرواحهم ودمائهم وإحساساتهم ومشاعرهم، خرجوا مهاجرين إلى إخوان كانت لهم بالأمس القريب صولة على هؤلاء الطغاة من عبيد الوثنية في عقر دارهم، أرعبت قلوبهم رعباً التفَّت منه سوقهم بعضها على بعض هلعاً وجزعاً، وفرقاً وفزعاً إذْ قد بلغهم أن البهاليل من أبناء يثرب أوسهم وخزرجهم قد بايعوا رسول الله ﷺ على أن يكونوا حرباً لمن حاربه وسلماً لمن سالمه، كائناً من كان من أهل الأرض، وهم بقية السيف الذين نهدوا بين صليل السيوف ووقع الأسنة في الصدور، وكانوا يرهبونهم أشد الرهبة.

تصحيح تركيب المجتمع المسلم بالمدينة كان وسيلة لاستصلاح المجتمع المدني كله

وهاجر رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن على هجرة أصحابه، واستقر به وبهم المقام في المدينة، ونظر ﷺ في مجتمع المدينة فرأى أخلاطاً من الجماعات المتنافرة أشد التنافر، يتألف منها هذا المجتمع المدني من يهود ومشركين ومتربِّصين، وكان المجتمع المسلم قد أصبح عنصراً أساسياً في عناصر المجتمع المدني، وكان لا بد من استصلاح هذه الأخلاط المتنافرة المركب منها المجتمع المدني، فرأى رسول الله ﷺ من حكمة التدبير وحسن السياسة ألا يبدِّد جهوده الأولى في استصلاح هذه الأخلاط شديدة الاختلاف والتنافر المركب منها المجتمع المدني، لأن ما في عناصر هذا المجتمع من تنافر واختلاف في وسائل الحياة وتحقيق أهدافها سيكون من أصعب المعوقات في الاستصلاح، وقد يكون مبعثاً لنشر الفتن مما قد يضطر المجتمع المسلم الجديد إلى خوض بعض وقائع المجتمع المدني، نظراً إلى ما كان بين الأنصار واليهود من روابط اجتماعية قبل أن يشرف الأنصار بالإيمان بالرسالة الخاتمة

الخالدة، فيشغل ذلك المجتمع المسلم في تركيبه الجديد عن العمل لتحقيق أهدافه وغاياته في نشر الدعوة وتبليغ الرسالة، وقد تكون وسائل هذا المجتمع المسلم الجديد لخوض بعض هذه الأحداث والوقائع أقل وأضعف من وسائل غيره من عناصر المجتمع المدني مما يغري به سائر أخلاط المجتمع المدني، وهم جميعاً له عدو فيتألبون عليه، وينسون ما بينهم من عداوات خاصّة، وتنافر في الوسائل، وتنافر في الأهداف، وينسون التنافس في تحقيق رغائبهم الشخصية، فتجمعهم عداوتهم لهذا المجتمع المسلم الناشىء ليكونوا حرباً عليه، للقضاء على كيانه، لأنهم يخشونه ويخشون منه على مستقبلهم في حياتهم المادية التي يتزاحمون عليها.

وهذا مما يعوّق الدعوة، وقد يوقف سير الرسالة، وسيرُ الرسالة هو المهمة العظمى التي من أجلها هاجر رسول الله ﷺ، وأصحابه، تاركين وراءهم ديارهم وأموالهم وعشائرهم ليواصل ﷺ مع أصحابه نشر الدعوة وتبليغ الرسالة، ويكوِّن مجتمعاً مسلماً جديداً موحَّد النشأة والعقيدة والعوامل الاجتماعية، ليحمل هذا المجتمع الجديد على كاهله عبء حماية الدعوة في نشرها من كل ما يعوّقها عن المُضيّ قُدُماً في سيرها، تبليغاً للرسالة والدفاع عنها ضد كل من يحاول عرقلتها والوقوف في طريقها وهي تسير مشرقة هادية، تفتح القلوب المقفلة بأغاليق الظلم المرعب، وتطلق العقول المغلَّلة بأغلال التقليد البليد الموروث من أغلالها، محررة، منطلقة في أجواز الكون، تفكر وتهتدي وتهدي وتعْلَم وتعلِّم، وتدل على الطريق الذي يرقى بالحضارة الإنسانية إلى آفاق سعادة الحياة.

ومن ثَمّ كانت البداءة بتحقيق الوحدة الاجتماعية بين غصني دوحة المجتمع المسلم الجديد في مستقره ومنطلقه في أرجاء الحياة داعياً إلى الله وإلى توحيده، وهادياً إلى الحق والنور والخير، وهي اللبنة الثالثة في أساس البناء المتكامل لهذا المجتمع المسلم الجديد، بعد وحدة النشأة الميلادية التي أهدرت آثارها بين أبناء الإنسانية، وحلَّت محلَّها الفرقة الجنسية، وفرقة اللون، وفرقة اللغة، وفرقة العلم والجهل، والغنى والفقر.

وجاءت الرسالة الخاتمة الخالدة لتعيد إلى وحدة النشأة حقيقتها، وتذكر الناس بآثارها، ولتؤسس وحدة الإيمان لتكون عنصراً من عناصر التماسك في المجتمع المسلم لا يفصمه جنس ولا لون، ولا لغة، ولا تفاوت مادي في وسائل الحياة.

إحياء وحدة النشأة وتأسيس وحدة العقيدة كانتا معتصم المجتمع المسلم من التفكك

وهاتان الوحدتان ـ وحدة النشأة التي أحيتها الرسالة الخاتمة في تشريعاتها، ووحدة الإيمان التي قامت على دعائمها أسس الرسالة ـ قد كانتا حزام الأمان من التفسخ والتفكك والانحلال لطلائع المجتمع المسلم، وهو يمر في غمرات محن الأزمات وشدائدها معتصماً بعراهما في مرحلة الكفاح الصبور، إذ كان يلقى ما يلقى من فجور الطغيان الوثني، وفتون القسوة الفاجرة على أيدي عتاة المشركين، قبل أن تفتح له أبواب الأمل الفسيح بالهجرة إلى البلد الطيب ومن فيه من أصفياء المؤمنين، أنصار الله، وأنصار نبيِّه ﷺ وأنصار دعوته، وكتائب الجهاد دفاعاً عن رسالته واعلاء كلمتها.

لهذا عمد رسول الله ﷺ إلى أول عمل يقوم به مَقْدمه المدينة المنوّرة التي أصبحت مستقر الدعوة إلى الله، ومنطلق تبليغ الرسالة، ليبنى مجتمعه المسلم الجديد على أسس من القوة المادية والفكرية والاجتماعية بعد أن ثبَّت قدمه في إطار الوحدة الإيمانية، فكان ذلك العمل المجيد هو عقد المؤاخاة بين غصني دوحة المجتمع المسلم من المهاجرين والأنصار، لتصحيح تركيبه الاجتماعي، بمزج عناصره في وحدة اجتماعية تزيل جميع الفوارق الماديّة بين أفراده وجماعاته بوسائل التربية الإيمانية التي ترتكز على الحب وعلى يقظة الضمير، وتحريكه ليصبح هو الرقيب على هذه الوحدة الاجتماعية والحفاظ عليها، دون اللجوء إلى سطوة القانون، وقهر العقوبات.

تحقيق الوحدة الاجتماعية بالمؤاخاة كان دعامة تصحيح تركيب المجتمع المسلم

وتمّت هذه المؤاخاة الاجتماعية على أساس من الحب الذي أنشأته الوحدة الإيمانية في نفس كل مؤمن، وعلى النهج الذي شرعه الله تعالى في تربية هذا المجتمع المسلم في سلوكه الخلقي ونظامه الاجتماعي، وهو يسير حاملاً لواء تبليغ الرسالة إلى الحياة ونشر دعوة الحق والهدى والعلم بين الناس.

وبهذه المؤاخاة الاجتماعية في الارتفاق والمناصرة، والتعاون والتساعد والتعاضد، والحب في الله ولله الذي جعله النبي ﷺ أساساً لهذه المؤاخاة بقوله لأصحابه من المهاجرين والأنصار: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين» تمَّ تصحيح تركيب المجتمع المسلم.

والتآخي في الله هو الثمرة الجنيّة العملية للحب في الله الذي اتخذته الوحدة الإيمانية عنوانها على وجودها في واقع حياة المجتمع المسلم لقوله ﷺ في حديث البخاري: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ».

وتصحيح تركيب المجتمع المسلم على أساس الحب في الله ولله جعل من هذا المجتمع يداً واحدة، وكلمة واحدة، وعملاً واحداً، وذمة واحدة، ودماً واحداً، وفكراً واحداً، ونظاماً واحداً في سياسته ووسائل حياته وتربيته وسلوكه وأخلاقياته، كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الثابت «المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم».

وهذه الوحدة الاجتماعية كانت هي الهدف من عقد المؤاخاة بين المؤمنين، لتجعل من المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي عنصراً بشرياً إيمانياً موحَّد الغاية والوسيلة أمام أخلاط المجتمع المدني المتنافر في أهدافه ووسائله وغاياته، ليسدّ على هذه الأخلاط المتنافرة في مقوّمات حياتها ـ وهي نموذج لكثير من المجتمعات التي سيواجهها المجتمع المسلم في طريق دعوته إلى الله، وتبليغ رسالته، ونشر هدايته، وشرائع أحكامه ـ منافذ الفساد والإفساد، والفتن، والشرور، والكيد، التي يحاولون بها تفريق صف المجتمع المسلم، وتشتيت كلمته، وتفكيك وحدته التي هي مصدر قوته ودعامة حياته.

كانت المؤاخاة الاجتماعية عاصمًا للمجتمع المسلم من كيد أعدائه

وقد حفظ لنا تاريخ نضال المجتمع المسلم مع أعدائه بعد تحقيق وحدته الاجتماعية وهو ما يزال في دور نشأته وتكوينه كثيراً من المحاولات الإفسادية التي كان أولئك الأعداء يدبرون مكايدها، ليشعلوا بها نيران الفتن بين صفوف المجتمع المسلم، ليفرِّقوا جمعه ويفكِّكوا وحدته، ولكن هذه

المحاولات الإفسادية كانت تبوء بالخسران، لأنها كانت تصطدم بقوة تماسك المجتمع المسلم في تركيبه الإيماني والاجتماعي، فيذيبها في تلك القوة التي جعلت من تركيبه الاجتماعي وحدة مدمجة العناصر دمجاً لا يقبل التفريق، ولا تنفصم عراه، ولا تحل روابطه.

روى ابن إسحق وغيره أن شاس بن قيس اليهودي ـ وكان شيخاً قد عسا ـ كبر واشتد مكره ـ عظيم الكفر، شديد الضِّغْن على المسلمين، شديد الحسد لهم ـ مرّ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ـ من الأوس والخزرج ـ في مجلس قد جمعهم، يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلة بهذه البلاد، لا، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار.

فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم، فقال له: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعَاث، وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل الفتى، فتكلَّم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيَّين على الركب، فتقاولا فقال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة. فغضب الفريقان جميعاً، وقالوا قد فعلنا، موعدكم الظاهرة ـ أي الحرّة ـ السلاح، السلاح، فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يا معشر المسلمين، الله، الله، أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم».

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، وقد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس وأضرابه من فجرة اليهود.

وهذه الحادثة تحمل في طياتها ما كانت تنطوي عليه صدور أعداء الله،

نظرة باحثة لإظهار ما انطوت عليه هذه الحادثة ـ ولها أمثالها ـ من عبر

وأعداء رسوله محمد ﷺ ـ وهم أكثر أخلاط المجتمع المدني عدداً وعدّة، وأعظمهم خيانة وغدراً ـ من الحقد الأسود وسوء الضغن على وحدة صف المجتمع المسلم، وتُصوِّر ما امتلأت به قلوبهم من الحسد والغل، وخبث المكر، ودناءة الكيد لهذا المجتمع المسلم.

وتحمل في ثناياها قوة أثر الوحدة الإيمانية في قلوب أفراد وجماعات المجتمع المسلم وتصور عمل هذه القوة في تطهير النفوس المؤمنة من أوضار الضغائن الوثنية الجاهلية التي توهّم أعداء الوحدة الإيمانية أن ترسبها في حنايا النفوس ما يزال في أنفس مجتمع الإسلام قائماً، فخيّب الله توهماتهم، وأراهم ما يحرق أكبادهم من الغيظ وسوء عواقبهم في مقاصدهم السيئة.

وتحمل في غضونها ما كان من سرعة الأوبة والندم على ما كان من نزعات الشيطان والفيئة إلى ظلال الإيمان بعد أن كادت نيران الفتنة الخبيثة تحرق ألفتهم الأخوية التي منّ الله عليهم بها بعد ما كان بينهم من عداوات عاصفة، أنقذهم الله منها برسول الله ﷺ وهو بين أظهرهم، وبما استقر في أفئدتهم من رسوخ اليقين وصادق الإيمان.

إذ أنهم لم يكد يصل إليهم رسول الله ﷺ ـ بعد أن بلغه ما كان من مواعدتهم على القتال، فخطب فيهم مذكِّراً لهم بنعم الله عليهم في وجوده ﷺ بين أظهرهم، وأن الله هداهم به إلى الإسلام والإيمان، فأكرمهم بهما، وأعزهم بعزهما واستنقذهم من ظلمات الكفر، وقطع عنهم أمر الجاهلية، وألّف بين قلوبهم ـ حتى عرفوا أن ما كان منهم من دعوة الجاهلية والعودة إلى ضغائن الكفر إنما كان فورة غضب شيطانية، ونزعة حسد يهودية، وشرارة حقد طيرها بينهم خبيث يهودي، أراد أن يكيد لوحدتهم، فندموا ندماً أبكاهم، وعانق بعضهم بعضاً، وعادوا مع رسول الله ﷺ إلى منازلهم إخواناً متحابين في ظل وحدتهم الإيمانية وأخوتهم الاجتماعية سامعين مطيعين، فرحين بما جدّد الله لهم من نعمة إطفاء كيد عدوهم، الذي باء بغيظه وهو يرى وحدة الصف في المجتمع المسلم تزداد قوة واستمساكاً وألفة ومحبة.

قصة أخرى أعظم دلالة على قوة المؤاخاة في المجتمع المسلم

وهذا حادث آخر يمثل لوناً خبيثاً من أحط المحاولات الإفسادية، لإشعال نار الفتنة بين صف المجتمع المسلم لتفريقه وتمزيق وحدته الاجتماعية، وتفريق كلمته بعد تصحيح تركيبه الاجتماعي بعقد المؤاخاة بين غصني دَوْحة هذا المجتمع من المهاجرين والأنصار، لتكون هذه المؤاخاة الاجتماعية القائمة على الحب في الله ولله قوة روحية ومادية وفكرية، تمثل الإرادة الاجتماعية لهذا المجتمع المسلم على مدى سير الرسالة الخالدة في قوة متماسكة الوشائج التي لا تنفصم عراها، ما دام هذا المجتمع قائماً بموجبات هذه المؤاخاة التي عقدت لتكون عنصراً أساسياً في تركيب عناصر المجتمع المسلم ما بقي هذا المجتمع حاملاً لواء الدعوة إلى الله تعالى بتوحيده، وإخلاص العبودية لجلاله، وما دام هذا المجتمع ممسكاً بيمينه كتاب الله تعالى القرآن الحكيم دستوراً أبدياً لحياته، وما دام هذا المجتمع رافعاً راية تبليغ الرسالة التي ختم الله بها رسالات السماء وشرائعها لينشر في أرجاء الأرض أحكامها وآدابها ونظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة على دعائم العدل والحق بين أبناء الإنسانية أينما كانوا في ملك الله تعالى.

إن هذه المؤاخاة العاصمة للمجتمع المسلم من التفرق والشتات، الرابطة لعناصره بروابط المحبة والإخاء، كانت شجاً في حلاقيم أعداء هذا المجتمع من اليهود والمنافقين ونفايات الوثنية وبقايا أشلاء الشرك الغبيّ، وغصة شرقت بها صدورهم لم تنشأ لتكون فقط عنصراً مادياً رخيصاً في حياة المجتمع المسلم، يضمن لقمة العيش لطلائع الإيمان بالرسالة الخاتمة الخالدة الذين خرجوا من ديارهم، وتركوا وراء ظهورهم أموالهم وأبناءهم وعشائرهم مهاجرين بعقيدتهم الإيمانية إلى الله ورسوله، ولا لتكون وسيلة موارثة بين المهاجرين والأنصار، لأن هذه المقاصد المادية الدانية الدنيا لم تكن في نظر النبي ﷺ ـ الذي أرسل ليقيم ديناً، ويبني أمة، وينشر دعوة تجمع الإنسانية كلها في إطار الأخوة النشئية والوحدة الإيمانية والمؤاخاة الاجتماعية في ظل ظليل من عقيدة التوحيد ـ لتستأهل أن تكون هدفاً لتصحيح تركيب المجتمع المسلم في حياته المستقبلة الأبدية، هذا المجتمع الذي جعل الله في يده زمام قيادة الإنسانية، هداية وعلماً، وسياسة ونظاماً اجتماعياً وأوضاعاً اقتصادية،

وتربية سلوكية، ومعاشرة خلقية، وجعله قدوة يُقْتدى به في تطلعاته إلى الحياة وأسوة للأجيال البشرية المتوالية الورود على طريق الإيمان.

وهذا كله مما أوغر صدور أعداء المجتمع المسلم الذين أكل الحقد قلوبهم وأحرق أكبادهم، وهم يرونه مجتمعاً يعيش في وحدة مدمجة العناصر، يقوم وينهض مُجْتَمِع الهدف والوسيلة، ويقعد ويدبِّر موحَّد الرأي والفكرة، فكان أولئك الأعداء يتربصون به الدوائر، ليوقعوا في صفه الموحَّد المتماسك في عناصر تركيبه الاجتماعي الفرقة والتفكك حتى يتمكنوا من توهين قوته، وإضعاف شوكته، وقهر عزته، ولكن الله تعالى الذي أخرج هذا المجتمع المسلم من ضمير الغيب ليكون خير مجتمع في حياة الإنسانية، يقودها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووحدة الإيمان ـ كان لهؤلاء الأعداء بالمرصاد، كلما تآمروا ودبروا المكايد لهذا المجتمع المسلم ردَّها إلى نحورهم، وأذلَّ تعززهم، وبدَّد غرورهم، وأبطل كيدهم وتدبيرهم، وحاق بهم سوء ما مكروا ودبروا، فأبلسوا حيارى في طغيانهم يعمهون.

وهذا الحادث الذي قصدنا أن نورد قصته شاهداً على ما كان يطحن أفئدة أعداء المجتمع المسلم من الغل والحقد والحسد صورةً حية صادقة تمثل تفاهة تدبيرهم، وتصور قوة تركيب المجتمع المسلم القاهرة الغلّابة، هذه القوة التي كانت أعظم آثار المؤاخاة الاجتماعية بين عناصر هذا المجتمع، لأن المجتمع المسلم جعل من هذه المؤاخاة عنصر بقائه في الحياة قوياً متماسكاً، لا تغمز له قناة، ولا يرد له بأس، ولا تقف في مواجهته هلاهيل الأخلاط المتنافرة الممزقة في داخلها الهزيلة بأهدافها.

وإجمال الحادث في قصته كما أوردها ثقات المؤلفين في السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون له، فخرج إليهم في كتائب المجاهدين من المهاجرين والأنصار حتى لقي جموعهم على ماءٍ لهم يقال له «المريسيع» وباسمه كانت تسمى هذه الغزوة في بعض رواياتها، واقتتل الجمعان وتزاحف الناس، فهزم الله بني المصطلق، ونصر نبيه وجنده.

وبينا رسول الله ﷺ على ماء المريسيع وردت واردة الناس، وكان مع

خبث النفاق ولؤم طبعه يتمثلان في نفثات حقد زعامة ابن أبيّ ابن سلول

عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له جهجاه بن مسعود، يقود فرس عمر، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يـا معشر الأنصـار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب رأس المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم: غلام حَدَث، فقال عبد الله بن أبيّ: أقد فعلوها، أقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا؟ والله ما أعدّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: سمنّ كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم، فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، وعند رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، فقال: مُرْ عبّاد بـن بشر فليقتله، فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ قال: لا، ولكن أذِّن بالرحيل» وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

ثم مشى الكذوب الرعديد عبدالله بن أبيّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلَّغه ما سمعه منه، فحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلمت به. وكان ابن أبي في قومه شريفاً معظّماً، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل؛ حدباً على ابن أبيّ ودفعاً عنه.

فلما استقل رسول الله ﷺ وسار بالناس لقيه أسيد بن الحضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه وقال: يا نبي الله، والله لقد رُحْتَ في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟» قال أسيد: أي صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبدالله بن أبي». قال: وما قال؟ قال رسول الله ﷺ: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج

الأعزّ منها الأذلّ» قال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز.

ثم قال أسيد: ارفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوِّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكه.

الحكمة السياسية التي عالج بها رسول الله ﷺ هذا الحادث

ثم متن ـ أي سار سيراً متواصلاً ـ رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك، حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح، وصدْر يومهم ذلك حتى آذته الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبدالله بن أبيّ.

وبلغ حديثُ ابن أبّي ولده عبدالله ـ وكان من صالحي المسلمين ـ فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبّي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل لك رأسه، فوالله لقد علمتِ الخزرج ما كان من رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبيّ يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار.

نظرات فاحصة في دخائل هذا الحادث وما فيه من عبر

فقال له رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته، ما بقي معنا» وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنِّفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلتهُ يوم قلت لي: اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

وفي قصة هذا الحادث ـ الذي بدأ بين المهاجرين والأنصار، وأراد رأس النفاق عبدالله بن أبي بن سلول استغلاله على أبشع وأحط صور الخبث الكفور، والنفاق الجبان الكذوب ـ أمور من العبر وصور من دخائل النفوس، ينبغي التنبيه إليها، لأنها تصورٌ وضع المجتمع المسلم المتوافق بين

أخلاط المجتمع المدني المتنافر، وتصور شدّة (الحساسية) التي تستحوذ على طوائف المجتمع المدني في تنافره واختلاف أهدافه ووسائله بالنسبة للمجتمع المسلم في توافق مقاصده وأهدافه، وقوة تماسكه روحياً ومادياً، هذا التماسك الذي جعل من المجتمع المسلم قوة مادية مرهوبة الجانب، موحّدة الهدف والوسائل.

العبرة الأولى في هذا الحادث

وأول ما ينبغي التنبيه إليه من هذه العبر أن هذا الحادث بدأ صغيراً بين رجلين لم يكونا ممن يسمّون بين المجتمع المسلم بشهرة في فضل مرموق أو سداد في الرأي.

فالأول وهو جهجاه بن مسعود الغفاري كان أجيراً لعمر بن الخطاب في هذه الغزوة وكان يقود فرسه إلى الماء، فهو في مكانته الاجتماعية تابع، وهو إذا عُدّ في تركيب المجتمع المسلم لا يأتي في أراعيلهم، وهو صاحب قصة عصا النبي ﷺ التي كان يخطب عليها، وتداولها الراشدون من بعده، ففي حديث ابن عمر أن جهجاهاً قام إلى عثمان وهو يخطب على منبر رسول الله ﷺ فأخذ عصا رسول الله ﷺ فوضعها على ركبته فكسرها، فنزل عثمان ودخل داره، ورمى الله جهجاهاً بالأكلة في ركبته، فلم يحل عليه الحول حتى مات.

وثاني الرجلين هو سنان بن وبر حليف بني عوف بن الخزرج الأنصاري، ولم يكن سنان بأفضل من صاحبه جهجاه، هذان الرجلان ازدحما على سقي الماء فاقتتلا، ودعوا بدعوة الجاهلية، فقال جهجاه: يا معشر المهاجرين، وقال سنان: يا معشر الأنصار، ولم تذكر الرواية أن أحداً من المهاجرين والأنصار رفع لهذه الدعوة الجاهلية رأسه، فماتت في قماطها.

وتفاهة هذا الحادث في بدئه وعدم استجابة أحد لدعوته دليل على صغاره ومهانته، ولولا وثبة الشيطان في إهاب النفاق إلى مدرجته ليشعل به نيران الفتن لمضى مع الريح كما تمضي عفطة السخلة.

فهو حادث لم يمسّ في بدئه تماسك عناصر المجتمع المسلم من قريب أو بعيد، ولهذا لم يحفل به هذا المجتمع ولم يتركه يأخذ مكاناً من تركيبه

الاجتماعي، بل أهمله إهمال من لا يسمع ولا يبصر شيئاً.

العبرة الثانية في هذا الحادث

وثاني الأمور التي تلفت النظر، وتستحق التنبيه في هذا الحادث ـ الذي بدأ تافهاً ثم استضخم حتى حمّل النبي ﷺ وأصحابه عنتاً ومشقة في سبيل القضاء على آثاره الحالكة بظلام النفاق والحقد ـ ما كان من رأس النفاق عبدالله بن أبي بن سلول الذي لم يكد يسمع صوت الجاهلية في دعوة جهجاه وسنان، يقول أولهما: يا معشر المهاجرين، ويقول الثاني: يا معشر الأنصار حتى أسرع إلى نفض ما يكنّه صدره من غلٍّ وحقد، وهو جالس بين رهط من قومه، فقال لهم مؤنِّباً متوعِّداً ما قال من سوء القول، وفحش الكلمة، مما ينطوي على إغراء قومه وتحريضهم لينخلعوا من مروءاتهم ومكارمهم التي أثنى الله بها عليهم في فواضلهم التي بلغت من السمو مبلغاً أعجز الإنسانية أن تأتي بمثله في تاريخها القديم والحديث.

ولم يكتف هذا العربيد رأس النفاق والمنافقين بذلك، ولكنه تمطّى وتثاءب، وتوهم أن أباطيله تروج على العقول المؤمنة، وقال قولته الفاجرة الكذوب التي حكاها الله في سورة من القرآن الحكيم سميت باسم حزبه المنافقين، لتفضحه وتفضح كل من كان على شاكلته في لؤم الطبع: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل﴾.

وهنا تثور حمية الإيمان وقوة اليقين في قلب القوي الأمين، فاروق الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيقول لرسول الله ﷺ: مُرْ عبّاد ابن بشر فليقتله، ولكن سياسة الحكمة التي جعلها الله شعار رسول الله ﷺ ومنهجه في كشف الغمم المدلهمة أبت أن تستجيب إلى حميّة عمر رضي الله عنه، وقال له ليرده إلى رزانة التفكير وسداد الحكمة، ولينزع من قلبه خطرة التسرع في خوض غمرات المجهول في مستقبل الأمة: «كيف يا عمر إذا تحدّث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه» ومعنى ذلك أن الفتنة مجنّحة تحاول أن تختطف أمن المجتمع المسلم واستقرار حياته لأن هذا العربيد رأس النفاق والمنافقين، الكذوب المتنفج يدّرع الجبن والتقية في نفاقه، ويخلط نفسه بالمجتمع المسلم خداعاً وغشاً، فهو في نظر عامة الناس فرد من هذا المجتمع الذي

يتداخل معه، ويحضر محافله وغزواته، فلو أن النبي ﷺ أمر بقتله لتحدث الناس، فقالوا: إن محمداً يقتل أصحابه، وحينئذ يشغل المجتمع المسلم عن مهمته في الحياة، وقد يؤدي ذلك إلى وقف عجلة سير الرسالة ونشر الدعوة إلى الله، وقد يؤثر هذا في حُدَثاء الإسلام الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ولم تختمر العقيدة في أفئدتهم، من الذين لا يعلمون شيئاً عن أخلاط المجتمع المدني، ويأخذون الأمور بظواهرها، ويحكمون عليها بما يرون ويسمعون، وفي هذا من الخطر المبدد للوحدة ما لا يعلم مداه إلا الله تعالى، وهذا هو ما يرمي إلى تحقيقه أعداء المجتمع المسلم، وهو ما تحاماه رسول الله ﷺ.

العبرة الثالثة في هذا الحادث

ثم أخذ النبي ﷺ في تطبيق منهجه العملي لحل مشكلات الأحداث المفاجئة بما يضمن عدم مضاعفات آثارها الضارة، فقال لعمر رضي الله عنه ـ بعد أن وجّهه إلى الأناة في إبانها ـ: «ولكن آذن بالرحيل» وكان ذلك في ساعة منكرة لم يعهد في مثلها من النبي ﷺ الرحيل، وارتحل الناس في هذه الساعة التي تعجَّل رسول الله ﷺ الرحيل فيها، فأخذت الدهشة مكانها في أنفس الصحابة من المهاجرين والأنصار، وتهامس من لم يكن قد علم شيئاً، وهم الأكثرون: لم هذا الرحيل في هذه الساعة؟

وعلم رأس المنافقين أن قولته الخبيثة بلغت رسول الله ﷺ، فمشى إلى رسول الله ﷺ يتنصل من قولته الخبيثة، ويحلف أنه ما قال الذي نقل إليه ولا تكلم به، وهو في تنصله وحلفه كذوب، وكان بعض قومه من الأنصار يسمعون تنصله وحلفه أنه ما قال ما قيل عنه أنه قاله، فقالوا حدباً عليه ودفعاً عنه محاولين تبرئته مما وقع منه وهم لا يعلمون، فقالوا: يا رسول الله، لعل الغلام أوهم ولم يحفظ ما قال الرجل.

فلما استقل رسول الله ﷺ لقيه أسيد بن الحضير فحيّاه بتحية النبوة وسلّم عليه، وقال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها، فأخبره النبي ﷺ بما قال عبدالله بن أبي بن سلول ليكشف له عن سر هذا الرحيل في مثل هذه الساعة.

وكان أسيد بن الحضير من سادة الأنصار وخيار الصحابة، فطلب من

العبرة الرابعة في هذا الحادث

النبي ﷺ أن يرفق بابن أبّي مبدياً عذر ضغنه وحقده، وسار رسول الله ﷺ بالناس سيراً طويلاً شاقاً، ليشغلهم عن الحديث الذي كان بالأمس، وكان فيه من أمر ابن أبيّ ما كان، وآتت هذه السياسة الحكيمة أُكلها، ونسي الناس ما كان، ولم يكن لهم همّ إلا أن يأخذوا قسطاً من الراحة بعد هذا السير الطويل المتواصل، وماتت هذه الأمثولة في مهدها، ولم تنل من المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي منالاً. ومن الأمور التي تستحق التنبيه إليها في قصة هذا الحادث الخبيث موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه وطلبه من النبي ﷺ أن يأمر عبّاد بن بِشْر الأنصاري بقتل عبدالله بن أبي رأس النفاق، وعبّاد بن بشر أحد فتية الأنصار وشجعانهم وشعرائهم أصفياء الإيمان، ولكن النبي ﷺ أعرض عن هذا الرأي العمري، ورأى أن قتل ابن أبي يفتح أبواباً للفتنة، ويشعل نارها، وهو ﷺ يريد القضاء على الحادث، بل القضاء على الحديث فيه، حفاظاً على المجتمع المسلم أن يدخل في دوّامة من القيل والقال، وربما كان في المجتمع من لا يُؤْمَن تَزَيدُه في الحديث، ومن تدفعه بقايا الحمية الجاهلية إلى كلمات توغر الصدور، ويشتد الأمر في صف المجتمع المسلم على غرار ما كان في حادث اليهودي الخبيث شاس بن قيس، ولولا تدارك النبي ﷺ للموقف لأدّى إلى تفاقم النزاع والوصول به إلى مالا تحمد عقباه.

وعمر رضي الله عنه جرى في رأيه عرض قتل ابن أبي على سجيته في قوة الإيمان وحميته في أخذ الأمور بالحزم الذي لا هوادة فيه، كما ذكرت الروايات عنه في موقفه من أسرى بدر، وموقفه من حاطب بن أبي بلتعة في الكتاب الذي كتبه إلى أهل مكة يحذرهم فيه سطوة رسول الله ﷺ بهم.

بيد أن عمر لم يقل في قصة ابن أبيّ دعني أضرب عنقه، كما قال في قصة حاطب، ولكنه دلّ النبي ﷺ على فتى من الأنصار هو عبّاد بن بِشْر لو أشار عليه النبي ﷺ أن يقتل ابن أبي ما تردد لحظة واحدة، وعباد بن بشر كان أحد خمسة من فدائيي الأنصار الذين قتلوا كعب بن الأشرف وطهّروا الأرض من فجوره ورجسه.

ورأي عمر في أن يأمر النبي ﷺ عبّاد بن بشر بقتل ابن أبيّ لفتة سياسيةٌ من عمريات عمر في حياته الإيمانية وقوة يقينه ومضاء عزيمته رضي الله عنه، لأن عمر وهو أحد سادات المهاجرين الأكابر المرموق بالنظر من جميع المسلمين يعرف أن ابن أبي كان شريفاً في قومه، معظّماً عندهم، وفيهم من كان حَدِباً عليه، مدافعاً عنه، ولعل هؤلاء وهم من خلصاء المؤمنين، الراسخة أقدامهم في ساحة العقيدة التوحيدية كانوا يطمعون في إيمان ابن أبي نظراً لمكانته في قومه، أو أنهم كانوا يظنونه مؤمناً لما كان يظهر به من مداخلة المجتمع المسلم، فلو أن عمر رضي الله عنه عرض على النبي ﷺ أن يأذن له في قتله مباشرة لعظم هذا الموقف على الأنصار، وربما أدّى ذلك إلى هزة في الموقف بين المهاجرين والأنصار، وحوك في الصدور، ولهذا اتّقى عمر أن يتولى ذلك بنفسه.

العبرة الخامسة في هذا الحادث

ومن أبلغ الأمور التي تستحق لفت النظر في قصة هذا الحادث، وينبغي التنبيه إليها هذا الموقف الإيماني النبيل من عبدالله بن عبدالله بن أبي، وكان مسلماً مؤمناً، مخلصاً في إيمانه، عداده في صلحاء الصحابة رضي الله عنهم.

فقد بلغه ما كان من أبيه من قولة فاجرة خبيثة، وخشى أن يأمر رسول الله ﷺ بقتله فيؤثر ذلك في نفسه، فأتى رسول الله ﷺ وحدّثه بما في نفسه، وقال له: يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني فأنا أحمل لك رأسه، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار.

فتلطفَّ به النبي ﷺ وهدّأ من روعه، وأذهب هواجسه، وقال له: «بل نترفّق به ونحسن صحبته ما بقي معنا» وطابت نفس عبدالله وهدأ روعه، وذهبت الهواجس من صدره، وذاع ذلك من تلّطف رسول الله ﷺ به وقوله له بين صفوف قومه من الأنصار، ونزل من قلوبهم منزل الماء من صدر الصَّدْيان، فكانوا بعد ذلك هم الذين يتولّون عقاب ابن أبي، ويأخذونه بما

يحدِّث منه ويعنفونه عليه.

وهنا التفت رسول الله ﷺ إلى عمر، فقال له: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلتهُ حين قلت لي اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها بقتله اليوم لقتلته» فقال عمر رضي الله عنه: قد والله علمتُ لأمرُ رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

وهذا الموقف العظيم من الصحابي المؤمن الصالح عبدالله بن عبدالله ابن أبيّ في إخلاصه لله ولرسوله، وتقديم محبتهما ومراضيهما على محبة ومراضي الأبوة التي كان أبرّ الناس بها - إن دل على شيء فإنه يدل في مطلع ما يدل عليه أن الإيمان الحق إذا امتزج بالدم والروح وخالطت بشاشته القلب لا يترك معه مكاناً لغيره من عواطف البشرية ومعازّها، والأبوة أعز المعزّات في عواطف الناس، وقد كان عبدالله من أبر الناس بوالده، ولكن لم يجعل لهذا البرّ أثراً مع ما يتطلبه الإيمان بالله ورسوله ﷺ، فهو لم يتردد أن يعرض على رسول الله ﷺ أن يقوم هو بقتل والده، ويحمل إليه رأسه إن كان ﷺ يريد قتله، وهذا تصوير عملي واقعي لتطهر النفس المؤمنة من أن يخالطها ما يخدش إيمانها.

هذا موجز لحادث لو أنه تم على ما أراده خبيث النفاق ورأس المنافقين، لعصف بوحدة المجتمع المسلم الاجتماعية التي أقامت المؤاخاة دعائمها على الحب في الله، ولله بين أفراد المجتمع المسلم من المهاجرين والأنصار.

المؤاخاة عنصر اجتماعي في تركيب المجتمع المسلم وقوة تماسكه في كل زمان ومكان

ومن هنا كان تصويرنا لعقد المؤاخاة وتفاعلاتها في ربط أواصر المجتمع المسلم ربطاً اجتماعياً لا يقف عند حالة موقوتة بزمن أو مكان، أو جيل من الناس، ولا يقف عند حالة مادية في توارث أو ارتفاق في لقمة العيش.

وإنما أنشئت هذه المؤاخاة لتكون عنصراً اجتماعياً في تكوين المجتمع المسلم وتركيبه الاجتماعي إلى جانب الوحدة في النشأة، والوحدة الإيمانية ممثلة في العقيدة التوحيدية.

فالمجتمع المسلم إذا حقق في حياته الخالدة ـ أينما كان هذا المجتمع المسلم من أرض الله، وفي أي زمان كان هذا المجتمع من دورات الفلك ومن أي جيل كانت عناصره المؤمنة ـ هذه الدعائم الثلاث، دعامة مقتضيات وحدة النشأة، ودعامة وحدة الإيمان، ممثلة في العقيدة التوحيدية وإخلاص العبودية لله تعالى، ودعامة وحدة المؤاخاة الاجتماعية، ومزج بينها في إطار روحي ومادي موحَّد الهدف والوسائل كان هو المجتمع القيادي المقصود بقول الله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

وإذا حقق المجتمع المسلم هذه الخيرية روحيّاً وماديّاً كان زمام القيادة الإنسانية بيده يقودها به إلى آفاق أقصى ما تستطيع الوصول إليه من تقدم حضاري يقوم على أساس معرفة الحياة، ومعرفة ما في الكون من أسرار وآيات كونية مسخرة لمنافع الإنسانية وسعادتها، ومعرفة هذه الأسرار في عناصره الكونية، ليجني ثمراتها عملاً مادياً وروحياً، يجعله أساس حياته ودعائم حضارته التي تكسبها خصائص مميزة لها عن سائر الحضارات التي لا تعتمد على الإيمان والمؤاخاة.

مؤاخاة الحب بين أفراد المجتمع المسلم
فتحت الطريق إلى بناء مجتمع مسلم
متكافل بحكم الميثاق الذي
أمر رسول الله ﷺ
بكتابته وتنفيذه

أثر مؤاخاة الحب في الله في بناء مجتمع المستقبل المسلم

تمت المؤاخاة على الحب في الله، التي وجّه إليها رسول الله ﷺ أفراد المجتمع المسلم في أول عمل قام به ﷺ مقدمه المدينة بقوله: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين» وقد شملت هذه المؤاخاة عدد الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين كانوا طليعة المجتمع المسلم بالمدينة.

وكان الهدف من هذه المؤاخاة الفردية الإرادية تصحيح تركيب المجتمع المسلم اجتماعياً، تصحيحاً يقوم على المحبة والاختيار، لم يدخله شيء من الإلزام في وسائله وغاياته، لأنه كان يعتمد على الترافق الودود، والمودة المخلصة والتعاون المتحرر من قيود الإلزام.

وقد ارتفع الأنصار في هذه المؤاخاة وسموا في حبهم لإخوانهم المهاجرين إلى ذروة المكارم، فلم يدّخروا شيئاً من ألوان الحب والإرفاق كانوا يستطيعون تقديمه لهم إلا قدموه لهم في إعزاز وتكريم، وسخت أنفسهم بالبذل الروحي والمادي سخاء لا يدخل في باب التكليف لعزّته في باب المكارم.

وكيف يدخل هذا السخاء في باب التكليف وهو إيثار على النفس بما تبلغ حاجتها إليه مبلغ الضرورة والاضطرار المبيح لكل ممنوع؟ هكذا وصف القرآن الحكيم إيثار الأنصار للمهاجرين على أنفسهم حباً لهم وقياماً بحق مؤاخاتهم.

وقد عرف المهاجرون لإخوانهم الأنصار فضل هذه العوارف وقدّروها

لهم حق قدرها فأحلّوهم من قلوبهم محلاً لم يترك فيها فراغاً لغيرهم، حباً وإخلاصاً وتضحية وفداء.

ومن ثَمّ امتزج المجتمع المسلم بأفراده في وحدة اجتماعية شعارها الحب في الله، امتزاجاً جعل منه تركيباً بشرياً فريداً في حياة المجتمعات البشرية، فكانت له عناصره الروحية والمادية، وله خصائصه الإيمانية والفكرية، وله مميزاته السلوكية في أخلاقه وتعاشره، وله نهجه التربوي في حياته، وله سَمْته في سيره بهذه الحياة الجديدة حتى كان في وسائله وأهدافه آية من آيات الإعجاز البشري في تحويل النفوس في شتى منازعها، ومطالب غرائزها، والتطلّع إلى رغائبها الخاصة إلى وحدة نفسية متماسكة العناصر الروحية والمادية تماسكاً لم يترك منفذاً إلى تسربٍ (أناني) يتولّج إلى مداخل النفس فيحيلها إلى أنفس مختلفة المنازع والرغائب والتطلّعات التي تفضي إلى شرخٍ في بناء الوحدة التركيبية في مستقبل المجتمع المسلم الذي ناطت به الرسالة الخاتمة الخالدة قيادة الإنسانية، وهي في منهجها التربوي تُعدّ هذا المجتمع ليقوم بهذه القيادة في مستقبل الحياة الإنسانية، قيادة تقوم على دعائم العدل والمساواة في الحقوق والواجبات التي يحكمها ما أوتيه كل فرد من الاستعداد في خصائص ومميزات القيادة.

مجتمع مؤاخاة الحب في الله كان نواة لمجتمع قيادة الإنسانية في مستقبل حياتها

وقد أحكمت الأحداث والوقائع نسج هذه المؤاخاة، فأبانت عن أصالة في تركيبها العنصري المادي وخصائصها الروحية والفكرية، والتربوية السلوكية في الأخلاق، وتبادل المصالح التي تستمد وجودها من توجيهات الرسالة؛ مما هيأها لتكوين دعامة في تأسيس المجتمع المسلم الذي يصوّر منهج الرسالة تصويراً عملياً في تحركاته وأعماله وتفكيره في صورته الكبرى المرتقبة التي تجد فيها الإنسانية مطالبها الحيوية ورغائبها النفسية وبواعثها العقلية، لتنهض بعبء القيادة الإنسانية على مدى سير الحياة في أطوارها المختلفة زماناً ومكاناً وجيلاً، ووسائل وغايات.

وبهذا كان مجتمع هذه المؤاخاة الفردية في نشأته على الحب في الله قد تولّد في حناياها، ونهد في مهادها، ودرج في ساحتها المجتمع المسلم الذي

يحمل على كاهله عبء نشر الدعوة إلى الله، وعبء تبليغ الرسالة، وعبء الجهاد الفكري، وعبء الدفاع عن كيانه ومقوّماته الذاتية، وعبء تطهير الحياة من المآثم التي يتبوأ ذروتها الإشراك بالله تعالى في شتى صوره ومختلف أشكاله الوثنية المزرية بقدر الإنسانية وقد بلغت رشدها العقلي. وشبّت عن طوق الطفولية البشرية صاعدة إلى آفاق منازل الشباب والرجولية التكليفية المحفوفة بالمشقّات والمتاعب. التي يترتب عليها الثواب والعقاب.

مجتمع المؤاخاة على الحب في الله كان عاملاً قوياً في تصفية أخلاط المجتمع المدني

وقد كان أثر هذه المؤاخاة الفردية الإرادية المحدودة القائمة على الحب في استصلاح أخلاط المجتمع المدني المتنافر في وسائله وغاياته استصلاحاً قام:

أولاً ـ على تصفية هذا المجتمع المتنافر من بقايا نفايات الشرك والوثنية الذين جانبهم التوفيق، واستحوذ عليهم الشيطان، فأبادهم بقوة الإيمان، وإظهار شعائر التوحيد، وتحقير أصنامهم والعبث بأوثانهم غيظاً لهم، وقد دخلت عليهم شعائر التوحيد في عقر دورهم ودخائل بيوتهم، فشرقوا بها لعجزهم عن مقاومتها، وكانت غُصّة في حلاقيمهم، فهلكوا كمداً بغيظهم.

وثانياً ـ على إذلال اليهود. وإنزالهم من عرش الشيطان إلى هاوية الخزي والخذلان، وكان هؤلاء اليهود من بني قينقاع والنضير وقريظة هم أصحاب الصَّوْلة والسلطان في المدينة، منذ نزل عليهم في الدهر الأول الأوس والخزرج بعد حادث سيل العرم، فساكنوهم موالي لهم، وأسلموهم زمام الفضل عليهم لجهلهم وبؤسهم، وحاجتهم إلى ما عندهم من وسائل العيش، وكان اليهود يملكون مجامع الثروة والعلم، لأنهم أصحاب الكتاب الذي أنزل إليهم على يدي نبيهم ورسولهم موسى كليم الله عليه السلام، وكانوا هم أصحاب التجارات والصنائع والزراعات والحصون والقلاع والصياصي يحيطون بها بيوتهم ومنازلهم تأميناً لأنفسهم وثرواتهم.

حتى جاء الله تعالى بالرسالة الخاتمة الخالدة، التي بعث بها محمداً عبده ورسوله ﷺ، وجعله بها خاتم النبيّين، وجعلها به خاتمة رسالات السماء، فهدى الله إليها هؤلاء الموالي أذلّة الأمس من الأوس والخزرج، ومنّ عليهم

بنعمة الهداية إلى الإيمان برسول الله محمد خاتم النبيّين ﷺ، فأعزّهم بعد ذلّة، وكثّرهم بعد قلّة، وأغناهم بعد إعواز، وعلّمهم بعد جهل، فأصبحوا بفضل الله عليهم إذ هداهم إلى الإيمان هم السادة الذادة، وأصحاب الكلمة العليا، وأصحاب العزّة والسلطان، وأصحاب الصَّوْلة في مدينتهم، والثروة في بلدهم.

وخذل أولئك اليهود المستكبرين المتعزِّزين بعلمهم وثرائهم، وسلبهم نعمته، فأذلّهم، وشتّت جمعهم، وفرّق شملهم، وبوّأهم لعناته ومساخطه، وأورثهم الهوان والمهانة، وألبسهم سرابيل الغدر والخيانة وسوء المكر، ولؤم الطبع، وضرب عليهم الذلّة والمسكنة، وألقاهم في أرجاء الأرض نبائذ، يعيثون فيها فساداً، وسلط عليهم جبابرة الأرض يستبيحون حرماتهم ويسفكون دماءهم، ويذيقونهم لباس الجوع والخوف، حتى أصبحوا أعداء أنفسهم، بَلْه أعداء الناس والحياة، والله تعالى يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، ويؤتي ملكه من يشاء وهو الحكيم الخبير.

إشعار النبي ﷺ اليهود بأن ما كان لهم من تعزز قد ولّى وزال

وقد أراد النبي ﷺ بعد أن صحّح تركيب مجتمعه المسلم بالمؤاخاة على الحب في الله أن يشعر هؤلاء اليهود أنهم لم يكونوا كما كانوا من عزة السلطان والصولة وجهارة الكلمة، لأن الله تعالى قد أذهب عنهم أعزّ ما كانوا يتعزّزون به من ادِّعاء العلم والمعرفة، وأن الله تعالى سلبهم هذه المعزة التي كانوا يتعالون بها على مواليهم من الأوس والخزرج، وأورثها المجتمع المسلم من أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار ومِنْ سائر مَنْ تبعهم من المؤمنين برسالته، المصدِّقين بدعوته بما أنزله عليه ﷺ من الكتاب المبين، والحكمة الهادية، وما أودع فيها من خير ونور وإصلاح، يقوم على دعائم العلم الأمين والمعرفة الصادقة، وبما شرع له من أحكام وسياسات، وأنظمة اجتماعية واقتصادية يحوطها العدل، مما نسف به كل ما تأسست عليه ثرواتهم من الربا والسحت وأكل أموال الناس بالباطل، فكان حالهم في سلب موارد ثرواتهم وتكاثر أموالهم كحالهم في سلب العلم والمعرفة عنهم، فلم يبق منه في أيديهم إلا الكذب والافتراء على الله، وتحريف كلمه عن مواضعها، وتبديل أحكامه وآياته بغياً على الله وعَدْواً على خلقه.

فسجّل عليهم ﷺ ذلك كله في كتاب أمر بكتابته، وجعله دستوراً للمؤاخاة والألفة التي عقدها ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن لحق بهم وتبعهم وجاهد معهم.

وهذه المؤاخاة كانت مؤاخاة تكليفية ملزمة، لها نتائجها الروحية والمادية، وليست كالمؤاخاة الإرادية الفردية التي كانت بين أفراد المجتمع المسلم أول ما كان تصحيح تركيبه الاجتماعي على المحبة وصدق المودة دون إلزام وتكليف.

إهمال شأن المنافقين لعدم تميز كيانهم أفناهم كما تفني رياحُ السموم الذباب

وثالثاً ـ على إهمال شأن المنافقين، وعدم الاعتداد بوجودهم، وتحقير أمرهم بالنظر إليهم بين أخلاط المجتمع المدني الذي كانوا فيه ظلاً لليهود، يدورون معهم كما يدور ظلُّ الثور معه وهو يطحن في مطاحن الهواء، لأنه لم يكن للمنافقين في المجتمع المدني وأخلاطه كيان متميز بخصائص إنسانية أيّاً كان وجهها من الكفر والإيمان، مما اقتضى اطّراحهم عند النظر في استصلاح هذا المجتمع المدني ليخلو الطريق للمجتمع المسلم في سيره لنشر دعوته إلى الله، وتبليغ رسالته، لأن هؤلاء المنافقين أبوا على أنفسهم أن يكون لهم كيان متميز يعرفون به بين أخلاط المجتمع المدني، لما اتسموا به من الجبن الخالع، والجزع الهالع، والانزواء وراء الأحداث، والتخفي وراء الوقائع، يدّرعون التقية ليستخفُوا بها حتى لا تأخذهم أحكام الشريعة وحدودها، وكانوا يتداخلون مع المجتمع المسلم تداخل المخادع الختون، وكان من يراهم في تداخلهم بين صفوف المسلمين يقول إنهم مسلمون، ولذلك كان رسول الله ﷺ يتغاضى عن مآثمهم وجرائمهم خشية أن يقول الناس: إن محمداً يقتل أصحابه.

فالنبي ﷺ إنما تركهم لتفنيهم الأحداث ويذيبهم الغيظ والكمد كما تفني الذباب رياح السموم، وكان معظم شأنهم في إشاعة الأراجيف والأكاذيب، والدس وحوك الفتن، لأنهم قد أذلّهم الجبن والرعب كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ولكنهم قوم يَفْرقَون. لو يجدون مَلْجأً أو مغارات أو مدّخلاً لولَّوا إليه وهم يجمحون﴾ وقوله: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾.

تحقيق حول كتاب المؤاخاة التكافلية الذي أمر النبي ﷺ بكتابته بين عامة المؤمنين وبيان هل قصد بهذا الكتاب أساساً موادعة اليهود؟

يتناول البحث هذا الكتاب الذي أمر النبي ﷺ بكتابته بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، وضمّنه ﷺ تبعية اليهود للمؤمنين في النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم من وجهين:

الوجه الأول ـ ما قيمة هذا الكتاب من وجهة الثبوت العلمي تاريخياً؟

الوجه الثاني ـ ما الذي يفيده نص الكتاب في المقصد من كتابته؟ وما وضع اليهود فيه؟

كتاب المؤاخاة التكافلية المتكاملة بين عناصر المجتمع المسلم ثابت ثبوتاً علمياً تاريخياً

أما الوجه الأول فبيانه أن هذا الكتاب بنصه الكامل رواه كثير من أئمة النقل، ولم نر من طعن فيه سنداً أو متناً، ويشبه أن يكون أسبق من رواه بنصه الكامل المطول المذكور في السيرة هو محمد بن إسحاق بن يسار، إمام المغازي والسير، ونقله عنه بنصه كاملاً ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) ولم يتكلم في سنده ولا في متنه بشيء يشعر بضعفه، بَلْه أن يكون موضوعاً مكذوباً، وابن كثير عالم ناقد، إذا رأى ما يقتضي التعقيب على ما يسوقه من الروايات عقّب بما يراه من موجبات العلم والنقد.

وقد قدّم ابن كثير لنقل نص الكتاب عن ابن إسحق بعض الروايات المؤذنة بثبوت الكتاب في الجملة، فقال بعد أن ساق حديث أنس بن مالك في المحالفة بين المهاجرين والأنصار الذي تكلمنا عليه عند الحديث عن المؤاخاة الأولى وحقّقنا القول فيه بما لا مزيد عليه: وقال الإمام أحمد: حدثنا نصر بن باب، عن حجاج ـ هو ابن أرطاة ـ قال: وحدثنا سريج، ثنا عبّاد،

عن حجاج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار أن يعقلوا معاقلهم، وأن يفدوا عانيهم بالمعروف والاصلاح بين المسلمين.

وهذا نص من رواية الإمام أحمد صريح بثبوت الكتاب عن النبي ﷺ لأن المعنى المذكور في حديث عمرو بن شعيب هو محور الكتاب المذكور.

ثم قال ابن كثير: قال أحمد: وحدّثنا سريج، ثنا عبّاد، عن حجاج، عن الحكم عن قاسم، عن ابن عباس وساقه، قال ابن كثير معقّباً ناقداً: تفرّد به الإمام أحمد. ثم قال ابن كثير: وفي صحيح مسلم عن جابر: كتب رسول الله ﷺ على كل بطن عقولة، وهذه إشارة واضحة إلى بعض ما تضمنه الكتاب، لأن قوله على كل بطن يوافق ما جاء في الكتاب من استعراض بطون الأنصار، وإلزام كل بطن بما يلزم البطون الأخرى، والعقولة الديات جمع عقل، كقلس وقلوس - هكذا ضبطه وفسره النووي.

ثم ساق ابن كثير نص الكتاب عن ابن إسحاق فقال: وقال محمد ابن إسحاق: كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود، وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم، ثم ذكر نص الكتاب بطوله، إلى أن عقّب عليه بقوله: كذا أورده ابن إسحاق بنحوه، وقد تكلّم عليه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الغريب وغيره بما يطول إيرادَه.

وممن نقل نص هذا الكتاب عن ابن إسحاق أبو الفتح ابن سيّد الناس صاحب (عيون الأثر) وذكره تحت عنوان (ذكر الموادعة بين المسلمين واليهود) فقال: قال ابن إسحق: وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، ووادع فيه اليهود، وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم، ثم ذكر نص الكتاب، غير أن العنوان الذي وضع تحته نص الكتاب في (العيون) جعله مؤذناً بأن الكتاب كتب للموادعة بين المسلمين واليهود، وهذا يفقد الكتاب حقيقة القصد من كتابته، وأنه كتب لأجل الموادعة بين المسلمين واليهود، مع أن ديباجة الكتاب تحمل في صراحة

وضوح القصد من كتابته، وأنه إنما كتب ليكون دستوراً تكليفياً ملزماً يقوم على أساسه بناء المجتمع المسلم في حاضره ومستقبله بعد أن صحّحت المؤاخاة الفردية الإرادية تركيب هذا المجتمع المسلم اجتماعياً على أساس الحب في الله ولله، وهي المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين أفراد المجتمع المسلم من المهاجرين والأنصار في أول عمل قام به ﷺ مقدمه المدينة.

وموادعة اليهود في الكتاب إنما جاءت تبعاً لإشعارهم بقوة المجتمع المسلم في حياته الجديدة، وأنهم إذا أرادوا الأمن والاستقرار لأنفسهم على دينهم وأموالهم فلينزلوا عن غرورهم واستكبارهم إلى تبعيتهم للمسلمين، كما يدل عليه صريح الكتاب بقوله: وأنّ من تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

وقد عقّب صاحب (العيون) على الكتاب بعد أن ذكره بنص ابن إسحاق فقال: هكذا ذكره ابن إسحق وهو يقصد إلى ما في سنده من إرسال، وابن إسحق متهم بالتدليس، وإرسال المدلِّس أضعف من إرسال غيره.

ثم قال صاحب (العيون) ليدفع هذا الضعف: وقد ذكره ابن أبي خيثمة فأسنده، قال: حدّثنا أحمد بن جناب أبو الوليد، ثنا عيسى ابن يونس، ثنا كثير بن عبدالله بن عمرو المزني عن أبيه عن جدِّه أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار، فذكر بنحوه.

وقد أشار إلى هذا الكتاب الترمذي وأبو داود، فذكر فيه حديث الزهري عن عبد الرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك، قال: وكان كعب ابن الأشرف ـ اليهودي حِلْفاً وأماً، وأبوه من بني نبهان ـ يهجو النبي ﷺ، ويحرّض عليه كفار قريش، وكان النبي ﷺ حين قدم المدينة وأهلها أخلاط، منهم المسلمون والمشركون، يعبدون الأوثان، واليهود، وكانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه، فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالصبر والعفو، وفيهم أنزل الله ﴿ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى

كثيراً، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾[1].

فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذى رسول الله ﷺ أمر النبي ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً يقتلونه، فبعث محمد بن مسلمة ـ وذكر قصة قتله ـ فلما قتلوه فزعت اليهود والمشركون، فغدوا على النبي ﷺ، فقالوا: طُرق صاحبنا فقتل، فذكر لهم النبي ﷺ الذي كان يقول، ودعاهم النبي ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه، فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة.

وهذه العبارة التي ختم بها الحديث صريحة في أن النبي ﷺ كتب بينه ومعه عامة المسلمين، وبين اليهود كتاباً، وأخذ عليهم أن ينتهوا إلى ما فيه، وهو ما يتفق مع قول من أورد نص الكتاب مبيناً أنه كتاب موادعة ومعاهدة أقرّ فيه اليهود على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم، لأن الرعب ملأ قلوبهم، والفزع الهالع زلزل أقدامهم، فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ فزعين مذعورين يطلبون في ذلّة وخضوع أن يؤمِّنهم ويحميهم، ويضفي عليهم من سلطانه ما يحفظ لهم الإقرار على دينهم وأموالهم، فأعطاهم رسول الله ﷺ ما طلبوه على أن لا يغدروا بعهدهم، وكتب لهم ذلك في كتاب جعله عهداً بينه وعامة المسلمين وبينهم، ولا شك أن هذا الكتاب أو الصحيفة ـ كما في تعبير حديث أبي داود ـ هو هذا الكتاب الذي روى نصه ابن كثير من مؤرخي الإسلام والمؤلفين في أحداث السيرة النبوية، لأنه لا كتاب سواه عرف بهذا المعنى الذي احتواه.

وقد ذكر حديث هذا الكتاب أيضاً ابن سعد في الطبقات، وذكره أبو سعيد النيسابوري في (شرف المصطفى) ورواه الحاكم في المستدرك، وتكلم عليه ابن الأثير في كتاب (النهاية) فقال: وفي كتابه ـ ﷺ ـ للمهاجرين والأنصار أنهم أمة واحدة على رباعهم، يقال: القوم على رباعتهم، ورباعهم، أي على استقامتهم، يريد أنهم على أمرهم الذي كانوا عليه، ورباعة الرجل شأنه وحاله التي هو رابع عليها، أي ثابت مقيم.

---

(١) سورة آل عمران آية (١٨٦).

وقد ذكر هذا الكتاب من المُحْدثين المعاصرين صاحب (الوثائق النبوية) حميد الله خان الهندي في وثائقه على أنه وثيقة تاريخية من وثائق السيرة التي أمر النبي ﷺ بكتابتها.

وقال الزرقاني في شرح (المواهب): وفي مرسل عكرمة عند ابن سعد: فأصبحت يهود مذعورين، فأتوا النبيّ ﷺ فقالوا: قتل سيدنا غيلة، فذكّرهم صنيعه وما كان يحرض عليه، ويؤذي المسلمين، فخافوا فلم ينطقوا، ثم دعاهم إلى أن يكتبوا بينه وبينهم صلحاً، فكان ذلك الكتاب مع عليّ بعد.

وقال القسطلاني والزرقاني في كتاب الشمائل من المواهب عند الحديث عن كتب النبي ﷺ التي كتبها لأقوام بلغاتهم، وما فيها من الفصاحة وبراعة البيان: وأين ذلك من كتابه بين قريش والأنصار، أنهم أمة واحدة دون الناس من قريش، قال الزرقاني: من قريش صفة، أي جزء منهم كأبنائهم وإخوانهم على نحو «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» يعني أن الأنصار دون غيرهم من الناس طائفة من قريش، فهو مبالغة في اتّحادهم معهم حتى كأنهم من نسلهم ـ وهذا الوصف (من قريش) غير موجود في رواية ابن إسحق ومن نقل عنه ـ على رباعتهم، يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى، ويفكّون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين المتّقين أيديهم على من بغى عليهم أو ابتغى دسيعة ظلم، وأن سلم المؤمنين واحد على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت يعقب بعضهم بعضاً، ومن اعتبط مؤمناً قتلاً فهو قود إلا أن يرضى ولي المقتول، ومن ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلاّ نفسه وأولاهم بهذه الصحيفة البر المحسن.

ثم قال القسطلاني: كذا روى مختصراً من حديث ابن شهاب، وقال الزرقاني: وذكره ابن إسحاق مطوّلاً في نحو ورقتين في مبحث الهجرة، قال ابن سيّد الناس: وأسنده ابن أبي خيثمة عن عمرو المزني أن النبي ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار فذكره مطولاً بنحوه.

وابن أبي خيثمة أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب، ترجم له الذهبي في تذكرة الحفّاظ، وأنه أخذ الحديث عن أحمد بن حنبل وابن معين، ونقل

عن الدار قطني قوله عنه: ثقة مأمون، ونقل عن الخطيب قوله فيه: إنه ثقة عالم متقن حافظ.

هذه نصوص وروايات تدل كثرتها واجتماعها على معنى واحد، مع اختلاف رواتها زمناً، واختلاف بعض عباراتها لفظاً على ثبوت هذا الكتاب ثبوتاً علمياً تاريخياً، وأن النبي ﷺ أمر بكتابته ليكون دستوراً للمجتمع المسلم وموادعة لليهود ما داموا منتهين إلى ما فيه بالوفاء.

نص الكتاب قاطع بأنه كتب ليكون دستوراً لتنظيم المجتمع المسلم تنظيمًا اجتماعياً متكافلاً وأن اليهود جعلوا تابعين للأنصار

الوجه الثاني ـ ما الذي يعطيه نص هذا الكتاب في القصد من كتابته؟ وما وضع اليهود فيه؟

تحقيق هذا الوجه من الوجهين اللذين يتناولهما البحث حول هذا الكتاب يقتضينا أن نورد نص الكتاب ونثبته كما رواه الثقاة، ثم ننظر فيه ليتبين القصد من كتابته بما تفيده عبارته وأسلوبه، ويتبين من نصه وضع اليهود فيه.

نص الكتاب من سيرة ابن إسحاق
ونقل ابن كثير وصاحب (العيون)

وقد ذكر ابن إسحق الكتاب في سيرته بتهذيب عبد الملك بن هشام، وهي المتداولة بين أهل العلم دون أن يضع له عنواناً خاصاً فقال: وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم.

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرين من قريش على رِبْعتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عَوْف على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنيـن، وبنو الحارث على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى: وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جُشَم على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النَّبيت على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرحَاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو

عقل، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقِّين على من بغى منهم، أو ابتغى دسِيعة ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة، يجيز عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض دون الناس.

صراحة نص الكتاب بتبعية اليهود للمؤمنين من المهاجرين والأنصار

وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سِلْم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وأن المؤمنين يُبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بيِّنة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وأنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدِثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرفٌ ولا عدلٌ، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ.

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يـوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عَوْف، وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عَوْف، وأن ليهود بني ثَعْلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يُوتِغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وأن لبني الشُّطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البر دون الإثم، وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ،

وإنه لا ينحجز على ثأر جُرْح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا.

وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يُخاف فساده فأن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دَهِم يثرب، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويَلْبسونه، وأنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأن من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم، وأن الله جار لمن برّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ. اهـ نص الكتاب، وهو دستور تكافلي جامع لأهم جوانب الحياة الاجتماعية للأمة.

أما الوجه الثاني ـ فبيانه أن النظر في هذا الكتاب يفيد لأول وهلة أنه كتاب قصد منه أولاً قصدٌ أوليٌّ ذاتيٌّ أن يكون دستوراً ضابطاً لحياة المجتمع المسلم في حياته الجديدة، التي اتسع فيها مجال عمله، وقويت فيها شوكته، وكثر جمعه، وتظاهرت عليه واجباته الدينية والاجتماعية في صورتها الروحية والمادية، وضاق به ذرعاً أعداؤه في الداخل والخارج، لأنه تبوأ في الحياة مكانة القيادة الداخلية، واندحر أمام سلطانه غرور اليهود، بعد أن ألبستهم

قوة المجتمع المسلم التي تزداد في كل لحظة عدّاً وعُدة أثواب المذلة والهوان، وسربلتهم سرابيل الرعب المذعور، والفزع الهالع، وأذاقتهم مرارة الخوف المذهل في نومهم ويقظتهم، وغدوِّهم ورواحهم، حتى تجمّدت حركاتهم، وبارت تجاراتهم، وشُلّ تفكيرهم، وضاقت بهم الحياة، فلم يجدوا ملجأ يؤمنهم سطوة الأحداث إلا كنف رسول الله ﷺ، فأتوه صاغرين، يستغيثون ويستجيرون بعد أن هزّت كيانهم بطشة فتيان المجتمع المسلم بسيدهم وشرِّيرهم لعين الفجور كعب بن الأشرف الذي كان يهجو رسول الله ﷺ ويؤذيه، ويؤذي أصحابه في أعز مشاعرهم، بعد أن نقض عهده لرسول الله ﷺ أن لا يقاتله، ولا يحرِّض أحداً على قتاله، وأن لا يظاهر عدواً له، وأن لا يؤذيه بقول أو فعل، فقبل منهم رسول الله ﷺ ضراعتهم، وأمنهم على دينهم وأموالهم ما أقاموا ملتزمين للوفاء.

ويدل النظر دلالة قاطعة على أن القصد الأول من كتابة هذا الكتاب هو وضع دستور اجتماعي للمجتمع المسلم بما جاء في ديباجة الكتاب صريحاً لا يقبل التأويل من قول النبي ﷺ: «هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس».

فهذه الفقرة التي تصدَّرت الكتاب لتعنونه ليس فيها ذكر أي ذكر لَلَيهود وموادعتهم، ولكنها تقرر وحدة المجتمع المسلم في التزاماته ومسؤولياته، وأن عناصره من المؤمنين والمسلمين، المهاجرين والأنصار ومن تبعهم فلحق بهم وانضوى تحت لوائهم، وجاهد معهم لإعلاء كلمة الله أمة واحدة، وأن هؤلاء المؤمنين الذين يتركب منهم بناء المجتمع المسلم، بعضهم موالي بعض في النصرة والأسوة، وأنهم في وحدتهم الإيمانية مجتمع موحّد الوسائل والأهداف يجير عليهم أدناهم، وأنهم متكافلون في ردِّ بغي من ظلم وبغى منهم، وأن أيديهم على هذا الظالم الآثم الباغي واحدة، ولو كان ولد أحدهم. وذكر الكتاب أن المهاجرين من قريش على رِبْعتهم واستقامتهم وأمرهم الذي كانوا عليه، وذكر مثل ذلك في طوائف الأنصار، وعدَّدهم

طائفة، طائفة، وجعل كل طائفة منهم، على أمرها الذي كانت عليه، وأن المؤمنين جميعاً متكافلون تكافلاً اجتماعياً، فلا يتركون بينهم مُفْرحاً أثقلته الديون وكثرة العيال، بل عليهم أن يمدّوا إليه يد المعاونة والمساعدة، ويعطوه حتى يرفعوا عن كاهله عبء حياته بالمعروف في فداء أو عَقْل.

كان تأمين اليهود وموادعتهم في الكتاب أمراً تبعياً لم يكتب الكتاب من أجله

وقد استغرق ذلك صدر الكتاب في تفصيل روابط المجتمع المسلم، وضوابط حياته في مستقبله والتزاماته نحو عناصره المركب منها بناؤه، قدراً ليس بالقليل من حجمه.

ثم بعد ذلك كله ذكر الكتاب اليهود في عبارة عابرة، صريحة بتبعية اليهود للمجتمع المسلم، فجاء فيه: وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

ثم عاد الكتاب إلى ذكر أحوال المجتمع المسلم في وشائجه الاجتماعية التي توّجت بقول الكتاب: (وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ)، وهذا المعنى الكريم منتزع من قوله تعالى مخاطباً المؤمنين خاصة: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾[1].

ثم ذكر الكتاب بعد ذلك أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما دام المؤمنون محاربين، لأن المجتمع المسلم ضمن لهم في تبعيتهم له النصر والأسوة، فإنفاق اليهود مع المؤمنين نتيجة لازمة لتبعيتهم للمجتمع المسلم وقيامه بحمايتهم ونصرهم إذا اعتدى عليهم أحد ما داموا محافظين على موجبات التبعية.

ثم ذكر الكتاب ما هو أدخل في إبراز تبعية اليهود للمجتمع المسلم، فنسب يهود كل طائفة من الأنصار إليها فقال: وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ ـ أي لا يوبق ولا يهلك ـ إلا نفسه وأهل بيته.

---

(١) سورة النساء آية (٥٩).

وهذه هي الكلمة الوحيدة التي جاءت في الكتاب عن تأمين اليهود على دينهم وقد صيغت ـ كما هو ظاهر ـ في أسلوب التبعية للمجتمع المسلم، ثم أخذ الكتاب يعدِّد طوائف اليهود مُلْحَقين بطوائف الأنصار، بعد أن ذكر صورة تأمين اليهود على دينهم وأنفسهم عند ذكره ليهود بني عَوْف، فقال: وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، حتى استكمل عدد طوائف الأنصار ومن تبعهم من اليهود، ثم أبرز الكتاب سلطان المجتمع المسلم في شخص النبي ﷺ، فقال: وأنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد ﷺ، وذلك حذراً أن يعودوا إلى ما جُبلوا عليه من الغدر والخيانة والخروج إلى أعداء الإسلام ليحرِّضوهم على حرب المجتمع المسلم الذي صارت إليه الهيمنة المطلقة في المدينة.

ومن هذا البيان يتجلَّى أن الكتاب الذي أمر رسول الله ﷺ بكتابته إنما كان كتاباً دستورياً لتنظيم حياة المجتمع المسلم تنظيماً تكافلياً تكليفياً ملزماً بما ورد فيه من أحكام التكافل والعُقولات، ولإظهار تبعية اليهود لهذا المجتمع المسلم بعد شموخهم وغطرستهم وغرورهم وتحكمهم في الأوس والخزرج قبل أن يدخل الإسلام عليهم، ويصفِّي أخلاط مجتمعهم المدني الموبوء بعبودية المال والوثنية، وأنه لم يكن قط كتاباً كُتب وقصد قصداً أولياً لموادعة اليهود ومعاهدتهم وتأمينهم على دينهم وأموالهم، والاشتراط عليهم، والشرط لهم، وكل ما جاء في الكتاب من هذا النحو إنما جاء في ظل تبعية اليهود للمجتمع المسلم وإظهار سلطان هذا المجتمع بقيادة سيد المرسلين محمد ﷺ.

فالكتاب إنما كتب لتأسيس وحدة تكافلية اجتماعية تكليفية بين عنصري المجتمع المسلم من المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، وهم المهاجرون والأنصار، استعداداً للمستقبل المليء بالمفاجآت.

نعم، جاء في الكتاب بعد أن استوفى بيان وشائج المجتمع المسلم، وأن أفراده في جماعتيه من المهاجرين والأنصار مع من تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس، وأن من تبع المجتمع المسلم من

اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، - جاء فيه أيضاً: أن اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ولا شك أن هذه العبارات وأمثالها مما جاء في الكتاب تأمين لليهود، وإقرار لهم على دينهم، لكن الكتاب أبرز هذا التأمين في صورة تبعية اليهود للمجتمع المسلم مما يدل دلالة واضحة على أن المقصود الأصلي من الكتاب ليس هو موادعة اليهود ومعاهدتهم والاشتراط عليهم والشرط لهم. وعلى أن الكتاب لم يكن بين النبي ﷺ وبين اليهود، وإنما هو كتاب كتبه النبي ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار الذين يتركب منهم بناء المجتمع المسلم ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم لينظم به حياة المجتمع المسلم تنظيماً يتكافأ مع ما سيلقى هذا المجتمع المسلم في سبيل نموه، وتكاثر واجباته نحو نشر دعوته إلى توحيد الله، والجهاد لإعلاء كلمة الله التي نيط به إعلاؤها وتبليغ رسالتها وهدايتها من أحداث يقوم بها أعداء هذا المجتمع في الداخل والخارج ليوقفوا نهضته، ويعوّقوا نشر هدايته.

تجوز أو تجاوز بعض المؤلفين في عنونة الكتاب بموادعة اليهود

فالذين عنونوا لهذا الكتاب في مؤلفاتهم وبحوثهم بالموادعة بين المسلمين واليهود ونحوها قد تجوّزوا كثيراً في هذه العنونة التي لا تعطى صورة حقيقية عن محتويات الكتاب، فصاحب (عيون الأثر) إذ يقول في عنونة الكتاب (ذكر الموادعة بين المسلمين واليهود) لم يكن دقيق التعبير عن مضمون الكتاب الذي ذكر نصه تحت عنوانه، إذ لم تكن الموادعة كل محتويات هذا الكتاب، وإنما كانت بعض محتوياته، وأقلها كمّا وكيفاً.

بل إن بعض هؤلاء المؤلفين قد أبعد النجعة، وتجاوز القصد الأصيل من كتابة هذا الكتاب وحوّله إلى قصد فرعي لا يدل عليه نص الكتاب إلا بشيء من التعسف في التأويل كالسهيلي في روضه إذ قال: كتاب رسول الله ﷺ فيما بينه وبين اليهود، شرط لهم، وشرط عليهم، وأمّنهم فيه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

وهذا مسلك غريب لأن فيه إهداراً للقصد الحقيقي من الأمر بكتابة هذا الكتاب كما يبدو من أول نظرة في نصِّه ومحتوياته، والسهيلي شارح

لسيرة ابن إسحاق، وابن إسحاق أسبق المصادر لهذا الكتاب في سيرته، وقد قدّم له قبل أن يسوق نصه بعبارة واضحة الدلالة على أن هذا الكتاب لم يكن بين رسول الله ﷺ وبين اليهود، وإنما كان كتاباً من رسول الله ﷺ بين المؤمنين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم. وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم.

فما الذي دعا السهيلي وهو شارح سيرة ابن إسحاق أن يترك عبارته ويخترع عبارة من عنده يعنون بها الكتاب، وكيف رضي السهيلي على نفسه في فضله وعلمه أن يهدر ديباجة الكتاب، وهي من كلام رسول الله ﷺ، وهي صريحة الدلالة على أن الكتاب من رسـول الله ﷺ بين المؤمنـين والمسلمين، كما يقتضيه نصُّها إذ تقول: هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس.

فأين يقع عنوان السهيلي في روضه الكتاب بقوله: (كتاب رسول الله ﷺ فيما بينه وبين اليهود) من هذه الديباجة المعبِّرة عن مقصد الكتاب في محتوياته؟ وأين في نص الكتاب أنه كتاب رسول الله فيما بينه وبين اليهود؟ كل ذلك يجعلنا نستبعد أن يكون هذا العنوان في روض السهيلي من وضع السهيلي وعبارته، ولعل هذا من تصرفات محقق الروض والمعلق عليه، فإن كان ذلك فما أشد بلاء التراث الإسلامي بمحققيه على دواوينه.

إن التاريخ الإسلامي ابتلي باليهود فشوّهوا كثيراً من حقائقه وأهدافه، ليفتنوا أهله ويصدوهم عنه، وابتلي بأهل الغفلة الذين يقبلون ما يقال لهم دون نظر وتمحيص.

وهذا التاريخ في أشد الحاجة إلى الدقة في كتابته، التي تضع الأمور في مواضعها، وتضع الأحداث في مواطنها، وهو في أشد الحاجة إلى الصدق والأمانة والديانة التي تراقب الله وتخشاه، حتى يمكن أن يقدم هذا التاريخ لشباب الإسلام في إطار البحث الأمين المتعمق، بصورته الواقعية حتى يعلم المسلمون حين يقرؤون تاريخهم أنهم يفسرون به قول الله تعالى: ﴿ولله العزة

ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾[1].

وقد أحسن ابن كثير كل الإحسان في كتابه (البداية والنهاية) وهو يقدم لهذا الكتاب النبوي فيقول: فصل في عقده عليه السلام الألفة بين المهاجرين والأنصار بالكتاب الذي أمر به، فكتب بينهم، والمؤاخاة التي أمرهم بها.. وموادعته اليهود الذين كانوا بالمدينة، فهذا تعبير موفّق موثّق، يصور الواقع في صورة صادقة جامعة معبرة.

وقد شرح السهيلي بعض كلمات الكتاب وألفاظه التي تبدو غريبة على من بعد عهده باللغة العربية في منازلها من محافل العرب وأسواقهم ومواسمهم ومضارب قبائلهم وبطونهم، وعلى من لم تكن له عناية بالأدب العربي، والنظر في معاجم الألفاظ وتفسيرها.

تفسير السهيلي لبعض ألفاظ الكتاب

فقال في كلمة (ربعاتهم ـ أو رباعتهم)، وفي الكتاب: بنو فلان على ربعاتهم. هكذا رواه أبو عبيد عن ابن بكير عن عقيل بن خالد، عن الزهري، ورواه عبدالله بن صالح بهذا الإسناد، فقال: رباعتهم، الألف بعد الباء، ثم قال أبو عبيد: يقال فلان على رباعة قومه إذا كان نقيبهم ووافدهم.

ثم قال السهيلي: وكسر الراء فيه القياس على هذا المعنى ـ أي معنى النقابة والوفادة، لأنها ولاية وإن جعل الرباعة مصدراً فالقياس فتح الراء ـ أي على شأنهم وعادتهم من أحكام الديات والدماء. يتعاقلون معاقلهم الأولى، جمع معقله ومعقله من العقل وهو الدية.

ثم قال السهيلي بعد أن ذكر تفسير ابن هشام لكلمة (مفرح): وذكر أبو عبيد رواية أخرى (مفرج) بالجيم، وذكر في معناه أقوالاً، منها أنه الذي لا ديوان له، ومنها: أنه القتيل بين القريتين، لا يُدرى من قتله، ومنها: الذي لا شيء له، وقد أثقله الدين، فيقضى من بيت المال.

وفيه ـ أي في الكتاب ـ ولا يوتغ إلا نفسه، أي لا يودق ولا يهلك إلا نفسه، ومعنى قوله: يبيء من البواء وهو المساواة.

---

(١) سورة المنافقون آية (٨).

وقوله: وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبّره، أي أن الله وحزبه المؤمنين على الرضى به.

ثم نقل السهيلي عن أبي عبيد في كتاب الأموال قوله: إنما كتب رسول الله ﷺ هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية، وإذْ كان الإسلام ضعيفاً، وكان لليهود إذْ ذاك نصيب في المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين، كما شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحرب.

بحث ونظر في كلام لأبي عبيد نقله عنه السهيلي

قلت: وفي كلام أبي عُبَيد نظر، إذْ لم يُعرف في وقائع الجهاد الإسلامي على عهد رسول الله ﷺ واقعة واحدة أن اليهود قاتلوا فيها مع المسلمين، وهذه غزوات رسول الله ﷺ وسراياه محفوظة مدوّنة محصورة العدد، معروفةُ الأمكنة والأزمنة وأسماء من خرج فيها من جنود الله وحزبه، وليس فيها مشاركة اليهود في القتال، ولا أنهم حصلوا على نصيب من مغانم المسلمين.

وكذلك في قوله: (إذْ كان الإسلام ضعيفاً) نظر، لأن هذا الكتاب كتب كما في حديث الترمذي وأبي داود إثر قتل اللعين كعب بن الأشرف، وقتله إنما كان على رأس خمسة عشر شهراً بعد الهجرة بعد واقعة بدر التي عزّ بها الإسلام، وقتل فيها من صناديد كفار قريش ورؤوس ملئهم عدد كبير بلغ سبعين قتيلاً، وأسر منهم وغنم فيها المسلمون غنائم كثيـرة، وقد كان لها صدى بعيد المدى، ملك الرعب والهلع من هول صدقها وعظم آثارها في تقوية شوكة الإسلام والمسلمين، وإذلال الشرك والمشركين وفجّار اليهود، حتى قال فيها اللعين الفاجر كعب بن الأشرف حينما سمع زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة وقد قدما ببشرى النصر للمدينة، وهما يخبران عن قتل صناديد كفار قريش وطغاة ملئها: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء لَبَطْنُ الأرض خير من ظهرها.

فالكتاب لم يكتب إلا وقد عزّ الإسلام وانتصر على أعدائه انتصاراً أذلهم وأضعف شوكتهم ولم تقم لهم بعد هذا النصر قائمة، والذي وقع في أحد إنما كان درساً للمسلمين تعلّموا منه الكثير الذي أفادهم في مستقبلهم وسائر وقائعهم، وكانوا أعزّة رغم ما كان فيها.

بيان وتعليق

الكسالى المسترخون لا يقوون على العمل ويثبطون العاملين

سيقول المخلّفون عن ركب الحياة في استرخاء نؤوم، وتثاؤب زائغ من الذين يعيشون في دنيا الإسلام من أجل أنفسهم، أسرى رغائبهم، وعبيد غرائزهم، الذين لا يطيقون سماع غرغرة بطونهم المنهومة، وهم عاجزون عن كبح جماح شهواتهم الهابطة، ولا يقوون على معاناة الصبر إذا وجدوا، أو إذا فقدوا، ولا يحتملون مرارة العمل الجاد الصموت لإصلاح أنفسهم، ثم إصلاح من يتصل بهم اتصالاً قريباً دانياً من زوج أو ولد لإصلاح مجتمعهم الصغير في بيوتهم ثم إلى إصلاح مجتمعهم الكبير في مساجدهم، وفي مدارسهم، ومعاهد العلم وجامعاته أو في مصانعهم، ومزارعهم، وأسواق تجاراتهم وفي محافل أفراحهم، ومجتمعات أحزانهم، ليجعلوا من ذلك وسيلة ـ إذا صدقت العزائم ـ لإصلاح مجتمعهم الأكبر مجتمع الوطن الواحد، والأمة الواحدة.

هذا المجتمع الجامع الذي يقوم بناؤه على تلك اللبنات المتفرقة في المجتمعات الصغيرة، التي إذا أحسن أخذها بصغار أمور التربية قبل أن يدركها سوس الفساد، فينخر عظام الإصلاح فيها، ثم يتدرج بها في تربية عملية متدرجة من الصغير إلى الكبير، ومن الكبير إلى الأكبر، ومن المهم إلى الأهم، ومن البسيط إلى المركب، ومن المركب إلى الممزوج الموحّد، ومن مطالب الجسم إلى مطالب العقل، ومن مطالب العقل إلى مطالب الروح ـ سيقول أولئك المخلّفون الذين (إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة): ما هذه التخيلات التي تريد أن تعيد إليها

المجتمع المسلم؟ وكيف يمكن أن تتحقق له هذه المؤاخاة بآثارها الاجتماعية التي كانت دعامة للمجتمع المسلم أول نشأته، وهو محصور العدد والمكان، موحدّ القيادة والمنهج في التربية، متقارب المطالب، متشابه الرغائب، وهذا المجتمع المسلم اليوم في ترامي أطرافه، وتعدد مواطنه، وتباعد المسافات بين هذه الأوطان، وكثرة أعداده وتعدد قياداته، واختلاف مناهجه السياسية والفكرية والتعليمية، وضخامة مطالبه، واختلاف منازعه، وتفرقة مذاهبه ونحله، وشيعه وفرقه، وطوائف أحزابه، لكل حزب وسائله وأهدافه.

وهؤلاء القائلون لذلك إنما يقولونه بلسان التخلّف عن ركب الحب تحت وطأة (الأنانية) وهم بهذا يقلبون الدواء داء، ويضعون الداء مكان الدواء، ويوهمون أنّ في الشفاء سقماً، وفي المرض شفاء، ليُرْضوا بذلك أنفسهم بالقعود مع الخالفين عن جهاد الإصلاح الداخلي في أوطان المجتمع المسلم، وليخلدوا إلى راحة اليأس في ظلال البطنة، أشباحاً ليس فيها للحياة غناء أي غناء، لأن ترهل الكسل أصاب أعصاب الحياة في أبدانهم، ولم يترك في أرواحهم لمعة إشراق من النور والهدى وحب الإصلاح.

مقصد البحث توجيه المجتمع المسلم إلى معرفة مقومات نهضته الرائدة ليعود إلى طرائق تربيتها وسلوكها

إننا لم نقل بوجوب أن يكون المجتمع المسلم في يومه كما كان المجتمع المسلم في أمسه على عهد رسول الله ﷺ وأصحابه في مؤاخاته التي وصفناها بآثارها العملية في نوعيها الفردي القائم على الحب في الله، ولله، والجماعي القائم على التكافل التكليفي الاجتماعي، تلك المؤاخاة التي نهضت بالمجتمع المسلم نهضة مكّنته من زمام قيادة الحياة ـ وإن كان هذا هو ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع في حياته كلها ـ ولكنا رسمنا صورة لواقع المجتمع المسلم في أطواره التي مرّ بها على عهد رسول الله ﷺ، وذكرنا عوامل كل طور وبواعثه، وما وصل إليه ذلك المجتمع في هذا الطور وقد كانت كلها أطواراً بشرية اجتماعية، ليس فيها معجزات خارقة لنواميس الحياة وقوانين الطبيعة إلا ما كان خاصاً به ﷺ من أمور خارقة مرتبطة بشخصه ﷺ لحفظه وحمايته من غدر أعدائه.

والمؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين أصحابه ـ في طوريها الفردي

القائم على الحب في الله، أو الجماعي القائم على التكافل التكليفي الذي جعله النبي ﷺ دستوراً ملزماً، وكتب به كتاباً جعله وثيقة طبقها المجتمع المسلم في حياته الاجتماعية التكافلية - إنما كانت نوعاً من التربية الاجتماعية للمجتمع الجديد المسلم قامت على أساس وحدة هذا المجتمع وحدة كانت أقوى دعائم قوته الروحية والمادية في مواجهة أعدائه في الداخل، الذين قهرهم وصفّى أخلاطهم، وانفرد بقيادة الحياة في الداخل والخارج.

وهي بهذا التصوير لحقيقتها، والتقدير لوزنها ليست من المحالات التي يُستعظم وجودها في تربية المجتمع المسلم اليوم كما ربته بالأمس، إذا أخذنا في تقديرها ووزنها ما طرأ على الحياة من (تطور) في الفكر والمعرفة، ووسائل العيش، واختلاف السلوك، والقوى المادية الهائلة، وضعف القوى الروحية أمام هذه القوى المادية المجنونة واختلاف مناهج الحياة عند الأمم والشعوب.

لأن هذه الأمور وغيرها دخلت في تركيب الحياة، وأصبحت عناصر ضرورية في تركيبها، فإهدارها والتغاضي عنها، والتعامي عن آثارها ضرب من السلبية العمياء التي لا ترى ما بين يديها من مزالق وانحدارات.

وفي نهج النبي ﷺ الذي نهجه في عقد المؤاخاة بين أفراد المجتمع المسلم على الحب في الله ولله، ثم بين جماعات المجتمع المسلم على التكافل الاجتماعي التكليفي توجيه للمجتمع المسلم اليوم إذا أراد هذا المجتمع أن يأخذ بهذه التربية العملية في تصحيح تركيبه جرياً على منهج المؤاخاة في نوعيها ليستعيد عزته وكرامته، بل ليستعيد سلطانه وسيادته في قيادة الإنسانية.

كانت قوة أعداء المجتمع المسلم المادية في مطلع حياته أشد ضراوة من قوته ولكنه قهرها وغلبها بمؤاخاته الموحدة لأهدافه

لقد كانت أخلاط المجتمعات المادية المعادية للمجتمع المسلم في قوتها المادية يوم أخذ المجتمع المسلم بمنهج تربية المؤاخاة لا تقل ضراوة وشرارة عند المجتمعات المعادية للمجتمع المسلم اليوم عن النظرة التناسبية بحسب الزمان والمكان والعدد والعدة وإعداد القوى البشرية ووسائلها التدميرية الصناعية، (وتطور) الفكر ونتائجه واستخدام العلم في إنتاج القوى المادية أحفى استخدام، ولكن المجتمع المسلم بروح التربية الاجتماعية التي قامت

عليها المؤاخاة التكافلية وبمنهج الوحدة التمازجية أمكنه أن يتغلب على تلك القوى المادية فيقهرها، بل إنه بروح المؤاخاة قضى على قوة أعدائه على بهظها وضخامتها قضاء لم تقم لهم معه قائمة.

فالنبي ﷺ عمد إلى عنصري المجتمع المسلم بوصفهما المحدّد لذاتيهما، المهاجرين والأنصار فآخى بينهما - أولاً - مؤاخاة أساسها الحب في الله، ولله، ثم لما اشتد ساعد المجتمع المسلم وكثر عدده، وشرق به أعداؤه في داخل المدينة من اليهود، وبقايا نفايات الشرك والوثنية، واشتد طغيانهم بتحريض كفار قريش ومن تحبَّش معهم من قبائل العرب، واجتمعت كلمتهم على محاربة المجتمع المسلم إرادة إبادته واستئصال شأفته، ولا سيما بعد وقعة بدر التي ملأت قلوبهم حقداً ورعباً وغيظاً مكمداً، ونغلت بها أفئدتهم واحترقت بآثارها أكبادهم، رأى النبي ﷺ أن يعقد بين عامة عناصر المجتمع المسلم مؤاخاة اجتماعية، تكافلية، تكليفية إلزامية، وكتب بذلك كتاباً جعله وثيقة دستورية بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن لحق بهم وجاهد معهم، وهو الكتاب الذي فصَّلنا فيه القول تفصيلاً أبان عن ثبوته تاريخياً، وأبان عن مقاصده وغاياته وموجباته.

وقد كان لهذا الكتاب أثر قوي جعل من المجتمع المسلم قوة موحّدة، وقفت أمام تجمعات أعدائها مواقف حاسمة تُوّجت بالنصر المؤزر، ذلك النصر الذي سار دوّيه بالرعب يحمله إلى قلب الجزيرة العربية وإلى أطرافها، فزلزل الأرض من تحت أقدام تلك القبائل المتربصة، فاستسلمت لقوة المجتمع المسلم المتكافل في جهاده لإعلاء كلمة الله شيئاً فشيئاً حتى طواها تحت أجنحتهَ فاهتدت بهداية الإيمان، وعرفت الله بوحدانيته وإخلاص العبودية له وحده، فجمعها تحت لوائه، وخرج بكتائبها المجاهدة إلى مشارف الجزيرة لينذر بهم من وراءها من قوى أجنبية كانت تتربص بالمجتمع المسلم وتستعد لمهاجمته في عقر داره، فأرهبهم بقوته المادية وأدخل الرعب في قلوبهم بقوته الروحية، وحشر للروم في غزوة تبوك جحافل الكتائب التي كانت تحب الموت في سبيل الله أكثر من حب أعدائهم للحياة، فلم يخرج الروم بحشودهم

لملاقاتها، لأنهم جاءهم ما خلع أفئدتهم، وعلموا منه أنهم لا طاقة لهم بهؤلاء الذين كانوا رهباناً بالليل وفرساناً بالنهار.

وعاد رسول الله ﷺ من هذه الغزوة التي كانت آخر غزوة خرج فيها بنفسه الشريفة، يقود جحافل المجتمع المسلم، ليريهم أن قوة الإيمان المتكافل لا تقف أمامها قوة ولو كانت كثيفة العدد عظيمة العدة.

وهكذا كانت هذه الغزوة تمريناً للمجتمع المسلم على غمز قناة الذين يقفون وراء الجزيرة العربية في غرور أجوف وغطرسة كاذبة، واستكبار متورم، ليروزهم ويختبر ما عندهم من القوة التي يتعـزّزون بها تكـذّباً وعجرفة.

تجارب صادقة يجب العودة إليها بإحياء وحدة المؤاخاة الاجتماعية بين عناصر المجتمع المسلم في كافة أوطانه

وقد صدقت هذه التجربة في أداء ما قصد منها، وطمع المجتمع المسلم في الدولتين اللتين كانتا تحيطان به، وكان اسم كل واحدة منها في الجاهلية كفيلاً بأن يصيب قبائل العرب بالدّوار، حتى جاء المجتمع المسلم المتكافل في جهاده فغزاهم شرقاً وغرباً ودخل عليهما في عقر دورهما، وهما الدولتان اللتان كانتا تملكان زمام القوة المادية في عددها وعدّتها في ذلك العصر حتى أدخلهما في حظيرة الإيمان والهداية وحرّر كل ما كانت تحكمه الروم بالظلم والبغي من بلاد العرب، وحرّر فارس كلها وزرع في قلوب أهلها الإيمان والهداية، فكانت ركناً من أركان المجتمع المسلم في القوة الروحية والمادية والفكرية.

هذه الآثار التي حققها المجتمع المسلم في ضخامتها كانت عملاً من أعمال المؤاخاة بنوعيها الفردي القائم على الحب في الله والجماعي القائم على التكافل الاجتماعي التكليفي، ولم تزل هذه المؤاخاة تعمل عملها وتحقق آثارها في الفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته إلى خلقه، وإعلاء كلمته في آفاق الحياة إلى أن ابتلي المجتمع المسلم بالترهّل المترف، والميوعة الاجتماعية، فتفرقت وحدته الإيمانية، وحلّت محلها النعرات القومية الملحدة، فتوقف عمل المؤاخاة، وتمكن أعداء المجتمع المسلم من تمزيق أديمه وتفريقه إلى دويلات هزيلة مستضعفة، تدين بالوطنية، ولا تعرف الإسلام إلا من وراء سدّة المسجد، في المناسبات (الظايطة) التي تصم المجتمع بأبشع

ما يوصم به مجتمع في هذه الحياة.

وبقي الأمر على هذا الانتكاس المزري والوضع الوبيء المتهافت الذليل الذي أعطى أعداء المجتمع المسلم سلاحاً يكيدونه به، بعد أن تمكنوا من التحكم في مصايره ومصادر ثرواته، فاستخرجوا كنوزه وحوّلوها ذهباً إلى أوطانهم، وصنعوها أدوات علمية ووسائل للعيش في حياتهم المترفة التي يحيونها في أوطانهم فساداً وإفساداً ومعاول للتدمير في أوطان المسلمين، نتيجة للعلم الملحد، والمعرفة الكافرة، ولم يتركوا منها لأصحابها إلا ما يتساقط من فتات موائدهم، وحتى هذا الفتات المتعفن لم يسمحوا بشيء منه لعامة الشعوب في الأوطان المسلمة الذين يتضورون جوعاً، ويزوّرون عرياً، ولكنهم حجزوه عنهم ومنحوه للأخشاب المسندة الذين نصبوهم رعاة وولاة وحكاماً على هذه الشعوب المستعبدة الذليلة التي حطّت على رؤوسها طيور الفقر المذلة، واحتلت أجسامها الناحلة جراثيم الأمراض والأوبئة، واستحوذ على عقولها الجهل المظلم، وأصبحت عاجزة عن النهوض بواجباتها المسلمة إلا بالخطب على منابر المساجد، والدعايات الجوفاء التي لا تصنع شيئاً إلا أن تنيم الشعوب في كهوف التأخر الفكري، والتخلف الاجتماعي والفراغ الروحي، والضياع المادي والعجز عن التحرك لتصحيح تركيب المجتمع المسلم تصحيحاً يعيد له حياته الكريمة، وقوته التاريخية، ويمكّنه من معرفة نفسه في أوطانه، واستغلال ثرواته، وكنوزه بسواعد أبنائه، وتفكيرهم، وتصنيع خاماته، وإعداد القوة الرادعة لأعدائه، ليسير بدعوته إلى الله وتوحيده آمناً قوياً، مفكراً، دون أن يخشى العقبات التي تقام في طريقه على أيدي الوثنيات الملحدة الجديدة الممثلة في الشيوعية، والصهيونية، والماسونية، والروتارية، والوجودية والخنفسية والبهائية من كل النحل الملحدة، التي تجمعها عداوتها للإسلام وحقدها عل المجتمع المسلم، والتي تقف وراءها حكومات بكل قواها المادية والدعائية الشريرة ممثلة في جماعات التبشير والتكفير، وخداع الاستشراق الفكري الذي يتخذ من العلم والمعرفة ستاراً يغطّي به فكره السيء وجدله المعربد، وخداعه الماكر وكيده الحقود.

إن المجتمع المسلم لن ينهض من كبوته، ولن يصحو من غطيط نومه،

لن ينهض المجتمع المسلم من كبوته إلّا إذا عاد إلى منهجه الأصيل في تربيته الإسلامية

ولن يتنبه من ذهول غفلته، ولن يستيقظ من غفوته إلا إذا عاد إلى منهجه الأصيل في المؤاخاة التكافلية والتربية الروحية التي توقظ فيه عوامل الإيمان ومعرفته بحقيقة تاريخه معرفة حقيقية، يقف منها على بواعث نهضته في تاريخه وعوامل قوته في مسيرته، ليعيد تطبيقها عملياً في حياته، ويعرف آثارها في نهضته التي استطاع بها أن يقود الإنسانية روحياً ومادياً وفكرياً فترة من الزمن كانت من أرفع فترات الحياة في وزنها الحضاري، كما يقف منها على معرفة ما صادفه في طريق سيره من المعوّقات التي انحسر تحت أقدامها المدّ الإسلامي، وهو اليوم لا يزال في انحساره، بل تقهقره، وعجزه عن التحرك المتفاعل مع تصاريف الحياة، وهي تجدّ السير مسرعة، لا تتوقف عند أشباح تغط في نومها، ولكنها تتابع مشيها في سيرها مغذّةً لا تني ولا تفتر، لا يعيق سيرها رميم الأشباح من بقايا مجتمع كان له في الحياة شأن مذكور، ثم على حين غفلة فقد كل شيء من مقوماته الذاتية، بل فقد نفسه وتاريخه وخصائصه الروحية والفكرية والمادية والتربوية، وهو يعيش في ضياع لا يشغله من أمر الحياة إلّا ما يشغل خُشاش الأرض.

والخطوة الأولى في إنقاذ المجتمع المسلم من كبوته، وإيقاظه من رقدته، وتنبيهه من غفلته هي إنهاضه من استرخائه المتثائب، وإنعاشه من تخدّره المستسلم للواقع الظلوم الذي سلبه مقومات الحياة الجادة، وهذا الإنعاش لا تنفع فيه رنات الخطب وجهارة الدعايات الجوفاء، والتنادي بالشعارات في الندوات والتجمعات واتخاذ القرارات التي تتبخر مع الهواء.

وإنما يكون إنهاض المجتمع المسلم وإنعاشه بالعمل الإيجابي القائم على دعائم العلم والمعرفة وقوة التفكير الدافعة على الحركة والنهوض لحمل العبء الذي كان يحمله يوم أن كانت خصائصه الذاتية ممثلة في نهجه السلوكي والتربوي.

بل إن إنهاض المجتمع المسلم اليوم لا يكون إلا بدقِّ أجراس الخطر ليشيع في أرجائه الشعور والإحساس، ويشمل كل ذرة في ذرّات هيكله، ليقف على قدميه مستعداً للعمل وراء قيادة مؤمنة، راسخة اليقين، عظيمة

لا يُنهض المجتمع المسلم إلاّ قيادة موحدة عليمة مؤمنة، تستطيع أن تتغلب على المفارقات السياسية وتدسساتها

الإخلاص لإنهاض هذا المجتمع عليمة بالماضي والحاضر، قوية التفكير في الخروج من المآزق والأزمات، جريئة الفؤاد، فدائية الروح، حذرة من السقوط في منحدرات السياسة الخادعة، شديدة التوقّي من مخادعة الأصدقاء والأعداء على سواء، وليس للصداقة في واقع إرادة تصحيح تركيب المجتمع المسلم وجود، لأن هذه الصداقة صداقة مظاهر ومخادعة، تقصد إلى الانتفاع والفائدة، وهذا نوع من الصداقات لم يعتدَّ به رسول الله ﷺ حين أخذ في تصحيح تركيب المجتمع المسلم الاجتماعي ليعدّه لتحمل أعباء المستقبل، ولكنه ﷺ عمد إلى عناصر هذا المجتمع فآخى بينها مؤاخاة تقوم على الحب في الله، ثم لما اتسعت رقعة المجتمع المسلم، وكثر عدده آخى بين جماعاته مؤاخاة تكافليّة تكليفية، ألحق بها موادعة لأقوى أعداء المجتمع المسلم، وهم اليهود، وفرق كبير بين الموادعة والصداقة، فالموادعة إنما تقصد إلى مكافّة الموادع اتقاء شره وسوء مكره، والصداقة وشيجة تمكّن من يتصف بها من مداخلة المجتمع المسلم ومعرفة أخباره وأحواله، والاطلاع على ما عنده من قوى مادية أو فكرية أو روحية.

وقد كانت هذه المؤاخاة التكافلية التكليفية عنصراً في بناء المجتمع المسلم وهو يحمل على كاهله عبء مستقبله في نشر الدعوة إلى الله، وتبليغ الرسالة، وسير الفتوحات وإقامة صروح العدل والمساواة بين أبناء الإنسانية في الحقوق والواجبات، ممّا جعل من المجتمع المسلم وحدة امتزج بروحها أفراده وجماعاته أينما حلّ من أرض الله في وطن من أوطان هذا المجتمع.

وقد تغلبت إيجابية المؤاخاة في آثارها العملية على عوائق الفتن الداخلية، فلم تستطع رغم ضراوتها وشراستها أن تقف عائقاً أمام عمل المؤاخاة في إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله، ونشر العلم في المدارس المسجدية، والمساجد المدرسية التي قامت في أوطان الإسلام على نهج قيام المسجد الأعظم في المدينة المنورة عاصمة الإسلام، وكانت تؤدي عملها الدراسي والعبادي جنباً إلى جنب، وتقوم بواجباتها من وراء كتائب الفتوحات وجحافل الجهاد.

ولم تكن اتساع رقعة المجتمع المسلم، وتعدُدُ مواطنه وقياداته، واختلاف مطالبه في أوطانه، وما صادفه في فتوحاته من أفكار وفلسفات ومذاهب وبقايا نحل في البلاد المفتوحة مع تدافع المنازع التي فرّقت المجتمع إلى شيع وأحزاب وطوائف مختلفة الآراء والفلسفات ومناهج السلوك ـ عائقاً دون سير الدعوة، وهي تحمل راية الجهاد لتبليغ الرسالة وإقامة موازين العدل، وتوحيد الحكم، وتحكيم الشريعة في حياة المجتمع المسلم الذي ظل متماسك التركيب الاجتماعي الموحّد، حتى فرق الترف المترهل كلمته، وأحاله إلى أشلاء ممزقة الأديم، تحت عنوانات من الحاكمية الذليلة المزيفة، المختلفة الوسائل والأهداف.

والمؤاخاة بنوعيها الفردي والجماعي ممكنة التطبيق العملي في كل وطن من أوطان المجتمع المسلم ـ إذا صدقت العزائم والإرادات، وخلصت النيات عند الحاكمين والقادة.

المؤاخاة ممكنة التطبيق إذا خلصت نيات الحاكمين واتجهت عزائمهم

ففي التقسيمات الإدارية في كل وطن مسلم مندوحة للبدء بالمؤاخاة بنوعيها متدرجة من المجتمعات الصغيرة إلى المجتمعات الكبيرة، وفي كثرة المساجد المدرسية فسحة لتطبيق منهج المؤاخاة، وفي كل مدرسة ومعهد وجامعة مجال لوضع المؤاخاة موضعها من التطبيق، وفي المصانع أوسع آفاق لجعل المؤاخاة حقيقة من حقائق العلم والعمل، وفي المزارع الجماعية ونقابات الطوائف المثقفة والعمال المختلفة باختلاف الطوائف والفئات، وفي دواوين الحكومة ومصالحها وطوائف موظفيها، وفي المجتمعات السكنية، وفي كل مجتمع نقابي فرصة لتطبيق المؤاخاة تطبيقاً عملياً متدرجاً. وبالجملة في كل مكان تجتمع فيه طائفة من المجتمع المسلم تحت عنوان خاص بهم يمكن أن تتحقق المؤاخاة بنوعيها الفردي الذي يقوم على الصداقة، والجماعي التكافلي التكليفي الذي يؤديه ما تؤديه الجمعيات التعاونية الحرّة التي لا تسيطر عليها الرسميات والدعايات الجوفاء والاستغلال المغرض.

ولنضرب مثلاً عملياً نوضح به إمكان تحقيق المؤاخاة بنوعيها اللذين عقدهما رسول الله ﷺ بين أفراد وجماعات المجتمع المسلم، فجعلت منه

مجتمعاً متعاطفاً بالحب، متعاوناً بالتكافل، قوياً بالوحدة.

أساس عملي موجود في واقعنا يمكن أن تبدأ منه المؤاخاة في كل وطن مسلم

في كل وطن إسلامي ـ تقريباً ـ موحَّد الحكم يوجد نوع من المدارس له خصائصه التي تميزه على سائر مدارس ومعاهد التعليم، ذلك النوع من المدارس هو المدارس (النموذجية) التي يوضع لها برنامج دراسي تربوي خاص في مواده العلمية ووسائل التربية الفكرية والبدنية، وساعات العمل، ونظام الامتحان، بل في الزي المدرسي واختيار تلاميذه، وتحديد عددهم في فصول الدراسة، وانتقاء المدرسين والمربين من الممتازين خلقياً وتربوياً وسلوكياً.

فهل يعسر في مثل هذا النوع من المدارس في نظامها (النموذجي) تطبيق مبدأ المؤاخاة بين تلاميذ كل مدرسة (نموذجية) وهي في وضعها الاجتماعي متوافرة أسباب وشرائط المؤاخاة الفردية والجماعية، ولا سيما إذا كان القائم على إدارة المدرسة رجلاً من رجالات التربية الممتازين بالحمية الإيمانية، ورسوخ اليقين، والتقوى الإيجابية، وحب الدين، والرغبة في إعلاء كلمة الله.

إن ذلك لا يعسر إذا صدقت العزائم وصحّت الإرادة، وتربية الأمم لا تُقاس بالسنين والأعوام، وإنما تقاس بما يقع في الزمن من الأعمال، فإذا صحّت عزيمة أمة من أمم الإسلام واتجهت إلى تحقيق لون من التربية يحقق المحبة والإخاء بين جميع أساتذة وتلاميذ كل مدرسة من هذا النوع النموذجي ـ سهل عليها أن تطبق نظام المؤاخاة التي قام عليها بناء المجتمع المسلم في نشأته، ومستقبل حياته، دون أن يعوقها عائق.

والمصلحون لا يحسبون للزمن حساباً في تحقيق ما تصبو إليه أنفسهم من إصلاح أممهم وشعوبهم ما داموا قائمين على الطريق السوي الذي يفضي بأممهم وشعوبهم إلى أهدافهم الإصلاحية ولو مرّ من الزمن الكثير.

والأمر لا يحتاج إلا إلى نوع من الإقدام المؤمن بالفكرة، لأن الإيمان قوة لها أثر عظيم في دفع عجلة الإصلاح إلى النهوض والتقدم للوصول إلى الهدف.

فلنجرب، ولنبدأ ونتحرك إلى العمل، والله تعالى من وراء القصد، ولتكن (نموذجية) المدرسة وتوافر وسائل التربية فيها إلى جانب وسائل التعليم قائمة على تحقيق نظرية المؤاخاة في تدرج متثبت، وليكن برنامج هذه المدارس (النموذجية) قائماً في حياة المجتمع المسلم على الروح الإسلامية الخالصة، والإسلام لا يرفض العلم ولا التربية التي تحقق للأمة إصلاحاً ينهض بها لتأخذ مكانها في ركب الحياة المتحضرة النظيفة.

والزمن لا يتوقف عن السير، والشمس لا تتوقف عن الدوران، فعلى الذين يريدون الإصلاح للمجتمع المسلم على النهج الذي أقامه عليه رسول الله ﷺ أن يسابقوا الزمن ليأخذوا منه قبل أن يأخذ منهم.

فحيَّ على الفلاح يا من بيدكم زمام قيادة المجتمع المسلم، وانهضوا للعمل، وارتقبوا فضل الله فإنه قريب مجيب، وهي تجربة لا تضر إن لم تنفع، ولن تغير من الوضع (النموذجي) القائم شيئاً، سوى أنها توجهه وجهة إصلاحية مسلمة.

فإذا نجح هذا الاتجاه التربوي المسلم ـ وهو ناجح بعون الله ـ إذا أخذت بزمامه يد مطهّرة من رجس التعبد للبرامج والمناهج المستوردة التقليدية، ونفس متحررة من العبودية للدنيا ورغائبها أمكن التوسع فيه بنقله إلى المرافق الأخرى المتميزة بخصائصها كالمعاهد والجامعات في قطّاع العلم والتربية، وإلى النقابات والمصانع في قطّاع التجمعات العاملة، وكلما كان العدد محصوراً كان النجاح مؤملاً مرجواً.

نظام المؤاخاة الاجتماعية يؤدي للدولة حكمًا مستقراً

ولا يغيبن عن تفكير الحاكمين في أوطان الإسلام أن نظام المؤاخاة يفرز العناصر الفاسدة المفسدة ويميزها عن المجتمع المسلم ليكون معهم التعامل بما يتلاقى من سلوكهم الاجتماعي، ويعطون قدراً من العناية التربوية لإصلاحهم، وردِّهم إلى صفوف مجتمعهم حتى يندمجوا فيه اندماجاً يجعلهم أعضاء صالحين مصلحين، كما تضمن المؤاخاة للحاكمين والقادة في المجتمع المسلم حكماً مستقراً، يشعُّ في جنباته الأمن والجدّ والعمل المستهدف عزة المجتمع المسلم وسعادته، والحب المبدِّد للأحقاد والضغائن، ويغرس في

النفوس روح التنافس المؤمن، والغَيْرة المتسابقة إلى الخير والهدى، ويقوِّي عوامل الحرص على ازدياد قوى المجتمع المسلم الروحية والمادية والفكرية، ويحرِّر المجتمع المسلم من عبودية التبعية المغلفة بأغطية السياسة الماكرة الخادعة، ويفتح أمام مفكِّري المجتمع المسلم مجالات العلم والمعرفة الفسيحة والتفكير في استخدام الطبيعة وعناصرها الظاهرة والخفية، ومجالات البحث في أسرار الكون ليحقق لمجتمعه مصلحة تدفع إلى التقدم الحضاري العلمي، استجابة إلى ما يدعوه إليه دينه وتربيته الروحية من التطلّع إلى ما كان له من منزلة في تاريخ القيادة الإنسانية على أسس من العدل والتراحم والمساواة في الحقوق والواجبات ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقويٌّ عزيز * الذين إن مكنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾[1].

---

(١) سورة الحج آيتا (٤٠، ٤١).

الدعامة الثالثة
التي يستند عليها بناء المجتمع المسلم
في مستقبل حياته
هي الجهاد في سبيل الله

الحديث عن الجهاد هنا ليس حديثاً عن مشروعيته

الحديث عن الجهاد هنا ليس حديثاً عن مشروعيته، ومراتبه الحجاجيّة والقتالية، وأحكامه، وأحكام ما ينشأ عنه من أوضاع ونظم في الحياة، فهذا نوع من البحث قد استوفيناه وأشبعنا القول فيه في كتابنا (سماحة الإسلام، الموسوم بـ (الموسوعة في سماحة الإسلام) إشباعاً أتى - في ظننا - على جميع ما يدور بخلد الباحثين والمتطلِّعين إلى المعرفة في هذا المجال، أو على الأقل جمع أكثر ما يدور في أذهان المتسائلين عن شرعة الجهاد في الإسلام، وما يتبعها من نظم اجتماعية وأحكام تشريعية، يتوقف عندها منكراً أو متنكراً بعض من لم يدرس الإسلام خاصة، ومن لم يدرس تاريخ الرسالات الإلٓهية عامّة، بل بعض من لم يعرف شيئاً عن تاريخ البشرية الاجتماعي في تزاحمها على رغائب الحياة التي تدفع إلى التكالب عليها الميول الغريزية عند الأفراد والجماعات مما لم يُخْلِ الحياة من تهارش وتقاتل على طول تاريخها المديد، الذي لا تعرف له بدءاً ولا تعرف له نهاية.

وقد كانت الرسالات الإلٓهية في أدوارها المختلفة وأطوارها المتفاوتة هي العصا التي يهشّ بها المصلحون ليتخففوا من عنفوان التهارش البشري في سبيل تحقيق الرغائب الاستئثارية.

التاريخ البشري شاهد صدق على جموع الرغائب المفضي إلى التماثل

والتاريخ البشري لا يستطيع أن يضع يده على مرحلة من مراحل الحياة الإنسانية فيزعم أنها مرحلة خلت من تهارش وتقاتل، والحاضرُ شاهد على الماضي، وهو في بلوغه من الرشد الحضاري، وارتقائه في مدارج الحضارة الفكرية والاجتماعية حتى بلغ منها ما يخيل له أنه ذروة التعاطف

والتراحم، أعدلُ شاهد على ما كان يسود تاريخ الحياة من سطوات التوحش والهمجية في التدمير والتخريب، وسفك الدماء، والفتك بالأرواح والتغالب والتظالم، والأثرة الذاتية التي تسوق الحياة بسياط البغي والقهر والقوة المادية الظالمة في صورها المختلفة، ومظاهرها التي لا تقف عند حصر، ولا سيما فيما نتجه العلم المادي التجريبي المظلم من وسائل الإهلاك والإفساد والتدمير والتخريب في هذا العصر الذي غلب فيه الإلحاد المادي على المبادىء الروحية، والتربية السلوكية الخلقية، ففرض على الحياة سيطرته وسلطانه، ولم يترك للروحانية الهادية إلا منابر الكلام الأجوف الذي لا يُحْلي ولا يُمر، ولا ينفع ولا يضر، وإنما هو لون من التنافس الدعائي، يقصد به أكثر ما يقصد خداع الشعوب عن حاضرها الذليل.

رسالة الإسلام هي العدو الأول للإلحاد والوثنية المادية

وهذا الإلحاد المادي الظلوم لا يرى له اليوم عدواً في الحياة إلا رسالة الإسلام التي رفعت راية التوحيد، منذ أن أهابت بالإنسانية في أول لحظة تشرّفها بها لتريها صورة الإلحاد المادي في صُوَر الإشراك بالله تعالى، وفي صور الوثنيات المختلفة، وتريها طريقة مقاومة هذا الإلحاد الفاجر بسلاحه الذي يحاربها به، وهو متفرغ لمحاربة هذه الرسالة الخاتمة الخالدة، لا يشغله عنها شاغل، لأنه فرغ من القضاء على بقايا الخرافات والأساطير المتخلفة من حطام الرسالات التي سبقت رسالة الإسلام، أو هو على الحقيقة لم يجد أمامه إلا شيئاً من حطام بالٍ من بقايا آثار باهتة، قال عنها أصحابها إنها آثار رسالات سابقة، وما هي من الله في شيء.

الإلحاد المادي المتفلسف استحوذ على قلوب الشباب فأفسدها

وقد استطاع هذا الإلحاد المادي أن يحتاز عواطف الشباب في دنيا الناس، ويملك قلوبهم بما فجرّ فيهم من شهوات جامحة أتاح لها جميع أسباب الانطلاق، ومكّنها من الإشباع المنهوم بالرغائب الشهوية في بيئات لا تعرف للأخلاق بينها منزلة.

ومن فجور هذا الإلحاد المادي الجموح أنه صب إفساده المادي في قوالب متفلسفة، ليوهم العقول أن فجوره علم، وأن جموحه معرفة وفلسفة، وهو يدور مع هذه النحل المتفلسفة في حلقة مفرغة كما تدور أحْيرة الطحانين

بالرحى، وهي تطحن الحصى، ولا يُدرى متى تنتهي من هذا الدوران، ليترك العقول تعود إلى الله وتشهد من الكون وجهه المضيء بالأسرار الإلٓهية وإشراق الطبيعة بنور الهداية لتعرف الله بإنعامه وسابغ إحسانه، وكمال جلاله في وحدانية لا تقبل الإشراك.

لا منقذ للشباب إلّا معرفة الله والإيمان برسالاته

وعودةُ شباب الإنسانية، ولا سيما شباب المجتمع المسلم إلى معرفة الله والإيمان به وبرسالته الخاتمة الخالدة المنزّلة على خاتم النبيين محمد ﷺ هي المنقذ الوحيد للحياة مما ارتطمت به وهي تنحدر في هاوية الانحلال الخلقي إلى غير قرار، وهذا الإنقاذ واجب المجتمع المسلم في إعادة تصحيح تركيبه الاجتماعي من جديد، بتجديد مارسٌ من وحدة المؤاخاة بين أمم هذا المجتمع وشعوبه في جميع أوطانه ليتوحّد في ظلالها مرة أخرى، حتى يستطيع هذا المجتمع المسلم أن يأخذ مرة أخرى بزمام القيادة الإنسانية بروحانية رسالته حتى يعيدها إلى مستقرها من الهداية والإصلاح.

المقصود من الحديث عن الجهاد هنا إبراز مواقف المؤاخاة في مسيرة المجتمع المسلم

وإنما المقصود من الحديث عن الجهاد هنا نمط آخر من البحث، نقصد به أن نبرز مواقف المؤاخاة الحبية، والمؤاخاة الاجتماعية التكافلية التي جعلها رسول الله ﷺ أساس منهجه في تربية مجتمعه المسلم في مواقفته لأخلاط المجتمعات المتنافرة في أهدافها ووسائلها حتى قضى عليها في الداخل، وجعل من مجتمعه المسلم المتآخي قوّة موحّدة قادت الإنسانية في مسيرتها الحضارية الهادية المصلحة إلى آفاق الإيمان والإخاء والحب، وقد عرفت في قيادته لها يوم أن أخـذ بزمامها العدل والمساواة في الحقوق والواجبات، وعرفت الإنسانية من هذه القيادة التراحم والتعاطف والتوادد، وعرفت في هذه القيادة التواسي والترافق، بل عرفت في ظل قيادته الإيثار الذي أذاب (الأنانية) وحب الذات، وجعل من المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي أمة واحدة دون الناس، فهو يتحرك بهذه الوحدة إلى أهدافه متذرعاً إليها بأنظف الوسائل العملية الجادة، حتى تحققت له هذه الأهداف وهو معتصم بوحدته الأخوية لا يريم عنها ولا يفرِّط فيها.

فلما مالت شمس المؤاخاة التكافلية عن آفاق هذا المجتمع المسلم،

ضياع المؤاخاة من منهج المجتمع المسلم أسلمه إلى القوميات الملحدة

وداخلته في حياته مطامع الرغائب الشخصية تفرقت وحدته الاجتماعية، وهوت منزلته القيادية في المجتمع الإنساني، وماجت به زعازع الفتن القواصم الموبقة وألقته في مهاوي التبعية، فاستذلّ ومزق أديمه، وصار أشلاء في أوطانه، تحكمه جراثيم القوميات المغرقة في عتو الكفر الوثني، وو ريثة الإلحاد المادي المتلوّن مع تقلبات الحياة، فلا يبالي في تقلباته أن يكون شركاً غبياً يتعبد للأحجار والحيوان، انسلاخاً من إنسانية، ولا يبالي أن يكون فلسفة فكرية ماجنة، ولا يبالي أن يكون نحلة منحرفة فاجرة، ولا يبالي أن يكون زندقة منافقة، ولا يبالي أن يكون أكذوبة متعالمة، ولا يبالي أن يكون سياسة غادرة خائنة.

فهذا الإلحادُ الذي يغلِّف القوميات العنصرية بأغلفة التمويه والأباطيل الادّعائية ألوانٌ مختلفة تضفيها الحضارات الماجنة صوراً متشابهة في إطار الحياة الاجتماعية التي تحياها الأمم والشعوب في أوطانها المتشبعة بعصارات التحلل الخلقي والفجور الشهوي، فيجعل منه الفراغُ الروحي في الأفراد والجماعات، والضياع الاجتماعي في الأمم والشعوب علماً ومعرفة وفلسفة.

وقد يندّ عن هذا التصوير قليلاً العلم التجريبي القائم على المشاهدة التجريبية لأن بعض علماء التجارب الطبيعية ـ وهم قلّة إلى جانب المتفلسفة النظريين ـ ينظر أكثر ما ينظرون إلى نتائج التجارب، وما تؤدي إليه، أو ما يمكن أن يستخلص منها من عمل صناعي في استحداث أدوات وآلات تؤدي عملاً في الحياة.

فهؤلاء العلماء التجريبيون في عمل مع تجاربهم يلاحقها في مراحلها حتى يصل بها إلى شيء، قد يكون هو الهدف من التجربة وربما كان شيئاً آخر، يفتح باباً لتجارب أخرى.

غرور علماء التجارب الطبيعية بما صادفوه أسلمهم إلى الغفلة عن آيات الله في الكون فضلوا وأضلوا

فليس عند هؤلاء العلماء التجريبيين فراغ فكري، كالفراغ المستحوذ على عقول المتفلسفة النظريين، فحوَّلهم هذا الفراغ إلى ملاحدة يتعالمون، ولكن الذي عند العلماء التجريبيين تخمة فكرية مادية، وضياع روحي يغطي على أفئدتهم، فيفرحون بما أتوا من التجارب ونتائجها، ويحبّون أن يُحمدوا بما

صادفوا، فيشغلهم ذلك عن الالتفات إلى التفكير في آيات الله الكونية، ودلائل هذه التجارب، ومنابعها الغيبية الروحية جموداً مع المظاهر المادية للتجربة، فكانوا بغفلتهم عن التفكير في آيات ربهم، وهي بين أيديهم، تنادي بوجود الله وعظمة اقتداره، وحكمة تدبيره، من ﴿الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾[1].

قد تكون هناك عناصر خفية لها أثرها في الوصول إلى النتائج التجريبية فكانت الغفلة المضلّة

وليس معنى أن التجربة العلمية في مظاهر الطبيعة يمكن أن يستخلص منها عمل آلي أو أدوات تؤدي في الحياة أعمالاً مشهودة منتفعاً بها، وأن التجربة التي تمت على أساس نظرية علمية، تحكمها قوانين طبيعية ظاهرة كاملةُ الصحة، لاحتمال أن تكون هناك عناصر خفية غير مشهودة لها مدخل في استخلاص نتائج التجربة، وهذا هو مظهر الغفلة والفراغ القلبي الذي حجب تفكير هؤلاء العلماء عن النظر في آيات الله الكونية التي لو أتيح لهم النظر فيها لأخذت بأيديهم إلى هدى الله، فكانوا أوزن إيماناً وأرجح يقيناً من العلماء النظريين المؤمنين بقوة براهين المنطق النظري.

وهذه العناصر الخفية التي قد يكون لها مدخل في استخلاص نتائج التجربة ولم تظهر لتوّها قد تُعرف فيما يستقبل من البحث، وقد تسوق إليها المصادفة البحتة التي كثيراً ما تدخلت في عظائم المخترعات التجريبية.

والإلحاد المادي بمساعدة نتائج العلم التجريبي باعد بين التفكير الإنساني وبين الإيمان بالله ورسالاته التي قامت مناهجها الاجتماعية والتربوية في المجتمع المسلم على المؤاخاة التي زاوجت بين إشراق الروح وومضات الفكر، فلم تُغفل إشراقات الروح بنور الهداية الإيمانية، ولم تهمل عمل الفكر في خوضه غمرات العلم التجريبي، بل جعلت منهما حقيقة واحدة، تعيش متآخية مع نور الهداية الإلهية ومع وثبات الفكر في تعرّفه عناصر الطبيعة وأسرار الكون المسخرة للإنسان، ليستخلص منها ما أودع الله فيها من آيات ودلائل تهدي إليه عز شأنه، وتدل على اقتداره ومحكم تدبيره،

(١) سورة الكهف آيتا (١٠٤، ١٠٥).

ولينتفع الإنسان منها في حياته الروحية والمادية على سواء.

منهج المجتمع المسلم يوجب عليه أن يخوض لجة العلوم الطبيعية

فمناهج رسالة المجتمع المسلم القائمة على دعائم المؤاخاة التكافلية التكليفية بين أفراد وجماعات وأمم وشعوب هذا المجتمع المسلم تتطلب من هذا المجتمع بعد أن يهبَّ من رقدته المتطاولة، فيصحح مرة أخرى تركيبه الاجتماعي إلى تركيب متآخٍ تآخياً تمازجياً في منهجه العلمي، وتربيته السلوكية المتكافلة لتحقيق هدف رسالته التي قامت على دعائم المؤاخاة ـ أن يتبنى بمقتضى مناهجه الفكرية منهج العلم التجريبي ليجعل من هذا المنهج الفكري التجريبي نقطة انطلاق للفكر المسلم في ظل الهداية الإيمانية، بعد أن طال تمرغ هذا العلم الشريف في أوحال الإلحاد المادي، معادياً للهداية الروحانية الإيمانية.

وهذا التبني ـ وكثير من إمكانياته متوافر لدى أمم المجتمع المسلم في هذا العصر ـ هو في الحقيقة أعظم ما يقوم به المجتمع المسلم لتحقيق أهدافه الإيمانية الحضارية في هذا العصر، وهو أعظم ما يستطيع أن يقدِّمه المجتمع المسلم للإنسانية في تصحيح مسيرتها الفكرية نحو إنشاء حضارة مؤمنة، تقوم على دعائم العلم المؤمن، والمعرفة المرتوية من نمير الروحانية المشرقة بنور الهداية الإلهية في رسالة المجتمع المسلم.

لأن العلم ـ كل العلم ـ في ظل الهداية الإيمانية هو الهدف الأعظم لرسالة المجتمع المسلم، الذي يجب عليه أن يعمل متآخياً بكل ما أوتي من قوة روحانية ومادية على تحقيقه، لتتذوق الإنسانية طعم السعادة الاجتماعية المتآخية في ظل هذا الهدف العظيم.

وهذه ليست أحلام يقظة، ولا أماني متمنٍ، يحوكها الخيال المتفائل، ولكنها حقائق فكرية، يمكن ـ إذا صدقت عزائم من بيدهم مقاليد المجتمع المسلم، وعندهم وسائل تمكينه من خوض غمرات العلم الطبيعي وتجاربه في جامعات المجتمع المسلم ومراكز بحوثه ـ أن تصبح بالعمل الجاد، والبذل في سبيل الله حقائق واقعية، تعيد إلى هذا المجتمع عزته التاريخية.

وكفى ما كان من كلام وتشادق، ودعايات، وشعارات، وخطب، ومواعظ مكرورة، وليبدأ قادة المجتمع المسلم في العمل، وليتحرك مفكرو هذا المجتمع في هدوء يبدأ من (الصفر) كما يقولون.

فإن الوصول إلى النقطة الأولى من خط السير في سبيل العمل الجاد لتصحيح تركيب المجتمع المسلم، وتمكين أقدامه في مواطئها عمل ضخم لا يستهان به، لأنه عمل يضع المجتمع المسلم مرة أخرى على الطريق المستقيم في تصحيح تركيبه، ويريه معالم الطريق حتى لا يضل عن سمته ووجهته، والانتقال في العمل من أول نقطة في خط إلى النقطة التي تليها في هذا الخط خطوة لا يضبطها القياس الزمني، لأنها في حياة الأمم والمجتمعات الإنسانية أجل من مقاييس الزمن، وقد تكون في حصيلتها العملية مما لا يقع تحت الرؤية المشبعة للرغائب العالية، ولكنها بما يتم فيها من أثر عملي مرسوم تنبىء عن نفسها، وتنبىء عمّا فيها من حركات إيجابية تضفي على حياة المجتمع قوة تنعشه للسير قدماً في سبيله.

* * *

وقد بينا بالتفصيل الممّحص للوقائع والأحداث أن المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بنوعيها الطليعي الفردي القائم على أساس الحب في الله والحب لله بين كل متآخَيْين من طلائع المجتمع المسلم بالمدينة المنورة من المهاجرين والأنصار الذي كان فيه كل مهاجري أخاً لأنصاري.

كانت المؤاخاة بنوعيها بين عناصر المجتمع المسلم قوة مرهوبة الجانب

وقد تمَّ هذا النوع الطليعي من المؤاخاة، وربا واستعمق في القلوب والأرواح والعقول والأفئدة حتى امتزجت فيه عناصر هذا المجتمع المحصور بمن كان قد وصل إلى المدينة من المهاجرين وأمثالهم من الأنصار، فكانوا وحدة امتزاجية ذابت في مزجها خصائص الذوات والأشخاص، وذهبت بها الفواصل بين الأفراد، حتى انتهت هذه الوحدة إلى الإيثار، وتسنَّمت ذرا الإيمان، الذي جعل منها قوة روحية تعاصت على المكايد، وتخطَّت أعتى العقبات، وتسامت في إيمانها إلى قمة الحب في الله، الذي أقام رسول الله ﷺ دعائمه على المؤاخاة الفردية فتآخوا في الله أخوين، أخوين، كما قال لهم

رسول الله ﷺ، ثم جاءت المؤاخاة الاجتماعية التكافلية بين جماعات المجتمع المسلم الذي كثر عدده، فكانت دستوراً منهجياً في حياة هذا المجتمع الذي سما به إلى آفاق القيادة الإنسانية، بل جعله في وحدته آية من آيات الإعجاز الاجتماعي في حياة الناس عامة، وحياة المجتمع المسلم خاصة، لأن وحدة التآخي التي كانت تربط عناصر المجتمع المسلم بعضها ببعض لم يعرفها تاريخ البشرية لغير هذا المجتمع.

وإذا كان نوع المؤاخاة الطليعي بين أفراد المجتمع المسلم قد قام على أساس الحب في الله الذي بلغ به إلى خصيصة الإيثار، فقد كان النوع الجماعي من المؤاخاة قائماً على أساس التكافل الاجتماعي التكليفي الملزم بمقتضى الدستور الذي أمر رسول الله ﷺ بكتابته بين عناصر المجتمع المسلم من المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، فجعلهم أمة واحدة دون الناس، يتكاثرون في ظله، ويزدادون عدداً وعدّة وقوة تحت سلطانه، ضابطاً لأعمالهم وتحركاتهم، مصححاً تركيب مجتمعهم، راسماً لهم منهج السير في مستقبل حياتهم في حربهم وسلمهم، مما حقق لهم وحدة اجتماعية جعلت من المجتمع المسلم قوة روحية، ومادّيّة، وفكرية وتربوية وسلوكية مرهوبة الجانب بين مجتمعات أخلاط المدينة المتنافرة في أهدافها ووسائل حياتها المترهّلة في تماسكها، المسترخية في حركاتها، بل بين سائر مجتمعات طواغيت الشرك وعبيد الوثنية، المتربصة بالمجتمع المسلم، تبغيه الغوائل، وتحوك له نسائج الفتن القواصم، لتفرق عواصم تجمعه وتآخيه.

لماذا كانت المؤاخاة أول عمل إيجابي في منهج التربية النبوية؟

وقد كانت هذه المؤاخاة أول عمل قام به رسول الله ﷺ في منهجه التربوي الاجتماعي الذي أقام على قواعده تركيب مجتمعه ليعدّه لمواجهة الحياة في سيره بدعوته إلى الله تعالى، وتبليغ رسالته إلى الناس كافة، مما جعله عرضة لمكايد أعدائه في الداخل من شراذم اليهود الحانقين، ومن طواغيت الشرك في الخارج الذين يمثلهم ملأ الكفر والفجور في مكة ومن يتعصب لها ممن حولها من قبائل الشرك والوثنية.

فأبانت عن براعة الحكمة السياسية التي انتهجها رسول الله ﷺ في تحركه الإيجابي بمجتمعه بعد الهجرة، ليفتح الطريق أمام مسيرة رسالته، تقديراً منه ﷺ لما ينتظر هذه المسيرة من عقبات كأداء، وعوائق صمّاء، وأزمات شداد، ومكر وخديعة، وتألّبات متكالبة ضد مجتمعه المسلم، مما يتطلب منه استعداداً روحياً ومادياً يصب في قالبه المجتمع المسلم وحدة قوية النسج، لا تنفصم عراها، يخوض غمرات الجهاد بسلاح الإيمان وقـوة المؤاخاة المتكافلة بروح فدائية تحب الاستشهاد في سبيل الله أشد مما يحب أعداؤها الحياة، لا تبالي في جهادها أجاءها النصر متنزلاً من سماء العزّة، أم لقيها الموت في حياض الجهاد، وهي تتغنى بقول قائلها:

ولست أبـالي حـين أقتـل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي

لقد صدق الله رسوله في مؤاخاته بين عناصر مجتمعه فكانت قوة في جهاده

وقـد صدق تقـدير رسـول الله ﷺ، وبدأ اليهـود، وهـم الأعداء الداخليون، الذين لا يشفي صدورهم من الغل والحقد والحسد إلا أن يروا المجتمع المسلم محاطاً بأعدائه من كل جانب، مـأخوذاً بسيـوف أولئك الأعداء ـ يفكّرون ويقدِّرون ويرسمون الخطط لاستئصال هذا المجتمع الذي يقرؤون في لوح الحياة أن نهايتهم ستكون على يديه إذا لم تخلُ الحياة من وجوده، وانتشار دعوته، واندفاع رسالته في سيرها إلى المجتمع الإنساني في أقطار الأرض، فتفقأت بيضة مكرهم في الداخل عن فرخ النفاق الخبيث، يدبِّرون له الأكاذيب، ويخترعون له الأراجيف ليفتّوا في أعضاد الضعفاء من حدثاء الإيمان الذين لم تشرب قلوبهم حب الإيمان، وهم سمّاعون لهم، ثم طار خبثاء اليهود إلى ملأ قريش، يثيرون حفائظهم على المجتمع المسلم، ويشعلون في أكبادهم حرائق الغيظ الكظيم، ليجمعوهم لحرب المجتمع المسلم إرادة استئصاله ولكن هذا المجتمع المسلم كان قد استكمل بناءه المتآخي، فوقف أمام هذه التألبات المتكالبة المتهاوية وقفة الجحفل المتشامخ بقوته الإيمانية ووحدته الاجتماعية، متماسك التركيب المتآخي في قلة عدده، وقوة شوكته، ورسوخ يقينه، واستعداده لتحمل أقسى صنوف البلاء في سبيل تحقيق أهدافه التي نصب نفسه مناراً لها يهتدي بها السائرون في دياجي الحياة، وهم يسمعون صوت الحق يناديهم: ﴿الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل

الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾[1].

وفي هذه الآية الكريمة توجيه للمجتمع المسلم في جهاده، خرج في أسلوبه مخرج المدح والثناء والترغيب المحرِّض على الجهاد، لأن هذا المجتمع بمقتضى ما أحدثته المؤاخاة التكافلية في كيانه من امتزاج جعل قوته في وحدته الإيمانية، تلك الوحدة التي تستهدف نشر الإيمان بالجهاد الحجاجي البرهاني والجهاد القتالي المزيل للعقبات من طريق تبليغ الرسالة، ونشر الدعوة لإعلاء كلمة الله.

جهاد المجتمع المسلم جهاد مستهدف لأعظم مقاصد السعادة في الحياة

فجهاد المجتمع المسلم جهاد مستهدف، يقصد إلى تحقيق أعظم هدف في الحياة ليسعد بهذا التحقيق في الدنيا بالعزة والنصر المؤزر، وفي الآخرة بنعيم الشهداء الذي لا يعدله نعيم، وفي إسعاد هذا المجتمع إسعاد للإنسانية كلها، بما تحظى به من الأمن في ظل العدل والمساواة الأخوية في الحقوق والواجبات.

أما أعداء المجتمع المسلم فإنهم يقاتلون لغير هدف، سوى شفاء غل صدورهم بما يسفكون من دماء الأبرياء الهداة الذين يدعونهم إلى توحيد الله، وخلع عبادة الأوثان، ليحرروهم من ربقة العبودية لغير الله تعالى بالشرك الموبق، والإلحاد الفاجر، والوثنية الزّريّة، ويدخلوهم معهم في ساحة الإيمان إخوة لهم في مجتمع الهداية والخير والحب والإخاء.

وفرق كبير، جداً بين من يجاهد مستهدفاً أعظم هدف لإسعاد الحياة، يحقق به إعلاء كلمة الله، وبين من يقاتل لغير هدف وإنما يقاتل ويدمّر ويخرب عمران الحياة، ويسفك الدماء في سبيل الطاغوت، انقياداً لضلالات الشيطان ومكايده، وماكيد الشيطان إلا في ضلال وضياع لمهانته وضعفه أمام عظمة الله تعالى، وقهره، ألا ترى إلى فراره مدبراً لا يلوي على شيء حين رأى جند الله وهم يثبِّتون المؤمنين في مواقف جلاد الكافرين، وهو يقول

(١) سورة النساء آية (٧٦).

لأوليائه أعداء الله، إذ يستغيثون به: ﴿إني أرى - أي من بأس الله وانتقامه وقهره - ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب﴾[1].

فالمجتمع المسلم يجاهد في سبيل الله وهو متثبت من أمره، راسخ القدم في جولاته، لأن له هدفاً يقصده في جهاده ويجعله نصب عينيه، فإذا تحقق هذا الهدف كفَّ عن القتال، وأخذ بيمينه كتاب الله ينشر هدايته، مبشراً منذراً، محبباً الله تعالى إلى خلقه بتذكيره بإنعامه وفضله وإحسانه.

وأما أعداء الله، وأعداء هدايته، أولياء الشيطان فإنهم يقاتلون والأرض تهتز تحت أقدامهم، وقلوبهم واجفة وأبصارهم خاشعة، وعقولهم زائغة، لا تجمعهم غاية، ولا تربطهم وشائج سوى وشائح الحقد على أهل الحق وحملة أمانته من جند الله وكتائب المجتمع المسلم التي تحمل لواء الدعوة إلى الحق والخير.

يقول الزمخشري في تفسير قول الله عز شأنه: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾ الآية: رغَّب الله المؤمنين ترغيباً وشجعهم تشجيعاً بإخبارهم أنهم إنما يقاتلون في سبيل الله، فهو وليّهم وناصرهم، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل الشيطان، فلا ولّي لهم إلا الشيطان، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه.

ويقول أبو حيان في تفسيرها: لما أمر الله تعالى المؤمنين أولاً بالنفر إلى الجهاد، ثم ثانياً بقوله: ﴿فليقاتل في سبيل الله﴾ ثم ثالثاً على طريق الحثّ والحضّ بقوله: ﴿وما لكم لا تقاتلون﴾ أخبر في هذه الآية بالتقسيم، أنّ المؤمن هو الذي يقاتل في سبيل الله، وأن الكافر هو الذي يقاتل في سبيل الطاغوت، ليبين للمؤمنين فرق ما بينهم وبين الكفار، ويقوِّيهم ويشجعهم ويحرضهم، وأن من قاتل في سبيل الله هو الذي يغلب، لأن الله هو وليه وناصره، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب.

ثم قال أبو حيان: وشتّان بين عزم يرجع إلى إيمان بالله وبما وعد على

(٢) سورة الأنفال آية (٤٨).

الجهاد، وعزم يرجع إلى غرور وأماني كاذبة.

فالمجتمع المسلم يجاهد في سبيل الله صفّاً واحداً، لهدف واحد، لأن المؤاخاة الاجتماعية التكافلية أذابت الفوارق في عناصر تركيبه بوحدة الإيمان، فجعلت منه وحدة في صدق العزيمة التي إذا همّت لا تتردد، وإذا أقدمت فلا تتراجع، ولكنها تمضي قدماً إلى قصدها المستهدف إعلاء كلمة الله، غير مبالية بما يكون في طريقها من عقبات، مهما كانت تلك العقبات في شدّتها وقسوتها، لأن لها من صدق عزيمتها، وقوة إرادتها، وإيمانها بموعود الله ما يفتت جلاميد أعتى العقبات، ويزيل شوامخ رواسيها.

وهذا التوجيه الذي ذكرناه في الآية هو في الواقع ثمرة من ثمرات تربية المؤاخاة التكافلية التي عقدها النبي ﷺ بين أصحابه وسجلها دستوراً ملزماً في كتابه الذي أمر بكتابته بين جماعات المجتمع المسلم، وهو ﷺ مقدّر أصدق التقدير ما ستلقى هذه المؤاخاة في مستقبل المجتمع المسلم من تجمعات متكالبة، تريد القضاء عليه من بين مجتمعاتها التي ضاقت ذرعاً بهذا المجتمع المسلم، وهم يرونه في قلّة عدده بالنسبة لأعداد مجتمعاتهم شامخ الذرا، مستصعب المدارج، لا تلين له قناة، ولا تقهر له شوكة، واري الزناد، رفيع العماد، لا يهن ولا يسترخي متحفزاً للوثبة، لا تزول له قدم حتى ينكشف له قناع الغيب عن كتائب النصر المبين.

نمط البحث هنا يصور المنهج النبوي في تطبيق شرعة الجهاد في سبيل الله

هذا النمط الذي جرينا عليه هنا في البحث لتبيان أن الجهاد في سبيل الله دعامة من أقوى وأعظم الدعائم المنهجية التي يستند عليها بناء المجتمع المسلم، الذي اختارته العناية الإلٰهية لقيادة الإنسانية في مستقبل حياتها وحياته، إنما قصدنا به تصوير المنهج التطبيقي للرسالة الخاتمة الخالدة، كما رسمه رسول الله ﷺ ليكون عملاً إيجابياً في واقع الحياة.

فكما أبرزنا الصورة العملية في بناء المسجد الأعظم بالمدينة المنورة باعتباره نموذجاً لإنشاء المسجد في جميع أوطان الإسلام، وما قدّمه ذلك المسجد الأعظم الذي بدأ به رسول الله ﷺ منهجه في تطبيق شرائع رسالته، وما يجب أن يقدمّه كل مسجد في أوطان المجتمع المسلم لتحقيق مقاصد

إنشاء المسجد في بساطة بنائه، وتوجيه المجتمع المسلم في حياته الفكرية والتربوية والاجتماعية والسلوكية، كما أبرزنا ذلك أبرزنا الصورة المنهجية للمؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ - أولاً - بين أفراد المجتمع المسلم من المهاجرين والأنصار، على الحب في الله، والمؤاخاة فيه، وهو يبني مسجده الأعظم، ثم أبرزنا الصورة العملية للمؤاخاة التكافلية التي عقدها رسول الله ﷺ - ثانياً - بين جماعات المجتمع المسلم، بعد أن استحكم وجوده، وتزايد عدده، وبدأ تألّب أعدائه من أخلاط المجتمع المدني المتنافر في وسائل حياته وأهدافه، والمؤلف من بقايا نفايات الشرك وشراذم اليهود الذين يعيشون على الحقد لهذا المجتمع المسلم والمكر الغادر برسول الله ﷺ، وسجّل ﷺ ذلك في كتابه الذي أمر بكتابته ليكون دستوراً تكليفياً ملزماً، وأنزل فيه اليهود من عرش غرورهم الفاجر إلى مواطىء التبعية لطوائف وجماعات المجتمع المسلم من الأنصار، وبيّنا ما كان لهذه المؤاخاة التكافلية من آثار ضخمة في توطيد أقدام المجتمع المسلم على أرضه، التي أصبحت قلعة كتائبه ومستقر دعوته لإعلاء كلمة الله تعالى.

كما أبرزنا ذلك كان علينا أن نبرز الصورة التطبيقية العملية للجهاد في سبيل الله باعتباره دعامة من أعظم دعائم بناء المجتمع المسلم الذي جُعلت المؤاخاة سلاحه الأول الذي يعتمد عليه في جهاده لرد اعتداءات المعتدين، وإزاحة العقبات من طريق مسيرته وهو يدعو إلى الله، ويبلِّغ رسالته، وينشر هديه ونوره الذي أنزله على خاتم أنبيائه محمد ﷺ.

وكان علينا أن نبرز وشيجة الجهاد في سبيل الله بالمؤاخاة التكافلية التي قام على أساسها تصحيح تركيب المجتمع المسلم وكانت له قوته التي يرتجف منها أعداؤه المتربصون به، وكان علينا أن نبرز الإطار العام لمنهج رسول الله ﷺ العملي في تطبيق منهج التربية لمجتمعه تربية تجعل منه قوة روحية ومادية، موحدة الهدف والوسائل في مسيرته الداعية إلى الله، ليستطيع بهذه القوة الوقوف أمام أعدائه في الداخل والخارج إذا اعترضوا طريقه في نشر دعوته، وحاولوا عرقلتها في مسيرتها بإقامة العقبات أمامها.

وهذا المنهج التطبيقي الذي بدأ بالمسجد الأعظم، ثم بالمؤاخاة، ثم بالجهاد مدني النشأة في تحركه الإيجابي نحو تصحيح تركيب المجتمع المسلم، ليظهر خصائصه المميزة لحقيقته الاجتماعية التي يجب أن يعيش ويحيا بها بين سائر المجتمعات الإنسانية المكلف توحيدها بالإيمان بالله إلهاً واحداً، يخلص له التعبد في جميع صوره وأشكاله.

المنهج التطبيقي منهج مدني صبّت في قالبه جميع شرائع الرسالة الخاتمة

وذلك هو هدف الرسالة الخاتمة الخالدة الذي لا هدف لها سواه، فإذا تحقق هذا الهدف كانت جميع التشريعات والأحكام التعبدية والعملية الاجتماعية والتربوية السلوكية منصبّة في قوالبه، ونابعة منه وتابعة له، ومستقاة من أصوله.

وقد تمّ في المرحلة المكية وضع أصول الوحدة الإيمانية، وحملها طلائع الإيمان معهم في هجرتهم إلى دار الإيمان والعمل والتشريع، وفي تلك المرحلة المكية شُرع جهاد البيان والحجّة، ونزلت سوره وآياته القرآنية لتثبت به أقدام المؤمنين، وتقوم بأدلته الحجة على المعاندين، ويقطع ببراهينه عذر الحيارى المتربصين.

وهذا النوع من الجهاد البياني هو العمدة في نشر الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمع كلام الله ثم أبلِغْه مأمنه﴾[1] وفي ذلك احترام للعقل الإنساني الذي فضّل الله به الإنسان على كثير من خلقه، وفيه تقدير لخطر ذلك العقل، لأنه طريق الوصول للحق إذا أشرقت في آفاقه أنوار الحجة التي لا تعصف بها الشبه.

ولا يجوز تخطي هذا الجهاد في المنهج النبوي إلى الجهاد القتالي إلا إذا تبين أنه لم يفلح في تحقيق الغرض من شرعيته المقابلة بالعناد المستكبر، والعتو المتجبر، من الذين يخافون أن ينزلهم الإيمان من عروش تعاليهم الوثني الذي يتحكمون به في مصاير الحياة، ويستعبدون بسلطان قهره الضعفاء من الناس، ويستذلّون بسطوته الفقراء والمعوزين.

---

(١) سورة التوبة آية: (٦).

وعندئذ يجب على المجتمع المسلم أن يزيح من طريق مسيرته في نشر دعوته كل عقبة تقف أمامها معوِّقة لسيرها بكل ما أوتي من قوة مادية وروحية، ليمضي المجتمع المسلم في طريقه ليحقق هدفه الأعظم، وهو تحرير العقول والأفكار والعزائم من رجس الوثنيات الملحدة، والشرك الغبيّ، والظلم العنيد.

كانت المؤاخاة هي القوة الوحيدة التي يملكها المجتمع المسلم لخوض غمرات الجهاد فانتصر بها

وقد كانت المؤاخاة التكافلية هي القوة الوحيدة التي يملكها المجتمع المسلم، والتي خاض بها غمرات الجهاد فانتصر على أعدائه رغم كثرة أعدادهم الهائلة وقلة عدده بالنسبة إليهم، ورغم تفاوت عُدتهم وعُدته في جميع معاركه معهم، لأن المؤاخاة قوة روحية إرادية لا تهزم، لأن إرادات الأمم وعزائمها لتحقيق أهدافها النبيلة في الحياة قوى روحية لا تنهزم أمام القوى المادية مهما تكالبت عليها، وقد تقف القوى الروحية لتستجم وتستعد للتحفز فيظن من لا خبرة له بإرادات الأمم أن ذلك حَيْد عن المعركة، واسترسال في التسليم والاستسلام.

وقد أراد النبي ﷺ أن يجعل من قوة المؤاخاة التي يملكها المجتمع المسلم عملاً إيجابياً في تحركه نحو هدفه، فكلف المجتمع المتآخي وهو في أوج قوة المؤاخاة وعنفوانها حمل لواء الجهاد الدفاعي لكل من يتصدَّى لمسيرة تبليغ الرسالة ونشر هدايتها، فحمل هذا المجتمع المتآخي اللواء قوياً بإيمانه ووحدته الاجتماعية، فكانت المؤاخاة قوة مادية إلى جانب قوتها الروحية، فوقفت أمام أعدائها وقفة رعبلت جموعهم، وشتَّتت شملهم، وشرّدت بهم مَنْ خلفهم من المتربِّصين.

والذي يعنينا إبرازه في موضوع بحثنا هنا هو إعطاء المجتمع المسلم في حاضره صورة منهجية لما كان عليه هذا المجتمع في ماضيه من اعتماده على قوة المؤاخاة الاجتماعية التكافلية، والمؤاخاة الفردية القائمة على التآخي في الله، ليتبين المجتمع المسلم في حاضره الضعيف أن ما كان له من قوة في ماضيه الأصيل هو الذي يجب أن يكون قوته في حاضره، لينهض على أساسه إلى إعادة تصحيح تركيبه الاجتماعي على أساس الوحدة المتآخية في الله،

المتكافلة في حياته الاجتماعية، مع الأخذ في أسباب إعداد القوة السلاحية بكل ما يستطيع المجتمع المسلم من إعداد بالوسائل المتاحة له، وهي كثيرة تعطيه القدرة على تملك صنوف الأسلحة التي يملكها أعداؤه، وتعطيه القدرة على التدرب على صنعها واستعمالها، لأن المؤاخاة - في هذا العصر الوثني الملحد - بغير قوة سلاحية قليلة الجدوى، والله تعالى يقول: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[1].

المؤاخاة بغير السلاح الملائم عديمة الجدوى، والسلاح بغير مؤاخاة عديم الفائدة

والسلاح بغير قوة المؤاخاة ووحدة المجتمع المسلم التكافلية عديم الفائدة، لأن الله تعالى يقول: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾[2] ويقول جل شأنه: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنهم بنيان مرصوص﴾[3] ومعنى ذلك أن الله تعالى يحب من عباده المؤمنين المتآخين فيه، الذين استوت نياتهم في الثبات، وتوحّدت إراداتهم في الجهاد لإعلاء كلمته أن يكونوا في تآخيهم واجتماع كلمتهم وتماسك وشائجهم كالبنيان المرصوصة لبناته رصاً يجعله وحدة متماسكة، يأخذ بعضها بجوانب بعض حتى كأنه لبنة واحدة.

وإنما سيق هذا المعنى في معرض القتال، لأن القتال مظنّة الرهبة والفرقة، فإذا كانوا في مجاله على هذا الوصف في الوحدة والتماسك كانوا في غيره أشد تماسكاً وأقوى وحدة، وهذا المعنى يجب السير إليه في فهم الآية، لتغير المواقف في الحروب، وتغير وسائلها وميادينها.

فالمجتمع المسلم يواجه اليوم في حياته الحاضرة مجتمعات متنافرة، متخالفة، تحيا حياة فردية، لا يربط الفرد فيها بمجتمعه إلا مجردُ نسبته إليه

---

(١) سورة الأنفال آية (٦٠).

(٢) سورة آل عمران آية (١٠٣).

(٣) سورة الصف آية (٤).

نسبة جغرافية أو سياسية، ولا يربط المجتمع فيها بأفراده إلا سجلات المواليد والموتى، فهي مجتمعات يعيش أفرادها عيشة متباعدة، كل فرد فيها يعيش لنفسه ليحقق لها رغائبها، ويدفع عنها ما يضرها، ويجبب إليها ما ينفعها، ولا يبالي إن كان ما ينفع نفسه يضر غيره من مجتمعه، أو ينفعه، فهو يعيش لذاته ومنافعه.

وهذه المجتمعات في تنافرها أهدافاً وتخالفها رغائب تقف من المجتمع المسلم مواقف مختلفة، تمليها عليها مصالحها الذاتية ممثلة في مصلحة الأفراد الشخصية أو التكتّليّة الطائفية الموحدة ظاهراً في الاتجاه إلى هدف مصلحي ذاتي شخصي، يجعل من كل طائفة فرداً في صورة جماعة أو جماعة في رغبة فرد.

بيد أن المنهج الاجتماعي للمجتمع المسلم يجعل منه مجتمعاً تذوب فيه رغائب الأفراد الذاتية إذا تعارضت مع مصلحة المجتمع، ولكن شخصية الفرد فيه لا تذوب في غمار المجتمع، فالفرد في المجتمع المسلم مرتبط بمجتمعه أقوى ارتباط، يرتفع به إلى ذروة المؤاخاة التي يحب فيها الفرد لغيره ما يحب لنفسه، فلا يستجلب لنفسه نفعاً على حساب ضرر غيره، ولا يدرأ عن نفسه ضرراً إلا إذا استوثق أنه لا يمنع نفعاً لغيره.

منهج المجتمع المسلم يذيب رغائب الأفراد ولكنه لا يذيب شخصية الأفراد

فالمنهج الاجتماعي للمجتمع المسلم الذي وضعه رسول الله ﷺ ليكون نبراساً له في مسيرته، يجعل الفرد في هذا المجتمع يعيش في موازنة اختيارية إراديّة بين نفعه ونفع غيره، وضرره وضرر غيره، وهذا بالنظر للفرد باعتباره كياناً مستقلاً بشخصيته في المجتمع لا يذوب في غمرات المجتمع، أما من الناحية الجماعية فالفرد بالنسبة للمجتمع يجب أن يضحي بمصلحته الذاتية في سبيل تحقيق مصلحة المجتمع، وفقهاء الإسلام يقرّرون: إذا تترّس العدو بمسلم أو جماعة مسلمة لا يمكن التغلب عليه إلا بقتلها جاز قتلها للتوصل إلى كبح جماح العدو، وعدم تسليطه على بيضة المسلمين، وقد يجب قتل الترس المسلم إذا كان الضرر الذي يترتب على عدم قتله أفحش من الضرر الذي يترتب على قتله.

والمنهج الاجتماعي للمجتمع المسلم يقرر أن مصلحة المجتمع بمقتضى منهجه الإيماني في المؤاخاة التكافلية هي مصلحة كل فرد فيه، فإذا ضحّى الفرد برغبته الفردية ومصلحته الشخصية لأجل مصلحة المجتمع فهو في الواقع إنما يضحّي لأجل مصلحته باعتباره عنصراً من عناصر تركيب المجتمع المسلم، والفرد في هذا المجتمع المسلم إنما يفعل ذلك وهو مستكمل الشعور الإرادي والمعرفة المدركة بأنه يضحّي برغبته الذاتية ليحقق مصلحة لمجتمعه، يلحقه أثرها كما يلحق أي فرد من أفراد المجتمع، واستكمالُ الشعور الإرادي والمعرفة المدركة ينفي المخادعة ويزيل الشكوك، ويدفع إلى العمل الإيجابي الجاد في تحقيق مصلحة المجتمع التي هي مصلحة كل فرد فيه.

فالمؤاخاة التكافلية باعتبارها أقوى الدعائم التي يستند عليها بناء المجتمع المسلم في ماضيه وحاضره ومستقبله هي الأساس في هذا المنهج الاجتماعي الذي يجب أن يعود إليه المجتمع المسلم في حياته كلها، وهي الأساس في قدرة المجتمع المسلم على مواقفة المجتمعات المعادية له التي تقف منه مواقف الحقد والبغي، حتى يستطيع أن يثبِّت أقدامه في مسيرته الداعية إلى توحيد الله وإخلاص العبودية له وحده، والتخلص من صور وأشكال الوثنية المادية الملحدة، ويقف في مواجهة هذه المجتمعات الملحدة المادية وهي في عنفوان قوتها المادية المدمِّرة الهائلة التي تهدِّد الحياة بالفناء، وتنذرها وخامة العاقبة إن لم تجد من القوى الموازنة لها ما يدفع في صدرها بسلاحها.

المجتمع المسلم لا يزال قوياً قديراً على دفع القوى الشريرة المخربة إذا أراد قادته ذلك

والمجتمع المسلم بما وضع الله في يده من وسائل القوة المادية والروحية هو الذي يستطيع ـ إذا أراد قادته وهم مسؤولون بين يدي الله، مسؤولون أمام التاريخ ـ أن يدفع في صدر هذه القوى الشريرة المدمّرة، التي اتخذت من العلم سلاحاً تخريبياً، إذا استطاع بوسائله وإمكاناته المتاحة في هذا العصر أن ينهض إلى إعداد ما يستطيع من قوة مرهبة بجميع أنواعها وألوانها الإيجابية والسلبية في أرضه وسمائه، وبره وبحره وجوه، وإذا استطاع أن يعيد تركيبه الاجتماعي ليصحِّح ويثبت وجوده بالتقارب المتآخي الموحِّد بين أممه وشعوبه، وبالمؤاخاة المتكافلة التي تجعل من شتات قوى المجتمع المسلم

البشرية قوة موحَّدة تمثل روح هذا المجتمع يوم أن كانت المؤاخاة التمازجية هي التي تحكم اعتصامه بمنهجه الاجتماعي، وتقوده إلى منازل النصر المؤزر، وتضفي عليه هالة من إشراق هدايته وهو يمشي في مسيرته هادياً وداعياً إلى الله ومبلِّغاً رسالته إلى العالمين.

غزوات النبي ﷺ وبعوثه وسراياه
تحقيق الروايات في ذلك

الحديث هنا عن بعض الغزوات يقصد إلى إبراز قوة المؤاخاة في منهج تربية المجتمع المسلم

على هذا الأساس الذي تقدم نستعرض من غزوات النبي ﷺ ما يمثل المنهج التطبيقي في توجيه المجتمع المسلم في حياته النضاليّة بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، باعتبار الجهاد دعامة من أجلّ وأعظم وأقوى دعائم بناء المجتمع المسلم، وهذه الدعامة تعتمد على وحدة المؤاخاة التكافلية بين أفراد وجماعات هذا المجتمع، دون أن نقصد إلى استيعاب جميع الغزوات، لأن روايات هذه الغزوات في كتب المغازي والسير كافية في إعطاء صورة واضحة عن أسبابها، وما وقع فيها من أحداث، وما انتهت إليه.

ولكنا نقصد هنا إلى تصوير المنهج النبوي التربوي العملي في سلوك المجتمع تصويراً يبرز قوة وحدة المؤاخاة في مسيرة الدعوة إلى الله دفاعاً عن الحق الإلّهي الذي كان وما يزال هو هدف الدعوة الذي لا هدف لها سواه.

وأهل السير والمغازي يطلقون على كل جيش قاده رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة، وخرج به داعياً إلى الله، مبلِّغاً رسالاته، مثبتاً قوائم التوحيد، مقوِّضاً للشرك والوثنية غزوة، سواء وقع قتال أم لم يقع، ويطلقون على ما أرسل ﷺ على قيادته بعض أصحابه بعثاً أو سرية.

وهذا اصطلاح أغلبي، لأن بعض الغزوات، وأعظمها وأهمها كبدر الكبرى، وأحد والخندق لم يخرج فيها رسول الله ﷺ إلى الكفار في بلادهم ابتداء وإنما كان الكفار هم القادمين بجيوشهم إلى بلد رسول الله ﷺ لمحاربته، ولأن بعض الغزوات كان داخلياً في المدينة وأطرافها، كغزوات

اليهود: بني قينقاع، والنضير، وقريظة.

وقد اختلف العلماء من المحدِّثين وأهل السِّير ممّن يُعْنون بهذا الشأن في عدد مغازيه ﷺ وبعوثه وسراياه اختلافاً عريض الأطراف، متباعد الملتقى، ممّا حمل بعض أهل العلم على محاولة التوفيق بين هذه الروايات المختلفة، فقارب وأبعد مع التعسف في التأويل.

عرض وتحقيق لروايات عدد الغزوات والبعوث والسرايا

والذي استفاض عند أئمة هذا الشأن من مغازيه ﷺ واجتمعت عليه كلمة أشهر من ألّف وجمع في المغازي والسِّير سبع وعشرون غزاة، كما ذكره موسى بن عُقْبة، وابن إسحق، والواقدي، وابن سعد، وغيرهم من المتقدِّمين، وخالف ابن إسحق الجماعة ـ وكان معهم ـ في أحد قوليه، فقال في رواية البكّائي: إنها كانت ستاً وعشرين، وجنح إلى هذا القول جازماً به أبو عمر بن عبد البرِّ في كلامه عن شيء من حياة رسول الله ﷺ في صدر كتابه الاستيعاب وقال: وهذا أكثر ما قيل في ذلك.

وقد حاول السهيلي في (الروض) التوفيق بين قولي ابن إسحق، قوله مع الجماعة، وقوله منفرداً عنهم، فقال: وإنما جاء الاختلاف لأن غزوة خيبر اتصلت بغزوة وادي القرى، فجعلهما ابن إسحق في قوله الذي انفرد به عن الجماعة غزوة واحدة.

وقيل: إنها خمس وعشرون غزاة، وفي قول سعيد بن المسيب الذي رواه عنه عبد الرزاق بسند صحيح أنها أربع وعشرون غزاة، وعند أبي يعلى بإسناد صحيح ـ أيضاً ـ أنها إحدى وعشرون غزاة، وهو مروي عن جابر، وروى الشيخان البخاري ومسلم، وأخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم أنها تسع عشرة غزاة، قال أبو عمر بن عبد البر، وأحمد في المسند عن وكيع عن أبيه وإسرائيل عن أبي إسحاق قال: سألت زيد بن أرقم: كم غزا رسول الله ﷺ؟ قال: تسع عشرة غزاة، وغزوت معه سبع عشرة غزوة، وسبقني بغزوتين.

وهذا كما يرى اختلاف متباعد، وقد حاول الزرقاني تبعاً للسهيلي

التوفيق بين هذه الروايات، فقال: ويمكن الجمع على نحو ما قال السهيلي، بأن من عدّها دون سبع وعشرين نظر إلى شدة قرب بعض الغزوات من غيره، فجمع بين غزوتين وعدَّهما واحدة، فضمّ للأبواء ـ وهي ودَّان ـ بواطاً لقربهما جداً، إذ الأبواء كانت في صفر، وبواطاً كانت في ربيع الأول، وضم حمراء الأسد لأحد لكونها صبيحتها، وقريظة للخندق، لكونها ناشئة عنها، وتلتها، ووادي القرى لخيبر لوقوعها في رجوعه ﷺ من خيبر، قبل دخوله المدينة، والطائف لحنين، لانصرافه منها إليها، فبهذا تصير اثنتين وعشرين.

قال الزرقاني: وإلى هذا أشار الحافظ ابن حجر، فقال بعد نقل كلام السهيلي: وقول جابر: إحدى وعشرين فلعل الستة الزائدة من هذا القبيل، وأما من قال: تسع عشرة، فلعله أسقط الأبواء وبواطاً، **وكأن ذلك خفي عليه لصغره ـ يعني الحافظ بذلك زيد بن أرقم، وحديثه في الصحيحين،** إلا يحتمل هذا التشكيك، لأنه سئل: كم غزا رسول الله ﷺ، فأجاب جازماً أنه ﷺ غزا تسع عشرة غزاة، غزوت معه سبع عشرة وسبقني بغزاتين، فلو كان زيد بن أرقم رضي الله عنه خفي عليه شيء من غزواته ﷺ لصغره لكان جوابه للسائل غير متلاق مع السؤال، ولكان الجواب السديد أن يقول: أدركت من غزواته تسع عشرة غزوة، سبقني باثنتين وشهدت معه سبع عشرة غزاة ـ ثم قال ابن حجر: ويؤيد ما قلته ما وقع عند مسلم بلفظ **«قلت: ما أول غزوة غزاها؟ قال: ذات العشير أو العشيرة». والعشير هي الثالثة.**

وليس فيما ذكر تأييد لما قاله، لأن السؤال هناك كان عن العدد، وهو هنا عن الأولية، فأجاب هنا بما علم دون أن يكون قد خفي عليه شيء، وأجاب هناك عن الأولية باعتبار الأهمية، لأن العشيرة كانت أهم ممّا سبقها من الأبواء وبواط، وهذا ما لا ينبغي الاختلاف فيه.

تحقيق القول في عدد الغزوات التي قاتل فيها ﷺ

قال القسطلاني في (المواهب) تبعاً لابن سعد في الطبقات: وقاتل ﷺ في تسع منها بنفسه ـ وهذا اللفظ: أي قوله (بنفسه) لم يذكره ابن سعد ـ وأنكر ذلك ابن تيمية، فقال لا يُعلم أنه ﷺ قاتل في غزاة إلا في أحد، ولم

يَقْتل أحداً إلا أبيّ بن خَلَف فيها، فلا يفهم من قولهم: قاتل في كذا، أنه بنفسه كما فهمه بعض الطلبة ممن لا اطلاع لهم على أحواله عليه السلام.

واعترض الزرقاني على قول القسطلاني (بنفسه) في قوله: قاتل في تسع منها بنفسه فقال: ففي قوله (بنفسه) شيء، وفي هذا الاعتراض تأييد لإنكار ابن تيمية إنه ﷺ قاتل في تسع من غزواته بنفسه، وأنه ﷺ لم يقاتل بنفسه في غير غزوة أحد التي قتل فيها أبي بن خلف، وأجاب الزرقاني عن اعتراضه فقال: وأجيب بأن المراد قتال أصحابه بحضوره، فنسب إليه لكونه سبباً في قتالهم، ولم يقع في باقي الغزوات قتال منه ولا منهم، ومعنى هذا الجواب أن غزواته ﷺ بعضها وقع فيها قتال بإذنه وأمره، فقاتل فيها أصحابه أعداءهم، وباشر ﷺ بنفسه الكريمة القتال في واحدة منها هي غزوة أحد التي قتل فيها أبيّ بن خلف، وبعضها لم يقع فيها قتال قط، لا منه ﷺ ولا من أصحابه، وليس مقصود من قال إنه قاتل أنه باشر القتال بنفسه، ويدل لهذا عبارة ابن سعد في الطبقات إذ لم يذكر فيها لفظ (بنفسه) فالاعتراض وارد على صاحب المواهب، ويدفعه جواب الزرقاني بالحمل على ما قلنا.

وقد ذكر الزرقاني اعتراضاً على كلام ابن تيمية، نسبه لصاحب النور فقال: قال في النور: قد يردّ على ابن تيمية حديث: «كنا إذا لقينا كتيبة أو جيشاً أول من يضرب النبي ﷺ» قال صاحب النور: ويمكن تأويل هذا الحديث، فيسلم كلام ابن تيمية من الاعتراض، ولعل مراده حمل الحديث على أنه ﷺ أول من يأمر ببدء القتال، لأنه القائد الأعظم، وهذا كما وقع في غزوة بدر وغيرها من أمره أصحابه ألّا يقاتلوا حتى يأذن لهم.

ثم ذكر القسطلاني تبعاً لابن سعد الغزوات التسع التي قال إن النبي ﷺ قاتل فيها بنفسه، بأسمائها التي ذكرها أهل المغازي والسِّير فقال يعددها: بدر، وأحد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف. قال ابن سعد بعد ذكرها: فهذا ما اجتمع لنا عليه، وقد وصف بدراً بأنها بدر القتال، احترازاً من بدر الأولى، وهي غزوة سَفْوان التي خرج فيها النبي ﷺ بعد العسيرة بنحو عشر ليال، يطلب كُرْزَ بن جابر

الفِهْري الذي أغار على سَرْح المدينة فاستاقه وهرب به، ولكن النبي ﷺ لم يدركه.

وحكى الزرقاني عن الحافظ في الفتح قوله: وقال ابن عقبة: قاتل في ثمان، وأهمل عدّ قريظة، لأنه ضمها للخندق، لكونها إثرها، وأفردها غيره لوقوعها مفردة بعد هزيمة الأحزاب، وهي الخندق، وكذا وقع لغيره عد الطائف وحنين واحدة، لكونها في أثرها، قال الزرقاني: هكذا في الفتح، وكأن هذا كالتبري من عهدة تحمُّل هذا التعسف في التأويل.

خطأ من أهدر بعض الغزوات بإضافتها إلى ما دونها أحداثاً وأثراً

وإهدار بعض غزواته ﷺ، ولا سيما كبرياتهن المهمّات بأحداثها وأسباب وقوعها، وما كان فيها من تشريع وأحكام في العبادات وغيرها مثل غزوة قريظة التي ضُمّت إلى الخندق، وقريظة وقع فيها من الحوادث ما لم يقع في غيرها، قال ابن القيم في (الهدى): وأما قريظة فكانت أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ، وأغلظها كفراً، ولذلك جرى عليهم ما لم يجرِ على غيرهم.

حاصرهم النبي ﷺ خمساً وعشرين ليلة، وكان لها سبب خاص لم يكن لغيرها، لأنهم خانوا الله ورسوله ونقضوا عهد صلحهم معه ﷺ إذ جاءهم اللعين حيي بن أخطب في ديارهم، فقال لسيِّدهم كعب بن أسد، وكان كعب هذا صاحب عهدهم الناطق بكلمتهم: قد جئتكم بعزِّ الدهر، جئتكم بقريش على سادتها، وغطفان على قادتها، وأنتم أهل الشوكة والسلاح، فهلّم حتى نناجز محمداً ونفرغ منه، فقال سيّد قريظة وصاحب عقدها كعب ابن أسد: لقد جئتني بذلّ الدهر، جئتني بسحاب قد أراق ماءه، فهو يرعد ويبرق، فلم يزل حيي بن أخطب يفتل له في الذروة والغارب يخادعه، ويعده ويمنيه حتى أجابه بشرط أن يدخل معه حصنه، يصيبه ما أصابهم، ففعل حيي ذلك ودخل معه في حصنه، ونقضوا عهد رسول الله ﷺ وأظهروا سبّه، فبلغ رسول الله ﷺ خبرهم فأرسل يستعلم الأمر، فوجدهم قد نقضوا العهد، فكبر ﷺ وقال: «ابشروا يا معاشر المسلمين».

فلما انصرف ﷺ إلى المدينة من الخندق: فلم يكن إلا أن وضع

سلاحه فجاءه جبريل فقال وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتها، فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر معك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل بموكبه من الملائكة ورسول الله ﷺ على أثره في موكبه من المهاجرين والأنصار، وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بأن تقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات» فحفر لهم خنادق في سوق المدينة وضرب أعناقهم، وكانوا ما بين الستمائة والسبعمائة، وقتل معهم الفاجر اللعين حيي ابن أخطب وهو نَضْري دخل معهم ليحرِّضهم على قتال رسول الله ﷺ.

فكيف تهمل هذه الغزاة في عدّ غزوات رسول الله ﷺ وتضاف إلى غيرها مما لم يجر فيه من الأحداث العظام مثل ما جرى فيها، ولو لم يكن لها إلا ما وقع من الصحابة فيها من اجتهاد في صلاة العصر لقول النبي ﷺ: «لا يصلينّ أحدكم العصر إلا في بني قريظة» فصلاها بعضهم لأول وقتها وهم في الطريق إلى بني قريظة، وتأوَّلوا كلام النبي ﷺ على طلب السرعة والإهتمام بالخروج، وأخرها بعضهم حتى وصلوا إلى بني قريظة فصلُّوها بعد عشاء الآخرة، أخذاً بظاهر الحديث، ولم يعنِّف النبي ﷺ أياً من الطائفتين - لكفاها فضلاً في إفرادها وعدِّها غزوة مستقلة.

كيف وفيها قضى رسول الله ﷺ على أخبث طوائف اليهود حقداً وحسداً وأفجرهم كفراً وبغياً، وبحسبها أن قتل فيها أبو جهلهم الموازن لأبي جهل قريش، حيي بن أخطب فرعون يهود.

فغزوة بني قريظة كانت عزاً للمسلمين ونصراً لرسول الله ﷺ ولدعوته ورسالته، ووقع فيها من عظام الأحداث ما لم يقع مثله ولا قريب منه في الخندق على جلالة قدرها وخطرها، وهي التي أضيفت لها وجعلت تابعة لها.

وغزوة الخندق كانت غزوة إعجاز، تنزّل النصر فيها من السماء بعد أن زلزل فيها المسلمون زلزالاً شديداً، وكانت قريظة غزوة كفاح وجلاد وجهاد بالحصار الشديد الذي أرغم اليهود على النزول على حكم المسلمين، وبوىء

فيها الإيمان مكاناً علياً وقضى فيها على عصبة الحقد والغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق.

ومثل ذلك يقال في كبريات الغزوات التي قيل إن بعضها ضُمّ إلى بعض كحُنين والطائف وهما من أعظم وأخطر الغزوات، ولكل غزوة منهما سبب يخالف سبب الأخرى، ووقع في كل غزوة منهما من الأحداث والوقائع الكبرى ما لم يقع في الأخرى.

فإهدار حوادث التاريخ، ولا سيما في مشرق الإسلام على عهد النبي ﷺ لا يجوز قط، ولا ينبغي لباحث أن يقصده من أجل اختصار الأحداث والوقائع.

الاختلاف في السرايا والبعوث كالاختلاف في الغزوات

وكما وقع الاختلاف المتباعد في الغزوات وعددها وتسمية ما وقع فيها القتال منها وقع هذا الاختلاف في البعوث والسرايا، فابن عبد البر يذكر في ديباجة الاستيعاب أنها خمس وثلاثون بَعْثاً وسرية، وابن إسحق يذكر من رواية البكّائي أنها كانت ثمانياً وثلاثين، وابن حجر يذكر عن ابن إسحق أنها كانت ستاً وثلاثين.

وعند الواقدي أنها كانت ثمانياً وأربعين، وذهب ابن الجوزي أنها كانت ستاً وخمسين، ورفعها المسعودي إلى ستين بعثاً وسرية، وزاد عليه محمد ابن نصر المروزي فجعلها سبعين، وبالغ الحاكم في الاكليل فرفعها إلى أكثر من مائة بعث وسرية، قال العراقي: ولم أره لغيره، ووقف مغلطاي بمجموع الغزوات والبعوث والسرايا عند المائة، فقال: إن مجموع الغزوات والسرايا مائة، وزعم ابن حجر أن هذا مراد الحاكم فيما ذهب إليه في الإكليل وذلك بضم المغازي إلى البعوث والسرايا، قال الزرقاني: وهو كما قال.

وهذا اختلاف غريب متباعد، وهو أشبه بالاختلاف في عدد الأيام التي أقامها رسول الله ﷺ بقباء مقدمه المدينة، وأشبه بالاختلاف في مدة إقامته ﷺ بمكة بعد البعثة، وأشبه بالاختلاف في قدر سني عمره المبارك، وسنه التي توفي بعد أن بلغها، إلى كثير من نحو ذلك، مما يوجب على أهل

العلم من الباحثين في مطالع التاريخ الإسلامي أن يحاولوا وضع منهج للبحث يحقق القضايا التي اختلفت فيها الروايات لتوضع كل قضية في موضعها الصحيح من مسيرة هذا التاريخ.

* * *

منهج تربية المجتمع المسلم جعل من الجهاد قوة تنشر الحق الإلّهي وتحميه وتدافع عنه

وقد استفاض متواتراً أن منهج تربية المجتمع المسلم الذي وضعه رسول الله ﷺ ـ على أساس المؤاخاة الفردية ـ أولاً ـ حين كان المجتمع المسلم قليل العدد محصور الرقعة، تلك المؤاخاة التي قامت على أساس التآخي في الله، أخوين، أخوين، في ظل ظليل من وارف الحب الإيماني، ووحدة الترافق والتواسي بين أفراد المجتمع المسلم التي صيّرها الحب في الله إيثاراً، ثم على أساس المؤاخاة الجماعية ثانياً ـ بعد أن كثر عدد المجتمع المسلم، وانحسر عنه حصار الرقعة، هذه المؤاخاة التي قامت على التكافل الاجتماعي لتكون دستوراً يضبط علاقات المجتمع المسلم الاجتماعية ويوجهه في طريق تحركاته الإيجابية لنشر الدعوة إلى الله، وإعلاء كلمته وتبليغ رسالاته ـ اتخذ من الجهاد في سبيل الله دعامة يستند عليها بناء المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الذي يمضي به في مستقبل حياته قوياً متماسكاً، وطيد الحركة ثابت القدم راسخ اليقين، لا ترعبه القوى المادية الوثنية، مهما تعاظمت وسائلها المدمِّرة، ولا تفزعه تألبات تلك القوى في عتوها وفجور كفرها وخبيث إلحادها، لأن منهج هذا المجتمع المسلم الذي وضعه له رسول الله ﷺ وربّاه عليه جعله يرى الموت استشهاداً في سبيل إقامة منائر الحق الإلّهي عن طريق السالكين في بيداء الحياة أثقل ميزاناً من الحياة على أهبة الجهاد لتحقيق أهدافه التي جعلته العناية الإلّهية أميناً عليها، يعيش لها، مؤمناً بها إيماناً فدائياً يريه موعود الله كأنه بين يديه حقيقة ماثلة، لا يحول بينه وبينها إلا أن يغمس يده في العدو حاسراً فيقتل صابراً محتسباً فإذا هي معه بين يديه، وإذا هو بين أحضانها يتقلَّب في لذائذها وأنعمها.

سمع عُمير بن الحِمام رسول الله ﷺ يقول، وقد التحم الجمعان في بدر: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً

مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» فقال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن: بخٍ بخٍ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل القوم حتى قتل.

ويسأل عوف بن الحارث رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله ممّا يضحك الرب من عبده؟ فيقول له رسول الله ﷺ: «غمسه يده في القوم حاسراً» فنزع عوف بن الحارث درعاً كانت عليه، فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

وهذا، وذاك، وغيرهما من الرجال والأحداث صورة مشرقة بنور الإيمان الذي يغمر القلوب والعقول والأرواح، ويملك الشعور والإحساس، ويجعل من صاحبه في تصرفه قوة علوية، تذيب كل أثر مادي مظلم في حياة المجتمع المسلم.

الجهاد في منهج التربية النبوية وسيلة لا غاية

فالجهاد في منهج النبي ﷺ الذي ربى عليه مجتمعه المسلم وسيلة لا غاية، وطريق إلى هدف إذا وصل إليه المجتمع المسلم وقف عنده يحميه ويذود عنه، لا يجاوزه ولا يتعدّاه، لأن الجهاد في هذا المنهج النبوي بأنواعه الحجاجية والقتالية إنما يستهدف هداية أبناء الإنسانية أينما كانوا أو كيفما كانوا، على كلمة سواء، هي كلمة التوحيد التي تجعل من المجتمع المسلم كله على اختلاف أوطانه وأجناسه وألوانه ولغاته، ومؤثراته، وتأثراته البيئيّة وحدة إيمانية متساوية الحقوق والواجبات.

ومن هنا كان على هذا المجتمع المسلم ألّا ينفر إلى جهاد القتال إلا بعد أن يستنفد كل ما يملك من طاقات في قوة البيان والحجاج العقلي، والرغائب الوجدانية والدوافع العاطفية التي تجتذب النفوس إلى الانضواء تحت لواء المؤاخاة التكافلية، وهي أساس بناء المجتمع المسلم، وهي الوسيلة العظمى في المنهج النبوي لتجميع الإنسانية في وحدة إيمانية متحررة من العبودية المادية المفرقة لوحدة الإنسانية في نشأتها.

وإلّا بعد أن يستنفد أعظم ما يملك من طاقات روحية يصب في قالبها

منهج دعوته وهدايته، لتكون صورة لنقاء فطرته وصفاء مقاصده، وإخلاص مؤاخاته، ليستطيع أن ينهض بعبء القيادة الإنسانية إلى آفاق متجددة من صور الحضارة الفكرية والاجتماعية، ليقاوم عرامة الإلحاد المادي الذي جعل من الإنسانية أشلاء من الأشباح الجامدة، وأشتاتاً متنافرة الوسائل والأهداف والمقاصد في الحياة، لا تعيش إلا لشهواتها الدنيا.

والمجتمع المسلم نشأ مجتمعاً متكافلاً في ظل وحدة المؤاخاة الفردية والجماعية، وهو بمقتضى هذه الوحدة، وبما آتاه الله في منهجه التربوي السلوكي من خصائص القيادة الإنسانية يجعله خير أمة أخرجت للناس، وكُلِّف أن ينهض بالدعوة إلى نشر الحقِّ الإلّهي إيجاباً وسلباً، إيجاباً بإقامة معالم التوحيد، وإخلاص العبودية لله وحده، والتحرر المطلق من عبودية المخلوقين في شتى صورها واختلاف أشكالها ومصادرها ومواردها الوثنية الملحدة، وسلباً بالنهوض المشمِّر عن قوة الإيمان إلى تقويض دعائم الشرك العتيّ والوثنية البليدة المتحجرة اللذين استعبد بهما الطغاة الناس من أجل لقمة العيش، وهي في منهج المجتمع المسلم حق كريم لكل حي على ظهر هذه الأرض، لكن الإلحاد المادي والوثنية الفكرية الحديثة لا تعطي هذا الحق الكريم لأحد من المستضعفين في الحياة إلّا في أطباق سوداء من الذلّة والمهانة وتمريغ الإنسانية في حمأة الوحل المذل، ونزيز الهوان.

تحرير الإنسانية من عبودية الوثنية المادية هو الطريق لإعلاء كلمة الله

فتحرير الإنسانية من ربقة هذه العبودية المادية العاتية، وهي أحط صور الوثنية الحديثة هو الطريق الموصل إلى إعلاء كلمة الحق الإلّهي الذي من أجله شرع منهج المجتمع المسلم الجهاد، ليصدّ المعوِّقين لمسيرة الدعوة وتبليغ الرسالة، فلا بد إذاً من تعبيد هذا الطريق وتطهيره من أوضار الوثنية المادية الجديدة الملحدة، ليصل المجتمع المسلم إلى هدفه في إقامة معالم الحق الإلّهي، تحريراً للعقول من الاستعباد الفكري الذي خدع المجتمع المسلم ولا يزال يخدعه حتى أخرجه عن حصائن منهجه، وإقراراً للعدل في حياة الناس، ليشعروا أنهم جميعاً عباد الله الذي خلقهم وهو الذي يرزقهم وليسوا عبيداً لسدنة الوثنية الطاغية المادية.

صورة الجهاد لإعلاء كلمة الله كما رسمها المنهج النبوي

وقد رسم المنهج النبوي في إطار الدعوة إلى الله ونشر الحق الإلٓهي الخطوط العريضة التي تتألف منها صورة الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الحق التي تنبع منها روافد الفضائل الإنسانية، لتسقي بنميرها أراضي القلوب المؤمنة، وتجذب إلى منازلها الأفئدة المستعدة بفطرتها لتقبل الهداية، وهي تنهمر كالغيث المتنزِّل من سماء الإيمان بالله إلهاً واحداً، موصوفاً بكل كمال يليق بجلال ألوهيته.

وهذا المنهج قد جعل من الجهاد وسيلة لبيان الحق الإلهي بياناً لا يدع شبهة في نفس من يريد الإيمان، وبيان أن إرساء قواعد الحق الإلٓهي مصدر كل خير في هذه الحياة، وبيان أن الشرك بالله والوثنيات قديمها وحديثها مصدر كل شر وفساد في الأرض، وأن الدعوة إلى الحق الإلٓهي واجبة على كل فرد أو جماعة في المجتمع المسلم أينما كانت أممه وشعوبه في أوطانها من أرض الله.

وإنما جعل منهج المجتمع المسلم الجهاد وسيلة إلى بيان الحق الإلٓهي وإقراره في القلوب والعقول، لأن الوثنيين الماديِّين أعداء كل خير وهدى، لا يتركون الحق الإلٓهي الذي هو هدف منهج المجتمع المسلم يمشي على أرض مطمئناً يعرض نفسه على الناس وهم آمنون مطمئنون، لأن هؤلاء الوثنيين الماديِّين يعلمون أن هذا الحق الإلٓهي هو فطرة الله التي فطر عباده عليها، ولكن صدأ الجهالة وفجور الوثنية غطّى على أبصارهم وبصائرهم فضلُّوا طريقه، فإذا ذُكّروا به ورأوه في حقيقته الوضيئة المشرقة لم يملكوا أنفسهم أن ينشعبوا إلى اعتناقه، وفي ذلك طامّة الطامّات وداهية الدواهي على حياة الوثنيين الماديين، لأن ذلك يزلزل سلطان وثنيتهم وتحكمهم في مصاير المستضعفين في الأرض، ويقوِّض بنيان سيطرتهم على العقول المخدوعة والقلوب الفارغة بما في أيديهم من سراب مضلِّل، ولن يستسلموا أو يسلموا بمجرد عرض الحق الإلٓهي في صورته المشرقة، ولن تقنعهم بيِّناته وحججه وبراهينه، لأنهم معاندون مكابرون، ولكنهم يسهبون بكل ما لديهم من قوة ماديّة مدمّرة مدافعين عن حياتهم الوثنية الفاجرة، لا يبالون أن يسفكوا في

سبيلها الدماء، ويخرِّبوا الديار، ويدمِّروا الحياة.

وجوب إعداد القوة المرهبة لأعداء الله وأعداء المجتمع المسلم

فكان لابد للمجتمع المسلم وهو حامل راية الدعوة إلى الحق الإلٓهي وتبليغ رسالته من إعداد نفسه بالقوة الزاجرة المرهبة لعدو الله وعدوهم، ليصدّ بها قوى الشرك والوثنية والطغيان والظلم، ليفتح الطريق أمام دعوته إلى الله تعالى لإعلاء كلمته في الآفاق، وفي ذلك يقول دستور المجتمع المسلم القرآن الكريم: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[1].

ومن ثَمّ يتبين أن الجهاد في منهج المجتمع المسلم وسيلة لدفع ما يعترض طريق الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته ونشر العدل، ومقاومة الظلم والفساد في الأرض، ولم يكن قط هجوماً لإكراه الناس على اعتناق الحق الإلٓهي، وقبول دعوته.

وللمجتمع المسلم تاريخ مع الجهاد في سبيل الدعوة إلى الله، هذه الدعوة التي جمعت أشتاتاً من الأمم والشعوب كانت متخالفة لا تجمعها عقيدة، فوحّدت بينها بعقيدة التوحيد والإيمان، وربطتها بوشائج المؤاخاة، فكانوا جميعاً وحدة لها مقوماتها الذاتية، وخصائصها الفكرية، وفضائلها الروحية، ونظمها الاجتماعية، وأوضاعها السياسية وخططها الاقتصادية، وقيمها الأخلاقية، وعواملها التقدّمية، واتجاهاتها العقلية، ونماذجها الحضارية، ووسائلها الخاصة لتحقيق أهدافها ومقاصدها في الحياة، وبهذه الوحدة الشاملة كانت هذه الأمم والشعوب هي المجتمع المسلم في صورته الشاملة الغامرة، ولكنها أصبحت اليوم وحدة جغرافية لا تحمل من خصائص وحدة المؤاخاة التكافلية إلا لوناً باهتاً لا يصف إلّا انتماءها لشيء قد كان.

فإذا استطاعت هذه الأمم والشعوب المسلمة المتناثرة في أوطان الإسلام أن تستعيد بالمؤاخاة وإعداد القوة المرهبة تركيب مجتمعها المسلم على أسس المؤاخاة التكافلية، وأن تستعيد لهذا المجتمع خصائصه التي كانت له في ماضيه

(١) سورة الأنفال آية (٦٠).

القوي الموحد في ظل العقيدة التوحيدية ـ كانت جديرة أن تستعيد زمام القيادة الإنسانية لتمضي بها في الحياة الحرة الكريمة.

المجتمع النبوي جعل من الجهاد قوة دفاعية لحماية الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة

وقد كانت الدعوة إلى الله تعالى لتكون كلمته هي العليا دستور هذا المجتمع المسلم الذي يفيء إلى ظله كل من يحيا في دائرة وجود هذا المجتمع، ذلك الوجود الذي يفرض سلطانه على الحياة بروح العدل والإخاء.

وكان هذا المجتمع المسلم هو الناطق بكلمة الله، المهيمن على قيم الحياة، المقيم لموازين العدل والمساواة بين كافة البشر.

ولم يُعَرف في تاريخ منهج الدعوة إلى الله على يد المجتمع المسلم ـ يوم أن كان هذا المنهج هو النبراس الذي يضيء للمجتمع المسلم طريقه في تبليغ رسالته ونشر هدايته ـ أن هذا المجتمع اتخذ من الجهاد في سبيل الله وسيلة قهر جبروتية تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بدعوته، مصدِّقين لرسالته، ولكن هذا المنهج كان يتخذ من الجهاد قوة دفاعية متحركة تهدي إلى الحق والخير، والبر والمحبة، في ظل العقيدة التوحيدية التي هي أساس الدعوة إلى الله، وتدفع بقوتها الروحية والماديّة في صدر كل من يقف في طريقها ظالماً معوّقاً سيرها، وهي ماضية في هدايتها.

وغزوات النبي ﷺ وبعوثه وسراياه، وجهاد خلفائه الراشدين، وأئمة الهدى من بعده تحمل بين طياتها الدليل القاطع على ذلك.

المنهج النبوي

للجهاد في الإسلام

الوصية النبوية العظمى ترسم لقادة الجهاد منهج الدعوة إلى الله

روى الأئمة: أحمد بن حنبل، ومسلم بن الحجاج القشيري، والترمذي، وابن ماجه أن رسول الله ﷺ كان إذا أمرّ أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال لهم: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدَّوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم الذي يجري على المسلمين ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسَلْهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، وإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم».

وهذه الوصية النبوية الثابتة عن رسول الله ﷺ بأصحِّ الأسانيد تدل بأسلوب ديباجتها على أنها كانت هي منهج الدعوة إلى الله التي التزمها قادة الجهاد في المجتمع المسلم، لأنها رسمت الإطار الذي تتجمع فيه صور الجهاد في سبيل الله، فكانت بذلك بياناً لمنهج الدعوة في نظامها الذي يحقق المقصود من شرعية الجهاد.

الذي جعلته هذه الوصية النبوية مراتب، لا يجوز لقادة الجهاد أن

يتجاوزوا مرتبة منها في وضعها من الوصية النبوية إلى غيرها من المراتب إلا إذا لم تقبل المرتبة التي قبلها، وعجز الإقناع أمام العناد المستكبر عن الوقوف عندها.

تحليل للوصية النبوية يكشف عن درجات الجهاد

وأول تلك المراتب (الدعوة إلى الإسلام) وهي دعوة إلى الحق والهدى، وإلى المؤاخاة المتكافلة التي جعلها منهج المجتمع المسلم أساساً للجهاد في سبيل الله، والإسلام إيمان وأمان، وعدل ورحمة، وإخاء ومحبة، فمن قبله ودان به فهو أخ لكل مسلم، له من الحقوق ما لكل مسلم، وعليه من الواجبات ما على كل مسلم في دائرة طاقته واستعداده الروحي والمادي، ولا تكلّف نفس إلا وسعها.

الجزية على ضآلتها فرصة اجتماعية للموادعة والتأمل

فإن لم يقبل المدعو إلى الإسلام الإسلام ديناً يؤمن به ويصدِّق برسالته جاءت المرتبة الثانية بعد البيان الواضح والحجة النيِّرة، وهي الإلزام بخرجٍ من المال لا يؤود من يلزم به من القادرين عليه، وهو لا يُضرب إلا على القادر عليه، وهذا الخرج سمّاه منهج الدعوة (جزية) ولفظها يحمل ما في طياتها أنها جزاء في مقابل الدفاع عن دافعيها وحمايتهم ممن يدهمهم بالاعتداء عليهم، وهي في التقدير الاجتماعي فرصة موادعة للنظر في حقيقة ما عرض على المدعوين وطولبوا بالاستجابة له من أصول الإسلام وشرائعه وآدابه، وهم على أكمل درجات الحرية الفكرية والاجتماعية.

وتاريخ الدعوة إلى الله حافل بالذين نظروا فوفِّقوا واهتدوا، وسارعوا مستجيبين لدعوة الحق، ودخلوا في ساحة المؤاخاة التكافلية وفي قلوبهم إيمانهم ليكونوا مع سائر المسلمين أخوّة متكافلين، فكانوا من أقوى المؤمنين إيماناً وأزكاهم جهاداً في سبيل الله، وذابت الجزية في موجبات التكافل الأخوي، وكثر الداخلون إلى ساحة الإسلام حتى تخوّف بعض الولاة في خلافة عمر بن عبد العزيز على بيت المال أن تصفِّر أركانه وتخوى جوانبه من المال، فشكوا إلى الخليفة كثرة الداخلين في الإسلام وخواء بيت المال، فقال لهم رضي الله عنه كلمته المعبِّرة عن هدف الإسلام في شرعية الجهاد: **إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً**.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو أول الراشدين يتأسى في وصيته قادة جيوشه بالوصية النبوية

وهذه الوصية النبوية التي تصوِّر منهج المجتمع المسلم في الجهاد هي عينها التي أوصى بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه قواده: يزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة حين بعث الجنود نحو الشام، مع زيادات قليلة استدعاها تركيب المجتمع في خلافته رضي الله عنه، ومواطن الجهاد وبيئاته.

روى ابن عساكر والبيهقي عن سعيد بن المسيب، ورواها عنه مالك في الموطأ مختصراً أن أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه لما بعث الجنود نحو الشام أمر يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، فقال لهم: أوصيكم بتقوى الله، اغزوا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، فإن الله ناصر دينه، ولا تغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تجبنوا، ولا تعتدوا في الأرض، ولا تعصوا ما تؤمرون.

ثم ذكر مراتب الجهاد كما ذكرتها الوصية النبوية، ثم قال أبو بكر لأمراء جيوشه: ولا تحرقُنَّ نخلاً، ولا تعقروا بهيمة ولا شجرة ثمر، ولا تهدموا بَيْعة، ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ، ولا النساء، وستجدون قوماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له.

وفي هذه الوصية الصدِّيقية المتطابقة مع الوصية النبوية دليل على أن الراشدين اتخذوا من منهج النبي ﷺ في الجهاد منهجاً لهم، وأنهم لم يحيدوا عنه، وما وقع في الوصية الصدِّيقية من بعض زيادات فإنما اقتضاها الموقف وعظم حجم المجتمع المسلم، واختلاف موطن الجهاد باختلاف البيئة، فالنص فيها على قوم حبسوا أنفسهم في الصوامع، ولم يشاركوا في القتال لا بالقول ولا بالفعل، والأمر بتركهم وما حبسوا أنفسهم له إنما أوجبه ما كان في الشام من أوضاع النصرانية وقسِّيسيها ورهبانها، وفيه دليل على أن كل من لم يقاتل، ولم يكن أهلاً للقتال لا يُقاتل ولا يعرض له، فمن كفَّ يده عن القتال وجب على المجتمع المسلم أن يكفَّ يده عن قتاله.

وفي هذه الوصية نهي عن الفساد في الأرض، ونهي عن الجبن، ونهي عن الاعتداء في الأرض إلى جانب ما جاء في الوصية النبوية من النهي عن

الغلول والغدر لأنها من دنايا الأخلاق، وبالجملة فهي صورة لمنهج رسول الله ﷺ في الجهاد، هذا المنهج الذي لم يستهدف من الجهاد في سبيل الله إلا الدعوة إلى الله وهداية الناس.

والوصيتان متفقتان على وضع مراتب الجهاد في مراتبها المفروضة على المجاهدين وأولها الدعوة إلى الإسلام. بالبيان والحجة، فإن لم تفد الحجة البيّنة في قبول الدعوة إلى الله، وغلب على المدعوين من المشركين العناد المستكبر كانت المرتبة الثانية، وهي الجزية في فرصتها الاجتماعية للنظر المتأمل في حقيقة الإسلام وفضائله، وقبح الشرك ورذائله، فإن لم تُغْنِ الجزية بفرصتها، وأبى أعداء الإسلام إلا العتو والفجور كانت التي لا شَوى لها وهي المرتبة الثالثة، هي الحرب المدمرة، والقتال الذي يكشف عن سوأة الشرك والوثنية المادّية الملحدة، القتال الذي يبين أن المدّعين بأقنعة الشرك والوثنية لا يريدون السلام في ظل الهداية الإلهّية، ولا يريدون لأنفسهم التطهّر من رجس فجور الكفر، بل لا يريدون السلام وهم على كفرهم في ظل موادعة الجزية وفرصتها الاجتماعية.

الوصيتان النبوية والصديقية تتفقان على أن الجهاد القتالي ضرورة لحماية الدعوة إلى توحيد الله

فلم يبق أمام المجتمع المسلم وقادة جهاده إلا أن يقاتلوا مستعينين بالله على أعدائهم الذين كانوا دائماً يفوقونهم عدداً وعدّة، حتى يحكم الله بينهم وبين هؤلاء الأعداء، وشعار المجتمع المسلم يومئذ قول الله تعالى: ﴿قل هل تربّصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون﴾[1].

والناظر بعين التأمل في هذه المراتب التي وضعها المنهج النبوي للجهاد ومراتبه يرى الحكمة السياسية ماثلة في هذا المنهج المحكم، ويرى معها أن المجتمع المسلم بمقتضى منهجه النبوي في الجهاد لا يقصد من الجهاد القتالي، وهو آخر مرتبة من مراتب الجهاد العام إلا الدفاع عن مسيرة الدعوة إلى الله وتبليغ رسالة الحق الإلّهي، ولم يكن من مقاصد الجهاد القتال حباً في القتال وسفك الدماء وإكراه الناس على الإيمان.

---

(١) سورة التوبة آية (٥٢).

ولهذا جاء الترتيب في درجات الجهاد في الوصية النبوية التي طبَّقها الصدِّيق رضي الله عنه على أمرائه معطياً لكل مرتبة حقَّها من النظر في حالتي القبول والرفض، فكان النص «فإذا لقيت عدوَّك فادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، وإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم» فالجهاد القتالي آخر مراتب الجهاد، لأن منهج المجتمع المسلم لا يقصد إلى القتال حُبّاً في القتال، ولا يستهدف القتال في دعوته رغبة في القتال، ولا يثيره ما كان له عنه مندوحة، وقد فتح أبواب المنادح أمام المدعوين إلى الله حتى لا تكون لهم حجة على المجتمع المسلم في جهاده لنشر دعوته وتبليغ رسالته.

المنهج النبوي يقرر أن هداية إنسان واحد خير من أعز معازّ الدنيا

ويؤكد ذلك ما رواه البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر وهو محاصرها: «لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله، فبات الناس يدوكون ـ أي يتساءلون أيهم يُعْطاها ـ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها ـ حتى قـال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما تمنّيت الإمارة إلا يومئذ ـ فقال النبي ﷺ: «أين علي بن أبي طالب»؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ مكانه، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي لرسول الله ﷺ أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «انفذ على رِسْلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله فيه، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم».

وهذا الحديث الثابت الصحيح ظاهر الدلالة في تصوير منهج النبي ﷺ لشرعية الجهاد في الدعوة إلى الله وما ينبغي أن تستهدفه هذه الدعوة، فعلي رضي الله عنه يسأل النبي ﷺ عن قتال هؤلاء الأعداء الخونة الغدرة، ليبين للناس ما نُزِّل إليهم من شرعية الجهاد لحماية الدعوة إلى الله والدفاع عنها في مسيرتها حتى يعلموا أن الجهاد في هذا المنهج إنما هو وسيلة للهداية، وهي أعز ما يكسبه المجاهدون في جهادهم، وأنها خير ما يؤتاه مدعـو إليها

فيستجيب لها، وأن تألف القلوب وجذبها إلى ساحتها هو ما يجب على المجاهدين أن يجعلوه نصب أعينهم ومقصدهم من جهادهم، يقول الحافظ ابن حجر في الفتح: ويؤخذ من هذا الحديث أن تألّف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله.

تطبيق المنهج النبوي يطلق الأسارى المأخوذين قبل أن يُدْعَوا إلى الإسلام

ومن هنا يفهم معنى ما أخرجه البيهقي عن أبيّ بن كعب قال: أُتي النبي ﷺ بأسارى فقال رسول الله ﷺ: «هل دعوتموهم إلى الإسلام» فقالوا: لا، فقال لهم: «هل دعوكم إلى الإسلام» فقالوا: لا، فقال ﷺ: «خَلُّوا سبيلهم حتى يبلُغوا مأمنهم» ثم قرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بَلَغَ أئنكم لتشهدون أنَّ مع الله آلهة أخرى، قُلْ لا أشهد، قُلْ إنما هو إلـه واحد وإنني بريء مما تشركون﴾[2].

هذا التصرف العملي التطبيقي الحكيم من النبي ﷺ فيه توطيد لدعائم منهجه في الجهاد، وهو ﷺ في سبيل تربية مجتمعه المسلم على الإحاطة بجوانب منهجه والتمسك به يرد عمل بعض أصحابه لابتنائه على خطأ في فهم منهجه التربوي الذي اتخذه أساساً لبناء تركيب مجتمعه المسلم.

ومنهج تربيته ﷺ يقتضي وجوب دعوة الناس ـ أولاً ـ إلى الإسلام، فإذا اقتحم أحد هذا المنهج، وجاء بنصر حربي ظفر فيه بأسارى أسروا قبل أن يدعوا إلى الإسلام فعمله باطل، لا يقره منهج الإسلام ولا يرضى به رسول الله ﷺ الذي رسم لمجتمعه طريق تنفيذ منهجه في الجهاد.

فهؤلاء الأسارى الذين جاء بهم بعض البعوث والسرايا لم يُدْعَوا إلى الإسلام قبل أسرهم، فكان أسرهم باطلاً، لا يتفق مع وضع مراتب الجهاد، فَلْيُردُّوا أحراراً حتى يبلغوا مأمنهم، تحقيقاً لعدالة منهج المجتمع المسلم في تربيته.

---

(١) سورة الأحزاب آيتا (٤٥، ٤٦).

(٢) سورة الأنعام آية (١٩).

عمر بن الخطاب يوصي قادة جيوشه بتطبيق منهج الوصيتين النبوية والصديقية

وكما صنع أبو بكر الصديق رضي الله عنه في اعتصامه بوصية رسول الله ﷺ لأمراء جيوشه، صنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان يوصي أمراء جيوشه بوصية رسول الله ﷺ، فقد روى الطبري في تاريخه عن سليمان ابن بريدة أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان أمرّ عليهم رجلاً من أهل العلم والفقه، فاجتمع إليه جيش، فبعث عليهم سلامة بن قيس الأشجعي رضي الله عنه، فقال لـه: سِرْ على بركة الله، قاتل في سبيل الله من كفر بالله، فإذا لقيتم عدوّكم من المشركين، فادعوهم إلى ثلاث خصال: ادعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة، وليس لهم في فيء المسلمين نصيب، وإن اختاروا أن يكونوا معكم فلهم مثل الذي لكم، وعليهم مثل الذي عليكم، فإن أبوا فادعوهم إلى الخراج (أي الجزية)، فإن أقرّوا بالخراج فقاتلوا عدوّهم من ورائهم وفرّغوهم لخراجهم، ولا تكلّفوهم فوق طاقتهم، فإن أبوا ـ أي الإقرار بالجزية ـ فقاتلوهم فإن الله ناصركم عليهم، وإن قاتلوكم فلا تغلّوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً.

وهنا نقف قليلاً لنتأمل قول عمر رضي الله عنه: (فإن أقرّوا بالخراج فقاتلوا عدوهم من ورائهم) فإنه بيان لحكمة فرض الجزية على من أبى الإسلام بعد دعوته إليه.

ويوضح عمر رضي الله عنه في كتابه إلى قائده سعد بن أبي وقاص زمن تكرار الدعوة إلى الإسلام لتكون فرصة النظر والموادعة وافية بموضوعها، فيقول له ـ كما رواه أبو عبيد القاسم بن سلّام عن يزيد ابن حبيب ـ: إني قد كنت كتبتُ إليك أن تدعو الناس إلى الإسلام ثلاثة أيام، فمن استجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما للمسلمين وله سهم في الإسلام.

منهج الوصية النبوية كان قاعدة الجهاد عند قادته تأسياً بالنبي ﷺ

وتحديد زمن الدعوة إلى الإسلام بثلاثة أيام لتكون الفرصة وافية بالنظر منهجُ النبي ﷺ، أخذه عنه أصحابه من قادة جيوش الإسلام، فقد أخرج الترمذي أن جيشاً من جيوش المسلمين كان أميرهم سلمان الفارسي

حاصروا قصراً من قصور فارس، فقال المسلمون لقائدهم: يا أبا عبدالله، ألا ننهد إليهم؟ قال سلمان، دعوني أدعهم كما سمعت رسول الله ﷺ يدعوهم فأتاهم سلمان، فقال لهم: إنما أنا رجل منكم فارسي، ترون العرب يطيعونني، فإن أسلمتم فلكم مثل الذي لنا وعليكم مثل الذي علينا، وإن أبيتم إلا دينكم تركناكم وأعطونا الجزية وأنتم صاغرون، وإن أبيتم نابذناكم على سواء، قالوا: ما نحن بالذي نؤمن وما نحن بالذي نعطي الجزية ولكنّا مقاتلوكم، فقال المسلمون لقائدهم: يا أبا عبد الله ألا ننهد إليهم؟ قال: لا، فدعاهم ثلاثة أيام إلى مثل هذا، ثم قال لأصحابه: انهدوا إليهم فنهدنا ففتحنا ذلك القصر.

وأخرج عبد الرزاق عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «لا تقاتل قوماً حتى تدعوهم» وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما قاتل النبي ﷺ قوماً حتى دعاهم

من فرائد المنهج النبوي وغرره في الجهاد

ومن غرر هذا المنهج وفوائده القاطعة بأن هدف المجتمع المسلم الذي ربّاه النبي ﷺ على منهجه إنما هو هداية الخلق إلى توحيد الله، وإلى إقامة العدل وإشاعة الرحمة والمودة بين الناس ما رواه ابن مندة عن عبد الرحمن ابن عائذ قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث بعثاً قال لهم: «تألّفوا الناس، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم - أي إلى الإسلام - فما على الأرض من أهل بيت مَدَرٍ ولا وبر إلا تأتوني بهم مسلمين أحبّ إليّ من أن تأتوني بنسائهم وأولادهم وتقتلوا رجالهم» وروى الطبراني عن مسور بن مخرمة قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: «إن الله بعثني رحمة للناس كافة، فأدّوا عني، ولا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريّون على عيسى عليه السلام».

كان هذا المنهج النبوي في الدعوة إلى الله بالجهاد المعتمد على المؤاخاة في الله، والمؤاخاة التكافلية بين أفراد وجماعات المجتمع المسلم هو منهج الراشدين الذي ورثوه عن النبي ﷺ، قولاً، وعملاً، في غزواته وبعوثه وسراياه، أخذه الراشدون فطبّقوه، وجعلوه وصيتهم إلى قوّاد جهادهم في جميع فتوحاتهم المباركة ووقائعهم المظفرة: دعوة إلى الله وتوحيده، ودعوة إلى

دينه الحق وشرائعه، ونهوض بتبليغ رسالته، وموادعة زمنية كافية للنظر المتأمل، تكرر فيها الدعوة إلى الله وبيِّناتها، ثلاثة أيام، لا يهاج فيها أحد من المدعوِّين، ولا يمس لهم فيها شيء من مال أو غيره، ولا يمنعون من حرية الحركة في القيام بمصالحهم وأمور حياتهم.

فإن لم يستجب المدعوون لهذه الدعوة الكريمة، ولم تهْدِ فرصة النظر المتأمل قلوبهم إلى قبول الحق والهدى وخلع ربقة الوثنية من أعناقهم، فدعوة إلى الجزية والموادعة التي لا تقيد بزمن ما دام الوفاء بالعهد قائماً.

الجزية فرصة موادعة للتأمل وعروة في عهد بالحماية

وهذه الجزية مشروطة بتعهد من قبل قادة الجهاد أن يلتزموا بحماية أهل عهدهم الذين يؤدون الجزية ما دام أولئك القادة قادرين على هذه الحماية، فإن عجزوا عنها وجب عليهم أن يعلنوا ذلك لأهل عهدهم، وأن يردّوا عليهم ما أخذوه منهم من الجزية.

وقد جاء هذا صريحاً في عهد صلح أبي عبيدة بن الجراح القائد العام في فتوح الشام بعد خالد بن الوليد رضي الله عنه، فقد روى الإمام أبو يوسف في كتاب «الخراج» قال: إنما كان الصلح جرى بين المسلمين وأهل الذمة في أداء الجزية، وفتحت المدن على أن لا تهدم بيعهم ولا كنائسهم، داخل المدينة ولا خارجها، وعلى أن يحقِنوا لهم دماءهم وعلى أن يقاتلوا من ناوأهم من عدوِّهم، ويذبُّوا عنهم.

ثم قال أبو يوسف: فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن سيرهم فيهم صاروا أشدَّ على عدوِّ المسلمين وعوناً للمسلمين على أعدائهم، فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالاً من قبلهم يتجسسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم، وما يريدون أن يصنعوا، فأتى أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جموعاً لم يُرَ مثلها، فأتى رؤساء أهل كل مدينة إلى الأمير الذي خلّفه أبو عبيدة عليهم فأخبروه بذلك، فكتب والي كل مدينة ممّن خلّفه أبو عبيدة إلى أبي عبيدة يخبره بذلك، وتتابعت الأخبار على أبي عبيدة، فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين، فكتب أبو عبيدة إلى كل والٍ ممّن خلّفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن

يردُّوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج، وكتب لهم أن يقولوا لهم: إنا رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جُمع لنا من الجموع، وإنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم.

وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يخبره بذلك، فكتب إليه عمر يقرّه على صنيعه مع المصالحين، ويقول له في كتابه: وامنعِ المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم، وأكل أموالهم إلا بحقِّها، ووَفِّ لهم بشرطهم الذي شرط لهم في جميع ما أعطيتهم.

وفي كتاب خالد بن الوليد رضي الله عنه في مصالحته لأهل الحيرة الذي بعث به إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه يخبره فيه بما تمّ بينه وبينهم يقول: إني نظرت في عدَّتهم فوجدتهم سبعة آلاف رجل، ثم ميّزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل، فأخرجتهم من العدّة، وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والانجيل أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم، ولا يدلُّوهم على عورات المسلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه الذي أخذ أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق أو ذمة، فإن خالفوا فلا ذمّة لهم ولا أمان، وإن هم حفظوا ذلك ورعوه، وأدَّوه إلى المسلمين، فلهم ما للمعاهد، وعلينا المنع لهم، فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم، لهم بذلك عهد الله الذي أخذ أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق، وعليهم مثل ذلك.

وجعلتُ لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله.

هذه هي قصة الجزية في الفتوحات الإسلامية، والإسلام في أوج عظمته وعنفوان اندفاعه في الدعوة إلى الله، وهذه موادعتها وفرصتها للنظر المتأمل، وهذه صور ونماذج من معاملة المسلمين وقادتهم لمن عوهدوا منهم عليها.

فأين الإكراه والقهر في نظام الجزية؟

فأين السيف؟ وأين القهر؟ وأين الإكراه على الدخول في الإسلام؟ لا شيء من ذلك قد كان قط، ولكن الذي كان إنما هو دعوة إلى الحق وصفاء التوحيد وإخلاص العبودية لله تعالى في ظل من الحرية الطليقة من كل قيد، وفي ظل من حفاوة العدل والرحمة وتحمُّل أعباء الحماية والدفاع عن المعاهدين المصالحين ممن يناوئهم ويُعتدى عليهم.

فإن ركب المدعوون إلى الحق والهدى متن الشيطان بعد هذه الحفاوة الرحيمة، ولجُّوا في العناد والاستكبار وفجور الكفر والإلحاد لم يبق أمام المجاهدين في سبيل تبليغ رسالات الله ونشر النور والخير إلا القتال الذي يفلُّ شوكة العتو العنيد، ويطهِّر الحياة من أوضار الشرك والوثنية الملحدة، وهما مصدر كل شر، ومنبع كل فساد في الأرض، حتى يحكم الله بين كتائب المجاهدين وبين أعدائهم بإعلاء كلمة الحق ونشر العدل، وإنقاذ المستضعفين في الأرض من ظلم الطغاة المتجبِّرين، والموت في سبيل إحقاق الحق، وإقامة منائر التوحيد، وهدم الوثنيات المادية الجارمة أحب إلى كتائب المجاهدين من حبِّ أعدائهم أحلاس الشرك للحياة.

روى الطبري أن خالد بن الوليد رضي الله عنه لما نزل الحيرة خرج إليه أشرافها مع أميرهم قبيصة بن إياس الطائي فقال لهم خالد: أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم فأنتم من المسلمين لكم مالهم، وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة، وجاهدناكم حتى يحكم الله بينا وبينكم.

صور ناطقة من تطبيق قادة الجهاد منهج الدعوة إلى الله

وروى الطبري أيضاً: أن جيش المسلمين لما واجه جيش الفرس بعث رستم إلى سعد بن أبي وقّاص أن ابعث إليّ برجل عاقل، عالم بما أسأله عنه، فبعث إليه المغيرة بن شعبة، فلما قدم المغيرة إلى رستم جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا، وكنا نحسن إليكم، ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا. فقال له المغيرة: إنا لسنا طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً، قال له: إني سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني، فأنا منتقم منهم بهم، واجعل

الغلبة لهم ما داموا مقرِّين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلاّ ذلّ، ولا يعتصم به أحد إلاّ عزّ.

المغيرة بن شعبة ورستم الفارسي في محاورة لعرض مبادىء الإسلام

فقال رستم: ما هذا الدين؟ قال المغيرة: أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله. فقال رستم: ما أحسن هذا؟ وأي شيء أيضاً؟ فقال المغيرة: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، فقال رستم: وحسن هذا أيضاً، وأي شيء أيضاً؟ فقال المغيرة: والناس بنو آدم، فهم أخوة لأب وأم. قال رستم: وحسن هذا أيضاً، أرأيتم إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا؟ قال المغيرة: إي والله، لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة.

ربعي بن عامر يعرض على رستم قائد قواد الفرس أصول الإسلام وشرائعه

ثم ذاكر رستم قومه في الإسلام، فأخذتهم الأنفة والعنجهية فأبوا أن يستجيبوا له، فأرسل رستم إلى سعد يطلب رسولاً آخر، فأرسل إليه سعد رِبْعي بن عامر، فذهب ربعي إلى رستم في بزة عربية وهيئة بدوية متقشفة، لا تقيم لزينة الدنيا ومظاهرها وزناً حتى وطىء بساط رستم بفرسه، ودخل عليه بسلاحه، بينما رستم قد اتخذ مجلساً ملوكياً مترفاً مزخرفاً مزركشاً، أكثر فيه من مظاهر الزينة، وتحلّى بالجواهر واللآلىء، فلما بلغ إليه ربعي قال له رستم: ما جاء بكم؟ قال ربعي: الله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله، فقال رستم: وما موعود الله؟ قال رِبْعي: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

قال رستم: قد سمعتُ مقالتكم، فهل لكم أن تؤخِّروا الأمر حتى ننظر وتنظروا؟ قال رِبْعي: كم أحب إليكم، يوماً أو يومين؟ قال رستم: لا، حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، قال ربعي: ماسنّ رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.

فقال رستم: أسيّدهم أنت؟ قال رِبْعي: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم.

ثم اجتمع رستم برؤساء قومه، فقال لهم: هل رأيتم قطّ أعزّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟ قالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك؟ ألم تر إلى ثيابه؟، فقال لهم رستم: ويلكم؟ لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة.

وذكر ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) أن سعد بن أبي وقاص ـ وكان جيشه لا يزيد على سبعة آلاف والمشركون أضعاف أضعافهم ـ لما نزل القادسية أرسل طائفة من أصحابه إلى كسرى (يزدجرد) يدعونه إلى الله قبل التحام القتال، فاستأذنوا على كسرى، فأذن لهم، وخرج أهل البلد ينظرون إلى أشكالهم، وأرديتهم على عواتقهم، وسياطهم بأيديهم، ونعالهم في أرجلهم، وهم على ظهور خيولهم الضعيفة وجعلوا يتعجبون منهم غاية العجب، كيف يقهر هؤلاء جحافل جيوشهم؟

محاورة النعمان ابن مقرن وكسرى (يزدجرد)

ولما دخلوا على كسرى جعل يسألهم ـ استخفافاً بهم ـ عن ملابسهم وأسمائهم، ثم قال لهم: ما الذي أقدمكم هذه البلاد؟ أظننتم أنّا لما تشاغلنا عنكم بأنفسنا اجترأتم علينا؟ فقال النعمان بن مقرِّن ـ أحد أبطال الإسلام وقواده ـ: إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير، ويأمرنا به، ويعرفنا الشر، وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يَدْعُ إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين: فرقة تقاربه، وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواصّ، فمكث ذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أُمر أن ينهد إلى من خالفه من العرب، ويبدأ بهم ففعل فدخلوا معه جميعاً على وجهين: مكروه عليه فأغبطه وطائع إياه فازداد، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين الإسلام حسّن الحسن وقبّح القبيح كلّه، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شرٌّ منه الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة، وإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله

وأقَمنا عليه على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن أتيتمونا بالجِزَى قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم.

فتكلم يزدجرد فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم، وقد كنّا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم، ولا تغزوكم فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عددكم قد كثر فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم، وملّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم، فأسكت القوم.

المغيرة بن شعبة يأخذ زمام المبادرة في المحاورة مع يزدجرد

فقام المغيرة بن شعبة فقال: أيها الملك هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يكرم الأشراف الأشراف، ويعظِّم حقوق الأشراف الأشراف، وليس كل ما أرسلوا إليه جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، وقد أحسنوا، ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك، فجاوبني فأكون أنا الذي أبلغك ويشهدون على ذلك.

إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً، فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أحد أسوأ منا حالاً، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيّات، ونرى ذلك طعامنا.

وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، وأن يبغي بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل معه طعامه.

وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرتُ لك، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً نعرف نسبه، ونعرف وجهه ومولده، فأرضُه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته خير بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، وهو نفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها، أصدقنا وأحلمنا، فدعانا إلى أمر لم يجبه أحد أول تِرْب كان له الخليفة من بعده، فقال وقلنا وصدّق وكذبنا وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئاً إلا كان، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين

رب العالمين، فما قال لنا هو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله، فقال لنا: إن ربكم يقول أنا الله وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء، وكل شيء هالك إلاّ وجهي، وأنا خلقت كل شيء، وإليّ يصير كل شيء، وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلّكم على السبيل التي أنجيكم بها بعد الموت من عذابي، ولأحلّكم داري، دار السلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق، وقال: من تابعكم على هذا فله ما لكم، وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم، فمن قتل منكم أدخلته جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه.

فاختر إن شئت الجزية وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أوتسلم فتنجي نفسك، فقال (يزدجرد) أتستقبلني بمثل هذا؟ قال المغيرة: ما استقبلت إلا من كلمني، ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به.

قال يزدجرد: لولا أن الرسل لا تقتل القتلتكم، ولا شيء لكم عندي، ثم قال: ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتى يدفعه وجنده في خندق القادسية، وينكل به وبكم من بعده، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم.

* * *

محاورة عمرو ابن العاص رهبان أقباط مصر لعرض الإسلام ودعوتهم إلى الله وإلى دينه الحق

وفي فتح مصر روى الطبري وغيره أن عمرو بن العاص لما خرج إلى مصر استقبله أهلها فعاجلوه القتال، فأرسل إليهم لا تعجلونا لنعذر إليكم، وتروا رأيكم بعد، فكفُّوا، وأرسل إليهم عمرو: إني بارز، فليبرز إليّ أبو مريم وأبو مريام، فأجابوه إلى ذلك، وأمَّن بعضهم بعضاً، فقال لهما عمرو: أنتما راهبا هذه البلدة فاسمعا: إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأمر به، وأمرنا محمد ﷺ وأدّى إلينا كل الذي أمره به، ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته وقد قضى الذي عليه، وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجب عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة، وقد أعلمنا أنّا مفتتحوكم،

وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا فيكـم، وإن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمة وذمة، ومما عهد إلينا أميرنا استوصوا بالقبطيين خيراً فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيراً، لأن لهم رحماً وذمة.

* * *

في إطار المنهج النبوي نظر في الغزوات ومواقع الجهاد لإعلاء كلمة الله

في إطار هذا النمط من البحث الذي رسم خطوطه الأساسية المنهج النبوي في تربية المجتمع المسلم ننظر في أهم غزوات النبي ﷺ التي قادها بنفسه الكريمة، لنصوِّر من واقعها في الحياة أسبابها وأحداثها ووقائعها التي أملى سطورها المنهج النبوي الذي قام على أساسه تركيب المجتمع المسلم، معتمداً على دعائم المؤاخاة التكافلية بين جماعات هذا المجتمع في دستور مكتوب بأمر النبي ﷺ، بعد أن أحكمت وشائج مؤاخاة الحب في الله ولله بين أفراد طلائع المجتمع من المهاجرين والأنصار الذين آخى بينهم النبي ﷺ في مشرق حياتهم الجديدة بالمدينة بعد الهجرة، فقال لهم: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين».

والمؤاخاة في الله تعنى في حياة المجتمع المتآخي على الحب في الله، والحب يذيب الفواصل والفوارق الشخصية، ويمحو (الأنانية)؛ فهي مؤاخاة تركز في وجودها على التمازج بين المتآخيَيْن تمازجاً لا يرى فيه أحد الأخوين أنّ له شيئاً ليس هذا الشيء عينه لأخيه، بل يرى أن هذا الشيء الذي في يده هو لأخيه في يده قبل أن يكون لنفسه.

فالمؤاخاة بنوعيها الفردي والجماعي آية من آيات المنهج النبوي التي أريد بها فيه أن تكون صورة حية للتربية السلوكية المنطلقة في مسيرة الدعوة إلى الله بروحانيتها ووحدتها الإيمانية، ليستعيد بها المجتمع ـ إذا عاد إليها ـ مكانته في هداية الإنسانية لإصلاح ما أفسده العلم المادي من حياتها الفكرية وحياتها الروحية.

وقد كان يكفي البحث في البرهنة القاطعة على أن غزوات النبي ﷺ لم تكن لتستهدف قط إكراه أحد على اعتناق ما لم يؤمن به إيماناً عقلياً وروحياً، ما قدمناه من النصوص التطبيقية في دلالتها البيِّنة على أن الهدف من هذه

الغزوات إنما هو الدعوة إلى الله، وفتح الطريق أمام مسيرة تبليغ الرسالة لإخراج الإنسانية من الظلمات إلى النور، وإنقاذها من التعبّد للوثنيات في جميع صورها وأشكالها المادية الملحدة، لتعيش في ظل من وحدة الإيمان، ولتبني حضارتها على المؤاخاة والحب لا على نظريات العلم المادي المدمِّر لمظاهر الحياة، المفسد للتفكير، المنحرف بالسلوك الإنساني عن جادة الاستقامة.

أعداء الإسلام في ألوانهم المختلفة لا تقنعهم البراهين القاطعة

بيد أننا رأينا أعداء المجتمع المسلم المتظاهرين بالبحث العلمي وحرية الفكر يتشكّلون في صور وألوان مختلفة، فهي تارة استشراقية، تدّعي البحث العلمي، وتتباكى على حرية التفكير، وتارة تبشيرية تزعم أنها تهدي إلى حق وإصلاح، وأخرى سياسية تحاول أن تجعل من الحياة حقلاً لتجارب عدل الظالمين الماديِّين في المجتمع البشري، ومرة أخرى اجتماعية تخدع الناس عن حرياتهم وتخادعهم عن خصائص إنسانيتهم، لتتخذ من هذا الخداع والمخادعة منحدراً إلى هاوية إذابة الفرد في تنور المجتمع البشري المشتعل بنيران الحقد المضطغن، والتنافس المادي المثير للفتن والشرور - يتناولون في مؤلفاتهم وصحفهم ومجلاتهم ووسائل إعلامهم، وأحاديث أنديتهم وجامعاتهم المجتمع المسلم ومنهجه في الحياة بالطعن الجارح والألفاظ النابية، زاعمين أن هذا المجتمع مجتمع حرب وقتال، تسفك فيه الدماء، وتجمع الغنائم والأموال لإكراه الناس على الاندماج في تركيبه الاجتماعي الإيماني بقوة السيف والقهر، وهم مفترون كاذبون يعلمون أنهم كاذبون، ولكن العصبية الخانقة، والحقد المغيظ الذي يملأ قلوبهم على هذا المجتمع المسلم، وما ورثوه عن أسلافهم في الكفر والإلحاد من أن هذا المجتمع المسلم هو الذي دوّخ ممالكهم وقوَّض امبراطورياتهم، وأقام على أنقاضها ملكاً مسلماً عاش على منهجه فيها قروناً، ثم أُخرج منها، ولكن آثاره فيها لا تزال رغم مرور الأعوام والقرون قائمة تنادي المجتمع المسلم أن تيقظ فإن لك أوطاناً سليبة تنتظرك إذا عدت لمنهجك الأصيل في الحياة - هي التي أعمت بصائرهم عن الحق، فلم يبصروه إلا من منظار الحقد الدفين، والحقدُ ظلمة في القلب تحيط بأقطاره فتحجب عنه كل أنوار الحياة.

ونرى إلى جانب هؤلاء الأعداء الحاقدين صوراً من المستضعفين في

شباب الإسلام المخدوع بالمظاهر المادية أشد خطراً على الإسلام من أعدائه

أوطان الإسلام من ذوي الشخصيات (البغبغاوية) ـ ولا سيما الشباب الغرِّير المغرَّر به الذي خدعته وتخدعه دعاوي العصرية والتجدّد والتجديد، والحرية التقدمية، والتفكير الصاعد، والمبادىء الاجتماعية المزركشة، والطرائق السياسية المنافقة، والنظم الاقتصادية المخرِّبة، والأوضاع السلوكية المفسدة من كل ما يُرى في أنماط الحياة المترفة المتخالعة، (المترهفة) المائعة التي يعيش فيها هذا الشباب العاري من الحصانة الروحية، والخالي من المناعة الخلقية، الخاوي من المعرفة الإسلامية، معرفة يستطيع بها مقاومة الإغراء الشهوي المستهتر الخليع من خصائص الرجوليّة الحقة.

هذا الشباب الذي تقذف به إلى أحضان هؤلاء الأعداء الملاحدة في صورة بعوث تطلب العلم من محاضنه الاستشراقية والتبشيرية الإلحادية الكثرةُ من أوطان المجتمع المسلم الممكّنة من الوسائل المادية في هذا العصر، يردِّد إذا عاد إلى أوطانه من محاضن الإلحاد المادي والتميّع الخلقي ـ أفكار هؤلاء الأعداء في التحيّف على المجتمع المسلم ومنهجه التربوي، وهذا الشباب الذي ينتمي انتماء جغرافياً لا يحمل من سمات المعرفة الإسلامية إلا قشوراً يتشدّق بها، مغروراً بما جاء به من إلحاد وجحود لتاريخ أمته ومقوِّماتها الأساسية.

هذا الشباب المضيّع في أشد الحاجة إلى التحصين الخلقي والفكري قبل أن يُلقى به بين أحضان أعدائه وأعداء مجتمعه المسلم

هذا الشباب المعذَّر ضائع مضيَّع، لا يعرف عن حقيقة تاريخه الإسلامي، وتراث هذا التاريخ الفكري إلا شيئاً ضئيلاً، لا يغني في حماية هذا الشباب من اللوثات المنحرفة أي غناء، لأنه شباب ضيّعه أهله، وعيَّشوه في جهالة مغلّفة بشعارات دعائية وتقاليد مستوردة من وراء البحار والسهوب، وأنظمة جوفاء في أشباح جامعيّة وصور دراسية، في أوطانه المسلمة، وليس في هذه النظم والدراسات إلّا تزجية الفراغ، يتلقّى فيها الشباب المسلم قشوراً من المعرفة عسرة الهضم، لا تُحلي ولا تُمرّ، ولا تنفع ولكنها تضر، ثم تنتهي هذه الدراسات الخاوية بجواز للوظيفة أو البعث إلى أحضان سدنة العلم الخادع من طوائف المستشرقين والمبشِّرين في جامعاتهم ليصنعوا من هذا الشباب خبزة سهلة الازدراد في صورة (دكترة) تتيح له أن يتبوأ أعلى المناصب في وطنه المسلم المخدوع، وهو مجلل بالجهالة لتاريخ أمته ومجتمعه، ولكنه مسربل بما لُقّن من معارف غريبة عنه وغريب هو عنها لتكون مطية له

ولأمثاله إلى اعتلاء عروش إدارة الحكم في وطنه.

وهؤلاء السدنة للبحث العلمي وحرية الفكر من أعداء الإسلام المندسُّون وراء الحياد الفكري يستقبلون هذا الشباب المسلم وهو مفعم الصدور بإعظامهم، وإعظام حياة أوطانهم وجماعاتهم، والاستطارة فرحاً بمظاهر حضارتهم المادية، وهم به فرحون فرح الصائد بما يقع في شباكه من صيد ثمين، ثم يأخذون في تلقينه ما يعلم وما لا يعلم مما يريدون أن يعدّوه به، ويهيّئوه له، ليكون حين عودته إلى وطنه ومجتمعه المسلم لسانهم الناطق، وعينهم الباصرة، وآذانهم اللاقطة، ويدهم الباطشة بكل فضيلة مسلمة، وكل تربية مسلمة، وكل سلوك مسلم، وكل فكر مسلم، وما يزالون به يتابعونه حتى يصلوا في صنعه إلى خبيء ضمائرهم من المرتبة العليا في التحبب إليهم بانحرافه عن العقيدة المسلمة إلى إلحاد مغرور متنفج بما توهَّم أنه وصل إليه من علم ومعرفة وتفكير جديد، وعندئذ يرسلونه إلى وطنه المسلم، يحمل لقباً علمياً ضخماً، وفي يمينه حفيظة الوصايا له، وإليه، وبه، عند من بيدهم أزمة الأمور في المجتمع المسلم، وبيدهم الحل والعقد وبيدهم مفاتيح خزائن الأرض.

وفي صدر هذه الوصايا به عند (طواويس) الحكم في المجتمع المسلم أن يكون من ذوي الصدارة في قيادة مجتمعه المسلم في وطنه، توسّد إليه أعمال قيادته ليحقق لهم أغراضهم.

ولا ينسون في وصاياهم له أن يعطوه مواصفات كاملة مفصلة للذين يعملون معه فيما يسند إليه من عمل، ويوسّد إليه من إدارة، ليكونوا بطانته التي تخزن أسراره، يقربون إليه من يشاؤون ويبعدون عنه من يشاؤون، وهم أمناؤه، فلا يقرِّبون إليه إلا من كان على شاكلتهم في سلوكهم (الحضاري)، ولا يبعدون عنه إلا كل مسلم عليم، مترفع عن الدنايا السلوكية، لأن هذا المسلم العليم أمين على عقيدته، قوي التمسك بها، فهو ـ في نظرهم ـ جامد التفكير، معوّق للتقدم الحضاري المادي، لعدم أخذه بمظاهر الحضارة المستوردة من وراء البحار والسدود والسهوب، المنطلقة من سائر القيود.

أخطر المخاطر على الإسلام بعث شبابه دون تحصين خلقي وفكري إلى جامعات أعداء الإسلام

إن أخطر شيء في حياة المجتمع المسلم وحاضره الذليل الممزق ضياعُ شبابه من حياته ووجوده بهذا الوباء المتفشي مع انفجار الثراء الفاحش في كثير من أوطان الإسلام، ومع الجهل الأفحش في معرفة طرائق استخدام هذا الثراء لمصلحة المجتمع المسلم، ذلك الوباء هو وباء بعث الشباب إلى أوطان أعداء المجتمع المسلم دون أن يكون لدى هذا الشباب حصانة خلقية وفكرية تحمي سلوكه من الانحراف، وتصون تفكيره من الانـزلاق إلى منحدرات الإلحاد المحجَّب والمكشوف.

حصِّنوا الشباب بالعلم الإسلامي، والخلق الإسلامي، وأعيدوا النظر في مناهج المراحل التعليمية، وضعوا برامج تربوية مسلمة، ثم ابعثـوا بالشباب إلى حيث يزداد علماً وخلقاً وتفكيراً، ليعود إليكم في صورة مسلمة منظّمة الإطار.

فهل يمكن أن نبني مناهج جامعاتنا على دعائم تحصين شبابنا خُلقياً وعلمياً لنضمن وجوده سليماً لنا وحياته لأوطاننا المسلمة، حتى نجد فيه القائد الغَيْران على عقيدته ودينه وخلقه المسلم ممثلاً في تربيته وسلوكه.

إن ذلك ممكن وواجب التنفيذ، ولكنه يحتاج إلى قوة إيمان بوجودنا ومقوِّماتنا وخصائص مجتمعنا المسلم التاريخية، ويحتاج إلى دراسة لسياستنا التعليمية من القاع إلى القمّة، ويحتاج إلى الإيمان بأن الإحسان في الكيف والحقيقة خير من كثرة المظاهر المادية الجوفاء، التي إن لم تتدارك وتحصّن بالأخلاق والعلم المسلم فستهدم في بغتة على رؤوس مشيِّديها، والله تعالى وعظنا وضرب لنا الأمثال لنعتبر: ﴿فكأيِّن من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطَّلة وقَصْر مَشِيد * أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[1].

إن شبابنا المسلم ـ وهو عصب حياتنا ـ لو كان في دراسته المنهجية في

(١) سورة الحج آية (٤٥ ـ ٤٦).

شباب الإسلام ـ وهو عصب مجتمعه ـ لو كان محصناً بدراسة منهج الإسلام لما كان فيه من يقبل أباطيل أعدائه

جميع مراحل التعليم قد درس ـ مثلاً ـ السيرة النبوية دراسة بحث ممحص، وعقيدة راسخة، ودرس تاريخ الفتوحات الإسلامية، ولا سيما في مطالعها الأولى التي كانت صورة متطابقة للمنهج النبوي في تربيته المجتمع المسلم، ودرس معها الانزلاقات المحرفة للمنهج النبوي عن سَمْته الذي وضعه فيه النبي ﷺ، لما كان من بينه من يقبل دعاوى الأعداء والأدعياء، ولا سيما هذه الدعوى البالية دعوة انتشار الإسلام بالسيف والقهر وسفك الدماء وجمع المال، وهي دعوى حورب بها المدّ الإسلامي وهو في عنفوان قوته واندفاع تياراته حاملاً دعوة الهدى والحق، وكان المجتمع المسلم قد بدأ يتحول عن مجراه على منهجه التربوي السلوكي، الذي قام على أساس الوحدة التكافلية حيث انصدعت صفات تلك الوحدة، وتناثرت إلى دويلات هزيلة يكيد بعضها البعض، والعدو من ورائها يشعل نيران الفتن هنا وهناك، فانحسر تيار المسيرة المسلمة، وجمد ووقف مكبلاً بأغلال الفرقة التي لم يغب عنه ليلها المظلم.

وأصحاب هذه الدعوى الزائفة البالية الكاذبة وجدوا فيها سلاحاً ماضياً يحاربون به المجتمع المسلم بعد أن أناموه بها وبأمثالها من الافتراءات الباطلة، وأفقدوه الشعور بنفسه وحياته وتاريخه ومنهجه ومقوماته الذاتية وخصائصه التربوية.

من أخطر ما ابتلي به الإسلام في هذا العصر الملحد تبني بعض بنيه «الجغرافيين» دعوة التسامح المقرب بين الأديان

ومن أعجب العجب في باب محاربة أعداء المجتمع المسلم لهذا المجتمع، والقضاء على حياته، وهو يحشرج تحت وطأة هذه الأكاذيب أن أعداء هذا المجتمع المسلم وجدوا في بعض أبنائه (الجغرافيين) من أدعياء التجدّد والتجديد، والتقدميّة، والحرية الفكرية من ألبسوهم خلعة التسامح والترفع عن العصبية الدينية، ليعزِّزوا بهم وبأكاذيبهم المتخاذلة تهمة الإكراه، والقهر، والسيف، وسفك الدماء التي زعموها القوة الدافعة في انتشار دعوة المجتمع المسلم إلى الهدى ودين الحق، حتى عمّت المعمور من الأرض في أقصر زمن، لا يعرف المجتمع البشري مثله لدعوة من الدعوات أو لرسالة من الرسالات الإلٓهية.

وقد كان هؤلاء المتخاذلون تحت ستار التسامح الذليل، والترفع المصطنع عن العصبية أبشع وأعضل ما حورب به المجتمع المسلم، لأنهم بدعاواهم المتخاذلة الذليلة المتسامحة بالهوان كانوا كحفّاري القبور للأحياء قبل أن يموتوا.

وقد عزز افتراءاتهم المتخاذلة المتسامحة أن المجتمع المسلم كان يئن تحت كابوس الجهل المطبق الذي طحن برحاه الفكر المسلم، واستبدل به أضغاثاً من الأساطير والخرافات والأباطيل التي أُلصقت بمنهج المجتمع المسلم إلصاقاً، وعاش في ظلماتها قروناً كثيرة، وهي لا تزال تسيطر على جماهيره، بل على كثير ممن يزعم أنه من أهل العلم في أوطان هذا المجتمع المستعبد في تفكيره وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والتربوية السلوكية، وهو يرى في فرية التسامح المتخاذل صورة برّاقة، يحيا في ظل ذلّها وهوانها، يتجرع كأس الموت من أيدي هؤلاء المتخاذلين المخدوعين من أبنائه المزورِّين عليه.

ولا ندري كيف يطلب من مجتمع لا يملك من أمر الحياة شيئاً إلا صكّ استعباده المضروب عليه من أعدائه أن يتسامح مع من يملك عليه أنفاسه في حياته؟ فيم يتسامح العبد مع سيده المتجبر في استعباده، وهو لم يترك له شيئاً من مقومات إنسانية إلّا سلبه منه؟

ألا يستحي هؤلاء المتخاذلون المتسامحون حين يتكلمون في شأن تسامح المجتمع المسلم مع المجتمعات الأخرى في جبروتها وقوتها المادّية وطغيانهاالسلوكي، وحطِّ أثقالها على صدر المجتمع المسلم ليكتموا أنفاسه حتى لا يصحو من رقدته.

الخوف من تيقظ المجتمع المسلم أغرى أعداءه بشبابه لأنهم أساس لقيادهم بما يغمرونهم به من ذرائع الشهوات

وأصحاب هذه الدعاوى الكاذبة وأنصارهم من دعاة التسامح الذليل المتخاذل يخافون أشد الخوف أن يستيقظ المجتمع المسلم من رقدته، ويصحو من غفلته، ويراجع تاريخه ومنهجه في أيام عزّته وقوته ووحدته، فيصحح تركيبه الاجتماعي على أسس المؤاخاة التكافلية، ويستعيد وحدته، ويندفع مرة أخرى في سبيل نشر دعوته، دعوة الحق والهدى والنور، ويمضي في تبليغ رسالته على منهجي العقيدة والفكر الاجتماعي والتربوي السلوكي، فلم

يجدوا ألين عجينة من الشباب المخدوع برغائبه الشهوية في هذا المجتمع المسلم المتدفق بجموعه على جامعاتهم، ينشد منها خصائص حياة جديدة، يعيش فيها لإشباع رغائبه الشهوية المترفة بعد مسغبة الغرائز وجوعها، لينسى تاريخ منهجه الذي قامت على أسسه حياة مجتمعه ويعود إلى أوطانه المسلمة مسخاً للتقدمية الداعرة، ليشكل مناهجها الدراسية وبرامجها التعليمية في صور براقة بالمظاهر المادية التي تسيطر على عقول الجماهير ولا سيما الشباب، فينغمس فيها، أو بالأحرى يغرق في فتونها وآثامها، وهذا هو الذي قد كان، وهو الكائن اليوم، وهذا هو الذي يجب على المجتمع المسلم في جميع أوطانه أن يبادر مسرعاً إلى مقاومته ووقف تياره الجارف لإنقاذ شباب الإسلام من هاوية.

إنني لست ضد بعث الشباب إلى جامعات العالم المتجدِّد التفكير في الحياة والكون، لكشف أسرار الطبيعة ومظاهرها، والتعرف على ما في عناصرها من مكوِّنات إلٰهية، أبدعها الله تعالى، وسخّرها للإنسان، لتكون آيات بينات على اقتدار خالقها ومكوِّنها، وليفيد منها الإنسان في حياته العقلية والروحية والمادية، لأن هذا أصل من أصول ديننا وعنصر من عناصر منهجنا التربوي السلوكي.

رأي يدفع تهمة زائفة

ولكني أرى ألا يُدْفع بشباب الإسلام إلى مجتمعات ليست لها حوافظ اجتماعية تتلاءم مع نشأة شبابنا ومنهجه في حياته الإسلامية قبل أن يحصِّن هذا الشباب بما يحميه من الانحرافات الخلقية والإلحادية، ويصون عقيدته وتفكيره، ويعلي سلوكه.

ومن ثَمّ كان من الواجب أن يسبق بعث الشباب إلى خارج أوطانه الإسلامية تحصينه خلقياً وفكرياً، واجتماعياً، ليكون أينما ذهب صورة ناطقة لمنهجه الإسلامي في خُلقه وتفكيره، ومعالمه الذاتية ومعارفه، وتاريخه وتربيته وسلوكه، وليس هذا التحصين كوباً من الشراب اللذيذ يقدم للشباب فيشربه متمتعاً بحلاوته، متلذذاً بمذاقه، متنعماً بهناءته ومراءته، وإنما هو تحويل لمسيرة حياة الشباب تحويلاً يجعل منه نمطاً لمنهج الإسلام في مقوِّماته

وخصائصه وقوته الروحية والمادية واستقامته السلوكية.

وهذا بلا شك عمل شاق، محفوف بالمعوقات التي لا يذللها إلا العزائم المرهفة الماضية التي لا تتردد، فهو عمل يحتاج إلى تخطيط ووضع منهج تربوي، يشمل جميع مراحل التعليم، بل يجب أن يرتبط بالبيت والأسرة حتى يتوحد المنهج التربوي في مراحل حياة الشباب من البيت مدرسة الأسرة إلى أن يصل إلى الجامعة والدراسات المتخصِّصة ومراقبة البعوث الخارجية.

لا بد من زمن يستغرقه التحصن ولا بد من بديل معوض في فترة التحصين

ولما كان هذا التخطيط في وضعه العملي يحتاج إلى زمن طويل، ويحتاج إلى دراسة تربوية ومناهج دراسية، وإلى نوع ممتاز من الأساتذة، لهم اختصاصهم التربوي وخصائصهم الشخصية مما يجب أن يعتمد على دراسة المنهج النبوي بروحه وفكرته وتطبيقه في واقع الحياة، والتكيّف بحقائقه عملياً مع قدر كبير من التلطّف والترفق في الاتصالات الواعية بالشباب ومراقبة سلوكه داخل دور التعليم وخارجها مع الاعتصام بمراقبة الله الذي يعلم السر وأخفى.

لما كان ذلك من الواجب الفوري كان علينا أن نبحث عن البديل الذي لا يعوق دراسة الشباب انتظاراً لهذا التخطيط حتى يثمر ثمرته المرجوة منه.

البديل المعوض لما يفوت الشباب في فترة التحصين

وهذا البديل نقدمه برأينا فيما يلي: إن الله تعالى مكّن كثيراً من أوطان الإسلام بإمكانات مادية هائلة يستطيع بها هؤلاء الممكّنون أن يسلكوا في تعليم الشباب ما يسلكونه في استجلاب خبراء المشروعات العمرانية المادية في الصناعات والزراعات، وشق الطرق وتمهيدها وتشييد المباني الضخمة من ناطحات السحاب وغيرها، بأن يستقدموا من العلماء من يحتاج إليهم المجتمع المسلم في تعليم شبابه على أرض وطنه، ويعدوا لهؤلاء العلماء من وسائل الراحة الكاملة ما كانوا يجدونه في بلادهم، ويستطيعون أن يكافئوهم بمرتبات مجزية تتعادل مع تضحياتهم بمفارقة أوطانهم وما يبذلون من جهد في تعليم شبابنا العلوم التي تنهض بالمجتمع المسلم من الفنون الكونية

والصناعات الدقيقة في ظل الرقابة الواعية المؤمنة من القائمين على رعاية الحياة في الأمة.

علوم الإسلام ولغته العربية في أشد الحاجة إلى مؤسسة تجمع تراث شتات تراثها وتعده لتقدمه للمجتمع المسلم

والشباب المسلم لا يحتاج إلى أن يأخذ علوم الإسلام ومعارفه، وفنون اللغة العربية وآدابها من خارج أوطانه المسلمة؛ لأن هذه العلوم والمعارف هي تراث الإسلام ولغته، وهي بين يديه وتحت سمعه وبصره في مكتبات الأوطان الإسلامية، لكنها تحتاج إلى إنشاء مؤسسة كبرى، تنهض بعبء جمع التراث الإسلامي وتحقيقه وتنقيته من الأساطير والخرافات والأكاذيب الإسرائيلية، والأباطيل الوثنية التي أدخلت على معارف الإسلام في غفلة المجتمع المسلم، لتنشر هذا التراث بين المجتمعات الإسلامية بأفضل طرائق النشر طباعة وتصحيحاً وتحقيقاً، ليكون هذا النشر أقوى سند للدعوة إلى الله، وتبليغ رسالاته.

والشباب المسلم يحتاج إلى من يتخصص من أفراده في علوم الحياة، وفنون الطبيعة، والمعارف الكونية وغيرها مما تنهض بالمجتمع المسلم من كبوته ليلحق بقافلة الحياة الفكرية، وهذه العلوم والمعارف كان للمجتمع المسلم فيها مجالات ضاعت منه آثارها فيما ضاع له من أوطان وآثار، وهي علوم إنسانية لا وطن لها، ولا اختصاص لها بجيل أو مجتمع، لأن العلم حق مشاع للإنسانية كلِّها، لا وطن له، يأخذه من يتأهل لأخذه بوسائله الفكرية والماديّة والعمليّة.

للفكر المسلم شعار ينطبق أول ما ينطبق على العلوم والمعارف، ذلك الشعار المنهجي النبيل هو الحكمة المعروفة (الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنّى وجدها) ولكن ذلك يحتاج إلى خبرة لمّاحة تحسن الاختيار بقدر المستطاع، والله تعالى من وراء القصد.

فهل يسمع الممكّنون من الوسائل في أوطان الإسلام لهذه الدعوة بإخلاص وصبر ودراسة، ويتخففون من الشعارات الدعائية في صورها وأشكالها وألوانها الخادعة، ويوجهون المجتمع المسلم إلى العمل الصامت الدؤوب فيما يحتاج إليه من صناعات دقيقة ليستخرج بها كنوز أرضه،

ويحررها من أيدي أعدائه؟ لعل وعسى وليسمع القائمون على أمور المجتمع المسلم ورعايته المسؤولة أمام الله العلي العظيم قوله تعالى: ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر، وإن تشكروا يَرْضَهُ لكم، ولا تــزر وازرة وزر أخرى، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون، إنه عليم بذات الصدور﴾.

* * *

هذه نصيحة ممن لا يملك إلّا الكلمة والله تعالى لا ينتظر بنصرة دينه فراغ المتثائبين هنا أو هناك

هذه نفثة غَيْران، لا يملك إلا الكلمة يضعها بين يدي القادرين الذين يملكون أن يحوّلوها إلى عمل جادّ مسدّد من قادة المجتمع المسلم الممكنّين في الأرض، وقد يراها المتعجِّلون ضرباً من الخيال، ولكنها فكرة فيها مجال لبدء عمل جاد قوي شامل، يجمع شمـل المجتمع المسلم ويصحِّـح تركيبـه الاجتماعي، وما على الممكَّنين المالكين للوسـائل إلا أن يبـدأوا ويمكنوا المؤهَّلين للعمل منه، تحت رقابة تحاسب وتشجع، وتعطي وتمنع، حتى يكون العمل حقيقة واقعة في حياة المجتمع المسلم، ولا يضر قادة هذا المجتمع الممكَّنين أن يطول بهم الزمن على ظهور النتائج لأن أعمار الأمم والمجتمعات لا تقاس بالأيام والشهور، بل ولا بالأعوام والدهور، ولكنها تقاس بما يقع فيها من أعمال، وللمجتمع المسلم نموذجه في انتشار دعوته إلى الله، لهداية الخلق وتحرير الأمم والشعوب من الوثنيات في شتى صورها وأشكالها الذي تم في زمن لا يوضع فيه معه غيره في مقاييس الأزمان والأعمال.

وليفهم قادة المجتمع المسلم في جميع أوطان الإسلام أن الإسلام دين الله، أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، وقد وعد بإظهاره على الدين كله، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، وهو الفعّال لما يشاء والخلق كلهم عيال الله وعباده، يجُري ما يشاء على يد من شاء منهم، لا تقيد إرادته بجنس من الناس ولا لـون ولا جيل ولا زمن ولا مكان، ولا فرد أو جماعة، وإنما ينصر الله من ينصره كائناً من كان.

فليتقدم صاحب الخطوة العظمى أينما كان في أرض الإسلام، وليأخذ رمام مسيرة إصلاح المجتمع المسلم الاجتماعي ليضعه على النقطة الأولى من

الخط المستقيم على أساس المنهج النبوي، وكل إصلاح لا يقوم على أساس هذا المنهج النبوي إنما هو قعقعة دعائية فاسدة، سيكشفها الله ويبطلها، لأن الله لا يصلح عمل المفسدين.

وليحرص الممكّنون في الأرض من قادة المجتمع المسلم على إصلاح الشباب أشدّ الحرص؛ لأن الشباب عصب حياة المجتمع المسلم، ومن الشباب ينبغي أن يبدأ الإصلاح الفكري والاجتماعي، لتغير هذه المناهج التعليمية في مؤسسات الدراسة، وتوضع مكانها مناهج إسلامية تستمد روحها وقوتها وصلاحيتها من المنهج النبوي الذي قام على دعائمه بناء المجتمع المسلم في قيادة الإنسانية ونشر الهداية وتبليغ الرسالة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

* * *

جهاد القتال في المنهج النبوي لم يكن قط وسيلة لنشر الدعوة إلى الله وإنما كان علاجاً لمرض فجور الكفر

بهذا العرض المسهب بسوق النصوص والبراهين القولية والعملية الدالة على أن جهاد القتال في منهج المجتمع المسلم لم يكن قط قاعدة من قواعد نشر الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة الخالدة، رسالة الإسلام - وإنما كان علاجاً لمرض فجور الكفر وعتو العناد المستكبر عند المشركين والوثنيين الماديين، بعد اليأس من الشفاء بالحجة البيّنة، والبيان المنير، وبعد عرض الموادعة بالجزية للتأمل والنظر في الدلائل الهادية إلى الحق، أو المهادنة بالعهود الموقوتة التي تكتفي من المعاهدين بألّا يحاربوا المجتمع المسلم، ولا يعينوا عليه، ولا يظاهروا عدواً له، كما وقع في موادعة بني ضَمْرة وبني مُدْلج في أول خرجات رسول الله ﷺ لتلقّي عير قريش وتجارتها، وهي ذاهبة إلى الشام وقادمة منه، رجاء يقظة عقل الفجرة من المشركين الوثنيين من غفوته، ليستبين راشداً سبيل المؤمنين - مهّدْنا لاستعراض بعض غزوات النبي ﷺ الكبرى، ببيان أسبابها المباشرة وأحداثها الهامة، ووقائعها الفاصلة، لنظهر ما انطوت عليه صحائفها من حكمة بالغة وسياسة حكيمة، وعدالة ممزوجة بالرحمة، وقوة مظاهر المؤاخاة ورسوخ في الإيمان الموحّد لعناصر المجتمع المسلم، وثبات في مجال الاستشهاد، وحب للموت في سبيل إعلاء كلمة الله

وتبليغ رسالته إلى العالمين.

تطبيق المنهج النبوي دليل قاطع على أن جهاد القتال كان دفاعياً

وبهذا البيان وضعنا معالم المسير بالدعوة إلى الله على طريق الجهاد، ذلك المنهج النبوي الذي توخاه الراشدون في وصاياهم لقواد جيوشهم وكتائب فتوحاتهم في أرجاء الأرض، والذي تأسَّى به الأمراء الصالحون، وولاة العمل في الولايات في سلوكهم لتبليغ رسالات الله وما نزل من الحق لهداية الإنسانية أينما كانت في مشارق الأرض ومغاربها.

فكانوا ـ إذْ كان المنهج النبوي نبراسهم ـ لا يقاتلون إلا من قاتلهم، ولا يهيجون إلا من نصب لهم الحرب، ولا يزعجون الآمنين في أسرابهم الذين كفُّوا أيديهم عن القتال وظلفوا أنفسهم عن مطامع العداوة والبغي للمجتمع المسلم، ولا يفاجئون قبل الدعوة إلى الله وطلب المهادنة إلا من عرفوا أنه لا سبيل إلى موادعته ومهادنته، وعلموا أنه يعدّ لهم الحرب والقتال متدسِّساً وراء أغطية المكر والغرور.

ومنهج النبوة لا يؤخذ بضلالات من ضلّ عن طريقه، ولا يحكم عليه بأوضاع من لم يحكّمه في حياته.

وفي ظل هداية المنهج النبوي ومعالمه نسوق الحديث في هذه الغزوات النبوية التي نخصصها في اختيارها بالبحث، باعتبارها نماذج لأظهر الوقائع التطبيقية لهذا المنهج النبوي في مجال الجهاد، وهو المجال الذي يعتمد أكثر ما يعتمد على قوة المؤاخاة بين عناصر المجتمع المسلم، تلك المؤاخاة التي كانت وظلت وستظل هي القوة الأولى في مواقف المجتمع المسلم الجهادية، بقطع النظر عن قلة عدد المجتمع المسلم أمام أعداد أعدائه، إلى أن تمكّنت المجتمعات الوثنية المادية الملحدة القديمة والحديثة ـ بعد قرون من قيام المجتمع المسلم في تركيبه المتآخي فتحت فيها إفريقية وفارس كلها، والأندلس، وحررت مصر من نير الرومان، وفتحت جزر البحر المتوسط، وأواسط أوربة، والهند والسند والصين، وأندونيسيا وما حولها ـ من وقف تيار المد الإسلامي واندفاع المجتمع المسلم في مسيرته لتبليغ الرسالة الخالدة الخاتمة.

الإمام السهيلي يروي من حقائق التاريخ ما تحقق من عمل المؤاخاة في انتصارات المجتمع المسلم مع الفوارق الصارخة بين إعداد المجتمع المسلم وإعداد أعدائه

يقول السهيلي في (الروض) وهو يبحث عن التولِّي يوم الزحف وقوله (الآن خفَّف الله عنكم): يدل على أن ثَمَّ حكماً منسوخاً وهو الثبوت للعشرة، فإذاً للآية ظهر وبطن، فظاهرها خبر ووعد من الله تعالى أن تغلب العشرة المائة، ويدل على هذا الحكم قوله: ﴿حرِّض المؤمنين على القتال﴾ فتعلق النسخ بهذا الحكم الباطن، وبقي الخبر وعداً حقاً، قد أبصره المؤمنون عياناً في زمن عمر بن الخطاب، وفي بقية خلافة أبي بكر في محاربة الروم وفارس بالعراق وبالشام، ففي تلك الملاحم هزمت المئون الآلاف من المشركين، وقد هزم خالد بن الوليد مائة ألف حين إقباله من العراق إلى الشام، ولم يبلغ عسكره خمسة آلاف، بل قد رأيت في بعض فتوح الشام أنه كان يومئذ في ألف فارس، وكان قد أقبل من العراق مدداً للمسلمين الذين بالشام، وكان الروم في أربعمائة ألف، فلقي منهم خالد مائة ألف، ففضّ جمعهم وهزمهم، وقد هزم أهل القادسية جيوش رستم وقتلوه، وكان رستم في أكثر من مائتي ألف، ولم يكن المسلمون في عشر ذلك العدد، وجاؤوا - أي الفرس - معهم بالفِيَلة أمثال الحصون عليها الرجال، ففَرّت الفِيَلة وأطاحت ما عليها ولم يردها شيء دون البلد الذي خرجت منه، وكذلك ما ظهر من فتح الله ونصره على يدي موسى بن نصير بإفريقية والأندلس، فقد كان في ذلك أعجب العجب، فكان وعد الله مفعولاً ونصره للمسلمين ناجزاً، والحمد لله.

وكل ذلك وغيره من الفتوحات ونشر الدعوة إلى الله إنما تم على أساس المؤاخاة التكافلية، وعملها الإيجابي في جعل المجتمع المسلم قوة لا تقهره قوة مهما عظم عددها وعدتها إلى أن تمكنت مجتمعات الوثنية الملحدة من حل عواصمها الموحِّدة لعناصر المجتمع المسلم بما بثته في أرجائه من انحلال خلقي، وجمود فكري، وانطلاق مع الرغائب الشهوية الهابطة، وإخلاد إلى حب الدنيا، فانحلَّت روابط هذه المؤاخاة، وتفرقت كلمة المجتمع المسلم، ومُزِّق شمله شذر مذر، وذهبت معالم قوته مع ذهاب عواصم مؤاخاته، وانتهى أمره إلى هذه المهازل المضحكات المبكيات من المجتمعات التافهة الذليلة، في مسوخ أشباح دويلات هزيلة ذليلة، يكيد بعضها

البعض، ويتخذ بعضها أعداء الإسلام دريئة تتقي بها ضربات الوثنيات الملحدة الداعرة، فإذا تحدّثت زعامات هذه الأشباح الهزيلة من حكام المجتمع المسلم في المجالات الدولية أحاديث مأجورة النشر والإذاعة سمعت لها دويّ الطبول على قنن الشوامخ، ولتقل ما تشاء ما دام حديثها (لا يضر الغنم) فإن تطرق الحديث إلى شاردة من الجد أغنت في التخاذل المذل نظرة شذراء من عين وثنية فاجرة تملك صولجان القوة في يومها اللعين.

فتنة المجتمع المسلم بالمظاهر المادية والرغائب الشهوية في واقعه اليوم ألهته عن حقيقة وضعه في الحياة فكان كما نرى

هـذا هو واقع المجتمع المسلم الذي يعيش فيه اليوم في ظل الفن والفنانين والفنانات وناطحات السحاب من القصور و(السرايات) والطرق (المسفلتة) وأزيز السيارات، وهو يغطّي تحت جلده بثور الفساد تنخر في عظامه، ودمامل الانحلال تحول دماءه إلى صديد، يتجرعه في صور خادعة من الشهوات الحضارية المستوردة تقتل في الشباب حميته ورجوليته، فأنّى، وكيف، ومتى يؤوب الحق إلى منازله، ويصحو المجتمع المسلم من رقدته، ويفيق من تخديره؟ أبهذه الخطب الرنّانة المحفوظة، والأحاديث الطنّانة التي يستهلك بها ما بقي لهذا المجتمع من وعي يوشك أن يكون صرخة داوية لا ترد صداها آفاق التقدمية العصرية، أم بهذه الشعارات الدعائية في الصحافة والإذاعات والتلفزة والندوات والمؤتمرات التي تعقد لتنفض لغير شيء.

هذا هو المحال الذي ليس وراءه ولا فوقه محال، إنما يؤوب الحق إلى منازله بوسائله التي أقامته في نشأته شامخاً وأحاطته بكل قطرة دم يملكها المجتمع المسلم الذي أقام هذا الحق على دعائم المؤاخاة في الله، ولله، فانتصر وعم قهره للطغاة، وردّ كيدهم في نحورهم.

إذا عادت إلى المجتمع المسلم روح الفدائية بالدم وأعد للأمر عدته عاد إلى عزته وعادت له كرامته

فإذا استطاع المجتمع المسلم في حاضره أن يفدي الحق الإلّهي بقطرات دمه في مجال الدعوة إلى الله، وأن يعدّ القوة المرهبة لأعداء الله وأعدائه إعداداً ذاتياً ينبع من روحه وثرواته التي لا تنفد، وتفكيره الذي لا ينضب، عندئذ فقط يعود الحق إلى منازله، وتعود العزّة والكرامة والحرية إلى هذا المجتمع إذا اعتصم بالمنهج النبوي في تربيته وسلوكه.

هذه هي سبيل أوبة الحق إلى منازله لمن أراد أن يعمل كما عمل رسول

الله ﷺ وأصحابه من بعده وكما عمل المجتمع المسلم من بعدهم.

كانت غزوات النبي ﷺ في صورتها التطبيقية العملية لمنهجه التربوي متأسى لكتائب الجهاد في أمته من بعده

ومن هنا كانت غزوات رسول الله ﷺ بأصحابه على أساس منهجه ـ على قلة العدد وضعف العدة ـ مُثلا مضروبة، ونماذج متقيَّلة في الجهاد لإعلاء كلمة الله الذي تمّت بـه أعظم الفتـوحات المـادية والـروحية والفكـرية والاجتماعية والتربوية السلوكية.

لقد عرف المجتمع المسلم الجّد الصارم إذْ كانت المؤاخاة التكافلية حقيقة واقعة، وما يريد به أعداؤه يوم أن نفض عن كاهله غبار الذلّة والمهانة، وقرر أن يعود إلى منهجه في المـؤاخاة التكافلية، بعد أن خدعته الوثنيات الملحدة، فأنسته بإلحادها وفجورها هذا المنهج وباعدت بينه وبينه، فأفقدته دعائم مؤاخاته التي هي في الحقيقة القوة الأساسية لوجوده ـ عزيزاً كريماً على الحياة وعلى نفسه ومنهجه، وهي قوته الأولى في مجال الجهاد لإعلاء كلمة الله.

عرف ذلك المجتمع المسلم يوم أن وقف في وجه الزحوف التتارية الجارفة المُدَمْدِمة، بقيادة رجل لا يعرف التاريخ له جنساً مشهرّاً من أجناس البشرية نماه إليه، ولكنه عرفه ويعرفه بأنه بطل المجتمع المسلم الذي عانقت وقائعه الجهادية وقائع خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة، في القضاء على جحافل التتار المتوحشة في غاراتها، المدمِّرة لكل ما يقف أمامها من بشر أو شيء.

تأسّى بها بطل الإسلام قطز في جهاده للوحشية التتارية حتى قضى عليها

هذا البطل المسلم الذي خلد التاريخ ذكره في أضوأ صحفـه أخذ بزمام المجتمع المسلم فقاده في المعركة الفاصلة باسم الإسلام في ظل المؤاخاة التكافلية التي أقام عليها رسول الله ﷺ تركيب المجتمع المسلم الاجتماعي فكان بها قوة موحدّة لا تقهر، فلما عاد المجتمع المسلم إلى الاعتصام بهذه المؤاخاة رُدّت إليه قوة وحدته الإيمانية، فهزم التتار هزيمة منكرة لم تقم لهم بعدها قائمة، ومزّق جحافلهم شرّ ممزّق، لأنه مرّ على عزيمته قدماً، لم تخدعه انتصارات الجولة فيتوقف، ولكنه أتبع الضربة ضربات، حتى بلغ بالمعركة مداها، فأنهاها بالنصر المؤزر الذي رفع شأن المجتمع المسلم، وأعاد إليه

تركيبه الاجتماعي الموحّد بقوة الإيمان في ظل المؤاخاة، لأنه سمع منهج المجتمع المسلم يقول في المواقف الحاسمة: ﴿فإما تثقفنهم في الحرب فشرِّد بهم مَنْ خلفهم لعلهم يذكرون﴾[1]

آيات من سورة بدر الكبرى (الأنفال) كانت عنواناً للمنهج النبوي في تطبيقه العملي

والمعنى أن الله تعالى يقول لرسوله محمد ﷺ في صدر إقامة منهجه الجهادي: فإن ظفرت بأعدائك وأعداء مجتمعك المسلم، وتمكنت منهم في حال الحرب فاضربهم الضربة الحاسمة التي تفرق جمعهم، ويسمع دويّها من وراءهم من أعداء الحق والهدى المتربصين بك الدوائر، فيركبهم الرعب والذعر، ويملأ قلوبهم الهلع والخور والجبن، فيتفرقون آيادي سبأ، ويذهبون في الأرض كل مذهب، فلا يجتمعون لك بعد هذه الضربة الحاسمة أبداً، ولا تحدثنَّ نفسك بما يفت في عضد مجتمعك من هدنة أو موادعة أو رهبة من حليف لأعدائك متستر بالنفاق السياسي، أو كاشف عن عداوته المستورة، لينصر عليك أعداءك ويظاهرهم بالسلاح والأموال ليعودوا إلى حربك، بل امض على عزيمتك، فالنصر بيدنا وقوتنا لا بأيدي المنافقين السياسيين المتسترين بالنفاق والخديعة مهما كانت قوتهم المادية، فقد نجعلها عليهم ونردها في صدورهم ونهلكهم بها ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حَسْبك الله، هو الذي أيَّدك بنصره وبالمؤمنين، وألّف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم، ولكن الله ألَّف بينهم إنه عزيز حكيم * يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين، يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قومٌ لا يفقهون﴾[2].

يقول جل شأنه: إن هؤلاء الأعداء لك ولمجتمعك المسلم هم والمتسترون وراءهم المتربصون بكم هم في عداوتهم لكم على سواء، فإن أرادوا أن يخدعوك بأساليب النفاق ومعسول القول فلا تبال بخديعتهم فالله كافيك شأنهم وشأن مكرهم السيء، فهو الذي أيدك ونصرك بسابق فضله عليك وعلى المؤمنين معك، كما أيدك بهم، وهم الذين أحيت بينهم مؤاخاة التكافل التي جمعت

(١) سورة الأنفال آية (٥٧).
(٢) سورة الأنفال آيات (٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥).

قواهم فوحّدتها في ظل الإيمان، ولولا فضل الله عليك وعليهم ما تمكنت من تأليف قلوبهم بعد الذي كان بينهم من العداوة الجاهلية والبغضاء العصبية ولو أنفقت ما في الأرض جميعاً من مال وزخرف ومتاع، ولكن الله الذي بيده مقاليد الأمور كلها، وبيده قلوب العباد يصرّفها كيف يشاء هو الذي ألفّ بينهم بالمؤاخاة التي أمرناك بعقدها بينهم، فكانت حصناً لكم لا يرام اقتحامه ما دام قائم الدعائم، لأن الله الذي ألف بين هذه القلوب المتنافرة عزيز لا يغالب، حكيم لا تفوته ذرة من مصالح عباده، وقد كانت المؤاخاة بين عناصر مجتمعك مظهراً من أعظم وأبدع مظاهر وبدائع حكمته وتدبيره لك ولأمتك ولمجتمعك المسلم.

وبطل ثان تأسّى بالمنهج النبوي فقضى بهذا التأسّي على الزحوف الصليبية وحرر بيت المقدس ورفع عزة المجتمع المسلم

وعرف المجتمع المسلم الجدّ الصارم مرة أخرى، يوم أن عاد بعد غفلة إلى منهجه النبوي في ظل المؤاخاة التكافلية يوم أن وقف في وجه الزحوف الصليبية المتكالبة المتألبة على المجتمع، المجمّعة من جميع بلاد أوربة النصرانية يسوقها الحقد الكفور، وتدفعها الحفيظة المضطغنة على المجتمع المسلم الذي أظلهم برحمته وسماحته لتسحقه وتنتزع من يده ثالث الحرمين وأولى القبلتين، ومسرى رسول الله ﷺ، ومبدأ معراجه إلى حظائر القرب حيث سمع صريف الأقلام، فما زاغ البصر منه وما طغى - بقيادة رجل لم يدّع التاريخ له نسباً عربياً، ولكنه عرفه في صحائفه بأشرف وأنبل وأقوى وأعظم البطولات التي ربّاها المجتمع المسلم بمنهجه التربوي السلوكي.

ذلك البطل هو الفحل لا يقدع أنفه، ولا ترام منزلته إلا في الخوالد الخالدية صلاح الدين الأيوبي الكردي أرومة، المصري الشامي نشأة وملكاً وخلوداً، أحد الراشدين من ملوك الإسلام وقادة المجتمع المسلم الذي وقف أمام زحف الصليبيين طوال أيام حياته. لا يسأم الجهاد، ولا يملّ القتال لإعلاء كلمة الله وكلمة الحق الإلهي، لم يهادن ولم يداهن، ومضى معتصماً بمنهج النبوة لا يتردد، ولا يتوقف ولا يرهب أحداً إلا الله تعالى، حتى هزم جموع الصليبية الحاقدة المغرورة بكثرة أعدادها المتعزّزة بقوة عُدتها، هزيمة رعبلت حشودها، وأذلّت تعظمها وغرورها، وأسر قوادها وملوكها ثم عفا

عنهم فأطلقهم بعد أن حرّر بيت المقدس من رجسهم وبعد أن خاض إلى حربهم أنهراً من الدماء المسلمة التي سفكها أولئك الفجرة المتعصبون، وجاد بها جند المجتمع المسلم فجادوا بأرواحهم ثمناً لإحياء المنهج النبوي في الدعوة إلى الله، وحماية كرامة المجتمع المسلم، وإحياء عزته وإعادة كرامته.

فتنة المجتمع المسلم بحب التقرب إلى ذئاب السياسة الجائعة أنسته عواصم قوته في المؤاخاة وألبسته جلابيب القوميات الجاهلية المتنافسة

ثم ـ واحسرتاه ـ عاد المجتمع المسلم إلى نسيان منهجه في الجهاد المظلل بالمؤاخاة التكافلية، فعاد إليه مع هذا النسيان الذل والهوان، والضعف والمهانة، والاستعباد والاستبداد، وتنادت في آفاقه وأرجائه القوميات (المنتنة) التي شتتت قوة المجتمع المسلم وهي تدعو إلى ظلمات التاريخ الكفور، وعادت الصليبية إلى الشرق المسلم، لا لتحارب حرب مواجهة مسلحة، ولكن لتتدسس في مجتمع المسلمين الذين كفروا بمنهجهم النبوي واستبدلوا به مناهج السياسة الذليلة المستجدية المغلفة بالقوميات الجاهلية الوثنية، وآمنوا بهذه القوميات الوثنية مرتدين عن إيمانهم بمنهجهم النبوي الذي أعلى شأنهم وأعزهم، وانتصروا به من بعد ما ظلموا، وصدق حدس الظالمين الذين أقاموا لهم دويلات تافهة على أساس هذه القوميات المفرِّقة لوحدتهم المسلمة، يحوطها الذل والهوان من جميع جوانبها على أساس تعصبي، بعضه قومي موغل في القومية المظلمة، وبعضه تنافس شخصي بين الأخوة، وأبناء العم، تقرباً لمن أغروهم بهذه القوميات، فتفرق المجتمع المسلم شيعاً، لكل شيعة سيد من الذئاب الجوعى التي دخلت عليهم حظائر تاريخهم في أهب الحملان الوادعة التي تشمَّمت أرض هذه الحظائر، وتنّسمت جوها، ورصدت سماءها، فوجدوا أريج الكنوز والخزائن ينفح منها، فأخذوا يحفرون أرض الحظائر بأظافرهم وأظلافهم وأنيابهم، وكأنهم يلعبون كما تلعب الذئاب حول قنصتهاحتى تفتحت لهم كهوف الكنوز ومغاور الخزائن، فعبّوا منها وجرفوها جرفاً، وحملوا منها السفائن وقاهرات المحيطات إلى بلادهم.

وأصحاب هذه الكنور والزخائر سكرى بخمر القوميات والعصبيات الشخصية المسعورة، كلما همّوا أن يفيقوا من سكرتهم أدركوهم بسعوط المخدِّرات الشهوية، وأنشقوهم المنومّات الحالمة، وأتخموهم بالفتن والتحريش

القوميات الجاهلية أسكرت قادة المجتمع المسلم فغفلوا عن كنوز أوطانهم التي جرفها الذئاب محملة إلى بلادهم

والمهارشة الكلامية أو القتالية (العائلية) حتى يعودوا إلى رقدتهم ساهين لاهين بأحاديث الغالب والمغلوب، من كل تافه رخيص، حتى إذا طمّ الثراء المنزوع المختلس، وتصاعدت آرواحه إلى آنافهم تنبّه بعض القوم، فصَحُوا مذهولين، مأخوذين عن أنفسهم، وكأنهم لم يصدِّقوا ما يرون بأبصارهم، وحسبوا أنهم في أحلام من حياتهم اللاهية الساهية، فتحسسوا الأمر، حتى وقفوا على جليته، ولمسوا حقيقته فتنادوا (لإنقاذ ما يمكن إنقاذه) ولمح على وجوههم الذئابُ الجائعة هذا التطلّع، فجاؤوهم بخمر من دنان اليهود ومكرهم الخبيث السيء، خمر التحلل الخلقي والإباحية الخلقية في صور من الحضارة الداعرة التي تشبع الرغائب الشهوية، وتقتل النخوة، وتميت الرجولية، وتذهب بالعزّة والكرامة.

تنبّه السكارى من قادة المجتمع المسلم فقادتهم الذئاب الجائعة إلى موائد التحلل الخلقي اليهودي، حتى مالت رؤوسهم على مناكبهم

وحوّلت الذئاب الجائعة تنافس القوميات والعصبيات بين الحملان الثائرة إلى تنافس في فجور الشهوات وصورها وألوانها، وأقاموا لهم موائدها، وعبؤوها بفضلات الفتات المتعفن المتساقط من أخونتهم، فتنافسها الحملان في تهارش وتناطح، وغابوا في أوحالها عن حسِّهم وشعورهم، وعاد الظالمون إلى دأبهم في النهب والاختلاس، وضاعفوا قواهم ووسائلهم ليستنضبوا المعين الفياض، ولم يزالوا به نزحاً حتى إذا كاد ينضب معين الكنور والخزائن أفاق السكارى، وعاد إليهم بعض حسهم وشعورهم وتصايحوا: أرضنا وكنوزنا وخزائننا وخيراتنا، فقال الظالمون: نعم، إنها أرضكم، وكنوزكم، وأنتم أصحاب الأرض، ومالكو كنوزها وخزائنها، ولكن نحن الذين أخرجناها بجهدنا، وعلمنا وأفكارنا ومعارفنا، وآلاتنا، وحفرنا عليها بأظافرنا وأنيابنا، فلنا حق العمل ولكم حق الملك، ونحن وأنتم شركاء فيها، واصطلح الذئاب مع الحملان على قاعدة (جوّع. . . . يتبعك) والشعوب الجائعة المظلومة المعذبة في الأرض هي الضحية لشركة الذئاب والحملان، وقد أُتخم أصدقاء الذئاب من فضلات الفتات المتعفن المتساقط من أخونة الذئاب الذين حطهم أولئك الذئاب نُصُبا وتماثيل على كراسي مزركشة في قطع من أرضهم، فيها شتات من أشباح في صور بشرية وقالوا لهم: هذه الكراسي عروش دول، وقالوا لكل أبله بطين: هذه أرضك أنت، وهذه دولتك

ثم حطّوهم على كراسي الحكم في أوطانهم فانحطوا ملوكاً وحكاماً وزعماءَ وقادة لثورات الاستقلال الزائف فكانوا أدوات لتنفيذ رغائب الذئاب الجائعة

وهؤلاء رعيتك، فصدق أن له أرضاً، وأن له دولة، وأن له رعية يحكمها وهو على كرسيه المزركش.

وما يضر الذئاب إذا ألْبسوا هذا الحمل الأجرب جلد ذئب، وحملوه إلى عرين بعض الأسد، ليجلس معهم على خوان طعامهم في بلادهم ليخيلوا له أنه صاحب عرين مثلهم، ويتركوه يمأمىء مع زئير الأسد ليصدِّق أنه أسد صاحب عرين، ثم يعيدوه منتفشاً إلى حظائر الحملان حتى يأتيه قدره، و(إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين).

* * *

كانت غزوات رسول الله ﷺ رحلات هداية وتطهير للبشرية من رجس الشرك والوثنية

إن المنهج النبوي في قواعده وأصوله، ووصاياه للقيادات الجهادية التي طبقته أحسن تطبيق، تأسياً بالنبي ﷺ في غزواته الهادية الداعية إلى الله، المبلِّغة رسالاته إلى العالمين ـ جعل من هذه السفرات ـ التي عرفت في التاريخ باسم الغزوات، تبياناً لمضمونها من القصد الذي ينأى بها عن العبث والمغالبات الظالمة التي كانت تبعث الحروب وتسودها في جميع العصور الجاهلية الإنسانية ـ رحلات هداية وتطهير للبشرية من رجس الشرك وأوضار الوثنيّات الماديّة ومظالمها، ولم يجعلها قط إغارات نهب وسلب تسفك فيها دماء الآمنين، وتُسبى نساؤهم، وتُستعبد ذراريهم بالظلم والقهر اللذين كانت تُسامها البشرية سعيراً من طغاة المشركين، وفجار الوثنيات المتلونة في ألوان وصور فكرية واجتماعية لمحاربة عدل الرسالات الإلٓهية.

ولم يعرف في تاريخ هذه الغزوات الهادية أن رسول الله ﷺ نهض في غزوة قتال، أو عقد لواء بعث أو سرية إلا لمن كان محارباً له ولمجتمعه المسلم، ولم ينهض ﷺ في غزوة من غزواته داعياً إلى الله مبلِّغاً رسالة ربه فقاتل إلا بعد أن يبذل أقصى الجهد في بيان الدعوة ـ أولاً ـ ثم الموادعة بالجزية، أو المهادنة بالعهد ـ ثانياً ـ وبعد أن يستنفد كل وسيلة يمكن بها إتقاء القتال ثم يقاتل إن قوتل.

والمعروف أن الهجرة النبوية كانت الحد الفاصل بين مرحلتين في حياة المجتمع المسلم، المرحلة الأولى هي المرحلة المكية التي أوضحنا موقف

كانت الهجرة النبوية حداً فاصلاً بين الكفاح الصبور والعدل المنصف

المجتمع المسلم فيها على قلة عدده وضعف عدته وعجزه عن الدفاع عن نفسه من طغيان أعدائه في كثرتهم وفجور عتوهم، وشراسة عنادهم، وبيّنا أن هذه المرحلة كانت مرحلة تمحيص للمؤمنين وإلزام لهم بالصبر والمصابرة، واحتمال الأذى وتصاريف البلاء وصنوف المحن، مع الأمر بالعفو والصفح والغفران، ومقابلة الإساءة بالإحسان، والتغاضي عن سفاهة السفهاء، وكان الصحابة يأتون النبي ﷺ من بين مشجوج ومضروب، يشكون إليه حالهم، ويطلبون منه أن يأذن لهم في ردِّ العدوان، وقتل من يستطيعون قتله من المعتدين، فيأمرهم بالصبر ويقول لهم: «اصبروا فإني لم أومر بالقتال».

مُثُل وشواهد على صبر الصحابة قبل الإذن لهم بالنصفة من أعدائهم

وفي حديث خبّاب بن الأرت رضي الله عنه عند البخاري قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسّد ببردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: «قد كان من كان قبلكم ليُمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه، ولَيُتِمَنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عز وجل والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» وفي حديث آخر عند البيهقي ومسلم والنسائي يقول خباب رضي الله عنه: (شكونا إلى رسول الله ﷺ حر الرمضاء في وجوهنا واكفنا فلم يُشكنا).

قال ابن كثير في (البداية والنهاية): والذي يقع لي ـ والله أعلم ـ إن هذا الحديث مختصر من الأول، وهو أنهم شكوا إليه ﷺ ما يلقون من المشركين من التعذيب بحرّ الرمضاء، وأنهم يسحبونهم على وجوههم فيتقون بأكفهم وغير ذلك من أنواع العذاب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم على المشركين أو يستنصر لهم، فوعدهم ذلك ولم ينجزه لهم في الحالة الراهنة، وأخبرهم عمّن كان قبلهم أنهم يلقون من العذاب ما هو أشد مما أصابهم ولا يصرفهم ذلك عن دينهم، ويبشرهم أن الله سيتم هذا الأمر ويظهره، ويعلنه وينصره، وينشره في الآفاق.

وفي حديث كعب بن مالك في بيعة العقبة الكبرى أن النبي ﷺ قال

للأنصار بعد إتمام البيعة وردِّه على صرخة الشيطان: (ارفضُّوا إلى رحالكم) فقال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري: يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل منى بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» قال كعب: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا فيها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلّة قريش حتى جاؤونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغضُ إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

كانت البيعة الكبرى للأنصار بداية النهاية في مرحلة الصبر على فوادح البلاء والإيذاء

وقد كانت هذه البَيْعة الكبرى التي تمت بين النبي ﷺ والوافدين من الخزرج والأوس، في سبعين رجلاً بداية نهاية المرحلة المكية، أحسّ فيها طواغيت قريش بسعير الحرب يلفح وجوههم مع قوم هم أهيب في صدورهم وأرعب لقلوبهم أن تنشب بينهم وبينهم الحرب، فسُقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلُّوا الطريق، فلا إلى الهدى سلكوا فسلموا وعزّوا بعزة الإيمان بما جاءهم من الحق، كما عزّ هؤلاء الأنصار الذين يخشونهم أشد من خشية أي عدو لهم، ولا إلى قوة قادرة على موافقة هؤلاء البهاليل بقية السيف أخلدوا، ولا إلى ركن شديد آووا وركنوا، ولكنهم لفجور عنادهم لجوّا في طغيانهم يعمهون، ورضُوا بالدنايا يحملون عارها وآثامها، رضُوا بأن يكونوا مناسر نَهْب، ولصوص سلب لأموال المهاجرين، يقتسمونها فيما بينهم، فقد سلبوا ثروة صهيب رضي الله عنه، واغتصبوا أمواله ثمناً لتركه يمضي في هجرته، ويلحق برعيله إلى المدينة المنورة، ونهبوا أموال بني جحش الذين أوعبوا في الهجرة، فلم يبق منهم بمكة ديّار، وتركوا وراء ظهورهم منازلهم وثرواتهم فسطا عليها أبو سفيان وباعها، وسلبوا الكثير من سوى ذلك، وجعلوا من هجرة صادقي الإيمان مجبنة يدثرون بها ما في قلوبهم من غل حقود على هؤلاء الصفوة من طلائع الإيمان الذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يتطهروا من أوساخ الوثنية وأقذار الشرك بالتوحيد، وأن الله تعالى هو ربهم لا يعرفون لهم ربّاً سواه، وأن يتنظّفوا في ظواهرهم وبواطنهم من جَشِع جبان يسطو على ما تركه مالكوه من مال أو متاع، شروا به أنفسهم ابتغاء

مرضاة الله تعالى، فأربح الله بيعهم، وعوضهم عنه أفضل ما يربح رابح في الدنيا والآخرة.

كان موقف المشركين بعد الهجرة من المجتمع المسلم موقف إعلان حرب سافرة فكان لا بدّ لها من إعداد للملاقاة

كان هذا الموقف من أحلاس الشرك، وطواغيت الوثنية الفاجرة الحمقاء إعلاناً ساخراً للحرب على المجتمع المسلم، ولم يكن في ذلك مفاجأة لهذا المجتمع المسلم، ولا كانت الحرب بينه وبين قريش في عتو طواغيتها وفجور ملئها بغيبة عن تقديره واستعداده وتفكيره، ولكنها كانت متوقعة ناشبة، يصلى سعيرها ويبوء بهزيمتها الظالمون، وقد كانت المؤاخاة بنوعيها الفردي والجماعي بين عناصر المجتمع المسلم من المهاجرين والأنصار، ومن لحق بهم فآمن معهم أول خطوة في الإعداد لهذه الحرب المنتظرة شبوب أوارها في كل وقت وحين.

كان من أحكم التدبير السياسي إدخال اليهود بالتبعية للأنصار في كتاب المؤاخاة التكافلية بين عناصر المجتمع المسلم

وكان من الحكمة السياسية المؤذنة بتوقع هذه الحرب إدخالُ اليهود بالموادعة في كتاب المؤاخاة التكافلية بتبعيتهم للأنصار بيتاً، بيتاً، وطائفة، وطائفة، ليحكمهم سلطان الموادعة وعهدها الدستوري، تأميناً للمجتمع المسلم من مكرهم وغدرهم، وكانت هذه المؤاخاة هي القوة التي لا يفلُّ سلاحها، والدعامة الراسخة التي لا تخضد شوكتها ولا تغمز قناتها، وقد حُلّت بها عواصم التكتل اليهودي في المدينة، وتوزعت بها جموعهم إلى طوائف وشيع، ربطت بها كل طائفة أو شيعة من الأنصار على جهة التبعية، فأصبح اليهود في صلفهم وغرورهم بثرواتهم تابعين للأنصار بعد أن كانوا متبوعين يأمرون وينهون، وكسرت شوكتهم التي كانوا يتعظّمون بها بهذه التبعية المذلّة على حلفائهم ومواليهم من الأوس والخزرج الذين شرفوا بالإسلام، وأصبحوا مع إخوانهم المهاجرين عنصراً موحداً يمثل قوة المجتمع المسلم في ظل ظليل من المؤاخاة التي تحوّلت إلى إيثار لم تعرف البشرية له مثيلاً في تاريخها.

ولكن اليهود قوم يجري في دمائهم الغدر، وتستحوذ على قلوبهم الخيانة، ويستولي المكر السيء على تفكيرهم، ويحكم إحساسهم وشعورهم الحقد الأسود، وقد أحسُّوا بما أريد أو يراد بهم من تمزيق عصبيتهم وفك

عرى وحدتهم بوضعهم التبعي في كتاب المؤاخاة التكافلية، فجبنوا عن المعالنة والمجاهرة، ولجأوا إلى التدسس والتخفي والتآمر الخبيث، واتصلوا خفية بقريش ألد أعداء المجتمع المسلم، واتصلت بهم قريش فكاتبتهم وكاتبوها، وكشف كل فريق منهم عن دسيس نفسه بالنسبة إلى موقفهم من المجتمع المسلم، واتفقوا على الوقوف في وجهه - ليوقفوا زحفه الجارف الذي سيكتسحهم ويقضي عليهم هنا وهناك - أن يقفوا أمامه قوة واحدة، اليهود بالمكر والتآمر والإرجاف وقريش بتحبيش الأحباش، وتجييش الجيوش، وتجميع المتربصين من القبائل الضاربين حول مكة وبطاحها، وتحريضهم على حرب المجتمع المسلم وقطع الطرق عليه في خارج المدينة، وإكساد تجارته وتعطيل مصالحه، ومنع من شاء منهم المرور بمكة حاجاً أو معتمراً أو واصلاً رحماً، أو زائر صداقة، أو قافياً ضالة، أو مبتغياً حاجة، مع ما كان في أيديهم من أموال المهاجرين التي استلبوها اغتصاباً، ومزجوها بأموالهم، ليستكثروا بها من ثرواتهم وتجاراتهم.

تدسس اليهود في الاتصال بقريش لمحاربة المجتمع المسلم

فكان هذا الحصار للمجتمع المسلم لوناً من الحرب التي أشعلوا نارها من قبل، وأعلنوها اليوم شعواء لا تبقي ولا تذر وزاد من وطأة هذا الحصار الخارجي ما كان من اليهود في داخل المدينة إذْ قبضوا أيديهم عن معاملة الأنصار، وكفوا أنفسهم عن معاطاتهم ليُكسِدوا تجارتهم، ويبوّروا ثرواتهم.

حرب اقتصادية كانت الشرارة الأولى في إشعال حرب القتال

ورأى النبي ﷺ ما يراد بمجتمعه المسلم من هذا الحصار الاقتصادي المدمر لثرواته في حياته الجديدة، ورأى ما تدبِّر قريش لحربه، وما تصنع يهود لمؤازرتها في هذه الحرب الساحقة، فماذا كان ينتظر منه ﷺ أن يصنع في هذا الموقف أمام أعدائه وأعداء مجتمعه الذين يريدون القضاء على دعوته والقضاء على مجتمعه بهذا الحصار اللعين؟

أفكان ينتظر منه ﷺ ومن مجتمعه المسلم الذي أقام تركيبه الاجتماعي على أساس المؤاخاة التكافلية أن يُلْقُوا بأيدهم ويُسْلِموا أنفسهم لهؤلاء الأعداء الذين فقدوا خصائص الإنسانية، واستبدلوا بها طبائع الوحوش؟

كان نهوض النبي ﷺ بمجتمعه المسلم للوقوف في وجه أعداء الله ضرورة اقتضاها موقف أولئك الأعداء

ففيم إذاً كانت المتاعب واحتمال صنوف البلاء والمحن، ومشاق

الهجرة، وتكوين مجتمع جديد في تركيب اجتماعي تكافليّ؟

إن هذا كان من أجل الدعوة إلى الله، وإعلاء كلمة الحق الإلهي، فليمضِ المجتمع المسلم في مسيرته ليحقق أهدافه بالوقوف أمام أعدائه حتى ينصر الله دينه أو يستشهدوا جميعاً في سبيله.

وبهذا التقدير للموقف نهض رسول الله ﷺ للردِّ على هذا العدوان الظالم الذي يمثل حلقة في سلسلة مظالم الفجّار من أحلاس الشرك وعبيد الوثنية بلون من ألوانه، فهؤلاء الأعداء إذا كانوا في عدوانهم قد قطعوا الطريق على المجتمع المسلم وحصروه في مدينته، وهي مليئة بالأعداء الداخليين من اليهود والمنافقين، فعند المجتمع المسلم ما هو أنكى وأبلغ في النكال بهم، ورد عدوانهم في نحورهم، وبتبوير تجارتهم بمنعهم متجرهم إلى الشام وهو طريقهم الذي لا طريق لهم سواه.

من مواقف تسعير مكة نار الحرب بينها وبين المجتمع المسلم

روى البخاري من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، من طريق أبي إسحق السَّبيعي قال: حدثني عمرو بن ميمون أنه سمع عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه حدث عن سعد بن معاذ أنه قال: كان ـ أي سعد بن معاذ سيّد الأنصار ـ صديقاً لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مرّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مرّ بمكة نزل على أمية. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمراً فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خَلْوة لعلِّي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أويتم الصُّباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد: ورفع صوته عليه، أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنَّك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة، فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيِّد أهل الوادي، فقال سعد: دعنا منك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انهم قاتلوك» قال: بمكة؟ قال: لا أدري، ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً، فلما رجع أمية إلى

أهله قال: يا أم صفوان، ألم تري ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتليّ، فقلت له بمكة؟ قال: لا أدري، فقال أمية: والله لا أخرج من مكة، فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس، قال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، إنك متى ما يراك الناس قد تخلّفت وأنت سيد أهل الوادي تخلّفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذْ غلبتني فوالله لأشترينّ أجود بعير بمكة، ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني، فقالت له: يا أبا صفوان، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً، فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلاً إلا عقل بعيره، فلم يزل كذلك حتى قتله الله عز وجل ببدر.

في هذا الحديث تصريح من قائد مجتمع الفجور بمكة الفاسق أبي جهل - ألدّ أعداء رسول الله ﷺ وأشدهم عليه حنقاً، وأملئهم غيظاً، وألأمهم حقداً، وأشنئهم للمجتمع المسلم - بقيام حالة الحرب بين مجتمع الشرك وأعبد الوثنية بمكة وبين المجتمع المسلم بالمدينة المنورة، وذلك في قول الفاسق أبي جهل لسعد بن معاذ سيّد الأنصار الذي كان يُعَدّ فيهم بمنزلة أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه في المهاجرين، حين رآه مع أمية ساعياً إلى الطواف بالبيت: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أويتم محمداً وأصحابه، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً.

قوة الإيمان تقف منفردة أمام فجور الكفر في عقر داره وملئه

فقال له سعد بن معاذ وهو يرفع صوته متعزِّزاً بقوة الإيمان: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنّك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة، ومتجرك إلى الشام، فوجم لها الفاسق أبو جهل، ولم يَحرْ ردّاً عليها، وعلم أن المجتمع المسلم الجديد بالمدينة المنورة يملك لحرب الطغاة الفجّار ألواناً من الرد على خنزواية الغرور الأجوف في بقايا أشباح الملأ من زعماء الكفر، ورؤوس الفجور الوثني الحقود.

ولم يجد أمية بن خلف لإنقاذ الموقف سوى منافقة غميز الرجولية أبي

جهل بقوله لسعد بن معاذ وهو يصرخ في وجه أبي جهل بما ألقمه الخزي والخذلان، وردّه إلى شأنه من الخور والجبن: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيِّد أهل الوادي، وهذه المنافقة بين أمية وأبي جهل لون من تقارض الثناء الكذوب.

وقد قتل الله أمية وأبا جهل فيمن قتل من زعماء الكفر والفجور في يوم بدر العظمى شرّ قتله، كان فيها خزي أعداء الله، وأعداء رسوله، وأعداء المجتمع المسلم، الذي نصره الله في هذه الوقعة نصراً كان له في مجتمعات الكفر دويّ الإعصار المدمدم بما ملأ به الآفاق من رهبة ورعب، دخل في قلب كل كافر سمع دمدمته، حتى مادت الأرض تحت أقدام كل متربِّص بالدعوة إلى الله، متسمِّع لأنبائها، وهو أول نصر للمجتمع المسلم أطاح رؤوس زعماء الوثنية البليدة وشرّد مَنْ خَلْفهم من اليهود والمنافقين، وفتح الطريق أمام الدعوة إلى الله تمضي قدماً إلى الآفاق مشرِّقة هادية.

والظاهر من مجموع الروايات وفحوى رواية البخاري أن حادثة سعد ابن معاذ مع أمية وأبي جهل بمكة كانت قبل أن ينهض النبي ﷺ ليتلقّى عير قريش حين مروره إلى الشام وإيابه منها، كما أن الظاهر أن هذه الحادثة هي - مع أمثالها - التي حركت النبي ﷺ للنهوض إلى التعرض لتجارة قريش تحقيقاً لقول سعد لأبي جهل: لئن منعتني هذا لأمنعنَّك ما هو أشد عليك، طريقك على المدينة، لأن سعداً عاد إلى المدينة المنّورة، ولا بد أن يكون قد حدّث النبي ﷺ بما كان بينه وبين أمية وأبي جهل، فابتدر النبي ﷺ الأمر ونهض للتعرض لعير قريش وهي صاعدة إلى الشام، فلما فاتته تعرّض لها وهي آيبة إلى مكة. ويشير الحديث إلى أن حادثة سعد كانت مما حرّك النبي ﷺ إلى النهوض لتعرّضه لعير قريش.

فتنة اطفأها الله بحكمة السياسة النبوية

ومن أظهر الدلائل على قيام حالة الحرب بين مجتمع الشرك والوثنية في مكة والمجتمع المسلم في المدينة المنورة ما رواه ابن مردويه بإسناد صحيح - كما قال ابن حجر في الفتح - قال: كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أبيّ وغيره ممن يعبد الأوثان قبل بدر يهددونهم بإيوائهم النبي ﷺ وأصحابه

ويتوعدونهم أن يغزوهم بجميع العرب، فهمّ ابن أبي ومن معه بقتال المسلمين، فأتاهم النبي ﷺ فقال: «ما كاد كم أحد بمثل ما كادتكم قريش، يريدون أن يُلْقُوا بأسكم بينكم» فلما سمعوا ذلك عرفوا الحق فتفرقوا.

وفي هذا الحديث لمحة سياسية تدل على ما حبا الله به رسوله محمداً ﷺ من الحكمة النافذة إلى أغوار النفوس البشرية، ومن التدبير المحكم في البديهة والتأمل على سواء، ذلك أنه ﷺ أتى ابن أبي ومن معه من عبدة الأوثان، وهم أعداء المجتمع المسلم، من قبل قوميتهم التي تربطهم بالمسلمين من الأنصار، وأفهمهم أن قريشاً تريد أن يقتل بعضكم بعضاً، وتؤرّث بينكم العداوة والبغضاء، لتلقي بأسكم بينكم، فلماّ تأمّلوا قوله ﷺ ثابوا إلى رشدهم وعرفوا الحق فتفرقوا.

لا شك في أن موقف أعداء المجتمع المسلم من هذا المجتمع موقف حرب متحفزة للوثوب

هذه براهين قاطعة تدل على أن موقف أعداء المجتمع المسلم من هذا المجتمع كان موقف حرب شعواء مسعورة كما دلّ عليه كتاب قريش إلى ابن أبي ومن معه من عبدة الأوثان، إلى جانب ما كان منهم إليهم من ظلم صارخ وعتو فاجر وما أنزلوه بطلائع هذا المجتمع من أفانين البلايا والمحن، وما استحوذوا عليه من أموالهم بأحط طرائق النهب والسلب والاغتصاب، وأدخلوها في أموالهم وثرواتهم لإرباء تجاراتهم التي يخرجون بها في عيرهم وقوافلهم إلى الشام ذهاباً، ويؤوبون بها إلى مكة بعد أن يتخموا من الأرباح الظالمة، مارِّين بها على المدينة عاصمة المجتمع المسلم ومستقره التي اتخذها حصنه المنيع، وقلعته التي لا ترام.

فهل إذا نهض النبي ﷺ لحماية مجتمعه ودعوته ليقف أمام الظلم وفجور الكفر يكون ﷺ محارباً لحرية التجارة وحرية العيش؟

أفإن نهض النبي ﷺ ليمنع هؤلاء الظلمة من فجّار الكفر، وطغاة الوثنية المنحطة من أن يدوسوا على حرمة مدينته، وكرامة مجتمعه المسلم، ويستخلص من أيديهم أموال أصحابه من المهاجرين الأولين التي اغتصبها ملأ الفجور من مشركي قريش بأحط طرائق النهب والسلب، وينتزع منهم ما يتعزّزون به من ثروات محرمة يحاربونه بها، يقول أعداء الإسلام إرجافاً برسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم: إن محمداً ﷺ وأصحابه يشنّون حرباً

هجومية على الآمنين ليكرهوا الناس حتى يؤمنوا بدعوته، ويندمجوا في مجتمعه، بدخولهم في دينه؟ وإنهم يقطعون طريق التجارة ويأخذون ما في أيدي أصحابها من أموال؟

أفإن نهض رسول الله ﷺ ليستعمل حقّه التي أعطته إياه قوانين السماء والأرض التي تحدد علاقات المحاربين من كل جنس ودين وأمة وجيل، يقول أعداء المجتمع المسلم متباكين على السلام، نادبين حظ البشرية: إن محمداً وأصحابه يقطعون الطريق على التجارات غادية ورائحة، ويعطِّلون سبل الحياة فيما يتعايش به الناس، ويتناسى هؤلاء الأعداء فجور إخوانهم أعداء الله وأعداء دينه في مكة بإنزال أفانين البلاء والمحن والتعذيب بالمؤمنين بدعوة محمد ﷺ، ويتناسون دساتير الدول، وقوانين الأمم في الحرب في معاملة المحارب بالمثل في ردِّ اعتدائه عليه، ويتناسون أن من حق كل محارب اعْتُدي عليه ظُلْماً أن يسحق عدوه بما يستطيع من قوة ما دامت الحرب قائمة لم تضع أوزارها؟

معاملة المحارب بمثل معاملته عدل قانوني جاءت به قوانين السماء والأرض

إن معاملة كل محارب بمثل سلوكه في الحرب هو أقل درجات العدل في القوانين المنظِّمة للعلاقات بين المتحاربين، لأن في هذه المعاملة بالمثل تحذيراً للطغاة، وانذاراً للظالمين في صور إيجابية عملية تعرِّفهم أن الحروب لا ضوابط لها، وكثيراً ما يفلت الزمام من أيدي القادة، وتنسى القوانين، وتلعب المغالبة دوراً قاسياً لا تحكمه القوانين، وقد يشتد أوار القتال فيأكل الأخضر واليابس من الطرفين، والمجتمعات البشرية (تتطور) في سلمها وحربها إلى ما هو أسوأ وأفحش في حضارتها المادية المدمرة.

رد الاعتداء ومقاومة الظلم ضرورة حيوية يتطلبها إصلاح الحياة

فلو لم يرد الاعتداء بمثله لكانت العواقب وخيمة على الحياة بمن فيها وما فيها، فالذين يريدون من المجتمع المسلم أن يقف مكتوف اليدين أمام جرائم أعدائه، فلا يرد عليها بمثلها ـ وهذا أدنى مراتب العدل الاجتماعي ـ يريدون من وراء ذلك أن تتعطل مسيرة الدعوة إلى الله، والدفاع عن الحق الإلٰهي، وإعلاء كلمته لتطهير الإنسانية من أوضار الشرك ورجس الوثنية، وفجور الإلحاد، تستراً بأغطية الحرية المنطلقة انطلاق الوحشية الحيوانية في

الغابات والسهوب لا تحكمها إلا الغرائز الثائرة المجنونة، والرغائب الشهوية الفاجرة المفتونة، وعندئذ تتحول الحياة الإنسانية إلى قطعان من أشباح البشرية تقف على شفير الهاوية انتظاراً لقاصف من الريح الجنوني يدفعها إلى مقرها، لتلقى نهايتها البائسة التي جرّها إليها الإلحاد المتحرر، أو التحرر الملحد ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾.

وفي ضمن هذه العموميات تظهر صورة المجتمع المسلم في موقفه مع أعدائه المعتدين عليه بزعامة طغاة الوثنية في مكة ليعرف الطغاة أن المجتمع المسلم في يومه بعد الهجرة غيره في أمسه، وهو بمكة مضطهد معذب مستضعف، لأنه كان مجتمعاً ناشئاً قليل العدد، ضعيف العدّة، لا يملك شيئاً من وسائل الدفاع عن نفسه، وكان مأموراً بالصبر والصفح والعفو عن الإساءات التي توجه إليه، وينزلها به الطغاة الظالمون من فجار الشرك والوثنية، ولكنه في يومه بعد الهجرة أصبح مجتمعاً قوياً في كثرته العددية، ونمو هذه الكثرة بصورة مذهلة لأعدائه، وقوياً بعدته الماديّة التي يملك بها الردّ على اعتداء أعدائه، بل يملك بها أن يسحقهم سحقاً بسبب ما قام عليه تركيبه الاجتماعي الجديد، وبنيانه الإيماني المؤسس على المؤاخاة التكافلية التي كانت قوته الأساسية في وقائعه الحربية.

فالمجتمع المسلم في يومه وتركيبه الجديد يملك من القوة المادية ما يستطيع به تحطيم تجمّعات أعدائه الظلمة، وقد كان ممنوعاً من الردِّ على الاعتداء فأذن له فيه، فهو ممكّن من الوقوف أمام الطغاة موقفاً يكبح جماح غرورهم، وهم مصممون على حربه، ولا يردّهم عن عزيمتهم الطاغية إلا أن يعالنهم بمثل ما عالنوه به من الحرب، وهذا الذي كان منه ﷺ في خرجاته المنذرة متعرضاً لعيرهم التي تحمل تجارتهم غادية رائحة، وهي مارّة بالمدينة إنما كان إشعاراً لهم بأن المجتمع المسلم سيرد الاعتداء بمثله، وهو على أتم الاستعداد للقتال إذا أرادوا قتالاً ﴿ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾.

ولو كان النبي ﷺ يريد بغزواته مجرد قتال يكره به الناس حتى يؤمنوا

لم يثبت قط أن النبي ﷺ تعرض في غزواته لغير من نصب له ولمجتمعه الحرب، بل كان يوادع من لم يتعرض لحربه

بدعوته، ويدخلوا في دينه، ويؤمنوا برسالته لكان أحرى أن يكون ذلك مع من كان يقيم حول المدينة من القبائل، ولكنه ﷺ كان يخرج في طلائع غزواته مع نفر من أصحابه المهاجرين خاصة، لم يكن فيهم أنصاري ليلقى عير قريش وهي تحمل تجارتهم، وفيها أموالهم، وما نهبوه من أموال المهاجرين ليغنمها ردّاً على ما صنعوا في مكة وفي بدء الهجرة مع المسلمين، ولم يكن يخرج لقتال، وكان ﷺ يوادع من يلقى في طريقه من القبائل التي لم تنصب له الحرب.

يقول ابن إسحاق: غزوة ودان هي أول غزوات النبي ﷺ، خرج لها من المدينة في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة، يريد قريشاً، فوادع بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة من كنانة، وادعه رئيسهم مخشيّ بن عمرو الضمري وكان سيدهم في زمانه ذلك، قال السهيلي: وكانت نسخة الموادعة فيما ذكر غير ابن إسحق: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا في دين الله ما بل بحر صوفة، وإن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله ولهم النصر على من بر منهم واتقى).

تحقيق الاختلاف فيمن وادع النبي ﷺ عن بني ضمرة

وفي فتح الباري: أن الذي وادع النبي ﷺ عنهم رئيسهم مجديّ ابن عمرو الضمري، ولم أقع على ذكر مجدي فيما وصلت إليه إلا في بيت شعر في قصيدة منسوبة لأبي جهل، وهذا البيت هو كما جاء في سيرة ابن إسحاق

فـورَّعني مجدي عنهم وصحبتي وقد وازروني بالسيـوف وبالنبـل

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذا الشعر لأبي جهل، وقد تكلم السهيلي على لفظ (مجدي) في الشعر المنسوب إلى أبي جهل فقال: وقول أبي جهل: وورّعني مجدي عنهم وصحبتي، وترك صرف مجدي لأنه علم، وترك التنوين في المعارف كلها أصل، لا ينون مضمر ولا مبهم، ولا ما فيه الألف واللام ولا مضاف، فكذلك كان القياس في العلم، فإذا لم يُنَوّن في الشعر فهو الأصل فيه، لأن دخول التنوين في الأسماء إنما هو علامة

لانفصالها عن الإضافة، فما لا يضاف لا يحتاج إلى تنوين. ثم قال السهيلي: وقد كشفنا سر التنوين وامتناع التنوين والخفض مما لا ينصرف في مسألة أفردناها في هذا الباب وأتينا فيها بالعجب العجاب.

غير أن ابن سعد في الطبقات ذكر مجدي بن عمرو الجهني، وليس الضمري، كما في الفتح، وذكره ابن سعد في بعث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقال: وخرج حمزة يعترض لعير قريش قد جاءت من الشام تريد مكة، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمئة رجل، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص، فالتقوا حتى اصطفوا للقتال، فمشى بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان حليفاً للفريقين جميعاً، إلى هؤلاء مرة وإلى هؤلاء مرة، حتى حجز بينهم، ولم يقتتلوا.

وقد ذكر ابن سعد مخشي بن عمرو الضمري في غزوة الأبـواء وهي ودّان، فقال: وفي هذه الغزوة وادع - أي رسول الله ﷺ - مخشيَّ بن عمرو الضمـري وكان سيدهم في زمانه، على أن لا يغزو بني ضمرة ولا يغزوه، ولا يكثِّروا عليه جمعاً ولا يعينوا عدواً، وكتب بينه وبينهم كتاباً.

ومسلك ابن سعد أرجح، لأن مجدي جهني، ومخشياً ضمْري، ويؤيد ترجيحنا ما ذكره الزرقاني في شرح المواهب من أن مجدي بن عمرو الجهني إنما حجز بين سرية حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وبين قافلة أبي جهل، وسرية حمزة كانت بعد ودّان بقليل، وقد ذكر ابن حجر في فتح الباري مجديَّ بن عمرو في سرية حمزة بن عبد المطّلب، ولم يذكر مخشيّ ابن عمرو الضمري، لا في ودّان ولا في غيرها، وهذا مخالف لما يشبه الاتفاق على ذكره في ودّان، وأنه هو الذي وادع النبي ﷺ عن قومه بني ضمرة، وكتب النبي ﷺ لهم بهذه الموادعة كتاباً كما قدمناه عن السهيلي، وكما ذكر بعض فِقَره ابن سعد في الطبقات، فلعلّ في نسخة الفتح غلطاً مطبعياً في ذكر مجدي في غزوة ودّان، أو نقول في الاعتذار عن الحافظ ابن حجر: جلّ من لا يسهو.

وقد ذكر البخاري في الصحيح هذه الغزوة - وهي أولى غـزوات

النبي ﷺ - باسم (الأبواء) نقلاً عن ابن إسحق، فقال تحت ترجمة كتاب المغازي باب غزوة العشيرة، أو العسيرة - قال ابن إسحق: أول ما غزا النبي ﷺ (الأبواء) ثم (بواط) ثم (العُشَيرة).

تحقيق في وحدة غزوة ودّان والابواء زمناً

وابن إسحاق ذكر هذه الغزوة في سيرته باسم (ودّان) وقال: إنها غزوة (الأبواء)، فظنّ ابن حجر أنه قد يتوهم أن بين ما نقله البخاري عن ابن إسحاق، وبين ما وقع في سيرة ابن إسحق اختلافاً، فقال في رفع هذا التوهم - الذي لا وجود له - : ليس بين ما وقع في السيرة، وبين ما نقله البخاري عن ابن إسحق اختلاف، لأن (الأبواء) و(ودّان) مكانان متقاربان، بينهما ستة أميال أو ثمانية، ثم قال ابن حجر بعد ذكره ما وقع في حديث الصّعْب، بن جثّامة: وهو بالأبواء أو بودان: ووقع في مغازي الأموي: حدثني أبي عن ابن إسحق، قال: خرج النبي ﷺ غازياً بنفسه حتى انتهى إلى ودّان، وهي الأبواء.

وكان يكفي الحافظ ابن حجر أن يسوق في دفع توهّم الاختلاف بين ما وقع في سيرة ابن إسحاق، وبين ما نقله البخاري عن ابن إسحق عبارته في السيرة فهي واضحة الصراحة في إفادة أن الأبواء وودّان غزوة واحدة ولا دخل لقرب المكانين، ولا وجه لسَوْق عبارة الأموي في مغازيه، عن أبيه، عن ابن إسحاق، وإطراح أصلها في سيرة ابن إسحاق، وقد أوضح ابن هشام في تهذيبه سيرة ابن إسحق، وهو الكتاب المتداول بين العلماء من السيرة فقال: غزوة ودّان، وهي أول غزواته عليه السلام، ثم يقول ابن هشام تحت هذا العنوان: قال ابن إسحق: حتى بلغ ودّان، وهي غزوة الأبواء. قال ابن إسحق ثم غزا - أي رسول الله ﷺ - في شهر ربيع الأول، يريد قريشاً أيضاً - أي عيرها - حتى بلغ (بواط) من ناحية رضوى، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيداً.

سياق ابن سعد لغزوة بواط أحسن وأفيد من سياق ابن إسحاق

وقد أوجز ابن إسحاق الكلام جداً في غزوة (بواط) إيجازاً ضامها، وأخلّ بما كان فيها من أحداث وإعداد، وسياق ابن سعد لها في طبقاته أفيح عرضاً، وأروَى غُلّة، وأفيد معنى، قال: ثم غزوة رسول الله ﷺ (بواط) في

شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من مهاجره، وحمل لواءه سعد ابن أبي وقاص - وكان لواءً أبيض - واستخلف على المدينة سعد بن معاذ، وخرج في مائتين من أصحابه، يعترض لعير قريش، فيها أمية بن خلف الجمحي ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ (بواط) وهي جبال من جبال جهينة من ناحية رَضْوَى وهي قريب من ذي خشب مما يلي طريق الشام، وبين (بواط) والمدينة نحو من أربعة بُرُد، فلم يلقَ رسول الله ﷺ كيداً فرجع إلى المدينة.

تحقيق القول في غزوة العشيرة وما وقع فيها من حوادث وموادعة

ثم كانت غزوة (العُشَيرة) وهذا - الضبط - هو المقدم في ترجمة البخاري لها في صحيحه، وهو قول قتادة، وجعله ابن حجر مما لا اختلاف فيه عند أهل المغازي، فقال في (الفتح): وأما العشيرة فلم يختلف على أهل المغازي أنها بالمعجمة والتصغير وآخرها هاء، وقد سماها ابن سعد في الطبقات - وهو من أئمة أهل المغازي - (ذا العشيرة) وقد كثر الخلاف في ضبطها وهو قليل الفائدة.

خرج إليها رسول الله ﷺ في جمادي الأولى، وهو قول ابن إسحق وابن حزم وغيرهما، وقيل في جمادي الآخرة، وإليه ذهب ابن سعد، على رأس ستة عشر شهراً من مهاجره في مائة وخمسين رجلاً، وقيل في مائتين، وحمل اللواء فيها حمزة بن عبد المطلب يريد عير قريش وهي صادرة من مكة إلى الشام بالتجارة، وكانت أعظم عير لقريش، جمعت فيها أموالها، التي بلغت نحو خمسين ألف دينار وألف بعير، فخرج إليها رسول الله ﷺ ليغنمها، فوجدها قد مضت قبل خروجه إليها بأيام، وهذه العير هي العير التي خرج إليها حين رجعت من الشام، فكانت بسببها وقعة بدر الكبرى.

قال ابن إسحاق ونقله عنه ابن كثير: فسلك - ﷺ - على نقب بني دينار، ثم على فيفاء الخيار، فنزل تحت شجرة في بطحاء ابن أزهر، يقال لها ذات الساق، فصلّى عندها، فثَمّ مسجده، فصُنع له طعام عندها، فأكل منه، وأكل معه الناس، فرسوم أثافيّ البرمة معلوم هناك، واستسقي له من ماء يقال له (المثيرب) ثم ارتحل، وفي هذه الغزوة وادع ﷺ بني مدلج

وحلفاءهم من بني ضَمْرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً.

وهذه الموادعة التي كانت في غزوة (العُشيرة) غير الموادعة التي كانت في غزوة (ودّان) وهي التي عاقد فيها على قومه ضمرة مخشي بن عمرو الضمري، وكان سيدهم إذ ذاك، لأن تلك الموادعة التي كانت في (ودّان) كانت مع فريق من بني ضمرة، لم تكن لهم محالفة مع بني مدلج، وهذه التي كانت في (العشيرة) كانت مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة، فموادعة (ودّان) كانت مع قوم من بني ضمرة لم تتكرر معهم موادعة في (العشيرة) وموادعة العشيرة كانت أصلاً مع بني مدلج وانضم إليهم فريق من بني ضمرة كانوا حلفاء لبني مدلج، لم تعقد معهم موادعة في (ودان).

ولعل هذه التوجيه لتكرر ذكر بني ضمرة في موادعة (ودّان) وهي التي عقدها عنهم رئيسهم مخشيّ بن عمرو الضمري، وفي موادعة (العشيرة) مع حلفائهم بني مدلج أولى من توجيه الزرقاني في شرح المواهب، من أن موادعة حلفاء بني مدلج من بني ضمرة تأكيد لموادعتهم في (ودّان) ويشير إلى هذه الأوليّة في التوجيه قول الزرقاني في آخر عبارته: أو أن حلفاء بني مدلج كانوا خارجين من بني ضمرة لأمر ما، وبسببه حالفوا بني مدلج، وكان ابتداء صلح لبني مدلج.

وذكر الواقدي أن هذه السفرات الثلاث: (ودّان) وهي الأبواء و(بواط) و(العشيرة) كان يخرج فيها ﷺ لتلقّي تجار قريش حين يمرون إلى الشام ذهاباً وإياباً.

وتعبير الواقدي عن هذه الغزوات التي خرج فيها النبي ﷺ بنفسه الكريمة بلفظ (السفرات) من أحسن وألطف ما يعبر به عن كل خرجة لم يقصد فيها إلى القتال.

وأول آية نزلت في الإذن بالقتال قول الله تعالى: ﴿أذِن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق

أول ما نزل من القرآن في الإذن للمجتمع المسلم بالقتال لدفع العدوان

إلا أن يقولوا ربنا الله﴾[1] قال أبو حيان في (البحر): والمأذون فيه محذوف، أي في القتال، لدلالة يقاتلون عليه، وعلّل للإذن بأنهم ظُلموا، كانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مشجوج ومضروب، فيقول لهم: «اصبروا، فإني لم أومر بالقتال» حتى هاجر، وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نُهي عنه في نيِّف وسبعين آية، وكون هذه الآية أول آية نزلت في الإذن بالقتال هو قول عائشة رضي الله عنها، كما أخرجه النَّسائي بإسناد صحيح من طريق الزهري موقوفاً عليها رضي الله عنها.

ويقول أبو حيان: رُوي أن المؤمنين لما كثروا بمكة، وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار، ويحتال ويغدر، فنزلت ـ أي آية المدافعة عن المؤمنين ـ وعد الله فيها بالمدافعة، ونهى عن الخيانة وخص المؤمنين بالدفع عنهم، والنصرة لهم، وعلَّل ذلك بأنه لا يحب أعداءهم الخائنين الله ورسوله، الكافرين نعمه.

ومما ينبغي ملاحظته أن الغزوات الثلاث، أوالسفرات الثلاث الأولى التي بدأ بها الجهاد، وخرج فيها النبي ﷺ بنفسه الكريمة ليلقى عير قريش كان جنودها كلهم من المهاجرين الذين نزلت فيهم آية الإذن بالقتال لدفع العدوان والظلم، والذين أخرجهم المشركون من ديارهم بمكة ظلماً وعَدْوا، ولم يكن لهم قط جريرة عند أولئك الطغاة سوى أنهم خلعوا الشرك وآمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، جاءهم بالحق من عند الله فعرفوه واتبعوه.

وكذلك البعوث والسرايا التي عقد ألويتها رسول الله ﷺ لبعض أصحابه لم يُبْعث فيها أحد من الأنصار حتى غزا رسول الله ﷺ بأصحابه من المهاجرين والأنصار بدراً، بعد أن عرف أنّ قريشاً تجمعت له ولمجتمعه وجاءته بخيلائها وفخرها مشمِّرة للقتال بكل ما تملك من عتو وفجور وقوة مادية، ومن ثم كانت وقعة بدر العظمى.

---

(١) سورة الحج آيتا (٣٩، ٤٠).

مَشارق أنوار النّصر

من آفاق بدر

منهج نبوي ومجتمع مسلم

بدر، ما بدر، وما أدراك ما بدر! بدر هي الفتح الأعظم الذي أعزّ الله به الإسلام والمسلمين، وهي النصر المؤزّر الذي توّج الله به جبين نبيِّه محمد ﷺ ليمسح بمناديل لطفه ومحبته عن جبينه الأطهر المطهَّر لآلىء العرق التي طالما تندَّى بها هذا الجبين الأزهر، لتزيِّن وجهه الأنور بحلى الكفاح النضالي في سبيل أسمى غاية عرفها الوجود، وأرفع مقصد مشى إليه أسعد وأشرف موجود، ذلك هو إعلاء كلمة الله، وتبليغ أعظم رسالة تنزّل بها وحي السماء على أكمل نبي، وأشرف رسول.

يوم بدر هو يوم الفرقان الأعظم، يوم التقى الجمعان: جمع المجتمع المسلم ـ في رسوخ يقينه، وقوة إيمانه، وسواء وحدته مع قلة عدده، وضآلة عُدَّته المادية القتالية ـ وجمع الفجور الظلوم، والكفر الغشوم، في غروره وكثرة عدده ووفرة عُدّته المادية القتالية، التقيا على غير ميعاد سوى ما خطّه قلم القدر في لوح الغيب بمداد السر الأعظم والنصر الأعصم لمجتمع القلة المسلمة على مجتمع الكثرة الكافرة.

يوم بدر هو يوم الفيصل بين حياة وحياة في تاريخ البشرية منذ عرف هذا التاريخ الحياة، ومنذ أن عرفته الحياة، يوم علت فيه كلمة الله ـ وهي العليا ـ وتسفّلت فيه كلمة الكفر ـ وهي السفلى ـ يوم فتح الله به للحق وأهله أبواب الكرامة والعزة، فكرُم الحق على أهله وعزّ، وكرموا به وعزّوا، وفتح الله به للباطل وأهله سراديب الهاوية فاندحر واندحروا، وارتفع الحق شامخاً، وتسامى إلى الآفاق مضيئاً مشرقاً، واندحر الباطل منكوساً منحوساً يهوي إلى وادي الفناء ذليلاً محسوراً.

يوم بدر، يوم وقفت فيه عجلة حياة مرذولة خبيثة، وتحركت فيه مسيرة حياة إنسانية فاضلة كريمة تحمل إلى الدنيا إيماناً وهدى، وعدلاً ومحبة وإخاء متواسياً.

يوم بدر كان مشرقاً لنور الهدى والحق ومهوى لظلم الفجور وعتو الكفر العنيد

يوم بدر، يوم ارتدت فيه على أعقابها حياة ضالّة مضلّة، فاسدة مفسدة، شرِّيرة فاجرة، لم يكن للحق والخير فيها وجود على الأرض، بل كان الباطل والشر بأفانينها يملآن أفنيتها، والظلم الطاغي يغطّي بظلماته الحالكة آفاقها، والشرك في أحطِّ صوره، وألأم أشكاله، وأقبح مناظره دينها ومتعبدها، وكانت الوثنية الفَجُور متقلّبها ومثواها، والدّعارة العارمة في تسفُّلها مراحها ومغداها، وسفك الدماء البشرية وِرْدَها لري ظمئها، وقبائح السلوكية في منتدياتها هزج ترنيماتها، وصب البلايا والمحن على المعتصمين بالحق والخير مشارق آفاقها ومطالع أيامها، والتدسيس المتلصص سُرى لياليها، والفوضى الاجتماعية شريعتها، وبخع القوي للضعيف دستورها، والنهب والسلب والاغتصاب للأموال والأعراض والنفوس قانونها وديدنها.

ليس فيها من يأمن على نفسه وحياته إلا من كان سيفه ضجيعه في خدر بيته، فهي حياة ممسوحة التفكير بائرة التدبير، فاقدة عواصم التعقل، لا تعرف علماً إلا ما يعرف الجهول من الجهل، ولا تحسّ أمناً إلا ما يحسه المفزَّع المروَّع وقد فاجأته الكارثة، ولا تذوق طعم الاستقرار إلا كما يذوق مرارة الحنظل الصديان، يتوهمه الماء.

مُنى هائمة في متاهات لا حدود لها، نهارها إغارات ونهب، وليلها غطيط منكر في أحلام الفجور، وصحوها جزيزة ونومها مأرزة، أناسيّها أشباح في تقويم بشري، هي صورة الرد إلى أسفل سافلين.

معالم الحياة قبل بدر كفر عتيّ وظلم عات.

هذه هي معالم الحياة التي كانت تعيشها الأرض بمن فيها وما فيها قبل أن يبزغ في أفقها بَدْرُ يوم بدر، وقد كانت لمعات النور التي تظهر هنا وهناك على ألسنة المصطفين من رسل الله بؤراً من الإشعاع الذي يحاول أن يبدِّد الظلام المتكاثف على الأرض، فتصحو على إشراقات ضوئه الأحياء صحوة المدنف المخمور، لا يكاد يهمّ ناهضاً حتى يقعده ثقل تكاثف الحوالك من حوله.

وما ظنُّك بحياة لبث فيها أول المصطفين لرسالات الله وهديها ألف

سنة إلا خمسين عاماً، يدعو فيها قومه للهدى ودين الحق ليلاً ونهاراً، سراً وإعلاناً ـ وقومه هم أشباح البشرية في دنيا الناس ـ فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً، وكانت النهاية ما سجله الله في القرآن الحكيم، إعلاماً لنا بما كانت عليه الحياة فقال: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾.

لم يغب عنا أنه كانت هناك لمعات من التفكير الإنساني مرت بها الحياة في صور متفلسفة استغلقت أرتجتها، فكانت حبساً على عقول أصحابها، وكانت وبالاً على عقول العامة الذين لم يعرفوا منها إلا جمجمة خرساء، لم تُقِم من أود الحياة شيئاً مما اعوج منها، ومرت الحياة على عوجها تكبو وتكبو فتنيمها الكبوة أجيالاً طوالاً في نوم عميق، وتوقظها لوامع الرسالات الإلَهية بهديها فتهمّ من كبوتها، ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾.

كان يوم بدر ميلاد عقل جديد لحياة مشرقة بالهدى والنور والقضاء على حياة الإلحاد والفجور.

حتى إذا استوت قائمات العقول على سوقها، ونهضت الأفكار من قماطات مهادها جاءتها رسالة (الازعاج) من رقدة الجهالة المميتة لتبعث فيها روح الحيوية المدركة لنوامِيس الهداية الإلَهية.

ومن ثَمّ كان ميلاد الحياة الجديدة في صورتها المشرقة بالهداية والخير، وخرجت إلى الناس تحبو على رمال مكة، وهي تحمل إليها وإلى الكون كله رسالة النور والخلود، بما فيها من معالم الإيمان بالله إلهاً واحداً، وخلع جلابيب الوثنيات والشرك بجميع صورها وأشكالها، وإخلاص العبادة لله وحده، فأبت مكة بلسان طواغيت ملئها من فجار الوثنية أن تستضيف هذا الخير والنور والهدى في بطحائها، لأن طواغيت ملئها كانوا هم الوريث الأكبر لتراث الوثنية الجاهليّة الجاهلة، وهذه الجاهليّة الجاهلة كانت هي الشهادة التي لا تردّ أمام سدّة قضاء الشرك الغبيّ والفجور الوثني العتيّ، فنهضوا يد فعون عن هذا التراث الوثني الملحد في طغيان فاجر، واستكبار عنيد.

صبر طلائع الإيمان كان قوّة قاهرة للكفر الوثني والشرك الغبي.

واقترفوا مع طلائع الإيمان كلَّ ما سوله لهم الشيطان من فوادح البلاء، فصبر المؤمنون على قسوة البلاء، واحتسبوا في سبيل إيمانهم رضاء الله تعالى، حتى إذا يئس الفجّار من أن ينال البلاء والتعذيب من قوة إيمان أولئك الصفوة من طلائع السابقين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم بغير ذنب أو جريرة اقترفوها سوى أنهم أبوا أن يكونوا أحمرة وثنية يعيشون في حمأة الشرك

الكفور، فهاجروا إلى المدينة المنوّرة تاركين وراء ظهورهم السبد واللبد، وهناك في المدينة وجّههم إلى المؤاخاة الفردية مع إخوانهم الأنصار، مؤاخاة قامت دعائمها على الحب في الله، والحب لله، ذلك الحب الذي سما وتسامى فكان إيثاراً لم تعرف البشرية له مثيلاً في علاقات الأفراد والجماعات، ثم عقد بينهم مجتمعين ومن تبعهم في الإيمان ولحق بهم في الهجرة مؤاخاة التكافل الاجتماعي التي جعلت عناصر رَكَّب منها رسول الله ﷺ مجتمعه المسلم تركيباً اجتماعياً تكافلياً كان هو القوة الوحيدة للمجتمع المسلم في مواقفة المجتمعات الضالّة المعادية له.

موقف المجتمع المسلم بعد الهجرة وعقد المؤاخاة التكافلية.

ونهض رسول الله ﷺ بعد أن وثّق وشائج مجتمعه المسلم على أساس المؤاخاة التكافلية التي أمر بتسجيلها في كتاب كان دستور هذه المؤاخاة، ليقف بمجتمعه المسلم المتآخي في وجه طواغيت الشرك وفجّار الوثنية أينما كانوا ليردهم عن فجورهم وطغيانهم، ويدخلهم في حظيرة الإيمان توحيداً للإنسانية بالإيمان كما وحَّدها الله تعالى في نشأتها الرّحميّة، وبدأ ﷺ بالذين عالنوه الحرب، وألّبوا على مجتمعه المسلم وجمّعوا له الجموع، وحرضوا على حربه من يداخله بالمساكنة في بلده، وهم اليهود أهل الغدر وخيانة العهود، ومن ورائهم ربائبهم المنافقون.

وكان ملأ طواغيت مكة بقيادة فاسقهم أبي جهل بن هشام وأمثاله يخرجون في عيراتهم وقوافلهم تجاراً إلى الشام مارِّين على المدينة المنورة، عاصمة المجتمع المسلم ومستقر رسول الله ﷺ في تحدٍّ وصَلَف وغرور، لا يقيمون لحرمة المجتمع المسلم في بلده وزناً، ولا يبالون أن يدوسوا حرمة مدينته بمرور عيراتهم وقوافل تجاراتهم على طريقها وهم آمنون.

بهذا المنهج الرباني نهض النبي ﷺ يقود مجتمعه المسلم في مسيرة دعوته ورد اعتداء أعدائه عليه.

ولكن المجتمع المسلم بقيادة النبي ﷺ نهض إليهم منذراً، معذراً، معلناً عن وجوده في حياته الجديدة وقوته الموحدة ليشعرهم أنهم أمام قوة جديدة، لم يكونوا يرونها بالأمس في مكة وهم يصبّون شآبيب البلاء والتعذيب على طلائع السابقين من المؤمنين، وليُعْلِمُوهم أن ما كان بالأمس في القرية الظالم أهلها قد مضى ولن يعود، وأنهم سيكال لهم بكيلهم الصاع آصعاً، والضربة ضربات، والطعنة طعنات.

ونهض رسول الله ﷺ يترصد تجارتهم، ويعرض لعيرهم وهي قادمة من مكة في طريقها إلى الشام، وندب معه في هذا النهوض بعض أصحابه من المهاجرين خاصة، ليمنعهم من المرور على مدينته في طريق ذهابهم وإيابهم، وليسترد منهم ما نهبوه من أموال أصحابه في مكة بالقوة والقهر، وليغنم ما جمعوه في تجاراتهم إضعافاً لشوكتهم، وردعاً لغرورهم، وإرغاماً لأنفتهم، واستكبارهم، وليردّ عملياً على ما صنعوه مع صاحبه سيد الأنصار، سعد بن معاذ من منعه الطواف بالبيت وقد ذهب ليعتمر بُعَيد مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فرآه الفاسق أبو جهل يمشي مع أمية ابن خلف ـ وكان أمية صديقاً لسعد ـ فهدّده الفاسق بعد أن سأل عنه أمية فعرّفه به، وقال له: لولا أنك مع أبي صفوان لما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد في جهارة القوة التي لا تعرف الخنوع: لئن منعتني هذا لأمنعنّك ما هو أشد عليك منه، طريقك إلى متجرك

وإنما استصفى رسول الله ﷺ في الخروج معه في غزواته الثلاث الأولى بعض المهاجرين خاصة، لأن المهاجرين هم الذين كانوا موضع اضطهاد الظالمين في مكة، وكانوا هم المنهوبة أموالهم، المخرجين من ديارهم. وهذه المناوشات كانت لا تتطلب استيعاب المجتمع المسلم، ولكنها كانت أشفى لقلوب المظلومين من الظالمين، وأزأر لهم على ملاقاتهم فيما ينتظرهم من وقائع فاصلة في مستقبل سير الدعوة وتبليغ الرسالة.

حتى إذا ركب طواغيت ملأ قريش صهوات الشياطين، وتجمّعوا وجمّعوا فأوعبوا لمحاربة المجتمع المسلم في حرب استئصال لا هوادة فيها، في إثر غزوة (العُشَيرة) بقيادة فاسقهم غميز الرجولية، لعين السماء والأرض أبي جهل بن هشام، أعدى أعداء المجتمع المسلم وأحقد الحاقدين على رسول النور والهدى محمد ﷺ.

غزوة العشيرة كانت أكبر الغزوات التي وقعت بغير قتال

وغزوة (العُشَيرة) كانت أكبر الخَرْجات المُسْلِمة التمهيدية لملاقاة عير قريش وقافلة تجارتهم وهي غادية رائحة، ذاهبة من مكة وآيبة إليها من الشام، مارِّين بطريق المدينة المنوّرة، مستقر المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديد، وهذه الغزوة كانت الشرارة الأولى في إشعال نار الحرب

في (بدر) العظمى، وكانت (العُشَيرة) ـ كما يقول صاحب عيون الأثر نقلاً عن ابن اسحاق ـ في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة، لكن صاحب (العيون) يقول: إن ابن سعد يخالف ابن إسحاق فيذكر أنها كانت في شهر جمادى الآخرة، على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة، وهذا خلاف مقارب، لاحتمال أنها بدأت في آخر جمادى الأولى، ودخلت في جمادى الآخرة، فأخذ ابن إسحاق بمبدئها، وأخذ ابن سعد بنهايتها، غير أن عبارة ابن سعد أدق في التحديد من عبارة ابن إسحاق، وكان لواء هذه الغزوة في يد أسد الله وأسد رسوله، سيّد فتيان قريش حمزة بن عبد المطّلب، وكان عدد جنودها خمسين ومائة جندي من أبطال الإسلام السابقين الأوّلين، وقيل كانوا مائتين، وسائرهم من قريش من المهاجرين، ولم يُكره رسولُ الله ﷺ أحداً على الخروج فيها، بل ندب المهاجرين للخروج إليها فانتدبوا، وكانوا على ثلاثين بعير يعتقبونها.

وكان الخروج إليها لملاقاة عير قريش وهي قادمة من مكة صاعدة إلى الشام، إذ جاءه ﷺ الخبر بقدومها، وفيها أموال قريش ممزوجة بدماء المسلمين وأموالهم التي نهبها طغاة قريش منهم بمكة، فوجد ﷺ هذه العير قد مضت قبل ذلك بأيام، وهذه العير هي التي خرج ﷺ إليها وهي عائدة من الشام بمن كان معه من المهاجرين، فكانت بسببها وقعة (بدر) الكبرى التي نصر الله فيها المجتمع المسلم نصراً تردَّدت أصداؤه في آفاق الجزيرة العربية كلِّها، وأُدخل الرعب في كل قلب كانت تملؤه الوثنية ويستحوذ عليه الشرك.

وكان قائد عير قريش أبا سفيان بن حرب، وقد أتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ بعودة هذه العير محملة بالأموال من الشام، فقال لأصحابه: «هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله ينفلكموها» فخرج من خرج معه على غير أهبة للقتال، وثقل عن الخروج كثير منهم، لأنهم لم يكونوا يظنُّون أن رسول الله ﷺ يلقى قتالاً في خَرْجته هذه كما لم يلق كيداً في خرجاته التي سبقتها.

كان هدف المجتمع المسلم في خرجاته إزالة العوائق من طريق دعوته

وفي هذا الموقف من المجتمع المسلم دلالة واضحة على أن هذا المجتمع الذي كان طليعة لتربية المنهج النبوي، لم يكن يستهدف المال والثراء من وراء جهاده، ولكنه كان يعمل جاهداً على إزالة المعوّقات من طريق

مسيرة الرسالة ليفتح الطريق أمام نشر نورها.

فإذا أغنت هذه التعرضات المحذِّرة في رد غرور الطغاة من أحلاس الشرك وعبيد الوثنية، وأرغمت معاطسهم، وأصبح الطريق ممهَّداً أمام سير الدعوة وتبليغ الرسالة لم تكن هناك حاجة للقتال.

أما إذا لم تُغْنِ النُّذُر المحذِّرة في هذه التعرّضات التي تستهدف إشعار القيادة المشتركة بقوة المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديد، في مستقره الأمين، فلا مناص من المواقفة للقتال مهما كانت كثرة عدد الطغاة وعدتهم، ومهما كانت قلّة عدد جند المجتمع المسلم وعدته المادية، لأن هذا المجتمع إنما يقاتل إذا قوتل دفاعاً عن كيانه وإعلاءً لكلمة الله، إيماناً بموعود الله وهو حينئذ لا يبالي - إذا خاض غمرات الحرب في سبيل مقصده وغايته من نشر دعوته، دعوة التوحيد والهدى والعدل والإخاء المتواسي - أكان النصر له في قتاله أم كانت الشهادة طريقه إلى النعيم المقيم في جنات الخلد.

ومن ثَمَّ كان رسول الله ﷺ هو القائد لجنوده في هذه الخرجة ليلاً في عير قريش وهي آيبة من الشام محمّلة بأرباح تجاراتهم، ليستنقذ من أيدي الطغاة ما نهبوه من أموال المهاجرين وما غصبوه من دورهم بمكة.

وخرج رسول الله ﷺ بمن خفَّ معه للخروج من المهاجرين والأنصار، وقد كانت هذه العير أعظم عيرات قريش، فكان فيها ألف بعير تحمل الأموال التي قدَّروا قيمتها بثلاثين ألفاً، وقيل بخمسين ألفاً.

وقائد هذه العير أبو سفيان بن حرب كان رجلاً داهية حذراً، لا يغيب عن دهيه أن طريقه على المدينة المنوّرة مستقر المجتمع المسلم مليء بالأشواك والأكمان والترصّدات المتعرضة لعيره.

هرب أبي سفيان إلى المساحلة لينجو بقافلته

وهو قد عرف ما كان قبل عيره من تعرض المجتمع المسلم لقوافل كانت سبقته ولم تكن في عِظَم وحجم قافلته، فجعل كلما ازداد قرباً من الحجاز ازداد خوفه فيتجسس الحركات ويتنطَّس الأخبار ممن يلقَى من الركبان، خوفاً على ما تحت إمرته وحمايته من أموال قريش، حتى أصاب خبراً من بعض من لقي من الركبان أن محمداً ﷺ قد استنفر أصحابه لعيره،

فعدل عن طريقه، وساحل بقافلته لينجو، وكان قد أرسل إلى قريش يستنفرهم لحماية أموالهم، ويخبرهم أن محمداً ـ ﷺ ـ عرض لها في أصحابه.

وكان رسول أبي سفيان إلى قريش يستنفرهم لحماية أموالهم ضمضم ابن عمرو الغفاري، الذي طار إلى قريش بمكة حتى وصل إلى بطن وادٍ بها فصرخ: يا معشر قريش، اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد ﷺ في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث. فتجهّز الناس سراعاً، وأوعبوا، فكانوا بين رجلين، إما خارج بنفسه في النفير، متأهباً للحرب أتمّ أهبة، وإما باعث مكانه رجلاً. ولم يتخلّف من أشراف قريش وطغاتها وقادتها ورؤوسها أحد إلا أبا لهب الذي استأجر العاص بن هشام بن المغيرة أخا أبي جهل بأربعة آلاف درهم، كانت ديناً له عليه، أفلس له بها، وهكذا خرجت قريش على أتم أهبتها وقوة فجور كفرها وعتوّ شركها ووثنيتها وغرور قادتها، لا تريد إنجاء اللطيمة واستنقاذ أموالها، ولكنها خرجت على الصَّعْب والذَّلول تريد محمداً ـ ﷺ ـ ومجتمعه في المدينة في لقاء ساعة تقضي فيها على هذا المجتمع المسلم الذيُ أشجاها غيظاً، وأغصّها حقداً، وشوى أكبادها، لتقضي على دعوته التي قوّضت شوامخ شركها ووثنيتها، وراح يتعرض لتجارتها ليذيقها مرارة الفقر والمذلة، ولتوقف هذا التيار الجارف لهذه الرسالة المصلِحة التي جاء بها محمد ﷺ هدى ونوراً، ليتحقق الإخاء الإنساني والعدل الاجتماعي المساوي بين بلال الحبشي وسيد البطحاء أبي سفيان بن حرب، بل المواسي كل مسلم بما يملك كل مسلم.

تلك الرسالة التي خرجت من القرية الظالم أهلها لتنشر لواءها خفّاقاً على آفاق الأرض، ولتسمع صوتها كل أذن في كل حي وقبيلة من أحياء وقبائل الجزيرة العربية بعد أن كانت حبيسة الطغيان والظلم المستكبر في الأرض.

خرجت قريش يسوقها الغرور الفاجر في ألف مقاتل مجهّزين بكل ما استطاعوا من عدّة للقتال، معهم المؤن، وأنواع السلاح، ووسائل الترف الداعر من الخمور والمغنِّيات وأدوات العزف والطرب، والمراكب من الخيل المطهّمة والإبل الهادرة، يتنفّسون بأواً وعتوّاً، ويتجشؤون فجوراً وكفراً، يقودهم غميز الرجولية الفاسق أبو جهل إلى حتوفهم وهم لا يشعرون.

خروج قريش متأهبة للقتال يسوقها فاسقها أبو جهل بالقهر والغرور

ولما رأى أمير عيرهم أبو سفيان صخر بن حرب أنه أحرز قافلته ونجا بها حين ساحل وترك طريق السابلة أرسل إلى قريش وراء ضمضم الغفاري الذي أرسله لينهضهم لإدراك عيرهم وهي تحمل أموالهم عائدة من الشام بأرباح تجاراتهم، وكانت مهمة رسوله الثاني إلى قريش أن يقول لهم: إنكم خرجتم متأهبين للحرب دفاعاً عن أموالكم وتجاراتكم، وها هي ذي قد نجاها الله وسلمت لكم، وهي في طريقها إليكم، فارجعوا إلى دياركم مطمئنين، ولما وصل هذا الخبر المسالم إلى قريش قام قائم فاسقهم أبي جهل، وقال لهم في تنفج وغرور أحمق واستكبار متغطرس، وفجور حاقد: والله لا نرجع حتى نرد بدراً - وكانت بدر موسماً من أكبر مواسم تجمعات العرب - فنقيم عليه ثلاثاً، ننحر الجزر، ونُطْعَم الطعام، ونُسقَى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا.

وكانت قريش مع فاسقها كالجمل المخشوش، يقودها بزمام النعرة الفاجرة الحمقاء، فاستخفَّهم فأطاعوه ومضَوا وراءه ذللًا أذلّاء، لا يملكون معه إرادة ولا يستطيعون لقوله ردّاً.

مخالفة الأخنس وبني زهرة تحريض أبي جهل.

وكان في ملأ طغاة قريش الأخنس بن شَريق بن عمرو الثقفي، وكان حليفاً لبني زُهْرة، ساد فيهم وتولّى قيادهم مطاعاً منهم، فقال لبني زهرة: قد نجّى الله لكم أموالكم، وخلّص لكم صاحبكم - يعني مخرمة بن نوفل الزهري الذي كان في رجالات العير مع أبي سفيان - وإنما نفرتم لتمنعوه وأموالكم معه، فاجعلوا بي جبنها، وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضَيْعة، لا ما يقول هذا - يعني أبا جهل - في تحريضه قريشاً على الخروج بَطَراً ورئاء الناس، كما وصفهم الله تعالى ناهياً للمجتمع المسلم أن يكون على طريقتهم في الفجور وضلال العناد فقال: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس، ويصدُّون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط﴾[1] فسمع الزهريون للأخنس ورجعوا معه، فلم يشهد بدراً مع ملأ الكفر وجنود إبليس زهري، وكانت قريش قد أوعبت في نفيرها لقتال المجتمع المسلم سائر بطونها وبيوتاتها، فخرجوا قضُّهم بقضيضهم إلّا

(١) سورة الأنفال آية (٤٧).

ما كان من بني عدي، فلم يخرج معهم أحد، وكانوا كبني زهرة، فلم يشهد بدراً أحد من الزهريين والعدوِّيين، وهو مشرك كفور.

ومضت قريش في كفرها وصلفها وتغرير فاسقها أبي جهل بها على تعبية الأهبة للقتال حتى نزلت بالعُدْوة القُصوى بين بدر والكثيب إلى جهة مكة مقدمهم، ونزل جند المجتمع المسلم بالعدوة الدنيا، إلى جهة المدينة، وفي هذا نزل قول الله تعالى مخاطباً المؤمنين من جند الإيمان، وأبطال الإسلام بقيادة رسول الله ﷺ، مصوراً حالهم وحال فجار الشرك وأحلاس الوثنية بزعامة فاسقهم غميز الرجولية أبي جهل بن هشام: ﴿إذ أنتم بالعُدْوة الدنيا وهم بالعُدْوة القصوى والركب أسفل منكم﴾ والمراد بالركب الرجال الذين كانوا يقودون العير بزعامة أبي سفيان، والعُدْوة شط الوادي وشفيره وضفّته، والمدينة من الوادي موضع الوقعة في الشرق منه وبينهما مرحلتان، وفي كشّاف الزمخشري أن العير كانت وراء ظهر العدو، لتضاعف حميتهم وتزيد من شراستهم في القتال.

بعث قريش عمير ابن وهب ليحزر لهم عدد كتيبة الإسلام فرجع إليها محذراً من مواقفة جند الله

ولما نزلت جنود الشيطان من طغاة الكفر بالعُدْوة القصوى في أهبتها وحقدها بعثوا أحد شياطينهم عُمَير بن وهب الجمحي ليحزر لهم جند الله من أبطال المجتمع المسلم، فركب فرسه واستجال حول عسكر المسلمين ثم رجع إلى قريش، فقال لهم: القوم ثلاثمئة، يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أَلِلْقوم كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما رأيت شيئاً، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم مَنَعَةٌ ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل منهم رجل حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فَرُوا رأيكم - أي فكروا فيما تورطتم فيه من مأزق مأزوم.

بين حكيم بن حِزام وعتبة بن ربيعة

وكان في القوم من قريش حكيم بن حزام - وكان من أعقل رجالاتهم - فسمع كلام عمير، وهو يصك به آذان قريش، فتمثل الطامّة التي تنزل بقريش إذا هي ركبت ظهر الشيطان واتبعت الغرور الفاجر الذي يمشي به في الناس محرِّضاً غميزُ الرجولية الفاسق الملعّن أبو جهل، فأتى حكيمُ بن حزام

عتبة بن ربيعة، وهو من لا يفضله حكيم في عقله الجاهلي، فقال له: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها المطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ فقال عتبة: وما ذاك يا حكيم؟ قال حكيم: ترجع بالناس، وتحمل دية حليفك عمرو بن الحضرمي، قال عتبة قد فعلتُ، أنت عليّ بذلك، إنما هو حليفي فعليّ عَقْله، وما أصيب من ماله، فأتِ ابن الحنظلية ـ يعني أبا جهل، والحنظلية أمه ـ فإني لا أخشى أن يسجّر أمر الناس غيره.

عتبة يخطب الناس داعياً إلى السلام ومحذراً من الانقياد وراء أبي جهل الذي أفسد على الناس أمرهم

ثم قام عتبة خطيباً في جمهرة الساعين لحتوفهم بأظلافهم من طغاة قريش، فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقّوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلُّوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

قال حكيم بن حزام: فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل دروعاً يهنؤها، فقلت له: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال: انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه، فلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما يعنيه ـ أي عتبة ـ ما قال، ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه ـ أي أبو حذيفة بن عتبة، وكان من سُبّق الإيمان ـ فقد تخوَّفكم عليه.

ثم بعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي ليشعل ضرام الفتنة ويسعّر نار الحرب، ويفسد على الناس أمرهم، ويقطع الطريق على عتبة في مسعاه إلى السلام، فقال لعامر بن الحضرمي: هذا حليفك ـ يعني عتبة ـ يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيتَ ثأرك بعينك، قم فانشد خفرتك ومقتل أخيك، فقام عامر بن الحضرمي وتكشف عن سوأته، على عادة قبائح الجاهلية ورذائلها ثم صرخ واعمراه؟؟ واعمراه؟؟ فحقبت الحرب، وحقب أمر الناس، واستشرى الشر، وكشَّرت الحرب عن أنيابها، وأفسد الفاسق أبو جهل على الناس أمرهم وقطع الطريق على رأي عتبة الذي دعا إليه.

ولما بلغ عتبةَ قولُ أبي جهل في الحطِّ من شأنه والقدح فيه بقوله:

رمي عتبة أبا جهل بداهية الدواهي ووائدة الرجولية.

انتفخ والله سحره، يرميه بالجبن، قال: سيعلم مصفر استه من انتفخ سحره، أنا أم هو؟.

وكثير من الناس من أهل العلم يرون في هذه الكلمة التي أَبَن بها عتبة أبا جهل مصدر غمز رجولية هذا الفاسق اللعين، وقد صرح الزرقاني في شرح المواهب بما أبِن به أبو جهل من داهية الدواهي ولم يكنٍّ، وقد أخذ الله من هذا الفاسق فقتله في هذه الغزوة شر قتلة، وبوأه جهنم وبئس المصير.

حديث حكيم ابن حزام فيما كان من عتبة وأبي جهل بعد إسلامه.

وأخرج الطبري حديث حكيم بن حزام من طريق سعيد بن المسيِّب، قال: بينا نحن عند مروان بن الحكم إذ دخل صاحبه فقال: حكيم بن حزام يستأذن؟ فقال مروان: ائذن له، فلما دخل حكيم تلقّاه مروان مرحباً، واستدناه، فحال عن صدر المجلس حتى جلس بينه وبين الوسادة، ثم قال له: حدثنا حديث بدر، فقال حكيم: خرجنا حتى إذا كنا بالجحفة رجعت قبيلة من قبائل قريش بأسرها ـ يريد بني زهرة ـ رجعوا إطاعة للأخنس ابن شريق حليفهم ـ وقائدهم، وكان فيهم مسوَّداً مطاعاً ـ فلم يشهد بدراً أحد من مشركيهم، ثم خرجنا حتى نزلنا العدوة التي قال الله تعالى: ﴿ وهم بالعـدوة القصوى ﴾ فجئت عتبة بن ربيعة، فقلت: يا أبا الوليد، هل لك في أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟ قال عتبة: أفعل ماذا؟ قلت: إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي، وهو حليفك، فتحمَّل بديته ويرجع الناس، قال عتبة: أنت عليّ بذلك، واذهب إلى ابن الحنظلية، فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك؟ فجئته فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن خلفه وإذا ابن الحضرمي واقف على رأسه، وهو يقول: فسخت عقدي من عبد شمس وعقدي اليوم إلى بني مخزوم، قال حكيم: فقلت لأبي جهل: يقول لك عتبة بن ربيعة: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك؟ قال أبو جهل لحكيم منتقصاً له غامزاً لقناته، أما وجد ـ أي عتبة ـ رسولاً غيرك؟ قلت: لا، ولم أكن لأكون رسولاً لغيره، قال حكيم، فخرجت مبادراً إلى عتبة لئلا يفوتني من الحديث شيء، وعتبة متكىء على إيماء بن رَحْضة الغِفاري، فطلع أبو جهل والشرُّ في وجهه فقال لعتبة: انتفخ سحرك، فقال له عتبة: ستعلم، وحقب على الناس أمرهم، وفسد تدبيرهم

تجبيه أبي جهل حكيم ابن حزام على حمله رسالة عتبة إليه

وطلعت عليهم نُذُر الحرب مكفهرة مسعورة.

كذلك كان شأن فجرة الكفر في تفكيرهم المجنون، واستعدادهم المحموم لخوض حرب غير متكافئة في موازين القوى المادية بينهم وبين المجتمع المسلم الناشىء.

تعرّف رسول الله حال قريش في قوتها المادية بعد نجاة العير.

وكان رسول الله ﷺ قد أحاط علماً بأمرهم بعد أن فاتته عيرهم التي خرج لملاقاتها ومعه مَنْ نشط للخروج من أصحابه في غير أهبة لقتال، وكانت هذه العير أكبر عيراتهم، وأملأ قوافلهم بالمال والثراء، راجعة من الشام عن طريق المدينة مستقر المجتمع المسلم، ولكن أمير العير أبا سفيان حينما سمع بخروج رسول الله ﷺ لملاقاة العير عدل عن طريق السابلة مساحلاً ليتفادى ما تخوَّفه من تعرُّض رسول الله ﷺ لقافلته، وأرسل إلى قريش لتنهض بما في طاقتها من قوة لتحمي أموالها وقد تعرض لها محمد ـ ﷺ ـ في أصحابه، فهبَّت قريش رجالُها وشبابها موعبة لقبائلها بقيادة فاسقها أبي جهل في العدد والعدّة، يكنفها الغرور، ويسوقها الحقد على المجتمع المسلم.

وكانت عير قريش أكثر من ألف بعير يحرسها أربعون رجلاً من أبطال الكفر وفجور الشرك الوثني، وكان فيها خمسون ألف دينار، وكان قائدها ومدبّر حراستها أبو سفيان صخر بن حرب، وهو رجل دهيّ ماكر، عقول لأمور الدنيا والمال والتجارة، فكان كلما قرب من المدينة ازداد تحسسه وتخوفه على ما تحت يده من مسؤولية عن القافلة وما فيها من أموال الناس وثرواتهم، وكان يسأل كل من لقي من السابلة: هل أحسست شيئاً مريباً أو أحداً متربصاً، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان، أن محمداً ﷺ قد استنفر أصحابه لك وللعير معك، فحذر عند ذلك، وأخذ في طريق آخر لينجو بقافلته.

ولكن قريشاً كانت قد استجابت لرسالته المنذِّرة لهم ليهبُّوا لحماية أموالهم، ومنعها الغرورُ واستخفافُ فاسقها بها أن ترجع بعد أن أبلغها أبو سفيان أنه نجا بالقافلة، وساروا وهم يردِّدون: أيظن محمد وأصحابه أن تكون ـ أي هذه ـ العير كعير ابن الحضرمي؟ واللهِ ليعلمنَّ غير ذلك.

وقد علم رسول الله ﷺ وأصحابه بما أخفاه الغيب من حكمة التدبير الإلهي، ورُفعت الأغطية عن آفاق النصر المؤزر في منازل بدر، ومضى فجور

الكفر، وغرور العتو، وجبروت الطغيان يسوق المستكبرين في الأرض إلى القليب معفّرة وجوههم بالذل والهزيمة بين القتل والأسر، وعاد من عاد من غوغائهم منكّسي الرؤوس، مفزّعي القلوب، يكاد يقتلهم الرعب من فرط ما رأوا من الهول في المعركة وما سمع من لم يشهدها من أخبارها، ومن قُتل فيها من أشرافهم الذين لا خير يرجى في بقائهم كما تدل عليه قصة الحَيْسمان بن عبدالله الخزاعي الذي كان أول من وصل مكة بمصاب قريش، فقالوا له: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم ابن هشام، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومنبه، وأبو البختري ابن هشام، فلما جعل يعدد أشراف قريش قال صفوان بن أمية: والله إن يعقل هذا ـ وفي رواية: لن يعقل هذا ـ فاسألوه عني، فقالوا: ما فعل صفوان ابن أمية؟ فقال: هو ذاك جالسٌ في الحجر، قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

بلوغ أخبار النصر مكة ووقع الصدمة على من بقي بها من قريش

وفي سيرة موسى بن عقبة قال: لما وصل الخبر إلى أهل مكة وتحقّقوه قطعت النساء شعورهن، وعُقرت خيول كثيرة ورواحل.

وكان رسول الله ﷺ وأصحابه الذين خرجوا معه في قلة عددهم وعدم أهبتهم للقتال لأنهم لم يخرجوا يريدون قتالاً، قد خرجوا يريدون العير التي كانت فيها أموال طلائع الإسلام التي نهبتها قريش منهم وهم مستضعفون بمكة، والتي تركوها وراءهم يوم أن هاجروا إلى الله ورسوله ﷺ.

وقد سلك رسول الله ﷺ في خروجه بأصحابه من المدينة مارّين بالعقيق وذي الحُلَيفة حتى بلغوا سجسج، وهي بئر الروحاء المعروفة اليوم في طريق حاج المدينة، واتجه ذات اليمين يريد (بدراً) وسار حتى بلغ الصفراء، ومنها بعث بسبس بن عمرو الجهني، وعدي بن أبي الزغباء إلى بدر لتحسس الأخبار عن أبي سفيان وقافلته، فأتياه بالخبر عن قريش وحشودها ومسيرهم ليمنعوا عيرهم ويحموا أموالهم، ويهاجموا المجتمع المسلم في مستقره ومثواه.

عدم تكافؤ القوتين مادياً عدداً وعُدَّة

والمتأمل في أحداث هذه المواقف التي تمثّل قوة فجور الكفر العتيّ، وعتو الوثنية المادية، وشراسة الشرك الحقود في غروره المتجبر، وتأهبه لحرب ضروس، قد أعدّ لها الطغاة كل عدّة، واتخذوا لها كل أُهبة تدخل في دائرة استطاعتهم، وما يملكون من أموال وأسلحة وعتاد ورجال، ليستأصلوا

المجتمع المسلم ويوقفوا تيار دعوته الجارف، الذي سيكتسحهم لو بقي في مسيرته.

وتمثل قوة الخير والإيمان، والحق والنور، والهدى والعدل، والمحبة والإخاء، وصدق العزائم التي لا تهزها قعقعة سلاح الفجور والطغيان الوثني، وهو زاحف في سُعُر وسعار، وجنون مسعور - يرى قوتين لا تكافؤ بينهما في قوة الحرب المادية، بل لا تقارب بينهما في ذلك، فقوة فجور الشرك، وشراسة الوثنية الطاغية خرجت من مكة لحرب تقصدها وقد أعدّت لها فأوعبت في العدد والعدّة، وقوة الايمان والهدى، والنور والخير، خرجت من المدينة مسالمة في عدد قليل على غير استعداد وأهبة لقتال، لأنها لم تقصد في خَرْجتها إلى حرب وقتال، ولكنها خرجت محذّرة منذرة لأولئك الطغاة المتنفجون بقوتهم المادية في عددها وعدّتها، حتى يعلموا أن مستقر المجتمع المسلم لم يكن مكشوف الحصانة، يتواثبون بتجارتهم وقوافلهم وأموالهم على أرضه غادين رائحين، وأن ما سلبوه من أموال طلائع هذا المجتمع المسلم في مكة، لا بد أن يرجع إلى أصحابه، وأن طريق المدينة من مكة إلى الشام ومن الشام إلى مكة أصبح محرّماً عليهم إلا أن يؤمنوا بما كرهوا من الحق أو يستسلموا صغاراً وذلة.

فقوة المجتمع المسلم خرجت في عددها القليل على غير استعداد وتأهب لتعترض عير أبي سفيان التي جمعت أموال الطغاة من سفّاحي قريش وفيها أموال المسلمين التي نهبها أولئك الطغاة منهم وهم مستضعفون في مكة، والتي سلبوها منهم ثمناً للتخلية بينهم وبين الهجرة إلى إخوانهم الأنصار في مدينتهم التي صارت مستقر المجتمع المسلم الجديد، وعاصمة الاسلام وعالمه أينما كان من الوجود في أرض الله.

كان رسول الله ﷺ فوق مستوى القيادة العسكرية والسياسية.

وقد كان رسول الله ﷺ في قيادته لمجتمعه المسلم فوق مستوى القيادة العسكرية والسياسية، فلم يقحم جنده للهجوم دون خطة مدروسة، وهو يعلم قلة عددهم وضعف عدّتهم أمام ما عسى أن تكون قريش في صلفها وغرورها قد أعدَّته من أهبة الحرب في العدد والعدة.

فاتخذ ﷺ للأمر كفاءة من التدبير المحكم، والسياسة الحكيمة، واتجه بفكره أول ما اتجه إلى أن يتعرّف قوة عدوه في عددها وعدَّتها، فندب عدداً

من شجعان جنده، فيهم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد ابن أبي وقاص، فانتدبوا للقيام بما كُلِّفوه من الذهاب طليعة إلى (بدر) يلتمسون الخبر عن قريش ولفائفها، فلما وصلوا إلى ماء بدر أصابوا راوية لقريش، فيها أسلم غلام بني الحجاج وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد، فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ فوجدوه قائماً يصلّي، فسألوهما ليكشفوا ما عسى أن يكون عندهما من علم عن العير والنفير، فقال الغلامان: نحن سقاة بعثتنا قريش نسقيهم من الماء، فكره الصحابة خبرهما عن نفير قريش، وكانوا يرجون أن يكون الغلامان لأبي سفيان أمير العير، وعندهما خبر عنه وعن عيره، فضربوهما لينتزعوا منهما خبراً عن العير، حتى أزلقوهما، وعندئذ قال الغلامان تفادياً من الضرب: نحن لأبي سفيان، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه وسلم من صلاته، ثم التفت إلى أصحابه، فقال لهم: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله إنهما لِقَريش».

تعرّف أخبار الأعداء والوقوف على أحوالهم.

ثم استخبر رسول الله ﷺ الغلامين عن عدد قريش، فقال لهما: «أخبراني عن قريش» فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم عدد القوم؟» قالا: كثير، فقال رسول الله ﷺ «ما عدّتهم؟» قال الغلامان: لا ندري، فقال رسول الله ﷺ: «كم ينحرون كل يوم» فقال الغلامان: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف» ثم قال رسول الله ﷺ للغلامين: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» فقال الغلامان: عتبة ابن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وأبو البَخْتري بن هشام، وحكيم ابن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي ابن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية ابن خلف، ونبيه ومنبِّه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ودّ وهؤلاء هم الملأ من قريش، وهم شياطينها في جاهليتها، وأشرافها في بلدها، وذوو رأيها في أزماتها ومحنها؛ وأفلاذ كبدها، وشرايين حياتها ونبضات قلوبها.

تبشير رسول الله ﷺ أصحابه بالنصر.

وقد كان رسول الله ﷺ أعلم بهم وبمكانتهم في قومهم فسأل عنهم بعنوان أشراف قريش، وإنهم لكذلك، ولهذا التفت رسول الله ﷺ بعد

إخبار الغلامين بأسمائهم إلى أصحابه فقال لهم ليثبّت أقدامهم، ويزيدهم في معيّة الله لهم بالنصر، ويبشرهم بحسن العواقب، ويذهب عنهم رجز الشيطان ووساوسه لقلة عددهم وضعف عدتهم أمام حشد أعدائهم وكثرة عددهم وتوافر عدتهم المادية من المؤن والسلاح والمراكب: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

وفي قوله ﷺ: «ألقت إليكم» إشعار لأصحابه بأن أعداءهم على كثرتهم سيكونون غنيمة لهم، وأنهم أشباح بغير قلوب، كالشيء التافه الذي يُرمى به لمهانته على رغم قوتهم المادية عدداً وعدّة، وأن ما يدّرعونه من فجور الغرور لا يحمل إلا ما يحمله نزيز القيعان من فقاقيع جوفاء إذا تنفست ماتت، وفي قوله ﷺ: «أفلاذ كبدها» إشارة إلى أن هؤلاء الأشراف أشبه بحبّات الرمل تحت أقدام الدائسين لا تجمع بينهم وشائج تحزمهم بأحزمة من وحدة الهدف وشرف الغاية.

ولقد كانت حالة أصحاب رسول الله ﷺ في قلة عددهم وضعف عدتهم موضع عجب وغرابة عند أعدائهم، فتشككوا في أن يكون وراء هذا العدد القليل أكمنة متخفية وراء هذه القلة الظاهرة، فأرسلوا داهيتهم عمير ابن وهب الجمحي ـ كما قدمنا ـ ليحزر لهم أصحاب محمد ﷺ، ويتعرف حالهم وهل لهم كمين وراء عددهم الظاهر القليل؟ هذا العدد الذي استهتر به غميز الرجولية الفاسق أبو جهل في محاورته مع حكيم بن حزام إذ بعثه إليه عتبة بن ربيعة، يطلب إليه أن يرجع بقريش عن ملاقاة محمد ﷺ وأصحابه، فقال الفاسق مستخفاً بجند الله: إنهم أَكَلَة جزور.

بين غرور أبي جهل ودهاء عمير ابن وهب

وأبو جهل في حمقه وتنفّجه لا يعرف إلا ما تبصره عينه الحولاء من الأشباح التي تمشي على الأرض، وهو أجهل من الجهل في معرفته بالقوى المعنوية من العزائم الإيمانية التي تكمن في صدور الرجال، فلا تظهرها إلا مقابلة المحن الممحصة لمعادن البطولة، فتحدث بكلمته الفاجرة المعربدة عما رأى ببصره، ولكن داهيتهم عميراً جاءهم بما خلع قلوبهم من بين جوانحهم، فقال لهم: (قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح

يثرب تحمل إليكم الموت الناقع) وعمير بهذا القول ينفض لقريش وقائدها أبي جهل ما في كنانته، وهو إذ ذاك كان لا يزال يتمرغ في حمأة الشرك وأوحال الوثنية، فوصف لقومه ما أملاه عليه دهاؤه وحذره عليهم أن تفتك بهم سيوف نواضح يثرب، وأن يذهب أشرافهم طعمة لنيران هؤلاء الأبطال الذين لا منعة لهم إلا سيوفهم، والذين لن يقتل منهم رجل حتى يكون قد جندل إلى جانبه رجلاً من أشرافهم.

ولو كان عمير يومئذ يعرف عن الإيمان وعزائمه شيئاً لقال لقومه: لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ لا منعة لهم إلا إيمانهم وعزائمهم وصدق إخلاصهم في لقائكم، ولن يقتل منهم رجل حتى يكون قد قتل عشرة منكم، فإذا أصابوكم إفناء وهواناً وإذلالاً فما بقاء من بقي من أشباحكم بعد هذا؟.

ولقد كانت هذه الحقيقة هي التي ملأت قلوب ذوي التعقل واحتساب العواقب من أضراب عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام، وكانت هي الحقيقة الواقعية التي تكشّف عنها الغيب، فقد استأصلت هذه القلّة المؤمنة أشراف قريش في هذه الوقعة، واستذلت من بقي منهم بالأسر ودفع الفداء وهم أذلّة صاغرون.

ولقد كان خروج رسول الله ﷺ بمن خرج معه من أصحابه، وكثرتهم من الأنصار يستهدف العير والتعرض لها ليعلم قريشاً أن المجتمع المسلم في مستقره بالمدينة لن يتركهم يدوسون طريقه غادين رائحين بتجاراتهم إلى الشام مارِّين بمدينته، ولم يكن ﷺ يقصد في خروجه إلى قتال ومحاربة، وإنما خرج لدوافع يمليها الشرف والعزة خرج يريد:

دوافع الخروج إلى طلائع الغزوات.

أولاً - انذار أعداء الله وأعداء الحق والخير من أحلاس الوثنية وعبيد الشرك الغبيّ؛ ليعرفهم أن المجتمع المسلم في مستقره الجديد بالمدينة المنورة قد استوقف مسيرة التاريخ ليملي عليه ما خطّه الغيب في لوح القدر من حياة جديدة لهذا المجتمع المسلم، هي حياة العزة والكرامة، لأنه في عناصره التركيبية التي بناه عليها رسول الله ﷺ في تربيته السلوكية تربية منهجية يحيا بها ويعلِّمها للناس في مشارق الأرض ومغاربها ليحيَوا بها إنما قام على الوحدة

الإيمانية والمؤاخاة التكافلية التي جعلت من هذا المجتمع المسلم قوة روحية عارمة، لا تستطيع أية قوة مادّية مهما كثر عددها وتوافرت عدتها أن تقف في وجه مسيرتها للدعوة إلى الله وإقامة موازين العدل والإخاء الإنساني بين أبناء البشرية في أقطار الأرض.

وثانياً ـ استرداد ما نهبه الظالمون من فجرة الوثنيين من أموال الطليعة المؤمنة وهم يئنون تحت سياط التعذيب في رمضاء مكة حتى أخرجوهم من ديارهم وأموالهم وذراريهم.

ثالثاً ـ كسر حدة الغرور الفاجر بهذه الأموال المنهوبة التي تتكرش بها بطونهم بما فيها من سحت، والتي تذهب بها عيراتهم وقوافلهم غادية رائحة وهي ممزوجة بدماء الضعفى من الفقراء الذين يستعبدونهم بهذه الأموال، ويذيقونهم بها ذلّ الحرمان، واستكانة الاستسلام من أجل ما يتساقط من موائد فجورهم من فتات متعفن يتلقطه المساكين المستضعفون في الأرض لُيقيموا به أصلابهم.

آثار الشرك بالله في توجيه الحياة أسوأ توجيه.

ورابعاً ـ إضعاف شوكة الشرك وتوهين قوته المادية التي يتعزز بها غطارفته وطغاته، والشرك بجميع صوره وأشكاله وألوانه هو البؤرة التي ينبع منها كل فساد وإفساد في الأرض.

ومن ثَمَّ كانت حياة المشركين حياة ممزقة متهاوية، لا مقومات لها تعصمها من الانحراف إلى جانب الرذائل الاجتماعية والمفاسد الخلقية، لأنها حياة مهزوزة، يمليها الهوى النفسي والرغائب الشهوية التي تستحوذ على حياة الأفراد والأمم والشعوب المشركة، وهي حياة متهالكة أمام انحرافات الإلحاد المادي الذي ينسف العقائد الإيمانية نسفاً، ويجعل من النفس الإنسانية خواء من عناصر الخير، فهي حياة بهيمية متسفِّلة مخلدة إلى الأرض، تسيطر عليها الغرائز الجامحة، المنطلقة من كل قيد اجتماعي أو خلقي بنزواتها المرذولة، فتدفعها إلى كل فساد يحقق لها المتعة بشهواتها المتهاوية في مهاوي الانطلاق الداعر الملحد المسعور في جموح محموم، بل مأفون مجنون، يحطم كل ما يقف في سبيل نزواته وشهواته.

فهو انطلاق لا يعرف فضيلة تحجزه عن مساوىء الحياة ورذائلها ومفاسدها، وليس للمشرك في داخل نفسه وازع من ضمير يصدّه عن الخوض في لجج الشرور والمفاسد، وسقطات الأخلاق.

وقد يفلسف أحلاس الشرك وعبيد الإلحاد الوثني المادي هذا الإلحاد ليوهموا بعض ذوي الإدراك المراهق الذي تحكمه غرائز الغرور الأحمق، ويخرجوه للناس فلسفة داعرة في صور من الانحلال الخلقي والإباحية، وقد يصبح تقنيناً في حياة بعض الأمم التي يستحوذها فجور الشرك كما هو ماثل في الوجودية والشيوعية وبقايا غثاء اليهودية الصهيونية، وما تفرّع عن هذه النحل المنحلة من روابط الفضيلة.

مخازي السلوك في مجتمعات الشرك المتحضر.

وفي مجتمعات الشرك (المتحضر) والإلحاد المتعالم عند الأمم والشعوب الوثنية قبائح في حياتها الواقعية من المخازي السلوكية، وأرذل الرذائل الخلقية ما يشهد بأكثر وأقبح من ذلك؛ مما ينادي في آفاق الحياة أن الشرك بالله تعالى في جميع صوره ومشاهده مصدر كل شر وفساد اجتماعي وخلقي يجب على الذين يعرفون الله بوحدانيته واقتداره ومحكم تدبيره أن يجندوا أنفسهم لمقاومته واقتلاع جذوره من أرض الحياة، والقضاء عليه وعلى آثاره السيئة في المجتمع الإنساني أينما كان له وجود في الحياة.

وأصحاب الرسالات الإلهية من الأنبياء والرسل ووارثي مناهجهم من الدعاة إلى الخير الذين حملوا أمانة الحق الإلهي، وسلائلهم الروحيين مكلّفون حماية هذا الحق الإلهي، ورفع لوائه وافتدائه بأغلى ما يملك من نفس ومال وولد، والسير به لتطهير الإنسانية من أرجاس الوثنيات الملحدة في جميع شكولها وألوانها ورسومها أينما كانت من جوانب الحياة، لأن هذا التطهير هو لباب رسالاتهم وأساس دعواتهم الإلهية لتحرير الإنسانية المعذّبة من ربقة العبودية للغرائز الجامحة، والشهوات الفاجرة، لينطلق العقل الإنساني متحرراً من أغلال (الحضارة) المادية المشركة وفجورها الوثني حتى يخلّص هذا العقل الذي جعله الله تعالى مناط تفضيل الإنسان على سائر أجناس الحيوان لمعرفة الله تعالى معرفة تفتح له أبواب الهداية واستقامة السلوك، وتنير له جوانب الروح لتشرف من عليائها على تأملاته في الكون ليستخرج من أسراره آيات

أساس الرسالات الإلهية تطهير الإنسانية من الإلحاد ورجس الشرك.

الله وعجائبه المسخّرة للإنسان، حتى يستطيع أن يزاوج بين العلم المادي الذي جعله الله تعالى آيات من آيات فضله ليكشف به عن مظاهر الطبيعة التي أودعها الله في عناصر الكون، ليتسنى للإنسان أن يحقق معنى التسخير الإلهي لهذه العناصر الكونية ليصل منها أولاً - إلى اقتدار الله وحكمته، وما أودعه في الكون من منافع للإنسان، يفيد منها في حياته المادية والروحية ويزاوج بين إشراقات الروح وتنور القلوب بنور الإيمان وبين العلم المادي، المكنون في عناصر الطبيعة.

وبهذا التزاوج بين العلم المادي والإشراق الروحاني يجعل الإنسان من العلوم الكونية دعائم حضارة مؤمنة، لا تستهويها الرغائب الشهوية في حب التدمير والتخريب والفجور الخلقي في السلوك الاجتماعي من كل ما أصبح يهدد الإنسانية بالدمار الذي لا تقوم لها بعده قائمة.

* * *

كشف الأغطية عن مقومات الغزوات.

بهذا التصوير الموجز - الذي أدرنا حول محوره هذا العرض الذي يكشف الغطاء عن مقومات هذه الغزوة المباركة - وهي أول غزوة قتالية جابه فيها المجتمع المسلم أعداءه، دون قصد منه إلى المجابهة والقتال - ويبين أسبابها ودوافعها، ويوحي بنتائجها التي كان لها خطرها في موازين الحياة، وكان لها أثرها البليغ على سير التاريخ في مسيرة البشرية كلها أينما وجدت من أقطار الأرض - تستبين حقائق الموقف بين المجتمع المسلم في تركيبه الجديد بقيادة رسول الله ﷺ، الذي خرج بمن معه من أصحابه على غير أهبة في عدد أو عدّة، ليلقى عير قريش في غير قصد إلى قتال، ولم يدر بخَلَد أحد من أصحابه أنه ﷺ يلقى في خَرْجته قتالاً، فلم يخرج معه إلا من حضره منهم، وهو يوجههم للتعرض للعير بإمرة أبي سفيان - وبين مجتمع الطغاة من ملأ قريش وأشرافهم وغوغائهم من سائر بيوتاتهم وبطونهم، يدفعهم عتو الكفر وفجور الوثنية، وحقد العصبية القبلية، على أعظم أهبة مادية.

وكان النبي ﷺ قد استطلع أخبارهم في عددهم وعدتهم وأسماء أشرافهم الذين أحرق الحقد أكبادهم وقلوبهم، ولم يكن أصحاب رسول

الله ﷺ الذين خرجوا معه في عددهم وضعف عدّتهم ليقعوا معهم في ميزان التكافؤ المادي على أي مقياس من مقاييس تكافؤ القوى المتحاربة، وكان في استطاعته ﷺ أن يرسل إلى أصحابه الذين لم يرافقوه في خرجته ومكثوا بالمدينة، لأنهم لم يكونوا يظنون أن رسول الله ﷺ سيلقى قتالاً، يستنفرهم ويخبرهم بأمر قريش وتكالبهم على مجتمعهم المسلم ليستأصلوه بما جاؤوا به من الحشود المتأهبة مادياً أقوى تأهب تملكه وتستطيعه.

مُضِيُّ رسول الله بمن معه قدماً بعزم لا يداخله تردد

ولكنه ﷺ لم يصنع شيئاً من هذا، بل رأى بثاقب فكره، وحكمة تدبيره ألا يشعر أعداءه من طغاة ملأ قريش بشيء يزيد من كَلَبهم عليه وعلى أصحابه، لأنهم لو عرفوا أنه ﷺ أرسل يستنفر بقية أصحابه بالمدينة لزاد طمعهم وتكالبهم، ورأى ﷺ أن مجتمعه المسلم لم يكن ليقاتل في سبيل الله لنشر دعوة الحق والهدى والخير بكثرة عدد وقوة عدّة اعتماداً على الأسباب المادية في استجلاب النصر، وإنما كان المجتمع المسلم معتمداً على قوة الإيمان وصدق العزائم المخلصة، وحب الموت استشهاداً في سبيل الله ليكون ذلك منهجاً أبدياً للدعاة إلى الله، ودرساً تربوياً من دروس الجهاد لنصرة الحق، يتلقّاه أصحابه في أول لقاء قتالي بينهم وبين أعدائهم، أعداء الحق والخير يورثونه لمن بعدهم جيلاً فجيلاً حتى يصبح هذا الدرس دعامة من دعائم المنهج القتالي في جهاد أعداء المجتمع المسلم لإعلاء كلمة الله.

ومن ثَمَّ جعل تدبيره للقتال ـ بمجرد أن أحاط علماً بنفير قريش، ومسيرهم من مكة ليمنعوا عيرهم، ويحموا أموالهم في جموع عطشى للدماء وعدة عارمة، وقوة مادية هائلة من السلاح والمؤن ـ يعتمد أساساً على قوة الإيمان، وصدق التوكل على الله، والثقة بنصره مع استكمال الجهد في الأخذ بالأسباب المادية الممكنة، واجتماع الكلمة، وتوحيد الصف، والإحاطة علماً بقوة العدو العددية والعتادية، ليخوض الجيش المعركة على بصيرة وهدف مقصود.

في ضوء هذه المبادىء المستهدفة للحق ونصرته جمع رسول الله ﷺ من كان معه من أصحابه مستشيراً لهم بعد أن أنبأهم بمسير قريش إليهم،

ليستخرج ماعندهم من عزائم الإيمان الصادقة وقوة اليقين الراسخة، والثقة بموعود الله، وحب الاستشهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.

استشارة رسول الله ﷺ أصحابه في الموقف وتفصيل آراء من اشترك فيها.

فبدأ الخيّران: أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، فقالا فأحسنا القول، وكانا في الذروة من الحكمة وسداد الرأي، وحسن السياسة، وعمق الفهم للموقف، ومعرفة المنهج النبوي في الشدائد والأزمات معرفة لا تفوتها منه شاردة ولا واردة، مع شدة الإخلاص في المشورة، وسابغ الاستعداد النفسي، وكانا المتكلمين باسم المهاجرين، المعبِّرين عن رأيهم أصدق تعبير، وهذا كما ورد في بعض مصادر السيرة أن النبي ﷺ: استشار الناس، فتكلم المهاجرون، فأحسنوا، ثم أعاد ﷺ الاستشارة، فقام أبو بكر فقال فأحسن، قال الزرقاني في شرح المواهب: ولم أر من ذكر كلام أبي بكر، ثم قام عمر فقال فأحسن القول، وذكر ابن عقبة وابن عائذ أن عمر قال: يا رسول الله، إنها قريش وعزها، والله ما ذلَّت منذ عزَّت، ولا آمنت منذ كفرت، والله لتقاتلنك فتأهب لذلك أهبته، وأعد لذلك عدته، وعند صاحب العيون: فاتّهب لذلك أهبته.

حديث المقداد في المشورة واستشهاده بآية المائدة.

ثم قام بعدهما المقداد بن عمرو، قال ابن سعد في نسبه: (البَهراني) أحد نجباء أصحاب رسول الله ﷺ وكان يقال له: المقداد بن الأسود، وذلك لأن الأسود بن عبد يغوث الزهري خال رسول الله ﷺ كان قد تبناه في الجاهلية وحالفه فدعي باسمه على عادة ما كان عند الجاهلية في الأدعياء، فلما جاء الإسلام بإبطال عادة التبني وردِّ المتبنَّين إلى آبائهم إن عُلموا رُدّ المقداد إلى نسبه فدعي لأبيه، فقيل له: المقداد بن عمرو.

وكان المقداد في إسلامه من طلائع الرعيل الأول الذين سبقوا إلى الإسلام، فكان سابع سبعة ممن دلفوا إلى ساحة الإيمان الصبور، ولهذا كان حقيقاً بهذا الموقف النبيل في حديث المشاورة إذ وقف بعد الخيّرين والشدائد مستحكمةً، فقال: يا رسول الله، امضِ لما أراك الله، فنحن معك. والله لا نقول كما قالت بنو اسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾.

وحديث المقداد رواه البخاري عن عبدالله بن مسعود من طريق مخارق عن طارق بن شهاب قال: سمعت عبدالله بن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عُدل به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي أشرق وجهه وسره.

رواية الإمام أحمد في الاستشهاد بآية المائدة ونسبتها إلى بعض الأنصار دون تعيين.

وكذلك رواه النسائي من حديث مخارق، وفي كل هذه الروايات تُذكر الجملة القرآنية على أنها من حديث المقداد مستشهداً بها، بيد أنه ورد في مسند الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه من طريق حُمَيد الطويل، قال أنس: استشار النبي ﷺ مخرجه إلى بدر فأشار عليه أبو بكر، ثم استشارهم فأشار عليه عمر، ثم استشارهم، فقال بعض الأنصار: إياكم يريد رسول الله ﷺ يا معشر الأنصار، فقال بعض الأنصار: يا رسول الله، إذاً لا نقول كما قالت بنو اسرائيل لموسى ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتّبعناك.

قال ابن كثير في البداية والنهاية: إسناد ثلاثي صحيح على شرط الصحيح.

وفي هذه الرواية من مسند أحمد لم يعيِّن قائل ذلك، بل نسب إلى بعض الأنصار غير معين، والمعروف أن هذا متردد بين السعدَين، سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، وهما سيدا الأنصار، والجمهور على أنه لسعد بن معاذ، والإسناد إلى سعد بن عبادة رواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن أنس بن مالك، وفيه: فقال سعد بن عبادة: إيانا يريد رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْك الغماد لفعلنا، وليس فيه ذكر لآية المائدة. وصاحب العيون يسنده إلى مسلم. وهو في صحيحه كما قال صاحب العيون: وروينا من طريق مسلم أن الذي قال ذلك سعد بن عبادة سيد الخزرج، ولفظه عن

أنس أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا يريد رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا، ولم تذكر الجملة القرآنية في كلام سعد بن عبادة.

طريقة الحافظ ابن حجر في الجمع بين الروايات ونقدها وتحقيق البحث.

قال ابن حجر: ويمكن الجمع بأنه ﷺ استشارهم مرتين الأولى بالمدينة أول ما بلغه خبر العير، وذلك بيّن من لفظ مسلم عن أنس في قوله، إنه شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، والثانية كانت بعد أن خرج ﷺ - كما في حديث الجماعة.

ثم قال ابن حجر: ووقع عند الطبراني أن سعد بن عبادة قال ذلك بالحديبية، وهذا أولى بالصواب، وهذا التصويب غير مسلّم، لأن الأنصار في الحديبية - وكانت سنة ست - لا يحتاجون إلى تعرف موقفهم، ويؤيد الإسناد إلى سعد بن معاذ ترجيح رواية أن سعد بن عبادة لم يشهد معركة بدر، وذكره في البدريين عند الواقدي والمدائني وغيرهما إنما هو باعتبار أنه أسهم له فيها لأنه كان يحرِّض الناس على شهودها وكان حريصاً عليها، ولكنه نُهش فتخلف عنها، وله في الإسهام بغير شهود المعركة إخوة من المهاجرين والأنصار من أكرمهم عثمان بن عفان، لم يشهدها وعُدّ في طلائع أهلها، وقد روي في عدم شهود سعد بن عبادة بدراً حديث إذا صح كان قاطعاً في الاستدلال، ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لئن كان سعد لم يشهدها لقد كان عليها حريصاً» فضرب له ﷺ بسهمه وأجره، وقد ذكر هذا صاحب (العيون) فقال: وروينا عن ابن سعد أنه - أي سعد بن عبادة - كان يتهيأ للخروج إلى بدر، ويأتي دور الأنصار، يحرِّضهم على الخروج فنُهش قبل أن يخرج، فأقام، فقال رسول الله ﷺ: «لئن كان سعد لم يشهدها لقد كان عليها حريصاً» ثم قال صاحب العيون مؤيداً عدم شهوده لها: وروى بعضهم أن رسول الله ﷺ ضرب له بسهمه وأجره، وليس ذلك بمجمع عليه ولا ثبت، ولم يذكره أحد ممن يروي المغازي في تسمية من شهد بدراً.

أما أن عدم شهوده بدراً غير مجمع عليه فمسلّم، لأن الخلاف مذكور، وأما أن رسول الله ﷺ ضرب له بسهمه وأجره فثابت من طريق الواقدي والمدائني كما ذكر صاحب العيون نفسه قبل ذلك بأسطر في نفس عيونه إذ قال: واختلف في شهود سعد بن عبادة بدراً، لم يذكره ابن عقبة ولا ابن إسحق في البدريين، وذكره الواقدي والمدائني وابن الكلبي فيهم، وأقل درجات ذلك أنه ضرب له بسهمه وأجره فكان في عدادهم لتخلّفه عن شهودها لعذر مع حرصه على شهودها.

رواية بالشك بين السعدين ذكرها ابن سعد في طبقاته.

وقد ذكر ابن سعد في الطبقات من طريق سليمان بن حرب عن حمّاد ابن زيد، عن أيوب، عن عكرمة قال: استشار رسول الله ﷺ يومئذ الناس، فقال سعد بن عبادة أو سعد بن معاذ: يا رسول الله سر إذا شئت، وانزل حيث شئت، وحارب من شئت، وسالم من شئت، فوالذي بعثك بالحق لو ضربتَ أكبادها حتى تبلغ برك الغماد من ذي يَمَن تبعناك، ما تخلّف عنك منا أحد.

رواية جازمة بالإسناد إلى سعد بن معاذ وهي قول الجمهور.

والإسناد إلى سعد بن معاذ رواه ابن مردويه، وفيه: فقال سعد ابن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط، ولا لي بها علم، ولئن سرتَ حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرنَّ معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن اذهب أنت وربك إنا معكم متبعون، ولعل أن تكون خرجتَ لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامضِ، فصِلْ حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت به من أمر فأمرنا تابع لأمرك، فوالله لئن سرتَ حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرنَّ معك.

وكذلك رواه ابن إسحق وعنه أخذه جمهور من ألف في السيرة وشُهِّر.

وفي ورود الجملة القرآنية ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ في حديث المشاورة لغزوة (بدر) ـ سواء أكان ذلك في كلام المقداد

ابن‌عمرو كما رواه البخاري في صحيحه، أو في كلام بعض الأنصار غير معيّن قائله، كما في مسند أحمد عن أنس، أو في حديث سعد بن معاذ كما رواه ابن إسحاق وغيره ـ إشكال ذلك أن هذه الجملة القرآنية بعض آية من سورة المائدة وهي سورة مدنية من آخر ما نزل كما هو صريح حديث عائشة رضي الله عنها من طريق جبير بن نفير، كما أخرجه أحمد، والنسائي، والحاكم وصحّحه، والبيهقي، وابن مردويه، قال جبير: حججت فدخلت على عائشة، فقالت لي: يا جبير، تقرأ سورة المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلُّوه، وما وجدتم من حرام فحرِّموه، وكما يدل عليه حديث عبدالله بن عمرو عند أحمد والترمذي ـ وحسّنه ـ والحاكم ـ وصحّحه ـ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عبدالله بن عمرو قال: آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح.

تحقيق حول الاستشهاد بآية المائدة.

وعن محمد بن كعب القرظي قال: نزلت سورة المائدة على رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فيما بين مكة والمدينة، وهو على ناقته، فانصدعت كتفها، فنزل عنها رسول الله ﷺ.

وعن الربيع بن أنس عند الطبري، قال: نزلت سورة المائدة على رسول الله ﷺ في المسير في حجة الوداع، وهو راكب راحلته، فبركت به راحلته من ثقلها.

وأخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب، وعطية بن قيس قالا: قال رسول الله ﷺ: «المائدة من آخر القرآن تنزيلاً، فأحلُّوا حلالها وحرموا حرامها». ذكر هذه الأحاديث والآثار السيوطي في الدر المنثور.

بيد أن استشهاد المقداد رضي الله عنه بجملة من آية في أوائل آيات سورة المائدة في حديثه عند البخاري في مشاورة القتال ببدر يفهم منه أن هذه الجملة القرآنية التي ذكرها المقداد في حديثه كانت معروفة عند الناس قبل غزوة (بدر)، وهذا يقتضي أن آية هذه الجملة القرآنية من سورة المائدة، أو على أقل تقدير أن الجملة القرآنية المستشهد بها كانت سابقة النزول على غزوة (بدر) التي كانت في السنة الثانية من الهجرة في شهر رمضان منها، وهذا

لا يتمشّى مع اتفاق المفسرين المؤيد بالأحاديث الصحيحة والآثار أن سورة المائدة نزلت بعد سورة الفتح التي نزلت في الطريق بين الحديبية والمدينة، مُنصرف رسول الله ﷺ وأصحابه بعد عقد الهدنة مع قريش في سنة ستٍ، فهي متأخرة النزول عن بدر بنحو أربع سنوات على الأقل على هذا التقدير، وبنحو أكثر من ثماني سنوات على ما يقتضيه أثر محمد بن كعب القرظي، وأثر الربيع بن أنس اللذان فيهما التصريح بأن المائدة نزلت في المسير في حجة الوداع، وقد اعتمدنا حديث البخاري لعلوِّه سنداً في أن قائل ذلك المقداد، ويؤكده أن البخاري ذكر الحديث نفسه بعين السند في كتاب (التفسير) من جامعه الصحيح، فقال: باب (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل عن مخارق، عن طارق بن شهاب: سمعت ابن مسعود قال: شهدت من المقداد، ثم ذكر البخاري له سنداً قبل مخارق فقال: وحدثني حمدان بن عمر، حدثنا أبو النضر، حدثنا الأشجع، عن سفيان، عن مخارق، عن طارق عن عبدالله قال: قال المقداد يوم (بدر) يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ ولكن امض ونحن معك، فكأنه سُرِّي عن رسول الله ﷺ.

ويلاحظ أن بين روايتي البخاري لهذا الحديث في كتاب المغازي، وكتاب التفسير اختلافاً بالزيادة والنقص، مع وحدة السند من طريق مخارق، وليس هذا الاختلاف بمنزلٍ الحديث عن درجته في علو الصحة والثبوت.

وهذا الإشكال بالاستشهاد بالجملة القرآنية من آية في سورة المائدة في مشاورة القتال ببدر كما هو وارد على حديث المقداد عند البخاري ـ وهو أصح سنداً ـ وارد على حديث أحمد وغيره ممن أسند الاستشهاد بالجملة القرآنية إلى بعض الأنصار غير معيَّن، أو من أسندها إلى سعد بن معاذ كابن إسحاق وابن أبي شيبة وابن عائذ، وابن مردويه، وجمهور المتأخرين الذين يعتمدون على ابن إسحاق.

فكيف إذاً يكون محمل الاستشهاد بهذه الجملة القرآنية من سورة

تأويل الاستشهاد بالجملة القرآنية ومحمله في الروايات.

المائدة في مطلع المشاورة لقتال المشركين يوم (بدر)؟ فهل كانت هذه الجملة القرآنية وآيتها سابقة في نزولها لسورتها، ثم وضعت في موضعها منها توقيفاً لمناسبتها؟ ونحو هذا موجود في آيات القرآن، لكنه في الآيات كاملة، لا في جملة منها، تنزل الآية لمناسبة اقتضت نزولها، ثم تلحق توقيفاً بأمر النبي ﷺ بسورتها في موضعها تلاوة.

أو كانت هذه الجملة القرآنية مما هو مذكور بمعناه عند بني اسرائيل في قصص أسلافهم وأحداث تاريخهم التي تصمهم بالجبن والخور والخوف من ملاقاة عدوهم، وانتشرت بين الأنصار لشدة مخالطتهم لهم، فأخذها عنهم المهاجرون الأولون، وفيهم المقداد بن عمرو، ثم نزلت في آيتها من سورة المائدة حينما نزلت على رسول الله ﷺ.

ولكن هذا الاحتمال يعكِّر عليه أن البخاري رحمه الله أورد الجملة القرآنية في كتاب التفسير من جامعه الصحيح، وأورد بعدها حديث ابن مسعود المتقدم في كتاب الغزوات تفسيراً لها، وهذا يدل على أن البخاري فَهِم أنها جملة من آية من آيات سورة المائدة، كانت قد نزلت على رسول الله ﷺ قبل غزوة (بدر)، وأن المقداد بن عمرو ذكرها مستشهداً بها على أن المسلمين ليسوا كاليهود في خور عزائمهم وجبنهم عن ملاقاة أعدائهم، فلا يقولون لرسولهم ﷺ ما حكاه الله في القرآن الحكيم عن اليهود من الهلع ووهن العزيمة وقولهم لرسولهم موسى عليه السلام ما سجله عليهم من سوء الأدب مع الله تعالى، مبيناً أن المسلمين سامعون لأوامر رسولهم ﷺ، مطيعون لرغبته يقاتلون معه، وهم حافّون به، عن يمينه وعن شماله، ولو خاض البحار لخاضوها معه، ولو سار بهم لعدوِّهم إلى أقصى الأرض لساروا معه، نفوسهم وأموالهم في يديه، يوجهها في سبيل نشر رسالته كيف يشاء، يرجون نصر الله وحسن العاقبة، لا يخافون الموت، ولكنهم مقاديم يطلبونه في مظانِّه لينالوا الشهادة في سبيل الله.

ولهذا كان الاحتمال الأول راجحاً نقلاً وعقلاً، وهو أبعد عن شبهة أن يكون شيء من القرآن بلفظه كان مذكوراً ومقدوراً عليه من أحد البشر

استطراد إلى تحقيق قصة ابن أبي سرح

قبل نزوله على رسول الله ﷺ مما يجر إلى سوء العقيدة، ويكون فتنة لبعض الناس، كالذي قيل في قصة عبدالله بن سعد بن أبي سرح أنه كان يكتب الوحي للنبي ﷺ، فأملى عليه رسول الله ﷺ قول الله تعالى فيما أنزله من بيان أطوار خلق الإنسان ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ فعجب ابن أبي سرح مما سمع، فقال: (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال له النبي ﷺ: «اكتب، هكذا نزلت» فقال ابن أبي سرح: إن كان محمد نبياً يوحى إليه فأنا نبي يوحى إليّ وارتد عن الإسلام وفر هارباً إلى مكة، فلما فتحت مكة جاء به عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ وكان أخاه من الرضاع ـ إلى النبي ﷺ مستشفعاً له، وقد راجع الإسلام وتاب وحسن إسلامه، وكان من قادة الفتوحات الإسلامية، ومات وهو يسلّم من صلاة الصبح.

وهذه القصة التي تعيّن أن سبب ارتداد عبدالله بن سعد بن أبي سرح تكلّمُه بما ختمت به آية أطوار خلق الإنسان قبل أن يمليها عليه النبي ﷺ، وقوله له: «اكتب، هكذا أنزلت» لا يثبتها بتفاصيلها رواة الصحيح من المحدِّثين، وإنما تذكر في بعض كتب التفسير، أو قصص التاريخ.

وقد ذكر ابن حجر في (الإصابة) حديث ابن عباس من طريق يزيد النحوي عن عكرمة، قال ابن عباس: كان عبدالله بن سعد بن أبي سرح يكتب للنبي ﷺ، فأذلّه الشيطان، فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل، فاستجار له عثمان فأجاره النبي ﷺ، قال ابن حجر بعد أن ساق حديث ابن عباس: وأخرجه أبو داود.

وهذا محتمل أن يكون إجمالاً لقصة تكلم ابن أبي سرح بخاتمة آية أطوار خلق الإنسان قبل أن يمليها عليه النبي ﷺ، فكان ذلك سبب ردته عن الإسلام، ولحاقه بالكفار في مكة.

ويحتمل أن يكون إشارة إلى ما ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب دون أن يسنده، قال أبو عمر بن عبد البر: وكان ـ أي عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح ـ يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم ارتد مشركاً، وصار إلى قريش

بمكة، فقال لهم: إني كنت أصرف محمداً حيث أريد، كان يملي عليّ، (عزيز حكيم) فأقول: (عليم حكيم) فيقول (نعم كل صواب) فلما كان يوم الفتح أمر النبي ﷺ بقتله، ففرَّ إلى عثمان، وكان أخاه من الرضاع، أرضعت أمّ عبدالله عثمان، فغيبه عثمان حتى هدأ الناس، ثم أتى به النبي ﷺ، فاستأمنه له، فصمت رسول الله ﷺ طويلاً، ثم قال (نعم).

وليس في كلام ابن عبد البر، ولا في حديث ابن عباس الذي ذكره ابن حجر، وقال عقبه: وأخرجه أبو داود تعرّضٌ لتكلم ابن أبي سَرْح بما ختمت به الآية، وهو قوله تعالى: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ مما يجعل قصتها ضعيفة.

أمثل روايات قصة ختم آيات خلق الإنسان.

وأمثل منها سنداً وسياقاً ما ذكره السيوطي في (الدر المنثور) قال: وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن صالح أبي الخليل، قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ إلى قوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ قال عمر: (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها ختمت بالذي تكلمت به يا عمر) ويؤكد ذلك حديث أنس في موافقات عمر لربه تعالى الذي أخرجه الطيالسي وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر، كما ذكره أيضاً السيوطي في درِّه.

وقد نسب التكلم بخاتمة آية أطوار خلق الإنسان إلى معاذ بن جبل في حديث زيد بن ثابت الذي رواه ابن راهويه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: أملى عليّ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ إلى قوله: ﴿خلقاً آخر﴾ فقال معاذ بن جبل: (فتبارك الله أحسن الخالقين) فضحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «إنها ختمت، فتبارك الله أحسن الخالقين».

وقد يكون من أعجب وأغرب ما واجهه البحث في قصة مشاورة النبي ﷺ أصحابه ـ وخاصة الأنصار منهم، ليتعرف موقفهم في قتال غزوة

سياق ابن سعد عن شيخه الواقدي لقصة المشاورة في قتال (بدر) مخالف لسياق الجمهور.

(بدر) وراء اختلاف الروايات في سياق حديث هذه الغزوة المباركة اختلافاً متباعد الملتقى ـ موقف أبي عبدالله محمد بن سعد في طبقاته الكبرى، وهو يسوق حديث المشاورة بروايات متعددة، فإذا بهذا الحديث يخلو تماماً من التعرض لذكر الجملة القرآنية ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ التي كادت تجمع على ذكرها الروايات في جميع ما أمكننا الاطلاع عليه من مصادر السيرة النبوية، ومراجع تاريخ الدعوة الإسلامية وأسفار الغزوات، مسندهُ إلى المقداد بن عمرو، ومرة إلى بعض الأنصار، وأخرى إلى سعد بن معاذ سيد الأوس، وحسبك ذكرها في صحيح سيد المحدِّثين وإمام الرواة محمد بن اسماعيل البخاري في أكثر من موضع من الصحيح.

ومحمد بن سعد ـ وهو من طلائع مدوِّني تاريخ صدر الإسلام، وأحداثه وتراجم رجاله، وهو من أقدم مؤلفي أحداث السيرة النبوية في استيعاب واستقصاء بالغَين، وكل من جاء بعده من المؤلفين في هذا المجال قد أخذ عنه، وأفاد منه، وهو من ثقاة الرواة ونقّاد الروايات ـ لم يذكر في رواية واحدة من عديد الروايات التي ساقها عن شيوخه ورواة أحاديث طبقاته الجملة القرآنية التي استشكلنا ذكرها في روايات غيره، ولا سيما رواية البخاري عن عبدالله بن مسعود في حديثه عن موقف شهده من المقداد ابن عمرو في بيان فدائية المجتمع المسلم لدعوة الحق، ورسالة الهدى والنور، وانصياع هذا المجتمع المسلم لأوامر النبي ﷺ في متابعته في مسيره بهم إلى ميادين الجهاد في سبيل الله، ونشر رسالته ﷺ في أقطار الأرض مهما لاقوا في سبيلها من عقبات وشدائد، ليس بأهونها الموت استشهاداً لنصرتها وتأييدها.

وغزوة (بدر) أول غزوة واجه فيها المجتمع المسلم على قلة عدده وعدم تأهبه لقتال أعدائه حشود الشرك وطغيانه، وفجور الوثنية المادّية الملحدة، المتكالبة على هذا المجتمع المسلم في كثرة أعدادها، ووفرة عتادها من المؤن والسلاح إلى درجة الترف الخليع، وكثرة من خرج فيها من زعمائهم وقادتهم وأشرافهم ليقاتلوا بأنفسهم، ويحرِّضوا غوغاءهم، وجماهير المستعبدين لهم على القتال، وهم لم يتركوا وسيلة من وسائل الفجور والطغيان إلا استوعبها طواغيتهم، ولم يَدَعوا من طاقاتهم للقتال طاقة إلا أعدّوها ليستأصلوا هذا

المجتمع المسلم الذي أغصهم بقوة صبره على شدائد المحن، واحتمال قاصمات البلايا في وطنهم وبين عشائرهم حتى تمكن مَنْ قوي منهم على الهجرة، فهاجروا ليمتزجوا بإخوانهم أنصار الله، وأنصار دينه ونبيه ﷺ في وحدة إيمانية جعلت منهم قوة مرهوبة الجانب، مخشية العزمات تترصد طريق الطغاة في رحلاتهم التجارية لتمنعهم أن يمروا آمنين بقوافلهم وعيراتهم على مدينتهم التي جعلها الله تعالى مستقرهم وحصن دعوتهم، لا تهاب عتو فجورهم وكثرة أعدادهم، ولا ترهب أسلحتهم وقوة عتادهم، ولا تخشى أحقادهم وطغيانهم، ولا ترفع رأساً لاغترارهم بما في أيديهم من قوة مادية فاجرة.

ومن ثَمَّ لما علم النبي ﷺ بنفير المشركين لقتال مجتمعه المسلم، وعلم بما تجمع إليه من معلومات عن طريق رواياهم وسقّائهم كثرة أعدادهم، وتوافر مؤنهم وعتادهم، وكثرة أشرافهم وطغاتهم بين حشودهم، جمع أصحابه الذين خرجوا معه على قلة عددهم وضآلة عتادهم فشاورهم في مواجهة الطغاة ومواقفتهم في ميدان القتال.

رأي المقداد في مشاورة (بدر) كان أشجع وأصرح رأي.

واختلفت الروايات في أسلوب المشاورة، وكان أول رأي شجاع وصريح ساقته الروايات في فهم قصد النبي ﷺ في إعداد مجتمعه نفسياً لمواجهة الطغيان في ميدان القتال هو رأي المقداد بن عمرو الذي رواه البخاري وغيره عن عبدالله بن مسعود، وفيه سوق الجملة القرآنية التي تنعَى على بني إسرائيل خور عزائمهم، وهلع قلوبهم، وجبنهم، وسوء أدبهم في إجابتهم رسولهم موسى عليه السلام، مبيناً المقداد في إبداء رأيه أن المجتمع المسلم لا يقف من رسوله محمد ﷺ ذلك الموقف الرعديد الجبان الذي وقفه بنو إسرائيل من رسولهم، ولكن المجتمع المسلم الذي ربّاه محمد ﷺ على منهاج رسالته يقف من نبيه ورسوله موقف الشجاعة في نصرة الحق، فهو مجتمع تربى على السمع والطاعة لرسوله ﷺ الذي لو خاض بهم البحار لخاضوها معه ما تخلّف منهم أحد، يجاهدون في سبيل الله لنصرة نبيهم ونشر دعوته صابرين صادقين، محتسبين أرواحهم عند الله الذي عرفوه بوحدانيته واقتداره، وجلال قهره وكبريائه.

استهداف رسول الله ﷺ استطلاع رأي الأنصار وإجابة سعد بن معاذ عنهم.

ثم كرر رسول الله ﷺ قوله: «أشيروا عليّ أيها الناس» وهو ﷺ يريد أن يتعرف رأي الأنصار ويسمع من زعمائهم وأشرافهم ما يدور في أخلدتهم وتنطوي عليه أفئدتهم في هذا الموقف الآزم، لأنهم كانوا أعداد الناس وجمهرتهم، وكانوا إذْ بايعوا النبي ﷺ بيعة السبعين بالعقبة ـ كما في حديث جابر الطويل عند الإمام ـ أحمد ـ أعطَوه عهودهم ومواثيقهم على أنه ﷺ إذا قدم عليهم بلدهم ينصرونه فيمنعونه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، ولهم الجنة.

فأراد ﷺ أن يتأكد، ويسمع من لم يكن حضر البيعة رأي من حضرها من أن نصرته ﷺ عليهم ومنعه وحمايته وحماية دعوته في داخل المدينة وخارجها.

فتكلم السعدان: سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج معبِّرين عن رأيهما ورأي سائر الأنصار، كما جاء صريحاً عن سعد ابن معاذ عند ابن سعد في الطبقات إذ قال في إجابته لرسوله ﷺ حين قال: «أشيروا علي» بعد أن تكلم المقداد بن عمرو، وإنما يريد ﷺ الأنصار، فقام سعد بن معاذ فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسول الله تريدنا؟ فقال ﷺ: «أجل» قال سعد بن معاذ: فامضِ يا نبي الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل واحد.

وروى كلام سعد بن معاذ محمد بن إسحق بأطول من ذلك، وليس فيه: أنا أجيب عن الأنصار فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: «أجل» قال سعد: فقد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردتَ، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا البحر فخضتَه لخضناه معك، ما تخلّف رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، إنا لَصَبُر في الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعلَّ الله يريك منا ما تقرُّبه عينك، فسر على بركة الله.

كلام سعد بن عبادة عند مسلم وتحقيق شهوده (بدراً).

وأما كلام سعد بن عبادة فهو ـ كما قدمنا ـ رواية مسلم وأحمد عن أنس ابن مالك، وفيه أن المشاورة كانت حين أقبل أبو سفيان، فقال سعد بن عبادة ـ بعد أن تكلم أبو بكر فأعرض عنه رسول الله ﷺ ثم تكلم عمر فأعرض عنه: إيانا يريد رسولُ الله ﷺ، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلناه.

وهذا الكلام لا يلائم المشاورة للقاء العير، وإنما يلائم السير للقتال، وفيه دليل على ترجيح رأي من قال أن سعد بن عبادة شهد بدراً بنفسه، وكان من أشراف جنود المجتمع المسلم فيها.

ورود الجملة القرآنية في كلام الأنصار.

وفي بعض روايات أحاديث الأنصار وكلمات زعمائهم جاءت الجملة القرآنية الناعية على بني إسرائيل موقفهم الرعديد الجبان من رسولهم ووعد ربهم، كحديث أبي أيوب الأنصاري من طريق عبدالله بن لَهيعة عن يزيد ابن أبي حبيب عن أسلم عن أبي عمران أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: «إني أخبرت عن عِيرِ أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قِبَل هذه العير لعل الله يغنّمناها» فقلنا: نعم فخَرج وخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا: «ما ترَون في القوم فإنهم قد أُخبروا بمخرجكم» فقلنا: لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم: ولكنّا أَردنا العير، ثم قال ﷺ: «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك، فقام المقداد ابن عمرو فقال: إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسىٍ لموسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) قال أبوأيوب: فتمنّينا معشر الأنصار لو أنا قلنا مثل ما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم.

وكحديث أنس بن مالك عند أحمد من طريق حميد الطويل، قال أنس رضي الله عنه: استشار النبي ﷺ مخرجه إلى (بدر) فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقال بعض الأنصار: إياكم يريد رسول الله ﷺ يا معشر الأنصار، فقال بعض الأنصار: يا رسول الله، إذاً لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن والذي

بعثك بالحق لو ضربتَ أكبادها إلى بَرْك الغماد لاتبعناك.

والجملة القرآنيةمذكورة في جميع هذه الروايات، ورواية البخاري أصح الروايات في أحاديث المشاورة سنداً، وهي من أقوى دواعي إيراد الاستشكال بها في ذكر الجملة القرآنية التي هي بعض آية من سورة المائدة، والمائدة آخر ما نزل من القرآن كما في حديث جبير بن نفير عن عائشة رضي الله عنها.

ولو لم يروها البخاري عن المقداد ويدخلها في كتاب التفسير من صحيحه لكان لموقف ابن سعد في عدم ذكر الجملة القرآنية في رواياته المتعددة المختلفة إسناداً وأسلوباً ما يرجحه على سائر روايات مَنْ ذكرها مَنْ سوى البخاري، أو على أقل تقدير يكون له ما يجعله في مستوى تلك الروايات في مجال التأويل.

ونحن نسوق كلام ابن سعد نقلاً عن طبقاته، وهو كلام موجز لم يستوعب فيه ذكر الروايات المتماثلة كما صنع غيره ليكون بين يدي الناظر في البحث على ضوء أحاديث المشاورة في قتال (بدر).

قال ابن سعد: ومضى رسول الله ﷺ حتى إذا كان دون (بدر) أتاه الخبر بمسير قريش فأخبر به أصحابه واستشارهم، فقال المقداد بن عمرو البهراني: والذي بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى بَرْك الغماد لسرنا معك حتى تنتهي إليه.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ» وإنما يريد الأنصار فقام سعد ابن معاذ فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسول الله تريدنا قال: «أجل» فقال سعد بن معاذ: فامض يا نبي الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لواستعرّضتَ هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل واحد، فقال رسول الله ﷺ: «سيروا على بركة الله فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، فوالله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

ثم عاد ابن سعد إلى حديث المشاورة بعد أن مرّ في ذكر أحداث

الغزوة، فقال: أخبرنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن عكرمة قال: استشار رسول الله ﷺ يومئذ الناس، فقال سعد بن عبادة أو سعد بن معاذ: يا رسول الله، سر إذا شئت، وانزل حيث شئت، وحارب من شئت، وسالم من شئت، فوالذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها حتى تبلغ برك الغماد من ذي يمن تبعناك، ما تخلّف عنك منا أحد.

ترجيح نسبة كلام الأنصار في مشاورة بدر إلى سعد ابن معاذ.

ولم نر لابن سعد كلاماً في حديث المشاورة غير هذا الذي ذكره في موضعين متقاربين من طبقاته، وقد اختلف كلامه في الموضعين، ففي الموضع الأول جزم دون شك أو تردد أن المتكلم عن الأنصار هو سعد بن معاذ، وهذا موافق لرأي جمهور مؤلفي السيرة ومدوّني غزواتها، وموافق لما دلّت عليه أحداث الغزوة ووقائعها من الجزم بشهود سعد بن معاذ (بدراً) ومشاركته في أحداثها منذ بدأت مقدماتها وأسبابها إلى أن انتهت وقائعها بالنصر المؤزر، وكان من أقرب الملازمين لرسول الله ﷺ في تدبير أمر القتال، وإدارة حوادثه في مواقعها من ميدان المعركة.

وكان سعد بن معاذ على رأس حرس رسول الله ﷺ، وهو في عريشه الذي اقترح سعد إقامته ليقيم فيه رسول الله ﷺ لإدارة رحى المعركة.

العريش في بدر كان أشبه بغرفة العمليات الحربية في الاصطلاح الحديث.

ولعل هذا العريش هو أول (غرفة) عمليات حرب، يكون فيها قائد المعركة الأعظم ـ ومعه خاصة قواد جنده ومساعدوه في إدارة المعركة، والحاملون لأوامره إلى عامة الجند ـ في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ المعارك الحربية عامة.

وفي الموضع الثاني عند ابن سعد ذُكِر السعدان: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ على سبيل التردد بينهما في نسبة الكلام الذي أجيب به رسول الله ﷺ على قوله «أشيروا عليّ» لأحدهما غير معين، والمعروف أن سعد ابن معاذ كان من شهود (بدر) باتفاق الرواة، أما سعد بن عبادة فقد جرى فيه الخلاف، هل شهد (بدراً) أو لم يشهدها.

ولعل محمد بن سعد لم يترجح عنده عدم شهود سعد بن عبادة (بدراً) ولا سيما أن شيخه الواقدي ذكر سعد بن عبادة في عداد البدريين، ولعل

محمد بن سعد فهم من كلام شيخه الواقدي أن سعد بن عبادة شهد (بدراً) وكان من أشراف جندها المحاربين.

ترجيح شهود سعد ابن عبادة (بدراً).

وتأويل كلام الواقدي بما قدمناه عن بعض الباحثين من أن مرجعه أن سعد بن عبادة كان حريصاً أشد الحرص على شهودها والتجهز لها ـ كما شهد له النبي ﷺ بذلك ـ ولكنه نُهش فتخلّف عنها، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره ـ لم يره ابن سعد وجهاً مقبولاً، وأجرى الكلام على ظاهره في عدِّه سعد بن عبادة من شهود (بدر)، ولعله حضرها بعد أن ذهب عنه ما خلفه عن مصاحبة جيش المسلمين، ثم لحق بهم.

ويرشح هذا أن اسم سعد بن عبادة لم يذكر في أسماء الذين تخلّفوا عن شهود (بدر) لعلّة وضرب لهم رسول الله ﷺ بسهامهم وأجورهم، وكانوا ثمانية نفر ـ كما ذكرهم ابن سعد ـ ثلاثة من المهاجرين، وهم عثمان ابن عفان، خلّفه رسول الله ﷺ على امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فأقام عليها حتى ماتت، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد بعثهما رسول الله ﷺ يتحسّسان خبر العير.

وخمسة من الأنصار، وهم أبو لبابة بن عبد المنذر، خلفه رسول الله ﷺ على المدينة، وعاصم بن عدي العجلاني خُلِّف على أهل العالية، والحارث بن حاطب العمري، ردّه رسول الله ﷺ من الروحاء إلى بني عمرو ابن عوف لشيء بلغه عنهم، والحارث بن الصمّة، كُسِر بالروحاء، وخوّات ابن جبير كسر أيضاً، فلو كان سعد بن عبادة تخلّف عن شهود (بدر) لنهشته مع شدة حرصه على شهودها لذكر اسمه في أسماء الذين تخلّفوا عن شهودها لعلة مقبولة، وعذر قاهر، ولكانت نهشته بمنزلة كسر الحارث بن الصمة وخوّات بن جبير.

مخالفة ابن سعد لشيخه الواقدي في سياق مشاورة بدر

وابن سعد في صنيعه وسياقته لحديث مشاورة النبي ﷺ أصحابه في قتال المشركين ببدر، إلى جانب مخالفته لجمهور أهل السّير والمغازي في عدم ذكر الجملة القرآنية على لسان المقداد أو لسان بعض الأنصار، سواء أكان أحد السعدَين أم غيرهما، فقد خالف شيخه محمد بن عمر الواقدي في

مغازيه التي ساق فيها الحديث متوافقاً مع الجمهور، فقال: ومضى رسول الله ﷺ حتى إذا كان دُوَين (بدر) أتاه الخبر بمسير قريش، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه بمسيرهم، واستشار رسول الله ﷺ الناس، فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر، فقال فأحسن، ثم قال: يا رسول الله إنها ـ والله ـ قريش وعزّها، والله ما ذلّت منذ عزّت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تُسلم عزَّها أبداً، ولتقاتلنَّك، فاتّهب لذلك أهبته وأعدّ لذلك عدته.

ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امضِ لأمر الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لنبيها: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى بَرْك الغماد لسرنا معك.

قال الواقدي: وبرك الغماد من وراء مكة بخمس ليال من وراء الساحل مما يلي البحر، وهو على ثمان ليال من مكة إلى اليمن ـ فقال له ـ أي للمقداد ـ رسولُ الله ﷺ خيراً ودعا له بخير.

تطلب رسول الله ﷺ رأي الأنصار وإجابة سعد بن معاذ عنهم.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس» وإنما يريد رسول الله ﷺ الأنصار، وكان يظن أن الأنصار لا تنصره إلا في الدار، وذلك أنهم شرطوا له أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم، فقال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ» فقام سعد بن معاذ: فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسول الله تريدنا؟ قال «أجل» قال سعد: إنك عسى أن تكون قد خرجت عن أمر أوحي إليك ثم أوحي إليك في غيره، وإنا قد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن كل ماجئت به حق، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامض يا نبي الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما بقي منا رجل، وصِلْ من شئت، واقطع من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت، والذي نفسي بيده ما سلكت هذا الطريق قط، وما لي بها من علم، وما نكره أن يلقانا عدونا غداً، إنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعل الله يريك منّا ما تقرُّ به عينك.

ثم قال الواقدي: حدثني محمد بن صالح، عن عاصم بن عمر ابن قتادة، عن محمود بن لبيد، قال: قال سعد: يا رسول الله، إنا قد خلّفنا من قومنا قوماً ما نحن بأشد حبّاً لك منهم، ولا أطوع لك منهم، لهم رغبة في الجهاد ونية، ولو ظنُّوا يا رسول الله أنك ملاقٍ عدواً ماتخلّفوا، ولكن إنما ظنُّوا أنها العير، نبني لك عرشاً وتكون فيه ونعدُّ لك رواحلك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن تكن الأخرى جلست على رواحلك فلحقت من وراءنا.

فقال له النبي ﷺ خيراً، وقال ـ أي النبي ﷺ ـ «أويقضي الله خيراً من ذلك يا سعد» قال الواقدي عن محدِّثيه بالسند المتقدم: قالوا: فلما فرغ سعد من المشورة قال رسول الله ﷺ: «سيروا على بركة الله، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم» وأرانا رسول الله ﷺ مصارعهم يومئذ، هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، فما عدا رجل مصرعه لقول النبي ﷺ.

الواقدي يذكر مشورة المقداد في الحديبية ومناقشة كلامه.

ثم أورد الواقدي حديث المقداد في مشاورة رسول الله ﷺ أصحابه في (الحديبية) حين وفدوا عُمّاراً مقتصراً فيه على استشهاد المقداد بالجملة القرآنية، وزاد عليها قوله: لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنامعك ما بقي منا رجل. وقد تقدمت هذه الزيادة منسوبة إلى سعد بن معاذ، وهو أشبه.

ورواية الواقدي لحديث المقداد بن عمرو في مشاورة (الحديبية) لم نرها لغير الواقدي من رواة المغازي والسّير، وقد ذكره الزرقاني في شرحه لمواهب القسطلاني بصيغة التمريض المشعرة بالضعف غير منسوبة للواقدي، فقال بعد أن ساق صاحب المواهب قول أبي بكر الصديق: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدّنا عنه قاتلناه: ويروى أن المقداد بن عمرو قال نحو مقالته يوم (بدر) بعد كلام أبي بكر: إنا والله يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لنبيها: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فقال ﷺ: «فسيروا على اسم الله تعالى».

اختلاف الأحوال في (بدر) عنها في الحديبية.

فهذا السياق لرواية مشورة المقداد في (الحديبية) بمثل ما أشار به في (بدر) مشعر بضعف هذه الرواية وهي حرية أن تكون مما اشتبه فيه الأمر على بعض الرواة، لأن مشاورة (الحديبية) تختلف عن مشاورة (بدر) في أسبابها ودوافعها، ومقاصدهما، ووضع المجتمع المسلم في عدده وعدده وقوته المادية والمعنوية، ووضع مجتمع الكفر والطغيان في ضعف شوكته بما أصابه من الهزائم والتفسخ في كيانه، وقتل أشرافه، وإذلال زعمائه في غزوات سابقة على الحديبية.

فالمشاورة في قتال (بدر) كان الهدف منها تعرف رأي الأنصار، وكشف ما انطوت عليه دخائل أنفسهم في هذا القتال المفاجىء، غير المتكافىء في ميزان القوة المادية عدداً وعتاداً.

والأنصار كانوا في (بدر) أعداد الناس وغمرة المجتمع المسلم الذي خرج مع النبي ﷺ، وكانوا عاهدوا رسول الله ﷺ في بيعتهم الكبرى، بيعة السبعين عند العقبة، فقالوا: يا رسول الله إنّا برءاء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا، وكان النبي ﷺ يريد بهذه المشاورة أن يؤكد هذا العهد في نصرتهم له على كل من يريده أو يريد دعوته إلى الله بسوء في دار هجرته أو خارجها، فكانت الأنصار في إجابتها له ﷺ وفي أفعالها وطاعتها لأمره فوق مستوى البطولة الفدائية داخل دارهم وخارجها، وصَدَقوا ما عاهدوا الله ورسوله عليه، وصدقهم الله فأثنى عليهم في تنزيله وأنزل فيهم آيات تتلى اعتقاداً وتعبداً وسلوكاً.

شدّة تأزم الموقف كانت في أشد الحاجة إلى إعلان رأي الأنصار وبطولة المقداد.

وكان موقف المجتمع المسلم شديد التأزم، يحتاج إلى لون من الشجاعة الفدائية تُزكي فيه حرارة العزائم الماضية، وتضيء له طريق الاستشهاد في سبيل العقيدة، وتحبِّب له الموت دفاعاً عن كيانه وحفاظاً على وجوده في تركيبه الاجتماعي الجديد، فإذا قام بطل من أبطال هذا المجتمع المسلم في نموذج يمثله المقداد بن عمرو أحد طلائع الإسلام، وأحد نجباء أصحاب رسول الله ﷺ الذين يحفُّون به، يفدونه ويفدون دعوته إلى الله بأرواحهم ودمائهم ـ

مقامه في مشورته التي رواها البخاري وغيره بأصح الأسانيد ووضع بهذه المشورة أول لبنة في بناء صرح الجهاد القتالي الذي ألجىء إليه المجتمع المسلم إلجاء لم يترك له خيرة في موقفه أمام الطغاة من طواغيت الوثنية المادّية الفاجرة المعتدين، ليكون نموذجاً يحتذى في ميادين البطولة ومثلاً يقتدى بـه في التضحية لنصرة الحق والخير، ذلك المقام الذي كان صورة لرسوخ الإيمان وصدق العقيدة، ونموذجاً للفدائية التي تعانق الموت في سبيل عزة الحياة، وكرامة الوجود، فإنما يكون قد أدّى بهذا المقام ما كان يتطلبه الموقف الذي لا حَيْدة عنه، ورسم للمشيرين من بعده منهج السير في طريق الوصول بهذا الموقف إلى نهايته الحميدة من الظفر بالنصر المؤزر، والاستشهاد في سبيل أنبل غاية في موقف يحمل في ثناياه كل عناصر التفاوت المادي بين القوتين، قوة الحق الأعزل إلا من الإيمان، وقوة الفجور الكفور المدجج بكل أسلحة الدمار.

فحشود الشرك والوثنية تجمع العدد الوفير من المقاتلين الذي جلبهم الطغاة من ملأ قريش مستوعبين فيها كل طاقات بيوتاتهم وبطون قبائلهم في أهبة لم تترك وراءها سَبَداً ولا لَبَداً إلا أسهموا به في توفير العتاد والمؤن والسلاح لهذه الحشود المسعورة التي يقودها زعماؤهم وأشرافهم من غطارفة الكفر العنيد، ممن أكل الحقد قلوبهم، وأحرق الحسد والغرور أكبادهم، وملأهم غيظاً حانقاً، وعتواً متجبراً.

وقلة عددية لا أهبة لها ولا عتاد في يدها تجابه هذه الحشود الظالمة الطاغية، إلا رسوخ إيمانها وصادق عزائمها، وقوة يقينها في الله العلي العظيم.

وللإيمان الراسخ، والعزائم الصادقة قوة لا تقف أمامها القوى المادية المتورمة بالغرور وعتو الفجور.

موقف المجتمع المسلم في الحديبية كان موقف قوة مسالمة.

أما مشاورة (الحديبية) فالموقف فيها بين قوة أعزّها الله لإعزاز دينه بها وأمدها بنصره على قلة عددها وضآلة عتادها في وقائع زلزلت أقدام الغرور الفاجر الذي تسربله أحلاس الشرك وعبيد الوثنية المادية الحمقاء، وأدارت

رؤوس الظلم والطغيان إلى أقفيتهم، وحسّت أشرافهم حساً ترك حشودهم أشلاء في مناقير النسور ومخالب الصقور، ووضعت البقية الباقية من طواغيتهم في أحجامها المتهاوية مهانة وضآلة، فكانوا كالفتات المتعفّن في مواطىء الأقدام، فأفنت أشرافهم، وشتّتت جموعهم، وشرّدت فلولهم، وانتزعت غرور الفجور من قلوبهم، وملأت أفئدتهم بالجبن والخور والرعب والهلع والمهانة، فكانوا في حياتهم المتهاوية أشباحاً خاوية وعظاماً نخرة، يمشون على الأرض سكارى بخمر الكمد المغيظ والغم الخانق، لا يعرفون عارفة، ولا ينكرون دواهي فيهم فاشية، حلّت بهم الهزائم المتوالية، فأصابت عقولهم بالشلل، وتفكيرهم بالخبل، وتدبيرهم بالخرف، ومكرهم بالوهن.

سمعوا ـ وهم على ما هم عليه من شتات وذل ـ أن محمداً رسول الله ﷺ قادم عليهم في بضع عشرة مائة من أصحابه المهاجرين والأنصار، زائرين للبيت الحرام، معظّمين له معتمرين، لا يريدون حرباً ولا يقصدون قتالاً، قد ساقوا هديهم بين أيديهم إعلاناً للسلام والأمان لا يحملون معهم سلاحاً إلا سلاح المسافر الآمن، السيوف في أغمادها، فجنّ جنون بقايا الأشباح الخاوية من فلول الفجور الوثني، وجمعوا أشلاءهم واستصرخوا من حولهم من الأعاريب والأحابيش، وكان رسول الله ﷺ قد بعث عيناً له بُسر ابن سفيان الخزاعي الكعبي، وكان حديث عهد بالإسلام لم يُعرف به يومئذ ولم يشهّر اتقاء أذيته إذا دخل في جموع القوم ليعرف أحوالهم وموقفهم من مقدم رسول الله ﷺ إلى مكة في أصحابه عمّاراً، فذهب بسر واستطلع وعرف، ثم عاد إلى رسول الله ﷺ ينبّؤه بما رأى وسمع، فقال له: إن قريشاً قد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، ومانعوك من دخول مكة، وقد خرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله ألّا تدخلها عليهم عنوة أبداً.

سياسة حكيمة وعزيمة إيمانية لا تقهر.

وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قدّموها إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله

عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة».

ثم قال ﷺ إمعاناً في قصده المسالمة: «مَنْ رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها» فانتهض رجل وقال: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقاً وعراً بين شِعاب كثيرة الحجارة حتى خرجوا منه.

ثم قال رسول الله ﷺ للناس: «اسلكوا ذات اليمين» في طريق يخرجهم إلى وسط الحديبية من أسفل مكة، فلما رأت خيل قريش التي كان عليها خالد بن الوليد عجاجة الجيش وعرفوا أنهم قد خالفوا طريقهم خافوا أن يبغتَ جيش المجتمع المسلم مكة وقريشها، فركضوا راجعين إلى قريش لتحذيرهم.

ولما بلغ رسول الله ﷺ مهبط (الحديبية) عند موضع كان يعرف بثنية المرار بركت به ناقته القصواء، فجعل الصحابة يزجرونها ويقولون: حل، حل، فلمّا لم تقم لزجرهم قالوا خلأت القصواء، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت، وما هو لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خِطَّة يسألوني فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها».

فأين يقع كلام المقداد في هذه المشورة، وهو بعينه كلامٌ قيل في وقته ومناسبته التي كانت تقتضيه وتتطلبه يوم قتال (بدر)، وقد تغيَّر الموقف في الحديبية عنه في (بدر) إذ في الحديبية كانت موازين الحق والنور والهدى في الدعوة إلى الله قد ثقلت بما وضع الله فيها من انتصارات للمجتمع المسلم هزّت أرجاء الآفاق العربية، وقضت قضاء مبرماً على عنجهية البأو الوثني العنيد، وفجور الغرور العتيّ الذي جلّلت به الشياطين كواهل أوليائهم من طواغيت الشرك المقيت والإلحاد الخبيث، وخفّت موازين العتوّ العنيد المستكبر عند طواغيت الملأ من بقايا أشباح الهزائم المتوالية، فلم يبق منها إلا خيالات المذلّة والهوان، وهي تمشي منكوسة لا تعرف فوقها من تحتها من هول ما أصابها.

أما في (بدر) يوم أن قال المقداد رضي الله عنه مايجب أن يقال في وقته ومناسبته، فقد كان المجتمع المسلم الناشىء في مهده الاجتماعي قليلَ العدد، فقيد العدة، ليس له من سلاح إلا إيمانه بعقيدته، وفدائيته لدعوته دعوة التوحيد الخالص لله تعالى، والإصلاح الاجتماعي الذي يستنـزل طواغيت الشرك من ذُرى رواسي الفجور العنيد المستكبر إلى أرض العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات بين أفراد الناس وجماعاتهم، وإلى أرض الإخاء المتراحم المتواسي، مع المستضعفين في الأرض من المعذَّبين فيها بشدائد الحرمان، المستعبدين للقمة العيش وهي في أيدي الطغاة من أحلاس الكفر الفاجر، لا يلقونها إلى المستضعفين المستعبدين لها إلا إذا سلبوهم الحياة في عزتها وكرامتها.

بهذا التحقيق يظهر أنَّه لا وجه لذكر مشورة للمقداد في الحديبية

فالحق الذي لا يقبل التردد، ولا يجري وراء الروايات هنا وهناك أنْ لا محل، ولا وجه لذكر مشورة للمقداد في (الحديبية) بالصورة التي جلبتها الرواية لاختلاف الموقف بين حالة المجتمع المسلم الجديد، وبين المشركين الـذين أنهكتهم الحرب وأضعفت شـوكتهم، وفضَّت جمـوعهم، وأفنَت طواغيتهم وقتلت أشرافهم، وأذلَّت من بقي من أشباحهم، لأن الدواعي والدوافع التي دفعت بالمقداد إلى أن يقول كلمته البطولية الشجاعة لم تكن في (الحديبية) كما كانت في (بدر) لاختلاف الحال اختلافاً كبيراً بين الموقفين.

ولم نرَ أحداً من الرواة والمحدِّثين ذكر أن أحداً من الصحابة تكلم في مشاورة (الحديبية) سوى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وسوى ما قاله ابن حجر في مشورة سعد بن عبادة في (بدر) عند مسلم أنه وقع عند الطبراني أن سعد بن عبادة قال ذلك في (الحديبية) قال ابن حجر: وهو أولى بالصواب.

لا وجه لتصويب ابن حجر رواية الطبراني وتقديمها على رواية مسلم

ولا نرى وجهاً لتصويب ابن حجر، لأن رواية مسلم صريحة بأن مشورة سعد بن عبادة كانت في بدء المشاورة للخروج لعير أبي سفيان، ولم تكن للقتال في (بدر) ولا في (الحديبية)، فترجيح ابن حجر لما وقع عند الطبراني على صريح رواية مسلم مجازفة لا تستند إلى دليل وبين إسناد مسلم وإسناد الطبراني مفاوز لا تجري فيها معاجم الطبراني.

ثم يقال: ما الداعي إلى أن يكرر المقداد ـ كما زعم الواقدي ـ كلمته التي قالها في (بدر) وفيها الاستشهاد بالجملة القرآنية من سورة المائدة في موقف (الحديبية) دون أن تشتمل على شيء يخرجها عن إطارها في (بدر)، أو يشير إلى مناسبتها في موقف (الحديبية) كما صنع أبو بكر الصديق رضي الله عنه في كلمتيه في (بدر) و(الحديبية) فقد أعطى لكل مقام حقَّه من المناسبة.

وقد عرف أن مشاورة (بدر) كان المقصود بها استطلاع رأي الأنصار ولذلك تكلموا بعد كلمة المقداد إذ عرفوا أن رسول الله ﷺ يريدهم بالمشاورة، فكانوا حاملي ألوية البطولية والشجاعة والفدائية التي لا ترهب الموت ولا تبالي بأعظم المشقات، فأقروا عين رسول الله ﷺ في موقف كانت تحيط به الأزمات والشدائد من كل جانب، ففرّج الله بموقفهم عن المسلمين ضوائق الأزمات، وخاضوا غمرات القتال بقوة الإيمان وصدق العزائم وحب الموت في سبيل الوفاء بعهودهم ومواثيقهم التي عاهدوا بها رسول الله ﷺ، وواثقوه فيها على أن يحموه ويحموا دعوته التي آمنوا بها، فيمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، بل كان ﷺ أعزَّ عليهم من أنفسهم وأبنائهم، فنصرهم الله نصراً ردّدت أصداءه آفاقُ أرض العرب من سائر أقطارها، مدوّية تحمل الشاردين والمتربصين إلى حظائر الإيمان أفواجاً متتابعين، يعطون بأيديهم ما كانوا عنه معرضين.

نموذج من الشدائد التي لقيها المسلمون في سيرهم إلى بدر.

وقد كان من الطبيعي الذي تقضي به العوامل المحتفة بالموقف ـ كما صوّرناه ـ أن يلقَى المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ ـ وهم على ما كانوا عليه من قلّة في العدد وافتقاد العدّة في المراكب والسلاح والمؤن في سيرهم إلى قتال (بدر)، بعد أن تحتّم عليهم ذلك السير لملاقاة أعدائهم المهاجمين لهم في ديارهم بحشود توافرت لها جميع أسباب القوة المادية ـ شدة شديدة، وأزمات قاسية عصيّة، ومشقات مضنيات كان النبي ﷺ فيها هو المثل الأعلى صبراً على لأوائها واحتمالاً لآثارها، لتتأسى به أمته ووارثو أمانة دعوته في مواقف الشدة والأزمات التي ستلقاها في حياتها، وهي حاملة لألوية الجهاد في سبيل نشر الحق والخير والهدى والنور والدعوة إلى الله لإخراج الناس من ظلمات

البغي، وتسلّط الأقوياء على الضعفاء، واستعباد القادرين للعاجزين من أجل لقمة العيش إلى نور العدل والحرية والإخاء..

فعدد المسلمين كان زهاء ثلاثمئة رجل، معهم سبعون بعيراً يعتقبونها، وكانوا على حالةمن الضعف وقلة الزاد والمؤن بعثت في نفس رسول الله ﷺ الإشفاق عليهم والرحمة لهم والرأفة بهم، فدعا لهم حين خرجوا فقال: اللّهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم».

أما عدد أعدائهم المشركين فكان ألف رجل اجتمعت فيهم زعامات قريش وأشرافها، وكان معهم سبعمائة بعير ومائتا فرس، ولهم من مؤن الطعام والسلاح ما بلغ بهم مبلغ الترف والفجور كما تصوره كلمات لعينهم الفاسق أبي جهل إذ يقول في ردّه على أبي سفيان بعد أن أحرز عيره ونَجَا بها، فأرسل إلى قريش رسوله الثاني يقول لهم: إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجّاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد (بدراً) فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً.

روى الإمام أحمد من طريق زرّ بن حُبَيش عن عبدالله بن مسعود قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعليّ زميلي رسول الله ﷺ، فكانت عقبة رسول الله ﷺ - أي دوره في المشي - فقال له زميلاه إشفاقاً عليه، وإيثاراً له ﷺ بالراحة من مشقة المشي: نحن نمشي عنك، فقال لهما ﷺ: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أناأغنى عن الأجر منكما» وهذه دعامة من دعامات منهج الرسالة.

وزمالةأبي لبابة مع عليّ لرسول الله ﷺ في اعتقابهم بعيراً كانت قبل أن يردّ رسول الله ﷺ أبا لبابة من الروحاء إلى المدينة المنورة ليكون على أهلها والحفظ لها.

فلما ردّه جُعل مكانه في رفقة رسول الله ﷺ مع عليّ بن أبي طالب مرثد بن أبي مرثد، وزمالة مرثد بن أبي مرثد لرسول الله ﷺ مع عليّ ذكرها

ابن إسحاق مقتصراً عليها، ولم يذكر أبا لبابة فقال: كان رسول الله ﷺ هو وعلي بن أبي طالب، ومرثد بن أبي مرثد يعتقبون بعيراً واحداً، وكان حمزة وزيد بن حارثة، وأبو كبشة، وأنسة يعتقبون بعيراً، وبما ذكرنا يعمل بالروايتين ويتم التوفيق بينهما.

اختلاف الروايات في حديث المشاورة في قتال (بدر).

وحديث المشاورة في القتال ببدر اختلفت فيه الروايات مع الاتفاق على وقوع المشاورة ولكن سياقاتها وإسناد المشورة إلى الأشخاص أو الجماعات هوالذي وقع فيه الاختلاف، وقد بيّنا أن أصح روايات المشورة سنداً هي رواية البخاري من حديث ابن مسعود.

وهناك روايات أشرنا إليها تذكر مشورة المقداد بن عمرو مجردة عن الاستشهاد بالجملة القرآنية من آية سورة المائدة، وتضيف الاستشهاد بها إلى بعض الأنصار من غير تعيين لشخص كما في حديث أنس عند أحمد من طريق حُمَيد الطويل، قال أنس رضي الله عنه: استشار النبي ﷺ مخرجه إلى (بدر) فأشار عليه أبو بكر، ثم استشارهم فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقال بعض الأنصار: إياكم يريد رسول الله ﷺ يا معشر الأنصار، فقال بعض الأنصار: يا رسول الله، إذاً لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون﴾ ولكن، والذي بعثك بالحق، لو ضربت أكبادها إلى بَرْك الغماد لاتّبعناك.

فهذا الحديث كالمتدافع مع حديث المقداد بن عمرو برواية البخاري، ولم ينزل في درجة الصحة عن حديث البخاري كما يفيده قول ابن كثير: وهذا إسناد ثلاثي صحيح على شرط الصحيح.

وقد رواه الإمام أحمد عن أنس من طريق ثابت البناني: قال أنس: إن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقال سعد بن عبادة: إيانا يريد رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا.

وهذا الحديث في صحيح مسلم، وقد تمسك به ابن حجر في أن

مشورة سعد بن عبادة لم تكن في قتال (بدر) وإنما كانت في لقاء عير أبي سفيان، وهذا ظاهر في قول أنس رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، وعلى هذه العبارة بنى من رأى أن سعد بن عبادة لم يشهد (بدراً) وقد ناقشنا ذلك، وبيّنا أن عبارة سعد بن عبادة في مشورته لا يكون مثلها في لقاء العير، لأن ذلك لا يتطلب جهداً ومشقة، وإنما تكون في التعرض للقتال وبعد السفر.

حديث المشاورة في إطار يجمع خطوطه الأصيلة وبيان حكمة القصد إلى سماع رأي الأنصار.

وحديث المشاورة في قتال (بدر) انتشر في مواقع من البحث لمقتضيات الدواعي والمناسبة، ونحن نسوقه بإيجاز يجمع أطرافه ويقيّد معالمه الأصيلة ليكون في إطار يحتوي خطوطه المتفرقة، ويجمعها لتكون صورة موحدة المعالم.

بعد أن سمع رسول الله ﷺ رأي الخيِّرَيْن أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق، ثم سمع رأي المقداد التفت ﷺ إلى الأنصار فقال: «أشيروا عليّ أيها الناس» وهو ﷺ يريدهم خاصّة، ليعرف رأيهم، ويكشف عن عزائمهم في أول موقف متأزم مفاجىء تتقدمه نذر الحرب بلفح أوارها، والأنصارُ في هذا الموقف كانوا أعداد الناس إذ كانوا نيِّفاً على أربعين ومائتين، وكان المهاجرون نيّفاً على ستين، وإن الأنصار حين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة السبعين بالعقبة، وهي آخر بيعاتهم بمكة قالوا: يا رسول الله إنا برءاء من ذمامك حتى تصل إلينا في ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره ومنعه إلا ممَّن دهمه بالمدينة من عدوِّه، وأن ليس عليها أن يسير بهم إلى عدو خارج عن بلادهم.

عزائم الإيمان عند الأنصار كما يمثلها رأي زعيمها.

فلما قال ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس» وكرّر ذلك بعد أن سمع رأي المهاجرين ممثّلين في أبي بكر وعمر والمقداد قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «أجل» فقال سعد بن معاذ: قد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامضِ يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا البحر فخضته لخضناه

معك، ما تخلّف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقَى بنا عدونا غداً، إنّا لصُبُر في الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسر على بركة الله.

وليس في إسناد هذا القول إلى سعد بن معاذ هنا منافاة لإسناده إلى سعد بن عبادة في الرواية السابقة لاحتمال أنهما قد اشتركا في حديث المشاورة، لأنهما كانا زعيمي الأنصار، الناطقين بكلمتهم، المعَبِّرين عن عزائمهم، فسعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، فَسُر رسول الله ﷺ بما سمع ونشَّطه ذلك، فقال: «سيروا وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم ويقول: «هذا مصرع فلان» ويضع يده على الأرض هنا وها هنا، فما أماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ.

وفي حديث أبي أيوب الأنصاري عند ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند فيه ابن لهيعة ـ وهو مضعّف عند النقدة ـ أن رسول الله ﷺ قال ونحن بالمدينة: «إني أخبرت عن عيرِ أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قِبَل هذه العير، لعلَّ الله يغنِّمناها»؟ فقلنا: نعم، وخرجنا، فلما سرنا يوماًأويومين، قال لنا رسول الله ﷺ: «ما ترون في القوم؟ فإنهم أُخبروا بمخرجكم» فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال القوم، ولكننا أردنا العير، ثم قال ﷺ: «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك، فقام المقداد بن عمرو فقال: إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) فتمنينا معشر الأنصار لو أنّا قلنا مثل ما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾.

وهذا الحديث إذا كان في ظاهره يتنافى مع موقف الأنصار في الأحاديث الصحيحة التي أظهروا فيها من أول وهلة الشجاعة الفائقة، والبطولة الرائعة والفداء الذي أحاطوا بمعالمه رسول الله ﷺ ودعوته ـ بتسليمهم أنفسهم وأرواحهم ودماءهم للجهاد في سبيل تحقيق ما عاهدوا الله ورسوله عليه،

فصدقوا الوفاء وصدقهم الله بأعظم الثناء ـ فإنه يحمل على أن بعضاً منهم لم يستطيعوا التغلب على الطبيعة البشرية، وهذا البعض هو المراد بقوله تعالى: ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾

رواية أخرى لكلام سعد بن معاذ في مشورته.

وأخرج ابن مردويه من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن وقّاص الليثي، عن أبيه عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى (بدر) حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس، فقال: «كيف ترون» فقال أبو بكر: يا رسول الله، بلغنا أنهم بكذا وكذا، ثم خطب رسول الله ﷺ الناس، فقال: «كيف ترون؟» فقال عمر مثل قول أبي بكر، ثم خطب رسول الله ﷺ، فقال: «كيف ترون؟» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتُها قط، ولا لي بها علم، ولئن سرتَ حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرنَّ معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكم متبعون، ولعل أن تكون خرجتَ لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فأمضِه، فصل حبال من شئت واقطع حبال من شئت، وعادِ من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت به فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرنّ معك.

مواقف الأنصار تمثل وفاءهم وشدة شكيمتهم.

فهذه هي مواقف جمهور الأنصار وكثرتهم الغامرة في وفائهم وشدة شكيمتهم وروعة فدائهم، وشجاعتهم وإيثارهم خوض غمرات الشدائد والأزمات ليقروا عين رسول الله ﷺ، كررتها الروايات الصحيحة الثابتة، وأيدتها وقائعهم في حياتهم حافِّين به ﷺ في سلمه وحربه.

فأين يقع الموقف المستضعف من قلّة عبَّر عنها القرآن بلفظ (فريق) ـ الذي جاء في حديث أبي أيوب الأنصاري بسند فيه ابن لهيعة والكلام في ضعفه مشهور ـ من هذه المواقف العظيمة، والمشاهد المتكررة التي تتجاوب أصداؤها في الآفاق نصرة لدعوة الحق وحماية لرسولها ﷺ.

شرط القيادة الناجحة أن تحيط علماً بأحوال عدوّها وتعد لكل موقف ما يلائمه.

وقد بيّنا فيما سبق أن رسول الله ﷺ كان في منهج لقائه لأعداء دعوته ـ من حشود المشركين في كثرة أعدادهم وتعاظُم عدتهم وقيادة أشرافهم ـ فوق مستوى القيادة السياسية والعسكرية، ومعرفةُ أحوال العدو وقوته المادية والمعنوية هي أول واجبات القيادات المحاربة، وأهمها، وأدعاها للنصر.

فالنبي ﷺ إذْ يعمد إلى الشورى ـ وهي ديباجة المنهج في رسالة الإسلام ـ ليستطلع رأي الذين سيقع عليهم عبء هذا اللقاء القتالي غير المتكافىء في القوة المادية التي هي عماد الحروب في الجاهلية ـ ويلح ﷺ في هذا الاستطلاع ليكشف الأغطية عن مداخل النفوس، ويتعرف على ما تنطوي عليه جوانح أنصاره ليزيد من صرامة عزائم جنده ـ لا يدفع بجنده إلى خضم المعركة حتى يستوعب أخبار أعدائه، ويحيط علماً بقوتهم المادية عدداً وعدّة، ومكاناً وزماناً ليتخذ لكل حالة شكولها ومقتضياتها وملاءماتها.

من حق المجتمع على قائده أن يطلعه على ما عنده من معلومات لا تكشف للعدو خطّة القيادة ليكون المجتمع على بصيرة من موقفه.

وكان هذا هو سر بعثه ﷺ ـ أولاً ـ من يتعرّف له أخبار العير التي خرجوا لملاقاتها وهي تحمل تجارات قريش وأموالها، فبعث بسبس بن عمرو، وعدي بن أبي الزغباء ليتنطّسا له الخبر عن أبي سفيان، فذهبا وعادا إليه بالخبر اليقين، ثم بعث علياً والزبير وسعداً في نفر من أصحابه ليعلموا له علم قريش وهم يزحفون بحشودهم إلى (بدر) فذهبوا إلى مساقي (بدر)، وجاؤوه ببعض روايا قريش وسُقّائهم، فاستخبر هؤلاء الروايا حتى عرف منهم بلحن القول كل ما يجب أن يعرفه قائد حرب عن أعدائه، عرف أعداد حشودهم وعتادهم، ومَنْ مِنْ أشرافهم كان في قيادتهم، وألقى بذلك كله إلى أصحابه وجنده ليكونوا على بصيرة من أمرهم.

وقد كشفت المشاورة في رواياتها المتعددة المختلفة عن قوة إيمانية ادّرعها جند المجتمع المسلم، ولا سيما الأنصار، كما كشفت عن عزائم صارمة ماضية كانت في حركاتها تتخطى حواجز الموت لتقف معه موقف المتطلّب له الذي لا يزورُّ عن مواقعه في سبيل مكارم الوفاء بالعهود والمواثيق، ونصرة الحق الذين آمنوا به إيماناً استسهلوا معه كل مشقّات الحياة متاعبها ومصاعبها وأزماتها.

دهاء أبي سفيان وحذره في قيادة عير قريش التي تحمل أموالها والنجاة بها.

كان أبو سفيان، صخر بن حرب أحد دهاة قريش ورجالاتها الذين تئل إليهم ملمّاتها وكبريات أحداثها، وكان حذراً يأخذ للمواقف عدّتها، وزاد من حذره ودهائه أن كان قائد العير التي خرج إليها النبي ﷺ في أصحابه ليغنموها إرهاباً لقريش واسترداداً لما اغتصبوه وسلبوه من أموال طلائع الإيمان بمكة.

وكانت هذه العير أعظم قوافل قريش في كثرة أموالها التي بلغت أكثر من خمسين ألف دينار والتي أسهم فيها كل ذي دينار ودرهم في قريش، وكان أبو سفيان كلما قرب من الحجاز في أوبته من الشام ازداد حذره تخوفاً من تعرض المجتمع المسلم لقافلته فيفجع قريشاً في ثرواتها وأموالها، ويقطع طريقها في تجارتها، فجعل يتحسّس الأخبار، حتى إذا دنا من مساقي بدر أتته الأخبار بترصّد رسول الله ﷺ في أصحابه للعير، فأسرع وضرب وجه العير مغيِّراً طريقه إلى الساحل، وترك بدراً وراء ظهره، وانطلق مسرعاً يبغي النجاة، وكان قد أرسل إلى قريش يستنفرهم ليدركوا أموالهم ورجالهم، فهبَّت قريش، وأقبلت في أهبتها المستوعبة عدداً وعدة يقودها أشرافها وطواغيت ملئها للحرب، يسوقها إلى حتفها الغرور المسعور، والفجور الكفور حتى نزلت الجحفة، وأرسل إليهم أبو سفيان رسولاً آخر حينما رأى أنه نجا بالعير، يستردهم عن نفيرهم فأبى عليهم فاسقهم غميز الرجولية أبو جهل بن هشام إلا أن يمضوا لأقدارهم ليلقوا حتوفهم وهم يهوون إلى ظلمات القليب أشباحاً متعفنة، وقال كلمته الفاجرة: والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم فيه ثلاثاً، فننحر الجزر، ونُطعم الطعام، ونُسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً؛ فامضوا.

كانت قريش في خضوعها لفاسقها أبي جهل كالجمل المخشوش.

ومضت قريش وطواغيتها كما يمضي العبيد المسخّرون بسياط القهر والفجور التي ألقتها إليهم أوامر هذا اللعين الفاسق، فنزلت بحشودها بالعدوة القصوى من وادي بدر، وكان النبي ﷺوأصحابه قد نزلوا بالعدوة الدنيا، وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا

وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾.

مشورة حباب ابن المنذر في منزل جنود الله ببدر وأثرها في المعركة.

وخرج رسول الله ﷺ يبادر أعداءه إلى الماء حتى جاء أدنى ماء من بدر نزل به، فقال له الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أهذا المنزل منزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

قال الحباب: يا رسول الله، ليس هذا بمنزل، فامضِ بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغوِّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي».

وأخذ النبي ﷺ برأي الحباب ومشورته العسكرية السياسية لما فيه من تحقيق مصلحة المجتمع المسلم الحربية باعتباره نقطة من نقاط التدبير المحكم لخوض المعركة بعد التمهيد لها بما يقوِّي عزائم جند الحق، ويخضد شوكة جند الشيطان، ويهزّ عزائمهم، ويشتِّت أفكارهم ويربك تدبيرهم، ويشغلهم بالتفكير في الحصول على الماء وهو ضرورة من ضروريات الحياة، ولا سيما عند خوض المعركة في جو صحراوي مشتعل بلفحات السموم.

وهذا السياق ـ الدال على أن رسول الله ﷺ نزل بجيشه حيث نزل على أدنى ماء من بدر، فأشار عليه الحباب بن المنذر بماأشار ـ هو ما عليه جمهور أهل المغازي والسِّيَر.

بيد أن ابن القيِّم في كتابه (الهدي) ساقه مساقاً يدل على أن النبي ﷺ هو الذي بدأ أصحابه بالاستشارة في المنزل، فأشار عليه الحباب بما رضيه ﷺ وأنزل فيه جيشه.

رأى ابن القيم في مشاورة الصحابة في منزلهم ببدر.

قال ابن القيم: وسار رسول الله ﷺ حتى نزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر، فقال ﷺ: «أشيروا عليّ في المنزل» فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أنا عالم بها وبقُلُبها، إن رأيت أن تسير إلى قُلُب قد عرفناها، فهي

كثيرة الماء عذبة فننزل عليها، ونسبق القوم إليها ونغوِّر ما سواها من المياه.

فسبق رسول الله ﷺ وأصحابه إلى الماء، فنزلوا عليه شطر الليل، وصنعوا الحياض ثم غوّروا ما عداها من المياه، ونزل رسول الله ﷺ وأصحابه على الحياض.

وهذا لون من ألوان تطبيق منهج المجتمع المسلم الذي رسمه رسول الله ﷺ لتقوم على دعائمه حياة هذا المجتمع عملاً بأمر الله تعالى في قوله جل شأنه لرسوله ﷺ: ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وإظهاراً لمنقبة من أعظم مناقب هذا المجتمع في حياته الاجتماعية، وصَفَهم الله تعالى بها، فكانت خلقاً من أخلاقهم وعملاً أساسياً تقوم عليه أعمالهم في الحياة.

مكانة الشورى في المنهج النبوي وأثرها في تربية المجتمع المسلم.

والشورى هي المقياس العملي لتطبيق دستور المؤاخاة الاجتماعية التكافلية التي عقدها رسول الله ﷺ بين عامة المجتمع المسلم وخاصته وسجلها في كتاب صار وثيقة من وثائق المنهج النبوي الذي ربى عليه النبي ﷺ أمته، وجعله مصدراً من مصادر التأسِّي به في قيادة أمته وتوجيهها حتى يكون قادة المجتمع المسلم في مستقبل حياته كلها قائمين على دعائم الشورى التي تجمع رأي ذوي الرأي والتفكير الموفق في المجتمع، وتبعث الطمأنينة في قلوب العامة، فيتوحد الهدف وتجتمع الكلمة على سواء، ويقبل الأفراد والجماعات على العمل في قوة مؤمنة بالحق وعزائم ماضية لتحقيق مقاصد المجتمع المسلم.

وحتى تقوم الدعوة إلى الله على ما يبثُّه الدعاة من ورثة المنهج النبوي من أصول هذا المنهج وأهدافه التي تعتمد على وحدة الايمان، ووحدة التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع المسلم وجماعاته قولاً وعملاً.

ومشورةُ الحباب بن المنذر في المنزل الذي أنزل فيه رسول الله ﷺ جيشه، وأخذ رسول الله ﷺ بها، وتزكيته لها بقوله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي» توجبُ على ذوي العلم والحنكة التجريبية في مواقف الأزمات أن يمَحضُوا القادة النصح، وأن يجهروا بماعندهم من علم وتجربة، كما توجب

على القادة أن يتقبّلوا الرأي من ذويه، والنصح من الناصحين، وأن ينوِّهوا بمايرونه محققاً لمصلحة المجتمع ليشجعوا ذوي التجارب على الجهر بأفكارهم وتجاربهم، ليعرف كل فرد في المجتمع أنه يملك حق الجهر برأيه، والميزانُ العام لوزن الأفكار والآراء إنما هو صالح المجتمع المسلم، فأينما كان هذا الصالح كان الصواب الذي يجب الأخذ به، مهما كان شأن صاحب الرأي والمشورة.

وأفراد المجتمع سواسية أمام الحق والصالح العام ما لم يكن هناك أمر أو أمور تقتضي الذهاب إلى خلاف ما يظهر في مجال الشورى.

وقد كان الحباب حصيفاً عاقلاً لبيباً عارفاً بقدر النبي ﷺ ومقامه من ربه، وما امتاز به من الاصطفاء بالوحي الذي يسدّده ويريه ما لا يرى الناس في أفكارهم وتجاربهم.

فهو رضي الله عنه لم يهجم بمشورته على رسول الله ﷺ دون تمهيد يتعرف به الحكمة في عمل رسول الله ﷺ، وهل هو من قبيل ما اختص به من الاصطفاء بالوحي، فليس لأحد أن يتقدّم عليه أو يتأخر عنه، بل يجب التسليم به والقبول له والاتباع والطاعة، أو هو من قبيل الرأي الاجتهادي الذي يسمح بإبداء غيره من الرأي الذي تؤيده المعرفة التجريبية؟ ولرسول الله ﷺ الرأي الأعلى وراء ذلك.

وإنما تقدم في أدب الاتباع والطاعة إلى رسول الله ﷺ وسأله ليتعرّف مرجع عمله في إنزال الجيش حيث أنزله، هل هو من قبيل أمر الله ووحيه، أو هو من قبَيل الرأي الاجتهادي في الحرب ومكيدة الأعداء، فأخبره رسول الله ﷺ أنه الرأي والحرب والمكيدة، وهنا أشار الحباب بما عنده من علم وتجربة معلّلاً رأيه بأسباب رضيها رسول الله ﷺ، وعمل بها فقال: يا رسول الله، ليس هذا بمنزل: أي بحسب التجارب التي وصل إليها علم المجرِّبين - ثم أشار بالرأي إذ قال: فامضِ بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فننزله ثم نغوّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

فنهض ﷺ بالناس من منزلهم إلى المنزل الذي أشار به الحباب:

وسرّ ﷺ بذلك، وقال للحباب: «أشرت بالرأي» وعند ابن سعد فنزل جبريل فقال: الرأي ما أشار به الحباب.

الشورى أعظم دعائم منهج رسالة الإسلام.

ومواقف رسول الله ﷺ في الشورى لا يكاد يحصرها العدّ، وقد دوّن العلماء منها الكثير المفيد، والمشورة في حكمتها التي ذكرنا منها ما سنح للخاطر تزيد من قدر رسول الله ﷺ وفوقه العقلي والفكري على كل من سواه: فهو بهذه المشورة في غير ما خصّه الله به من الاصطفاء بالوحي يضع بشريته في مستوى الكمال البشري الذي خلقه الله عليه، وكان مناط اصطفائه لأعظم رسالات الله تعالى إلى الخلق، ويبعث في مجتمعه المسلم روح المشاركة في الرأي وتحمل المسؤولية في عظائم الأمور، فلا يتعاظم أحد بتفكيره من الإصغاء إلى تفكير غيره، ولا يُحمل المجتمع المسلم بغير إرادته على الانقياد والخضوع لرأي فرد مهما عظم شأنه بالدعايات التي تحيطه بها شراذم النفعيين، ومن هنا كانت مشاورة النبي ﷺ لأصحابه دروساً في التربية الاجتماعية التي تحقق التكافل بين أفراد المجتمع وجماعاته، ففي المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما رأيت أحداً قط أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ.

قبل رسول الله ﷺ مشورة الحباب بن المنذر لما فيها من العلم التجريبي المحقق لمصلحة المجتمع المسلم، ونهض بالناس حتى أتى أدنى ماء من أعدائه فنزل عليه، وأمر بالقُلُب فغُوِّرت، وأمر ببناء حوض على القليب الذي نزل عليه فملىء ماء، ثم قذفوا الآنية ليشربوا بها منه.

وتداعى الناس لأخذ مواقف القتال بعد أن استحكمت حلقة المواجهة بين الجمعين، وقال سعد بن معاذ ـ وكان على حرس رسول الله ﷺ ـ يا رسول الله، ألا نبني عريشاً تكون فيه ونعدّ عندك ركائبك، ثم نلقَى عدونا، فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن تكن الأخرى جلست على ركائبك فلحقتَ بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلّف عنك قوم ما نحن بأشدّ لك حباً منهم، ولو ظنّوا أنك تلقَى حرباً ما تخلّفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً ودعا

له بخير، وبني العريش فكان فيه رسول الله ﷺ، معه أبو بكر الصديق لحراسته الخاصة، ليس معه أحد غيره فيه، ووقف سعد بن معاذ متوشحاً سيفه في نفر من الأنصار على باب العريش يحرسونه ﷺ حتى لا يدنو أحد من عريشه.

شهادة أشجع الأبطال بشجاعة أشجع الناس.

وفي مسند البزار أن علياً رضي الله عنه خطب الناس فقال: يا أيها الناس من أشجع الناس؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن هو أبو بكر، إنا جعلنا للنبي ﷺ عريشاً، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ، لئلا يهوي إليه أحد من المشركين، فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رسول الله ﷺ لا يهوي إليه أحد إلا أهوى إليه، فهذا أشجع الناس.

وأقبلت قريش منحدرة، فلما رآهم رسول الله ﷺ في غرورهم الأحمق يتواثبون تواثب الجِنّة من شياطين المردة توجه إلى الله تعالى متضرعاً وهو يقول: «اللّهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها تحادّك وتكذِّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحْنِهم الغداة».

ثم دخل رسول الله ﷺ عريشه، معه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ووقف سعد بن معاذ في رجال من الأنصار على باب العريش.

ونزل الناس منازلهم، وساق الشيطان جماعة من فتيان قريش إلى حوض رسول الله ﷺ، وكان في زمرتهم حكيم بن حزام، فَنَهَم بهم جند الله أن يمنعوهم منه قعصاً بالسيوف، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوهم» فما شرب منهم رجل منه يومئذ إلا قتل، غير حكيم بن حزام، فإنه نجا من القتل، بعد أن ذاق من الرعب والخوف والارتياع والهلع ما أذهله عن نفسه، فلما أسلم وحسن إسلامه كان إذا اجتهد في يمينه قال: لا، والذي نجّاني يوم بدر.

(بدر) غزوة الوفاء الأنصاري ومفتاح الفتح المبين.

وكانت هذه الغزوة المباركة ـ بعظمتها وثقل عبئها، وما وقع فيها من عظائم الأحداث، وما ترتب عليها من نصر مؤزر، وفتوحات، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، ودويّ عمّ آفاق الجزيرة العربية، وزلزل أقدام

أعداء الله وأعداء رسوله، وأرعب قلوب المتربصين في ثقل عبئها - غزوة الأنصار في وفائهم بعهودهم، وافتدائهم لعقيدتهم عقيدة التوحيد، وحبِّهم لرسول الله ﷺ، فقد كانوا فيها غَمْرة الناس، وأعدادهم، وقد بذلوا فيهاأرواحهم ودماءهم وأموالهم، روى البخاري من حديث البراء بن عازب قال: لقد استُصغرت أنا وابن عمر يوم بدر، وكان المهاجرون يوم (بدر) نيِّفاً على ستين، والأنصار نيِّفاً وأربعين ومائتين.

وأخرج البخاري من حديثه أيضاً قال: كنا نتحدث أن أصحاب (بدر) ثلاثمئة وبضع عشرة رجلاً، على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوزه معه إلا مؤمن.

وذكر ابن القيم في (الهدي) تفصيل أعداد من كانوا من جند الله في هذه الغزوة التي فاقت بعظمتها في تاريخ الإسلام كل ما جاء بعدها من الغزوات والفتوحات، فقال: إن المهاجرين كانوا ستة وثمانين، وإن الأوس كانوا أحداً وستين وإن سائر الناس بعد ذلك كانوا من الخزرج.

وقد أبدى ابن القيم حكمة قلة عدد الأوس من الأنصار، فقال: وإنما قل عدد الأوس عن الخزرج وإن كانوا أشد منهم، وأقوى شوكة، وأصبر عند اللقاء لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة، وجاء النفير بغتة، وقال النبي ﷺ: «لا يتّبعنا إلا من كان ظهره حاضراً» فاستأذنه رجال ظهورهم كانت في علو المدينة أن يستأني بهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم، فأبى ﷺ، ولم يكن عزمهم على لقاء العدو ولا أعدُّوا له عدة، ولا تأهبوا له أهبة.

تعبئة رسول الله ﷺ أصحابه لخوض المعركة.

وتدانى الناس، وتزاحف الفريقان قبل أن يصف رسول الله ﷺ جنده للقتال، وكان ﷺ قد أمرهم أن لا يقاتلوا حتى يأذن لهم، ولكن فجور الكفر وطغيان الغرور الأحمق، وعتوّ الحقد الحانق استفزت قريشاً في زحفها حتى كانت على أقرب اشتباك من مواقف جند الله.

وكان رسول الله ﷺ قد دخل عريشه فنام، فجعل أبو بكر الصديق وهو يرى العدو يزداد دنواً من مواقف المسلمين، يوقظ رسول الله ﷺ من نومه، ويقول له: يا رسول الله دنوا منا، فاستيقظ رسول الله ﷺ، وخرج

من عريشه فصفَّ أصحابه، وعبّأهم أحسن تعبية كما في حديث عبد الرحمن ابن عوف عند الترمذي، قال: صفّنا رسول الله ﷺ يوم (بدر) فبدرت بادرة منّا أمام الصف، فنظر إليهم النبي ﷺ، فقال يردهم إلى الصف ويعدِّلهم في أماكنهم منه: «معي، معي».

قصة سواد بن غزية نموذج للحب الفدائي وللعدل في أرفع مثله.

وأخرج ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ عدّل صفوف أصحابه يوم (بدر) وفي يده قَدَح يعدّل به القوم، فمرّ بسواد بن غزية وهو مستنتل عن الصف، فطعن في بطنه بالقدح وقال له: «استو يا سواد» فقال سواد: أوجعتني يا رسول الله وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، فقال «استقد» فاعتنقه سواد فقبّل بطنه، فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على هذا يا سواد» فقال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

في هذا الإطار التوجيهي برز التدبير المحكم الذي وضع به رسول الله ﷺ الخطوط الأولى لمنهج رسالته ﷺ في التطبيق العملي للجهاد القتالي الذي لم يقصد إليه، ولم يخرج مستهدفاً له، ولكنه ألجىء إليه إلجاء في أول معركة واجه فيها أعداءه مواجهة لا تكافؤ فيها بين الجمعين، جمع المجتمع المسلم على ما وصفنا حاله في افتقاده القوة المادية في العدد والعدّة، رجالاً، وسلاحاً، ومؤناً. وجمع حشود الطغيان من فجار الكفرة وطواغيت الشرك، وعبيد الوثنية، وهم على ما وصفنا حالهم في التأهب، واستجماع أنواع القوة المادية في الرجال، والسلاح والمؤن وشراسة الحقد الطاغي، والعتو المحنق المغيظ، واستيعاب الأشراف من زعماء ملأ قريش الذين لم يتركوا وراءهم سوى أبي لهب الذي خلّفه الجبن والرعب، فاستأجر مكانه رجلاً منهم، إلى جانب من كان معهم من الخمور والجواري العازفات المغنيات ووسائل الترف الفاجر وتنفج الغرور.

إطار المنهج النبوي لمسيرة المجتمع المسلم في الدعوة إلى الله وقتال المعتدين.

وفي هذا الإطار رسمنا الصورة التي بدأت بها هذه الغزوة العظيمة المباركة، بما كان لها من مقدّمات وأسباب ودوافع، وبما كان فيها من تتابع أحداث ووقائع وخطط غيّرت وجه التاريخ، وأدارت مسيرته إلى آفاق لم يكن

له بها عهد، وانتهت بالمجتمع المسلم إلى خوض غمرات الحرب، فخاضها بقوة إيمانه، وصارمات عزائمه التي جعلت الموت استشهاداً في سبيل الدفاع عن كيانه وعقيدته التوحيدية أحبّ إليه من الحياة المسترخية المترفة بألوان أحط الشهوات والفجور الوثني البطين المترهل.

غزوة بدر كانت أول مثل تطبيقي عملي لمنهج الرسالة.

وغزوة (بدر) أول وأعظم غزوة في تاريخ الاسلام، جعلها الله مفتاح الفتوحات المتوالية التي نشرت جناحي الرسالة الخاتمة الخالدة على آفاق المعمور من الأرض في مدى زمن لا يتصور فيه الخيال أن تقوم في دائرته دولة، بدأت بفرد من البشر، ليس في يده إلا كتاب منير يدعو الناس جميعاً إلى الله وتوحيده، ويدعوهم إلى إصلاح ذات بينهم، وإلى إقامة العدل، والتواصي بالمرحمة والإخاء والمساواة المتواسية ليحيّوا حياة طيبة يظللها الأمن والاستقرار والمحبة.

وإذا بالحياة تشهد بعد جولات من الكفاح الصبور دولة تبسط سلطانها المهيمن على فجاج الأرض ناشرة لواء العدل الرحيم، آمرة بكل خير، ناهية عن كل شر، محدّدة الحقوق والواجبات للأفراد والجماعات، والشعوب والأمم حاكمين ومحكومين، ليس في دستورها أحد قط فوق القانون.

لقد جعل الله تعالى غزوة (بدر) ـ كما كشفنا عن جوانبها ـ طريقاً معبّداً بما كان فيها من تطبيق منهج الرسالة تطبيقاً عمليّاً إلى الانتصارات التي حققها المجتمع المسلم بوحدته الإيمانية في حياته الانسانية المشرقة المستنيرة التي تخطّى بها هذا المجتمع المسلم حواجز الزمن والمكان في تطبيقه المنهج النبوي تطبيقاً متوائماً مع أطوار الحياة المادية والروحية والفكرية والاجتماعية في الأمم والشعوب.

والذي يمعن النظر في مقدمات هذه الغزوة العظيمة المباركة ونتائجها على الوجه الذي رسمناه يدرك ما كان في سياسة النبي ﷺ كما رسمها منهجه في رسالته من حكمة بالغة، وقوة إيمان قاهرة، وتدبير محكم، وعزيمة حازمة، وإرادة صادقة، ورحمة سابغة، وعدل على نفسه وأقرب المقربين إليه، وتضرع إلى الله مع صدق التوكل عليه، ومشاورة لأصحابه ومشاركة لهم في

مواقفهم، وأسوة لهم في الصبر والمصابرة، والعفو الصفوح، وتشجيع لهم في مواقف البأساء، وتطول في الاحسان لمن أحسن منهم، واستغفار لمن هَفَا، وإقالة لمن عثر، وإرشاد لمن اشتط، وتلطُّف بمن سها أو غلط من كل ما تضمنه منهج رسالته من معالي الأمور ومكارم الأخلاق وعظيم منازل التربية التي كان ﷺ ينزل فيها أصحابه، ليعدّهم للقيادة من بعده إعداداً نفسياً، لينهضوا بأعباء الوراثة في إصلاح الانسانية.

بين كثرة طاغية فاجرة وقلّة مؤمنة وقف المنهج النبوي حاملاً لواء النصر.

أقبلت حشود الشرك في كثرتها الطاغية تجرر أذيال الغطرسة المختالة تحادّ الله ورسوله، ولم يكن يدور بأخلدتها أنها جاءت لتحفر قبورها بأظلافها وتسعى إلى حتفها بأرجلها، في أهبة حربية وعدة قتالية أغطشت أبصارها وأعمت بصائرها، فلم ترَ أمامها في جند الله إلا أنهم (أَكَلَة جَزُور) كما قال فاسقهم غميز الرجولية، ولعين السماء والأرض أبو جهل بن هشام، وهو يقودهم إلى نهايتهم السيئة بزعامة شيخه ومعلمه إبليس، وقد أعماه الحقد الكفور فلم يبصر في جند الله عزائمهم الإيمانية الصارمة التي أرهص إليهم بها متنطِّسهم عمير بن وَهْب، وقد أرسلوه متجسساً ليحزر لهم جند الله عدداً وأهبة، ويعرف لهم إنْ كان لهم كمين أو هم كما يظهرون في قلة عددهم، فجاءهم جاسوسهم بيقين الخبر، وقال لهم: لا أكمنة ولا عدد وراء ما ترون، ولكني رأيت نواضح يثرب تحمل إليكم الموت الناقع، والبلايا تحمل المنايا، لا يُقتل منهم رجل حتى يقتل منكم رجل مثله، قوم ليس لهم مَنَعة إلا سيوفهم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك؟ فَرُوا رأيكم.

وقد قصّر عمير في وصفه كتائب جند الله، ولم يبلغ المدى فيما وراء ما تراه الأبصار الكليلة، لأنه لم يكن يرى سوى ما يراه قومه من أسودة الرجال، وغمّى عليه ما تحمل هذه الأسودة من عزائم الإيمان الصوارم، إذ لم يكن له إلا إدراك أمثل رجل من قومه، فأخبرهم بما رأى ببصره ودهائه الوثني الأغطش.

والقلة المؤمنة لم تخرج لقتال تقصده ولا كانت تتوقعه، أما الكثرة

الفاجرة من حشود الكفر فإنها خرجت بطراً ورئاء الناس للصدِّ عن سبيل الله في حرب تأهَّبت لها بكل ما تملك من عدد وعدة لتستأصل شأفة المجتمع المسلم، ولتقضي على دعوة التـوحيد والإصـلاح التي جاء بها محمد ﷺ ليخرجهم من ظلمات الشرك وأوحال الوثنية إلى نور الإيمان بالله الواحد الأحد، وإلى معرفته بكمال ألوهيته وعدله بين خلقه.

ولكن فجار الشرك غصّوا بهذه الدعوة الإصلاحية الكريمة، فأقضَّت مضاجعهم وعتَوا عن أمر ربهم عتواً شديداً، واستكبروا عن قبول الحق والهدى، وقابلوا الدعوة بالصَّلف والظلم والطغيان تخوفاً على وثنيتهم المادية البليدة أن تنهار وينهار معها مجدهم الكفـور، وشركهم الغبيّ الجهول.

والوثنية والشرك هما عصام سلطانهم على المستضعفين في الأرض الذين يلتفون حولهم تلمظاً لفتات متعفن يتساقط من أشداقهم في تجشـؤ خبيث منكر.

وكم بين من خرج ليسترد حقاً منهوباً ويحمي حوزة منتهكة داعياً إلى الله وتوحيده وتحرير الإنسانية من الظلم الفادح، وإقامة موازين العدل والرحمة والإخاء والمحبة.؟

رعاية الله لجند دينه المجاهدين في سبيله.

وبين من خرج أشراً وبطراً ليقضي على الحق والخير والهدى، بسفك الدماء الطاهرة بغياً وعدواً وهو منغمس في ترف الشرك ومخازي الوثنية.

أولئك جند الله وأنصار دينه، وكتائب رسالته، وحماة دعوته الذين صنعهم الله على عينـه، ورباهم سيد الخلق محمد ﷺ بمنهاجه الدستوري، ليعدّهم قادة للإنسانية إلى آفاق العدل والإخاء المتواسي، والمحبة المُؤْثِرة، ووعدهم على لسان رسوله ﷺ إن هم أخلصوا واستقاموا في سلوكهم على منهاج النبوة الخاتمة واعتصموا بالصبر والتقوى أن ينصرهم على قلة عددهم وضعف عدتهم، فحقَّق لهم ما وعدهم إذْ وفَوا بشرطه من النصر المؤزر، وأخبرهم بذلك ليؤنسهم حتى يستديموا الوفاء بالتمسك بمنهج دستورهم، فقال: ﴿ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكنّاهم في

الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهَوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾ وقال لهم مخاطباً إعزازاً لهم: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾.

استحواذ الشيطان على أهل العتو وفجور الكفر ليتخذ منهم مطايا يجوس بها خلال الحياة ليفسدها.

أما أهل العتوّ وفجور الكفر الذين خرجوا من ديارهم تحيط بهم لعنات الله ومساخطه فهم جند الشيطان وعبّاد الأحجار، الذين اتخذهم إبليس أحلاساً لمراكبه، ومطايا لحقده على كل خيِّر يعرف الله بجلاله وعظمة ألوهيته، متعبداً لوحدانيته، متذللاً لسلطان عزته، كما اتخذهم ـ أيضاً ـ قوالب يصب فيها حسده واستكباره في الأرض، ليجعل منهم وكراً لمفاسد الحياة وضلالاتها، وقد أوعدهم الله بخزي الهزيمة والذل والهوان في الدنيا، وبالعذاب الشديد في الآخرة، فقال تعالى يحرض المؤمنين على قتال هؤلاء الفجرة: ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم، وينصركم عليهم، وَيشْفِ صدور قوم مؤمنين ﴾[1].

وقد أكرم الله المؤمنين فأنجز لهم ما وعدهم، وحقّق وعيده للمشركين، فأذلهم وأخزاهم خزياً دخل معهم في قبورهم ليكون نكالاً لهم فوق ما يعانون من شدائد العذاب، وصحب من تفلّت منهم من سيوف الحق إلى ظلمات مخابئهم في خدور بيوتهم، وهم يرتعدون رعباً من هول ما رأوا في معارك المجتمع المسلم معهم من نصره المبين، ثم وسم جباههم بميسم العار والهوان، ونكس رؤوسهم كأنما لم تكن لهم أعناق تحملها، وألصق معاطسهم بالرغام، وسوّد وجوههم بقتار الخذلان، وباؤوا بالحسرة والخسران بعد بَأْو الغرور والاستكبار.

لقد خرج النبي ﷺ بمن خرج معه من أصحابه، وكانت كثرتهم من الأنصار، لا يريد قتال أحد، ولم يكن ﷺ قد استوعب أصحابه، ولكنه ﷺ خرج بمن كان شاهداً مجلسه إذ أخبرهم أنه يريد عير أبي سفيان وفيها أموال قريش، لعل الله يغنمناها ولم يخرج معه من أصحابه إلا من كان ظهره حاضراً، وأبى ﷺ أن يستأني بمن كان ظهره غير حاضر.

---

(١) سورة التوبة آية (١٤).

دوافع خروج النبي ﷺ في هذه السفرة.

وخرج ﷺ على غير شيء من أهبة الحرب والقتال، ولم يكن يدور بخَلَد أحد من أصحابه أنه ﷺ يلقى حرباً وقتالاً في خَرْجته هذه، وأنهم ظنوها كخرجاته السابقة التي خرج فيها إلى بُواط، وودّان، والأبواء، والعُشَيرة، متعرضاً لعير قريش، منذراً، ومحذِّراً لهم أن يمروا بتجاراتهم على مدينته آمنين مطمئنين.

وليستردَّ منهم ما يمكن استرداده من أموال نهبوها ظلماً وعدواناً من أصحابه في مكة، وهم مستضعفون فيها بين الطغاة الظالمين من طواغيت ملأ قريش وعتاتها وفجّار كفرها.

وليرهبهم، ويريهم قوة مجتمعه المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديد، حتى يدخل في قلوبهم الرعب ويعلموا أن المجتمع المسلم الذي كانوا يضطهدون طلائعه المستضعفين بمكة لم يكن هو المجتمع المستضعف الذي عرفوه من قبل الهجرة، بل هو مجتمع أصبح بعد الهجرة مجتمعاً قوياً بعدده وعدته، وإيمانه ووحدته الإخائية التي جعلها رسول الله ﷺ أصلاً من أصول تركيبه الاجتماعي التكافلي المتواسي في ظل دستور المؤاخاة التي عقدها بين أفراده وجماعاته وسجلها دستوراً له في كتاب جامع محفوظ.

وهو بهذا التركيب الاجتماعي الجديد يستطيع أن يردّ عليهم كيد أعدائه في نحورهم، وأن يكيل لهم بكيلهم في رد اعتدائهم، ويستطيع بقوته المادية والمعنوية المستمدة من قوة إيمانه أن يكسر شوكتهم، ويرعبل جموعهم، ويغمز قناتهم، ويجابه قوتهم المتورمة ببثور الغرور الفاجر بقوة أصيلة أعظم وأجلّ من قوتهم.

تسامع رسول الله ﷺ، وهو مع القلة المؤمنة من أصحابه التي خرجت على غير أهبة واستعداد لحرب أو قتال بزحف حشود الظالمين الطغاة إلى مدينته، فلم يغيِّر من موقفه وعزيمته شيئاً، بل مضى قُدُماً، وجلّى الأمر لأصحابه ليكونوا على بصيرة من أمر مسيرهم، وأخبرهم أنه خرج بهم لملاقاة العير، لا يبغي قتالاً، ولا يقصد حرباً، ولكن العير فاتتهم، وها هي ذي قريش مقبلة بحدِّها وجدِّها وخيلائها وأهبتها في العدد والعدَّة والمؤن

والسلاح يقودها أشرافها طغاة الملأ فيها وزعماؤها وشياطينها وطواغيتها يسوقهم الحقد الأسود، ويدفع مسيرهم الغيظ المحنق، يحادون الله ورسوله، ويريدون استئصال شأفة المجتمع المسلم في جولة ربما لا تحين لهم مثل فرصتها في تجمعهم وحردهم، واستعدادهم لحرب مسعورة تأكل الأخضر واليابس.

لقد كان من السهل المتاح لرسول الله ﷺ أن يبعث إلى من بقي بالمدينة من أصحابه، وهم كثرة من المهاجرين والأنصار، لا يقلون في قوة إيمانهم ومضاء عزائمهم وشجاعتهم وحبهم لرسول الله ﷺ وافتدائهم له بكل ما يملكون من أرواح وأموال، وإخلاصهم لدعوته وحمايتها والدفاع عنها عن إخوانهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ في خَرْجته لملاقاة العير، ثم فاجأتهم الحرب في أهبة غير متكافئة، ولكنه ﷺ لم يفعل من ذلك شيئاً.

وضع المجتمع المسلم في موضع مسؤوليته أمام جحافل الأعداء في هذه المفاجأة.

بل وضع ﷺ بموقفه الذي مضى عليه قدماً أمته في مستقبلها على طريق منهجه في رسالته الذي ينبغي لها أن تتمسك به في حياتها، وأن تطبقه عملياً في جميع مواقفها، لتتحمل مسؤوليتها كاملة في قيادة الانسانية وتبليغ الرسالة ونشرها في الآفاق مهما تكن النتائج والعواقب.

وبلغه ﷺ دنو حشود قريش من (بدر)، فنهض فيمن معه من القلة المؤمنة لملاقاتهم لا يثنيه عن عزيمته ما تحمّل في سفره من مشاق ومتاعب تنوء بها الرواسي الشامخات، وما تحمّل أصحابه من قلة الزاد والمؤن والمراكب، وما هم قادمون عليه وملاقوه من حرب ضروس، وقتال مرير، ينتزع الأرواح ويسفك الدماء، ويرمل النساء، وييتم الأطفال، ويغنم الأموال.

وقد وضع ﷺ لأمته في هذه المرحلة من تطبيق منهج الرسالة قاعدة أن القائد ينبغي له أن يدرس بدقة واستفاضة في طاقات إمكاناته مواقف عدوه، ويتعرّف حاله، ما ظهر منها وما بطن، ويستكشف قوة عدوه ما وسعه البحث والتنقيب ليعرف جوانب هذه القوة حتى يتخذ لكل حالة لبوسها، ولكل موقف ما يناسبه، وهذا من أدق أسرار المعارك الحربية، وأهم واجبات القيادات السياسية والعسكرية.

وخطط الحرب المرسومة على هذا الأساس من العلم المتعمق المحيط بحال العدو في قوته المادية كفيلة أن تعوِّض النقص في القوة المادية من مدخرات القوة المعنوية، وهي أوفر ما تكون عند المجتمع المسلم، لأنها ترتكز على قوة الإيمان وبطولة الفداء، وتعمّق التفكير الذي يجعل من هذه القوة المعنوية قوة تسد الثغرات في القوة المادية، بشرط إحسان استخدام القوة المعنوية في مناسباتها.

وقد كان هذا المنهج هو التطبيق العملي في مواقف المجتمع المسلم، ومعاركه المنتصرة، مع الفروق الهائلة في إعداد الحشود المحاربة.

الحزم في تطبيق منهج الرسالة كان هو العامل الفعَّال في تحقيق النصر.

ونظرةٌ في مواقف الجيوش الإسلامية أمام حشود الأعداء الهائلة أكبر شاهد على أن التطبيق الحازم لمنهج الرسالة كان هو العامل الفعال في تحقيق النصر لجيوش الإسلام في أكثر وقائعها التاريخية.

وذلك واضح في معارك المجتمع المسلم مع حشود أكبر دولتين حاربتهما جيوش الإسلام، هما دولتا الفرس والرومان، ثم زحوف التتار الوحشية والصليبية المتكالبة المتعصبة.

والتاريخ المحقق يذكر أعداد كتائب الإسلام، ويذكر إلى جانبها حشود أعدائهم، فلم تبلغ قط أعداد كتائب الإسلام نصف أعداد جيوش أعدائهم، ولكن التطبيق المحكم والعزائم الماضية والشجاعة البطولية التي ظهرت على أيدي قادة جيوش الإسلام وعلى أيدي أبطال الكتائب الإسلامية كانت هي العوامل المحققة للنصر.

وفي وقائع خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص وأضرابهما في صدر الإسلام، ووقائع عين جالوت وحطِّين في التاريخ الوسيط للإسلام أكبر شاهد على أن التزام تطبيق المنهج النبوي بما فيه من قوى معنوية تأصَّلت على وحدة الإيمان وفداء العقيدة، أجل وأعظم من القوى المادية، بل إن القوة المعنوية هي في الحقيقة القوة التي أخذت بزمام النصر ووضعته في أيدي قادة المجتمع المسلم.

وهكذا كان صنيع رسول الله ﷺ في أول معركة تلتقي فيها القلة المؤمنة بمنهجها الإسلامي بالكثرة الكافرة الفاجرة بغرورها وطيشها الأحمق هو الأساس في الانتصارات الرائعة المتوالية التي حققها المجتمع المسلم في معاركه مع أعدائه، لأن المنهج النبوي كان هو المفتاح أمام الفتوحات الإسلامية ونشر الرسالة في أكمل صورة، عقيدة، وتعبداً، وأنظمة سياسية وعسكرية ومعاملات اجتماعية، وتربية سلوكية؛ مما كان له أعظم الأثر في سرعة نشر الرسالة الخالدة.

وقد ذكرنا فيما سبق صنيع رسول الله ﷺ إذ بلغه دنوّ عير أبي سفيان من أرض الحجاز وهو آيب بها من الشام، فبعث رسول الله ﷺ من يأتيه بخبر هذه العير، فجاءته الأنباء عنها بورودها مياه (بدر)؛ ولكن أبا سفيان قائد العير كان رجلاً دهياً حذراً، يكثر التحسّس خوف التعرض للعير، وفيها أموال كثيرة ورجال قليلون، وكانت العير قد جمعت أموال قريش فقرائها وذوي الثراء فيها حتى بلغت زهاء خمسين ألف دينار، ولم يبق فيهم ذو دينار أو درهم إلا بعث به في هذه العير.

وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في أصحابه للتعرض له ولعيره، فأسرع وضرب وجه العير مخالفاً طريق السابلة وساحل بها فنجا.

هذا موقف من مواقف الحنكة القيادية، وقفه رسول الله ﷺ ليكون سطراً في المنهج التربوي تقرؤه الأمة لتعمل به في حياتها المستقبلة.

وهو موقف استهدف التعرف على حال العدو في سيره، وحله وترحاله، وحاله في عدده، وما معه من أموال ورجال وسلاح.

وكان أبو سفيان إذ عرف بخروج النبي ﷺ في أصحابه للتعرض لعيره قد أرسل إلى قريش يستنفرها لتدرك أموالها، ونهضت قريش على الصعب والذلول موعبة، يقودها أشرافها، متأهبة بكل ما تملك من استعداد وأهبة، وسارت بعددها وعتادها، ومؤنها ومراكبها من الإبل والخيول، معها أسلحتها وخمورها ومعازفها وجواريها، يسوقها غرورها وأحقادها، وصلفها وعنادها، وفجور كفرها وعتو شركها وسعار وثنيتها، ولم تأبه برسالة أبي سفيان الثانية

التي بعث بها إليها يخبرها أنه نجا بعيره وأحرز أموالهم، وطلب إليهم أن يرجعوا، ولكن قريشاً بقيادة فاسقها غميز الرجولية أبي جهل فرعون هذه الأمة ركبها الغرور فأبت أن ترجع عن مسيرها، وصمَّمت على أن تحضر موسم (بدر) ترائي العرب بقوتها المادية لتملأ قلوبهم بهيبتها، وخضعت قريش وأشرافها لقهر طاغوت بني مخزوم أبي جهل، يقودها كما يقاد الجمل المخشوش، وتوارت عقول عقلائها وراء حجاب العصبية الفاجرة.

وأقبلت قريش بصلفها وغطرستها ميممة مياه (بدر) لتعسكر بحشودها عليها، ونزل رسول الله ﷺ بأصحابه حيث أنزله الله بمشورة صاحبه الحباب ابن المنذر، وكان الحباب من ذوي التجارب والحنكة والمعرفة بمواطن الأرض التي التقى فيها الجمعان.

تأكد رسول الله ﷺ بنفسه من معرفة أحوال أعدائه وقصة سفيان الضمري.

وخرج ﷺ ومعه أبو بكر الصدّيق، ليس معهما أحد ليتعرف بنفسه أخبار أعدائه الزاحفين على بلده ومدينته ومجتمعه في جنون من الحقد والطغيان، فعرف ﷺ منزل قريش الذي نزلت به، وعاد إلى معسكر أصحابه وأخبرهم بما علم.

قال ابن إسحاق: ثم ارتحل رسول الله ﷺ حتى نزل قريباً من بدر، فركب هو ورجل من أصحابه ـ قال ابن هشام: هو أبو بكر حتى وقف على شيخ من العرب ـ قال ابن هشام: يقال لهذا الشيخ سفيان الضمري، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال الشيخ الضمري: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما، فقال رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك» فقال الشيخ الضمري: أوذاك بذاك؟ قال «نعم» قال الشيخ الضمري: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا، وكذا، ـ للمكان الذي به رسول الله ﷺ أي المنزل الذي أنزل به أصحابه ـ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به قريش ـ فلما فرغ الشيخ الضمري من خبره، قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نحن من ماء» ثم انصرف عنه، فجعل الشيخ الضمري يقول لنفسه: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟ وظاهر أن جواب

رسول الله ﷺ من المعاريض الموفّقة في براعته ﷺ البيانية.

وقد كان ﷺ قد تعرف على حال أعدائه بشيء من التفصيل الذي يقف به على مدى قوتهم المادية من عدد وعدّة وعتاد، ويقف على من كان فيهم من أشرافهم وطغاة ملئهم الذين ساقتهم أقدارهم إلى نهاية حياتهم، فبعث ﷺ نفراً من أهل الجد والشجاعة والبطولة من أصحابه، ليعرفوا له حال نفير قريش، فذهبوا حتى جاؤوا ماء (بدر) فأصابوا على الماء بعض روايا قريش وسُقَّائها، فأخذوا منهم من كان عنده يقين الخبر وأتوا به إلى معسكر المسلمين، ورسول الله ﷺ قائم يصلّي، وقد حاول الصحابة أن يستخرجوا من الروايا والسقّاء أخبار مجتمع أعدائهم فلم يتم لهم ذلك، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه، وتولّى بنفسه وحكمته وحسن سياسته استطلاع ما عند الروايا والسقّاء من أخبار قريش على ما سقناه فيما تقدم.

حكمة القيادة في تعرف أحوال العدو.

وفي هذا الموقف جانب مهم من جوانب منهج الرسالة يمثل الحكمة القيادية التي ينبغي أن تكون متوافرة عند كل قائد في موقع من مواقع القيادة، ولا سيما مواقع الجهاد القتالي أو السياسي، ليكون موقف المسلم دائماً على مستوى موقف أعدائه في أقل المعايير الضامنة للنصر.

ونهض رسول الله ﷺ بأصحابه وأنزلهم منزلاً أدنى إلى ماء نزلت عنده حشود قريش، ثم أمر ﷺ بتغوير القُلُب فغوّرت وغاض ماؤها، وأمر ببناء حوض على القليب الذي نزل عليه وملىء الحوض ماء وقذفت الآنية ليشرب بها جند المجتمع المسلم، ثم دخل ﷺ إلى عريشه ومعه أبو بكر الصديق، ليس معه أحد سواه شاهراً سيفه، ووقف على باب العريش سعد بن معاذ في نفر من قومه أنصار الله وحماة رسوله ﷺ لحراسته خشية أن يهوي إليه أحد من أعدائه.

وتدانى الجمعان بعد أن عدل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه، وعبأهم أحسن تعبية ورجع إلى عريشه لإدارة المعركة، وقام ﷺ يصلّي ويتضرع ويبتهل، ويدعو ربه متذلّلاً لجلال عظمته مستنزلاً نصره، يهتف داعياً في خشوع العبودية، وهو يقول في دعائه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك، اللهـم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض».

أعظم مواقف العبودية الضارعة
بين يدي الكبرياء الإلهي

موقف عبودية يعجز القلم والمنطق عن تصويره.

وألحّ ﷺ على ربه في الدعاء وقد غمرته في موقفه المتضرع مشاهد العبودية المطلقة محفوفة بأنوار العظمة الربانية، ومجالي الكبرياء والجلال الإلهي الذي ذابت تحت قهر عظمته قوى البشرية ومعالمها وآثارها، وقد تسامت فيه روحانيته ﷺ حتى بلغت من القرب الأعز مقام قاب قوسين أو أدنى.

وسقط رداؤه ﷺ عن منكبيه والصديق أبو بكر من ورائه يلتزمه، ويسوّي عليه رداءه، وقلبه رضي الله عنه يعتصر إشفاقاً عليه ﷺ، وهو يرى ما بلغه في مقام مناجاته ربه ضارعاً متذللاً، خائفاً راجياً، مما تعجز الأقلام والألسنة أن تحيط به خبراً في تصويره والتعبير عنه لتوفيه وصفه في واقعه من الوجود، فلم يملك الصدِّيق في هذا المقام إلا أن يقول بعلم اليقين: يا رسول الله، بعض مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

سؤال حيرة في فهم موقف العبودية المطلقة

وهذا موقف تزلزلت فيه أقدام الراسخين في علم اليقين، وتحيّرت في جنباته عقول العالمين، ومن هنا قال بعض العلماء: كيف يكون الصدّيق وهو قطرة من غيث المقام المحمّدي في موقف المناشد لرسول الله ﷺ، المذكر له أن الله سينجز له وعده بالنصر؟ ورسول الله ﷺ يعلم بعين اليقين أن الله تعالى وعده نصره، وأنه سينجز له وعده.

وهؤلاء يعلِّلون ذلك برقة قلب الصديق رضي الله عنه، وشدة حبه

لرسول الله ﷺ وإشفاقه عليه، كما حكاه السهيلي في روضه عن قاسم ابن ثابت.

وقد جانب التوفيق بعض المحجوبين بحجاب العلم في بيانهم لإشفاق الصدِّيق على رسول الله ﷺ، فبينه بعضهم بعبارة لا تتسم بشيء من مظاهر الأدب اللائق بمقام النبوة المحمدية في مقام يعزّ فيه التعبير المعبّر عن خلجات الحياة في موقف لم يتكرر أبداً في تاريخ الرسالات الإلهية، ومحال أن يتكرر في تاريخ البشرية وأحداثها.

تأويل المحجوبين بحجاب العلم النظري لموقف العبودية المطلقة.

وذلك كالذي قال بعضهم في بيان الإشفاق الصديقي: أي (لم) تتعب نفسك هذا التعب والله قد وعدك بالنصر؟، ونعوذ بالله من زلَّة أقلام العلماء؛ ألمحمد سيد المرسلين وأعلم العالمين برب العالمين يقال: (لم)، وأنّى لهذه الأداة الاستفهامية الخارجة عن طورها في أداء معناها أن تجد لها موقفاً في أسلوب الإشفاق الصدِّيقي في مقام الشهود المحمدي؟ ليت من لم يكن يعرف سكت، ومن عجز عن السباحة نأى بنفسه عن الخوض في غمرات السابحين؟.

وقد وقف الإمام أبو بكر بن العربي عند يقين علمه فيما حكاه عنه تلميذه السهيلي في روضه، فقال: كان رسول الله ﷺ في مقام الخوف وهو أكمل من مقام الرجاء الذي كان فيه الصدِّيق رضي الله عنه لأن لله أن يفعل ما يشاء، فخاف رسول الله ﷺ أن لا يعبد الله في الأرض بعدها، فخوفه ذلك عبادة.

سانحة من فيض الإنعام الرباني

والذي تتحلب إليه سوانح الخواطر في إدراكنا فيما يمكن الوصول إليه من الحقائق في هذا الموقف: أن رسول الله ﷺ كان وهو يتضرع متذللاً إلى الله في خشوع شهد فيه كبرياء جلال الله، وقد تمثل له أصحابه في قلَّة عددهم وعدّتهم وفي أيديهم الحق والهدى والنور والخير يدعون إليه فجّار الشرك والوثنية من طغاة ملأ قريش وغوغائهم، وقد جاؤوهم بقواهم المادّيّة من الرجال والسلاح والمؤن بما يفوق ما كان عليه جند المجتمع المسلم

أضعافاً مضاعفة، وهذا وضع بمقتضى الطبع البشري ووسائل الحياة المألوفة بين الناس لا يمكن أن يتحقق معه نصر لهذه القلة المؤمنة، فوقف رسول الله ﷺ بين يدي ربه متضرعاً يطلب مدداً فوق أمداد المادة التي تتخايل بها قريش في فجورها وغرورها.

وهكذا كان موقف رسول الله ﷺ في مقام العبودية المطلقة الذي تذوب فيه خصائص البشرية حتى لا يبقى لمظاهر العبودية البشرية شيء تردّ إليه أسباب ما يرجى أن يكون من فيض الرحمة الغامرة.

وهنا لا يبقى للعبد شهود لتعبداته مهما كانت ضروبها وأنواعها، وإنما يبقى له مظهر الاستسلام الضارع لسيده، وكأنه مسلوب الرغائب والإرادات، والمحاب والمكاره، بل يصير نقطة في خط القضاء الإلهي تنساب فيها مرادات الله ومشيئاته في مجاري الأقدار، نافذة مبرمة.

فالرحمة والنقمة والرضا والغضب تجليات متمازجة في وحدة من غيث الربوبية، لا تناقض بينها هناك، وهذه الوحدة المتمازجة بالمتناقضات في نظر العقل هي التي يراها محمد ﷺ في مقام العبودية المطلقة، وهو لا يدري ما ينزل من سمائها إلى كون التدبير، فإذا ارتقى إليها من أريد لها في مقام عبوديته المطلقة كان في مشهدها كأنه ذرة من ذرات الوجود، تراوحها الأقدار وتغاديها بما لا يعلم مستقرها ومستودعها في هذه المراوحة والمغاداة إلا الله العليم الحكيم.

لا خوف ولا رجاء في مقام العبودية المطلقة وإنما هو إسلام وتسليم.

كذلك كان رسول الله ﷺ في مناجاته الضارعة بين يدي ربه في مشهد جلاله حيث لا خوف ولا رجاء، ولكن عبودية مطلقة، لا تشهد من الكون إلا أنها ذرة من ذرات وجوده، تقلبها رياح الأقدار بما جرى ويجري به الغيب المحجب عن ذوي الشهود النظري من خاصة المقربين، ولعلّ موقف الشهود النبوي هو المعبِّر عنه تلميحاً بعين اليقين ويقابله موقف شهود الخاصة المعبر عنه بعلم اليقين، وبين مقامي عين اليقين، وعلم اليقين ما بين مقامي علم العالِمين، وشهود المشاهدين، والله تعالى محيط بما كان وما يكون.

أما الصدِّيق رضي الله عنه في موقفه وهو يبدي إشفاقه على رسول

الله ﷺ ويبشره بأن الله تعالى منجز له وعده، فكان في مقام علم اليقين، وهو مقام الإيمان الراسخ واليقين العليم، وهو مقام العلم بالله تعالى ومعرفة سننه العامة والخاصة، وآياته الكونية والتنزلية.

فالصدِّيق يعلم يقيناً أن الله وعد رسوله ﷺ نصره، ويعلم يقيناً أن وعد الله ناجز لا يتخلف، فهو رضي الله عنه كان بإيمانه ويقين علمه وراء رسول الله ﷺ، يشهد ضراعته لربه ويسمع دعاءه له أن ينجز وعده بالنصر، ولكن الصديق لم يشهد إطلاق العبودية في ضراعة رسول الله ﷺ المستسلمة لقهر الربوبية، فانبعث بإيمانه وعلم يقينه معبِّراً عن ذات نفسه وإشفاقه على رسول الله ﷺ ليخفِّف عنه ما يشهده من شدائد المناجاة الضارعة تحقيقاً لموجبات إيمانه وعلم يقينه رضي الله عنه.

والإيمانُ واليقينُ محدودان بالعلم والمعرفة، وعلمُ البشرية ومعارفها محدودان بخصائص البشرية، فقال لرسول الله ﷺ ما أملاه عليه علمه ومعرفته، وهو في إهاب بشريته مخاطباً رسول الله ﷺ بقوله: يا رسول الله، بعض مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

ما بين مقامي عين اليقين وعلم اليقين.

وبين المقامين: مقام عين اليقين بشهود العبودية المطلقة وهو المقام الذي كان فيه رسول الله ﷺ وهو يناشد ربه متضرعاً متذلّلاً، ومقام علم اليقين المكتسب برسوخ الإيمان والعلم بسنن الله في خلقه الذي كان فيه الصدِّيق في إشفاقه ـ من التفاوت ما بين الصدِّيقية المكتسبة من الإيمان بالرسالة والرسول، وبين الرسالة التي لا تكون أبداً إلا بمحض الاصطفاء الإلهي الذي يفيضه الله عز شأنه على من يشاء من عباده، بما استأثر به من سننه الخاصة التي أكنّها في إخباره عنها إخباراً ردّ أسرارها إلى علمه الخاص، الذي لا يطلع عليه أحداً من خلقه كائناً من كان، فقال تعالى: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾.

ومقام الرسالة أجمع لمعالم رسوخ الإيمان، وعلم اليقين، لا يفوته منها شيء قط، ويختص مقام الرسالة بمقام شهود عين اليقين، متدرجاً في مراتبه إلى أن يبلغ أعظم درجاتها، وهو مقام العبودية المطلقة.

الأنبياء والرسل درجات في معارج العبودية.

والرسلُ والأنبياء عليهم الصلاة والسلام درجاتٌ في مدارج العبودية كما قال جل وعلا: ﴿ تلك الرسل فضَّلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾[1] وكما قال عز شأنه: ﴿ ولقد فضَّلنا بعض النبيين على بعض ﴾.

ورسولنا خاتم النبيين محمد ﷺ جعل الله مقام العبودية المطلقة أعظم مقاماته في مدارج رسالته الخاتمة الخالدة.

وبهذا المقام الأعز الأشرف أفرده الله تعالى بالثناء عليه في مقام ضراعته ومناشدته ربه، فقال له ليستخلص أصحابه من شهوات الركون إلى الدنيا بما كان منهم في الأنفال والغنائم فقال تعالى: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ وخصّه به في مقام التقريب الخاص الأقدس والشهود الأمجد، فقال عز اسمه: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريَه من آياتنا ﴾ وبه نوّه الله تعالى في مقام أخص العبودية بدعائه والتضرع له، فقال عز وجل: ﴿ وأنه لمّا قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَداً ﴾.

قال السيوطي في (الدر): أخرج عبد بن حميد، والترمذي والحاكم ـ وصححاه ـ وابن جرير، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله: ﴿وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَداً﴾ قال: لما أتى الجن على رسول الله ﷺ وهو يصلِّي بأصحابه، يركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده عجبوا من طواعية أصحابه له، فقالوا لقومهم: لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَداً.

والصديق رضي الله عنه في جلالة قدره. ومكانته من ذروة الإسلام، وأفضليته على جميع أتباع الأنبياء والمرسلين في رسوخ إيمانه، ويقين علمه؛ إنما

---

(١) سورة البقرة آية (٢٥٣).

الصديق رضي الله عنه نفحة من نفحات النبوة المحمدية، وإشفاقه على رسول الله ثمرة من ثمرات حبه له، وحبه له حب لما جاء به من الهدى والنور.

هو نفحة من نفحات الإيمان بالنبوة الخالدة، والرسالة الخاتمة؛ وانبثاقة من ضياء إشراق شمس محمد ﷺ بالهدى والنور، والخير والله ﴿يختص برحمته من يشاء﴾.

وإشفاقه رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في مقام المناشدة والتضرع بين يدي ربه ـ في موقف تكاثفت فيه الأزمات والشدائد على جماعة المؤمنين ـ لم يخرج عن كونه ثمرة من ثمرات حبه لرسول الله ﷺ، وحبه لرسالته.

وحُبُّه لرسول الله ﷺ إنما كان إبقاء على نفسه ليقود مجتمعه المسلم إلى آفاق الدعوة إلى الله حباً بلغ به ذروة علم اليقين.

فليس هناك قط مجال لموازنة بين المقامين، بَلْه أن يصور مقام الصديق في إشفاقه على رسول الله ﷺ تصويراً يندّ عن مقام التوقير في مقام مجرد الإيمان.

* * *

هدفنا من الحديث عن الغزوات

لم يكن قصدنا من بحث الغزوات تجميع الروايات ولا استيعاب الوقائع والأحداث، ولا سرد القصص، ولا تسجيل أسماء من شهدها من جند المجتمع المسلم، وأسماء من استشهد فيها، ولا أسماء من حضرها من أعداء الإسلام فهلك فيها، أو أفلت من القتل ووقع في ذلِّ الأسر أو عاش في جو المهانة، ولا التنويه بالبطولات والأبطال، ولا ذكر مَن قَتَل مَنْ، فذلك كله مسطور مذكور قد أفعمت به كتب السيرة ودواوينها، فتضخمت به حتى أتخمت.

ولكننا ـ على نهجنا في البحث كله ـ استهدفنا من الحديث فيما تخيرناه من أمهات الغزوات وكبرياتها استخلاص منهج الرسالة الخاتمة الخالدة من ثنايا تطبيق الوقائع والأحداث التي أدتها إلينا صحائح الروايات، وطرائق تطبيقها عملياً على يدي رسول الله ﷺ، وهو يقود كتائب جند الله في جهاد القتال دفعاً لاعتداء المعتدين من أعداء المجتمع المسلم، وإزالة للعقبات التي تعترض طريق تبليغ الرسالة ونشر الدعوة إلى الله، ذلك المجتمع الذي ربّاه

رسول الله ﷺ تربية عملية سلوكية، تنبع من عقيدة التوحيد المحرِّرة للعقل الإنساني من أوضار الشرك بجميع شكوله وألوانه، وانحطاط الوثنية بجميع أنواعها وضروبها، والتعبد لغير الله تعالى من شيء أو إنسان حاكماً أو محكوماً، تأسيساً للحياة الإنسانية على دعائم العزّة البشرية والكرامة الإنسانية بإقامة موازين العدالة بين الأفراد والجماعات، هذه العدالة التي يجب أن تقوم على أداء الواجبات واستيفاء الحقوق، فلا تظلم نفس شيئاً لتستقر الحياة بين الناس جميعاً على التعاون المتآخي والمحبة المتراحمة المتواسية.

قصد البحث من حديث الغزوات إبراز ما فيها من جوانب منهج الرسالة.

فالقصد الأصيل من الحديث عن الغزوات أن نبرز ما في طوايا أحداثها من جوانب منهج الرسالة ليكون هذا المنهج الإلهي نبراساً للأمة، تستضيء بنوره في مسيرتها التاريخية الأبدية المقدّرة لها في قيادة الحياة التي حمّل الله تعالى أمانتها لهذه الأمة المسلمة، فقال لها: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[1].

لأن هذا المنهج هو الذي أقام عليه النبي ﷺ بناء أمته العقدي والتعبدي والنظامي الاجتماعي في ربط علاقات الأمة الداخلية بين أفرادها وجماعاتها على مقتضى دواعي الإخاء الإيماني الذي أُرسيت قواعده في قول الله عز شأنه: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾، وفي ربط علاقاتها الخارجية بينها وبين غيرها من الأمم والشعوب والدولات.

ولهذا كان جهدنا منصباً بقدر ما آتانا الله من طاقة فكرية على تحقيق ما نعرض له من الحوادث التي نلمح فيها لوامع من منهج الرسالة، وتطبيقه عملياً في توجيه رسول الله ﷺ للأحداث وجهتها التي تمثل سلطان منهج الرسالة عليها ـ تحقيقاً يرد الحوادث إلى منابعها، والوقائع إلى أسبابها ودوافعها، والأسباب إلى عواملها الاجتماعية المؤثرة في توجيهها وهي في مسيرة الحياة.

ولهذا عنينا بالإفاضة ـ بما يظن أنه تكرار لروايات الوقائع ـ بتحقيق

(١) سورة آل عمران آية (١١٠).

لا تكرار فيما يبدو ولأول وهلة أنه كذلك ولكنه إثارة لما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم في حياته.

الأسباب والدوافع التي كانت ممهدة لأول وأعظم غزوة في تاريخ الإسلام، وهي أول مواجهة قتالية بين طلائع المجتمع المسلم في قلّة عدد الذين نهضوا للخروج مع رسول الله ﷺ، وضآلة عِدّتهم وعتادهم، وبين مجتمع الفجور في عتو كفرهم، وطغيانهم، وغرورهم بكثرة عددهم، وباهظ عُدتهم وعتادهم من الرجال والسلاح والمؤن إلى جانب ما أفعمت به صدورهم من الحقد الأسود، والطيش الأحمق.

وقد بيّنا في هذا التحقيق أن النبي ﷺ لم يكن يقصد في خَرْجته إلى قتال أحد، بل خرج ـ كما بسطناه بسطاً موثقاً بالروايات الثابتة في أساليب مختلفة ـ ليضع المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديد في عزته وقوة إيمانه بدعوته أمام قوة أعدائه المادّية الفاشلة المنفشة الذين أرادوا أن يدوسوا على كرامته في سيرهم بعيراتهم وقوافل تجاراتهم مارِّين على مدينته ومستقره، وهم يحملون إلى أمواهم أموال طلائع المجتمع المسلم من السبّق الأولين، التي اغتصبوها نهباً وسلباً وظلماً وعدواناً يوم أن كانوا يستضعفونهم في مكة، ويصبون عليهم من صنوف العذاب والبلاء ما لا تطيق احتماله رواسي الشمّخ الراسخات.

ولكن طغاة ملأ قريش وشياطينها وطواغيتها بقيادة فاسقهم غميز الرجولية أبي جهل بن هشام أبوا إلا أن يسيروا بحشودهم الموعبة لكل ما يملكون من قوة مادية في الرجال والسلاح والمؤن ليهاجموا المجتمع المسلم ليستأصلوه من على وجه الأرض، مترحلين إليه من مكة في زحف جرّار، حتى وصلوا إلى (بدر) وعسكروا على مياهها وتأهبوا للقتال، لا يشكُون أنها جولة تقضي فيها كثرتهم الطاغية على القلة المؤمنة المجاهدة لإعلاء كلمة الله.

بهذا العرض لمقدمات هذه الغزوة العظيمة المباركة كشفنا عن الأحداث الهامة كشفاً لا يدع مجالاً لمتردد أو متقوّل، وهو في سياق الأحداث والوقائع صريح في أن تلك الأحداث والوقائع الممهدات لهذه الغزوة لم يدخلها شيء قط من الآيات السماوية والمعجزات المادية، وإنما كانت كلّها

قائمة على دعائم السياسة الحكيمة التي برزت في تطبيق منهج الرسالة تطبيقاً محكماً مسدّداً ومحفوفاً بتوفيق الله، مما يستطيعه كل من أخذ بزمام قيادة الأمة في مستقبلها، ويملك الدعوة إليه، والجهر به ورثة النبوة من العلماء العاملين والقادة الذين لا يخشَون في الله لومة لائم، ولا يخافون سَوْرة طاغ، ولا يهابون ثورة فاجر عنيد، كما يملك أمر القيام بها الساسة المحنَّكون والدعاة إلى الله المستبصرون والجهابذة من ذوي الرأي الممحَّص والأفكار الثواقب المستنيرة.

ليس في مقدمات غزوة بدر معجزات كونية مادية ولكنها كانت دروساً تربوية قامت على الكفاح والنضال.

وهذا نوع من تربية الأمة يقوم على العلم والعمل، العلم بحقائق الرسالة وأحكامها وشرائعها، والعمل الذي يجعل من الرسالة منهجاً عملياً تطبيقياً تعيش الأمة في ظله حياتها كلها ممثلة في جميع شؤونها العقائدية والتعبدية والسياسية والاجتماعية، وبهذه التربية تضمن للأمة ألا يقع زمام قيادها في يد جهول، يتلعب بمقدراتها في حاضرها ومستقبلها ليفسد عليها حياتها ويردّيها في مهاوي المهالك.

تربية الأمَّة على مقتضى منهج الرسالة يصحح وضعها الاجتماعي.

وبهذه التربية تستطيع الأمة أن تذود بكل ما تملك من قوة فكرية أو مادية عن حمى قيادها كل عليم اللسان، مظلم القلب، منافق السلوك، لا يعنيه من أمرها في حاضرها ومستقبلها إلا كلمات مزخرفات، تقال وتنشر هنا وهناك، خاوية من حقائق منهج الرسالة، بعيدة عن التطبيق العملي الذي أخذ به النبي ﷺ مجتمعه المسلم في قيادته له وتربيته تربية تعدّه لقيادة الإنسانية قيادة ترفعها عن الإخلاد إلى الأرض، صاعدة بها إلى آفاق التحرر العقدي والتعبدي والاجتماعي والسياسي أداء لحق اختيارها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أمراً ونهياً لا يقفان عند معايير منحرفة عن بواء المنهج الإلهي الذي لا يفرق في إقامة العدل بين الأشخاص والأمم، فالناس في شرعة المنهج الإلهي سواسية، لا فضل لراع على مرعي، ولا ميزة لكبير على صغير، ولا لقائد على أصغر جندي، ولا لغني على فقير، ولا لحاكم على محكوم، ولا لأمير على مأمور، وليس في المنهج الإلهي سائد ومسود، ولا شريف ومشروف، فالنبي ﷺ يقول وهو يعدّل صفوف جنده لسواد بن غزيّة، وقد وجده خارجاً عن الصف، فغمزه بقدح معه وقال له: «استو يا سواد»، فقال سواد: أوجعتني يا رسول الله وقد

بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف النبي ﷺعن بطنه وقال: «استقد يا سواد» فالإنسانية كلها في منهج الرسالة الخاتمة وحدة من أب واحد وأم واحدة والناس في هذه الوحدة الرّحمية متساوون في الحقوق والواجبات، لا تفاضل بين أفرادهم وجماعاتهم إلا بالعلم بالمنهج الإلهي وموجباته، وتطبيق هذا العلم في وقائع وأحداث يحتضنها الوجود الواقعي في الحياة.

المجتمع المسلم لم يقم بناؤه على المعجزات المادية ولكنه قام على العلم والعمل والصبر على المحن.

والله تعالى لم يقم بناء هذه الأمة المسلمة على المعجزات ليجعلها كسيحة التفكير متواكلة الحركات، متربصة للحظوظ والمصادفات، وإنما أقام بناءها على أساس وحدة إيمانية متماسكة العرى وثيقة الروابط، ووحدة مؤاخاة تكافلية، تجعل من الفرد لبنة في بناء شامخ، تحمل نصيبها في تماسك البناء، والتكافلُ عمل متواصل موصول بالحياة الاجتماعية المتحركة في إطار المنهج الإلهي الذي جعلته الرسالة أساسها في رسوخ الإيمان.

وللمعجزات مناسبات خاصة تقتضيها فتقع عندها، فتكون في وقتها لوناً من ألوان العمل التربوي لإنقاذ الموقف إذا أحاطت به الأزمات واكتنفته الشدائد، وهي مع الإنقاذ تبشير يحرك العزائم حتى تمضي قدماً إلى الهدف شاكرة متحرزة، والمعجزات لا تأتي في منهج الرسالة الخاتمة إلا بعد إعداد تربوي يدخلها في نطاق العمل المحفوف بالتأييد الإلهي المسدّد بالتوفيق.

وقد عرفنا أنه لم يكن قط في مقدمات هذه الغزوة العظيمة المباركة غزوة (بدر) ما يتطلب معجزة مادية، وإنما كان أمر هذه المقدمات تدبيراً يحتاج للحكمة، وتفكيراً يضع الحقائق في مواضعها التي يجب أن توضع فيها، وكانت سياسة حازمة تمضي بالأحداث إلى أهدافها، وكان فيها مواقف آزمة تتطلب تقوية العزائم المؤمنة لتقف أمام الطغيان المتجبر مواقف حازمة، وكان فيها مغالق تستدعي أن تفتح بالشورى، وكان فيها تجارب تقتضي الحنكة والدربة، وكان فيها مفاجآت تستلزم الصبر والمعرفة، وكان فيها مواضع للتجربة تتطلب التقدم بالرأي النصوح كما تتطلب قبوله والعمل به، وكان فيها غوامض لا تستجلي مساتيرها إلا بتحسسها، وكان فيها مظاهر لا تقاوم إلا بمثيلاتها.

وكل ذلك قام به النبي ﷺ قبل التحام القتال على أفضل وأحسن ما يقوم به قائد يقود جنده إلى ميدان لم يكن القتال فيه مقصداً من مقاصده، ولكنه حُمل عليه حملاً، وأُلجىء إليه إلجاء بعد أن لم يكن له سبيل في توقِّيه وتجنبه، مع انعدام التكافؤ المادي بين الجمعين.

والتقى الجمعان، وتواجه الفريقان، وبرقت السيوف، واستطالت الرماح، ووترت القسي، وكشّرت الحرب عن أنيابها، وتزاحف الفريقان، وتنادَى الأبطال للقتال، ودخل النبي ﷺ إلى عريشه وهو ينظر إلى جنده فيرى قلّة عددهم وضعف عدتهم، وينظر إلى أعدائه وأعداء مجتمعه المسلم فيرى كثرتهم وقوة عتادهم المادية وشدة كَلَبهم على جند الله، فيأخذه الإشفاق على أصحابه بمقتضى طبيعته البشرية، بل يستحوذ عليه ﷺ حرصه على رسالته، وتستولي عليه الخشية أن لا يُعبَد الله في الأرض إذا أصيب حماة دعوته بأيدي هؤلاء الطغاة الوثنيين الذين إذا تمكنوا منهم فلن يُبْقُوا على أحد منهم يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً.

استنزال النصر بمنادح العبودية المطلقة.

وهنا يرى رسول الله ﷺ انقطاع الأسباب الأرضية المادية لنصر الله أصحاب رسول الله ﷺ الذين يجاهدون معه لحماية دعوته إلى الحق، وحمايته ﷺ حتى يؤدي رسالة ربه، ويرى أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وأن النصر لهذه القوة المؤمنة لا يكون إلا بمدد غيبي من الله ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾[1] ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾[2] ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾[3] فيلبسه الله تعالى خِلَع العبودية المطلقة التي لا يشهد في مشاهدها الروحانية إلا انطلاق الألوهية في نفاذ إرادتها ومواقع مشيئتها من جميع قيود الأسباب والمسبّبات، ويلجأ ﷺ إلى الله مجرداً من قيود البشرية، يستنصر به ضارعاً متذلِّلاً بين يدي ربه باسطاً أكف الرجاء، متسربلاً رداء الخشية والخوف، لا على نفسه ﷺ ولا على أصحابه، ولكن على رسالته

---

(١) سورة الفتح آية (٤).
(٢) سورة المدثر آية (٣١).
(٣) سورة آل عمران آية (١٢٦).

رسالة الحق التي بعثه الله بها تفريداً لله عز شأنه بحق المعبودية الحقّة فلا يُعبد أحد سواه، ولا يشرك معه آلهة من دونه، هاتفاً بربه يستنصره: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد».

وقد اختلفت عبارات الرواة في أسلوب هذه المناشدة، ففي البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له ـ المراد بهذه القبة العريش الذي بني له ﷺ بإشارة سعد بن معاذ ـ يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً».

وفي حديث حكيم بن حزام عند الواقدي من طرق قال: حضر القتالُ ورسول الله ﷺ رافع يديه يسأل الله النصر، وما وعده، يقول: «اللهم إن ظهروا على هذه العصابة ظهر الشرك ولا يقوم لك دين».

تنزل النصر مع آيات السماء

كان رسول الله ﷺ بعد أن استنفد طاقته البشرية في الأخذ بكل سبب في إعداد أصحابه إعداداً نفسياً لملاقاة أعدائهم الذين يفوقونهم عدداً وعدّة في حرب مسحته لا تبقي ولا تذر، بعد أن عبأهم أحسن تعبئة، وصفهم للقتال، وعدل صفوفهم ـ قد أمرهم ألَّا يقاتلوا حتى يأذن لهم، وقال لهم كما في الصحيح عن أبي أسيد: «وإن أكثبوكم ـ أي أمكنوكم من أنفسهم بالدنو منكم ـ فانضحوهم عنكم بالنبل، ولا تسلُّوا السيوف حتى يغشَوكم، واستبقوا نبلكم».

حكمة الأمر بعدم القتال حتى يأذن رسول الله ﷺ.

ويقع في سانحات الخاطر أن هذا الأمر كان من قبيل الحرص على تجنب القتال الذي لم يكن من مقاصده ﷺ في خرجته، رجاء أن يتغلب التعقل الرصين على التعصب الأحمق المفتون والطيش الأهوج المسعور في أنفس طواغيت الكفر العنيد.

ويرشح هذه السانحة قول النبي ﷺ، وقد رأى عتبة بن ربيعة في قومه على جمل أحمر: «إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا».

وكان لعتبة موقف في المسالمة والدعوة إلى عدم الاشتباك بين الجمعين أفسده عليه وعلى الناس الفاسق الملعّن أبو جهل، فقد ذكر ابن إسحاق أن عتبة قام خطيباً في قومه، فقال: يا معشر قريش والله ما تصنعون بأن تلقَوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل

موقف مسالمة لعتبة ابن ربيعة أفسده أبو جهل بعناده وحقده.

يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، وابن خاله، ورجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلّوا بين محمد وسائر العرب؛ فإن أصابه غيركم فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعدموا منه ما تريدون.

وأرسل عتبة برأيه حكيم بن حزام إلى أبي جهل، فكبُر على هذا الفاسق الحقود أن يذهب عتبة بالزعامة ويستلبها منه، فسجّر الشر بين الناس، وأشعل نار الحرب، وأغرى عامر الحضرمي بالمطالبة بثأر أخيه عمرو، ومشى الشيطان بخيله ورجله، وركب أعداء الله وأعداء الحق والخير صهوة الغرور الفاجر، واستحوذ عليهم عتو الحقد، وعناد العصبية الوثنية، فذهلوا عن عقولهم، وأضلّوا أحلامهم، وركبوا كل حمقاء جموح، وزحفوا إلى صفوف المسلمين ليقاتلوهم.

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «يا علي ناد حمزة» وكان حمزة أقرب جند الله إلى المشركين، فجاء حمزة فقال له النبي ﷺ: «من صاحب الجمل الأحمر»؟ فقال حمزة هو عتبة بن ربيعة، وهو ينهى عن القتال، ويقول: اعصبوها برأسي، وقولوا: جبن عتبة بن ربيعة، وقد علمتم أني لست بأجبنكم.

فسمع أبو جهل بقول عتبة، فقال له: أنت تقول ذلك؟ لو غيرك يقوله لأعضضته، قد ملأتْ رئتُك جوفَك رعباً، فقال له عتبة: إياي تعيّر يا مصفر استه؟ سيعلم اليوم أيّنا الجبان؟

وتنادت نذر الحرب، وكان أول متعجِّل إلى جهنم الأسود المخزومي، وهو رجل شرس سيء الخلق غليظ الطبع مأفون العقل، أقسم ليشربنّ من حوض المسلمين أو ليهدمنّه أو ليقتلنّ دونه، ومشى إلى الحوض فتبعه أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب، فأدركه قبل أن يصل إلى الحوض، فضربه فأطنَّ قدمه بنصف ساقه، فوقع اللعين على ظهره تشخب رجله دماً، ثم اقتحم الحوض، ورمى بنفسه فيه، ولحقه حمزة فأجهز عليه.

ثم خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة وهم يدعون إلى المبارزة، وقد أراد عتبة بهذا الطيش المأفون أن يرد تعيير أبي

جهل له بالجبن في قوله له: ملأتْ رئتُك جوفَك رعباً، وكان عتبة قد رد على أبي جهل بأَبْنه بداهية الدواهي، سالبة الرجولية إذ قال له: إياي تعيّر يا مصفر استه؟

حمية الجاهلية تسوق عتبة وأخاه شيبة وولده الوليد إلى حتفهم في مبارزة أبطال بني هاشم.

وبرز إلى عتبة وأخيه وابنه ثلاثة من فتيان البهاليل الأنصار، هم عوف، وأخوه معاذ أو معوّذ ابنا الحارث الأنصاري النجاري، وأمهما عفراء، وهماأخوان لأربعة أخوة من عفراء، وشقيقهما معوّذ أو معاذ بن الحارث فكانوا سبعة أشبال شهدوا بدراً مع رسول الله ﷺ، وكان ثالث الناهضين للمبارزة أحد أمراء مؤتة وأحد نقباء الأنصار عبدالله بن رواحة،فقال عتبة لهم: من أنتم؟ فانتسبوا إليه، وقالوا: رهط من الأنصار فقال لهم عتبة: أكفاء كرام، ما لنا بكم من حاجة، إنما نريد قومنا.

اختلاف الروايات في أقران المبارزة.

ونادى عتبة ومن معه من وقود النار: يا محمد، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا، فقال ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي» فقاموا سراعاً، ومشَوا إلى القوم في الحديد ملثَّمين حتى دنَوا منهم، فقالوا لهم من أنتم فتسمَّوا لهم، فقالوا: نعم أكفاء كرام، والتحم عبيدة وكان أسن الثلاثة بعتبة، وكان أسنَّ الأبعدين، فبارزه عبيدة، وبارز حمزة شيبة ابن ربيعة، وبارز عليّ الوليد بن عتبة، فقتل علي الوليد، وقتل حمزة شيبة، واختلف عبيدة وعتبة بضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، فكرّ حمزة وعليّ على عتبة، فذفّفا عليه.

وأخرج أبو داود عن علي قال: تقدَّم عتبة وتبعه أخوه وابنه، فنادى من يبارز، فانتدب له شبّان من الأنصار، فقال: من أنتم؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بني عمّنا، فقال ﷺ: «قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة» فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة إلى رسول الله ﷺ، ومخ ساقه يسيل، فقال: أشهيد أنا يا رسول الله: قال «نعم». قال عبيدة: وددتُ لو أن أبا طالب كان حياً ليعلم أنا أحق منه بقوله:

ونسلمه حتى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

قال الحافظ ابن حجر: وهذا أصح الروايات من جهة الإسناد لأن إسناد أبي داود صحيح، لكن الذي في السّير من أن الذي بارزه عليّ هو الوليد هو المشهور، وهو اللائق بالمقام، لأن عبيدة وشيبة كانا شيخين، وأن سن عبيدة كانت ثلاثاً وستين كعتبة وحمزة، فإن سن حمزة يومئذ كانت ثمانياً وخمسين، بخلاف علي والوليد فكانا شابّين، إذْ سن علي يومئذ عشرون سنة، وقال ابن سعد الثبت أن عتبة لحمزة، وشيبة لعبيدة.

والاختلاف في روايات المبارزة، وفيمن بارز مَنْ، وفيمن قتل مَنْ اختلاف عريض لا طائل تحته وقد اكتفينا منه برواية من أشهر روايات أصحاب السير، وبرواية من أصح روايات أصحاب الحديث، وأشرنا إلى رواية ابن سعد لقربها سنداً ومعنى.

ولما انتهت المبارزة بقتل أعداء الله ورسوله على يد **أبطال الإسلام**، وكان قد سبقهم إلى قليب جهنم الأسود المخزومي، واستشهد عبيدة بن الحارث، وشهد له رسول الله ﷺ بالشهادة وأفرشه قدمه ـ دخل ﷺ عريشه يصلي ويبكي، ويبتهل متضرعاً إلى ربه مناشداً أن ينجز له وعده بالنصر إذْ خفق خفقة، وفي الصحيح لما كان يوم بدر، ورسول الله ﷺ في العريش، ومعه الصديق أخذته سِنَة من النوم، ثم استيقظ مبتسماً فقال: «ابشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع» وفي حديث ابن عباس عند البخاري أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب».

بشائر المدد الإلهي وتنزل النصر.

وفي البخاري من طريق خالد الحذّاء عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر بيده، وقال: حسبك يا رسول الله، ألححتَ على ربك، فخرج ﷺ وهو يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولّون الدُّبُر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهَى وأمرّ﴾[1].

---

(١) سورة القمر آيتا (٤٥، ٤٦).

آية مكية يظهر تأويلها في غزوة بدر.

قال جمهور المفسرين: هذه آية مكية ظهر تأويلها يوم بدر، قال السيوطي في (الدر): أخرج ابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أنزل الله على نبيه بمكة قبل يوم بدر﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ فقال عمر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، أي جمع سيهزم؟ فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش، نظرت إلى رسول الله ﷺ في آثارهم مصلتاً سيفه، وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ وكانت ليوم بدر، فأنزل الله فيهم: ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ﴾[1] وأنزل ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلُّوا قومهم دار البَوار ﴾[2].

ورماهم رسول الله ﷺ فوسعتهم الرمية وملأت عيونهم وأفواههم، حتى إن الرجل ليقتل وهو يقذي عينيه، فأنزل الله ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾.

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عكرمة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ قال عمر رضي الله عنه: جعلت أقول: أي جمع سيهزم؟ حتى كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ فعرفت تأويلها يومئذ.

هذه جملة من الأحاديث، بعضها موصول، وبعضها موقوف، وهي صريحة في أن الآية مكية، فإخبارُ النبي ﷺ بها عند نزولها بمكة قبل يوم بدر ـ مما جعل عمر بن الخطاب يتعجب، وهو يردد على نفسه أي جمع سيهزم، وفي الرواية الموصولة أن عمر سأل رسول الله ﷺ عندما سمعه يتلوها بمكة، فقال: يا رسول، أي جمع سيهزم؟ ولكنه لم يتلق جواباً، ومرت الأيام والشهور حتى كان يوم بدر ورأى عمر رسول الله ﷺ يتلوها وهو يثب في درعه متقدِّماً إلى القوم الكافرين، قال عمر: فعرفت تأويلها يومئذ ـ إخبار

(١) سورة المؤمنون آية (٦٤).
(٢) سورة إبراهيم آية (٢٨).

بالغيب الذي لم يحن وقت تأويله فلما جاء تأويله، يوم بدر تلاها رسول الله ﷺ فعلم الناس منها ما لم يكونوا يعلمون عند نزولها، فكان هذا الإخبار آية من آيات الله في بدر.

لكن السيوطي قال في (الدر): أخرج ابن أبي شيبة، وابن منيع، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ قال: كان ذلك يوم بدر، قالوا ـ أي المشركين ـ نحن جميع منتصر، فنزلت الآية، أي قوله تعالى: ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾.

وهذا الأثر ظاهر في أن الآية مدنية نزلت في بدر، لكن هذا الأثر يحتمل التأويل فلا يقاوم الأحاديث والآثار المتقدمة الصريحة في مكية الآية وهو ما عليه الجمهور، والآية من سورة القمر وهي مكية بإجماع، وهذا يرجِّح قول الجمهور أن آية ﴿ سيهزم الجمع ﴾ مكية كسائر آيات سورتها.

وقد حكى الخلاف في مكية الآية ومدنيتها أبو حيان في تفسيره (البحر) فقال: وفي قوله ﴿سيهزم الجمع﴾ عِدَة من الله تعالى لرسوله ﷺ بهزيمة جمع قريش، والجمهور على أنها مكية، وتلاها رسول الله ﷺ مستشهداً بها، وقيل نزلت يوم بدر.

وسواء أكانت الآية مكية أم مدنية فهي من آيات الله الإعجازية التي تدخل في نطاق الإخبار بالغيب، مبشرة للنبي ﷺ وأصحابه بتنزّل نصر الله للقلة المؤمنة على جمع الكفر والفجور في كثرته، المتعززة بالغرور والقوة المادية، والتنفج بالكثرة العددية، فالإعجاز موجود فيها على أي حاليها في النزول مكية أو مدنية، وإن كان الإعجاز في مكيتها أظهر، لبعد الزمن بين نزولها وتأويلها.

توالي الآيات الغيبية وتحقيق النصر.

وقد استتبعت هذه الآية الباهرة آية أخرى قاهرة، كما دل على ذلك حديث أبي هريرة في تعجب عمر حينما نزلت ﴿ سيهزم الجمع ﴾ وسمع النبي ﷺ يتلوها، فقال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أي جمع سيهزم؟ وجعل يتطلَّب تأويلها ويتطلع إلى زمن وقوعها، ومعرفة أي جمع سيهزم

حتى كان يوم بدر ورأى النبي ﷺ يخرج من عريشه وهو يثب في الدرع مصلتاً سيفه في وجه أعدائه وهو يتلوها، فعلم عمر تأويلها، وعرف أن الجمع المهزوم هو جمع الفجور والطغيان الذي حشدته قريش لإسحات جند الله الداعين إلى الحق والخير، فقال عمر: ورماهم رسول الله ﷺ بكف من تراب وحصى، فوسعتهم الرمية، وعمّتهم، وملأت أعينهم وأفواههم، حتى إن الرجل ليقتل وهو يحاول أن يزيل عن عينيه القذى، فأنزل الله تعالى: ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾.

فكانت الرمية آية إعجازية قاهرة من آيات الله الذي جعلها من أعظم دعائم النصر المظفَّر، إذ جعل من رَمْي حصيّات في يد النبي ﷺ أمراً هائلاً، وقوة قاهرة مرعبة، استوعبت جميع أفراد حشود الشرك والفجور فملأت أعينهم وأفواههم وشغلتهم بأنفسهم، وأصابتهم بما أعجزهم عن الحركة في ميدان المعركة، وأذهلتهم عما يحل بهم من القتل، فهزموا شر هزيمة، ونصر الله أولياءه فأخذوهم قتلاً وأسراً وتشريداً، حتى عمّهم الذل والهوان، وشملهم البلاء.

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً ثم قال: «شاهت الوجوه» ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه وقال «شدّوا» فكانت الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديد قريش وأسر من أسر من أشرافهم.

ونقل صاحب العيون عن ابن عقبة وابن عائذ قولهما: فكانت تلك الحصباء عظيماً شأنها، لم تترك من المشركين رجلاً إلا ملأت عينيه، وجعل المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم، وبادر المفر منهم كل رجل منكباً على وجهه لا يدري أين يتوجه، يعالج التراب ينزعه من عينيه.

فالله تعالى أثبت لنبيه ﷺ رمي الحصيات، ولم يكن رميهن بمقتضى الطبيعة البشرية بقادر على أن يحدث شيئاً ممّا حَدَث، ولكنَّ الله تعالى بيّن أنّ هذا الأثر الهائل العظيم المستوعب لمئات الأعين والأفواه والأنُف إنما كان هو الذي تولّاه باقتداره وقهره وجبروته، لأن ما نجم عن رمية النبي ﷺ من آثار

مرعبة يستحيل في منطق العقل، ومألوفات الأسباب أن يحدث من رمية النبي ﷺ لحفنة من حصيات أخذهن بيده ثم رمى بهن وهو يقول: «شاهت الوجوه» ليعلم الذين لا يعلمون أن النصر بيد الله، ينزله من سماء فضله على من يشاء من عباده كما قال تعالى في القصة نفسها: ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا: فئة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين، والله يؤيد بنصره من يشاء، إن في ذلك لَعِبْرة لأولي الأبصار﴾[1].

كانت هذه الآيات توطيداً للإيمان بدعائم الإمداد الإلهي.

والمقصود توطيد دعائم الإيمان في قلوب المؤمنين، لينزع منها ما كان فيها من الركون إلى الأسباب الظاهرة مثل كثرة العدد وتوافر العدة، مما جعل بعضهم يكرهون الخروج للنفير بعد إذ فاتتهم العير متعللين بقلّة عددهم وضعف عدتهم بالنسبة إلى كثرة عدد أعدائهم وقوة عدتهم، وتوافر أسباب القتال المادّية عندهم، فالله تعالى إذ وعد رسوله بالنصر لم يربط هذا الوعد بأسباب مادّية، ولكنه ربطه بالصبر والتقوى، وصدق التوكل على الله وقوة الإيمان، ومعرفة سنن الله الخاصة والعامة، فقال تعالى: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين * وماجعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾[2].

تحقيق في آيات الإمداد بالملائكة.

وهذه الآيات الكريمةنزلت في قصة بدر كآيات الأنفال تحقيقاً لوعد الله تعالى نبيه ﷺ بالنصر على أعدائه ولو بلغوا أعداد الرمل، فهي مع أخواتها في الأنفال درس تربوي فيما ينبغي أن يكون عليه المؤمن في جهاده لإعلاء كلمة الله، ليقتلع بها الركون المطلق إلى الأسباب المادّية وينفي عنها ربط النصر بها وحدها، وقد كانت قلوب فريق من المؤمنين متعلقة بها تربط بوجودها النصر، وكره بعضهم أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ لملاقاة نفير قريش

(١) سورة آل عمران آية (١٣).
(٢) سورة آل عمران آيات (١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦).

وحشودها المتأهبة للقتال، وقالوا متعلِّلين: إنما خرجنا للعير، وهي أحب إلينا.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون * وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾[1].

فهذا الدرس التربوي سيق مساق العتاب المتشدِّد لهذا الفريق من المؤمنين ليبلغ من النفوس مداه، ويعطي أثره التربوي في الأمة وهي معتصمة بمنهج نبيها ﷺ في ردِّ الأمور كلها ظاهرة وباطنة إلى الله تعالى، لأنه العزيز الذي لا يغالب، الحكيم الذي أحاط بكل شيء علماً، فيضع الأشياء في مواضعها الملائمة لحكمته على مقتضى علمه واقتداره.

وهذا الدرس العتابي التربوي في هذه الآيات ارتبط بقضيتين، شبهت أخراهما بأولاهما، فالأولى المشبّه بها هي قضية التنازع في الأنفال بعد أن تحقق النصر وجمعت الغنائم، فقد تنازعوا فيها، وكانوا في هذا التنازع طوائف، وكل طائفة ترى أنها أحق بهذه الأنفال من غيرها، ونَسُوا ما كان منهم من كراهية الخروج للنفير، وهو الطائفة ذات الشوكة والقوة التي وعدهم الله بها وعداً غير معينّ لها تأنيساً لهم، فلما فاتت العير أصبح النفير معيناً في الوعد الإلهي بفوات العير، وبما قرن به من إحقاق الحق وقطع دابر الكافرين الذين كانوا قلعة الباطل وحاميته، وإذا تلاشت قلعة الباطل وهلكت حاميته فتح الطريق أمام دعوة الحق ورسالة الهدى والنور، ومضت في طريقها ثابتة الدعائم راسخة القدم، لا تبالي بكراهية المجرمين وأحقادهم أينما كانوا من أرض الله وآفاق الحياة.

موقف الصحابة من الغنائم والأنفال.

قال السيوطي في (الدر): وأخرج أحمد، وعبد بن حميد: وابن جرير

(١) الأنفال آيات (٥ ـ ٨).

وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم والبيهقي في سننه عن أبي أمامة الباهلي قـال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال؟ فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، فساءت فيه أخلاقنا، وانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء ـ يقول عن سواء ـ وقد فصل عبادة بن الصامت هذا الإجمال في رواية أخرى أخرجها سعيد بن منصور، وأحمد وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حيان، وأبو الشيخ، والحاكم ـ وصححه ـ والبيهقي وابن مردويه عن عبادة ابن الصامت قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم وهم منهزمون، يقتلون، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه، ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ، لا يصيب منه العدو غرّة حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها، فليس لأحد فيها نصيب وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن نفينا عنها العدو، وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرّة، واشتغلنا به، فنزلت ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول؛ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع، وإذا أقبل راجعاً وكلَّ الناس نفل الثلث، وكان يكره الأنفال، ويقول: «ليردّ قوي المسلمين على ضعيفهم».

إخبار الله تعالى عن كراهية بعض الصحابة للخروج للقتال.

أما القضية الثانية التي ارتبط بها هذا الدرس العتابي التربوي، وهي المشبهة بقضية موقف الصحابة رضي الله عنهم في الأنفال وتنازعهم فيها، فهي قضية الخروج مع رسول الله ﷺ إلى بدر للقاء العدو بعد إذ فاتتهم العير وأموالها، فقد كره هذا الخروج للقتال فريق من المؤمنين، وجادلوا فيه رسول الله ﷺ، فقالوا: إنما خرجنا للعير، ولم نتأهب للقتال، وليس لنا بالنفير طاقة، وكان جدالهم هذا بعد ماتبين لهم الحق، وأن الله تعالى وعد نبيه ﷺ إحدى الطائفتين دون تعيين، إما العير، وإما النفير، وقد بيّنوا أن صغوَهم

وميلهم كان للعير، لأنها أيسر أخذاً، وأكثر مغنماً لكثرة ما فيها من أموال قريش وقلّة حاميتها.

وإذ فاتت العير، ونجا بها قائدها أبو سفيان بن حرب لم يبقَ أمام إنجاز وعد الله لنبيه ﷺ ووجوب الخضوع والتسليم إلا السير لملاقاة نفير قريش، وفيه صناديدها وأشرافها، وما تأهبت به من عتاد ومؤن وأسلحة ومراكب وشوكة، فهو أعظم قدراً، وأضخم نصراً، وأروع أثراً، وأنجح سبيلاً في القضاء على المعوّقات التي تقف في طريق انطلاق المجتمع المسلم لنشر دعوته، دعوة الحق والخير.

ثم وصف الله تعالى ما لحق فريقاً من المؤمنين في كراهيتهم للخروج وملاقاة النفير من هزّة وارتياع إذ علموا كثرة عدد نفير قريش، وقوتهم المادية بالنسبة لما كان عليه أهل الإيمان من قلة عددهم وضعف عدتهم، ووقوفهم مع الأسباب المادية الظاهرة التي ربطوا بها النصر، ولم يستطيعوا الانتقال من هذه الحالة التي أخلدوا بها إلى الأرض وأسبابها، لأنهم كانوا لا يزالون متأثرين برواسب الحياة القتالية في بيئاتهم التي لم يطل عليهم زمن خروجهم منها إلى دوافع الإيمان وقوة اليقين التي كانت كفيلة برفعهم إلى آفاق العزائم الصادقة.

ولهذا جاءت مشاورة النبي ﷺ لترفعهم إلى ذروة اليقين ورسوخ الإيمان، وعاودهم الاعتزاز بفداء دعوتهم بالأرواح والأموال، وقوة العزائم.

وفي حديث أبي أيوب أن النبي ﷺ شاور الناس بعد إذ فاتته العير، فقال: «ما ترون في القوم؟ فإنهم أخبروا بمخرجكم» فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال القوم، ولكنا أردنا العير، ثم قال ﷺ: «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك... فأنزل عز وجل على رسوله ﷺ: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾.

وهذا موقف من أروع مواقف المنهج الإلهي في الرسالة الخاتمة، وأشدّها حزماً، وأقواها عزماً، وأبلغها أداء في تحويل المجتمع المسلم ونقله في

نقل المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية إلى مشاهد الآيات الغيبية.

دفعة واحدة من رواسبه الاجتماعية التي ورثها عن بيئته الجاهلية التي عاش فيها قبل أن تشرق في آفاقه شمس الهداية لتضيء حنايا نفسه، وتكشف له عن حقائق الحياة في أوسع مجالاتها.

هذا المجتمع المسلم الذي عاش في رواسب الجاهلية وموروثاتها أزماناً متطاولة طبعته بطبيعتها في حياته كلها، تأتيه الرسالة الإلهية الخاتمة لتخرجه بمنهجها من ظلمات تلك الرواسب إلى نور الإشراق الروحي والتحرر الفكري والانطلاق العقلي، لترتفع به من حضيض الشرك والوثنيات إلى ذروة التوحيد الذي يجعل منه قائداً للإنسانية ورائداً لهدايتها من ضلالاتها العقائدية والاجتماعية، في دورة زمنية ليس لها في حساب دورات الفلك التي مرت عليه مترسباً في حمأة العصبيات القبلية لا يعرف إلا القوة المادية يحتمي بها، ويتخفَّى وراءها في مغالباته القتالية ليأخذ بها ما ليس له بحق، وهو يعيش في رواسبه بقلوب خاوية من المعارف الروحية، وعقول ناشفة من ندى العلم والإيمان، العلم الذي يطلعه على ما في خزائن الله من آيات كونية وقوى معنوية، لا توزن معها القوى المادية في ميزان، والإيمان الذي يُشهده حكمة الله في سننه الخاصة حتى يعلم أن لله تعالى تدبيراً في ملكوته لا تقيده سنن الحياة العامة، ويزداد إيماناً إلى إيمانه، وعلماً إلى علمه وقوة إلى قوته، وتسليماً في إيمانه بالله إلهاً واحداً، منفرداً بالتدبير والحكمة.

هذا كله في واقع الحياة ـ وهي كلّها أينما وجدت من أرض الله، قبل أن تنزل رسالة السماء الخاتمة على محمد ﷺ حياة جاهلية ضالّة، أشبه في منطق سنن الحياة العامة بالطفرة التي لم يتقدمها تمهيد يعدّها لهذا التحول بعيد المدى.

تأثر المجتمع المسلم في مبدأ حياته برواسب الجاهلية.

والمجتمع المسلم إذ ذاك كان لا يزال من المجتمع العربي المتحجِّر في معارفه وأفكاره، وتربيته وسلوكه، فتحويل هذا المجتمع المسلم إلى مجتمع إنساني يهتدي بمنهج السماء، ويهدي بهذا المنهج الإنسانية كلَّها حتى تستطيع أن ترفع رأسها عن الأرض صاعدة في مدارجها العقلية ومنازلها الروحية إلى سماء المعرفة الإلهية لتشهد آيات الله في الكون وتحركاته، وتشهد في هذا

التحرك سنن الله العامة والخاصة التي يسير بها هذا الكون العظيم في ظل الإرادة الإلهية المطلقة التي لا تقيدها حدود ولا تقف أمامها قوة مادية مهما كان شأنها.

هذا التحول أمر لا يتمشَّى في ظاهره مع مقتضيات السنن العامة، فهو بمظنة الإنكار لمن لم يتعمق التفقه في سنن الله، والسننُ الإلهية الخاصة كالسنن العامة لها قدرها ومكانها في تسيير الحياة وتحركات العناصر الكونية، كما يقرر ذلك القرآن العظيم في نحو قوله: ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾[1].

ولهذا كان أول ما صنعه رسول الله ﷺ مقدمه المدينة في تطبيق هذا المنهج أن أقام بناء مجتمعه المسلم على الحب المتكافل بين الأفراد والجماعات، ليخرج أصحابه من رواسب التعصب القبلي إلى وحدة الإيمان، فجعل من المهاجرين والأنصار وحدة إيمانية في أخوة فردية أساسها الحب الذي يرتكز على الإيمان، وقال لهم ولسائر أمته من بعده: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وليقل المتأولون الحرفيون في تأويل قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم» ما يقولون، ورسول الله ﷺ هو القيّم على تطبيق منهج الرسالة وتعبيره ﷺ هو المهيمن على مرمى التطبيق وأهدافه، فقول المتأولين لا يغير من وضع التعبير النبوي شيئاً ولا يضر التطبيق، لأن الإيمان في منهج الرسالة الإلهية حقيقة واحدة هي التي أوجزها القرآن الكريم في أبرع أسلوب بياني فقال: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ وتعبيرات القرآن عن مقاصده في الحياة حقائق سماوية في تفصيل تركيب آياته من الجمل والكلمات والحروف الساذجة أو المعبرة.

الوحدة الإيمانية في قوله جلَّ شأنه: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾.

فإذا قال القرآن وهو يقرر الوحدة الإيمانية للمجتمع المسلم بين أفراده وجماعاته: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ كانت كلمة (إنما) في التطبيق العملي لمنهج الرسالة بمعناها الاستعمالي في الفصاحة العربية عنصراً أساسياً في بناء الجملة

(١) سورة البقرة آية (٢٤٩).

المقررة للوحدة الإيمانية، والإيمان في مادة كلمـة (المؤمنون) لا يعني قط الخلافات المتفلسفة التي أفنت أعمار الفلاسفة والمتكلمين دون طائل، وإنما يعني الإيمان كما جاء في نص منهج الرسالة ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون ﴾[1].

وإذا ختم النص المنهجي جملة الوحدة الإيمانية بكلمة (إخوة) كانت هذه الكلمة هي اللبنة التي بها يستمسك بناء الجملة كلها، لتكون نموذجاً لمنهج الرسالة في دستور المؤاخاة الاجتماعية التكافلية التي عقدها رسول الله ﷺ بين جماعتي المجتمع المسلم، وسجلها في كتاب أخذ مكانه في مطلع وثائق التاريخ الإسلامي من كتب السيرة والحديث.

وكل ما يقرره القرآن العظيم من سنن إلهيةعامة أو خاصة يمثل جانباً من جوانب المنهج في الرسالة الخاتمة، وهذا المنهج علم وعمل، والرسالة الخاتمة في جملتها وتفصيلها تعبير فكري عن الجانب العلمي في منهجها وتطبيق واقعي لجوانب العمل في هذا المنهج.

وقد كانت سياسة النبي ﷺ النابعة من منهج رسالته في تربية مجتمعه المسلم تربية تنقله من تراث الرواسب الموروثة عدمَ المباعدة بين هذا المجتمع لقيادة الحياة وبين سنن الله الكونية العامة التي تحكم سير الحياة ونظامها العام، وتربط الأحداث والوقائع بأسبابها المألوفة في هذه الحياة، ربطاً يُرتّب عليها مسبباتها عند وجودها ترتباً واقعياً، ما لم تكن هناك عوارض خفية تعوّق هذا الترتب الواقعي.

أصل تربية المجتمع المسلم قام على دعائم العلم والعمل والكفاح الصبور والكفاح المرير.

وهذا الوضع في هذه الرسالة الخاتمة أساس تربية المجتمع المسلم على الكفاح الصبور، والنضال المتحفز في سبيل إحقاق الحق وإبطال الباطل حتى لا يركن هذا المجتمع إلى الكسل المستسلم، وللخمول المتحجر، والتثاؤب النؤوم في انتظار الخوارق والآيات تتنزّل عليه، وترقب للمعجزات تسوقه في

---

(١) سورة الحجرات آية (١٥).

حياته، مما يؤدي إلى الاستغراق في تعطل القوى الانسانية التي منحها الله لكل إنسان على قدر استعداده اطّراحاً للأسباب والأخذ بها، والإخلاد إلى الأرض في استسلام متبلّد واستكانة متجمدة.

وكان النبي ﷺ محيط العلم في تربيته لمجتمعه المسلم بأن الأسباب المألوفة العامة في حياة الناس ليست إلا نوعاً من الأحداث المشاهدة في واقع الحياة كالغائب المحجوب كما تقضي به فاعلية السنن العامة في مسيرة الحياة ونظامها، وتحركات الكون بما فيه من عناصر السلب والإيجاب والنفي والإثبات.

الربط بين الأسباب والمسببات ربط تحكمه مشيئة الله.

وهذا الربط بين الأسباب ومسبباتها في دائرة السنن الكونية العامة ليس ربطاً محتّم الوقوع بمقتضى مدركات العقل ومنطقه، لأنه قد يتخلّف إذا كان أدنى من مستوى الإيجاب الحتمي لتدخل بعض خفيّات الأمور التي هي فوق مستوى الإدراك العقلي تدخلاً يحد من فاعليّة الأسباب في ترتب مسبباتها عليها.

ومن ثَمَّ كان الإيمان بعدم الوقوف عند هذه الأسباب وظواهرها المتسقة مع مجرى السنن الكونية العامة ضرورة في التربية العملية والتوجيه السلوكي للمجتمع المسلم، ليعلم هذا المجتمع أن وراء هذه الأسباب في تسيير الحياة ونظامها موجبات أخرى لها آثارها في وقوع الأحداث على غير ما تقضي به السنن الكونية العامّة، ولكن هذه الموجبات لا يحكمها المنطق العام للعقل وحده، ولا تخضع خضوعاً مطلقاً لمجرى السنن الكونية العامة في نظام الحياة، وإنما يحكمها نظام خاص يربطها بسنن إلهية خاصة، يتحكم في ربط بعض الأحداث بموجباتها الغيبية عند توافر دواعيها ومقتضياتها.

وهذه السنن الخاصة لا يظهر أثرها في التحكم في سير بعض الأحداث إلا في أوقات خاصة ومقتضيات خاصة، وقد يعم أثرها نظام الحياة في هذه الأوقات الخاصة فتشتبه معالمها في عموم أثرها بالسنن الكونية العامة.

والمثل الواضح لذلك هو آيات الله تعالى التي يؤيد بها رسله، وقد تشتبه بها عند بعض العقول القاصرة وثبات العلم الكوني، واستكشاف

تفاعلات عناصر الطبيعة التي يضيق حيّزها عمن ليس من أهلها، فلا يدخله إلا قلّة ضئيلة من ذوي العقول الموهوبة بالتفرد لمعرفة سنن الكون في سيره وتحركات عناصره وكشف أسراره، مع الغفلة عن دلالتها على مبدع سنن الكون العامة والخاصة.

وهذا الوضع متحقق في منهج الرسالة الخاتمةأكمل تحقق بجانبيه العلمي والعملي، وعلى أساسه أقام رسول الله ﷺ بناء مجتمعه المسلم في تربيته السلوكية، فقد أخذ ﷺ أفراد هذا المجتمع وجماعاته بدءاً على ضرورة معرفة السنن الكونية العامة، وربط الأسباب بمسبباتها، وأخذهم نهايةً على وجوب تطبيق هذه المعرفة على أحداث الحياة ووقائعها، ووكل أمر السنن الخاصة لمناسباتها ومقتضياتها.

غزوة (بدر) نموذج كامل لتطبيق منهج الرسالة علمًا وعملاً.

وقد جعلنا من الحديث عن غزوة (بدر) نموذجاً لتطبيق رسول الله ﷺ منهج رسالته في جانبيه العلمي والعملي، لأن هذه الغزوة كانت أول وأضخم حادث باغت المجتمع المسلم في حياته الجديدة.

وقد كانت هذه الغزوة بملابساتها العسكرية والسياسية والاجتماعية، وبما وقع فيها من أحداث، وبما ترتب عليها من آثار عظيمة حريةً أن تكون نقطة تحول المجتمع المسلم من الاستمساك بتراثه الموروث من رواسب الجاهلية إلى منهج الرسالة الإلهية الخاتمة علماً وعملاً، لأنها كانت بمقتضى وضعها الإلهي بدءاً ونهاية الإطار الذي جمع الخطوط المتشابكة من السنن الكونية العامة والسنن الكونية الخاصة.

وقد بيّنا أن مقدماتها كانت لا تحتاج إلى الخروج عن السنن الكونية العامة، فأجراها رسول الله ﷺ في دائرتها، وقد فصلنا الحديث في تلك المقدِّمات إلى أن استنفر أبو سفيان بن حرب أمير العير قريشاً، فنفرت على الصَّعْب والذلول، متأهبة للقتال الذي أعدت له كل ما تملك من قوة مادّية من الرجال والأموال والسلاح، وسارت تضرب الأرض بأقدام صلفها وغرورها حتى انتهت إلى ماء (بدر) ولم تسمع لأمير عيرها إذ يسترجعها ويثنيها عن القتال لأنه نجا بعيرها.

وقد اتخذ رسول الله ﷺ منذ وردته أخبار نفير قريش كل ما يمكن اتخاذه لمعرفة تحركات قريش ومعرفة أعداد رجالهم ومن كان فيهم من أشرافهم، ومدى ما تأهبته من قوة مادية في العتاد والسلاح، وأخبر أصحابه بما انتهى إلى علمه، وشاورهم في الأمر، فأشار راسخو الإيمان منهم بما أثلج صدره ونشّطه، وأخلد فريق منهم إلى الأرض كارهين للقاء عدوهم وقتاله، يجادلون رسول الله ﷺ في الحق الذي قدّره الله لهم من النصر وكسر شوكة العدو، يقولون له: عليك بالعير يا رسول الله، فإننا خرجنا لها وهي أحب إلينا، ولا طاقة لنا بقتال القوم.

ثم جعل رسول الله ﷺ يقول: «أشيروا عليّ أيها الناس» ليستنزل على قلوبهم غيث اليقين، ويخرجهم من محابس الأسباب إلى منازل الانطلاق مع سنن الله الخاصة، فأجاب الخيّران: أبو بكر وعمر وتبعهما النجيب الأريب المقداد بن عمرو، ثم قام سيد الأنصار سعد بن معاذ فكشف الحجب، وسرّى عن رسول الله ﷺ، ومسح عن جبينه آثار الغضب، ونشّطه للقاء العدو.

وكانت مشورة الراسخين في العلم بالله متنزل السكينة على قلوب المسلمين بأغلال الرواسب الموروثة فأسرعوا اللحاق بإخوانهم الراسخين، واجتمعت كلمة المجتمع المسلم على لقاء العدو، ومواقفته في القتال إعلاء لكلمة الله، ومتابعة لرسول الله ﷺ، فتبلج وجهه ﷺ إشراقاً والتفت إلى أصحابه يبشرهم بالنصر، وأراهم مصارع القوم، وقال لهم: «سيروا على بركة الله».

والمتأمل في سير حوادث مقدمات هذه الغزوة المباركة يرى أن النبي ﷺ قد أخذ جانبي منهج رسالته العلمي والعملي، فجعل منهما ركيزة تقوم عليها المعرفة والتطبيق في مستقبل حياة هذا المجتمع المسلم.

صدمات مباغتة أيقظت عزائم الإيمان في قلوب المؤمنين.

ولم تكن هذه السياسة المحكمة لتخلو من صدمات مباغتة صارمة للمجتمع المسلم الناشىء في تركيبه الإيماني الجديد، وقد كان لهذه الصدمات المباغتة قوتها القاهرة في اقتلاع جذور بعض الرواسب الجاهلية الموروثة من

نفوس غير الراسخين، وكان لها أثرها الفعّال في تيسيرالتحول الأساسي عن الرواسب الجاهلية الموروثة في سرعة قياسية فاقت كل مقاييس التخلص من الماضي المترسِّب في النفوس إلى فاعلية الوحدة الإيمانية التي نقلت المجتمع من رواسبه الرابطة له بالأرض، المغلِّلة له بقيود الأسباب ومقتضيات السنن الكونية العامة إلى إشراق الهداية الروحية والتحرر الفكري باعتبارهما طريقاً إلى ساحة سنن الله الخاصة، إذا توافرت موجباتها، وتفتّحت لفهمها مدارك العقل عن طريق الإشراق الروحي.

إلى هنا تكون مقدّمات اللقاء بين الفريقين ـ فريق القلة المؤمنة الممثلة في جماعة المجتمع المسلم التي رافقت النبي ﷺ على غير أهبة لحرب أو قتال في خَرْجته لملاقاة العير، ثم تحول الأمر إلى لقاء العدو في حشوده المتأهبة لأعتى معركة يخوضونها ـ قد استوفت ما ينبغي أن تستوفيه بمقتضى السنن الكونية العامة جرياً على مقتضى ربط الأسباب المألوفة بمسبباتها التي لا تستعصي على مدارك العقل ومألوف الحياة، ولا سيما في بيئة كالبيئة العربية المحجوبة بمواريثها الجاهلية وأنظمتها القبلية، وأسبابها المادّية المستعبدة لتفكيرها عن مشاهدة السنن الكونية الخاصّة التي ترتبط بتحرر العقل من أغلال البيئات الوثنية التي لا ترفع رأسها إلى السماء لترى تلألؤ الروحانيات المشرقة.

وقد طبق النبي ﷺ هذه المقدمات تطبيقاً كاملاً، فأخذ لكل أمر أهبته، وقابل كل حركة بما يناسبها من تدبير وإجراء، فأرسل في صمت وسرية ليعلم حركات أعدائه وأعداء مجتمعه المسلم ويكشف لأصحابه حالهم ومدى قوتهم، ومن يقودهم من أشرافهم وطغاتهم ليكونوا على بصيرة من أمرهم ليبعث فيهم الحمية، ويعدّهم نفسياً ليعرف ضعيفهم أن مواريثهم من رواسب الجاهلية لن تفيدهم في موقفهم من لقاء عدوهم، وأنهم لا بدّ لهم من الالتجاء إلى الله وصدق التوكل عليه، والثقة فيما عنده من قوى روحية يمدّ بها من يشاء من عباده، ويزداد قويّهم من راسخي الإيمان يقيناً وإقداماً وشجاعة وحباً للاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، ودفاعاً عن الحق والعدل، ويتم بينهم التمازج في وحدة إيمانية تنقلهم من رواسب الماضي إلى

تلقّي مفاجآت الغيب القائمة على نظام السنن الكونية التي تتنزل من سماء القهر الإلهي إذا تطلّبها الموقف وتوافرت موجباتها، وتراءت مقتضياتها.

لوائح النصر في ظل مدد السنن الخاصة.

وها هي ذي لوائح تَنَزُّل السنن الخاصة تلوح معالمها لتأخذ مكانها في جهاد المجتمع المسلم القتالي الذي ألجىء إليه إلجاءً، لأن الموقف بلغ مرحلة التطلّع إلى تنزل تلك السنن الخاصة بعد أن انتهت مرحلة السنن الكونية العامة التي ترتبط بالأسباب المقتضية لمسبباتها، بانتهاء التدبير في مقدمات لقاء العدو، وابتداء نشوب المعركة بين قوتين تتفاوت أوضاعهما المادية تفاوتاً يجعل من المستبعد، بل من المحال أن تقف القلة المؤمنة أمام الكثرة الضخمة في أقصى تأهبها في ظل الترابط بين الأسباب والمسببات بمقتضى نظام السنن الكونية العامة.

وتداني الفريقان، وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه أحسن تعبئة، وصفّهم، وعدّل صفوفهم، ونظر إليهم في قلة عددهم وضعف عدتهم وما أحاط بهم من بلاء المنازلة لقوم يضعفونهم بعددهم وقوتهم المادية أضعافاً مضاعفة، مع صلف الاستكبار، وشراسة اللقاء، وتحدّي الغرور، وفجور الكفر العتيّ، والتكالب على سفك الدماء، واستئصال شأفة أهل الإيمان، وعصابة التوحيد والهدي والنور التي إن هلكت على أيدي هؤلاء الفجرة من أحلاس الوثنية وعبدة الأصنام فلن يبقى لله دين يعبد به في الأرض.

ودخل ﷺ عريشه يصلّي، ويبتهل، ويبكي متضرعاً، وهو يناشد ربه، ويسأله نصره الذي وعده، ويستنجزه عهده، ودخل معه العريش صاحبه في الغار والهجرة، وصدِّيقه ورديفه في السبق إلى الإيمان برسالته دون كبوة، أبو بكر رضي الله عنه شاهراً سيفه ليس معهما إلا الله تعالى بتدبيره وقهره واقتداره، ووقف على باب العريش سعد بن معاذ في فتية من الأنصار لحراسة رسول الله ﷺ أن يجد العدو منه غرّة.

وإذا به ﷺ يخفق خفقة تأخذه فيها سِنَة من النوم وقد كاد العدو يلتحم بالمؤمنين فيستيقظ رسول الله ﷺ من خفقته وما أخذه فيها من سنة نوم مبتسمًا، مسروراً، يضيء وجهه كأنه شقة القمر، وهو يبشر أبا بكر بتنزل

نصر الله، وإمداده بجند من عوالم غيبه، يقدمهم القوي المكين، المطاع الأمين جبريل عليه السلام، وعلى رأسه أداة الحرب، ويخرج رسول الله ﷺ من العريش إلى ميدان المعركة، وهو يثب في درعه، ويتناول حصيات يرمي بها في وجوه أعدائه، فتسعهم وتعمهم على كثرة أعدادهم، فلم تترك منهم أحداً إلا ملأت فمه وعينيه ومنخريه، فشغلتهم عن أنفسهم، حتى إن الرجل منهم ليقتل وهو يقذي عينيه.

رعاية الله تعالى لنبيه ﷺ بما أمدّه به من آيات غيبية.

ليس هذا فحسب، ولكن الله تعالى يزيد نبيه ﷺ حفاوة فيريه في منامه أعداءه على كثرة أعدادهم قلة ضئيلة ليذهب هيبة كثرتهم من قلوب القلة المؤمنة، ويطمعهم فيهم، ويجرئهم عليهم في قتالهم، بل يزيد الله تعالى في تلطفه بعباده المؤمنين فيعم حفاوته حتى تنال جند المجتمع المسلم بعد أن أخبرهم النبي ﷺ برؤياه ليزيدهم يقيناً في حفاوة الله بهم، فيرَوا أعداءهم الذين كانوا يتهيبون كثرتهم رؤية عين قليلين.

أخرج ابن أبي شيبة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم، فسألناه؟ قال: كنا ألفاً.

فرؤيا النبي ﷺ منامية، وهي من مراتب الوحي، ورؤية الصحابة بصرية يقظية بدليل قوله: «رأي العين» في آية آل عمران ﴿ يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ وقوله: «في أعينكم» في الأنفال ولا داعي مطلقاً للتأويل لأن هذا من قبيل الإمداد الإلهي، وهو جارٍ على مقتضى نظام السنن الكونية الخاصة، فالآيات متوافقة، وهي كلّها في قصة واحدة هي غزوة بدر، والظاهر أن رؤيا النبي ﷺ كانت في خفقته وهو في العريش قبل التحام القتال، ورؤية الصحابة كانت عند الالتقاء للقتال، وقد حكى بعض المفسِّرين الإجماع على أن آية ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا: فئة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ مثل آيتي الأنفال ﴿ إذ يريكهم الله في منامك قليلاً، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر، ولكن الله سَلَّم إنه عليم بذات الصدور * وإذ يريكموهم إذ التقيتم في

أعينكم قليلاً ويقلّلكم في أعينهم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾[1] بدرية، نزلت في غزوة بدر تحذيراً لبني قينقاع من اليهود، وردّاً عليهم في غرورهم، وقولهم عند علمهم بهزيمة قريش في غزوة بدر: لو قاتلنا محمد ـ ﷺ ـ لعلم أنّا الناس، وأنّا أخبر بالقتال من قريش، فنزل قوله تعالى: ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد، قد كان لكم آية ـ أي عبرة زاجرة ـ في فئتين التقتا: فئة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين، والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾.

تعسف أبي حيان في تأويل الآية.

قال أبو حيان في تأويل: ﴿ إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ﴾: والمراد بالقلة هنا قلة القدر والبأس والنجدة، وأنهم مهزومون، مصروعون، ولا يحمل على قلة العدد، لأن النبي ﷺ رؤياه حق، وقد كان علم أن المشركين ما بين التسعمائة إلى الألف، فلا يمكن حمل ذلك على قلة العدد، ويظهر أن أبا حيان وَهَل عن أن المقام مقام إعجاز وآيات غيبية وهذا عدول عن مقام نزول الآيات، وأنها نزلت بمعجزات للنبي ﷺ على مقتضى سنن الله تعالى الخاصّة في تدبير أمر عباده، فعلمُ النبي ﷺ أن المشركين كانوا ما بين التسعمائة إلى ألف كان من قبيل الواقع المرتبط بأسبابه العامة، ورؤياه لهم في المنام ـ وهي حق لأنها إحدى مراتب الوحي ـ قليلاً من قبيل الإعجاز الجاري على مقتضيات سنن الله الخاصة، والتقليل الموافق للحق يحتمل أن الله تعالى حجب عددهم الذي كان يعلمه، وأراه عدداً يبدو قليلاً، وهذا من قبيل تكثير الطعام والماء القليلين لكفاية العدد الكثير الذي يستحيل بمقتضى الأسباب العادية أن يكفيهم، فتكثير الطعام والماء كتقليل العدد كلاهما يكون بأسباب خفية يستأثر الله بها.

وأبو حيان يقول في تأويل الآية الثانية: ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ﴾: وقلّل الكفار في أعين المؤمنين تحقيراً لهم، ولئلا يجبنوا عن لقائهم.

---

(١) سورة الأنفال آيتا (٤٣، ٤٤).

والمؤمنون كانوا قد علموا علماً قاطعاً بإخبار رسول الله ﷺ لهم بأن نفير قريش كان ما بين التسعماية والألف، وتقليل الله الكفار في أعين المؤمنين لا بد أن يكون جارياً على سبب خاص، وهو حق واقع لعلمهم بكثرة عددهم بإخبار النبي ﷺ بذلك فما يقال هنا يقال هناك، والمرجع بالنسبة للنبي ﷺ الوحي في رؤياه، والمرجع بالنسبة للمؤمنين في تيقنهم كثرة عدد الكفار قبل رؤيتهم لهم قليلاً هو إخبار رسول الله ﷺ بذلك.

وزاد أبو حيان في تعسّفه فزعم أن عبدالله بن مسعود حين قال: لقد قُلِّلوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة: فقال أبو حيان: وهذا من عبدالله لكونه لم يسمع من رسول الله ﷺ ما أعلم به من عددهم.

وهذا عجيب من أبي حيان، لأن أسلوب عبدالله بن مسعود واضح في أنه كان على علم بكثرة عدد الكفار، قبل أن يتلاقى الفريقان، ثم قللهم الله في أعين المؤمنين، لأن تعبير ابن مسعود بقوله: قُلِّلوا في أعيننا واضح في أن التقليل طارىء على عدد الكفار، وأنهم كانوا في واقعهم كثرة أرهبت بعض المؤمنين.

وهذا المعنى هو الذي تفيده صياغة الفعل (قُلِّلوا). قال الفيومي في (المصباح): وقلّلته في عين فلان تقليلاً، جعلته قليلاً عنده حتى قلّله في نفسه، وإن لم يكن قليلاً في نفس الأمر.

وأسلوب الآية ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ﴾ واضح في الامتنان على المؤمنين بتقليل العدد الكثير الذي كان يخيفهم، ويؤكد هذا ماجاء في آية آل عمران ﴿ يرونهم مثلَيْهم رأي العين ﴾ على أرجح تأويلاتها.

ويقول أبو حيان: فإن كانت هذه الآية وآية الأنفال في قصة واحدة ـ وقد نقل أبو حيان نفسه قول صاحب ري الظمآن: أجمع المفسرون على أنها في وقعة بدر ـ أي آية ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا ﴾ فالجمع بين هذا

التكثير، وذاك التقليل باعتبار حالين، قُلِّلوا أولاً في أعين الكفار حتى يجترؤا على ملاقاة المؤمنين، وكُثّروا حالة الملاقاة حتى قهروا أعداءهم وغلبوهم.

معجزة كونية وقعت في لون آخر من المدد الإلهي.

ومما جرى في مجرى السننِ الخاصة في تأييد الله لعباده المؤمنين أنهم كانوا قد نزلوا وادياً دهساً مرملاً تغوص فيه الأقدام، ويتعثر المشي على أرضه، وتتعذر الحركة فيه، وكان هذا الوادي عديم الماء، فأصابهم من النزول فيه بلاء شديد، وجافاهم النوم، وأجنب كثير منهم، فأصبحوا لا يجدون ماء ليشربوا منه ويتطهّروا لصلواتهم، وداخلهم الشيطان بوساوسه، يخوفهم بكثرة أعدائهم وقلة عددهم، ويفتنهم بأنهم يصلُّون وهم مجنبون، ويضخم لهم ما هم فيه من بلاء ليثبط عزائمهم عن ملاقاة أعدائهم.

بيان الإعجاز في آية ﴿إذْ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾.

ولكن الله تعالى ـ الذي جعل من سننه الخاصة أن تغلب الفئة القليلة المؤمنة الصابرة المعتمدة عليه في صدق توكلها وعظيم ثقتها الفئة الكثيرة الباغية بفجور كفرها، المغرورة بكثرة عددها وقوة عدتها المادية ـ تداركهم بلطف فغشَّاهم النعاس أَمَنَة منه، ليذهب عنهم ما ساورهم من الخوف عند رؤيتهم كثرة أعدائهم، ويطمئن قلوبهم ويسكن نفوسهم، ويهدىء من روعهم، لتعود إليهم عزائمهم في صدق التوكل عليه، ويعلموا أن النصر بيد الله، ينزل من السماء بفضله على من يشاء من عباده، لا بكثرة العدد، وقوة العُـدَد، فـ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾.

فلما ذهبت عنهم غشية النعاس المؤمِّنة لقلوبهم وجدوا من أنفسهم راحة ونشاطاً، وتنزّلت عليهم السكينة، وطابت أفئدتهم، وتحلّبت عليهم السماء بالغيث، وأنزل الله عليهم الماء، فلبّد لهم الأرض، فكانوا إذا سعَوا عليها، وتحركوا فوقها كانوا كأنما يسعون على الصفا مطمئنين، بعد أن كانت أرجلهم تسوخ في رمال دَهِسة لا تماسك بين حباتها، فشربوا وتطهّروا، وملؤا أوعيتهم، وربط الله على قلوبهم وثبّت أقدامهم، وأذهب عنهم رجز الشيطان ووسوسته، وكانت هذه النعمة على المؤمنين نقمة على الكافرين، فلم تستقم لهم حركة في قيام أو قعود.

فتغشية المؤمنين بالنعاس في وقت شدة الخوف والرعب، والقلق النفسي مما لا يمكن أن يكون معه نوم، وإنزال الماء الذي لبّد الأرض تحت أقدامهم وطهرهم، ورويٌّ ظمأهم آيات إلهية أكرم الله بها نبيه ﷺ وأصحابه، لتكون تمهيداً يعدّهم نفسياً لتلقّي إمداد الملائكة، لأن إنزال الملائكة ليكونوا معهم مكثِّرين لأعدادهم، ومقاتلين في كتائبهم أجل وأعظم من جميع ما وقع من الآيات كتقليل العدد وتكثيره في رأي العين، وتغشية النعاس أَمَنَةً لهم، وإنزال الماء وتلبيد الأرض تحت أقدامهم، أعوص إدراكاً لدى العمل البشري، ولا سيما العقل الذي نهد وشب في بيئات أبعد ما تكون عن تصور الحقائق الغيبية المرتبطة بمعرفة جلال الألوهية وكمالها في الخلق والإبداع.

وهذا مما يقوِّي عزائمهم لملاقاة أعدائهم بقوة إيمانية قاهرة، يُعقد النصر الذي استأثر الله بأسبابه بها، وهي آيات ليس للسنن الكونية العامة تحكم فيها، وإنما هي جارية على قوانينها الخاصة التي تحكمها سنن كونية خاصة.

ولهذا كانت من أعظم منن الله تعالى التي امتن بها على المؤمنين بعد تحقيق النصر، فقال عز شأنه: ﴿ إذ يغشّيكم النعاس أمنةً منه، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به، ويذهب عنكم رجز الشيطان، وليربط على قلوبكم، ويثبت به الأقدام ﴾[1].

شهود الملائكة غزوة بدر

إجماع الأمة قائم على شهود الملائكة غزوة بدر، معتمداً على صريح القرآن والسنة.

لم تختلف كلمة الأمة سلفاً عن خلف في أن الملائكة شهدت غزوة (بدر) مدداً من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ وأصحابه، وهذا صريح القرآن الكريم في قوله جل شأنه: ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردِفين ﴾[2] أي متتابعين، يردف بعضهم بعضاً ويأتي

(١) سورة الأنفال آية (١١).
(٢) الأنفال: آية (٩).

بعضهم في إثر بعض، وفي قوله تعالى: ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبّتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾[1] وقد عنون البخاري في صحيحه لذلك في كتاب المغازي، فقال: باب في شهود الملائكة بدراً، ثم ذكر تحت هذا العنوان الحديث المستفيض، فقال: حدثني إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير، عن يحيى بن سعيد، عن معاذ بن رفاعة ابن رافع الزّرقي، عن أبيه ـ وكان أبوه من أهل بدر ـ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ، فقال: ما تعدُّون أهل بدر فيكم؟ قال «من أفضل المسلمين» أو كلمة نحوها: قال: كذلك من شهد بدراً من الملائكة.

ثم ذكر البخاري حديثاً آخر في هذا الباب وهو صريح في أن جبريل عليه السلام شهد بدراً في أهبة الحرب قال البخاري: حدثني إبراهيم ابن موسى، أخبرنا عبد الوهاب، حدثنا خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»، وهذان الحديثان أصحُّ ما في الباب.

وقد أورد ابن حجر في (الفتح) والسيوطي في (الدر) جملة أحاديث بأسانيد صالحة، كلها صريحة في شهود الملائكة بدراً.

فالقرآن والسنة، وإجماع الصحابة، بل إجماع الأمة قبل ظهور شذوذ المخالف أدلة قاطعة على أن الله تعالى أكرم رسوله محمداً ﷺ وأصحابه الذين شهدوا واقعة غزوة بدر ـ وهم قلّة في عددهم وضعف في عدّتهم المادية بالنسبة لحشود أعدائهم من المشركين ـ بإنزال ملائكته مدداً لهم في أول وأعظم غزوة قتالية بعد، إذ أراهم فضله عليهم بنقلهم من تأثرهم بتراث الرواسب الجاهلية المغلّلة بالأسباب المادية من كثرة العدد وتوافر العدة والعتاد إلى مجال القوة المعنوية التي تستمد عناصرها من قوة الإيمان، وإدخالهم في رياض آياته تعالى وسننه الخاصة التي لا تخضع لتحكمات القوة المادية ومدركات العقول ومألوف الحياة في نظامها العام.

---

(١) الأنفال آية (١٢).

أعجب ما روي في شهود الملائكة بدراً نُقل إنكاره عن الشعبي وتحقيق غلط من نقل ذلك.

لهذا كان من أعجب وأغرب ما رأيناه في هذا المقام ما نقل عن الإمام الشعبي، وحكاه ابن عطية في تفسيره، ونقله عنه أبو حيان في (بحره) من قوله: لم يمدّ المسلمون بالملائكة يوم بدر، وكانت الملائكة بعد ذلك تحضر حروب رسول الله ﷺ، وهي تحضر حروب المسلمين إلى يوم القيامة.

ونحن نستبعد جداً صحة هذا النقل عن الإمام الشعبي، وهو أحد أعلام التابعين المرجوع إليهم في السنّة النبوية وروايات أحاديثها وأحداثها ووقائعها.

والقرآن الكريم صريح في إثبات شهود الملائكة وحضورهم غزوة بدر، وأن الله تعالى أنزلهم استجابة لاستغاثة رسول الله ﷺ واستغاثة أصحابه، وطلبهم من الله تعالى مدداً من غيبه إنجازاً لوعده إياهم بنصره لهم على أعدائهم الذين أقبلوا إليهم في غرور فاجر، وصلف مستكبر كفور، يحادّون الله ورسوله، ويتحرّقون غيظاً على المجتمع المسلم، يريدون استئصاله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

ولا ندري ماذا يقول الناقلون لهذه القولة الشاذة عن الإمام الشعبي - إن صحّ نقلهم عنه - وهي قولة تعارض نص القرآن وصحيح السنة وإجماع الصحابة في فهم الشعبي وتأويله للنصوص المثبتة شهود الملائكة غزوة بدر مدداً من الله تعالى لرسوله ﷺ ولأصحابه المجاهدين؟ وهذه النصوص واردة مورد الامتنان والإخبار الذي أريد به تثبيت المؤمنين وتقوية عزائمهم وتبشيرهم بالنصر الذي وعدهم الله به؟

كما هو صريح قول الله تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنِّي مُمدُّكم بألف من الملائكة مُرْدِفين ﴾ وهذا إخبار قاطع لا يحتمل التأويل، لأنه مرتب على استغاثة رسول الله ﷺ واستغاثة أصحابه.

روى مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب قال: فلما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمئة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه:

«اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتِ ما وعدتني، اللهم إن تهلِكْ هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض».

فما زال يهتف بربه مادّاً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ فأمده الله تعالى بالملائكة.

القرآن الكريم والسنة يردان هذا الإنكار ويثبتان شهود الملائكة قتال بدر.

قال أبو عبدالله القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن): فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور والحمد لله.

بل ذهب كثير من المفسرين وأهل السير أن المستغيث هو رسول الله ﷺ وإنما جاء التعبير عن استغاثته ﷺ بواو الجمع تعظيماً لقدره المنيف، وإبانة عن بلوغه في استغاثته ربه مبلغاً فاق كل استغاثة تصدر من فرد، وكأنما استغاثته ﷺ معبِّرة عن خوالج جميع المؤمنين متعاونين عليها بقلوبهم وأرواحهم وألسنتهم.

ثم ماذا يقول الناقلون لهذه القولة الشاذّة عن الإمام الشَّعْبي في فهمه وتأويله لأخت هذه الآية الكريمة في الامتنان على المؤمنين بإمدادهم بمدد الملائكة، وهي قوله تعالى: ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ والآيتان من سورة الأنفال وهي سورة بدرية بإجماع، فالآيتان بدريتان، وهما صريحتان في إنزال الملائكة مدداً للمؤمنين في غزوة بدر؟.

النقل عن الشعبي مضطرب إذْ كيف يمكن أن ينكر الشعبي شهود الملائكة بدراً ويقولون عنه أنَّه قال بشهود الملائكة حروب رسول الله وحروب المسلمين؟.

ومما هو أدخل في العجب والغرابة، وأدعى لاستبعاد نقل هذه القولة الشاذة عن الإمام الشَّعبي أن الناقلين عنه يضمُّون إليها أن الشّعْبي قال: وكانت الملائكة بعد ذلك تحضر حروب رسول الله ﷺ مدداً، وهي تحضر حروب المسلمين إلى يوم القيامة، فمن أين للشَّعْبي أو غيره نفي حضور الملائكة مدداً لرسول الله ﷺ وأصحابه في بدر مع صراحة النصوص المثبّتة لهذا الحضور؟ ومن أين للشَّعْبي أو غيره إثبات حضور الملائكة حروب رسول

الله ﷺ بعد غزوة بدر، ولا نص يثبت ذلك من قرآن أو سنة؟ ومن أين للشَّعْبي أو غيره إثبات حضور الملائكة حروب المسلمين إلى يوم القيامة؟ وهذا مما لا مدخل فيه للرأي والاجتهاد؟

وقد أورد القرطبي ما نسب إلى الشَّعْبي بما يفيد أن إمداد الله تعالى نبيه ﷺ وأصحابه بالملائكة إنما كان يوم أحد لا يوم بدر أخذاً من آيتي سورة آل عمران، ولم يتعرض لآية الأنفال، وهي مصبُّ الإمداد في بدر.

قال القرطبي وهو يذكر غزوات النبي ﷺ: ثم غزوة بدر الكبرى، وهي أعظم المشاهد فضلاً لمن شهدها، وفيها أمدّ الله بملائكته نبيه ﷺ والمؤمنين في قول جماعة العلماء، وعليه يدل ظاهر الآية لا في يوم أحد.

ومن قال: إن ذلك كان يوم أحد جعل قوله تعالى: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ إلى قوله تشكرون اعتراضاً بين الكلامين، هذا قول عامر الشَّعْبي، وخالفه الناس.

الظاهر عند التأمل أنَّ الإمام الشعبي كان كلامه في آيتي آل عمران فاشتبه الأمر على من نقل عنه فجعل الكلام في بدر.

والمتأمل في هذا السياق يفهم أن الإمام الشَّعْبي إنما تكلم عن آيتي سورة آل عمران: ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيَكم أن يمدَكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوِّمين ﴾.

وهذا فهم مستقيم لا يمنع منه سياق الآيتين بعد قوله تعالى: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ إلى قوله ﴿ تشكرون ﴾ الذي جاء تذكيراً بنعمة النصر في بدر مع قلة عدد المؤمنين وضعف عدتهم، والسياق في آل عمران لغزوة أحد، فمجيء آيتي الإمداد بالملائكة في البينِّ من قصة أحد محتمل أن يكون منها، والإمداد كان فيها، ومحتمل لأن يكون من الامتنان بنعمة النصر في بدر، وقع في البين من قصة أحد، تنبيهاً للمؤمنين أنهم لو صبروا وأطاعوا أمر رسول الله ﷺ لم يهزموا كما لم يهزموا في بدر مع قلة العدد وضعف العدة، لأن النصر بيد الله تعالى ينزله على من يشاء، وكيف يشاء، لأنه عزيز لا يغالب، حكيم يضع الأمور بتدبيره وحكمته في مواضعها من مواقع علمه المحيط بالأسباب والمسببات.

وحينئذ يكون الإمام الشَّعْبي غير متعرض في كلامه للإمداد بالملائكة يوم بدر، فضلاً عن إنكاره كما حكاه عنه ابن عطية، وكل ما يعطيه كلامه كما جاء في سياق القرطبي أنه يذهب إلى أنّ آيتي الإمداد في آل عمران أُحُدِيتان وليستا بدريتين، وهذا لم ينفرد به الشَّعْبي، وهو محتمل كما بيناه.

ومن الغريب أن القرطبي ساق كلاماً عن الشعبي في الإمداد بالخمسة آلاف في قصة كرز بن جابر الفهري، يتعارض مع سياق ابن أبي شيبة الذي صحح الرواية عن الشَّعْبي، وقد جاء فيه أن كُرْزاً لما بلغته هزيمة المشركين ببدر جبن فلم يمد المشركين، ولم يمد الله المؤمنين بالخمسة آلاف.

قال القرطبي: قال الشَّعْبي: بلغ النبي ﷺ وأصحابه أن كرز بن جابر المحاربي ـ وهو الفهري في رواية ابن أبي شيبة ـ يريد أن يمدّ المشركين فشقَّ ذلك على النبي ﷺ وعلى المسلمين، فأنزل الله ﴿ ألن يكفيكم ـ إلى قوله مسوِّمين ﴾ فبلغ كُرْزاً الهزيمةُ، فلم يمدهم ورجع فأمدَّهم الله بالخمسة آلاف، وكانوا قد أمدوا بألف.

مظنة دخول الشبهة على من حكى القولة الشاذة عن الشعبي.

ولعل الشبهة دخلت على من نقل هذه القولة الشاذّة، سواء أكان ابن عطية أم غيره من المتقدمين والمتأخرين من حديث ابن أبي شيبة عن الشعبي بسند صحيح إليه: قال: إن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر الفهري يمد المشركين فشقّ عليهم، فأنزل الله: ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين ﴾ قال الشعبي: فبلغت الهزيمة ـ أي هزيمة المشركين في بدر ـ كرزاً فلم يمدّ المشركين، ولم تمدّ المسلمون بالخمسة.

فهذا الكلام المروي عن الشعبي بسند صحيح إليه ـ كما يقول الزرقاني في شرح المواهب ـ قد يكون هو الذي أدخل الوهل على من لم يتأمل في سياقه، فبدر إليه الوهم ففهم خطأ في قول الشعبي: ولم تمد المسلمون بالخمسة ما جاء مبتوراً في الكلام الذي ساقه أبوحيان منسوباً الى ابن عطية ومحكياً عن الشعبي.

نقل الرازي الإجماع على شهود الملائكة بدراً

وممّن نقل إجماع المفسرين وأهل السير على شهود الملائكة غزوة بدر مدداً للنبي ﷺ ولأصحابه استجابة لاستغاثتهم الإمام الرازي في تفسيره (مفاتيح الغيب) إذ قال: أجمع المفسِّرون وأهل السِّير على أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر، ثم قاتلوا الكفار.

وكلام الرازي متضمن لقضيتين، الأولى: قضية إنزال الملائكة يوم بدر، وهي قضية مسلّمة أجمع عليها أهل العلم من ذوي الشأن في العلم بالسنّة وأحداثها ودلت عليها آيات الإمداد في سورتي الأنفال وآل عمران، والعديد من الأحاديث والآثار والتي تشبه أن تكون في كثرتها متـواتـرة الدلالة على المطلوب.

أما القضية الثانية: فهي أن الملائكة قاتلوا الكفار يوم بدر وهي قضية اختلف فيها أهل العلم من السلف والخلف، فلا ينسحب عليها ما ذكره الرازي من إجماع المفسرين وأهل السِّيَر.

إنكار الأصم نزول الملائكة في بدر ورد الرازي عليه

وقد ذكر الرازي إنكار أبي بكر الأصم إنزال الملائكة مدداً للمؤمنين، وذكر احتجاجه لإنكاره بأربع حجج، ثلاثة منها منصبّة على إنكار مباشرة الملائكة القتال، والرابعة ظاهر في إنكار نزول الملائكة، وهذا ما يجب ردّه وعدم قبوله، وكذلك صنع الإمام الرازي، فقال: الحجة الرابعة أن هؤلاء الملائكة الذين نزلوا إما أن يقال إنهم كانوا أجساداً كثيفة أو لطيفة، فإن كان الأول وجب أن يراهم الكل، وأن تكون رؤيتهم كرؤية غيرهم، ومعلوم أن الأمر ما كان كذلك، وإن كانوا أجساماً لطيفة دقيقة مثل الهواء لم يكن فيهم صلابة وقوة، ويمتنع كونهم راكبين على الخيول.

قال الرازي: واعلم أن هذه الشبهة إنما تليق بمن ينكر القرآن والنبوة، أما من يقربهما فلا يليق به شيء من هذه الكلمات، فما كان يليق بأبي بكر الأصم إنكار هذه الأشياء مع أن نص القرآن ناطق بها، وورودها في الأخبار قريب من التواتر! . وردُّ الرازي على الأصمّ مسلَّم في إنكاره نزول الملائكة مدداً للمؤمنين في بدر، أما قضية أن الملائكة قاتلت الكفار فهي موضع نزاع بين العلماء، فلا ينسحب عليها حكم الإجماع الذي زعمه الرازي، على أن ردَّ

الرازي على الأصم مجمل ولا يخلو عن ضعف كما ألمح إلى ذلك صاحب المنار؛ لأن الأصم أهدر أن المقام مقام إعجاز، فحكّم المألوف والعقل ولم يُقِم للأحاديث الصحيحة التي رؤيت فيها الملائكة في صور بشرية وأجل هذه الأحاديث صحة ومعنى حديث جبريل المشهور، وقول النبي ﷺ فيه: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» بعد أن ذهب ولم يعرفه أحد من الصحابة.

آيات آل عمران تؤكد آيات الأنفال.

ومما يؤيد قول جمهور العلماء بإنزال الملائكة مدداً للمؤمنين في بدر أن قوله تعالى: ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين. وما جعله الله إلا بشرى لكم، ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ نزل في غزوة بدر، كما هو قول جمهور العلماء.

وسياق هذه الآيات يرجِّح بدريتها، لأنها جاءت في ترتيب التلاوة معاقبة لقوله تعالى: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾.

قال أبو حيان في (البحر): ظاهر هذه الآيات اتصالها بما قبلها وأنها من قصة بدر، وهو قول الجمهور، فيكون (إذ) معمولاً لنصركم، ثم قال أبو حيان: وقيل: هذا من تتمة قصة (أحد) فيكون قوله: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ معترضاً بين الكلامين لما فيه من التحريض على التوكل والثبات للقتال.

تحقيق ابن القيم في آيات آل عمران.

وقد ذكر الامام ابن القيم في (الهدي) الخلاف، وحجج الفريقين، ولم يرجِّح قولاً على قول، قال: فإن قيل: ها هنا - أي في سورة الأنفال - ذكر أنه أمدهم بألف، وفي سورة آل عمران قال: ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين ﴾ فكيف الجمع بينهما؟ قيل: اختلف في هذا الإمداد الذي بثلاثة آلاف، والذي بخمسة آلاف على قولين:

أحدهما أنه كان يوم (أحد) وكان إمداداً معلّقاً على شرط، فلما فات الشرط فات الإمداد، وهذا قول الضحاك، ومقاتل، وإحدى الروايتين عن عكرمة.

والثاني أنه كان يوم بدر، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة والرواية الأخرى عن عكرمة، واختاره جماعة من المفسرين.

وحجة هؤلاء أن السياق يدل على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة، فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدَّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ﴾.

قال هؤلاء: فلما استغاثوا أمدّهم بتمام ثلاثة آلاف، ثم أمدّهم بتمام خمسة آلاف لما صبروا واتقوا، وكان هذا التدرج ومتابعة الإمداد أحسن موقعاً، وأقوى لنفوسهم، وأسرّ لها من أن يأتي مرة واحدة، وهو بمنزلة متابعة الوحي ونزوله مرة بعد مرة.

وقالت الفرقة الأولى: القصة في سياق أحد، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضاً في أثنائها، فإنه سبحانه قال: ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم. إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[1] ثم قال: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ فذكر نعمته عليهم لما نصرهم ببدر وهم أذلة، ثم عاد إلى قصة أحد، فأخبر عن قول رسوله لهم: ﴿ ألن يكفيكم أن يمدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين ﴾ ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا، أمدهم بخمسة آلاف، فهذا من قول رسوله، والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى، وهذا بخمسة آلاف وإمداد بدر بألف، وهذا معلّق على شرط، وذلك مطلق.

---

(١) سورة آل عمران آيتا (١٢١، ١٢٢).

والقصة في سورة آل عمران هي قصة أحد مستوفاة مطوّلة، وبدر ذكرت فيها اعتراضاً، والقصة في سورة الأنفال قصة بدر مستوفاة مطوّلة، فالسياق في آل عمران غير السياق في الأنفال.

يوضح هذا أن قوله: ﴿ ويأتوكم من فورهم هذا ﴾ وقد قال مجاهد، هو يوم أحد، وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه، فلا يصح قوله: إن الإمداد بهذا المدد كان يوم بدر، وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد.

وقفة وبحث مع ابن القيم في توجيهه رأيه.

ونقف مع الإمام ابن القيّم عند قوله في الموازنة بين أدلة الفريقين: فهذا أي قوله تعالى: ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف ﴾ من قول رسوله، والإمداد الذي ببدر من قول الله تعالى، لنتفهم ما معنى قول ابن القيم: هذا من قول رسول الله، والإمداد ببدر من قول الله تعالى، والآيات في إمداد بدر، بألف، وفي الإمداد المختلف فيه بين بدر وأحد كلها من قول الله تعالى، وهي قرآن متحدّىً به، متعبد به، نزل به أمين الوحي جبريل عليه السلام على محمد رسول الله ﷺ ليبلِّغه لأمته؟ فقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم ﴾ لا بد أن يكون الأمر فيه بالتبليغ، والمعنى: اذكر لأصحابك مبلِّغاً لهم نعمتنا عليهم إذ تقول لهم مبشِّراً ومنشِّطاً بوحينا إليك، حاكياً لهم تنزيلنا عليك (ألن يكفيكم - في الفوق على أعدائكم أن يمدكم ربكم - زيادة على ما أمدكم به من ألف مردفين بتمام (ثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) فهو قول الله تعالى قطعاً كقوله: ﴿ فاستجاب لكم أني ممدّكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ على سواء، وليس لرسول الله ﷺ فيه إلا التبليغ، ثم وعدهم إن هم صبروا واتّقوا أمدّهم بتمام خمسة آلاف مسوِّمين.

وهل مثل هذا يمكن أن يكون بمحض الاجتهاد من رسول الله ﷺ؟ أو أنه من الأمور التي لا مدخل فيها قط للاجتهاد، بل لا بد فيها من الوحي عن الله تعالى، أن يقول الرسول ﷺ لأصحابه بإخبار الله له ما حكاه عنه في صدر الامتنان والتثبيت، وإزالة ما مسَّهم من طائف الوحشة لملاقاة أعدائهم، وتذكيرهم نعم الله عليهم ليقوموا بحق شكر هذه النعم التي لم تجرِ

على مقتضى ربط المسببات بأسبابها طبقاً لنواميس السنن الكونية العامة في مجرى الأحداث، ولكنها جرت بمحض فضل الله دون أن تعرف لها عندهم أسباب مألوفة في مدارك العقل ومألوف الحياة في نظامها العام.

وإذا صح أن يَعِد رسول الله ﷺ أصحابه تثبيتاً لهم وإخباراً بموعود الله له بالنصر مع قلّة عدد أصحابه وضعف عدتهم بأن الله سيمدهم بمدد من عنده، يبدد كثرة أعدائهم ويذهب بقوتهم المادية استجابة لاستغاثته واستغاثتهم، فهل يملك رسول الله ﷺ باجتهاده أن يعيِّن أن هذا المدد يكون من الملائكة، فيخبر به أصحابه؟ أو لابدّ في هذا التعيين بأن هذا المدد من الملائكة من وحي الله له بذلك، لأن جنود الله التي يمدّ بها عباده المؤمنين لينصرهم على أعدائهم لا تقتصر على الملائكة ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾.

وهل يملك رسول الله ﷺ تحديد عدد المدد بثلاثة آلاف، ثم بخمسة آلاف إن تحقق شرط الصبر والتقوى؟.

وإذا كان لا بد في كل ذلك من الوحي ـ وهو الواقع الذي يجب المصير إليه ـ كان ما أمر الله به رسول الله ﷺ أن يقوله لأصحابه في قوله تعالى: ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيَكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين * بلى إن تصبروا وتتَّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين ﴾ هو قول الله تعالى مثل قوله جل شأنه: ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنِّي ممدّكم بألفٍ من الملائكة مردِفين ﴾ على سواء.

غاية ما في الأمر أنّ الإمداد بألف المردفين إخبار من الله تعالى بأنه استجاب لهم استغاثتهم فأمدّهم بها، وأن الإمداد بتمام هذه الألف ثلاثة آلاف، ثم إتمام هذه الثلاثة خمسة آلاف إن هم حققوا شرط الصبر والتقوى وعد من الله تعالى أوحاه إلى رسوله ﷺ ليبلِّغه إلى أصحابه بأسلوب تقريري يغسل ما ألمّ بصدورهم من حالة تشبه اليأس، ليستعيدوا ثباتهم ويستشعروا سمو مكانة رسول الله ﷺ عند ربه، ويعرفوا رفيع منزلته، وحفاوة الله به، ورعايته في

هذا الموقف الآزم بما لا يمكن أن يقدر على إبداعه أحد إلا الله تعالى في عظيم اقتداره ومحكم تدبيره، فحقّق لهم على أعدائهم ـ وهم أكثر عدداً وأقوى عدة منهم، ولهذا كانوا يتهيبون لقاءهم في الحرب ـ نصراً قوياً قاهراً غلّاباً، تردد صداه في آفاق أرض العرب قاصيها ودانيها، فأرعب قلوبهم، وأذلَّ استكبارهم، وطامن غرورهم، إذ قتل فيه صناديدهم وأشرافهم، وأرغم معاطس طواغيتهم، وشغلهم عن (لا) و(نعم)، وأذهلهم عن أنفسهم، وكسر شوكتهم، وغمز قناتهم، وزلزل أقدامهم، وأرجف الأرض من تحتهم، وبدَّلهم بأمنهم فزعاً، وبصلفهم انكساراً، وبعتوّهم مهانة وهواناً، وارتفعت به رؤوس المؤمنين شامخة، وتثبتت أقدامهم راسخة، وأصبحوا سادة الموقف، وربابنة سفائنه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

هل باشرت الملائكة القتال
مع المؤمنين في بدر أو غيرها؟

إنكار نزول الملائكة مدداً للمؤمنين في بدر شذوذ واشتباه في النقل.

الاختلاف في مباشرة الملائكة القتال مناصرة للمؤمنين في غزواتهم مع رسول الله ﷺ أشد وأوسع مدى من الاختلاف في أصل نزولهم مدداً، وشهودهم المعارك لتثبيت المؤمنين، وتبشيرهم بالنصر لتقوَى عزائمهم وتشتد سواعدهم.

وقد حققنا قضية إنزال الملائكة وإمداد المؤمنين بأعدادهم، وحضورهم مشاهد القتال في غزوة بدر، وبيّنا أن نزولهم مدداً للمؤمنين في بدر أشبه بأن يكون مُجْمعاً عليه من سلف الأمة وخلفها، وأن ما وقع من النقل عن بعض الأئمة من إنكار لنزول الملائكة وإمداد جند الله من المؤمنين بأعدادهم كان إما من قبيل الشذوذ في النقل، واشتباه النصوص واضطراب الروايات، وذلك كالقولة المنسوبة إلى الإمام الشعبي، أو كان من قبيل غلبة الأوهام على منطق العقل، والوقوف مع الأسباب والمسبِّبات التي تحكمها السنن العامة في وقوع الأحداث، وذلك كالذي حكاه الرازي عن أبي بكر الأصم، واحتج له بما لا حجة له فيه.

مباشرة الملائكة القتال في بدر على سبيل الإعجاز رأي جمهور العلماء وظاهر القرآن وصريح السنة.

أما قضية مباشرة الملائكة القتال في صفوف المؤمنين، وهي متفرعة على ثبوت نزولهم وإمداد المؤمنين بهم، وشهودهم المعارك، فقد اختلف فيها العلماء والباحثون من المفسرين وأهل السِّيَر، فقال قوم وهم الأكثرون وجمهور أهل العلم: إن الملائكة أُنزلوا مدداً للمؤمنين وباشروا القتال معهم، وقتلوا آحاداً من الكافرين، وأسروا أفراداً منهم. كما ورد في حديث أسر العباس، واستدل هؤلاء بظواهر آيات القرآن الكريم، وبآثار وروايات كثيرة عن

الصحابة الذين شهدوا بدراً أو حدثوا عمن شهدها.

وقال آخرون: إن الملائكة أنزلوا مدداً للمؤمنين في بدر، وشهدوا معركتها، ولكنهم لم يباشروا القتال، بل كان إنزالهم لتكثير سواد المسلمين، وتثبيتهم بما يلقُونه في قلوبهم إلهاماً من بشائر النصر، وتقوية عزائمهم، وأن الله تعالى ناصر نبيه وأصحابه على جند الشيطان وأوليائه من أحلاس الشرك وعبيد الوثنية، لتقوَى نفوس المؤمنين وعزائمهم ويجترئوا على أعدائهم في القتال، ولم تنزل لتباشر القتال، ولو كان إنزالهم للقتال لكان في وجود ملك واحد يقاتل مع المؤمنين كفاية لتحقيق النصر، وهزيمة الكافرين، بل لإهلاكهم إهلاكاً تاماً، فضلاً عن جبريل عليه السلام الذي وصفه الله في كتابه المبين بأنه شديد القوى، ذو مرّة، والذي تقول الروايات المشهّرة أنه اقتلع قرى قوم لوط من أصولها في الثرى، وحملها على ريشة من جناحه بمن فيها، وما فيها من أناسيّ وحيوان، وبيوت وشجر وزروع وأمتعة حتى بلغ بها آفاق السماء، وذرى الفضاء، ثم قلبها، فجعل أعاليها أسافلها، وصاح بثمود وهي في ديارها صيحة واحدة جعلتهم كالرميم.

إنكار قتال الملائكة مع المؤمنين صرف لظواهر النصوص عن منازلها بغير موجب.

وذهب أصحاب هذا الرأي في تأويل آيات الإمداد بالملائكة تأويلات صرفتها عن ظواهرها بغير ضرورة موجبة مما شتّت الضمائر في أسلوب الآيات.

وقد ذكر أبو حيان في تفسيره (البحر) وجوها في نظم قوله تعالى: ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبّتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بَنَان ﴾ ليجعل قوله تعالى: ﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا ﴾ خطاباً للمؤمنين عن طريق الملائكة، على معنى: قولوا لهم: (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) وليتسنَّى جعل قوله تعالى: ﴿ فاضربوا ﴾ خطاباً تعليمياً للمؤمنين، يعلمهم طريقة ضرب الكافرين لقتلهم أو تعجيزهم عن القتال، وهي وجوه يكنفها التعسف وتشتيت الضمائر مما يخلّ بالبراعة البيانية في القرآن الكريم.

والحامل على هذا التعسف هو الفرار من إثبات مباشرة الملائكة القتال

في صفوف المؤمنين اعتماداً على قصص لا تستند على سند صحيح، وغفلة عن مقام الأحداث والوقائع، وهي أحداث إعجازية، لها سننها وقوانينها الخاصة التي لا يلزمها التقيد بحال من الأحوال، ولا تخضع لنظام السنن الكونية العامة التي تحكمها قوانين الأسباب والمسببات، وإنما مرجعها إلى إطلاق مشيئة الله واقتداره وحكمة تدبيره.

وقد ذكر الرازي في تفسيره أن الملائكة نزلت في بدر، وقاتلت الكفار وقال: أجمع أهل التفسير والسِّيَر أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر، وفيما سواه كانوا عدداً ومدداً، لا يقاتلون ولا يضربون، وهذا قول الأكثرين، بَيْدَ أن الرازي الذي ينقل هذا الإجماع عن ذوي الشأن من المفسرين وأهل السِّيَر لم يُقِم لنقله وزناً، وذهب مع الذين يزعمون أن الملائكة نزلت مدداً للمؤمنين ولكنها لم تنزل لتقاتل، بل نزلوا لتقوية عزائم المؤمنين، ولكنه لمّح وهو يذكر اختلاف العلماء في مباشرة الملائكة القتال إلى أنهم لم يقاتلوا مستنداً إلى أن لفظ المدد الذي وصف به الملائكة مشعر بالمعاونة في القتال، فقال في تفسير آيتي آل عمران: اختلفوا في كيفية نصرة الملائكة فقال بعضهم: بالقتال مع المؤمنين، وقال بعضهم: بل بتقوية نفوسهم، وإشعارهم بأن النصر لهم، وإلقاء الرعب في قلوب الكفار.

ثم قال الرازي: والظاهر في المدد - أي في مفهومه اللغوي والعرفي - أنهم - أي الملائكة الذين نزلوا مدداً للمؤمنين - يشاركون الجيش في القتال إن وقعت الحاجة إليهم، ويجوز أن لا تقع الحاجة إليهم في نفس القتال، وأن يكون حضورهم كافياً في تقوية القلب، وزعم كثير من المفسرين أنهم قاتلوا يوم بدر، ولم يقاتلوا في سائر الأيام.

وقول الرازي: إن وقعت الحاجة إليهم، مؤذن بأنهم قاتلوا في يوم بدر لأن الحاجة إلى مشاركتهم للمؤمنين بالقتال معهم كانت في بدر واقعة وماسّة، تدعو إليها ضرورة الموقف إذ كان عدد المؤمنين قليلاً، وكانت عدتهم ضعيفة إلى جانب عدد أعدائهم وقوتهم المادية التي كانت وافية وافرة، وكان

الخوف من ملاقاتهم وهم في هذا العدد والعدّة مستولياً على بعض المؤمنين الذين خرجوا مع النبي ﷺ وهم كارهون للقتال، فكانت الحاجة داعية إلى تطلّع المؤمنين أن يمدهم الله بمدد من عنده، فاستغاثوه مع رسول الله ﷺ، فاستجاب لهم ووعدهم بإمدادهم بألف من الملائكة، وقد دلّت الآثار على أن الملائكة نزلوا في صور بشرية، ليأنس بهم المؤمنون وتقوى عزائمهم، وتطمئن قلوبهم إلى نصر الله وعونه.

أوهام الأصم وتزييفها ورد الرازي عليه.

أما أوهام أبي بكر الأصم وتخيلاته التي تشبث بها في إنكاره نزول الملائكة وقتالهم الكفار مع المؤمنين كما حكاها عنه الرازي فهي أوهام واهية، وتخيلات متهافتة، لأن الملائكة لم ينزلوا في صورهم وهيئاتهم التي خلقهم الله عليها، ولم يقاتلوا بقواهم الملائكية، وإنما نزلوا وقاتلوا بقوى بشرية تأنيساً للمؤمنين، وتقوية لعزائمهم كما تدل عليه الآثار الكثيرة.

والمؤمنون عرفوا نزول الملائكة بإخبار النبي ﷺ لهم عن الله تعالى، وعرفوا قتالهم معهم بمشاهدة آثار هذا القتال، ورؤيتهم لآثار ضرب الملائكة للكفار، ومخالفة ذلك لآثار قتال المؤمنين، وسماعهم أصوات آلات ضرب الملائكة وتحريضهم كما في حديث: «أقدم حيزوم» الذي أخرجه مسلم في صحيحه من طريق عكرمة بن عمار، عن أبي زميل، عن ابن عبّاس قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه قد خرّ مستلقياً، فنظر إليه، فإذا هو خُطم وشُقّ وجهه بضربة السوط، واخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدّث ذاك رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «صدقتَ، ذلك من مدد السماء الثالثة».

تعسف الرازي وضعف رأيه في تأويل الآيات.

ثم أعاد الرازي ذكر الخلاف في قتال الملائكة في سورة الأنفال، فقال: اختلفوا في أن الملائكةهل قاتلوا يوم بدر؟ فقال قوم: نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة ملك على الميمنة، وفيها أبوبكر، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة، وفيها علي بن أبي طالب في صورة الرجال عليهم ثياب بيض وقاتلوا.

ثم قال الرازي: وقال آخرون: لم يقاتلوا، وإنما كانوا يكثّرون السَّوَاد، ويثبّتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كافٍ في إهلاك الدنيا كلّها، ثم ساق الرازي قصة حمل جبريل قرى قوم لوط بريشة من جناحه، وإهلاكه بلاد ثمود بصيحة واحدة منه.

ثم خرج الرازي من التلميح إلى التصريح برأيه في أن الملائكة لم تقاتل في يوم بدر، ولا في غيره من الغزوات، فقال: والذي يدل على صحة أن الملائكة ما نزلوا للقتال قوله تعالى: ﴿ وما جعله الله إلا بشرى ﴾ قال الفرّاء: الضمير ـ أي في جعله ـ عائد إلى الإرداف، والتقدير: ما جعل الله الإرداف إلّا بشرى، وقال الزجاج: ما جعل الله المردِفين إلا بشرى، وهذا أولى لأن الإمداد بالملائكة حصلٍ للبشرى، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يوم بدر في العريش قاعداً يدعو، وكان أبو بكر قاعداً عن يمينه ليس معه غيره، فخفق رسول الله ﷺ خفقة أخذته فيها سِنَة، ثم ضرب بيمينه على فخذ أبي بكر، وقال: «أبشر بنصر الله، ولقد رأيت في منامي جبريل يقدَم الخيل» قال الرازي: وهذا يدل على أنه لا غرض من إنزالهم إلا حصول البشرى، وذلك ينفي إقدامهم على القتال.

وقد أكد الرازي رأيه في أن الملائكة لم تنزل للقتال، وأنها لم تقاتل فقال: أما قوله تعالى: ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ ففيه وجهان: الأول أنه أمر للملائكة، متصل بقوله تعالى: ﴿ فثبّتوا ﴾ وقيل: بل أمر للمؤمنين، وهذا هو الأصح لما بيّنا أنه تعالى ما أنزل الملائكة لأجل المقاتلة والمحاربة.

اضطراب كلام الرازي وتضاربه.

والمتأمل في كلام الرازي أولاً وآخراً في آيات الإمداد بالملائكة في سورتي آل عمران والأنفال يرى أن هذا الكلام لا يخلو من تضارب واضطراب، وأن الرازي جنح إلى التعسُّف في تأويل آية ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم ﴾ فانتزع الخطاب بقوله تعالى: ﴿ فاضربوا ﴾ من سياقه القرآني المقتضي لوحدة الخطاب في الآية الواحدة ما لم تقم الدلائل على غير ذلك، والرازي جعل هذا الخطاب للمؤمنين، ولا يخفى ما في ذلك من تشتيت ضمائر الآية الواحدة في سياقها والقصد من إنزالها.

والرازي في سبيل تأييد رأيه بأن الملائكة لم تنزل للقتال والمحاربة يجعل القصر في قوله: ﴿ وما جعله الله إلا بشرى ﴾ قصراً ينفي إرادة القتال من إنزال الملائكة بترجيحه رأي الزجاج على رأي الفرّاء في مرجع الضمير في قوله (جعله) وسياق الآية يوحي بترجيح رأي الفرّاء لاتّساقه مع سياق الآية.

رأي الطبري وتمسكه بحرفية النص القرآني.

وقد نهج الإمام أبو جعفر الطبري نهجاً اعتصم فيه بظاهر القرآن، ولم يرجِّح رأياً على رأي من آراء القائلين بالإمداد بما زاد على الألف المثبتة في سورة الأنفال، أو القائلين بعدم الإمداد فيما زاد على ألف الأنفال مما ذكر في آيتي آل عمران.

ولم يعوّل الطبري على ما ذكره الأثريون من الأحاديث والآثار المثبتة أو النافية، فقال بعد أن ذكر كثيراً من هذه الآثار والأخبار: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر عن نبيه محمد ﷺ أنه قال للمؤمنين: «ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة» فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مدداً لهم، ثم وعدهم بعد الثلاثة آلاف خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتّقوا الله، ولا دلالة في الآية على أنهم مُدُّوا بالثلاثة آلاف، ولا بالخمسة آلاف، ولا على أنهم لم يُمَدُّوا بهم.

وقد يجوز أن الله عز وجهه أمدَّهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدّهم، وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذي ذكره من أنكر ذلك، ولا خبر عندنا صحّ من الوجه الذي يثبت أنهم أُمدُّوا بالثلاثة آلاف، ولا بالخمسة آلاف، وغير جائز أن يقال في ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به، ولا خبر به كذلك، فنسلِّم لأحدِ الفريقين قوله، غير أن في القرآن دلالة على أنهم قد أُمدُّوا يوم بدر بألف من الملائكة، وذلك قوله تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنِّي مُمدُّكم بألف من الملائكة مردِفين ﴾ فأما يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يُمَدوا أبين منها في أنهم أُمِدُّوا، وذلك لو أنهم أمدوا لم ينهزموا، وينال منهم ما نيل منهم، فالصواب فيه أن يقال كما قال تعالى ذكره.

وهذا الذي حكيناه عن أبي جعفر الطبري يمثل رأيه في أن الإمداد

بالملائكة وقع في يوم بدر بألف منهم، أخذاً بصريح آية الأنفال ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾.

أما آيتا آل عمران ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾ فقد جعلهما أبو جعفر الطبري من قبيل الوعد الذي لم يذكر معه ما يدل على أنه وقع أم لم يقع، وليس فيه ـ عند أبي جعفر ـ خبر يصح الاحتجاج به في وقوعه أو عدم وقوعه.

أما قتال الملائكة في صفوف المؤمنين لأعدائهم الكافرين في بدر أو غيرها فقد جنح فيه الطبري إلى أنه لم يقع، وأن تثبيت الملائكة للمؤمنين الذي أُمروا به في قوله تعالى: ﴿ فثبِّتوا الذين آمنوا ﴾ إنما كان بتقوية عزائمهم، وتبشيرهم بالنصر، وإلقائهم في قلوب المؤمنين بالإلهام أنهم أقوى من أعدائهم الكافرين.

وصرف أبو جعفر الخطاب في قوله تعالى: ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ إلى المؤمنين، فقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ يقول تعالى ذكره: سأرعب قلوب الذين كفروا بي أيها المؤمنون منكم، وأملؤها فَرَقاً حتى ينهزموا عنكم، فاضربوا فوق الأعناق.

ثم قال أبو جعفر والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر المؤمنين معلّمهم كيفية قتل المشركين، وضربهم بالسيف، أن يضربوا فوق الأعناق منهم، والأيدي والأرجل.

ثم قال الطبري: فالواجب أن يقال: إن الله أمر بضرب رؤوس المشركين وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم أصحاب نبيه ﷺ الذين شهدوا معه بدراً.

الاعتراض على الطبري في تعسفه وصرفه الخطاب إلى المؤمنين

والذي اعترضناه على رأي من ذهب إلى أن الخطاب في قولـه: (فاضربوا) للمؤمنين من أن فيه تشتيتاً للضمائر في الآية، لا يوائم البراعة البيانية في بلاغة القرآن وارد على كلام أبي جعفر ـ والآية بدأت قطعاً

بخطاب الملائكة بالوحي إليهم أنه تعالى معهم باقتداره وعزّته وقهره، فَلْيثبِّتوا المؤمنين بتبشيرهم بالنصر والعون في قتالهم للمشركين، وهي واردة مورد الامتنان على النبي ﷺ في تحقيق رغبته واستغاثته ربه أن يمدّ أصحابه بمدد من عنده، يحقق لهم النصر على هؤلاء الأعداء الذين يفوقونهم عدداً وعدة.

وهذا الإمداد لا يحقق الغرض منه كاملاً إلا بمشاركة المؤمنين القتال للكافرين، لأن المستغيث الذي استجاب الله له بالإمداد إنما هو النبي ﷺ وحده، كما يدل عليه حديث العريش، أو هو ﷺ ومعه أصحابه، والنبي ﷺ كان في أشدِّ حالات المناشدة والاستغاثة وطلب المدد من الله تعالى ليقوِّي قلوب أصحابه ويزيل عنهم وحشة ما داخلهم إذ رأوا كثرة أعدائهم وقوة عدتهم المادّية أمام قلة عددهم وضعف عدّتهم، ولم يكن ﷺ في حاجة إلى تقوية قلبه بمجرد نزول الملائكة دون أن يعاونوا المؤمنين بالقتال معهم.

أما الاعتلال بأن قوة ملك واحد كافية في هزيمة من هم أكثر عدداً، وأقوى عدّة من الكفار أضعافاً مضاعفة ـ فهو اعتلال يغفل عن طبيعة الموقف الذي كان فيه النبي ﷺ وأصحابه من الشدّة البالغة والتأزم المستحكم، كما يصوره حديث عمر بن الخطاب عند مسلم من طريق أبي زُمَيل عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا الاعتلال يقوم على فكرة خاطئة، تزعم أن الملائكة إذا قاتلت في صفوف المؤمنين إنما تقاتل بقوتها الملائكية، وهذا ما لا يلزم لزومه، لأن الملائكة مُنِحوا قوة التشكل في صور بشرية أو غيرها، فما المانع أن يكون قتالهم الذي وقع منهم في معاونة المؤمنين كان على قدر ما تشكلوا فيه من صور بشرية كما تدل عليه الآثار الكثيرة، وهذا يكون أوقع في نفوس الصحابة، لأنهم رضي الله عنهم إذا رأوا رجالاً يقاتلون معهم كان ذلك آنس لهم وأشد أثراً في شدِّ عزائمهم وتقوية قلوبهم، وأنكَى لعدوهم، لأنهم يظنُّون أنَّ الذين يقتلونهم هم أصحاب محمد ﷺ، فيكون الفعل منسوباً عندهم للنبي ﷺ وأصحابه، وهذا أقوى في الإعجاز، وأنجح في كسر شوكة هؤلاء الأعداء، وأغيظ لهم وأرعب لقلوبهم.

رأي السبكي في قتال الملائكة بصور بشرية وهو من أحسن ما ينبغي أن يقال.

وهذا ما أشار إليه الإمام السبكي في جواب سؤاله عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع أن جبريل عليه السلام قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فقال: ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ ولأصحابه، وتكون الملائكة مدداً على عادة الجيوش، ورعاية لصورة الأسباب وسننها التي أجراها الله في عباده، والله فاعل الجميع.

وممن ذهب إلى أن الملائكة نزلت يوم بدر مدداً للمؤمنين وقاتلت معهم أبو عبدالله القرطبي في أحكامه، فقال: وفي بدر أمدّ الله بملائكته نبيه والمؤمنين في قول جماعة العلماء، وعليه يدل ظاهر الآية، وتظاهر الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر، وقاتلت، ثم ساق حديث أبي أسيد مالك ابن ربيعة وكان بدرياً، وساق بعده حديث عمر عند مسلم، وغيره من الأحاديث والآثار الكثيرة.

ثم قال: فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور، وساق القرطبي قول من ذهب إلى أن الملائكة حضرت يوم بدر، ولكنها لم تقاتل، وعقّب عليه بأن قتال الملائكة هو قول الأكثر من العلماء وأن قوله تعالى: ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ أمر للملائكة، وضعّف قول من قال: أنه أمر للمؤمنين.

وجرى العلّامة البيضاوي على ترجيح أن الملائكة قاتلوا الكفار مع المؤمنين واستدل بقوله تعالى: ﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ وقوله: ﴿ أني معكم فثبتوا ﴾ على أن الملائكة قاتلوا مع المؤمنين.

والذي يجيل النظر بعين التفكير المتأمل في أحداث هذه الغزوة المباركة ووقائعها في مقدِّماتها، وإطار خطوطها التي قامت بها حتى وصلت إلى نهايتها من النصر المؤزّر لجند الإيمان وكتائب المجتمع المسلم الناشىء، نصراً بلغ ذروة الكمال، الذي كان به أساساً لجميع الفتوحات الإسلامية، ونشر الدعوة إلى الله الواحد الأحد في أرجاء الأرض ـ يدرك أن هذه الغزوة كانت تدبيراً إلهياً أشبه بالبعث ليوم الفصل لتطبيق منهج الرسالة الخالدة في أول جهاد قتالي يعتمد على التربية السلوكية للمجتمع المسلم تربية تحمل في طياتها

عوامل الخلود القائم على الكفاح الصبور، والنضال الحركي الذي يجعل من كل فرد من أفراد المجتمع المسلم لبنة تشد إليها البناء الإنساني الذي يمثّل فيه المجتمع المسلم قوة التماسك بين جميع لبنات هذا البناء، بحكم وضع هذا المجتمع الاجتماعي من مكان القيادة الرائدة، والأسوة الموجّهة، والقدوة الرشيدة الراشدة.

ومن ثَمّ كانت هذه الغزوة المباركة إطاراً لصورة المجتمع المسلم في حياته الاجتماعية الشاملة لسائر أنظمة وجوده أفراداً وجماعات، وأمماً وشعوباً.

ومن هذا المنطلق كانت حياة المجتمع المسلم نموذجاً لمواقف الكفاح المستهدف لإقامة الإنسانية على دعائم حرية العقيدة في سياج التوحيد المنيع، وحرية التفكير في ظل الإيمان، وحرية النظام الاجتماعي القائم على أداء الواجب وأخذ الحق، بل القائم على التواسي والتراحم فيما بين أبناء البشرية أفراداً وجماعات على سواء.

ولهذا أرخينا رَسَن القلم لينطلق على أرضها تعرّفاً لعناصر منهج الرسالة الخاتمة الخالدة، لنقيم من هذه العناصر المتداخلة صورة موحدة المعالم في مقدماتها ونهايتها، حتى يتاح للقلم أن يجمّع من خيوط نسجها أهم عناصر المنهج الإلهي الذي أودعه الله تعالى رسالة محمد ﷺ مضيئة المنائر، ليسترشد بها السالكون إلى نور الهداية بحثاً عن الحق والخير.

فـرائد بدريّـة

الفريدة الأولى

مشهد يمثل ذروة صدق الإيمان

المؤاخاة بين عبيدة ابن الحارث وعمير ابن الحمام جمعتهما في طليعة شهداء بدر.

عمير بن الحمام أنصاري بَدْري، كان أول شهيد من الأنصار في بدر، وكان أول قتيل منهم في الإسلام في حرب، وكان من الرعيل الأول منهم في بناء المؤاخاة الإيمانية المتواسية، القائمة على الحب في الله، التي عقدها رسول الله ﷺ مَقْدَمه المدينة بين الذين تبوؤا الدار والإيمان من الأنصار، وبين طلائع السابقين الأولين من المهاجرين، تلك المؤاخاة التي كانت دعامة المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديد، فجعلت منه قوة إيمانية موحدة الوسائل والأهداف.

فأما عبيدة بن الحارث فكان في بدر أحد أبطال المبارزة الذين ندبهم النبي ﷺ استجابة لدعوة عتبة بن ربيعة الذي تقدّم إلى صفوف المؤمنين، وحوله أخوه شيبة بن ربيعة، وولده الوليد بن عتبة تظاهراً بالشجاعة والجرأة ليرد عتبة على أبي جهل تعييره له بالجبن حين دعا عتبة إلى المسالمة ورجوع نفير قريش عن محاربة محمد ﷺ وأصحابه، فأبى أبو جهل إلا الحرب، فأخذت الحمية الجاهلية بتلابيب عتبة وقادته هو وأخاه وولده إلى حتوفهم، فتقدّم يطلب المبارزة، ونادى يا محمد؟ أخرج لنا أكفاءنا من بني عمنا، بعد أن برز لهم ثلاثة من البهاليل أبطال الأنصار، فأبى عتبة إلا أن يكون مبارزوهم من بني عمهم، من قريش.

عتبة يشعل نار الحرب ليرد على أبي جهل تعييره بالجبن.

وكانت هذه المبارزة أول شرارة قَدَح زَنْدها الغرور الكفور، والعتو الجاهلي الفاجر، وبدأت المبارزة بين أبطال المجتمع المسلم الثلاثة: حمزة ابن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، وبين عتبة، وأخيه

شيبة، وولده الوليد، وما هي إلا جولة حتى جندل أُسد الله سنانير نفير قريش، وفقاقيع نزيز البأو والطغيان وفجار الشرك وعبيد الوثنية، وحُمل عبيدة بن الحارث بعد أن اختلف مع قرنه ضربتين أثبت كلٌّ صاحبه، ولحِق حمزة وعلي قرن عبيدة فذفَّفا عليه، ثم حملا عبيدة إلى رسول الله ﷺ، فأفرشه قدمه الشريفة لتكون وساداً حتى قضى شهيداً حميداً رضي الله عنه.

وأما عمير بن الحمام شهيد صدق الإيمان في ذروته فإنه سمع النبي ﷺ يقول، وهو يحرِّض المؤمنين على القتال بعد أن استيقظ من خفقته في العريش، ورأى جبريل عليه السلام متأهباً للحرب وهو يقود فرسه، وعلى ثناياه النقع: «والذي نفسُ محمدٍ بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر؛ إلا أدخله الله الجنة» فقال عمير وكان واقفاً في الصف، وفي يده تمرات يأكلهن، وقد غمره الشوق إلى لقاء الله ودخول دار نعيمه وكرامته، فأنساه الدنيا ومن فيها، ولم يبقَ له إلاّ تطلّعات الحب وصدق الإيمان بَخٍ، بَخٍ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل، رضي الله عنه.

وقد أخرج هذا الحديث الإمام مسلم في صحيحه عن أبي بكر بن أبي شيبة وفيه أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «لا يتقدمنَّ أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه».

صدق الإيمان في فدائية عمير بن الحمام وشوقه إلى الجنة ورضوانها.

وتدانَى الجمعان، وكادت الصفوف تختلط، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحمام، شهيد صدق الإيمان، يستطعم قول النبي ﷺ ويستحلي مذاقه لشدة شوقه إلى الجنة، وما فيها من الرضوان الأكبر: يا رسول الله، جنة عرضها السموات!! فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال عمير متعجباً من عظم ما أعدّه الله لصادقي الإيمان من عباده المخلصين وقد هزه الوجد واستبد به الحب: بَخٍ، بَخٍ!! فقال له رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قول: بَخٍ، بَخٍ؟» فقال عمير وقد عادت إليه نفسه، وأخذه الحياء من رسول الله ﷺ: لا، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، فقال له رسول

الله ﷺ: «فإنك من أهلها» فأخرج عمير من قَرْنه تمرات فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة فرمَى ما كان معه من التمر، وركض إلى القتال، وهو يقول منتشياً بفرحة الأمل في الفوز برغائبه:

رَكْضاً إلى الله بغير زادِ إلّا التقى وعمل المعادِ
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفادِ
غير التقى والبرِّ والرشاد

بحث وتحقيق لبيان ما جاء في هذه القصة من معالم منهج الرسالة.

وفاز عمير بن الحمام بتحقيق المرجو، ووجد ما وعده الله ورسوله حقاً، وألقى رحاله في ربض الجنة يتبوأ منها حيث يشاء.

وهذا لون من صدق الإيمان لا تتيحه الحياة إلا في فرائد الأحداث المتباعدة في أزمانها، ليكون درساً في السلوك التربوي الذي يجعل من الأمة قراراً مكيناً لأجنّة يترقبها التطلع إلى النهوض الحضاري في ظل الإيمان ولائذ تتحول إلى بطولات زاكية، يرتفع بها بناء المجتمع بروابط الأمل المرجّى بين فترات من الزمن متفاوتة في المدى والغاية.

وهو لون من الإخلاص للعقيدة الموحّدة لا يطمع فيه مجتمع من المجتمعات الإنسانية إلا ما كان منها قائماً على صدق الإيمان بحقائقها الغيبية كصدق الإيمان بحقائقها الشهودية.

وأول ما يلفت النظر في هذه الفريدة قوة الإيمان عند عمير، وصدق إخلاصه في الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، فهو رجل مؤمن خالطت بشاشة الإيمان شغاف قلبه، ونشأ بهذا الإيمان في مؤاخاة القائمة على الحب لله، وكان إخاؤه معقوداً بناصية رجل من أبطال الرعيل الأول من المهاجرين الذين شرَوا أنفسهم في مرضاة الله، ذاك الفرع الأشم من دوحة النبوة: عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي، وها هوذا عبيدة يستشهد في أول جولة من جولات المعركة البدرية، فيشهده أخوه الإيماني عمير بن الحمام مودعاً إلى الجنة، تشيعه إليها شهادة رسول الله ﷺ بقوله: «أشهد أنك شهيد».

ويغمر الشوق عميراً، ويبرّح به الوجد ليلقَى أخاه عبيدة في رياض الجنة، ويسمع عمير النبيَّ ﷺ وهو يهدي إلى سبيل الوصول للجنة، وفي يده تمرات يتبلَّغ بهن، وتتمثل له الجنة بنعيمها ورضوان الله فيها، وقد اتكأ على أرائكها أخوه الإيماني عبيدة بن الحارث مع من سبقه إليها من طلائع الإيمان، فيقول متعجلاً الوصول إليها: لئن بقيت في هذه الدنيا لحظات آكل فيها تمراتي إنها إذاً لحياة طويلة تباعد بيني وبين منازل الأحباب، ويرمي ما في يده من تمرات راكضاً إلى القتال بسيفه، ويقاتل حتى يقتل.

فأي إيمان هذا الذي وقف بعمير بن الحِمام هذا الموقف الذي تعجز الحياة أن تأتي بمثله؟ وتعجز الأقلام والألسن عن تصويره؟ إنه الصدق المتسامي في ذرى الإيمان، وأي إخلاص هذا الذي امتزج في قلب عمير بهذا الإيمان فكان له بُراقاً ينقله في لحظة لا يعرف لها الزمن في حسابه قدراً إلى رياض الشهداء؟ إنه الإخلاص الذي يستحوذ على المشاعر ومداخل الحس، فلا يترك لغيره فيها مكاناً.

وعمير رضي الله عنه يأخذه العجب إذْ يسمع من رسول الله ﷺ أن الطريق إلى الجنة يملكه كل مؤمن غمره الإخلاص، وهو بين يدي عمير إذا شاءه، فما بقاؤه بعيداً عنها؟ أهذه التمرات التي يتبلغ بهن؟ فليلقها إلى الأرض فألقاها، فإذا هو شهيد يمضي ركضاً إلى الله بغير زاد إلاَّ التقى والصبر في الجهاد.

الفريدة الثانية
﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾

سبعة أخوة من الأبطال يشهدون القتال في بدر أول وأعظم مشاهد الجهاد في الإسلام.

عوف بن الحارث، أحد سبعة إخوة، أمهم عفراء بنت الحارث الأنصاريّة النجاريّة، وثالث ثلاثة أبوهم الحارث بن رفاعة النجاري، وهم: عوف، ومعاذ، ومعوِّذ، وهؤلاء الثلاثة عرفوا بأمهم فيقال لهم: أبناء عفراء، أما الأربعة الآخرون، وهم إياس، وعاقل، وخالد، وعامر، فأبوهم البُكَير

ابن عبد ياليل الليثي، وقد شهد سبعتهم بدراً مع النبي ﷺ، وكان عوف أحد ستة نفر من الأنصار كانوا أول من أسلم بمكة، وهو عقبي، شهد العقبتين: عقبة الاثني عشر، وعقبة السبعين، وهي أعظم بيعات الأنصار للنبي ﷺ.

وكان ممّا شرّف الله به عفراء بنت الحارث أن بنيها السبعة كانوا جنوداً في أول معركة خاضها المجتمع المسلم في جهاد القتال، وعُدّت عفراء في المبايعات، فهي من فرائد المسلمات، اللائي حُزْن من المكرمات والمفاخر ما لم يكن لغيرهن في تاريخ الإسلام.

يقول الحافظ ابن حجر في (الإصابة): وعفراء هذه لها خصيصة لا توجد لغيرها، وهي أنها تزوجت بعد الحارث البكير بن ياليل، فولدت له أربعة: إياساً، وعاقلاً، وخالداً، وعامراً، وكلهم شهدوا بدراً، وكذلك إخوتهم لأمهم بنو الحارث، وانتظم من هذا أنها امرأة صاحبية لها سبعة أولاد، شهدوا كلهم بدراً مع النبي ﷺ.

وعوف بن الحارث وأخوه معوّذ هما ـ في رواية الواقدي ـ اللذان قتلا أخبث كافر أقلته الأرض: أبا جهل بن هشام، ضرباه وهو يصول في المعركة حتى أثبتاه، وتركاه في آخر رَمَق، حتى ذفّف عليه عبدالله بن مسعود، واحتز رأسه بعد أن علا صدره ووضع قدمه على عنقه، وحملها إلى النبي ﷺ، ففرح ﷺ بقتل هذا الطاغية فرحاً شديداً، وقال لابن مسعود: «انطلق فأرنيه» فانطلق عبدالله معه ﷺ فأراه إياه مجندلاً، فقال ﷺ: «هذا فرعون هذه الأمة».

إذا ملك الإيمان قلب المؤمن أخلصه لله وحده.

هذه النشأة الإيمانية التي نَهَد عوف بن الحارث في مهادها ومجاليها جعلت منه نموذجاً للمؤمن الذي تخلل الإيمان مشاعره وإحساساته، وملأ قلبه وعقله، وأضاء جوانب روحه بنور هدايته، وشغله عن الدنيا وما فيها ومن فيها، بل شغله عن نفسه، وأذاقه حلاوة الإخلاص لله تعالى، وعرّفه كماله الربّاني، فعرف الله معرفة شهودية، جعلت منه عبداً لا يرى في حياته إلاّ ربه، ولا يرى سعادته إلا في مرضاته، ولا يشعر بلذة إلا لذة النظر إلى وجهه الكريم، فشَرَى نفسه لله تعالى، فكان مثلاً أعلى لواقعية قوله عز شأنه:

﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ فانطلقت روحه إلى منازل القرب، مستغرقة في بحار جلاله وقدس عظمته، فكان آية من آيات الله تمثل الحب الإلهي في أعلى مراتبه وأرفع درجاته، فأحبَّه الله تعالى، وأحبّ الله، وصار من الذين قال الله فيهم: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾.

إذا أحب الله عبداً غرس في قلبه حبه.

وحب الله لعبده أن يستأثر به لنفسه، فيحرره إلا من عبوديته له وحده، وحب العبد لربه أن يستخلصه ربه لنفسه، فلا يرى، ولا يسمع، ولا يحس، ولا يشعر إلا بهذا الحب، ولا يقر له قرار إلا بالله، ولله، وفي الله، فالله تعالى طِلْبته، ورضاؤه رغائبه.

هكذا كان عوف بن الحارث ساعة أن سمع النداء الأقدس وهو يتهيأ للرحيل على أجنحة الحب، فاتجهت نفسه إلى الخبير يستنبؤه عن أقرب طريق يفضي به إلى أن يكون ذرة نورانيّة بين يدي المحب الحبيب، تتلألأ في آفاق اللانهائية، سابحة في فضاء الأبدية، لا ترى إلا الله في قدس جلاله الذي لا يشهده إلا المقرّبون.

فقال لأمين سر الربوبية ﷺ: يا رسول الله؟ ما يضحك الرب من عبده؟ ليستجلي به أقصى ما يبلغ العبد من القرب في رضاء ربه، فأجابه العليم المعلّم ﷺ فقال: «غمسه يده في العدو حاسراً» ومعنى هذا الجواب: أن يبلغ العبد في حبه لربه درجة ترتفع بها الحواجز الترابية المظلمة، ويخلع عنه جلابيب البشرية، ليصير روحانياً خالصاً، يطير بأجنحة التقديس إلى منازل القرب التي لا تعرف الحدود والحواجز.

كان حب عوف ابن الحارث لربه حباً فدائياً ابتغاء مرضاته.

وفهم عوف الرمز، فباع نفسه لبارئها، ونزع درعاً كانت عليه، فرمى بها، وخلص روحاً نورانياً، ثم ركض إلى الله حتى بلغ منازل الأحباب، واستقر في خدورها نوراً يضيء لمن يريد.

هذه القصة ذكرها ابن إسحاق، ونقلها عنه الحافظ ابن كثير في البداية، وعز الدين بن الأثير في (أسد الغابة) وابن حجر في الإصابة.

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر، عن قتادة قال: لما التقى الناس يوم بدر قال عوف بن عفراء بـن الحارث: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟ قال: «أن يراه قد غمس يده في القتال، يقاتل حاسراً» فنزع عوف درعه، ثم تقدم فقاتل حتى قتل شهيداً رضي الله عنه.

الفريدة الثالثة
مقتل أبي جهل لعنه الله بسيوف ابني عفراء
﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾
شجاعة فدائية ـ إخوة بعضهم من بعض

لعوف بن الحارث أخوان شقيقان: هما معاذ بن الحارث، ومعوّذ ابن الحارث، وأن ثلاثتهم أبناء عفراء بنت عبيد الأنصارية النجّارية، وقد شهر أبناؤها بنسبتهم إليها، فيقال لهم أبناء عفراء، ولهم أربعة أخوة لأم، هم: إياس، وعاقل، وخالد، وعامر، أبوهم البكير بن عبد ياليل، وسبعتهم شهدوا بدراً مع رسول الله ﷺ، فكانوا أشجع أبطال قدّمتهم امرأة للجهاد الفدائي في سبيل الله، لنشر الدعوة إلى الله ومحاربة الشرك والوثنية، وإقامة دعائم التوحيد والعدل والمحبة والإخاء.

وكان معاذ، ومعوّذ، وعوف أبناء الحارث وعفراء من أول الأنصار إسلاماً بمكة، إذ كانوا في الثمانية أو الستة نفر الذين لقوا رسول الله ﷺ فبايعوه البيعة الأولى، ثم كان منهم من حضر العقبة الثانية وهي العقبة الكبرى، وفيها كانت بيعة السبعين الذين كانت كثرتهم من الخـزرج، والمذكور فيهم لهذه المشاهد مجتمعة معاذ بـن عفراء، فهو عقبي، بدري، أُحدي، خندقي، لم يتخلف عن مشهد من مشاهد الجهاد مع رسول الله ﷺ.

حفاوة النبي ﷺ بالرّبيّع بنت معوّذ.

ومعاذ هو الذي أهدَى إلى النبي ﷺ قناعاً من رطب أرسل به مع بنت أخيه الربِّيع بنت معوّذ، فوهبها النبي ﷺ حلية من ذهب، كان أهداها إليه صاحب البحرين، وقال لها: «تحلّي بهذا».

وفي حديثها عند البخاري والترمذي من طريق خالد بن ذكوان، قالت

جاءنا رسول الله ﷺ فدخل عليّ غداة بُني بي، فجلس على فراشي، وجويريات لنا يضربن بالدفوف، ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر.. إلى أن قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال لها رسول الله ﷺ: «دَعِي هذه وقولي التي كنت تقولين قبلها» وروى ابن الأثير في (أسد الغابة) عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، قال: قلت للربيِّع بنت معوّذ: صفي لي رسول الله ﷺ، فقالت: يا بني، لو رأيته لرأيت الشمس طالعة.

وكانت الربيِّع بنت معوّذ من المبايعات تحت الشجرة، وكانت تغزو مع رسول الله ﷺ، فتداوي الجرحَى، وترد القتلى إلى المدينة، فهي غصن من دوحة زاهية، زاكية، أصلها ثابت في منابت الإسلام وفروعها متطاولة إلى السماء.

قصة الربيّع بنت معوذ مع بنت مخرّبة أمّ أبي جهل.

ومن طريف حديث الربيِّع ما رواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة أسماء بنت مخرّبة أمّ أبي جهل عن الربّيع بنت معوذ قالت: دخلت في نسوة من الأنصار على أسماء بنت مخرّبة أم أبي جهل في زمن عمر بن الخطاب، وكان ابنها عبدالله بن أبي ربيعة أخو أبي جهل لأمه يبعث لها بعطر من اليمن وكانت تبيعه إلى الأعطية، فكنا نشتري منها، فلما جعلت لي في قواريري، ووزنت لي كما وزنت لصواحبي قالت: اكتبن لي عليكن حقّي، فقلت: نعم اكتب لها على الربيِّع بنت معوّذ، فقالت أسماء: خلفي، وإنك لابنة قاتل سيده؟ قلت: لا، ولكني ابنة قاتل عبده، قالت: والله لا أبيعك شيئاً أبداً، فقلت: وأنا والله لا أشتري منك شيئاً أبداً، فوالله ما هو بطيب ولا عَرْف، ووالله يا بني ما شممت عطراً قط أطيب منه، ولكني غضبت.

وفي (أسد الغابة) لابن الأثير أن أسماء بنت مخرّبة قالت للربّيع بنت معوّذ: حرام عليّ أن أبيعك من عطري شيئاً، فقالت لها الربّيع: وحرام عليّ أن أشتري منه شيئاً، فما رأيت لعطرٍ نَتَناً غير عطرك، ثم قمت، وإنما قلت ذلك لأغيظها.

وأسماء العطّارة هذه بنت مخرّبة أم أبي جهل وأخيه الحارث بن هشام قال عنها ابن عبد البر: ما أظنها أسلمت، وجزم البلاذري، نقلاً عن ابن

سعد أنها ماتت كافرة قبل أن يهاجر ابنها عيّاش إلى المدينة، قال ابن حجر في الإصابة: ويقال أنها أسلمت وأدركت خلافة عمر، وذلك أثبت.

خدعة أبي جهل أخاه لأمه عياش بن أبي ربيعة.

وقد قدَّمنا في حديث الهجرة أن ابنها عياشاً كان من السابقين الأولين المهاجرين إلى المدينة، وكان صديقاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأن أخاه لأمه أبا جهل أتاه إلى المدينة، فلم يزل به يفتل له في الذروة والغارب، يروضه ويخدعه، ويكذب عليه، ويزعم له أن أمه أقسمت أن لا تطعم ولا تشرب حتى تراه، وقد نصحه عمر، وأبان له عن خداع أبي جهل ومكره به، فأبى أن يسمع لعمر بن الخطاب، وغلبت عليه العواطف البنويَّة، وصدّق أبا جهل فيما زعمه له، وعاد إلى مكة معه، ولم يكد يستمكن منه خارج المدينة حتى أوثقه، ودخل به إلى مكة مغلّلاً، وقال لملأ قريش: هكذا فافعلوا بسفهائكم.

وهذا يدل على أن أمه كانت لا تزال على قيد الحياة، وأنه فارقها مهاجراً وهي في عداد الأحياء، فزعم من قال: أنها ماتت قبل هجرة ابنها عياش بن أبي ربيعة زعم باطل بمقتضى هذه الرواية.

وحديث الربيّع بنت معوّذ في قصة العطر صريح في ذلك، وإن كان مشعراً بأنها كانت تعيش في حمأة العصبية الجاهلية، وقول البلاذري: أنها ماتت كافرة قبل أن يهاجر ابنها إلى المدينة نقلاً عن ابن سعد يناقض قول ابن سعد إنها أسلمت وبايعت.

ويظهر أن أمر أسماء العطّارة أم أبي جهل اختلط على بعض الرواة بأمر بنت أخيها أسماء بنت سلمة الدارميّة زوجة ولدها عياش بن أبي ربيعة، وأسماء بنت سلمة من السابقات المهاجرات ذوات الهجرتين، هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عياش بن أبي ربيعة، وهاجرت إلى المدينة في طلائع المهاجرين والمهاجرات إليها، وتكنى أم الجلاس، وفي الحبشة ولدت لزوجها عياش ابن أبي ربيعة ولده عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة، وروت عن النبي ﷺ وروى عنها ابنها عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة.

قال ابن حجر في الإصابة: وخلط ابن منده ترجمتها بترجمة عمتها

أسماء بنت مخرّبة، قال ابن حجر: وبيان الخلط أنه جمع بين قصتي الرّبيع بنت معوّذ وعبدالله بن عيّاش، وقصة الربيّع إنما وقعت لها مع أسماء بنت مخرِّبة، وهي المختلف في صحبتها، وقصة عبدالله بن عيّاش هي ما تضمنها هذا الحديث، وهي والدته المتفق على صحبتها.

تكريم النبي ﷺ للربيّع بنت معوّذ تكريم لأسرتها.

فإذا كرّم النبي ﷺ الربيع بنت معوّذ وأكرمها فإنه ﷺ إنما يكرِّم في شخصها الوفاء في أروع صوره وأرفع نماذجه، ويكرم ذروة الفضائل الإيمانية في أسرتها التي وهبت نفسها وجميع ما تملك من قوة ومال للجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمته، ونشر دعوته، دعوة الهدى والنور بإزالة العوائق والعقبات من طريقها، وحماية رسول الله ﷺ أن يمسه أحد من أعدائه وأعداء دعوته بسوء من القول أو الفعل.

فهذا أبو الربيّع معوّذ بن الحارث، وعمها معاذ بن الحارث ابنا عفراء يسمعان أن أبا جهل يسب النبي ﷺ فيعاهدان الله تعالى على قتله أو يموتا دونه.

فدائية ابني عفراء معاذ ومعوّذ في حماية رسول الله ﷺ.

روى البخاري من طريق ابراهيم بن سعد، عن أبيه عن جده ـ أي عبد الرحمن بن عوف ـ قال: إني لفي الصف يوم بدر، التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن مكانهما إذ قال لي أحدهما سِراً عن صاحبه: يا عم، أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي ما تصنع به؟ قال: عاهدت الله تعالى إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، وقال لي الآخر: سِراً من صاحبه مثله، قال عبد الرحمن بن عوف: فما سرني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء.

وفي الصحيحين من حديث سليمان التيمي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من ينظر ما صنع أبو جهل؟» قال ابن مسعود: أنا يا رسول الله، فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد.

هاتان روايتان وهما من أصح وأعلى الروايات سنداً تفيدان صراحة أن قاتل أبي جهل هما ابنا عفراء: معاذ، ومعوّذ، أو معوّذ وعوف ابنا الحارث،

بيد أن الصحيحين رويا من طريق صالح بن ابراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف عن أبيه، عن جده عبد الرحمن بن عوف - وهو الصحابي الجليل الذي روى القصة في الحَدَثين السابقين - قال: إني لواقف يوم بدر في الصف فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما، فقال: يا عم أتعرف أبا جهل؟ فقلت: نعم، وما حاجتك إليه؟ قال: أخبرت أنه يسب النبي ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك فغمزني الآخر، فقال لي أيضاً مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل، وهو يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، فابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه.

ثم انصرفا إلى النبي ﷺ، فأخبراه، فقال: «أيكما قتله؟» قال كل منهما: أنا قتلته، فقال ﷺ: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالا: لا، فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: «كلاكما قتله» فقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والآخر ابن عفراء.

تحقيق إقحام معاذ ابن عمرو بن الجموح في قتل أبي جهل.

والناظر بعين التأمل يرى أن هذه الرواية - وهي في صحيح البخاري من طريق مسدّد، عن عبد الرحمن بن عوف صاحب إحدى الروايتين السابقتين وهي المروية من طريق إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن جده - وهو عبد الرحمن بن عوف - أما الرواية الثانية فهي من طريق سليمان التيمي عن أنس بن مالك وهي تخالف تَيْنك الروايتين، رواية أنس ابن مالك، ورواية عبد الرحمن بن عوف في إدخال معاذ بن عمرو بن الجموح في قصة قتل أبي جهل، فتجعله أحد القاتلين، بل جعلته هو القاتل، وجعلت ابن عفراء شريكه في ضرب أبي جهل، وأن النبي ﷺ قَضَى بسلب أبي جهل لمعاذ بن الجموح وجمهور العلماء يقولون: إن قضاء النبي ﷺ لابن الجموح بسَلَبِ أبي جهل بعد أن أشركه مع صاحبه في القتل فقال: «كلاكما قتله» دليل على أن ضربة ابن الجموح كانت هي القاضية على حياة أبي جهل، لأن السَّلَب إنما يكون للقاتل، لا للمشارك في القتل.

ومعاذ بن الجموح لم نَرَ له ذِكراً في القصة إلا في آخر هذه الرواية،

التي اعتمد عليها عبد الملك بن هشام، وسائر روايات الصحيح لا تذكر في قتل أبي جهل سوى ابني عفراء اللذين جاء النص عليهما في روايتي التيمي عن أنس وفي رواية إبراهيم بن سعد عن جده عبد الرحمن بن عوف، ففي رواية أنس يقول ابن مسعود: فانطلقت فوجدته قد ضربه ابنا عفراء حتى بَرَد، وفي رواية إبراهيم بن سعد، يقول عبد الرحمن بن عوف: فشدّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء.

وهذا نص صريح لا يحتمل التأويل، أما ذكر معاذ بن عمرو ابن الجموح في قصة قتل أبي جهل فيشبه أن يكون مقحماً، إذ تقول الرواية في آخرها فقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والآخر ابن عفراء، والغلط فيه بالوهم أقرب، لأنه يبعد جداً أن يكون عبد الرحمن بن عوف قائل ذلك وهو قد ثبت أنه قال في قاتلي أبي جهل: وهما ابنا عفراء، ويؤيد ذلك حديث ابن عباس عن ابن أبي خيثمة عن معاذ بن عفراء، قال: سمعت القوم وهم في مثل الحَرَجة، وأبو جهل فيهم، وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخْلَص إليه، فلما سمعتها جعلته من شأني، فقصدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة عظيمة أطنّت قدمه بنصف ساقه، وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه، ولقد قاتلت عامة يومي، وإني لأسحبها خلفي فلما آذتني وضعت قدمي عليها وتمطيت حتى طرحتها.

فهذا الحديث صريح في أن معاذ بن عفراء هو صاحب الضربة الأولى التي أعجزت أبا جهل عن الحركة، وأن ابنه عكرمة ضرب معاذ بن عفراء فطرح يده التي تعلقت بجلدة من جنبه، وظل يسحبها وراءه حتى آذته فتمطى عليها حتى طرحها، ولم نَرَ من ذكر أن معاذ بن عمرو بن الجموح هو صاحب هذه القصة.

فالإشكال في ذكر معاذ بن عمرو بن الجموح إنما جاء من رواية البخاري عن شيخه مسدّد عن عبد الرحمن بن عوف على خلاف ما جاء عنه في الروايات الأخرى من تصريح بأن قاتلي أبي جهل هما ابنا عفراء.

طريقتنا في حل إشكال ذكر معاذ بن الجموح في قصة قتل أبي جهل.

ويمكن أن يقال في حلِّ هذا الإشكال أن ذكر معاذ بن الجموح في هذه القصة، وإثبات إسناد قتل أبي جهل إليه يحتمل أن يكون قد وهم فيه بعض الرواة لتوافق اسمه مع اسم أحد أبناء عفراء، وهذا الاحتمال قد يبعده قصة سلب أبي جهل إذا ثبتت في غير حديث مسدّد الذي جاءت هذه القصة فيه متبوعة بقوله: وكانا معاذ بن عفراء، ومعاذ بن عمرو بن الجموح، وهذا تعبير يوحي بشيء من التردد في قاتلي أبي جهل، بخلاف التعبير القاطع في غير هذه الرواية على أن قاتلي أبي جهل هما ابنا عفراء.

ويمكن حل هذا الإشكال بطريق آخر، وذلك بأن معاذ بن عمروابن الجموح وجد أبا جهل عقيراً في حياة أشبه بحياة المذبوح، فضربه فقضى عليه فكانت ضربته هي القاتلة، ويكون معاذ بن عفراء هو صاحب الضربة الأولى التي أثبتت أبا جهل، وتركته لا حراك فيه، فظن أنه قَضَى، وذهب إلى النبي ﷺ ببشرى قتله أبا جهل، فوجد معاذ بن عمرو بن الجموح عنده، أو يكون قد جاء في أثره، فقال من سبق منهما إلى النبي ﷺ: قتلت أبا جهل، فقال الآخر: أنا قتلته، فسألهما النبي ﷺ: «هل مسحتما سيفيكما؟» فقالا: لا، فنظر النبي ﷺ إلى السيفين، فرأى أنهما صادقان في ضربهما لأبي جهل حتى قتلاه، فقال: «كلاكما قتله» ولكنه ﷺ رأى في سيف معاذ ابن عمرو بن الجموح ما يدل على أن ضربته هي القاتلة، فقضى له بسلب أبي جهل.

أو لعله ﷺ رأى أن ابن الجموح كان أكثر تطلّعاً إلى السلب، وأن ابن عفراء كانت تغلب عليه فدائية الغَيْرَة على النبي ﷺ، فطيّب نفس ابن الجموح بإعطائه السلب، ووكل ابن عفراء لنيته وإخلاصه.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: قال المهلب: نظره ﷺ في السيفين ليرى ما بلغ الدم من سيفيهما، ومقدار عمق دخولهما في جسم المقتول، ليحكم بالسلب لمن كان في ذلك أبلغ، ولذلك سألهما أولاً: «هل مسحتما سيفيكما» لأنهما لو مسحاهما لما تبين المراد من ذلك، وإنما قال: «كلاكما قتله» وإن كان أحدهما هو الذي أثخنه ليطيِّب نفس الآخر.

ثم قال ابن حجر: وقال الاسماعيلي: أقول: إن الأنصاريين ضرباه فأثخناه وبلغ به المبلغ الذي يعلم معه أنه لا يجوز بقاؤه على تلك الحال إلا قدر ما ينتهي، وقد دل قوله: «كلاكما قتله» على أن كلاً منهما وصل إلى قطع الحشوة وإبانتها، أو بما يعلم أن عمل كل من سيفيهما كعمل الآخر، غير أن أحدهما سبق بالضرب، فصار في حكم المثبت لجراحه حتى وقعت به الضربة الثانية فاشتركا في القتل إلا أن أحدهما قتله وهو ممتنع، والآخر قتله وهو مثبت، فلذلك قضى بالسلب للسابق إلى إثخانه.

وكلام المهلّب والإسماعيلي توجيه لإعطاء السلب لمعاذ بن عمرو ابن الجموح وهو قائم على فرض ثبوت اشتراك ابن الجموح في قتل أبي جهل، وهذا الثبوت يردّه ما ثبت عن عبد الرحمن بن عوف عند البخاري من أن قاتلي أبا جهل هما ابنا عفراء، ومثله من الصحيح عن عبدالله بن مسعود.

ولا ندري لماذا رجّح بعض الأئمة حديث مسدّد الذي جاء فيه ذكر معاذ بن عمرو بن الجموح على حديث التيمي عن أنس، وحديث إبراهيم ابن سعد، عن أبيه عن جده، وانتهضوا للدفاع عن قصة السلَب **وإعطائه** لمعاذ بن عمرو بن الجموح؟.

محاولة الحافظ ابن حجر التوفيق بين الروايات والرد عليه.

ولهذا حاول الحافظ ابن حجر في الفتح أن يجمع بين الروايات، فنقل عن ابن إسحق طريقة هذا الجمع بين الأقوال فقال: وحاصله أن كلاً من ابني عفراء سأل عبد الرحمن بن عوف عن أبي جهل فدلّهما عليه فشدّا عليه فضرباه حتى قتلاه.

وفي آخر حديث مسدّد: وهما معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ ابن عفراء، وأن النبي ﷺ نظر في سيفيهما، وقال: «كلاكما قتله» وأنه قضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح.

وعفراء والدة معاذ، واسم أبيه الحارث، وأما ابن عمرو بن الجموح فليس اسم أمه عفراء، وإنما أطلق تغليباً، ويحتمل أن تكون أم معاذ ابن عمرو بن الجموح تسمى عفراء، أو أنه لما كان لمعوّذ أخ يسمى معاذاً باسم الذي شركه في قتل أبي جهل ظنّه الراوي أخاه.

ثم قال ابن حجر: قال ابن إسحق: وحدثني عبدالله بن أبي بكر ابن حزم: قال معاذ بن عمرو بن الجموح سمعتهم يقولون، وأبو جهل في مثل الحَرَجة: أبو الحَكَم لا يُخْلَص إليه، فجعلته من شأني، فعمدت نحوه فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة أطنَّت قدمه، وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، ومرّ بأبي جهل معوّذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وبه رمق، فمرّ عبدالله بن مسعود بأبي جهل فوجده في آخر رمق.

قال ابن حجر: فهذا الذي ذكره ابن إسحق يجمع بين الأحاديث لكنه يخالف ما في الصحيح من حديث عبد الرحمن بن عوف أنه رأى معاذاً ومعوّذاً ـ أي ابني عفراء ـ شدّا عليه جميعاً حتى طرحاه.

وابن إسحق يقول: إن ابن عفراء وهو معوّذ، والذي في الصحيح أنه معاذ، وهما أخوان، فيحتمل أن يكون معاذ بن عفراء شدَّ عليه مع معاذ ابن عمرو بن الجموح، كما في الصحيح ـ أي في حديث مسدّد ـ وضربه بعد ذلك معوّذ حتى أثبته، ثم حزّ رأسه عبدالله بن مسعود.

وقد عرفنا أن الصحيح كما ذكر في حديث مسدّد أن معاذ بن عمرو ابن الجموح شدّ عليه مع معاذ بن عفراء، فقد ذكر في حديث عبد الرحمن ابن عوف أن اللذين شدّا عليه فضرباه حتى أثبتاه هما ابنا عفراء، وكذلك في حديث عبدالله بن مسعود، فما المرجِّح لحديث مسدّد في الصحيح على حديثي عبد الرحمن بن عوف وعبدالله بن مسعود؟ وعبارة حديثيهما أوحى بالمطلوب من عبارة حديث مسدّد.

قال ابن حجر بعد أن ساق كلام ابن إسحق: فتجمع الأقوال كلها، **وإطلاق كونهما قتلاه يخالف في الظاهر حديث ابن مسعود أنه وجده وبه رمق، وهو محمول على أنهما بلغا به بعد ضربهما إياه بسيفيهما منزلة المقتول حتى لم يبق** به إلا مثل حركة المذبوح، وفي تلك الحالة لقيه ابن مسعود فضرب عنقه.

خطورة التساهل في الجمع بين الروايات بتعسف التأويل.

ليس بمثل هذا التلفيق وفرض الاحتمالات الواهية الواهنة، والتأويلات المتعسفة تحل إشكالات الروايات وتجمع الأقوال، وكان يجب في شرعة البحث الممحص الوقوف عند روايات الصحيح، فإذا وقع فيها

التعارض فلا يجوز أن يقحم عليها غيرها مما ليس في قوتها سنداً، بل يجب الترجيح بأسباب تقتضي الترجيح وردّ ما عسى أن يكون فيها عرضة للوهم.

والرواية عن ابن إسحق ـ مع كونها لا توضع في ميزان النقد مع روايات الصحيح ـ مختلفة متضاربة، ففي حديث ابن عباس من طريق ثور عن عكرمة أن الذي ضرب أبا جهل فأطنَّ قدمه هو معاذ بن عمرو ابن الجموح، وفي حديثه عن ابن عباس أيضاً فيما أخرجه ابن أبي خيثمة عن يوسف ابن بهلول عن عبدالله بن إدريس، عن ابن إسحق، عن عبدالله بن أبي بكر ابن حزم، عن عكرمة، عن ابن عباس عن معاذ بن عفراء أنه هو الذي ضرب أبا جهل فأطنَّ قدمه.

قال ابن حجر: ويمكن الجمع أن كَلاًّ منهما ضربه، وهذا الجمع يكتنفه التعسف في التأويل، لأن الضربة التي ضربها أبو جهل موصوفة بوصف يبعد جداً أن تكون وقعت منهما بوصفها، إذ لم يذكر أحد من الرواة أن أبا جهل ضُرب ضربتين كلتاهما أطنَّت قدمه.

ثم قال ابن حجر: وأصحُّ من ذلك ما في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن عوف في قصة أبي جهل: فضربه ابنا عفراء حتى برد، وهما معاذ ومعوّذ.

سياق ابن الأثير للقصة أجمع وفيه مخالفات للروايات الأخرى.

وقد ذكر عز الدين بن الأثير في (أسد الغابة) هذا الاختلاف في الرواية عن ابن إسحاق، فذكر رواية البكائي عن ابن إسحق، عن ثور ابن يزيد عن عكرمة، عن ابن عباس وعبدالله بن أبي بكر بن حزم، وذكر قصة ضرب أبي جهل ضربة أطنَّت قدمه مسندة إلى معاذ بن عمرو بن الجموح.

ثم ذكر ابن الأثير أن إدريس رواها عن ابن إسحق لمعاذ بن عفراء، وابن الأثير أخرج بسنده حديث عبد الرحمن بن عوف الذي رواه البخاري من طريق الشعبي، وفيه بعض الاختلاف، فقال: وأخبرنا عبدالله بن أحمد بإسناده عن يونس بن بكير، قال: حدثني السري بن إسماعيل، عن الشَّعْبي، عن عبد الرحمن بن عوف قال: كنا مواقفي الأعداء يوم بدر، وابنا

عفراء الأنصاريان مكتنفان وليس قربي أحد غيرهما، فقلت في نفسي: ما يوقفني ها هنا؟ فلو كان شيء لأجلي هذان الغلامان عني وتركاني، فبينما أنا أحدِّث نفسي أن أنصرف إذ التفت إليّ أحدهما، فقال: أي عم، هل تعرف أبا جهل؟ فقلت: نعم، وما تريد منه يا ابن أخي؟ فقال: أرنيه، فإني أعطيت الله عهداً إن أنا عاينته أن أضربه بسيفي حتى أقتله أو يحال بيني وبينه، فالتفت إليّ الآخر فسألني عن مثل ما سألني عنه أخوه، وقال مثل مقالته، فبينا أنا كذلك إذْ برز أبو جهل على فرس ذنوب ـ أي وافر شعر الذنب ـ يقوّم الصف، فقلت: هذا أبو جهل، فضرب أحدهما فرسه حتى إذا اجتمع له حمل عليه فضربه بسيفه فأندر فخذه، ووقع أبو جهل، وتحمّل عضروط ـ أي خادم أو صعلوك يتبع أبا جهل على ملء بطنه ـ كان مع أبي جهل على ابن عفراء فقتله، فحمل ابن عفراء الآخر على الذي قتل أخاه فقتله، وكانت هزيمة المشركين.

فهذا الحديث هو في أصل القصة ـ والتصريح بأن عاقري أبا جهل وضاربيه هما ابنا عفراء ـ عين حديث عبد الرحمن بن عوف عند البخاري كما قدمناه، والتصريح فيه لا يحتمل التأويل، وقد اختلف هذا الحديث مع حديث البخاري في أن الضربة أندرت فخذ أبي جهل، وهناك أطنَّت قدمه، وفي بعض الروايات: أطنَّت قدمه بنصف ساقه، واتفق مع حديث البخاري في أن الضارب لأبي جهل هو أحد ابني عفراء، وليس فيه ذكر قط لمعاذ ابن عمرو بن الجموح.

ترجيح رواية الصحيح من غير طريق مسدَّد شيخ البخاري.

ولهذا فنحن نرجِّح روايات الصحيح التي يوحي أسلوبها وتدرج أحداثها بترجيحها على جميع ما عداها من الروايات بما فيها رواية مسدّد، وهي وإن كانت من روايات الصحيح لكنها لا تقف مع روايتي عبد الرحمن ابن عوف وأنس بن مالك، ولا نلتفت إلى رواية ابن إسحق التي وقع فيه التعارض، وقد غمز ابن حجر رواية ابن اسحاق بقوله: فهذا الذي رواه ابن إسحق يجمع بين الأحاديث، لكنه يخالف ما في الصحيح.

وحسبنا أن تكون مخالفته لما في الصحيح سبباً لعدم الالتفات إليه

والأخذ به، وإلا فأين ابن إسحاق ورجال أسانيده من البخاري ورجاله؟

ونحن لا ندّعي العصمة لأحد من الناس حاشا أنبياء الله ورسله، مهما بلغ من المكانة والشهرة، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

ولعل قصة معاذ بن عمرو بن الجموح وقعت في مناسبة أخرى مع أشخاص آخرين، فاشتبه أمرها على بعض الرواة فأدخلها في قصة قتل أبي جهل مع ابني عفراء، وجرى فيها الأخذ والرد بين العلماء، وعلم الحقيقة في واقع الأمر مما استأثر الله بعلمه.

غرائب لابن سعد في الطبقات انفرد بها ولم نرها لغيره.

ومن أغرب ما جاء في قصة قتل أبي جهل ما ذكره محمد بن سعد في الطبقات في ترجمة معوّذ بن الحارث بن عفراء، وهو الذي ضرب أبا جهل هو وأخوه عوف بن الحارث حتى أثبتاه، وعطف عليهما أبو جهل ـ لعنه الله ـ يومئذ فقتلهما، ووقع أبو جهل صريعاً فذفّف عليه عبدالله بن مسعود ـ رحمه الله ـ ثم قال ابن سعد في ترجمة عوف بن الحارث، أخي معوّذ، ومعاذ ابني الحارث، وقتل عوف بن الحارث يوم بدر شهيداً، قتله أبو جهل بن هشام بعد أن ضربه عوف وأخوه معوّذ ابنا الحارث فأثبتاه، وذكر أبو عمر بن عبد البر في ترجمة عوف بن عفراء وهو ـ كما قال أبو عمر ـ عوف بن الحارث أن أبا جهل قتل عوف بن الحارث وأخاه معوّذ بن الحارث ابني عفراء بعد أن ضرباه فأثبتاه، فوقع صريعاً، ثم عطف عليهما فقتلهما، ولم يذكر ذلك أبو عمر في ترجمة عوف بن الحارث، بل اكتفى فيها بقوله: وقتل عوف وأخوه معوّذ يوم بدر شهيدين.

ووجه الغرابة أن ينسب قتل معوّذ وأخيه عوف ابني عفراء إلى أبي جهل بعد أن ضرباه فأثبتاه، والإثبات في لغة العرب: الحبس عن الحركة، قال صاحب لسان العرب: وفي حديث أبي قتادة: فطعنته فأثبته، أي حبسته وجعلته ثابتاً في مكانه لا يفارقه، وأثبت فلان فهو مثبت إذا اشتدت به علته، وأثبتته جراحه فلم يتحرك.

فكيف إذاً يعطف عليهما أبو جهل بعد أن ضرباه فأثبتاه فيقتلهما معاً

دون أن يتمكنا من القضاء عليه أو يحيدا عنه؟ هذا بعيد جداً، وأبو جهل لم يعرف في قومه بشجاعة وقوة بدنية تجعله بهذه المثابة وهو مثبت من الجراح، والله تعالى يعلم من خلقه ما لا يعلم العالِمون.

عبدالله بن مسعود هو الذي قضى على حياة الكفور الفاجر أبي جهل بن هشام.

والروايات كلُّها تكاد تجمع على أن نهاية هذا الطاغية الخبيث أبي الجهل ابن هشام المخزومي كانت على يد من كان يستضعفه ويضطهده بمكة، ويؤذيه - فلا يستطيع دفعاً لفجوره سوى التدرع بالصبر والاعتصام بالله رجاء أن يديله منه، ويأخذه بفجوره وطغيانه - عبدالله بن مسعود أحد سادات أصحاب النبي ﷺ وعلمائهم السابقين إلى الإسلام رضي الله عنه بعد مكالمة بينهما ليست بالقصيرة المقصّرة عن بلوغ مداها، تقصيراً يؤذن بالحشرجة المغرغرة لهذا الجبان الفاجر أبي جهل، ولا هي بالطويلة المسهبة التي توحي بإسهابها ببقاء الحياة بقاء تخشى معه الوثبة الفاجرة من قبل هذا الطاغية الحقود.

وعبدالله بن مسعود عاش في الإسلام بروحه وقلبه وعقله، وعلمه وفضله، وقربه من رسول الله ﷺ قرباً جعل كثيراً من الناس يعدّه من آل البيت لكثرة ما كان يخدم رسول الله ﷺ، وكان رضي الله عنه أحمش الساقين، ضئيل البنية البدنية، وكان أبوجهل يؤذيه ويضبث به، فاستجاب الله له وأدال له منه، وأجلسه على صدره، وردّ له كيله وضبث به، واحتز رأسه بنفس سيفه الذي غلبه عليه، ونفله له النبي ﷺ.

وقد أبان أبو جهل في مكالمته لابن مسعود عن عتو كفره، وفجور طغيانه ودخيلة لؤمه، وخبيث نحيزته، وكشف عن مطويات حقده على رسول الله ﷺ، وعلى مجتمعه المسلم، وعلى رسالته رسالة النور والهدى التي جاءهم بها محمد ﷺ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعدّهم بشرائعها وآدابها ونظمها الاجتماعية الممثلة في منهجها التربوي لقيادة الإنسانية إلى آفاق التقدم الحضاري القائم على دعائم الإيمان بالله إلهاً واحداً، وخلع جلابيب الشرك والوثنية، وتحرير العقل الإنساني من أغلال التعبد لأحجار هبل واللّات والعزّى، وإقامة موازين العدل بين عامة الناس وخاصتهم،

ونشر راية حرية العيش الكريم لكل فرد في المجتمع الإنساني في ظل المساواة الأخوية في الحقوق والواجبات، والقضاء على استعباد الإنسان لأخيه الإنسان من أجل لقمة العيش؛ ليعيش الناس أينما وجدوا من أرض الله أخوة سواسية في ظل ما يقدّمه كل فرد أو مجتمع من عمل صالح وخيرٍ يرتفع بالفرد والجماعة إلى ذروة الفضائل الإنسانية والتراحم الأخوي، فلا سائد ولا مسود، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل النافع المفيد للحياة، والمجتمع الإنساني كله.

فالتعبيرات التي جاءت في بعض روايات قصة قتل هذا الخبيث أبي جهل الذي قاد قومه إلى حتوفهم مقرّنين بأصفاد الذل والهوان والهزيمة النكراء التي أتت على أشرافهم قتلاً، وأسراً، وتشريداً دفعهم بالصغار والخزي، ووصمهم بالعار والخذلان ـ لم تكن كلها من قِبل الحقيقة المجردة عن التوسع في منطق الأداء البياني الذي يوحي بوقوع النهاية التي لا مكان معها لأي لون من ألوان ذماء الحياة، وإنما كانت صورة متدرجة إلى المصير المحتوم، لأن مكالمة ابن مسعود رضي الله عنه مع هذا الطاغية الكفور تختلف فيها الروايات إيجازاً وإطناباً، وهي في كلتي حالتيها محتاجة إلى حياة مدركة لما تقول وما يقال لها في أية مكالمة أو محاورة.

فإذا جاء في حديث عبد الرحمن بن عوف رواية الصحيحين قوله: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، فإنه لا يراد بالقتل في هذا التعبير إزهاق الروح الذي لم يبقَ معه للحياة أثر، وإنما يراد به أنهما بضربهما إيّاه بسيفيهما بلَغَا به منزلة المقتول التي قامت به أسباب الموت، وفي تلك الحالة لقيه ابن مسعود رضي الله عنه فكالمه وحاوره مقرِّعاً له على ما كان منه من فجور وطغيان واستكبار في الأرض، فردّ على ابن مسعود بما في قلبه من حقد وعتوّ، وهو يمضي إلى نهايته، فضرب ابن مسعود عنقه، واحتز رأسه بسيف نفسه.

عبدالله بن مسعود أدرك أبا جهل في حشرجة المذبوح.

ويؤيد ذلك ما ذكره الزرقاني في شرح المواهب فقال: وعند ابن عقبة وأبي الأسود، عن عروة أن ابن مسعود رضي الله عنه بعد هذه المكالمة وجده

لا يتحرك منه عضو، فأتاه من ورائه فتناول قائم سيفه، فاستله منه ورفع بيضته عن قفاه فوقع رأسه بين يديه.

وكذلك ما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من ينظر مافعل أبو جهل؟» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى (برك) وفي رواية (برد) ومعنى برد مات، قال صاحب لسان العرب: وضربه حتى (برد) أي مات، ومعناه في الاشتقاق أن الحياة انقطعت عنه، وذهبت منه حرارتها، فهو من البرد ضد الحر، فأخذ ابن مسعود بلحيته فقال له: أنت (أبا جهل) ومعنى هذا: تبكيته وتقريعه بهذا الاستفهام الإنكاري، وهمزته محذوفة مع المبتدأ، والتقدير: أهو أنت؟ وقوله: أبا جهل بالنصب منادى محذوف حرف النداء، والمعنى: أهو أنت المستكبر الفاجر الطاغية؟ يا أبا جهل، فقال لابن مسعود، وقد فهم تبكيته له: فهل فوق رجل قتله قومه؟.

وعند ابن إسحق والحاكم قال ابن مسعود: فوجدته بآخر رمق، فوضعت رجلي على عنقه، فقلت: أخزاك الله، يا عدو الله، فقال: وبم أخزاني؟ هل أعمد من رجل قتلتموه؟ أي هل أشرف من رجل قتلتموه، أخبرني لمن الدّبْرة اليوم؟ أي النصر والظفر، وفي رواية: لمن الدائرة؟ لنا أو علينا.

وفي حديث الأعمش عن أبي إسحق، عن أبي عبيدة، ، عن عبدالله ابن مسعود قال: انتهيت إلى أبي جهل وهو صريع، وعليه بيضته، ومعه سيف جيد، ومعي سيف رديء فجعلت أنقف رأسه بسيفي، وأذكر نقفاً كان ينقف رأسي بمكة حتى ضعفت يده، فأخذت سيفه، فرفع رأسه فقال: على من كانت الدائرة؟ لنا أو علينا فقلت: لله ورسوله.

وعند الإمام أحمد من حديث وكيع، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحق، عن أبي عبيدة، قال: قال عبدالله بن مسعود: انتهيت إلى أبي جهل يوم بدر، وقد ضُربت رجله، وهو يذبّ الناس عنه بسيف له، فقلت: الحمد لله الذي أخزاك الله يا عدو الله!! فقال: هل هو إلا رجل قتله قومه؟ فجعلت

أتناوله بسيف لي غير طائل، فأصبت يده، فندر سيفه، فأخذته فضربته به حتى قتلته، ثم خرجت حتى أتيت النبي ﷺ كأنما أُقلّ من الأرض، فأخبرته فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟» فردّدها ثلاثاً، فقلت: الله الذي لا إله إلا هو، فخرج النبي ﷺ يمشي معي حتى قام عليه، فقال: «الحمد لله، قد أخزاك الله يا عدو الله، هذا كان فرعون هذه الأمة».

سرور رسول الله بقتل أبي جهل فرعون هذه الأمة.

وعند أبي داود والنسائي من رواية أبي إسحاق الفَزَاري، عن الثوري، عن أبي إسحق السبيعي عن أبي عبيدة، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ يوم بدر، فقلت: قد قتلت أبا جهل فقال: (الله لا إله إلا هو) فقلت: الله الذي لا إله إلا هو، مرتين أو ثلاثاً، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، الحمد لله الذي صَدَق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» ثم قال ﷺ: «انطلق فأرنيه» فانطلقت فأريته، فقال: «هذا فرعون هذه الأمة» وفي رواية أنه ﷺ لما أتاه ابن مسعود برأس هذا الخبيث الكفور - وكان اللعين قد قال لابن مسعود: أبلغ محمداً أني لم أزل عدواً له سائر الدهر، واليوم أشد عداوة له - قال له: «كما أني أكرم النبيين على الله، وأمتي أكرم الأمم على الله، كذلك فرعون هذه الأمة أشد وأغلظ من فراعنة سائر الأمم، إذ فرعون موسى حين أدركه الغرق قال: (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) وفرعون هذه الأمة ازداد عتواً وكفراً».

فالله تعالى لم يعجِّل لهذا الخبيث أبي جهل الموت بضربات الأبطال من أشبال الأنصار، ولكنه أبقاه مصروعاً في حالة من الإدراك والوعي بعد أن أصابته ضربات أشفَتْ به على الهلاك الأبدي ليريه بعين بصره ما بلغه من المهانة والذل والخذلان على يد من كان يستضعفه ويؤذيه، ويضطهده بمكة من رجال الرعيل الأول، السابقين إلى مظلّة الإيمان وطُهر العقيدة، والتعبد لله بشرائعه التي أنزلها رحمة للعالمين عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، فيعلو على صدره، ويدوسه بقدميه، ويقبض على لحيته تحقيراً له، ويقرِّعه تقريعاً يبلغ من نفسه مجمع غروره واستكباره في الأرض، ويستل منه سيفه إمعاناً في البطش به فيقتله به، ويحتز رأسه ليرمي به تحت نعلي رسول الله ﷺ هواناً به، ويمعن في إغاظته بإخباره أن النصر عقد بناصية جند الله وكتيبة

الإسلام، وأن شَنَار الهزيمة النكراء وعارها، وخزيها وخذلانها قد رزئت به كتائب الغرور الأجوف في حشود النفير الذي قاده هذا الكفور الخبيث ليواقف به بطولة الفدائيين من أنصار الله ورسوله حتى يفضي إلى جهنّم مع جيف القليب مغيظاً محنقاً، مكبوتاً بالكمد والكبت والغم والنكال والغصص، يقتله الحقد الذليل قبل أن تقتله سيوف الأعزّة من المجاهدين.

كانت هذه الفريدة غرة فرائد بدر فطال فيها رشاء القلم.

ونستعفي القارىء إذْ أطلنا النَفَس في هذه الفريدةمن فرائد بدر العظمى لأنها فريدة جمعت أطراف المنهج النبوي في تطبيقه على أيدي أول كتيبة من كتائب المجتمع المسلم، خرجت على غير أهبة قتالية في قلّة عدد وضعف عدّة لتلقى عير مشركي مكة قادمة من مكة وآيبة إليها، وفيها أموالهم وتجاراتهم، وكان هذا الخروج إنذاراً وتحذيراً لهؤلاء الطغاة من مردة الوثنية وشياطين الشرك البليد.

وقد بيّنا دوافع خروج النبي ﷺ لملاقاة عير قريش في ذهابها وإيابها، ولم يكن في هذه الدوافع شيء يوحي بتوقع الحرب والقتال، ولهذا لم يتأهَّب رسول الله ﷺ للقتال في خَرْجاته التي سبقت بدراً والتي كانت سبباً في وقعة بدر، وخرج ﷺ على ما كان عليه هو وأصحابه الذين شهدوا إخباره لهم بعير قريش ومرورها على مدينتهم، ولم يستأنِ بالذين كانت مراكبهم في علوِّ المدينة، واستأذنوه ليحضروها ويخرجوا معه، فضلاً عن كونه ﷺ لم يستوعب من سمعه يخبر بالعير، وكانت وسائل خروجه متوافرة.

وسمع المشركون بمكة بمخرج رسول الله ﷺ متعرضاً لعيرهم، وأرسل إليهم أبو سفيان أمير العير يستنفرهم لحماية أموالهم، فخرجوا على الصعب والذلول موعبين متأهبين للقتال والحرب، يقودهم لعينهم خبيث الفاسقين أبو جهل بن هشام، متنفجاً بالغرور والحقد، مليئاً بالحنق والغيظ وعتو الكفر حتى بلغوا بدراً، وهم ألف مقاتل، يتقدمهم أشرافهم وطواغيتهم، معهم أسلحتهم ومؤنهم، وعتادهم من الركائب والأفراس، مستصحبين معهم الجواري والمعازف وزقاق الخمر، وسائر أدوات الفجور.

والتقى الجمعان على ما وصفنا من الوقائع والأحداث، ودارت رحى

الحرب بين قوتين غير متكافئتين في شيء من العدد والعدة، بل كانا متفاوتين أكبر تفاوت، أطمع لعينهم في أخذ مقاتلة المسلمين أخذاً بالأيدي، وقال لمن معه من طواغيت الشرك وعبيد الوثنية: لا يهولنكم قتل عتبة، وشيبة، والوليد، فإنهم قد عجَّلوا، فواللَّات والعزّى لا نرجع حتى نفرِّق محمداً وأصحابه في الجبال، فلا ألفينَّ رجلاً منكم قتل رجلاً، ولكن خذوهم أخذاً حتى نعرفهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم، ورغبتهم عن اللّات والعزّى، وإن هم إلا أَكَلَة جزور.

موقف أولياء الرحمن وفجور أولياء الشيطان.

هكذا كان موقف الغرور الأحمق، والطيش المأفون، والبطر المغيظ، وهكذا كانت نظرة فجور الكفر، وعتو الفجور إلى المجتمع المسلم الناشىء في تركيبه الجديد مع قلة عدده وضعف عدته المادية التي يتعزز بها عبيدها من أهل الغرور والفجور.

أما موقف المجتمع المسلم فكان موقفاً يستشعر الإيمان بكل ما يملك هذا المجتمع من قوة روحية، ويستشعر وثيق الثقة بقوة الله وقهره وجبروته ومحكم تدبيره وبالغ حكمته.

كان موقفاً فدائياً، أحب فيه جنود الله الموت استشهاداً في سبيل الله، فوهب الله لهم الحياة وأنزل عليهم نصره وتأييده.

وكان موقفاً طرح فيه النبي ﷺ نفسه المشرّفة على أعتاب الضراعة والتذلل لله تعالى، يناشد ربه الإبقاء على مجتمع التوحيد الخالص ليعبده وينشر لواء وحدانيته في آفاق الأرض، ويقوِّض معالم الشرك ويقضي على الوثنيات في جميع صورها وأشكالها، ويقيم منائر العدل والإخاء بين أبناء الإنسانية أينما وجدوا من أرض الله وأرجاء الكون.

وكان موقفاً استجاب الله عز شأنه فيه لنبيِّه محمدٍ ﷺ مناشدته واستغاثته فأمدّه بنصره وأغاثه بمدد من عنده ثبّت به قلوب أصحابه، وبعث فيهم حمية الإيمان وقوة العزائم المجاهدة لإعلاء كلمة الله، وأنزل على أعداء الحق والخير من طواغيت الكفر رِجْزاً من السماء، ملأ قلوبهم بالرعب والهلع، فكانوا أمام جند الحق أشباحاًخاوية، يفرون منهزمين إلى غير مفر،

وتنزّلت آيات الله تحمل في طياتها روح الفداء وملاقاة الموت في مظانّ الشهادة فرحاً بمنازل الشهداء عند الله.

وحقت لعنة الله على أعداء الله فقتّلوا تقتيلاً، وأخذوا بالأيدي أسراً، وشُرّدوا في الأرض هرباً مفزّعين أمام عزائم الإيمان التي ادّرع بها جند المجتمع المسلم، وصدق الله وعده، وأعزّ جنده، ونصر عبده، وهزم الفجار، وأنجز لرسوله محمد ﷺ عهده بالنصر المؤزّر، وحقق له رغائبه، وأعلى كلمته، وأقرَّ عينه، وأثلج صدره، وأعزّه وأعز القلّة الصابرة المؤمنة على الكثرة الكافرة الفاجرة.

مفاخرة موقف أولياء الرحمن.

ولو لم يكن في هذا الموقف من آيات الله إلا أن تعلو أقدام عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه في ضآلة جسمه صدر أبي جهل في عتوِّه واستكباره وهو كبش الكتيبة الكافرة، وقائد حشود الطغيان والفجور الذي زعم له منافقوه أنه لا يخُلص إليه ـ لَكَفى في سجل مفاخر غزوة بدر أن يكون أعظم شرف لها بين معارك الحروب والقتال.

ولو لم يكن في هذا الموقف العظيم إلا حمية الغَيْرة الإيمانية التي تردّى جلبابها ابنا عفراء معوِّذ ومُعاذ، وقد سمعا أن أبا جهل يقع في النبي ﷺ ويسبُّه، فيعاهد كل واحد منهما الله سراً من وراء أخيه لئن رأى أبا جهل فلن يفارق سوادُه سوادَه حتى يقتله أو يموت دونه.

ويبرز أبو جهل في غروره وفجوره في مجال المعركة ويلمحه عبد الرحمن ابن عوف، فيقول لهما: هذا صاحبكما الذي كنتما تسألان عنه، فينقضّا عليه كالصقرين، ويضربه أحدهما ضربة عظيمة أطنَّ بها قدمه بنصف ساقه فصرعه، وتركاه لقدره العجيب، لعبدالله بن مسعود ليقضي عليه، فقضى عليه بعد أن جلّله بعار الهزيمة التي حقت على حشوده الخاوية، واحتز رأسه ورمى به تحت نعلي رسول الله ﷺ، وتمر صورة فجور هذا اللعين وبطشه بضعفاء المؤمنين في مكة، وحشده أعجاز النخل الخاوية من أشباح الهزيمة لحرب المجتمع المسلم وإرادة استئصاله أمام رسول الله ﷺ، فيخرُّ لله ساجداً شاكراً لأنعمه، وتنادي الدنيا في آفاق الأرض وهي تتلو قول الله تعالى تعبيراً

قلّة لها هدف في الحياة وإصلاحها هي التي ينصرها الله على الكثرة الباغية التي تستهدف الفساد.

عن مشيئته المطلقة: ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾.

لو لم يكن في هذا الموقف إلا هذا لأغنَى عن كل مكرمة من مكارم بدر العظمى في سجلّات الفداء، ولكن الله جعل من غزوة بدر أعظم نموذج لتربية المجتمع المسلم تربية سلوكية عملية في مجال الجهاد، فمحى بها قانون الأسباب المادّية، وقضَى على فكرة تفوق الكثرة على القلّة لمجرد الكثرة والقلة، فالكثرة إذا تجرّدت في عملها عن هدف تقصده من العمل الصالح فلا قيمة لوزنها، وإذا كان لها هدف وجب في شرعة الحق أن يكون هذا الهدف أمراً اجتماعياً يرفع من شأن المجتمع، أما إذا كان الهدف هو الاعتداء على المجتمع في حياته فهو هدف فاسد لا يصلح أن يكون دعامة للتفوق على القلّة التي تتخذ لها هدفاً تقاتل من دونه لتصل إلى رفعة المجتمع الإنساني في سلوكه.

ومن هنا كانت غزوة بدر ميزاناً يفصل بين القلّة المستهدفة والكثرة المستهترة، فالقلة المستهدفة تعتمد على عوامل تنبع من داخل النفس، وأهم هذه العوامل الإيمان بهدفها الذي تعمل للوصول إليه.

أما الكثرة المستهترة فليس لها هدف يتصل بقلبها لأنها لا تحمل في صدرها قلباً تتنزّل إليه حقائق غير موروثاتها من الفجور والظلم والطغيان والبطش بالضعفاء ليظلُّوا ضعفاء تستعبدهم بما تملك من لعاعات الدنيا، ويبقى لها شرف هذا الفجور تعيش من أجله.

فغزوة بدر لا كفاء لها في الغزوات، ولا مثيل لها في الوقائع والحروب بدءاً ونهاية، واختلاف نهايتها عن بدئها هو سر عظمتها، فهي أول وأعظم غزوة في الإسلام، أعزّ الله بها دينه وأيد بها نبيّه ﷺ، ونصر فيها جنده على قلة عددهم وضآلة عدّتهم، وأذلّ بها أعداءه، وأعداء دينه على كثرة عددهم وقوة عدّتهم المادية من المؤن والسلاح، وأظهر بها ما حجبه الغيب من سنن كونية خاصة لا تظهر إلا لمناسباتها، فكانت نموذجاً لهذه السنن الخاصّة التي لا تتقيد بالأسباب المادية أياً كان نوعها، وجعلها الله نموذجاً للمجتمع المسلم في مستقبل حياته حتى لا ترهبه القوى المادّية في كثرة عددها ووفور عدتها

وتنوع أسلحتها، لأن هذه القوى المادّية مهما عظمت بغير إيمان لا قيمة لها في موازين الأقدار الإلهية، فالنصر مع الإيمان، بشرط ألّا يكون إيماناً سلبياً لا حوافز له ولا دوافع تسانده، وإنما يجب أن يكون إيجابياً وعملياً تُهيء له الدوافع التي تسنده من القوى المادية التي أمر الله بإعدادها، وهذا الإيمان هو الركيزة التي تفقدها الكثرة، وبه ترجح كفة القلة المؤمنة، على الكثرة الخاوية الجوفاء، والله تعالى ينزِّل نصره على من يشاء من عباده وهو العزيز الحكيم.

الفريدة الرابعة
بلال مؤذن الإسلام يقضي على حياة ثاني طواغيت الكفر أمية بن خلف

القصص القرآني يمثل نماذج من الأشخاص والأحداث غير مقيدة بزمان أو مكان أو جيل.

﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكّن لهم في الأرض ونري فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون﴾.

قصص القرآن الكريم نماذج لأشخاص وأحداث لا تتقيد بزمان ولا يحصرها مكان، فهي حقائق واقعية تمثل صور أشخاصها باعتبار معالمهم الوصفية العامة التي تحدد خصائصهم الإنسانية متعدّدة المثل في مجاري التطبيق، وطرائق السلوك في الحياة.

وتمثل أحداثاً واقعية متشابهة المعالم في تاريخ الإنسانية منذ أن تنفَّست على الأرض، فهي وقائع حقيقية تتحدّث عن مشاهد شهدتها الحياة في مراحل مرور التاريخ بأطوار الحياة مهما تباعد بها الزمن وتغير المكان، فهي هنا مثلها هناك، وقد تتغاير الأسماء والظواهر والأسباب، وأسماء الأشخاص وأسماء الأمكنة وتنوّع الأسباب، لكن الخصائص العامة المحددة لمواصفات الأشخاص والأماكن تبقى كماهي منطبقة على جميع نظائرها في إطار التاريخ.

فبلال بن رباح مؤذن الإسلام رضي الله عنه كان أحد سادات طلائع الإيمان السابقين الأولين إلى ساحة الإسلام، وكان مملوكاً لامرأة من نساء بني

جُمَح، رنّ في أذنه صوت الدعوة إلى الله ينادي به محمد بن عبدالله الصادق الأمين ﷺ: ﴿يا أيها الناس اعبـدوا ربكم الذي خلقكم والـذين من قبلكم﴾ وأُذُن بلال لا قطة صائدة، لم تكد تسمع هذا النداء الكريم حتى أرسلت به إلى قلب بلال وعقله وروحه، وتحسّس مخرج الصوت ومنبعه، فعرفه، فدلف إليه وأسلم لله تعالى وجهه وشهـد شهادة الحق، ولازم النبي ﷺ ملازمة لم تمنعه من القيام بحق من كان يستعبده من الطغاة الظالمين. وعُرف إيمانه، وشُهر إسلامه، فكان يُعذَّب عذاباً لم يعذّبه أحد من العالمين، كان يصب عليه البلاء صباً، وهو مطمئن القلب، مشرق الروح بإيمانه، يستعذب العذاب في سبيل الحفاظ بهذا الإيمان، ويستحلي أمرّ المر في سبيل الشح بدينه وعقيدته، يأخذه الفاسق أبو جهل فيبطحه على وجهه في الشمس، ويضع الرحى عليه حتى تصهره الشمس ويقول له: اكفر بربِّ محمد، فيقول بلال: أحد، أحد.

إيمان بلال وصبره تحت وطأة العذاب بلغا به ذروة الشرف والسيادة.

وكان الكفور الفاجر أمية بن خلف يعذبه ويتابع عليه العذاب في صور وأشكال تذوب من فظاعتها وشدة هـولها الجـلاميد، وتتفتت من شراستها رواسي الجبال، وهو صابر محتسب نفسه عند الله فداء لدينه وعقيدته.

وقد مرّ عليه النبي ﷺ وهو تحت وطأة العذاب، فقال ﷺ لأبي بكر: «لو كان عندنا شـيء لاشترينا بلالاً» فلقي أبو بكر رضي الله عنه العباس ابن عبد المطلب فقال له: اشترِ لي بلالاً، فانطلق العباس فقال لسيدة بلال: هل لك أن تبيعيني عبدك هذا قبل أن يفوتك خيره؟ فاشتراه منها، وبعثه إلى أبي بكر رضي الله عنه فأعتقه. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمّار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمِّه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديد وأصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ماأرادوا إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على

الصديق يسرع إلى تحقيق رغبة النبي ﷺ في إنقاذ بلال من العذاب وتحريره من الرق.

قومه فأعطَوه الولدان والحبل في عنقه، فجعلوا يطوفون به في شِعاب مكة وهو يقول: أحد، أحد.

بلال أعظم نماذج رسوخ الإيمان وإشراق الروح.

فبلال رضي الله عنه كان نموذجاً للمؤمن الذي رسخ الإيمان في قرارة نفسه، وامتلأ به قلبه وعقله، واستحوذ على إحساساته ومشاعره، فلا يبالي ما يصنع به جبروت الفجور والطغيان، وكان تأوهه من شدة وطأة العذاب عليه (أحد، أحد) لا يستعفي من يعذّبه ولا يسترحمه.

وظل بلال رضي الله عنه ملازماً للنبي ﷺ بمكة حتى آذن الله بكشف الغمّة، وفتح أمام المعذَّبين في الأرض باب الهجرة إلى إخوانهم الأنصار، وهاجر بلال فيمن هاجر من السابقين الأولين، يخدم النبي ﷺ ليله ونهاره، ويسمع منه ويتبعه في مسيره حرساً له يفديه بنفسه أن يناله أحد بسوء.

وجاءت غزوة بدر التي أعز الله بها الإسلام وجنده وأذلّ بنصرها الشرك وأهله، وتعبأ لها المشركون بالرجال والسلاح والمؤن والعدد والعدة، والتقى معهم المسلمون في جولات انتهت بخذلان المشركين خذلاناً قضى على شوكتهم وقصف قناتهم، فأخذهم المسلمون قتلاً لأشرافهم، وأسراً لطواغيتهم، وتشريداً لغوغائهم، وانجلت المعركة بالنصر المؤزر الذي عقده الله بناصية القلّة المؤمنة التي تألفت كتيبة المجتمع المسلم الأولى منها.

بلال يرى أمية ابن خلف يقوده عبد الرحمن بن عوف فيتذكر فجوره بمكة فيصرخ ياأنصار الله

ويلمح بلال رضي الله عنه طاغية الفجور، ورأس الكفر أمية ابن خَلَف، يقوده عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فتتواثب إلى رأس بلال، وتتراءى لعينيه صور العذاب الذي كان يصبُّه عليه هذا الفاجر الكفور، وعلى إخوانه المستضعفين من طلائع السابقين إلى الإسلام رضي الله عنهم، فلم يملك بلال نفسه أن صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر، أمية بن خَلَف، لا نجوتُ إن نجا، فيهبّ الفدائيون من بهاليل الأنصار مستجيبين إلى صرخة بلال رضي الله عنه، ويحتوشون أمية وولده علياً بسيوفهم، ويحاول عبد الرحمن بن عوف أن يدفع عنه، وقد اتخذه وولده أسيرَين، فلا يبالي أنصار الله بدفاع عبد الرحمن بن عوف، ومضَوا في سبيلهم للقضاء عليه، فهبروه بسيوفهم ليطهروا الأرض من رجسه.

وتختلف الروايات في تصوير هذا الموقف الذي هيأت له المقادير أسباب ظهوره على أفق أول وأعظم غزوة في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ الجهاد لإعلاء كلمة الحق والعدل، ونشر لواء التوحيد خفّاقاً في أرجاء الأرض، تلك هي غزوة بدر، التي طهَّر الله بها الأرض من دنس الفجور، وشراسة الوثنية المادية.

رواية البخاري في تصويره موقف بلال للقضاء على حياة الكفور الفاجر أمية ابن خلف.

وأجلّ ما ثبت في ذلك رواية البخاري عن عبد الرحمن بن عوف، إذ يقول: كاتبت أمية بن خَلَف كتاباً ـ أي عقدت معه عقداً ـ أن يحفظني في صاغيتي بمكة، وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت (الرحمن) ـ أي في اسمه المسلم قال أمية: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته (عبد عمرو)، فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس، أي أن أمية لعنه الله بعد أن رأى الهزيمة النكراء تأخذ بحلاقيم قريش وتكتم أنفاسهم فرّ هرباً إلى الجبل من مصيره المحتوم لو رآه أحد من جند الله، ولعل عبد الرحمن بن عوف تذكّره وتذكّر عقده معه، فخرج يبحث عنه، ليتخذه أسيراً وفاء بعقده، وهذا أهون الشرَّين، ولكن الله تعالى كان بالمرصاد لهذا الفاجر وأضرابه من عتاولة الكفر، فوجّه إليه نظر بلال فأبصره، وتداعت إلى خاطره صور البلاء والعذاب التي كان يعذبه أمية بلالاً في مكة، فخرج بلال حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية ابن خَلَف، لا نجوتُ إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الذين سمعوه من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلَّفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه، ثم أبَوا حتى يتبعونا، وكان ـ أي أمية ـ رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: أبرك، فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه فتخلَّلوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه.

رواية ابن إسحاق تفصل ما أجملته رواية البخاري.

وقد ذكر ابن إسحاق رواية عن عبد الرحمن بن عوف تتلاقى في كثير مما جاء في رواية البخاري، ولكن رواية ابن إسحق فيها زيادات مفيدة آثرنا معها ذكرها لتكون مع رواية البخاري صورة وافية للموقف الذي قُضي فيه على هذا الطاغية الرعديد، الذي أظهر من الجبن والهلع ما كشف عن طبيعته وهو يرى بلالاً رضي الله عنه هو الذي قضى عليه وعلى ابنه، بعد

أن كان في مكة يتفنَّن في تعذيبه بما يصب عليه من أفانين العذاب صباً ليكفر بدينه وعقيدته، ويترك عبادة ربه الواحد الأحد، ويعبد اللاّت والعزّى.

قال ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عبّاد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه، وحدثنيه أيضاً عبدالله بن أبي بكر وغيرهما عن عبد الرحمن بن عوف قال: كان أمية بن خَلَف لي صديقاً بمكة، وكان اسمي (عبد عمرو) فتسميت حين أسلمت (عبد الرحمن) فكان يلقاني ونحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو، أرغبت عن اسم سمّاكه أبوك؟ فأقول: نعم، قال أمية: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف، وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه، فقلت: يا أبا علي اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، قلت: نعم، فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله، فأجيبه، فأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي، وهو آخذ بيده، ومعي أدرع لي استلبتها، فأنا أحملها، فلما رآني قال: يا عبد عمرو فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، فقال: هل لك فيّ، فأنا خير لك من هذه الأدرع التي معك؟ قلت: نعم، ها الله فطرحت الأدرع من يدي وأخذت بيده، ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟ يريد هذا الفاجر الرعديد بكلمته هذه أن يقول بلسان الدناءة المادية التي لا تعرف إلا ملء البطن أن عنده من ذوات الألبان الحلائب ما يفدي به نفسه وابنه لو رغب أصحاب محمد ﷺ في ذلك، ولكنه لم يجد عندهم حاجة إلى التطلُّع إلى البطانة والتكرش، ولكنهم يستهدفون من وراء جهادهم إعلاء كلمة الله ونصرة الحق وإقامة منائر العدل بين الناس.

ثم قال ابن إسحق: قال عبد الرحمن بن عوف: قال أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه آخذاً بأيديهما: يا عبد الإله، من الرجل منكم المُعْلَمُ بريشة نعامة في صدره؟ فقلت: حمزة بن عبد المطلب، قال: هذا الذي فعل بنا الأفاعيل.

قال عبد الرحمن بن عوف: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي، وكان

أمية هو الذي يعذب بلالاً بمكة على الإسلام، فلما رآه بلال قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا فقلت: أي بلال، أسيريّ، قال: لا نجوتُ إن نجا، ثم صرخ بأعلى صوته، يا أنصار الله، رأس الكفر أمية ابن خلف، لا نجوت إن نجا، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل هذه المسكة، فأنا أذب عنه، فأخلف رجل السيف فضرب به رجل ابنه فوقع، فصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط، فقلت: انجُ بنفسك، ولا نجاء، فوالله ما أغني عنك شيئاً، فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما، وأصاب أحدهم رجل عبد الرحمن ابن عوف بسيفه، وكان عبد الرحمن يري الناس ذلك الأثر في قدمه.

وكان عبد الرحمن بن عوف يقول: يرحم الله بلالاً، فجعني بأدراعي وبأسيريّ، وتقول روايات أصحاب المغازي والسّير أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه هنّأ بلالاً على قتله رأس الكفر أمية بن خلف بقوله:

هنيئاً زادَك الرحمن فضلاً　　　فقد أدركت ثأرك يا بلالُ

ولم يعرف من طريق صحيح أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يقول الشعر، ولعل سروره بما نال بلالٌ من قتل من كان يعذبه، فانتقم الله له منه بتمكينه من قتله بيده ألقى على بعض من يقول الشعر هذا البيت، فنسب إلى الصديق، وهذا في أشعار سيرة ابن إسحاق كثير، نبه على بعضه مهذّب سيرته عبد الملك بن هشام رحمه الله تعالى.

هذه الفريدة تمثل لوناً من تطبيق منهج الرسالة.

هذه فريدة من فرائد (بدر) تمثل لوناً من الدروس التربوية التي وعاها أصحاب النبي ﷺ عنه وتلقّوها منه، وهو ﷺ يسوسهم بمنهج الرسالة الخاتمة الخالدة، فكانوا بهذا المنهج كما وصفهم الله تعالى في قوله جل شأنه: ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم ﴾.

هذا المنهج الذي ملأ قلوبهم بالإيمان والإيقان، وهو الذي كان دعامة نصرهم على أعدائهم، وهم أكثر منهم عدداً وأشد قوة، وأوفر عدة، ولكنهم كانوا أمام جند المجتمع المسلم أشباحاً خاوية، لأنهم يقاتلون لغير هدف،

فكانوا حشودا لا تحمل بين جنباتها شيئاً من الخير للمجتمع الإنساني، وإنما هي الأنانية والحرص على دناءات الدنيا، فهزمهم الله على أيدي القلّة المؤمنة المستهدفة نصرة الحق وإقامة معالم العدل والمحبة والإخاء بين الناس، هزيمة أتت على أشرافهم قتلاً، وأسراً وتشريداً، وشفى الله بها صدور المستضعفين منهم، فأولاهم قتلَ أولئك الفجّار من رؤوس الكفر بأيديهم، وقتل عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه أبا جهل ـ لعنه الله وبوأه جهنم ـ وقتل بلال رضي الله عنه أمية بن خلف، وجلّله بالخزي والنكال، وحقق الله تعالى وعده للمجتمع المسلم في قوله تعالى: ﴿ قاتلوهم يعذِّبهم الله بأيديكم ويخزهم، وينصركم عليه، ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ﴾.

غزوة بدر نموذج خالد لتطبيق منهج الرسالة.

وغزوة بدر كانت وما تزال أول وأعظم نموذج وُضع فيه المنهج الإلهي الذي جاءت به الرسالة الخاتمة الخالدة موضع التطبيق العملي الذي لا يختلف باختلاف الزمان والمكان والأجيال والأفكار، والذي لا تتحكم فيه القوة المادّية وحدها مهما كانت وأينما كانت.

وبتطبيق هذا المنهج الإلهي كانت غزوة بدر المثل المضروب لإعلاء شأن الكلمة الطيبة، كلمة الله الحق المبين وإسفال الكلمة الخبيثة، كلمة الشرك والوثنية، دون أن يكون للقوة المادية التي يملكها المجتمع المشرك الوثني منفذ لإنقاذ مجتمعها من البوار.

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكّرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. يثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضلُّ الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء ﴾.

الفريدة الخامسة
تجاذب الإيمان والعاطفة البشرية
يتمثلٌ في نموذج الإيمان
موقف أبي حذيفة بن عتبة وهو يشهد نهاية أبيه
﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ﴾

أزمات نفسية لتمحيص الإيمان.

كان موقف أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة في بدر محفوفاً بشدائد الأزمات النفسية العاتية التي يمتحن الله بها خواصّ عباده المؤمنين من طلائع السابقين الأولين، ليمحص بها إيمانهم ويستخلصه من شوائب موروثات الجاهلية التي كانت متمكنة من قلوب وعقول المجتمع العربي، ولا سيما مجتمع مكة الوثني الجاهلي، المغلّف بظلمات الشرك والطغيان، والعتو المستكبر، والفجور العنيد.

ومن ثَمّ كان لهؤلاء السابقين إلى ساحة الإيمان بالرسالة الخاتمة الخالدة منزلة فاقت كل منازل المؤمنين من المتقدِّمين والمتأخرين، في سموها وعلو مكانتها في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ الحياة، لما كان يحتف بها من العقبات الكأداء، والمعوِّقات البئيسات التي لا يتخطّى حواجزها إلا من صفَت نفسه صفاء لا تكدِّره نوازل المحن، ولا تقف في سبيله كوارث البلاء.

مكانة أبي حذيفة في قومه تأبى أن يكون وراء إيمانه رغائب دنيوية.

وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة واحد من أبناء ذروة الشرف والمكانة في قريش، دلف إلى الإسلام في مشرق فجره، متعززاً بمكانته من هذا الشرف الجاهلي، لم تدفعه إليه رغبة من رغائب الدنيا، التي لم تكن القلة القليلة الحافة برسول الله ﷺ تملك منها شيئاً، يجذب إليها من يريدها.

بل إن هذه القلة القليلة من طلائع السابقين كانت تعيش في حرمان مدقع، وبلاء مُضْنٍ، تُطارد مِنْ داخل بيوتها، وتضطهد في خارجها، وتؤذىٰ أينما كانت من أرض مكة، إذا أصبحت فلا تدري كيف تمسي، نهارها كليلها، وشبعها كجوعها، ليس لها معتصم إلا الصبر، تتجرع مرارته ولا

تكاد تسيغه، تتوقع البلاء في كل لحظة يأتيها من كل مكان، وتترقب العذاب يُصبُّ عليها من كل جانب، فلا الموت يأتيها، ولا الحياة تصفو لها، وهي في هذا الترقب لا فوق لها ولا تحت، فمن يدلف إلى صفِّها ليكون منها فعليه أن يعدّ نفسه للإيمان المحفوف بكل محنة من محن الدنيا وبلاياها.

كذلك كان أبو حذيفة في إيمانه، أسلم رضي الله عنه قبل أن يدخل النبي ﷺ دار الأرقم مستسراً بدعوته، متخفياً بمن معه ممن اتبع هداه، ليقيهم بعض ما يمكن توقّيه من عاتيات طواغيت الشرك وعبيد الوثنية الفاجرة الذين كان في طليعتهم عتبة بن ربيعة والد أبي حذيفة يحف به إخوة أبي حذيفة وعمومته وشراذم عشيرته من بني عبد شمس.

مكانة عتبة في الجاهلية الوثنية.

وكان عتبة بن ربيعة أحد حملة لواء المعارضة لدعوة النبي ﷺ، ولكنه كان أحد عقلاء الجاهلية ومساند الشرك، ودعائم الوثنية، لم تكن له سفاهة أبي جهل ولؤم فجوره، ولم يكن له انحطاط عقبة بن أبي مُعَيط ووضاعة نفسه، ودناءة طبعه، بل كان يتنبل في قومه، ويتعاقل في معارضته لدعوة الحق والهدى والنور، وكان عتبة يظهر من مواقف السلم والمسالمة ما جعله سفير قريش الناطق بكلمة ملئها في محاورة النبي ﷺ؛ليثنيه عن دعوته إلى الله بالترغيب في مفاخر قريش الجاهلية التي هي فيها متقلّبة بين تنفسات الشياطين.

ولكن رسول الله ﷺ سمع منه وأسمعه، وأباءه إلى ملأ قريش بوجه غير وجهه الذي ذهب به إليه من عندهم، فهو قد ذهب إلى النبي ﷺ بوجه المفتون بغروره المتنبل باستكباره، المتنفِّج بتعاقله، وعرض على رسول الله ﷺ ما في جعبته من تلمّظات البطون المتكرِّشة، والعقول المنفوشة، والمدارك الخاوية إلا من تجشّآت المكر الأبله الذي تعيش قريش في حمأته، وهي تترنح متهاوية متهالكة بعنجهيتها وطغيان ملئها انتظاراً ليومها الموعود.

وكان رد النبي ﷺ على غرور عتبة أن قرأ عليه أسطراً من نور الحق الذي أنزله الله عليه ليخرجهم ويخرج الحياة كلها معهم من ظلمات الجهل الجاهلي إلى نور الحياة الفاضلة العليمة المهذّبة.

مكانة أبي حذيفة الإيمانية في الإسلام.

ومرت المرحلة المكية على الدعوة إلى الله وتوحيده، وخلع الشركاء والأنداد بشدائدها وأزماتها وقسوتها وبلاياها واضطهاداتها وفنون تعذيباتها التي يصبُّها طغاة ملأ قريش على المؤمنين، وفي هذا الجو الخانق ظلّ أبو حذيفة بن عتبة راسخ الإيمان، قوي العزيمة، مطهَّر العقيدة، نقي السريرة، وكان من ذوي الهجرتين: الهجرة إلى الحبشة، وفيها ولد له ولده محمد بن أبي حذيفة، ولما عاد إلى مكة مع العائدين من مهاجري الحبشة أقام مع النبي ﷺ ملازماً له على شظف العيش وقسوة الحياة حتى هاجر إلى المدينة المنورة فيمن هاجر إليها، وشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلَّها، وكانت بدر أول وأعظم مشاهده وكان فيها جندياً من جنود الله، أهل الفضل وذوي السابقة الذين كتبت لهم فيها العناية الإلهية سجلاً من النور، تخطَّوا به حواجز الأسباب، ومزّقوا به حجب مواريث الجاهلية ورضوا بالإسلام ديناً، وبالصبر على لأواء المحن معتصماً، حتى أدال الله لهم من طواغيت الكفر، وطغاة الشرك، وعبيد الوثنية، فنصرهم في أول معركة بين الحق وأهله، والباطل وحزبه، قتل فيها أشراف الملأ وصناديدهم، وأسر فيها من نجا من القتل منهم، وكان عتبة بن ربيعة والد أبي حذيفة من أول قتلى المشركين، وقتل معه أخوه شيبة وولده الوليد في المبارزة التي جندلهم فيها أبطال جند الله: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث الهاشميون.

أبو حذيفة بين الإيمان والعاطفة.

ورأى أبو حذيفة رضي الله عنه أباه عتبة يسحب إلى القليب مع من ألقي في هاويته من قتلى المشركين، فتجاذبه إيمانه برسوخه وقوة يقينه، وعاطفة البنوة بحنانها وذكرياتها، فوقر الإيمان في قلبه لا يحول ولا يتحوّل، ومشت العاطفة بحنانها ومشاعرها إلى ذكرياته تثيرها قوية جامحة، وتمثل له أباه في فضله وشرفه بين قومه حتى امتلأت نفسه بهذه الذكريات ممتزجة بما كان يرجوه لأبيه من الهداية إلى الإسلام، ولكنه رأى أباه تغلب عليه العصبية الجاهلية الحمقاء، فتباعد بينه وبين الإسلام وهدايته، فيقتل كافراً، ثم هوذا يسحب إلى القليب في صورة لم يرَ لها أبو حذيفة إطاراً يضعها فيه إلا مظهر حزنه واكتئابه الذي كسا وجهه لوناً معبِّراً عن مشاعره التي اعتلجت في مداخل نفسه، ويراه رسول الله ﷺ حزيناً مكتئباً، متغيِّر اللون والسمة،

فيشفق عليه، ويقول له ليرده إلى شفافية الإيمان وإشراق نوره «يا أبا حذيفة؟؟ لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟» فيجيب أبو حذيفة رضي الله عنه وهو يمضغ مرارة حزنه ليلقيها مع أبيه في القليب بنظرة مودعة يائسة آسفة: لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً، وحلماً، وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام، فلما رأيت ماأصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيراً.

ويذكر عز الدين بن الأثير أن أبا حذيفة دعي إلى البراز فمنعه النبي ﷺ، فهجَتْه أخته هند بنت عتبة ببيتين من الشعر لم تصدق فيهما الوصف، وكذّبها ابن الأثير فيها قالت، وقد هداها الله تعالى للإسلام فأسلمت وكانت من المبايعات رحمها الله.

الإيمان في منهج الإسلام لا يميت المشاعر البشرية ولكنه يعليها.

هذه فريدة من فرائد بدر تمثل قوة التجاذب بين الإيمان في ذروة اليقين والعاطفة البشرية في قمة الوفاء البنوي، وقد ارتفع فيها الإيمان إلى مجالاته من السمو والرسوخ، فكان في يقينه ظلّة أظلّت هذا المؤمن النقي فحمته من هزّات المشاعر العاطفية، ومضى مع إيمانه إلى منازل الشهداء، لأن الإيمان في منهج رسالة الخلود لايميت المشاعر البشرية ولكنه يهذبها، فيحولها من عصبية جاهلية إلى وفاء لا ينكره المنهج في تطبيقه العملي، فإيمان أبي حذيفة رضي الله عنه إيمان لا تهزه زلازل الأحداث، فهو إذْ يرى أباه يقتل في أشراف قريش كافراً، ويُلقى معهم في قليب بدر يأخذه أسف العاطفة البشرية وفاء لهذا الأب، ويظل أبو حذيفة مزمّلاً بإيمانه الراسخ رسوخ الأطواد الشامخات، فلا يزيد على أن يعروه الاكتئاب على ما فات أباه من خير كان يرجوه له بالهداية إلى الإسلام.

هذا موقف من المواقف الآزمة التي يعتلي الإيمان صهوتها لتكون سطراً من أسطر منهج الرسالة في التطبيق الذي لا يلوي عنق الطبيعة البشرية في عاطفتها وحنانها اللذين عبر عنهما اكتئاب أبي حذيفة، وتغيّر لون وجهه حينما رأى أباه يسحب إلى القليب.

والواقع الذي عبّرت عنه الرواية أن اكتئاب أبي حذيفة إنما كان أثراً من آثار إيمانه، تمثّل في تطبيق منهج الرسالة في صورة معبِّرة عن حب أبي حذيفة رضي الله عنه لعقيدته ودينه، ورغبته في أن تسري رسالة الهدى التي آمن بها إلى القلوب لتنيرها بإشراقها، وأحق القلوب وأحبها أن تتبوأه رسالة الإيمان والهدى هو قلب والد كان له من فضائل الإنسانية قسط جعل ابنه المؤمن الصادق يرجو له أن يكون متبوأ لها، ولكن سوابق الأقدار لا تخضع لرجاء الراجين، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

موقف آخر يشتد فيه جموح العاطفة عند أبي حذيفة فيتداركه بالندم المطهر.

ولأبي حذيفة بن عتبة موقف آخر في أحداث بدر يختلف في ظاهره عن هذا الموقف، بما كان فيه للعاطفة من جموح تداركه الإيمان بالندم الصادق الذي جعل كفّارة هذا الجموح العاطفي شهادة في سبيل الله، لا يكفِّرها غير ذلك. أخرج ابن إسحق عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لأصحابه: - «إني عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنما خرج مستكرهاً» فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألجمنه السيف، فبلغ قولُ أبي حذيفة رسولَ الله ﷺ، فقال لعمر: «يا أبا حفص» قال عمر: والله إنه لأول يوم كنّاني فيه بأبي حفص «أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟» فقال عمر: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلتها يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفِّرها عني الشهادة، فاستشهد يوم اليمامة رضي الله عنه.

هذا هو الموقف كما تصوره رواية ابن إسحق، وهو في إطاره الأسلوبي من المواقف الذي تراءت فيه الطبيعة البشرية بكل ما فيها من تراث غريزي، يسوقها بسياط العاطفة حتى تبلغ مداها في التنفيس عن كوامنها النفسية دون أن يستطيع الإيمان مهما بلغت درجته في الرسوخ اليقيني كبح

التغلب على العاطفة في مطالع ثورانها شديد عسير.

جماحها، لأن التغلب على نوازع العاطفة البشرية في الأزمات المفاجئة أمر يعسر على النفس تحقيقه لأول ما تتحرك دوافع الإثارة النفسية لهذه العاطفة، فهو في حاجة شديدة إلى قدر ضخم من الصبر والمصابرة، ومجاهدة النفس لتستقيم رسالة الإسلام في وجوب أن تكون قوة الإيمان قاهرة لجميع النوازع البشرية، متحكمة في تحركاتها، كالذي كان من أبي حذيفة رضي الله عنه في موقفه الأول، وهو يرى مصير أبيه في نهايته، مسحوباً إلى القليب كافراً مع نظرائه من أشراف ملأ قريش، فإنه لم يزد علي أنه لم يستطيع أن يكظم إحساسه ومشاعره التي بدت في حزنه واكتئابه وتغير لونه، وقد فرّج النبي ﷺ ذلك عنه، بسؤاله عن هذا الذي اعتراه في أسلوب رقيق رحيم مشفق، مقدِّر لنوازع عاطفته البشرية لينتزعه من بين براثن الحزن، ويردّه إلى شفافية الإيمان وإشراقه، ويعيده إلى ذكريات إيمانه، وما لقي في سبيله من قسوة الحياة وشدائد الغربة وشظف العيش والصبر المرير على تحمل الأذى وضروب الاضطهاد.

وعاد أبو حذيفة رضي الله عنه إلى إشراقة الإيمان هادئاً وادعاً بعد هذا الحديث الرحيم، وأجاب عن تساؤل النبي ﷺ بأن ما ظهر عليه من الحزن والاكتئاب لم يمس إيمانه ورسوخ يقينه من قريب أو بعيد، ولكنه كان حزناً مكتئباً على فوات ما كان يرجوه لأبيه في شرفه بين قومه، وفضله في عقله من الدخول في الإسلام، فلما رأى مصيره في نهايته التي لا سبيل إلى تلافيها أحزنه ذلك، فدعا له النبي ﷺ بخير، وقال له خيراً.

بَيْدَ أن أبا حذيفة رضي الله عنه لم يقف به القَدَر في محنته الإيمانية العاطفية عند هذا الحد، ولكنه يتابع تمحيصه الإيماني بتسليط العاطفة عليه في رسوخ إيمانه ليزداد إيماناً مع إيمانه، ويقيناً على يقينه، فيسمع ـ ولما يكد يفرغ من محنته في أبيه ـ أن النبي ﷺ ينهَى عن قتل أحد من بني هاشم، لأنه ﷺ قد عرف أنهم قد أخرجوا في نفير قريش كرهاً، لا حاجة لهم بقتال رسول الله ﷺ وأصحابه، ويؤكد النبي ﷺ نهيه العام لعدم قتل أحد من بني هاشم بنهيٍ خاص، يخص به عمه العباس رضي الله عنه وبعض أفراد من أشراف قريش كانوا مقاربين فيقول: «ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم

رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما خرج ـ أي في نفير قريش ـ مستكرهاً».

وهنا تثب العاطفة البشرية إلى مشاعر أبي حذيفة فتستحوذ عليها، وتسدل على مكامن الإيمان من قلبه ستاراً شفيفاً فيتمثل أباه وعمه وأخاه يقتلون في المبارزة بسيوف هاشمية، ويتمثل العبّاس عم رسول الله ﷺ يجاري أشراف ملأ قريش في إطعام النفير، وينحر لهم عشر قلائص في يومه الذي كان عليه أن يطعمهم فيه، وأن النبي ﷺ قال له ـ حين طولب أن يفدي نفسه وابني أخيه عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وحليفه عتبة بن عمرو فادّعى أنه كان قد أسلم ـ: «أما ظاهرك فكان علينا والله أعلم بإسلامك» وإسلام العباس قبل بدر يدل له حديث أبي رافع مولى رسول الله ﷺ ـ وكان غلاماً للعباس ـ كما أخرجه ابن إسحق عن ابن عباس من طريق عكرمة في قصته مع أبي لهب.

كان إخبار النبي ﷺ عن استكراه بني هاشم قائمًا على القرائن ولم يكن وحياً من الله.

ورسول الله ﷺ حين أخبر أنه قد عرف أن رجالاً من بني هاشم أخرجوا كرهاً، لا يريدون قتاله وأصحابه، لم يقل إن هذه المعرفة كان بسبيل من سبل النبوة والرسالة، ولا أنها كانت عن طريق أي ضرب من ضروب الوحي، فكان الظاهر من أسلوب الإخبار عن هذه المعرفة أنها كانت عن طريق القرائن والإمارات، أو كانت عن طريق إخبار هؤلاء الذين نهى عن قتلهم بأنهم كانوا قد أسلموا، أو أنهم كانوا على سابق عهدهم في الوقوف إلى جانب عدم المساس برسول الله ﷺ أو أحد من أصحابه، ويرشح هذا التأويل قول العباس عند تقاضيه فداء نفسه وابني أخيه وحليفه، أنه كان قد أسلم، ولم يقبل منه رسول الله ﷺ هذا الادّعاء، وقال له: «أما ظاهرك فكان علينا والله أعلم بإسلامك»، وأنه ﷺ لم يقبل شفاعة الأنصار أن يتركوا لابن أختهم العباس فداءه، وقال لهم: «لا، والله لا تزرون منه درهماً» مع كونه ﷺ تألم جداً ومُنع النوم لسماعه أنين عمه العباس، وهو في وثاقه الذي شدّه به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتوعّدِ الأنصار بقتله، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لم أَنم الليلة من أجل عمِّي، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» فقال له عمر بن الخطاب: أفآتهم؟ قال: «نعم» فأتاهم عمر، فقال

لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: والله لا نرسله، فقال عمر: فإن كان لرسول الله رضاً، قالوا فإن كان لرسول الله رضاً فخذه، فأخذه عمر، فلما صار في يده قال له: يا عباس أسلم فوالله لأن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذلك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، وقد أطمع ذلك الأنصار، فأرادوا أن يزدادوا في رضا رسول الله ﷺ فاستأذنوه في ترك فداء العباس، فأبى عليهم، لأن فداء الأسرى حق للمسلمين المجاهدين، فلو ترك فداء العباس لطمع في مثل ذلك كل من له قريب من الأسرى، فكان سدّ الباب من أَحكم السياسة، لئلا يبقى في نفوس أصحابه الذين لهم أقارب أسرى شيء بسبب مسامحة العباس، وأخذ الفداء من غيره.

مواقف العباس إلى جانب رسول الله ﷺ تجعله حرياً بعطفه وتقديره.

وأما تألم رسول الله ﷺ وشرود النوم عنه فأمر ناشيء عن الطبيعة البشرية التي لا تعارض أمراً شرعياً، والعباس رضي الله عنه كان حرّياً بمنزلته من نفس رسول الله ﷺ، لأنه كان بعد أبي طالب من ذوي المواقف النبيلة مع رسول الله ﷺ حمية قومية قبل إسلامه، وكان كثير المجالسة له، ولو لم يكن له من مواقف الحمية النبيلة إلا حضوره معه يوم العقبة الكبرى ليستوثق له من الأنصار، ويريهم أنه ﷺ في منعة من قومه لكفاه في مفاخره المعوِّضة لمواقف أبي طالب.

تمثل أبو حذيفة كل ذلك، وهو إنسان من البشر، له طبيعته البشرية التي تتأثر بالمواقف العاطفية، فلم يملك نفسه أن قال ما قال حين بلغه ما قال رسول الله ﷺ، فبلغ رسول الله ﷺ قولُه، فخشي أن يثير ذلك في نفوس بعض من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم شيئاً من وساوس الشيطان فيوقعهم في حبائل الأوهام والظنون، فقال لعمر رضي الله عنه: «أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟» تمشياً مع طبيعة الموقف في ودادة رسول الله ﷺ لعمه الحفي به، ولم يقل رسول الله ﷺ في إنكاره لما قال أبو حذيفة أيردّ أمر رسول الله، ويخالف نهيه؟ لأن أبا حذيفة رضي الله عنه لم يقل ما قال ردّاً لأمر من أوامر رسول الله ﷺ، ولا مخالفة لنهي من نواهي رسول الله ﷺ، وإنما قال أبو حذيفة ما قال حمية عاطفية في لحظة ثورة نفسية.

وما أشبه قول أبي حذيفة في موقفه هنا بقول أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها، وقد رأت سهيل بن عمرو ـ وكان من أسرى بدر ـ مشدودة يداه إلى عنقه بحبل، قالت: فلا والله ماملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت: أي أبا يزيد؟؟ أعطيتم بأيديكم، ألا متم كراماً؟ فوالله ما أنبهني إلّا قول رسول الله ﷺ من البيت: «يا سودة، أعلى الله وعلى رسوله تحرِّضين؟» قالت سودة رضي الله عنها، قلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت، فقبل النبي ﷺ اعتذارها، لأن قولها كان أثراً من آثار تغلب الطبيعة البشرية، لم يمس إيمانها رضي الله عنها بدليل قولها: ما ملكت نفسي أن قلت ما قلت.

ومع كل ما احتف بموقف أبي حذيفة رضي الله عنه مما يدخل في مجال الاعتذار عن كلمته التي قالها بعد أن بلغه نهي النبي ﷺ عن قَتْل أَحَد من بني هاشم، وخاصة عمه العباس رضي الله عنه، فإنه بعد أن هدأت عاطفته ألقى بنفسه بين أحضان الندم على كلمته التي قالها، ورأى أنها في صورتها التي صدرت عنه لا تستقيم مع درجة ميزانه الإيماني الذي امتاز به السابقون من طلائع المؤمنين، وأن هذه الكلمة لا يكفّرها عنه إلا شهادة في سبيل الله يبذل فيها نفسه فداء لعقيدته وإيمانه، وقد أناله الله تعالى كفارته التي تمنّاها وعاش حميداً ومات شهيداً رضي الله عنه وأرضاه.

في الطريق من بدر إلى المدينة

﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾

وقائع وأحداث تسترفد تطبيق منهج الرسالة في تربية المجتمع المسلم لحماية الدعوة ونشرها

كان مما سنّه رسول الله ﷺ لمجتمعه المسلم في بدر في معارك الجهاد القتالي أنه إذا ظهر على أعدائه مؤيداً بنصر الله أقام في ساحة المعركة ثلاث ليال.

كان نصر المؤمنين في بدر فتحاً لطريق تبليغ الدعوة ونشر الرسالة.

وكان أول ما صنع ذلك في غزوة بدر، أول وقائع الجهاد المظفّر وأعظمها في تاريخ الإسلام، وقد بدأت جولاتها القتالية يوم الجمعة لسبع عشرة خلَت من رمضان، واستمرت إلى آخر يوم من رمضان وأول يوم من شوال سنة اثنتين من الهجرة، وقد انتصر فيها رسول الله ﷺ وأصحابه مع قلة عددهم، وضعف عدتهم المادية القتالية نصراً وطّد دعائم الدعوة إلى الله تعالى، وفتح الطريق أمام نشر الرسالة، وأقام معالم الهداية مشرقة مما لم يعرف له التاريخ مثيلاً في مباديه ونهاياته، ومقدماته ونتائجه، وسياسته وحكمته. وهُزم فيها المشركون هزيمة منكرة، بدّدت شملهم، ومزقت حشودهم، وقضت على مصادر قوّتهم المادية القتالية، وأذلت غرورهم، وأرغمت آنافهم، بما قُتل فيها من صناديدهم وأشرافهم وقادتهم وبما أسر فيها من طواغيتهم وشياطينهم وزعمائهم، فالمقتولون من هؤلاء والمأسرون من أولئك كانوا يبلغون نصف جيش المسلمين، إذ قد قتل سبعون من الصناديد والمتشاجعين، وأسر سبعون من أمثالهم، وعادت بقاياهم من الغوغاء والأشباح النخرة مشرّدين مفزّعين، مأخوذين لا يدرون من الرعب الذي ملأ قلوبهم أين يذهبون، ولعل الحكمة في سنّه ﷺ ذلك تتمثل في:

أولاً: تصفية الموقف بالقضاء على أية حركة من المقاومة اليائسة التي

حكمة إقامة النبي ﷺ في ساحة المعركة بعد النصر ثلاث ليال.

يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارِّين هرباً إلى الجبال يعتصمون بها ولا عاصم لهم من الله وجنده الذين يجاهدون في سبيله، لإعلاء كلمته ونشر رسالته الخاتمة الخالدة.

ثانياً: ـ دفن من استشهد من جند الله مما لا تكاد تخلو منه معركة، وقد استشهد من هؤلاء الذين باعوا أنفسهم لله فداء لعقيدتهم عدد اختلف في حصره الرواة، فعند ابن إسحاق أنهم كانوا أحد عشر رجلاً، وعند موسى ابن عقبة أنهم كانوا أربعة عشر شهيداً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وهو قول جمهور أصحاب المغازي والسِّير والمحدِّثين، وكان أول شهيد في القتال مَهْجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، رماه عامر الحضرمي بسهم فقتله، وقد ذكر الزرقاني أن رسول الله ﷺ قال يوم قتل مهجع «مهجع سيد الشهداء» وروى الحاكم عن واثلة أن رسول الله ﷺ قال: ـ «خير السودان لقمان، وبلال، ومهجع».

ثالثاً: ـ جمع الغنائم وحفظها، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ حتى تؤدّى كاملة إلى مستحقيها، وقد أسندت أنفال وغنائم بدر إلى ابن الحارث عبدالله بن كعب الأنصاري النجاري، أحد بني مازن.

رابعاً: ـ إعطاء الجيش الظافر فرصة يستروح فيها، بعد الجهد النفسي والبدني المضني الذي بذله أفراده في ميدان المعركة، ويضمد فيها جراح مجروحيه، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النصر المؤزر الذي لم يكن داني القطوف، سهل المنال، ويتذاكر أفراده وجماعاته ما كان من أحداث ومفاجآت في الموقعة مما كان له أثر فعّال في استجلاب النصر، وما كان من فلان في شجاعته وفدائيته وجرأته على اقتحام المضائق وتفريج الأزمات، وما تكشفت عنه المعركة من دروس عملية في الكر والفر والتدبير المحكم الذي أخذ به العدو، وما في ذلك من عبر، واستذكار أوامر القيادة العليا وموقفها في رسم الخطط، ومشاركتها الفعلية في تنفيذها، ليكون من كل ذلك ضياء يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلة، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصبور المظفر بالنصر المبين.

خامساً: ـ مواراة جيف قتلى الأعداء الذين انفرجت المعركـة عن قتلهم، والتعرف عليهم وعلى مكانتهم في حشودهم وعلى من بقي منهم مصروعاً بجراحه لم يدركه الموت، للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه اتقاء شره في المستقبل، كالذي كان في أمر الفاسق أبي جهل فرعون هذه الأمة، والذي كان في شأن رأس الكفر أمية بن خَلَف وأضرابهما، وقد أمر سول الله ﷺ بإلقاء هؤلاء الأخابث في ركيّ من قُلُب بدر خبيث مخبث، ثم وقف على شفة الركيّ وقال: «يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذّبتموني وصدّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فجزاكم الله عني من عصابة شراً. خونتموني أميناً، وكذبتموني صادقاً، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً».

تقريع رسول الله ﷺ لأهل القليب.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ وقف على شفة الركيّ، وجعل ينادي أصحاب القليب بأسمائهم وأسماء آبائهم «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربناحقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً»؟ فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

رأي عائشة رضي الله عنها في مخاطبة النبي ﷺ أهل القليب وإجابة العلماء عن إشكالها.

وقد استفاض بين أهل العلم قديماً من السلف والخلف أن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أنكرت أن النبي ﷺ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» وقالت إنه ﷺ قال: «إنهم ليعلمون ما أقول».

ولعل مما يحسم هذا الخلاف الذي طال فيه الأخذ والرد ما نقله القسطلاني في المواهب عن أبي بكر الإسماعيلي إذ قال: قال الإسماعيلي: كان عند عائشة رضي الله عنها من الفهم والذكاء وكثرة الرواية والغوص على غوامض العلم ما لا مزيد عليه، لكن لا سبيل إلى رد رواية الثقة إلا بنصٍّ مثله يدل على نسخه أو تخصيصه أو استحالته، فكيف يصار إلى إنكارها وهذه الأمور الثلاثة منتفية ـ أي فلا نسخ، ولا تخصيص، ولا استحالة ـ والجمع

بين الذي أنكرته وأثبته غيرها ممكن، وذلك أن قوله تعالى: ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ أي الذي احتجّت به عائشة رضي الله عنها في عدم سماعهم لما قال لهم رسول الله ﷺ، وإنكارها أنه قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» ـ هو من قبيل الاستنباط الاجتهادي، لأن عائشة رضي الله عنها لم تشهد الواقعة، ولم يثبت أن النبي ﷺ قال لها إنهم ليعلمون ولم يقل: «إنهم يسمعون» ـ قال الإسماعيلي: ـ إن قوله تعالى: ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ لا ينافي قوله ﷺ: «إنهم الآن يسمعون» لأن الإسماع هو إبلاغ الصوت من السمع في أذن السامع، فالله تعالى هو الذي أسمعهم بأن أبلغهم صوت النبي ﷺ بذلك، وقول أبي بكر الإسماعيلي؛ فالله تعالى هـو الذي أسمعهم لا يخلو عن ضعف، لأن قضية إسماع الله داخلة تحت عموم إن الله تعالى هو الفعّال الخلاق ـ ثم قال الإسماعيلي: وأما جوابها بأنه إنما قال: «إنهم ليعلمون» فإن كانت بنته على فهمها الآية فلا تنافي، وإن كانت سمعت ذلك من النبي ﷺ بعد ذلك أو من غيره عنه فلا تنافي في رواية يسمعون، إذ العلم لا يمنع السماع.

ويذهب السهيلي إلى أن المقام مقام إعجاز وخرق للعـادة، لقول الصحابة رضي الله عنهم حين سمعوا مقالة النبي ﷺ لأصحاب القليب أتخاطب قوماً قد جيّفوا؟ فأجابهم ﷺ بما أجابهم وعائشة لم تحضر، وغيرها ممّن حضر أحفظ للفظه ﷺ إذ قال لهم: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» ثم قال السهيلي: وإذا جاز أن يكونوا في هذه الحالة عالمين ـ كما هو قول عائشة ـ جاز أن يكونوا سامعين كما هو ثابت في رواية عمر وابنه عبدالله وأبي طلحة وغيرهم، إذ لا فرق، والعلم لا يمنع السماع.

وعائشة رضي الله عنها لها مثل هذا النحو في الاجتهاد وفهم آيات القرآن وتأويل الأحاديث التي تبدو لأول وهلة كالمعارضة لتأويل القرآن.

قال ابن كثير في البداية: وهذا مما كانت عائشة تتأوله من الأحاديث وتعتقد أنه معارض لبعض الآيات، وهذا المقام مما كانت تعارض فيه قوله تعالى: ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ وليس هو بمعارض له، والصواب

النقل عن عائشة رضي الله عنها يحتاج إلى إثبات في إسناده لها لصغر سنها.

قول الجمهور من الصحابة ومن بعدهم للأحاديث الدّالة نصاً على خلاف ما ذهبت إليه رضي الله عنها وأرضاها. على أننا نقول إن سن عائشة رضي الله عنها يوم بدر تجعل هذا النقاش غريباً يحتاج في ثباته إلى أدلة أقوى من مجرد حكاية هذا القول عنها.

وفي مواهب القسطلاني: ومن الغريب أن في المغازي لابن إسحق رواية يونس بن بكير بإسناد جيد، عن عائشة رضي الله عنها حديثاً مثل حديث أبي طلحة وفيه عنها: (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم) وأخرجه الإمام أحمد بإسناد حسن عنها، فإن كان هذا الحديث محفوظاً عن عائشة فكأنها رجعت عن الإنكار لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة الذين روَوا القصة وهم فصحاء عارفون بمواقع الكلام، لكونها لم تشهد القصة وهؤلاء شهدوها.

وهذه المخاطبة لأصحاب القليب إنما كانت على سبيل التقريع والتوبيخ والإغاظة لمن يبلغهم الحديث من الكفار، وفيها إدخال السرور على قلوب مجاهدي الصحابة الذين كانوا يتهيبون لقاء هؤلاء الطغاة الذين صاروا جيفاً منتنة انتهى مصيرهم إلى النار هم فيها خالدون، وفيها تثبيت لقلوب المؤمنين وتربية لهم على أن النصر لا يرتبط بكثرة العدد وقوة العدة المادية وإنما هو بيد الله تعالى يؤيد به من يشاء من عباده إذا اعتصموا بقوة الإيمان والإخلاص وصدق التوكل على الله تعالى مسبب الأسباب، واتخذوا للمواقف الجهادية عدتها بقدر ما يستطيعون من أسباب.

بعث البشرى بالنصر إلى المدينة

نهض رسول الله ﷺ بعد تصفية أحداث الموقعة في مواقعها من ساحة بدر، مشرق الوجه، منوّر الجبين، متذللاً لله تعالى، شكوراً له على نعمائه عليه وعلى أصحابه، تحف به الملائكة، وتخفق فوقه بنود النصر، وألوية الفوز، وأعلام الحفاوة الربانية، ذَكوراً لاستجابة الله له في استغاثته الضارعة، وهو في أرفع مقامات العبودية، ينشد ربه أن ينجز له عهده،

ويحقق له وعده بالنصر على أولياء الشيطان من طواغيت ملأ الشرك والوثنية المادية في أحطِّ صورها، الذين زحفوا بحشودهم وقواهم القتالية متعززين بكثرتها عدداً وعدّة، يقودهم الغرور الأحمق، ويسوقهم طيش الفجور والعناد الحقود، ليقضوا على دعوة الحق والهدى والخير والإصلاح ويستأصلوا مجتمعها المسلم الذي أشجاهم وأغصهم، واعترض أنفاسهم، ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد، إذ جعل من جنود الحق على قلتهم عدداً، وضعفهم عدّة وعتاداً قوة قاهرة، لم تكد تلتقي بأشباح الفجور النخرة في جولات معدودات حتى بوأتهم الهزيمة النكراء، وأخذتهم قعصاً بالسيوف، وقتلاً بالرماح والسهام، وأسراً بالأيدي، وتشريداً بالرعب، فرعبلت جمعهم، وبدّدت شملهم، وأرغمت معاطسهم، وأذلّت فجورهم، ونكّست رؤوسهم، ومزقتهم شر ممزق.

أصدق وصف لجولة الحرب التي أعقبها النصر.

وكان أصدق ما وصفوا به قول أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وقد لحق بمكة فارّاً مفزّعاً، فدخل على عمه أبي لهب في حجرة زمزم فقال له جبان بني هاشم: هلمَّ إليّ فعندك لعمري الخبر، فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال أبو لهب: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس، فقال أبو سفيان بن الحارث: والله ماهو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا.

وفي حديث قباث بن أشيم عند ابن عساكر، وكان قباث قد حضر بدراً مع المشركين فذكر هزيمتهم مع قلّة عدد المسلمين وضعف عدّتهم، فجعلت أقول في نفسي: ما رأيت مثل هذا الأمر فرّ منه إلا النساء، والله لو خرجت نساء قريش بألّتها - يعني سلاحها - ردّت محمداً وأصحابه.

وركب النبي ﷺ ناقته، وأزمع السير إلى المدينة، وسيق الأسرى بين يديه يقودهم مولاه شُقران وهم مُوثَقون بالحبال، وكان شقران هو القائم على شأن الأسرى بأمر رسول الله ﷺ، كما أقيم على الغنائم بعد جمعها عبدالله ابن كعب الأنصاري النجاري المازني، وسار جمع الإيمان والهدى تحفُّه أنوار النصر، وهم حافُّون برسول الله ﷺ في سيره إلى المدينة منصوراً مظفَّراً مؤيّداً

بقوة الله وقهره، ومرّ ﷺ على ركيّ المسحوبين إلى شفير جهنم من أشراف ملأ الكفر والوثنية، فوقف هنيهة مقرعاً لهم، غائظاً لمن يسمعه من بقايا أشباحهم النخرة، وثبت أنهم كانوا يسمعون لقوله، ولكنهم أُلجموا فلم يجيبوا.

وكان أول ما بدأ به ﷺ في تحركه من عَرْصة بدر متوجهاً إلى مدينته المنورة ـ وهي تترقب وصوله إليها في لهفة الشوق والحب، متطلعة إلى رؤيته وهو مكلل الجبين بنور النصر، وإشراق الحفاوة الربانية ـ بعثه ببشرى النصر، فبعث مولاه وحبّه زيد بن حارثة إلى المدينة، وبعث شاعر الأنصار عبدالله بن رواحة إلى أهل العالية، وأركب زيد بن حارثة ناقته القصواء أو العضباء، فسار البشيران بين يديه مجدّين في السير، حتى وصل كل منهما إلى من بعث إليهم، وتناديا بالبشرى، واجتمع عليهم الناس، وهما يهتفان بنصر الله وسلامة رسول الله ﷺ، ويذكران من قتل من صناديد قريش ومن أسر من أشرافها، والناس حول كل بشير يسمعون لما يقول مأخوذين عن أنفسهم، وهم بين مصدِّق ومكذِّب، ومتشكِّك متحيِّر، وظهر نجيث اليهود، ونجم النفاق واشرأبّ الكفر، وجعل فريق من أعداء الإسلام يستهزؤون بما يسمعون، وفريق مكظوم يخاف أن يصدق ما يسمعون.

تشكك الناس في أخبار النصر لعدم توقعه نظراً لظواهر الأسباب والمسببات

يقول أسامة بن زيد: لما قدم أبي زيد بن حارثة جئته وهو واقف بالمصلّى وقد غشيه الناس وهو يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري العاصي بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج.

قال أسامة: قلت: يا أبة أحقٌّ هذا؟ قال زيد: إي والله يا بني.

وعند البيهقي عن أسامة بن زيد من طريق حمّاد بن سلمة أن النبي ﷺ خلّف عثمان وأسامة بن زيد على رقيّة بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فجاء زيد بن حارثة على العضباء ناقة رسول الله ﷺ بالبشارة، قال أسامه فسمعت الهَيْعة، فخرجت فإذا زيد قد جاء بالبشارة فوالله ما صدّقت حتى رأينا الأسارى.

وقال الواقدي: إن رسول الله ﷺ قدّم زيد بن حارثة، وعبدالله ابن رواحة من الأثيل، فجاءا يوم الأحد حين اشتد الضحى، وفارق عبدالله ابن رواحة زيد بن حارثة من العقيق، فجعل عبدالله بن رواحة ينادي على راحلته: يا معشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ، وقتل المشركين وأسرهم، قتل ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأبو جهل بن هشام، وقتل زَمْعة ابن الأسود، وأمية بن خلف، وأسر سهيل بن عمرو، قال عاصم بن عدي، فقمت إليه فنحّوته، فقلت: أحقاً ما تقول يا ابن رواحة؟ فقال: إي والله، وغداً يقدم رسول الله ﷺ بالأسرى مقرّنين.

ثم تتبع عبدالله بن رواحة دور الأنصار بالعالية يبشرهم داراً، داراً، والصبيان ينشدون معه، يقولون: قتل أبو جهل الفاسق، حتى انتهى إلى دار بني أمية.

وقدم زيد بن حارثة على ناقة رسول الله ﷺ القصواء يبشر أهل المدينة، فلما جاء إلى المصلّى صاح على راحلته: قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأمية بن خلف، وأبو جهل، وأبو البختري وزمعة ابن الأسود، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثير، فجعل بعض الناس لا يصدِّقون زيداً، ويقولون ما جاء زيد إلاّ فَلاّ، حتى غاظ المسلمين ذلك، وخافوا، وقال رجل من المنافقين لأسامة: قتل صاحبكم ومن معه، وقال آخر لأبي لبابة: قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون عليه بعده أبداً، وقد قتل عِلْية أصحابه، وقتل محمد وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ماذا يقول من الرعب وجاء فلاًّ، فقال أبو لبابة: يكذِّب الله قولك، وقالت اليهود: ما جاء زيد إلاّ فلاّ.

إرجاف المنافقين وتكذيب اليهود

قال أسامة: فجئت حتى خلَوت بأبي، فقلت: أحقٌّ ما تقول؟ فقال: إي والله حق ما أقول يا بني، فقويت نفسي، ورجعت إلى ذلك المنافق: فقلت: أنت المرجف برسول الله ﷺ وبالمسلمين، لنقدمنّك إلى رسول الله ﷺ إذا قدم، فليضربن عنقك، فقال المنافق: إنما هو شيء سمعته من الناس، يقولونه، فجيء بالأسرى وعليهم شقران مولى رسول الله ﷺ.

تلقي الناس لرسول الله ﷺ بالروحاء لتهنئته بالنصر.

واستفزت الفرحة رؤوس الناس، فنهضوا لتلقِّي رسول الله ﷺ يهنؤنه بما فتح الله عليه فأدركوه بالروحاء، وكان أسيد بن حضير ممن لم يشهد الوقعة لظنِّه أنها خَرْجة لتلقِّي العير، فقام يعتذر ويهنىء فقال: يا رسول الله، الحمد لله الذي أظفرك، وأقرّ عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً، ولكن ظننت أنها عير، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت، فقبل رسول الله ﷺ اعتذاره، وصدّقه من قوله.

ومن طرائف ما اشتملت عليه تروّحات الروحاء في مجال التهنئة لرسول الله ﷺ على ما أظفره الله بعدوِّه، وأيّده بنصره أن سلمة بن سلامة ابن وقش، قال للمهنئين: ما الذي تهنئوننا به، والله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن المعلقة فنحرناها، فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال لابن وقش: «أي ابن أخي، أولئك الملأ» أي أشراف قريش ورؤساؤها وقادتها، وذوو كلمتها الذين تعتصم بهم قريش في مواقفها.

هذا الموقف الذي استقبل به البشيران بالفتح والنصر المؤزر موقف تملؤه الحيرة، ويحيط به الشك، ويفسح الطريق أمام تكذيب المكذِّبين، وتشكيك المشكِّكين، ويفتح أشداق الأخابث من اليهود وربائبهم المنافقين بكلمات السخرية والاستهزاء قبل أن ترى أبصارهم ما يكبتهم ويحرق أكبادهم ـ يعطي لغزوة بدر حجمها الحقيقي من العظمة التاريخية، ويضعها في موضعها من أحداث الحياة وتقلباتها.

ذلك أن هذه الغزوة لم تكن قط في مقدماتها ومباديها توحي بشيء مما تمَّ في نهاياتها من النصر الضخم الذي كان سبباً في جميع الفتوحات الإسلامية.

وكل ما كان يمكن ـ بمقتضى مألوف الحياة ـ أن يجول في خواطر المؤمنين المخلصين أن هذه الغزوة المباركة تكون طريقاً إلى الفوز بالشهادة في سبيل إعلاء كلمة الله، أما أنها تنتهي إلى هذا النصر المدوّي في آفاق الأرض فهذا ما كان أقرب إلى المحال، وقد كان رسول الله ﷺ أعلم الناس قاطبة بعواقب هذه الغزوة لو أنها جرت أحداثها في طريقها الطبيعي الذي تصوّره وقائعها في مقدماتها.

موقف المناشدة في مقام العبودية جعل من القلّة المؤمنة قوة رهيبة.

ومن ثَمَّ كان موقفه ﷺ في مقام العبودية المطلقة وهو يناشد ربه بعد أن عبأ أصحابه وعدّل صفوفهم ودخل عريشه، يناجي ربه بالبكاء والتضرع، والدعاء المبتهل، وقد نظر إلى أصحابه في قلّة عددهم وضعف عدّتهم وهم العصابة الوحيدة في الحياة كلها التي تعبد الله في الأرض، وتحمل لواء توحيده، إلى جانب كثرة عدد أعدائهم المشركين الفجّار الذين يحملون أعلام الوثنية وتخفق فوق هاماتهم رايات الشرك والطغيان والتعطّش لسفك دماء المؤمنين الموحِّدين، ومعهم من قوة العتاد المادي، وتوافر أسباب الغلبة القتالية من الرجال والسلاح مما جعل رسول الله ﷺ يبلغ في مناجاته ربه، ومناشدته أن ينجز له وعده في دحر هذه القوى الفاجرة المشركة، ونصر القلة الصابرة المؤمنة، حتى قال مزدلفاً إلى ربه، يخاطبه بروحه وقلبه وعقله: اللّهم إن تَهْلك هذه العصابة على أيدي هؤلاء الفجرة أعداء الحق، وأعداء الهداية فلن يبقى لك دين، ولن تعبد في الأرض.

وهذه الصورة لهذه المناجاة الضارعة في محراب العبودية المطلقة، والمناشدة البالغة منتهى ما يمكن تصوّره في ميزان الموقف، وما ينتظر من نتائجه العملية لو لم تتغير الأحداث ـ تدلُّ على ما كان يتوقعه رسول الله ﷺ من مفاجآت، وما كان يستطلعه في آفاق مناشدته ربه من مدد إلهي جعل من أصحابه في قوة إيمانهم، وعظيم ثقتهم بربهم قوة مادّية رهيبة، تقتحم الحواجز للقاء الموت وجهاً لوجه في فدائية لا تبالي أوقعت على الموت أم وقع عليها الموت، وبهذه الفدائية الإيمانية تم لأصحاب رسول الله ﷺ هذا النصر الذي أذهل كل من سمع به، لأن كل الأحوال المادّية المحتفة بالمعركة تجعله بعيد المنال في واقع تلك الأحوال.

فالوضع بين القوتين: قوة الغلبة المادية، والفوق العددي والعتادي والتجهز المادي الذي كان في أيدي أعداء الله من المشركين، وقوة المؤمنين التي لم تكن في مظهرها المادي مما يقام له وزن، أو يحسب له حساب في الوقوف أمام ما كان يملكه أعداؤهم الذين جاؤوا بحشودهم الزاحفة ليستأصلوا هذه العصابة المؤمنة، ويقضوا على الدعوة إلى الله، وإلى توحيده

ـ لم يكن وضعاً يسمح بالتفكير أو التخيل أن تتم مجرد المواقفة للقتال بين الفريقين في جولة ميدانية.

تفاوت القوتين عدداً وعدة ملأ الطغاة بالغرور فهزمهم الله شر هزيمة.

ولم يكن هذا الوضع المتباعد التفاوت في القوة عدداً وعدة بعيداً عن تصوّر طغاة المشركين، وقائدهم غميز الرجولية الفاسق أبي جهل لعنه الله، بل كان بين أيديهم وتحت أسماعهم وأبصارهم منذ اللحظة الأولى التي حزروا فيها القلّة المؤمنة التي جاؤوا لاستئصالها والقضاء عليها، وعرفوا أنها قلّة قليلة، ليس وراءها أكمنة، وليس لها عدة قتالية، تستأهل أن يواقفوها في ميدان المعركة، لأنهم في نظر هؤلاء الأعداء الفَجَرة ليسوا إلا أكلة جزور، كما قال فاسقهم وقائد حشودهم أبو جهل، فيجب أن يؤخذوا بالأيدي أخذاً ليعرِّفوهم سوء ما اقترفوا من مفارقتهم لقومهم، وتركهم اللّات والعزّى إلى هذا الدين الجديد الذي جعل الآلهة إلهاً واحداً، والذي ينادي بحرية التفكير وعزة حياة الإنسان وكرامته ليسوّي بلالاً مع أمية بن خَلَف سيد البطحاء، وسمية أم عمار مع العطّارة بنت مخرّبة أم أبي جهل، وفلاناً بفلان

انقلاب الميزان بين القوتين كان أساسه اختلاف الهدف لديهما.

فإذا انقلب الميزان بين القوتين، وتحوّل مجرى الحوادث، وشحنت القلة المؤمنة بقوة الإيمان الفدائي، وخارت عزائم الفجور في قوة العدد وكثرته وقوة العدّة وأسلحتها، فقاتلت القلة المؤمنة وبين عينيها هدفها الإيماني ليعبد الله وحده، ويذهب الشرك وأهله، والوثنية وحزبها إلى مهاوي الفناء، وقاتلت الكثرة الفاجرة وهدفها نشر أجنحة الطغيان على آفاق الحياة، ليعمّ الظلم فجاج الأرض، ويبقى الفجور العتيّ هو صاحب السلطان على البشرية المهيمن على مقدراتها أينما حلّت من أرض الله، ويبقى عبيد الوثنية وأحلاس الشرك العائشون لبطونهم وشهواتهم هم المتحكمون في مصائر الحياة، يستعبدون الإنسانية من أجل ما في أيديهم من لعاعات الدنيا ولقمة العيش.

الحياة لم تخلق للطغاة ولكنها خلقت لتعرف أسرارها تعبداً لله خالق الحياة.

ولكن الله عز شأنه الذي خلق الحياة وما فيها ومن فيها، وجعل زمام العزة فيها للإنسان، أياً كان هذا الإنسان الذي هو بحكم إنسانيته سيد هذه الحياة بإيمانه بربه وخالقه ـ لم يخلقها ليجعل سلطان قيادها في أيدي حثالة الإنسانية من الطغاة الفَجَرة، يمرحون فيها، ويسرحون في حمآت الشهوات

الداعرة والرغائب الطاغية، وإنما خلقها ليعرّفها بما خلق فيها من أسرار الكون وجلال وحدانيته ومحكم تدبيره، وقهر سلطانه، لتفرده وحده بالعبادة حتى تصل بهذه المعرفة إلى الكشف عن أسرار نفسها ليكون لها من هذا الكشف تحقيق تحررها من عبودية المخلوقين في شتّى صورهم وأشكالهم وحقائقهم، وهذا التحرر هو الدعامة التي ترتكز عليها الحياة في أوضاعها الاجتماعية، حتى يستحوذ الصالحون لعمارة الأرض من أبناء الإنسانية على زمام قيادتها بالقوة القاهرة، قوة الإيمان وعزة الحياة وكرامة الإنسان، وتحرير الراسعين في أغلال الظلم الاجتماعي الظلوم من عبودية لهذا الظلم الفاجر.

وهذه القوة القاهرة ليست في كثرة عدد الظالمين، ولا فيها يملكون من عدّة مادّية طاغية، وإنما هي كامنة في معرفة الإنسان لحقوقه وواجباته في هذه الحياة، والغضب لسلب هذه الحقوق، وهذا ما لا يتحقق إلا بقوة الإيمان بالله عز شأنه وصدق التوكل عليه، وحب الموت في سبيل الحياة الكريمة.

وهذا الإيمان هو العامل الفعّال الذي قلب ميزان معركة بدر، وجعل القلة المؤمنة هي سيدة الموقف فيها، ذلك الموقف الذي انتهى بأعظم نصر عرفته المعارك التي دارت وتدور بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والنور والظلام.

المتشككون في أخبار البشرى بالنصر لم يعرفوا أنَّ قوة الإيمان تقهر عظائم الأحداث.

والذين تشكّكوا في أخبار بعث التبشير بنصر المؤمنين وسلامة رسول الله ﷺ، وهزيمة حشود الكافرين، والذين أسرعوا إلى تكذيبهم من غثاء بقايا الشرك والوثنية وأخابث اليهود وربائبهم المنافقين لم يكونوا ليعرفوا هذا الإيمان الذي قلب ميزان المعركة، ولم يكونوا ليصدِّقوا بهذا الإيمان وآثاره الغامرة التي أزاغت أبصارهم، وأضلَّت بصائرهم حتى كبتهم الله كما كبت حشود الفجرة في المعركة بالقتل والأسر والهرب والتشريد، فرأوا الأسرى من أشراف نفير قريش بأبصارهم مصفَّدين بالأغلال يقودهم شقران مولى رسول الله ﷺ أذلّة، يسوقهم الرعب والفزع، ويستولي عليهم الخوف والهلع، تدور أعينهم في وجوههم كالذي يُغشى عليه من الموت، ورأوا رسول الله ﷺ على ناقته مكللاً بتاج النصر يحفه التواضع لله تعالى وهو يقول لأصحابه: «استوصوا بالأسرى خيراً».

قتل النضر بن الحارث
صبراً في الطريق من بدر إلى المدينة

كان النضر أخبث شياطين الكفر.

كان النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة العبدري أخبث شياطين الفجور في عداوته رسول الله ﷺ، وأفجر أعداء الدعوة إلى الله، وأعتى طواغيت قريش في الوقوف أمام سير رسالة الهدى والنور التي جاء بها الله تعالى لإقامة صرح التوحيد، وتقويض معالم الشرك والوثنية.

وكان النضر ـ لعنه الله ـ يجلس إلى غوغاء قريش، فيحدِّثهم بأقصوصات اسفنديار ورستم وغيرهما ممن حبكت حولهما الأساطير الخرافية ليصدهم عن سماع القرآن الحكيم، ويقول لهم: أليس هذا أحسن مما يقول محمد؟

وكانت قريش وملؤها وطواغيتها تعرف لهذا الخبيث شدة عداوته لرسول الله ﷺ، وفجور عتوّه في مقاومة دعوته إلى توحيد الله، فبعثته ومعه لصيق النسب بقريش لئيم الفجار وفاجر اللئام عقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ليسألاهم عن رسول الله ﷺ ودعوته إلى توحيد الله.

سفارته إلى أحبار اليهود ليسألهم عن علمهم بمحمد ﷺ.

أخرج ابن إسحاق عن طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهم: اسألاهم عن محمد، وصِفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وذكرا لهم بعض قوله، وقالا لهم: وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل، فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوّاف، طاف مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا بكم.

فأقبل النضر وعقبة ـ لعنهما الله ـ حتى قدما على قريش، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبراهم بها، فجاؤوا رسول الله ﷺ، فقالوا يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فأنزل الله على رسوله سورة الكهف، وفيها ذكر الفتية وشأنهم، وذكر الرجل الطواف ونبؤه كما أنزل عليهم: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

فأبلست قريش وراحت تفكر وتقدّر، وتدبّر وترسم، ولم تجد لها مخرجاً مما وضعها فيه سفيراها النضر وعقبة من مأزق ضاقت به أنفاسها سوى أن تزداد عتواً وطغياناً في تعذيب المستضعفين من طلائع الإسلام الذين عصمهم الله بعواصم الصبر الصبور، واحتمال الأذى في سبيل إيمانهم وعقيدتهم حتى أظفرهم الله تعالى في وقعة بدر بهم وشفَى صدورهم، وأعزهم عزاً لم يعرف التاريخ له مثيلاً.

وكان النضر ـ لعنه الله ـ من بين الأسرى الذين سيقوا مصفّدين بالأغلال، تعلو وجوههم كآبة الصغار والذلة.

ولما بلغ رسول الله ﷺ في مسيره من بدر إلى المدينة منصوراً مكاناً يقال له (الصفراء) أمر علي بن أبي طالب بقتل النضر بن الحارث، أخبث أعداء الله وأعداء الأنبياء والمرسلين، فقتله، وقد لاحق التعقيد والتأزم التاريخي هذا الخبيث الملعّن في سيرته وتراجمه في كتب المغازي والسير، فاختلفت فيه الروايات اختلافاً عريضاً، بعيد الجنبات أدّى ببعضهم إلى أن وضعه في مصافِّ المسلمين، بل في صفوف أعليائهم من ذوي الهجرة الحبشية، وبعضهم نزل به إلى صفوف المؤلفة، وأنه كان من ذوي المئين في عطاء حنين.

بحث وتحقيق حول النضر وتشابك اسمه مع اسم أخيه.

بيد أن التحقيق التاريخي ردّه إلى مثواه من طواغيت الكفر، ووضعه في مقره على طريق جهنم وبئس المصير.

فأبو نعيم في الدلائل، وابن منده في تراجم الصحابة، وضعاه بين

المؤلفة، وقالا: إنه شهد حنيناً مسلماً، مهزوز الإسلام، وأعطاه رسول الله ﷺ مائة من الإبل ليستألفه على الثبات على الإسلام.

وقد أضاف أبو نعيم وابن منده إلى غلطهما هذا غلطاً آخر إذ نسبا هذا الرأي إلى ابن إسحاق، قال الزرقاني في شرح المواهب: وهو غلط، فالذي قاله ابن إسحق، وأجمع عليه أهل المغازي والسّير أن النضر بن الحارث قتل كافراً بعد بدر صبراً.

وذهب ابن حجر في الدفاع عن أبي نعيم وابن منده إلى احتمال أن يكون للنضر بن الحارث المقتول بعد بدر كافراً أخ سُمّي باسمه، فهو الذي ذكره أبو نعيم وابن منده، لا هذا المقتول كافراً.

وذهب أبو عمر بن عبد البر في المغازي إلى أن المذكور في المؤلفة قلوبهم النضر ـ هكذا مكبراً ـ بن الحارث بن علقمة بن كلدة، أخو النضر ـ هكذا أيضاً مكبراً ـ بن الحارث المقتول ببدر ـ أي عقبها ـ صبراً، وهذا يرفع احتمال ابن حجر، فيجعله قولاً بغير احتمال، ما لم يكن هناك غلط مطبعي في النسخ.

بيد أن ابن عبد البر ترجم في الاستيعاب للنضير ـ هكذا مصغراً ـ أخي النضر بن الحارث المقتول صبراً في الطريق من بدر إلى المدينة، قتله علي بن أبي طالب بأمر النبي ﷺ، والناس نازلون بالصفراء.

وقال ابن عبد البر عن النضر المقتول صبراً في هذا الموضع من الاستيعاب: وكان ـ لعنه الله ـ شديد العداوة لرسول الله ﷺ.

فالذي قيل عنه أنه من المؤلفة قلوبهم، وأن النبي ﷺ أعطاه مائة من الإبل هو النضير ـ هكذا مصغّراً ـ وهو معدود في حكماء قريش وحلمائها، وهو الذي قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب أنه من المهاجرين في أحد قولين وأصحهما، وأكثرهما رواية: والقول الثاني أنه من مسلمة الفتح.

وقد اعترض عز الدين بن الأثير في (أسد الغابة) على ابن عبد البر في ترجيحه أنه من المهاجرين، فقال: وهذا القول قد نقضه على نفسه في سياق

خبره، فإنه قال: أعطاه النبي ﷺ مائة من الإبل، قال ابن الأثير: والنبي ﷺ لم يفعل ذلك إلا مع مسلمة الفتح، ومن تألفه على الإسلام.

وهذا الحصر في كلام ابن الأثير غير مسلّم على إطلاقه، وقد يكون هذا هو الغالب، ولا سيما في غنائم حنين، لأن النبي ﷺ قد يعطي، بل قد أعطى بعض ذوي الحاجة من راسخي الإيمان لحاجتهم لا لتألفهم على الإسلام.

ويبقى بعد ذلك أن ابن عبد البر ذكر في المغازي أن المذكور في المؤلفة قلوبهم هو النضر ـ هكذا مكبّراً ـ وموافقاً لاسم اللعين المقتول صبراً عقب بدر، فيكون ابن عبد البر قد اختلف على نفسه في كتابيه المغازي والاستيعاب ما لم يثبت أن في أحدهما غلطاً مطبعياً.

وإعطاء النبي ﷺ للنضير ـ مصغّراً ـ وهو المترجم في استيعاب ابن عبد البر، وأسد ابن الأثير مائة من الإبل في حنين، لا يدل على أنه من المؤلفة قلوبهم، فقد ذكر ابن الأثير، وسبقه بذلك ابن عبد البر أن النضير جاءه رجل من الديل يبشره بأن النبي ﷺ قد أمر له بمائة من الإبل، وقال الديلي للنضير: أخذني، أو أجزني منها، فقال له النضير ـ وقد توهم أنها لتألفه على الإسلام ـ ما أريد أخذها، لأني أحسب أن رسول الله ﷺ لم يعطني ذلك إلا تألّفاً على الإسلام، وما أريد أن أرتشي على الإسلام.

ثم بعد تأمل في حال نفسه وموقفه من رسول الله ﷺ في ردِّه عطيته قال النضير: والله ما طلبتها ولا سألتها وهي عطية من رسول الله ﷺ فأخذها، وأعطى الديلي منها عشرة.

وقد ثبت أن النبي ﷺ أعطى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدراً من المال فردّه عمر، فقال له رسول الله ﷺ: «ما جاءك من هذا المال وأنت غير مستشرف له ـ أو كلمة نحوها ـ فخذه».

ويتفق ابن عبد البر، وابن الأثير على أن النضير هاجر إلى المدينة، فلو كان من مسلمة الفتح المؤلفة قلوبهم فلا يقال في حقه: إنه هاجر إلى المدينة،

إذ لا هجرة بعد الفتح، اللّهم إلا أن يراد التوسع في لفظ (هاجر) بشيء من التجوّز.

وقال الزرقاني بعد أن ذكر أقوال العلماء في النضير بن الحارث وآخرون فيمن هاجر إلى الحبشة: فإن كان منهم فمحال أن يكون من المؤلفة قلوبهم لأنه ممّن رسخ الإيمان في قلبه، وقاتل دونه، لا ممّن يؤلف عليه.

وهذا غريب من الزرقاني، لأن الذين هاجروا إلى الحبشة لم يكونوا على مستوى واحد في قوة الإيمان ورسوخه، بل كان فيهم ضعيف الإيمان، مهزوز العقيدة، ومن هؤلاء من ارتد عن الإسلام في الحبشة وتنصّر فيها ومات على نصرانيته مثل عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان، قبل أن تتشرف بزواج النبي ﷺ منها، ومنهم من فتن عن دينه بعد عودتهم إثر أكذوبة الغرانيق إلى مكة.

وقد ذكر البلاذري عن الهيثم بن عدي أن النضير بن الحارث هاجر إلى الحبشة، ثم قدم مكة فارتد، ثم أسلم يوم الفتح أو بعده، فالقول بأن النضير معدود فيمن هاجر إلى الحبشة لا ينافي أنه كان من المؤلفة قلوبهم الذين أسلموا يوم الفتح أو بعده لوجود الاحتمال الذي ذكره البلاذري عن الهيثم بن عدي.

على أن ابن حجر ذكر في (الإصابة) أن إعطاء رسول الله ﷺ مائة من الإبل كان للنضر ـ هكذا مكبراً ـ لا للنضير بلفظ التصغير، وأن هذا الإعطاء كان حينما أقبل رسول الله ﷺ من الطائف ونزل الجِعِرّانة، ولم يكن في حنين التي كان يعطي فيها المؤلفة قلوبهم من أنفالها وغنائمها.

والمعوّل عليه الذي لا تردد فيه أن النضر ـ هكذا مكبّراً ـ بن الحارث ابن علقمة بن كلدة أخبث شياطين قريش قتل صبراً عقب بدر بمكان يقال له الصفراء، قتله علي بن أبي طالب بأمر رسول الله ﷺ.

وذكر ابن إسحاق وتبعه أكثر من كتب في المغازي والسِّيَرَ بعده أبياتاً مستعطفة، تتضمن مدحاً لرسول الله ﷺ واستشفاعاً في قتل النضر ابن

أبيات من الشعر مصنوعة تنسب إلى أخت النضر أو ابنته.

الحارث، منسوبة إلى أخته أو ابنته قتيلة وهي أبيات فيها نفحة شاعرية، فلما سمع أبياتها النبي ﷺ قال - فيما تقول الرواية -: «لو بلغني هذا الشعر قبل أن أقتله لمننتُ عليه».

وذكر الزرقاني أن الزبير بن بكار قال سمعت بعض أهل العلم يغمز هذه الأبيات، ويقول: إنها مصنوعة، وهذا كثير جداً في الشعر الذي أكثر منه ابن إسحق في سيرته.

يقول ابن المنير في توجيه ما عُزي إلى النبي ﷺ في شأن هذه الأبيات: وليس معنى كلامه ﷺ الندم، لأنه لا يقول ولا يفعل إلا حقاً، والحق لا يندم على فعله، ولكن معناه لو شفعت عندي بهذا القول لقبلت شفاعتها، ففيه تنبيه على حقِّ الشفاعة والضراعة، ولا سيما الاستعطاف بالشعر، فإن مكارم الأخلاق تقتضي إجازة الشاعر وتبليغه قصده.

قتل لصيق قريش
عقبة بن أبي مُعَيط

يهودي لصيق النسب في قريش يتقرب بأحط مظاهر الفجور إليهم.

كان عقبة بن أبي معيط دنيء الفجور، خبيث الكفر، لئيم السفاهة، خسيس الشخصية، مغموز النسب في قريش، يشهد مجالس الملأ من طواغيتها وهو مرذول محقّر منهم، ليس له معهم إلا أن يتعرّف مواقع الرضا منهم، فيسرع إلى التقرب إليهم بتنفيذ ما يتوهم أنه رضا لهم، يستبطن الغدر، له نحيزة يهودية لا تخفى على من يراه في حركاته هنا وهناك، ولليهود طبيعة في سجل الجبن والغدر والتدنِّي للحصول على ما يستهدفون، تميزوا بها في تاريخ البشرية، ولهم من خصائص الجبن المتشاجع ما تعطي صورته نحيزة هذا الخبيث الملتصق بقريش، وهو منها بزجر المهانة والازدراء، لا تعرفه إلا لتستخدمه في أحط مواقف الفجور، لم تعرف له الحياة الجاهلية موقفاً من مواقف الشرف الوثني قط، فهو عربيد متعهِّر، يسمع هذا الخبيث الملعّن ملأ قريش وهم في مجلسهم يقولون: من يقوم إلى هذا السَّلاَ - يشيرون إلى أقذار من الدماء والأكراش المتعفِّنة مطروحة على مقربة منهم - فيلقيه على ظهر محمد - ﷺ - وهو ساجد، فيبادر قولهم، ويسبق عبدانهم

والأدنياء من أتباعهم هذا الفاجر الملصق النسب بقريش إلى إجابتهم فيقول: أنا، ويقولون له: نعم أنت أهلها، ويذهب إلى هذه القاذورات التي تأنف أحط الحشراتُ أن تمشي إليها، ويحملها ويأتي بها، ويلقيها على ظهر النبي ـ ﷺ وهو ساجد ـ والملأ ينظرون متسافهين متضاحكين، ويبقى النبي ﷺ في سجوده حتى ذهب الصريخ إلى الزهراء سيدة نساء العالمين عليها السلام السيدة فاطمة بنت أكرم خلق الله أباً وأماً، فتأتي رضي الله عنها وأرضاها، وترفع هذه الأقذار عن ظهر أبيها، وتغسل ما لحق به ﷺ من آثار هذا التسفّل الفاجر، ثم تقبل على ملأ قريش فتسبّهم وتشتمهم، فنكسوا رؤوسهم ولم يردّوا عليها بكلمة واحدة، وقام النبي ﷺ ونظر إليهم نظرة أحاطت بهم وكأنها لعنات من السماء تصب عليهم، وتأخذ من أنفسهم مأخذ الخنجر المسموم وهو يهوي إلى صدر غفول.

استخزاء عقبة وهو يرى موقف الخزي من ملأ قريش.

ويرى الفاجر لصيق قريش عقبة بن أبي معيط ـ لعنه الله ـ هذا المنظر المتخاذل من مواقف ملأ قريش فيستخزي، ويتوارى ذليلاً حقيراً، لأنه لم يكن يتصور أن ملأ قريش الذي يتعزّز بالنسب إليهم يسمع من محمد ﷺ ما يسمع ثم يقفون هذا الموقف الذليل الذي يجلّله الخزي والعار. وتمضي الأيام بطيئة ثقيلة الخطى في كفاح مرير، ونضال صبور بين الحق والباطل، والخير والشر، ولا يجد ملأ الفجور الطغاة من قريش متنفساً إلا أن يصبّوا على طلائع السابقين إلى الإسلام جام غضبهم تعذيباً واضطهاداً، حتى فتح الله الطريق إلى الهجرة، فهاجروا إلى إخوانهم الأنصار بالمدينة، وبنَوا فيها صرحاً شامخاً للمجتمع المسلم الجديد في تركيبه الاجتماعي التكافلي بامتزاج من هاجر بمن نصر.

وجاءت غزوة بدر بأحداثها تسعَى إلى المجتمع المسلم عزيزة، تحمل له ألوية النصر، وجاءت حشود الفجّار من ملأ قريش وغوغائها إليها مدحورة مهزومة، والتقى الجمعان، وتمشي سيوف المجتمع المسلم إلى أعناق أشراف حشود الفجار فتقطّها قطاً، وكانت الجبال والوديان مأوى الفارين هرباً من القتل، فأخذوا أسرى مصفّدين في الأغلال أذلّاء، وفيهم هذا اللصيق الفجور عقبة، ويأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالرحيل إلى المدينة بعد

تصفية الموقف في بدر، ويبعث ببشرى النصر إلى من في المدينة وأعاليها، ويسوق شقران مولى رسول الله ﷺ الأسرى، وفيهم بقايا أشراف قريش، ويقوم على الغنائم وحفظها أحد البهاليل من الأنصار عبدالله بن كعب النجاري المازني، ويمضي رسول الله ﷺ في سيره حتى يبلغ (عرق الظبية) مكان على ثلاثة أميال من الروحاء مما يلي المدينة، وهناك يأمر ﷺ عاصم بن ثابت ابن أبي الأقلح الأنصاري، العقبي، البدري ـ خال عاصم بن عمر بن الخطاب لا جده، كما توهمه بعض الرواة ونبه عليه الحافظ ابن حجر فهو أخو جميلة بنت ثابت، وهي صاحبة قصة الامتناع عن مزج اللبن بالماء خوفاً من الله تعالى، وقد سمع عمر بن الخطاب محاورتها في ذلك مع أمها فزوجها لابنه عاصم، فكان من أبرك ثمراتها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما ـ بقتل أخبث من مشى على أرض مكة اليهودي (المتقريش) عقبة بن أبي مُعَيط ـ لعنه الله ـ الذي بلغ من فجوره وكفره ومهانته في تقربه للملأ من قريش أن آذى رسول الله ﷺ إذاية لم تبق له في سجل الرحمة من قلب رسول الله ﷺ شيئاً قط، وفيها مواقف ننزه البحث عن ذكرها، ولما سمع هذا الجبان الرعديد أمر رسول الله ﷺ بقتله صاح في صَغَار وذلّة مهينة متناسياً مواقفه الإجرامية: يا محمد مَنْ للصبية؟ فقال رسول الله ﷺ: «النار» وقال الزرقاني في شرح المواهب ويروى أنه قال يا معشر قريش، ما لي أقتل من بينكم صَبْراً؟ فقال له رسول الله ﷺ: «بكفرك وافترائك على الله» وأنه ﷺ قال له: «لست من قريش، هل أنت إلا يهودي من أهل صفورية؟» قال الزرقاني: وذلك أن أمية جدّ أبيه خرج إلى الشام فوقع على يهودية لها زوج من صفورية، فولدت له ذكوان المكنى أبا عمرو، وهو والد أبي معيط على فراش اليهودي فاستلحقه بحكم الجاهلية.

قتل عقبة بن أبي معيط وهو يتذلّل جبناً وخزياً.

ثم قال الزرقاني: قال الاسماعيلي: وهذا الطعن خاص بنسب عقبة من بني أمية، وفي نسب أمية نفسه مقالة أخرى، أبينا أن نذكرها، وقد ذكرها الإسماعيلي وكلام الإسماعيلي يشعر بترجيح ما قيل في نسب عقبة ابن أبي معيط، وأنه (ضرطة يهودية). وفي بداية ابن كثير عن ابن إسحاق قال: ثم خرج ـ أي النبي ﷺ ـ حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبي معيط،

نقل الزرقاني عن الإسماعيلي حكاية الطعن في نسب عقبة بن أبي معيط وروى في ذلك حديثاً.

قال ابن إسحق، فقال عقبة حين أمر رسول الله ﷺ بقتله: فمن للصبية يا محمد؟ قال: (النار).

ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ليقتله، قال: يا معشر قريش علام أقتل من بين من ههنا؟ قال: على عداوتك لله ورسوله.

ثم قال ابن كثير: وقال حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب، عن الشَّعْبي قال: لما أمر النبي ﷺ بقتل عقبة قال عقبة: أتقتلني يا محمد من بين قريش؟ قال: «نعم، أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي، وغمزها، فما رفعها حتى ظننت عيني ستندران، وجاء مرة أخرى بسَلاَ شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي».

وقد نفّذ عاصم بن ثابت أمر رسول الله ﷺ وطهّر الأرض من رجس هذا اليهودي اللصيق بنسب قريش جزاء وفاقاً على ما كان منه من فجور وإجرام.

رهبة أعداء دين الإسلام وإظهار رأس النفاق عبدالله بن أبي الإسلام خوفاً ورعباً.

ولما خرج رسول الله ﷺ من مضيق الصفراء قسّم النفل بين المسلمين على السواء، ثم أقبل ﷺ إلى المدينة فدخلها قبل الأسرى بيوم، مؤيداً منصوراً وقد خافه كل عدو له بها وحولها، وأسلم كثير من أهل المدينة، وتظاهر رأس المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول بالإسلام، يدرأ به عن نفسه، وقالت اليهود: لقد تيقنّا أنه النبي الذي نجد نعته في التوراة. ثم فرق رسول الله ﷺ الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بهم خيراً» وقد كان لهذه الكلمة النبيلة أعظم الأثر في تطبيق منهج الرسالة على الذين لا يملكون لأنفسهم تصرفاً، وظهر فيها تحقيق معنى قول الله تعالى في الثناء على المؤمنين: ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾.

وهذا لون من التوجيه الإنساني في منهج رسالة الخلود، يمثل ما قامت عليه هذه الرسالة من إعزاز الإنسان وكرامته، فالأسرى بقايا من أعداء المجتمع المسلم، أبت عليه روحه التربوية الرحيمة أن يحمّلهم عواقب ما كان منهم وهم محاربون، فيأخذهم بالشدّة وقد أصبحوا في يده لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً، وأبت عليه نخوته الإيمانية أن يحمِّلهم آثار ما كان منهم

ومن طواغيتهم في اضطهاد طلائع السابقين إلى الإسلام وإيذائهم بصنوف التعذيب وألوان البلاء، وهم إذْ ذاك لا يملكون الدفاع عن أنفسهم لأن رسالة الهدى والنور لم تكن تستهدف إعنات الحياة، وأخذها بروح الغلبة والقهر، والسيطرة والتشفِّي، فالنبي ﷺ إذْ يقول لأصحابه بعد أن وصلوا مأمنهم واستقروا أعزة في مدينتهم: «استوصوا بالأسرى خيراً» إنما يذكرهم بمنهج رسالتهم التي جاء به دستورها الأعظم.

الوصية بإكرام الأسرى جانب من المنهج الإسلامي الرحيم.

وقد كان هذا السلوك التربوي العظيم مدعاة لإيمان كثير من هؤلاء الأسرى، بل مدعاة لتلاقي مناحي التفكير بين الأسرى وآسريهم مما أتاح للدعوة إلى أن تسري إلى القلوب رحيمة، لا إكراه فيها ولا تعنيت، بل أتاح لها أن يسبقها الحديث عن هدايتها مع الذين افتدوا أنفسهم، وعادوا إلى بلدهم وأهليهم، يتحدّثون إليهم عن محمد ﷺ ومكارم أخلاقه وعن مجتمعه وسماحته، وعن دعوته وما فيها من البر والتقوى، والإصلاح والخير، وإيثار الإخاء الإيماني على الإخاء الجاهلي الذي يعتمد على علاقة الولادة والعنصرية النسبية.

صورة رفيعة من الإخاء الإيماني ترفعه فوق أخوة النسب.

ذكر ابن إسحاق: أنه كان في الأسرى أبو عزيز بن عمير أخو مصعب ابن عمير لأبيه وأمه، وهو ممن كان مثلاً مضروباً في الحديث عن التربية السلوكية للمجتمع المسلم، وهو ينفِّذ وصية رسول الله ﷺ بالأسرى فيقول: مرّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فقال له مصعب شدّ يدك به، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب حين سمع قوله لآسره: يا أخي هذه وصاتك بي؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك.

ويقول أبو عزيز بن عمير: فكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز: وأكلو التمر لوصية رسول الله ﷺ لهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلاّ نفحني بها، فأستحي فأردها، فيردها عليّ ما يمسها.

وقد كان لهذا السلوك الرحيم الذي وضع أساسه القرآن الكريم في

ثنائه على المؤمنين وذَكَّر به النبيُ ﷺ أصحابه فاتخذوه خُلقاً وكان لهم طبيعة ـ أثره العظيم في إسراع جماعة من أشراف الأسرى وأفاضلهم إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز عقيب بدر بُعيد وصول الأسرى إلى المدينة وتنفيذ وصاة رسول الله ﷺ، وأسلم معه السائب بن عبيد بعد أن فَدَى نفسه، ثم أسلم منهم جماعة يوم الفتح كان على رأسهم سهيل بن عمرو، وكان مفوّهاً فصيحاً، وأراد عمر بن الخطاب أن يصنع به ما يعوّقه عن فصاحته، فقال لرسول الله ﷺ: دعني أنزع ثنية سهيل بن عمرو فيدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فأبى رسول الله ﷺ على عمر أن يجيبه، ورأى أن هذا من باب التمثيل وتشويه خلقة الإنسان، وقال لعمر: «لا أمثِّل به فيمثِّل الله بي، وإن كنت نبياً» وهذا نموذج من منهج رسالته ﷺ وضعه ليكون نبراساً لأمته في انتصاراتها على أعدائها، وجعله من ضمن وصيته في الجهاد، إذ قال في رسالته لكتائبه: «لا تغلّوا ولا تمثلوا».

إسلام سهيل ابن عمرو ورفض النبي ﷺ أن يمثل به.

ثم أراد رسول الله ﷺ أن يذكّر عمر رضي الله عنه بفضل الله ليخفف من حميته فقال له: «إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه».

تصديق الله تعالى لنبيه ﷺ في تحقيق رجاوته نصرة سهيل. للإسلام يوم محنته.

وقد حقق الله تعالى رجاء رسول الله ﷺ، ووقف سهيل بن عمرو رضي الله عنه موقفه في الناس بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وارتدت العرب إلا قلة ثبتت على الإسلام، ونجم النفاق واشرأب غدر اليهود، واشتد الأمر، فقام سهيل في أهل مكة خطيباً ليثبتهم على الإيمان بعقيدة الإسلام، فثبتوا وكان من أشباله الذين أقاموا دعائمه.

ومما يكشف عن آثار منهج رسالة الإسلام في تربية المجتمع المسلم تربية سلوكية يتخـذ منها هذا المجتمع دستوراً يقيم على دعائمه بناء حياته الاجتماعية في مستقبل سيرته في الدعوة إلى الله تعالى وإقامة موازين العدل والإخاء الإنساني، وتوجيه الإنسانية إلى منازل الهداية في سلوكها، معتصمة بالإيمان بالله عز شأنه إلهاً واحداً، متفرداً بحق المعبودية، وتدبير الكون بحكمته، متباعدة عن مزالق الشرور والفساد، تعبداً للرغائب والشهوات التي تحكمها نزعات الغرائز الجامحة ـ تتبع الوقائع والأحداث التي تسترفدها

المواقف البطولية في جهاد المجتمع المسلم لإعلاء كلمة الله، والتي قَضَى فيها رسول الله ﷺ قضاءً منهجياً، يمثل خصائص الرسالة في وضعها الاجتماعي المتكافل الذي يجعل من المجتمع المسلم وحدة أساسها الإيمان بالله، إيماناً يتخذ من جوانب المنهج دعامة يقوم عليها بناء الحياة لنصرة الحق، وحماية العقيدة التوحيدية التي هي أساس كل إصلاحٍ يقضي على الوثنيات في شتَّى صورها وأشكالها، ويكشف عوار الشرك المدنّس للتفكير الإنساني.

نموذج لتطبيق المنهج التربوي في حياة المجتمع المسلم.

ومن ثم كان لا بد من النظر في بعض هذه الأحداث باعتبارها نموذجاً لتطبيق المنهج التربوي الذي تكمن جوانبه في ثنايا صورها وأشكالها، حتى إذا كشف الغطاء عن هذه الجوانب استحال المنهج قانوناً ينظِّم الحياة على أسس من الفضائل الإنسانية في ضوء الأصول الأصيلة للرسالة الخاتمة، إذْ أتينا على بعض الأحداث التي كانت وقائعها صورة ممهِّدة لمسيرة الدعوة إلى الله وإعلاء كلمته ـ بإزالة العقبات والعوائق، وتطهير الحياة من جراثيم الأوبئة الاجتماعية بالقضاء على مصادرها ممثلة في شخصيات طواغيت الوثنيات وطغاة الشرك من أنصاب الفجور العنيد، وأزلام الكفر العتيّ ـ كان لا بد للبحث من الوقوف مع بعض الأحداث التي كانت صورة للجانب الإيجابي من منهج الرسالة لإبراز ما كان في حناياها من إصلاح واستجابة لدواعي الهداية بعد التأبي العنيد، لتمكين الذين أضاءت أرواحهم وعقولهم أنوار الحقيقة في منهج الرسالة الذي عرفوه في سلوك حاملي أمانته من أفراد وجماعات المجتمع المسلم وقد كان من هذه الأحداث المليئة بالعبر المنهجية.

قصة أبي العاص بن الربيع
صهر رسول الله ﷺ

من معالم منهج الرسالة في قصة أبي العاص ابن الربيع.

كان أبو العاص بين أسرى بدر وهو زوج ابنة رسول الله ﷺ الكبرى السيدة زينب عليها السلام، وهو رجل من رجالات مكة المعدودين في أمنائها وعقلائها وأهل ثرائها، وذوي الخبرة في تجاراتها، وأهل المروءات في أشرافها، وهو ابن أخت أم المؤمنين السيدة خديجة، أمه هالة بنت خويلد وقد رضيته خالته خديجة زوجاً لابنتها الكبرى بنت رسول الله ﷺ فرضيه رسول الله ﷺ له صهراً، وكان يثني عليه في صهره كما ثبت في الصحيح، وكان أبو العاص رضي الله عنه ممّن أكرمه ومنّ عليه النبي ﷺ فأطلقه بغير فداء، ففي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها، كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنَى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقّة شديدة وقال لأصحابه: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها الذي لها فافعلوا» فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردّوا عليها الذي لها.

ذكريات رحيمة تأخذ من قلب النبي ﷺ مكانها.

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ على أبي العاص أن يخلّيَ سبيل زينب، فوفَى أبو العاص بماعاهد عليه رسول الله ﷺ وبعث رسول الله ﷺ في أثره زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، وقال لهما: «كونا ببطن يأْجَج حتى تمرَّ بكما زينب فتصحبانها فتأتياني بها» فخرجا بعد بدر بنحو شهر، منفّذَين لأمر رسول الله ﷺ. ولما وصل أبو العاص إلى مكة قال لزينب الحقي بأبيك، فخرجت تجهّز، قالت زينب رضي الله عنها: فلقيتني هند بنت عتبة فقالت:

من مواقف المروءة العربية بين هند بنت عتبة وزينب بنت رسول الله ﷺ.

يا ابنة محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ فقلت ما أردت ذلك، فقالت: أي ابنة عـم، لا تفعلي، إن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك أو مال تتبلغين به إلى أبيك فعندي حاجتك، فلا تضطبني مني، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال.

وحديث هند هذا يحمل صورة من مكارم العرب في مروءاتها، لأنها كانت صادقة فيما قالت ـ قالت زينب رضي الله عنها: فوالله ما أُراها قالت ذلك إلا لتفعل، ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك.

ولما أتمّت زينب جهازها قدّم لها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيراً فركبته، وأخذ قوسه وكنانته وخرج بها نهاراً يقود بها وهي في هودجٍ لها، وتحدّث بذلك رجال من قريش، فخرجوا في طلبها فأدركوها بذي طُوَىً، وكان أول من سبق إليها الخبيث الجبان الملعّن هبّار بن الأسود بن عبد المطلب الفهري فروّعها بالرمح وهي في هودجها، وكانت حاملاً فطرحت، وبرك حموها كنانة بن الربيع ونثر كنانته، ثم قال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً، فتكركر الناس عنه.

وأتى أبو سفيان بن حرب في جلّة من قريش، فقال له: أيها الرجل، كُفَّ عنا نبلك حتى نكلمك، فكفَّ، فأَقبل إليه أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تصب، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد، فتظن الناس إذْ خرجت بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذلٍّ أصابنا، وأن ذلك ضعف منا ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة.

ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدّث الناس أن قد رددناها فسُلّها سراً وألحقها بأبيها.

وقد عيّرت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان النفر الذي ردّوا زينب لما رجعوا إلى مكة تذكر لهم جبنهم ومهانتهم في الحرب، وتشاجعهم على ردِّ امرأة من سفرها إلى أبيها، فأنشدت تذمهم وتهجوهم.

أفي السلم أعياراً جفاءً وغلظة   وفي الحرب أشباه النساء العوارك

وأقامت زينب رضي الله عنها ليالٍ حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها حموها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه الأنصاري، فقدما بها ليلاً على رسول الله ﷺ.

وعيد هبار وصاحبه على ترويعهما زينب وإهدار دمهما.

وفي حديث أبي هريرة قال: بعث النبي ﷺ سريةأنا فيها فقال: «إن ظَفرتم بهبّار بن الأسود والرجل الذي سبق معه إلى زينب فحرِّقوهما بالنار» فلما كان الغد بعث إلينا فقال: «إني قد كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يحرق بالنار إلا الله عز وجل، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما».

وقد روى البيهقي في الدلائل في خروج زينب رضي الله عنها من مكة إلى المدينة رواية تخالف رواية ابن إسحاق، فذكر عن عائشة رضي الله عنها من طريق عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ بعث زيد بن حارثة وأعطاه خاتمه لتجيء معه، فتلطف زيد فأعطى الخاتم راعياً من رعاة مكة، وأعطاه الراعي زينب فعرفته، وقالت للراعي: من دفع إليك هذا؟ قال: رجل في ظاهر مكة فخرجت زينب ليلاً، فركبت وراء زيد بن حارثة حتى قدم بها المدينة، قال عروة: فكان رسول الله ﷺ يقول: «هي أفضل بناتي؛ أصيبت فيّ» فبلغ ذلك علي بن الحسين: زين العابدين، فأتى عروة، فقال: حديث بلغني أنك تحدثته؟ فقال عروة: والله ما أحب أن لي ما بين المشرق والمغرب، وأني أنتقص فاطمةحقاً هو لها، وأما بعد ذلك أن لا أحدث به أبداً.

استجارة أبي العاص بزينب وموافقة النبي ﷺ على إجارتها له.

وقد ذكر ابن إسحاق أن أبا العاص أقام بمكة كافراً بعد أن منّ عليه النبي ﷺ وأطلقه من غير فداء. واستمرت زينب عند أبيها ﷺ بالمدينةحتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص في تجارة لقريش إلى الشام، فلما قفل عائداً بما معه من أموال قريش لقيته سرية من أصحاب رسول الله ﷺ، فأخذوا ما معه وأعجزهم هرباً وجاء تحت الليل إلى زوجته زينب، فاستجار بها، فأجارته، فلما خرج رسول الله ﷺ لصلاة الصبح، وكبّر، وكبّر الناس،

صرخت زينب من صفّة النساء فقالت: أيها الناس، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله ﷺ أقبل على الناس فقال: «أيها الناس هل سمعتم الذي سمعت؟» قالوا نعم، فقال رسول الله ﷺ «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء حتى سمعت ما سمعتم، وإنه يجير على المسلمين أدناهم» ثم انصرف رسول الله ﷺ: فدخل على ابنته زينب فقال: «أي بنية، أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له».

وبعث رسول الله ﷺ إلى الناس فحثّهم على ردّ ما كانوا أخذوه من أبي العاص من أموال ومتاع، فردّوه عليه بأسره، لم يفقد منه شيئاً، فأخذه أبو العاص، ورجع به إلى مكة، فأعطى كل إنسان ما كان له، ثم قال لهم: يا معشر قريش، هل لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً، فقال أبو العاص رضي الله عنه: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلّا تخوّف أن تظنّوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أدّاها الله إليكم وفرغت منها أسلمت، ثم خرج من مكة حتى قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة، فردّ عليه رسول الله ﷺ زوجته زينب.

وفي كيفية هذا الرد اختلاف واسع الأكناف بين الفقهاء نشأ عن اختلاف الأحاديث والآثار، وقد ذكر ابن كثير منه في البداية ما سمح له المقام بذكره مع شيء من التفصيل ورد أحكام الفقهاء إلى مصادرها من الأدلة الحديثية.

عرض وتحقيق

هذا مجمل قصة أبي العاص بن الربيع وكان معدوداً في رجالات قومه، ثراء وتجارة، وأمانة، وشهامة، ومروءة، أصهر إلى النبي ﷺ قبل البعثة فتزوج ابنته الكبرى السيدة زينب رضي الله عنها وهي ابنة خالته السيدة خديجة رضي الله عنها، اختارته لها زوجاً ورضيه النبي ﷺ له صهراً، فكان من أكرم الناس وفاء في عشرته الزوجية وتقديره لهذا الإصهار الأكرم، وكان النبي ﷺ يثني عليه في صهره كما رواه الصحيح.

لم تعرف لأبي العاص حركة في مقاومة الدعوة قط.

عرف أبو العاص ما اشتهر به النبي ﷺ من مكارم الأخلاق معرفة مخالطة لم يصل إليها أحد غيره من غير أفراد أسرة رسول الله ﷺ الخاصة التي تعيش في كنفه ورعايته.

ولما بعث رسول الله ﷺ عرف أبو العاص ما كان يدعو إليه النبي ﷺ من الهدى والخير والتوحيد، وطرح الشرك والوثنية وخلع الأنداد والشركاء، ولكنه كان في شغل عن الاستجابة إلى الإيمان بما يدعو إليه رسول الله ﷺ، وآمنت زوجته السيدة زينب مع أمها وإخوتها في أول من آمن بالدعوة لم يسبقهم إلى الإيمان بها أحد قط.

ورأى أبو العاص اشتداد ساعد الدعوة وازدياد من يلبي نداءها، وشهد مع ذلك عداوة قريش لها ومقاومتها بكل ما تملك من طغيان وقوة وإيذاء للنبي ﷺ وأصحابه الذين سبقوا إلى الإيمان به وبدعوته هداية ونوراً.

بيد أن تاريخ مقاومة الدعوة لم يعرف قط موقفاً لأبي العاص شارك فيه قومه في هذه المقاومة بأي لون من ألوانها، وقد كفَّ يده ولسانه عن أصحاب رسول الله ﷺ، وشغله ماله وتجارته وحياؤه من رسول الله ﷺ عن مواقف الشراسة القرشية في مقاومة الدعوة إلى الله، واكتفت قريش من أبي العاص بأن يكون المضارب لها في تجارتها يحمل إليها في رحلاته الأرباح الطائلة، يقول ابن الأثير: (وكان أبو العاص مصاحباً لرسول الله ﷺ مصافياً). ولكن الأحداث لم تترك أبا العاص بن الربيع بعيداً عن ضغطها واحتوائها، فقد اشتد ما بين رسول الله ﷺ وأصحابه وبين قريش من العداوة، وهاجر كثير من المؤمنين إلى الحبشة، وتوالت المحن والأزمات على رسول الله ﷺ وعلى من بقي معه من أصحابه بمكة معتصمين بالصبر والرضا بما ينالهم من العذاب والبلاء في سبيل الحرص على دينهم وعقيدتهم حتى أذن الله بالفرج، وقدمت وفود الأنصار إلى مكة وبايعوا رسول الله ﷺ إذا هو وأصحابه هاجروا إليهم أن يمنعوهم ما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأولادهم.

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة ثم لحق ﷺ بهم وامتزج المهاجرون بالأنصار في مؤاخاة إيمانية جعلت من كل مهاجري أخا

لأنصاري في المواساة والمشاركة والمعاونة والترافق في شؤون الحياة، ثم في مؤاخاة اجتماعية تكافلية بين كافة المهاجرين وجميع الأنصار مؤاخاة جعلت من المجتمع المسلم قوة أرعبت قريشاً، وأشجتهم غيظاً ورهبة، وأخذت عليهم مسالك الحياة، ووقفت لهم رصداً، تصد عيراتهم وهي تحمل أموالهم غادية رائحة، إلى أن خرج ﷺ لملاقاة أعظم عيرات قريش وأكثرها أموالاً، ففاتته، وتعبأت قريش للقتال بعددها وعدّتها وجمعت قواها المادية واستوعبت كل ما تقدر عليه من عدة قتالية.

ألوية النصر تخفق على رؤوس كتائب جند الله.

والتقى الجمعان على مياه بدر، ودارت رحى الحرب في شراسة فاجرة تعبأت لها حشود الكفر والغرور الأحمق، وفي فدائية إيمانية تعبأت لها القلة المؤمنة من جند المجتمع المسلم مستهدفة إعلاء كلمة الله، التي أُرسل بها محمد ﷺ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ودارت رحى القتال، وما هي إلا جولة وأخرى حتى خفقت ألوية النصر على رؤوس المؤمنين، ورفرفت أعلام الظفر فوق هامات المجتمع المسلم، وحلّت الهزيمة المنكرة بطغاة الكفر من الوثنيين المشركين، فقتل الله تعالى صناديد الكفر بأيدي من كانوا بالأمس من المستضعفين، وألقى أشرافُهم بأيديهم في صَغَار وذلّة أسرى يقودهم مولى من موالي رسول الله ﷺ، ويسوقهم الرعب من ورائه ليسمعوا قضاء رسول الله ﷺ فيهم.

وكان أبو العاص بن الربيع صهر رسول الله ﷺ من بين الأسرى الذين لم يسمع لهم في المعركة صوت، ولم يعرف لهم رأي، ولا شوهدت لهم في قتال جولة.

قضاء الله في الأسرى يطبقه رسول الله ﷺ أفضل تطبيق.

ووصل الأسرى إلى المدينة المنورة، وقضى فيهم رسول الله ﷺ بقضائه الذي أنزل الله عليه وحياً يتلى في قوله تعالى: ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوثاق فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾ ولم يكن القتل لمن أُسِر مشروعاً إلا لمن عظم كفره وطغيانه، وعتا في فجوره عتواً حجب عنه التوبة بالإيمان، كالذي كان من النضر بن الحارث وعقبة ابن أبي معيط اللذين أمر رسول الله ﷺ بقتلهما صبراً في الطريق من بدر إلى المدينة

وفي هذا القضاء الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ وحياً يتلى في شأن الأسرى والتصرف في أمرهم جانب من أهم جوانب منهج الرسالة الخاتمة التي نزلت على محمد خاتم النبيين ﷺ، لتخرج الناس بمنهجها في الهداية من ظلمات الضلال وشرور الإفساد الاجتماعي إلى نور الحق والخير والإصلاح.

زينب تبعث في فداء أبي العاص بمال فيه قلادة زواجها به.

ذلك أنه كان ممن شملهم الأسر فلا ينفلتون إلا بفداء أو منٍّ أبو العاص بن الربيع صهر رسول الله ﷺ، وبدأت قريش تفادي أسراها، فأرسلت السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ وزوجة أبي العاص بمال تفديه به، وبعثت مع المال قلادة كانت أمها السيدة خديجة رضي الله عنها أهدتها إليها فأدخلتها بها على زوجها لتتحلّى بها، فلما رأى رسول الله ﷺ قلادة ابنته رقّ لها رقّة شديدة، إذ كانت هذه القلادة الكريمة مبعث ذكريات أبويّة عنده ﷺ، وذكريات زوجية، وذكريات أسرية، وذكريات عاطفية، قبل أن تأتيه رسالة الله بمنهجها الإصلاحي.

الذكريات تتوالى على النبي ﷺ فيأخذه الحنين إلى ابنته الكبرى.

فالنبي ﷺ أب، له من عواطف الأبوّة أرفع منازلها في سجل المكارم الإنسانية، وأشرفها في فضائل الحياة، فتذكّر ﷺ برؤيته هذه القلادة - وهي أغلى شيء في حياة ابنته وذكريات مناسبتها، وذكريات من أهدتها إليها، ولعلها لم تبعث بها مع مال الفداء إلا لتحرِّك في نفس أبيها سيد الموقف في فداء الأسرى أنبل عواطف الأبوة الرحيمة، ولتثير في نفسه ﷺ أسمَى مشاعر الحب الأبوي المشفق، ولتضع في بناء الوفاء الزوجي لبنة ربما لم يكن عندها ما يفي بقدرها، والنبي ﷺ أوفى البرية بمكارم الأخلاق.

وهو ﷺ زوج لأوفى زوجة منحه الله منها الولد وحرمه إياه من غيرها توكيداً لأشرف روابط الحياة بين البشر.

وها هي ذي ابنته الكبرى تبقى في مكة وحيدة مع زوجها مسلمة، وهو على كفره لم تفكر قط في مفارقته، لأنه كان حفياً بها، وفياً في معاشرتها، محباً لها، معتزاً بها، ويؤسَرُ زوجها في أشراف قومه، ويطلب الموقف فداءه، فترسل قلادتها فداء له.

ويرى النبي ﷺ هذه القلادة فتتنادى إليه الذكريات، وفيها ذكريات السيدة خديجة وفرحها وهي تدخل ابنتها على ابن أختها هالة بنت خويلد، وتحلِّيها بأحسن ما عندها من الحلي، وتزيِّنها بقلادة تهديها إليها في فرحة العمر، فتقدِّمها زينب في فداء زوجها طيبة بها نفسها وفاء لحياتها الزوجية مع ابن خالتها، فيعظم ذلك في نظر النبي ﷺ.

وهو ﷺ أب وكافل لأسرة قاعدتها العريضة أولاده، وقمتها زوجه وزيرة الصدق، ومأنس القلب، ومفرجة الأزمات والشدائد عنه بما أنعم عليها من عقل رشيد، ورأي سديد، وحب لم تعرف الحياة له مثيلاً في صفائه وطهره وتضحياته.

فإذا رأى ﷺ هذه القلادة الكريمة ـ بعد أن غابت عن نظره رَدَحاً من الزمن تخللته أحداث جسام ـ ذكّرته بما كان له ﷺ ـ قبل أن يحمل عبء الرسالة والدعوة إلى الله ـ في هذه الفترة مع أسرته من ودّ هامس، وحب شفيف، ومشاركة لهم في حياتهم وعيشهم الهادىء الوادع المبتسم للحياة.

وهو ﷺ في روحانيته مخلوق من نور الرحمة التي جعلها الله بؤرة لأشعة أنوار أزكى المشاعر وأسمى العواطف الإنسانية النبيلة.

وهو ﷺ في بشريته مخلوق من أطيب وأطهر ما خلقت منه حفائظ الأرواح من أجسام البشر، فهو ﷺ الطيّب المبارك المطهر، حسّاً ومعنى، روحاً وبدناً، فالرحمة الودود سجيته، والرأفة المشفقة طبيعته، والحنان الحنون نحيزته.

عواطف الحنان وإشفاق الأبوة طبيعة بشرية.

فإذا رأى ﷺ قلادة فرحة ابنته بين مال الفداء لزوجها الوفي الكريم تواثبت إلى حنايا نفسه الكريمة المكرّمة أسمى مشاعر الرحمة، وتنزلت على قلبه الرحيم وابلات غيث الرأفة في أطهر قطرات الحنان الأبوي، وتواكفت على إحساساته نسائم الإشفاق الأكرم، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطف الحنان والحنين، وتتابعت على وجدانه ذكريات حب الولد من البنات والبنين.

هذا الحب الذي صار بعد أن تنزّلت أنوار الرسالة على قلبه ﷺ قبساً من نور الرحمة الشاملة لكل من في الحياة، وكل ما في الحياة من صامت وناطق، وعاقل وغيره، وهي الرحمة التي أرسل بها ولها محمد ﷺ، فغمرته رقتها المنبعثة من وجدانه الأبوي، فتوجّه إلى أصحابه رضي الله عنهم متلطفاً يطلب إليهم في رجاء الأعز الأكرم، رجاء يدفعهم إلى العطاء، ولا يسلبهم حقهم في الفداء، لو أنهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحق وهو في أيديهم يملكون التصرف فيه، فقال لهم: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردّوا عليها الذي لها فافعلوا».

توجهه ﷺ إلى أصحابه في أن يطلقوا لزينب أسيرها ويردوا عليها الذي لها.

وهذا أسلوب من أبلغ وألطف ما يسري في حنايا النفوس الكريمة، فيطوّعها إلى الاستجابة الراغبة الراضية رضاء ينم عن الغبطة والبهجة.

فالأساس في الطلب المتلطف إطلاق الأسير الذي هو أسيرها، بهذه الإضافة التي تكاد تجعل من التلطّف استعطافاً شفيعاً، لأنها إضافة خاصة رفعت من شأن هذا الأسير وأدخلته في إطار المخصوصين بالرعاية، وأكد هذا المعنى أن هذا الإطلاق (لها) وهذه حفاوة في التعبير تزيد في إبراز الرغبة في إطلاق أسيرها، المشعرة بالاستعطاف ممن له حق الأمر النافذ، لإيحائها بأن صاحبة هذه القلادة ابنته ﷺ التي أفردت عن إخوتها وسائر أسرتها بالبقاء وحيدة بمكة، تعاني مرارة الوحدة والبعد عن حنان الأبوة الرحيمة.

كان رد القلادة أهم من رد المال عند رسول الله ﷺ.

وإذا تحقق هذا الأساس جاء الترغيب في استكمال نعمة الامتنان في إطلاق أسيرها، فقال ﷺ: «وتردّوا عليها الذي لها» والذي لها هو محور العطف والذكريات المتواليةمن الماضي البعيد القريب، هو قلادة فرحة العمر التي أهدتها إليهاأمّها في أعز مناسبة، وهذه القلادة هي التي أثارت في نفسه ﷺ الرقّة الشديدة لابنته، ولهذا لم يقل ﷺ لأصحابه: وتردّوا عليها ما بعثت به من مال لفداء زوجها لأن المال لم يبلغ في هذه المناسبة المليئة بالذكريات من المكانة ما يستدعي كل هذا التلطف والاستعطاف في طلب ردِّه عليها، ولعل المال مال زوجها أرسلته لتفديه به، ولكن القلادة (لها) وضعاً وطبعاً وملكاً وذكرى، ولن تبلغ فجيعتها في المال شيئاً من فجيعتها في قلادتها، هدية أمها لها في بناء زوجها بها.

ولهذا جاءت إجابة الصحابة رضي الله عنهم عن تساؤل رسول الله ﷺ سريعة محققة لكل ما يبتغي منها، فقالوا: نعم، يا رسول الله فأطلقوه، وردُّوا عليها مالها وقلادتها.

وفاء أبي العاص بعهده ووعده في تخلية سبيل زينب حتى لحقت بأبيها ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ على أبي العاص حين سرحه إلى مكةأن يخلي سبيل زينب لتلحق به، وتكون مع أخواتها في رعاية أبوية تعوّضها عن مرارة الفرقة والبعد فيما خلا من الزمان.

وكان أبو العاص على سجيته وفياً كريماً، فإنه لم يكد يصل إلى مكة ويرى زوجته شاكراً لها موقف النبل منه في أسره وفدائه بأعز وأغلى ما تملك حتى أسرع إلى تنفيذ ما عاهد عليه رسول الله ﷺ من إخلاء سبيل زينب لتلحق به ﷺ، وتعيش مع إخوتها في كنفه مغمورة بحبه الأبوي، فقال لها: الحقي بأبيك، فلم تملك زينب نفسها من الفرحة. فخرجت تجهّز لسفرها، وتعدّ لهذا السفر الطويل عدته مما يرفق بها ويسهل عليها وعثاء الطريق، وقد أثنى عليه النبي ﷺ لوفائه، فقال: «حدثني فصدقني، ووعدني فوفَى لي» قالت زينب رضي الله عنها: فلقيتني هند بنت عتبة، فقالت لي: يا ابنة محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ فقلت: ما أردت ذلك، فقالت هند ـ وقد فهمت ما في رد زينب من التخفي ـ: أي ابنة عم، لا تفعلي ـ أي لا تتخوفي مني، وتكتمي عليّ أمرك لما بين قومنا من مواقف مضطغنة ـ إن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك، أو مال تتبلّغين به إلى أبيك فعندي حاجتك، فلا تضطبني مني ـ أي لا تجعلي أمرك في ضبنك مستوراً عني ـ فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال.

موقف مكارمة بين هند بنت عتبة والسيدة زينب رضي الله عنها.

هذا الموقف الذي وقفته هند بنت عتبة من زينب بنت محمد ﷺ من أعجب العجب، ولكنه في ذرى الشرف لا يستغرب من أعلياء بيوتات العرب، وهو سَنَن مسلوك في مكارم أخلاقهم مستعذب.

فهند صاحبة هذا الموقف النبيل المتسامي بنبله فوق مألوف الطباع البشرية هي التي قتل أبوها وأخوها وعمها بالأمس القريب في بدر، ولا تزال دماؤهم على أرض بدر لم تجف، قتلهم ثلاثة هاشميون من عمومة زينب

رضي الله عنها، وكأنما سيوفهم تحش أحشاء هند حشّاً، وهي تعرض على زينب أشرف مكارم المروءة فقد أحرقوا كبدها، وأشعلوا نار الحقد المغيظ الحانق في قلبها، وعاشت أيامها تترقب فرصة الثأر الذي يشفي غليلها، ويستطفىء أوار غلِّها حتى صنعت ما صنعت بحمزة في غزوة أحد، ثم أسلمت وكانت متكلمة المبايعات من المسلمات، ولكن هند بنت عتبة بنت أبيها وسلالة أمية الذين لا ينامون على وِتْر، ولأبيها عتبة مكارم جاهلية مشهّرة، وكان لا يخلط الأحداث والوقائع، فيدفن المكرمات حتى لا يرى إلا الضغائن والدماء.

صدق هند مع نفسها وصدق زينب مع طبيعتها ومرباها.

ومن ثم كانت هند صادقة مع نفسها في ضغنها، وصادقة مع نفسها في مكرمتها. قالت زينب رضي الله عنها: فوالله ما أُراها قالت ذلك إلا لتفعل، ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك.

وهذه شهادة لا تردّ، لأنها شهادة عليم شهيد، وللصدق معالم تحف به فلا تستطيع حوالك التصنّع أن تخفيه وراء أستار المكر الكائد والدغل المخادع، فهي شهادة إذا وضعت في ميزان مكارم الأخلاق والاعتراف بالفضل لأهله مع شدة شوكة العداوة المضطغنة، فإنها لا تعجز أن توزن مكرمة النبل في موقف هند بنت عتبة.

فهند كانت صادقة مع نفسها وموروث بيتهاوقومها، وزينب كانت صادقة مع طبيعتها ومرباها. ولماأتمت زينب جهازها كان زيد بن حارثة في انتظارها خارج مكة، فخرجت متخفية تحت أستار الليل فحملها وراءه، وسار بها يطوي الليل والنهار، ويقطع الفيافي والقفار، حتى أقدمها على أبيها ﷺ بالمدينة، وبقيت مع إخوتها مستظلّة بظلال الحنان والأنس في رعاية أبوية مشفقة حانية.

المقادير الموفقة تسوق أبا العاص ليستجير بزينب فتجيره.

وأقام أبو العاص بمكة على دين قومه حتى إذا كان قبيل الفتح، خرج في تجارة قريش، فلقيته سرية من أصحاب رسول الله ﷺ وهو في قفوله فأخذوا جميع ما معه، وأعجزهم هرباً حتى جاء تحت جنح الليل إلى زينب رضي الله عنها فاستجار بها فأجارته دون علم من النبي ﷺ، فلما خرج ﷺ

لصلاة الصبح وكبّر، وكبّر الناس صرخت زينب من صفة النساء: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

ولما سلم رسول الله ﷺ من صلاته أقبل على الناس فقال: «أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟» قالوا: نعم، فقال ﷺ: «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء حتى سمعت الذي سمعتم، وإنه يجير على المسلمين أدناهم».

ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال لها: «أي بنية، أكرمي مثواه ولا يخلصنَّ إليك، فإنك لا تحلِّين له» فقالت: إنه قد جاء في طلب ماله، فجمع رسول الله ﷺ تلك السرية، وقال: «إن هذا الرجل منا حيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً، وهو مما أفاء الله عليكم، وأنا أحب أن تحسنوا، وتردوا عليه الذي له، فإن أبيتم فأنتم أحق به» فقالوا: بل نرده عليه، فردّوا عليه ماله أجمع.

كان لا بد إذاً أن تخرج السيدة زينب من مكة لتلحق بأبيها ﷺ، فتجهزت وخرجت مع زيد بن حارثة حتى أقدمها المدينة، وهناك عاشت مع إخوتها في كنف الحنان الأبوي الرحيم.

وتعطّفت الأقدار، وساقت أبا العاص بن الربيع إلى المدينة غير مختار، فاستجار بزينب فأجارته دون علم من النبي ﷺ.

ولما خرج النبي ﷺ لصلاة الصبح وكبّر، وكبّر الناس صاحت زينب من صفة النساء بجوارها لأبي العاص، وأقر النبي ﷺ جوارها له، وأخبر الناس بأعظم قاعدة من قواعد المواساة بين أفراد وجماعات المجتمع المسلم كما تضمّنها منهج رسالة الإسلام، مبيناً لهم أن المسلمين وحدة إيمانية تكافلية لا تفرقها المظاهر، وأنه يجير عليهم أدناهم.

تشريع يمثل جانباً من جوانب منهج رسالة الإسلام.

وقد جاءت هذه الوحدة الاجتماعية التكافلية في حديث اتفق المحدِّثون على صحته، يقول فيه رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم».

ثم بعد أن أعلن رسول الله ﷺ هذا الجانب المشرق في منهج رسالة الإسلام أراد أن يلفت نظر المجتمع المسلم إلى ما جاء في دستور رسالة الإسلام من تشريع يتعلق بالرابطة الزوجية بين زوجين، زوجة مسلمة، سواء أكان إسلامها سابقاً على الزواج أو حادثاً بعده، وزوج كافر كذلك.

وهذا التشريع المحقق لجانب اجتماعي من جوانب منهج رسالة الإسلام أن المسلمة لا تحل للكافر، فلا ينعقد زواج حادث، ولا يستمر زواج كان موجوداً بين امرأة مسلمة ورجل كافر، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفّار، لا هنّ حِلٌّ لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ وهذا النص وإن كان وارداً على سبب خاص في صورة خاصة فهو عام شامل لتحريم زواج امرأة مسلمة من رجل كافر.

وقد بيّن هذا التشريعَ النبيُّ ﷺ بياناً عملياً، إذ دخل على ابنته زينب رضي الله عنها بعد أن سمع أنها أجارت أبا العاص بن الربيع، فأقر جوارها للوحدة الإيمانية بين كافة المسلمين، وأعلنه على سمع مجتمعه المسلم، وأوصاها بإكرام أبي العاص باعتباره ضيفاً ذا رحم وقربى قريبة، وله جوار أوجب له حقوقاً من الإكرام وحسن المعاملة، فقال لها: «أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلصنّ إليك، فإنك لا تحلّين له» لأن الإسلام في تشريعه المنظّم للحياة الاجتماعية قد فرّق بينهما، وكأنما لمحت زينب رضي الله عنها من جو القصة أن أبا العاص جاءها واستجار بها بحكم ما كان بينهما من رابطة الزوجية التي تستلزم حقوقها وواجباتها، فأسرعت إلى إخبار أبيها ﷺ أن أبا العاص رجل مشغول بمروءته وأمانته، وأنه إنما جاء إليها مستجيراً بها يطلب ماله الذي أخذته منه السرية ليرده إلى أصحابه وفاء بحق الأمانة.

وطابت نفس رسول الله ﷺ بما سمع منها، وأرسل في جمع رجال السرية، وأخبرهم بمكانة أبي العاص منه ﷺ، وأنهم أصابوا منه مالاً، كان فيئاً لهم، فهو حلالٌ لهم طيب، ولكن رسول الله ﷺ يحب أن يحسنوا إلى أبي العاص، ويردّوا عليه ما أخذوه منه، ولم يكن ذلك أمراً منه ﷺ، ولكنه رغبة جعلها موضع اختيارهم وموافقتهم، لأن المال الذي أخذوه أصبح مالهم وهم

أحق به منه، فقالوا: بل نردّه عليه، فردّوه عليه أجمع.

تصرف حكيم انتهى بإسلام أبي العاص وجمع شمله بزوجه.

وفي هذا التصرف الحكيم جوانب من منهج رسالة الإسلام، خُلقية واجتماعية وتشريعية، كشفت عن تـطبيقات المنهـج العملية، وأصبحت مبادىء يرجع إليها في مستقبل حياة المجتمع المسلم.

وعاد أبو العاص بأموال تجارة قريش التي عقدت بناصيته أمانتها في وقت استحكمت فيه شدائد الأزمات بينها وبين المجتمع المسلم، لم يفقد منها شيئاً، فكان موفور الكرامة، وفياً أميناً، وأعطى كل إنسان ما كان له من مال في هذه التجارة، ثم نادى في قريش علانية، فقال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، قد وجدناك وفياً كريماً.

وعند ذلك أعلن أبو العاص بن الربيع إسلامه وشهد شهادة الحق، وقريش مجتمعون عليه، فقال لهم: والله ما منعني من الإسلام عند محمد ﷺ بالمدينة إلّا تخوف أن تظنّوا أني أردتُ أن آكل أموالكم، فلمّا أدّاها الله إليكم وفرغت أسلمت.

ثم خرج أبو العاص رضي الله عنه من مكة ميمماً المدينة، إذْ قدم على رسول الله ﷺ مسلماً فازداد له ﷺ إكراماً، وردّ عليه زوجته وابنة خالته السيدة زينب رضي الله عنها.

هذا موقف يمثل جوانب من منهج رسالة الإسلام، كان رسول الله ﷺ فيه هو الوجه المشرق الذي أضاء الطريق أمام مسيرة الدعوة، وكانت ابنته زينب رضي الله عنها تمثل مفتاح الموقف الذي انطلقت الحياة من أبوابه، وكان أبو العاص بن الربيع المحور الذي دارت الوقائع والأحداث من حوله.

فرسول الله ﷺ بسط يد مكارمه لهذا الرجل الذي كان صاحبه وصفيّه قبل بعثته، وفتح له طريق الهداية بعد بعثته، فوفّى له وفاء بوفاء، وبوأه منه منزلة المصاهرة، وهي منزلة لا تكون إلا بين متصافيَين، ووقف منه موقفاً حفظ عليه كرامته بين قومه، وأقر جوار ابنته له حتى يطمئن وهو متطلع إلى

ردَّ ما أخذ منه ليرده على أصحابه، وتحقّق له ما أراد، وعاد إلى مكةمرفوع الرأس، موفور الشخصية، وأعطى الحقوق لأصحابها، حتى إذا لم تبقَ عليه تبعة لأحد أعلن إسلامه الذي كان يضمره منذ أن رأى مكارم النبي ﷺ تغمره، ومنذ أن رأى وفاء ابنة خالته يحقق له آماله.

لم يعلن أبو العاص إسلامه يوم أن كان بالمدينة محفوفاً بالرعاية من رسول الله ﷺ خشية قالة السوء، وأن قريشاً تظن به أنه فعل ما فعل ليأكل أموالهم بالباطل.

فلما فرغ من أداء أمانته واستبرأ ذمته أعلن إسلامه، وأرضَى رسول الله ﷺ، فكافأه وردَّ عليه زوجته الوفية الحبيبة.

وهكذا كانت قصة أبي العاص بن الربيع صورة لكثير من جوانب منهج رسالة الإسلام بدءاً ونهاية في إطار من التطبيق العملي في الوقائع والأحداث، التي برزت في صورة كريمة انتهت بأكرم موقف جمع بين حبيبين وفيين في ظُلّة من الدين الحق تقطر صفاء، وحباً، ووفاء.

قصة عمير بن وهب
وما تحويه من تدبير إلّهي أكسب الدعوة قوة في مسيرتها

في طي الحِكَم الإلّهية قصة أ فجر غدر تنتهي إلى أبر أعمال الإيمان.

هذه القصة من قصص الأحداث والوقائع التي شهدتها غزوة بدر في بدئها ونهايتها صورة تمثل شراسة الفجور الوثني، والشرك العتيّ، واستمرت بعد أن طوّفت بمكة لتدبير أسوأ المكر وأخبث الكيد للفتك برسول الله ﷺ، ولكنها تنتهي إلى نهاية كانت قرة عين المجتمع المسلم وقرة عين الدعوة إلى الله، ومحط رضا رسول الله ﷺ واغتباطه، إذ اتخذت وضعاً سياسياً أحكمه النبي ﷺ موجّهاً من الله بتوفيقه وتسديده، فجعلت من أحد مردة شياطين قريش، وأشدهم عداوة للنبي ﷺ، وأخبثهم فجوراً في مقاومة الدعوة ونشر الرسالة، وأعطش فجّارها إلى سفك دماء المجتمع المسلم - أقواهم إيماناً، وأخلصهم يقيناً، وأنجحهم عملاً في فتح الطريق أمام مسيرة الدعوة إلى آفاق الحياة وجذب من كانوا يشتطون في مقاومتها ووضع العوائق والعقبات في طريقها، وطريق ما جاء به رسول الله من الهدى والخير، وعداوة من آمن بهذا الهدى إيماناً جعل من حاملي أمانته قوة تدعم مسيرة الرسالة ونشرها في آفاق الحياة، فكانت ثمرة جنية من ثمرات بدر التي أينعت على يدي عمير ابن وهب الجمحي القريشي.

وكان عمير بن وهب من ذوي الشرف الجاهلي، له ذكر في قومه، يعرفونه بالدهاء والتعقل المشوب بالتشيطن، مما جعله أحد صناديد قريش وأبطالها الذي تثل إليهم في الشدائد والملمات.

خرج عمير هو وابنه وهب بن عمير مع المشركين في حشودهم الفوارة بالغيظ المحنق على المجتمع المسلم لتعرضهم إلى عيراتهم، وكان عمير ممن

عصمت بهم قريش سياسة تدبيرها في حرب النبي ﷺ وأصحابه في بدر، فوكلت إليه أن يحزر لهم أعداد جند الله، ويعرف قوة شوكتهم، وما يحملون من عدة قتالية.

وامتطى عمير صهوة جواده، وجال به حول معسكر المسلمين، يذهب ويجيء، ويعاود الكرة بعد الكرة، حتى ضبط لهم عدد عسكر المسلمين ضبطاً أتى على واقعهم العددي، ولكنه رأى في وجوه أنصار الله وجوهاً كأنها الحيّاتُ تتلمظ ولا تتكلم، ورأى في سيوفهم الموت الناقع تحمله رواياهم، فرجع إلى قريش ينبؤها بالخبر اليقين، فاستهتروا بقوله الذي وصف لهم به أنصار الله وقالوا له: دع هذا عنك، واذهب فأوقد نار الحرب وأشعل فتيلها، وحرّض بين القوم، فأخذته العزّة بالإثم، ورمى بنفسه عن صهوة جواده وألقاها بين المسلمين، وكان أول من أنشب الحرب.

تآمر وبيء بين صفوان بن أميّة وعمير بن وهب.

ودارت رحى المعركة تطحن حشود الكفر تحت سِفالها طحناً أتى على صناديدهم قتلاً، وأشرافهم أسراً، وعلى غوغائهم هرباً، وكان عمير ابن وهب ممّن فرّ إلى مكة هرباً، فوجد خبر الهزيمة قد سبقه على لسان الحيسمان، ووجد الناس يتحدثون ويذكرون أسماء من قتل من صناديدهم ومن أُسر من أشرافهم، وكان في القتلى أمية بن خلف، وابنه علي بن أمية، وكان صفوان بن أمية جالساً في الحِجْر يسمع فلا يصدِّق، وجاءه عمير ابن وهب فجلس إليه، فسمعه يقول: قبح الله العيش بعد قتلى بدر، فقال له عمير: أجل، لولا دَيْن عليّ لا أجد قضاءه وعيال لا أدع لهم شيئاً لخرجتُ إلى محمد فقتلته إن ملأت عيني منه، إن لي عنده علّة أعتلُّ بها، أقول: قدمت على ابني هذا الأسير.

أفٍّ، ثم أفٍّ لتشاجع المهزوم المعنّى، وأفٍّ ثم أفٍّ لتكذّب المغرور المضيء، أين كانت هذه الشجاعة البرصاء المهيضة وقت معمعة الوغى في ميدان المعركة وسيوف أنصار الله تقطف رؤوساً قد أينعت وحان قطافها؟ وتطلق سيقان المفزّعين للفرار هرباً من قعص السيوف؟

والتقط صفوان بن أمية المرزّء بقتل أبيه وأخيه كلمات عمير وهي

تسيل مع لحابه فاهتبلها فرصة سانحة وفرح بهذا اللعاب المتساقط رعباً، وقال لابن عمه عمير يغريه ويحرضه، فعلي دينك أقضيه عنك وافياً، لا يتبعك بشيء منه أحد قط، وعيالك مع عيالي، أنفق عليهم كما أنفق على عيالي.

وتكفل صفوان بتجهيز عمير، وأمر له بسيف بالغ في صقله وشحذه وأشبعه سماً زعافاً، ونهض عمير نهضة المكظوم المورّط، وهو يودِّع صفوان متثاقلاً، يعده ويمنِّيه، وما يعده إلا الغرور.

المفاجأة تطوّح بعقل شيطان الفجور.

ووصل عمير إلى المدينة ونزل بباب المسجد، واعتقل بعيره وتوشح سيفه وهمّ بالدخول على رسول الله ﷺ، فرآه الألمعي القوي الأمين عمر ابن الخطاب، وكان يجلس إلى نفر من الأنصار، يتحدثون عن وقعة بدر ويذكرون نعم الله عليهم فيها، وما أراهم الله في عدوِّهم، ففزع عمر رضي الله عنه إذْ رأى شيطان قريش عمير بن وهب يهمّ بدخول المسجد، وسيفه في رقبته فصاح: هذا عدو الله عمير بن وهب الذي حزرنا للقوم، والذي أشعل نار الحرب، ثم نهض عمر فدخل على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذا عمير بن وهب، قد دخل المسجد متقلِّداً سيفه وهو الغادر الفاجر، يا رسول الله، لا تأمنه على شيء، فقال النبي ﷺ: «أدخله عليّ» فخرج عمر فأمر أصحابه: أن ادخلوا على رسول الله ﷺ، واحترسوا من عمير، وأقبل عمر على عمير، وأخذ بحمالة سيفه، ولبَّبه، ودخل به على رسول الله ﷺ وسيفه في رقبته، فقال عمير: أنعموا صباحاً، فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك، بالسلام، تحية أهل الجنة، فما أقدمك ياعمير؟» قال: قدمت في أسيري، ففادونا في أسيركم، فأنتم العشيرة والأهل.

أفٍّ، ثم أفٍّ للكذب والكذّابين على الله وعلى رسوله ﷺ، وأفٍّ ثم أفٍّ للجبن والجبناء الرعاديد، وأفٍّ ثم أفٍّ للغدر والغادرين، وأفٍّ ثم أفٍّ للخيانة والخائنين، وأفٍّ، ثم أفٍّ لتدبير المنهزمين، وأفٍّ، ثم أفٍّ للمردة الشياطين المنقلبة حملاناً وادعة مهانة وذلاً.

وتوهّم عمير أن ملك الحيلة، والحجة، وأنه أقنع ووصل، فقال له رسول الله ﷺ: «فما بال السيف في رقبتك؟» ففزع عمير، ثم أفاق من سكرته مع صفوان بالحجر، لأن من يجيء في فداء أسير، ويريد من آسريه وهم العشيرة والأهل أن يتخففوا في فدائه ماله وللسيف يدخل به على من يريد منه أن يتلطف في فداء أسيره؟، ولكن عميراً أُذهل عن نفسه وعن سيفه وعن مخادعته، وأبان عن خبيثه، فقال دون وعي منه: قبّحها الله من سيوف فهل أغنت عنا من شيء، إنما نسيته حين نزلت، إنها سيوف من خشب نخرته السوس، فقد كذبتنا في المعركة حتى هزمنا هزيمة أدخلت على كل بيت في قريش ناراً أحرقت أكباد كل من فيه من أناس أو شيء.

عمير يتهاوى أمام كشف أسرار مؤامرته مع صفوان.

فقال رسول الله ﷺ، وقد رأى شيطنة عمير الجاهلية تتهاوى، ويهوي هو معها: «اصدقني ماأقدمك؟» فقال عمير وهو لا يزال متشبثاً بالكذب، يردد أكذوبة الأسير: قدمت في أسيري، وتوهم عمير أن دهاءه يستطيع أن يقلب السماء أرضاً والأرض سماء، ولكن رسول الله ﷺ أنبأه بما أعلمه الله به مما كان بينه وبين صفوان من مناجاة بالإثم والعدوان وهما في الحِجر بمكة، فقال له: «فما الذي شرطتَ لصفوان بن أمية في الحجر؟» ففزع عمير إذ رأى أول خيط الفضيحة يأخذ بحلاقيمه ويعرِّي سوأة كذبه، ولكنه تماسك وتخيلها كلمة تقال، فقال متكذِّباً: ما شرطت له شيئاً، فقال له رسول الله ﷺ: «تحمَّلت له بقتلي على أن يعول بنيك، ويقضي لك دينك، والله حائل بيني وبينك».

قطرات غيث الإيمان تنسكب على قلب عمير.

وهنا تنزلت على عمير قطرات غيث الهداية من سماء الإيمان، فانقلب في لحظة من شيطان مريد إلى مؤمن رحيم، فقال وهو بين يدي رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، يا رسول الله، كنّا نكذبك بالوحي، وبما يأتيك من السماء، وأن هذا الحديث بيني وبين صفوان في الحِجْر لم يطّلع عليه أحد إلا الله تعالى، والحمد لله الذي ساقني هذا المساق، وقد آمنت بالله ورسوله، ففرح المسلمون به حين هداه الله.

تلطف رسول الله ﷺ بعمير وإكرامه بعد إيمانه.

فقال له رسول الله ﷺ متلطفاً به، مسروراً بإيمانه: «اجلس يا عمير نؤانسك - وفي رواية: نواسيك» ولكل من الروايتين احتمال صحيح، فرواية نؤانسك من الأنس والمؤانسة بعد الوحشة والمواحشة، وقد أصيب عمير في موقفه بما أذهله عن نفسه وأوحشه بما فقد من أنسه، فأراد النبي ﷺ أن يتلطّف به بعد إسلامه ليزيل وحشته ويريه مدى ما يبلغ الإخاء الإيماني بين المؤمنين، وهذا من مكارم الأخلاق التي يضعها منهج الرسالة في طلائع آدابه وتشريعاته.

ورواية (نواسيك) من المواساة، وهي الإفضال في المودة والعطاء والبذل والترافق والمعاونة، وعمير كان في أشد الحاجة إلى ما يرفقه ويعينه ويواده، ويبذل له من الإحسان المعنوي والمادي بعد الذي تحمّله في سفرته وما نزل به فيها من مفاجآت لم تكن في حسبانه وتقديره.

ثم التفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه، وقال لهم: «علِّموا أخاكم القرآن» وفي هذه الجملة الموجزة آيات من آيات منهج رسالة الإسلام، فعمير قد صار أخاً لجميع المؤمنين، والإخاء الإيماني أساسه القرآن، فإشعاره بالإخاء الإيماني مؤانسة ومواساة، وربط هذا الإخاء الإيماني بتعليم القرآن ربط للمؤمنين عامة بشرائع دستورهم الأعظم.

حلاوة الإيمان تنساب إلى قلب عمير، فيصبح داعياً إلى الله بإذنه.

ثم أمر رسول الله ﷺ بإطلاق أسيره دون فداء، وهنا قد استقرت مشاعر عمير الداخلية وهدأت نفسه، وذاق حلاوة الإيمان، ونظر إلى ماضيه في ميزان حاضره، فرأى أنه في أشد الحاجة إلى غسل رجس هذا الماضي بماء العمل الجادّ في سبيل الدعوة إلى الله، ليكفِّر عن نفسه أسوأ ما عمل في ظل الوثنية الطاغية، وفجور الشرك، فقال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إني كنت جاهداً، ما استطعت على إطفاء نور الله، والحمد لله الذي هداني من الهَلَكَة، فائذن لي يا رسول الله، فألحق بقريش، فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام لعل الله أن يهديهم ويستنقذهم من الهلكة.

فأذن له رسول الله ﷺ، فلحق بمكة، وكان صفوان بن أمية لا يزال يتكعكع في ظلمات الكفر مستشرفاً لأخبار عمير فيما عاهده عليه واشترطه

له، ويقول لقريش أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر، وجعل يسأل كل قادمٍ عليه من المدينة، هل كان بها حدث؟ حتى قدم عليه رجل فأخبره أن عميراً أسـلم!.

وقدم على مكة عمير فدعا قريشاً إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أشد الإيذاء فأسلم على يده بشر كثير.

عمير يستأمن لصفوان يوم الفتح.

ومرّ عمير بصفوان وهو في الحِجْر، فقال له عمير: أنت سيد من ساداتنا، أرأيت الذي كنّا عليه من عبادة حجر والذبح له، أهذا دين؟ فأعرض عنه صفوان ولم يكلِّمه.

وقد استأمن عمير النبي ﷺ لصفوان بن أمية حين هرب يوم الفتح فأمّنه رسول الله ﷺ، وبعث إليه بردائه أو بردة أماناً له فأسلم صفوان بعد لأي، وحسن إسلامه بعد أن ظلَّ مدة من المؤلفة قلوبهم على الإيمان بالعطاء الكثير الغامر حتى قال: أشهد أنه لا يعطي هذا إلا نبي.

قصة فداء أسرى بدر
في القرآن الكريم
وموقف النبي ﷺ في أحداثها
بحث وتحقيق

القرآن أرفع مستند لأحداث السيرة النبوية.

عرض القرآن الكريم لقصة فداء أسرى بدر ـ وهي قصة استحوذت على قدر كبير من البحث في كتب المغازي والسِّيَرَ ـ فذكرها في خمس آيات من سورة الأنفال، وهي السورة التي استأثرت بأحداث هذه الغزوة العظمى، من مبتداها إلى نهايتها، شاملة لمقدماتها ونتائجها، مستوعبة لوقائعها وأحداثها التي كانت قصة الأسرى من خواتيمها.

وفي هذه الآيات الخمس يقول القرآن الكريم: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيمٌ * لولا كتابٌ من الله سَبَق لمسَّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ * فكلوا مما غنمتم حلالاً طيِّباً واتقوا الله إن الله غفورٌ رحيمٌ * يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفورٌ رحيمٌ * وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليمٌ حكيمٌ ﴾.

تحقيق تحليلي في معاني آيات الأسرى وبيان هدفها.

وهذه الآيات الخمس تجري في سياقها على أساس الاختصاص في تحقيق أكثر من معنى واحد تستقل به كل آية من آياتها، وإن كان الإطار العام للمعاني والحقائق التي سبقت لها الآيات موحّد الاتجاه في ظل قصة أسرى بدر، وهي أول قضية تعالج أثراً من أهم آثار الحرب بين المجتمع المسلم وأعدائه الكافرين، وهو أثر تأصيلي لتشريع دائم في حياة المجتمع المسلم ما بقي هذا المجتمع قائمًا بواجبات تكاليفه القيادية في نشر رسالة الهدى والحق التي بُعث بها محمد خاتم النبيين ﷺ.

الآيات الثلاث الأولى درس تربوي للنبي ﷺ.

وإنما جاءت الآيات الثلاث الأولى من هذه الآيات الخمس لإعلام النبي ﷺ بسنة من سنن الأنبياء قبله في جهاد الكافرين، جرياً على سنة القرآن الكريم في طريقة تربية النبي ﷺ وتعليمه بإعلامه بما كان عليه إخوانه الأنبياء قبله ليقتدي بهم فيما يعمه من شرائعهم.

وهذه السنة أن الأنبياء المرسلين بمقتضى حكم النبوة المرسلة مضَوا في جهادهم القتالي للكافرين دون أن يكون لهم في حروبهم لإعلاء كلمة الله أسرى إلا بعد أن يُثْخَنوا في الأرض مبالغة في إضعاف شوكة أعداء الله من المشركين بكثرة القتل في رجالهم، وكثرة الجراحات، ليثقلوا كواهلهم، ويوهنوا عزائمهم حتى لا تبقى لهم قوة على الحركة للمعاودة إلى قتال المؤمنين المحاربين بما يملأ قلوبهم من الرعب والهلع والتوجس.

ولما كان نبينا محمد ﷺ هو خاتم النبيين والمرسلين الجامع لفضائلهم المتفرقة فيهم، ولما كانت رسالته ﷺ هي خاتمة الرسالات الإلهية الجامعة لفضائل شرائع أولئك الأنبياء المرسلين مما لم يجرِ عليه نسخ في أحكامه كان كل ما ثبت لهم من شرف وفضيلة، وكل ما ثبت في شرائع رسالاتهم من أحكام وتشريعات ثابتاً له ﷺ في رسالته الخاتمة لرسالاتهم.

تنزيه الأنبياء أن يكون لهم أسرى قبل الإثخان.

وسنة نفي أن يكون للأنبياء المرسلين في حروبهم الجهادية لإعلاء كلمة الله أسرى قبل أن يثخنوا في الأرض ـ بكثرة القتل في أعدائهم، وكثرة الجراحات فيهم، توهيناً لشوكتهم، وإضعافاً لقوتهم، وإدخالاً للرعب في قلوبهم، مما شرّف الله به أنبياءه المرسلين الذين شرع لهم في رسالاتهم جهاد الأعداء ومقاتلتهم على قبول الإيمان بالحق الذي جاؤوهم به من عند الله، تسامياً بمكانتهم من الله تعالى عن قصد إرادة عرض الدنيا بجهادهم ـ هي بمقتضى الأمر بالاقتداء بهدي المرسلين سنة محمد ﷺ خاتم النبيين في رسالته الخاتمة، فلا يكون له ﷺ في حروبه الجهادية ـ لإخراج الناس من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور التوحيد، وإخلاص الدين كله، علماً وعملاً لله تعالى وحده ـ أسرى حتى يثخن في الأرض بكثرة القتل في أعدائه، وأعداء دعوته، دعوة الحق، المعوقين لسير رسالته، رسالة النور والهدى، تحقيقاً لسنة الله مع

الأنبياء لتكون لهم القوة والغلبة والسلطان على الحياة، ونبينا محمد ﷺ خاتمهم، فلا بد أن تكون سبيله سبيلهم في هذا الفضل والشرف والتسامي عن قصد إرادة عرض الدنيا الفاني الذي لا يليق أن يكون من مقاصد أفضل البريّة من الأنبياء والمرسلين.

فالأسلوب الذي أخرج فيه هذا المعنى في صدر الآية أسلوب نفي وتنزيه لساحة الأنبياء أن يقصدوا في جهادهم لإعلاء كلمة الله إنهاء معارك الجهاد بمجرد ظهور بوادر النصر لهم وهزيمة أعدائهم، بل كانت سنتهم التي ربّاهم الله عليها في جهادهم الكافرين أن يكثروا القتل في أعدائهم، ويبالغوا في جراحاتهم حتى يفلّوا حدّهم، ويوهنوا قوتهم، ويضعفوا شوكتهم بقتل صناديد الكفر وقهر الأعداء بغلبتهم غلبة لا يقدرون معها على التفكير في معاودة قتال جند الله من المؤمنين.

انحراف أتباع الأنبياء المرسلين إلى إنهاء المعارك قبل الإثخان مخالف لما جبل عليه الأنبياء.

فإذا انحرف أتباع الأنبياء عن هذه السنَّة، وأسرعوا إلى إنهاء المعركة بمجرد ظهور أمارات النصر ومعالمه وهزيمة الأعداء، وأخذوا في جمع الغنائم واستبقاء الرجال أسرى في أيديهم لم يكن ذلك من سنة الأنبياء المتنزهة عن إرادة عرض الدنيا، بل يكون جارياً على خلاف سنة الأنبياء، ويكون أتباعهم هم الذين استوجبوا أن يكون للأنبياء أسرى ينسبون إليهم بحكم كونهم قادة المعارك الجهادية، والأنبياء لم يأمروا أتباعهم بذلك، ولا رضوا به.

فصدر الآية يحكي إعلام الله تعالى نبيه محمد ﷺ بسنة الأنبياء، وهو خاتمهم، والنموذج الأعلى لفضائلهم، وشريعته صورة جامعة لشرائعهم المتعبد بها، فهو ﷺ أبعد ما يكون رغبة في إنهاء المعركة، واستبقاء الرجال أسرى تحت يده قبل الإثخان في الأرض، لأن ذلك منفي عنه، لا يقع منه، وهو ﷺ منزه عنه بمقتضى كونه نبياً من الأنبياء المرسلين.

ولهذا بعد أن أدت الآية في صدرها هذا المعنى الشريف المتسامي عن إرادة عرض الدنيا وزخارفها توجهت بالعتاب إلى من كانوا قد قصدوا عرض الدنيا من أصحاب النبي ﷺ وأتباعه المؤمنين برسالته في أول قتال جهادي

أسلوب الآية صريح في توجيه العتاب لمن أراد عرض الدنيا بأخذ الغنائم والأسرى من سراع جنود المجاهدين.

نصرهم الله فيه على قلة عددهم وضعف عُدتهم القتالية، فنَعَتْ عليهم في مخاطبة خاصة بهم لم يدخل فيها النبي ﷺ قط، فقالت عادلة عن أسلوب الغيبة - التي أدّت به مقام الإعلام لرسول الله ﷺ بسنّة الأنبياء قبله في معاركهم الجهادية، بنفي أنهم لم يكن لهم أسرى في معاركهم وتنزّههم عن قصد ذلك، فكذلك هو ﷺ لم يكن من شأنه أن يكون له أسرى قبل كسر الشوكة بالإثخان في الأرض، وإنما الذين جعلوا له أسرى من ينسبون إليه وهم أصحابه وأتباعه الذين أرادوا عَرَضَ الدنيا الزائل، وأعرضوا عن ثواب الآخرة الدائم - إلى أسلوب الخطاب الجماعي معاتبة لهم، عاتبة عليهم ما كان فيهم من التسرّع لإنهاء المعركة وجمع الغنائم واستبقاء الرجال أسرى في أيديهم؛ مما لا ينبغي أن يسند لنبي من الأنبياء، فضلاً عن خاتمهم وجامع فضائلهم فقالت لهم: ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ وهذا خطاب لم يدخل فيه النبي ﷺ قط، وإنما هو خاص بالذين أرادوا أن يكون لهم - وهم تحت قيادة النبي ﷺ - أسرى من رجال الأعداء فعجّلوا بإنهاء المعركة لجمع الغنائم، وهي عرض زائل من أعراض الدنيا الفانية معرضين عن ثواب الله في الدار الآخرة الباقية وهو ثواب دائم لا يزول ولا يحول، فهم الذين تسبَّبوا في أن يكون لنبي الله ﷺ أسرى، نتيجة لاسترخائهم في القتال، إيثاراً للغنيمة واستبقاء الرجال، وأخذهم أسرى يفادونهم.

فالنبي ﷺ لم يكن قط راغباً في أن يكون له أسرى قبل الإثخان في الأرض، لأن ذلك لم يكن من شأنه ولا هو مما تقتضيه معالم نبوته، بل ثبت أنه ﷺ كره ذلك إذ علمه بإعلام سعد بن معاذ له، وإذ رآه وهو ينظر من العريش إلى ما يصنعه أصحابه من جمع الغنائم واستبقاء الرجال وأخذهم أسرى.

في موقف سعد ابن معاذ وكراهيته لصنيع المجاهدين وموافقة النبي ﷺ عليه دليل على أنه ﷺ لم يدخل قط في إطار المعاتبين.

قال ابن إسحاق: ولما وضع القوم أيديهم يأسرون رأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له: «كأني بك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟» فقال سعد بن معاذ: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان أحبُّ إليّ من استبقاء الرجال.

وهذا يحمل في طياته موافقة النبي ﷺ على أن الإثخان في القتل كان أحب إليه ﷺ من استبقاء الرجال وأخذهم أسرى، والتعجيل بإنهاء المعركة فرحاً بالغنائم والأسرى.

ولم نرَ قط في رواية أن النبي ﷺ ـ وهو القائد الأعلى المطاع ـ أمر بإنهاء المعركة وأسر الرجال لأن هذا منفي عنه، معارض لمقتضى نبوته.

ومن ثَمَّ ذهب كثير من المفسرين ـ أبو حيان وغيره ـ إلى أن الكلام في صدر الآية على حذف مضاف، فقال: أي ما كان لأصحاب نبي، أو لأتباع نبي ومعناه أن الذين قصدوا أن يكون لهم أسرى يأخذون منهم الفداء هم المحاربون الذي تعجّلوا إنهاء المعركة، وشغلوا بجمع الغنائم وأسر الرجال عن الإثخان بكثرة القتلى والجراحات.

وإنما صدِّرت هذه الآية بذكر النفي عن نبي ـ أن يكون له أسرى قبل الإثخان في الأرض، لأن كل نبي شرع له الجهاد، هو قائد أصحابه وأتباعه في جهاد أعداء الله من الكافرين، وهو المشافه بالخطاب من الله المبلِّغ لأمته ما يُوحى إليه من ربه، فالتأويل بحذف المضاف وإن كان فيه تنزيه للأنبياء عن مس العتاب لكنه خرج بها عن ظاهرها المؤدِّي لمقصدها.

فالله تعالى أوحى إلى نبينا محمد ﷺ معلِّماً له أن سنة الأنبياء قبلك في جهادهم أعداءَ الله أنهم إن هم ظفروا بهم في موقعة من مواقع القتال، فعليهم أن يكسروا شوكتهم بكثرة القتل لرجالهم وكثرة الجراحات في محاربيهم أثناء معمعة القتال حتى يبلغوا بهم توهين قوتهم توهيناً يسلبهم القدرة على مقاومتهم للوقوف أمام نشر دعوة الحق وتعويقها عن مسيرتها هادية مصلحة.

كان القرطبي موفقاً في تأويل الآيات دون أن يخرج بها عن ظاهرها.

وقد نحا القرطبي نحو توجيه العتاب إلى الصحابة نافياً له عن النبي ﷺ، منزِّهاً ساحته عن أن يكون قد أمر باستبقاء الرجال وأخذهم أسرى نحواً موفقاً فقال: هذه الآية نزلت يوم بدر عتاباً من الله عز وجل لأصحاب نبيه ﷺ، والمعنى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي ﷺ أسرى قبل الإثخان، ولهم ـ أي للصحابة ـ هذا

الإخبار بقوله: «تريدون عَرَض الدنيا» والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قط عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب.

ثم قال القرطبي: هذا قول أكثر المفسرين، وهو الذي لا يصح غيره، وإنما جاء ذكر النبي ﷺ في الآية - أي ضمن عموم النكرة بلفظ (نبي) - حين لم ينهَ عن استبقاء الرجال وأسرهم حين رآه من العريش، وذكّره سعد ابن معاذ به، ولكنه عليه السلام شغله بغت الأمر ونزول النصر فترك النهي عن الاستبقاء.

وهذا كلام صريح في أن أكثر المفسرين الذين لا يصحُّ غير قولهم ذهبوا إلى أن النبي ﷺ لم يدخل في الخطاب الموجّه إلى عموم المحاربين الذين أرادوا عَرضَ الدنيا فتعجّلوا إنهاء المعركة.

بَيْدَ أنّ كلام القرطبي في بيان حكمة عدم نهي النبي ﷺ عن استبقاء الرجال وأخذهم أسرى حين رآه من العريش لا يخلو من نظر، لأن زعم أن النبي ﷺ شغلته المفاجأة ونزول النصر عن الأمر بعدم إنهاء المعركة واستبقاء الرجال لا يوائم مقام القيادة في الحرب، ولا سيما إذا كان القائد هو رسول الله ﷺ، وإذا كان الأمر يتعلق بسنة من سنن الأنبياء، لم تقع من واحد منهم قبله ﷺ، فأحرى ألّا تقع من أصحابه فتنسب إليه، وليس في أمر النصر بَغْتٌ، لأن النبي ﷺ باشر أسبابه وتوقعه، وكان على علم تام به.

رأينا في حكمة عدم نهي النبي ﷺ عن إنهاء المعركة قبل الإثخان.

ونحن نرى في حكمة ترك النبي ﷺ النهي عن استبقاء الرجال أنه ﷺ خشي إن هو نهى عن استبقاء الرجال بعد الأخذ فيه والشغل به أن يُحدث ذلك شيئاً من الاضطراب والفوضى في صفوف المسلمين، فتكون للمنهزمين من الأعداء جَوْلة يرجعون فيها إلى المجاهدين المنتصرين الذين يكونون حينئذ بمعرض أن يصيبهم شيء من فتور العزيمة وقد رُدّوا عن قصدهم ردّاً تضمن الأمر بقتل الرجال، وربما ينقلب اتجاه المعركة، فكان تركهم يأسرون الرجال بعد ما أصابوا منهم ما يحقق الإثخان أرجح في ميزان التدبير السياسي للمعركة حتى تبلغ نهايتها والمسلمون متماسكون، لأن ذلك لم يخرج عن كونه

لوناً من قهر العدو، وبسط سلطان النصر عليه، وإشعاره بذُلّ الهزيمة وهذا هو المقصود من الإثخان في الأرض.

الاعتذار للصحابة في تعجلهم إنهاء المعركة.

وقد حكى القرطبي عن بعض أهل العلم رأياً في الاعتذار للصحابة رضي الله عنهم في استعجالهم إنهاء المعركة قبل الإثخان فقال: وقيل: إنما عُوتبوا لأن قضية بدر كانت عظيمة الموقع، والتصرف في صناديد قريش وأشرافهم وساداتهم وأموالهم بالقتل والاسترقاق والتملك، ذلك كله عظيم الموقع، فكان حقّهم أن ينتظروا الوحي، ولا يستعجلوا، فلما استعجلوا ولم ينتظروا توجّه عليهم ما توجّه.

تحقيق في معنى (ما كان) وهو الدعامة الكبرى في بيان معنى الآية.

فالآية ليس فيها خطاب خاص معيّن للنبي ﷺ يشعر من قريب أو بعيد بالعتاب، وإنما هي إعلام من الله تعالى لرسوله ﷺ بسنة من سنن الأنبياء في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وهي أنهم صلوات الله عليهم كانوا لا يتعجّلون إنهاء المعارك قبل أن يثخنوا في الأرض بكثرة القتل في أعداء الله وأعداء دينه الحق الذي بعث به أنبياءه، قبل أن يبلغوا بهم إلى توهين شوكتهم بالمبالغة في القتل والجراحات المعجزة لهم عن التحرك لقتال متجدد يواقفون فيه جند الحق لتعويق مسيرة الدعوة إلى الله.

فالآية نفي وتنزيه لساحة النبوة أن يقصد المتحلّي بهاأن يكون له أسرى يستحييهم ويبقي عليهم قبل أن يعجز جمهرة محاربيهم عن التفكير في معاودة قتال جند الله المجاهدين في سبيله لإعلاء كلمته.

يقول الرازي في تفسيره : قوله:(ما كان) معناه النفي والتنزيه، أي ما يجب وما ينبغي أن يكون له المعنى المذكور، ونظيره (ما كان لله أن يتخذ من ولد) وقال أبو عبيد: لم يكن لنبي ذلك، فلا يكون لك.

وقال القرطبي: قال أهل المعاني: (ما كان) في القرآن يأتي على وجهين: يأتي على النفي نحو قوله: ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ أي ما كان في اقتداركم أن تنبتوا شجرها فلا يمكن أن يقع منكم، ونحوه قوله تعالى: ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ﴾ أي لا يقع في الوجود موت

نفس منفوسة إلا بإذن الله وتقديره، وعلى هذا الوجه ـ أي النفي ـ تتنزل آية ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ أي لم يقع من نبي من الأنبياء أن يكون له أسرى حتى يكثر القتل والجراحات في أعدائه، أعداء الله، وأعداء دينه ورسالاته، وإنما وقع ما وقع لك فكان لك أسرى لأن أصحابك وأتباعك لم يصبروا على استمرار المعركة حتى يثخنوا في الأرض، ولكنهم تعجَّلوا نهايتها دون أمر منك لأنهم أرادوا عَرضَ الدنيا وجمع الغنائم وكثرة الأسرى ليكثر لهم فداؤهم.

زعم أنَّ تركيب (ما كان) يفيد النهي زعم باطل.

أما الوجه الثاني في أسلوب (ما كان) فهو النهي الضمني كقوله: ﴿ وماكان لكم أن تؤذوا رسول الله ﴾ أي ما صحّ منكم ولا استقام لكم أن تؤذوا رسول الله بفعل ما لا يرضي الله تعالى، ويضعكم موضع من لا يوقِّر رسوله بخلفكم له في تزوج نسائه من بعده، أي فلا تقدِمُوا عليه وتفعلوه لما فيه من عظيم الجرم عند الله، وكقوله: ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ أي ما ينبغي للنبي في شرف مقامه وعظيم مكانته أن يستغفر لأعداء الله المشركين، وما صحّ ولا استقام للمؤمنين بالله رباً أن يستغفروا لمن لا يؤمن بوحدانية الله تعالى ومات على شركه، فلا تفعلوه ولا يجوز أن يقع منكم، وقد أنكر أبو حيان هذا الوجه الثاني لتركيب (ما كان) فقال: ولا تتضمن هذه الصيغة نهياً كما يقوله بعضهم، وقد وفق الرازي في اقتصارة على معنى النفي والتنزيه.

عثرة لابن اسحاق خطيرة وهي باطلة لم يسندها إلى أحد.

وقد ذهب ابن إسحاق ومن تبعه إلى أن في الآية عتاباً للنبي ﷺ لحملهم تركيب ﴿ ما كان لنبي ﴾ على النهي، فزعموا أن النبي ﷺ منهيٌّ بهذه الآية أن يكون له أسرى قبل الإثخان في الأرض، والمبالغة في إثقال العدو عن الحركة وكثرة قتل صناديده، ولكن الرجال قد استبقُوا وأخذوا أسرى، فعوتب على ذلك.

أخرج أبو جعفر الطبري قال: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا سَلَمة، عن ابن إسحاق قال: عاتبه ـ أي عاتب الله عز شأنه نبيه محمداً ﷺ ـ في الأسرى وأخذ الغنائم، ولم يكن أحد قبله من الأنبياء يأكل مغنماً من عدوٍّ له.

وهذا تأويل فاسد لا يلائم مقام الآية وأسلوبها وسياقها، لأنه يضع النبي ﷺ موضع المخالف لسنة الأنبياء قبله في أكل المغانم قبل أن يحلّها الله له ولأمته، ويدخله ﷺ في الخطاب بقوله تعالى: ﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴾.

وهذا من الطامات التي تسلك معتقدها في سلك من لا يرجو لله وقاراً، وسلك من لا يعرف قدرَ رسول الله ﷺ وتجافيه عن الدنيا وزخارفها، وتنأى به عن الدخول في سلك ﴿ فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾، وقد ردَّ القاضي أبو بكر ابن العربي نحو هذا التأويل الفاسد فقال: توهم بعض الناس أنه كان من النبي ﷺ معصية فيه غير معينة، وحاشا لله من هذا القول، إنما كان من النبي ﷺ توقف، وهذا ردٌّ مجمل لا يشفي.

كلام ابن العربي والرازي في بطلان ما زعمه ابن إسحاق

وقد ذكر الرازي هذا القول على أنه شبهة لبعض الطاعنين في عصمة الأنبياء، فقال: تمسك الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه: الوجه الأول إن قوله تعالى: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ﴾ صريح في أن هذا المعنى منهي عنه، وممنوع، ثم إن هذا المعنى قد حصل.. فكان الذنب لازماً.

ثم أجاب الرازي على هذه الشبهة الواهية، فقال: إن قوله: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ يدل على أن الأسر كان مشروعاً ولكن بشرط الإثخان في الأرض، والمراد بالإثخان القتل والتخويف الشديد، ولا شك أن الصحابة قتلوا يوم بدر خلقاً عظيماً، وليس من شرط الإثخان قتل جميع الناس، ثم إنهم بعد هذا القتل الكثير أسروا جماعة، والآية تدل على أن بعد الإثخان يجوز الأسر، فصارت هذه الآية دالة دلالة بينة على أن ذلك الأسر كان جائزاً بحكم هذه الآية، فكيف يمكن التمسك بهذه الآية في أن ذلك الأسر كان ذنباً ومعصية، ويتأكد هذا الكلام بقوله تعالى: ﴿ حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوثاق، فإما منّاً بَعْدُ وإمّا فداء ﴾[1].

---

(١) سورة محمد آية (٤).

وقد كان على الرازي أن يتساءل عن الصراحة في النهي التي زعمها صاحب هذه الشبهة الضعيفة، أين هي الصراحة في النهي التي يدل عليها أسلوب الآية؟ وللنهي صيغ وأدوات وضعت في لغة العرب لتدل عليه، وليس في صدر الآية شيء من ذلك، ولا شك أن حمل الآيةعلى النفي والتنزيه أرجح عقلاً ونقلاً، أما عقلاً فلأن النبي بمقتضى مقام النبوة والعصمة يستحيل عليه أن يخالف إلى أمر نهاه الله عنه فيفعله مريداً لعرض الدنيا، وأما نقلاً فلأن النبي ﷺ لم يوجَّه إليه في صدر الآية خطاب خاص، ولإجماع جمهور المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ﴾ على حذف مضاف، أي ما كان لأصحاب نبي وأتباعه أن يجعلوا له أسرى إرادة عرض الدنيا منهم، بجمع الغنائم واستبقاء الرجال أسرى ليفادوهم.

قراءة ما كان (للنبي) معرفاً قراءة تفسيرية.

وقد نقل بعض المفسرين أنه قرىء ﴿ ما كان للنبي ﴾ بصيغة المعرفة، وهي قراءة منسوبة لأبي الدرداء وأبي حَيْوة، ومعناه أن هذا الذي حصل من الأسر ما كان ينبغي حصوله من النبي وهو محمد ﷺ، وهذه قراءة تفسيرية، لا قراءة تلاوة وتعبد وإعجاز، أريد بها أن تكون تفسيراً للفظ (نبي) بصيغة النكرة، وهي التي نزل النص القرآني بها ليتوصل بهذا إلى أن النبي ﷺ هو المقصود خاصة بالإخبار بها ليكون ﷺ هو المعاتب في رأي المقلِّدين لابن إسحق في قوله ورأيه المتقدم، لا أصحابه ﷺ ممَّن تعجَّل إنهاء المعركة واستبقى الرجال أسرى في أيدي المجاهدين.

غلط ابن العربي في تفسير (نبي) منكراً كما جاء في تلاوة الآية بخصوص محمد ﷺ لا دليل عليه من الآية.

وممّن ذهب هذا المذهب، ولم يكتفِ بتأويل لفظ (نبي) الذي نزل به القرآن بلفظ (النبي) الذي زعم أنه قرىء به بل أغرق في التأويل أبو بكر ابن العربي، فجعل المراد من لفظ (نبي) بالتنكير كما جاء في الآيةخصوص نبينا محمداً ﷺ، فقال في أحكامه: ومعنى قوله: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ﴾ ما كان لك يا محمد أن تكون لك أسرى حتى يغلظ قتلك في الأرض، وتثبت هيبتك في النفوس. ولعل أبا بكر بن العربي اعتمد فيما ذكره على قراءة ﴿ ما كان للنبي ﴾ وهي قراءة لم يعرف تواترها لتكون قرآناً.

وهذا تأويل بعيد عن منطوق الآية ومفهومها، لأن الله أبهم الأمر

بالنسبة لرسول الله ﷺ، وجعله داخلاً في عموم النكرة ليثبت له من النفي والتنزيه ما يثبت للأنبياء، والآية بهذا المساق تكون مدحاً للأنبياء الذين شرع لهم الله الجهاد في رسالاتهم، وبياناً لسنّة من سنن الشرف التي تحلّوا بها والتزموها، وفي هذا الإطار المحمود يدخل نبينا محمد ﷺ مع إخوانه الأنبياء في تنزيهه أن يكون له أسرى قبل الإثخان في الأرض، وهو راضٍ عن ذلك.
ويكون معنى الآية حينئذ: أنه ليس من سنن الأنبياء ـ وأنت يا محمد خاتمهم ـ أن يكون لهم أسرى قبل أن يُثْخِنوا في الأرض وتثبت هيبتهم في النفوس، ويدخل الرعب في قلوب أعدائهم، فكذلك أنت يا محمد ليس من سنتك في جهادك أن يكون لك أسرى قبل أن تثخن في الأرض، فإذا أسرع أصحابك إلى إنهاء المعركة بمجرد ظهور بوادر النصر قبل أن يكسروا شوكة أعدائهم كسراً يضعف قوتهم ويملأ قلوبهم هيبة منكم، وجعلوا لك أسرى ينسبون إليك باعتبارك القائد الأعظم للمعركة كانوا هم المعاتبين بأنهم أرادوا عَرضَ الدنيا الذي يفنَى ويزول، وتركوا ثواب الآخرة الذي لا يزول ولا يحول، لأنك أنت المنزّه في مقام نبوتك عن ذلك، كما تنزّه إخوانك الأنبياء من قبلك.

فإخراج الآية من أسلوبها العام الذي نزلت به قرآناً متلواً متعبّداً به متحدياً بإعجازه إلى تخصيصها بمحمد ﷺ عدول عن الأسلوب الذي اختاره الله تعالى ليدل به على معنى مقصود بذاته، وتأويلها تأويلاً لا يدل عليه أسلوبها الأصيل من قريب أو بعيد بأي نوع من أنواع الدلالات التي استعملت لها الألفاظ بغير مقتضى لهذا العدول والتأويل.

القرآن الحكيم له مقصوده ومراميه في تعبيراته فلا تفسَّر بغير ظاهرها إلا بدليل.

ولا ندري كيف ساغ تفسير لفظ (نبي) بصيغة النكرة في إفادتها العموم الشمولي بلفظ (النبي) بصيغة المعرفة في خصوصها وإفادتها الدلالة على شخص معين، ثم يقتحم هذا السياج البياني القرآني فينص على أن هذا المدلول عليه المعيّن بشخصه هو محمد ﷺ ليكون هو المخبر عنه في صدر الآية ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخنَ في الأرض ﴾ فيقال في معنى الآية: ما كان لك يا محمد أن تكون لك أسرى حتى يغلظ قتلك في الأرض، وتثبت هيبتك في النفوس.

والقرآن الحكيم إذ يعبِّر بلفظة معينة بصفة خاصة لأداء معنى من المعاني لا يجوز قط أن تفسر اللفظة القرآنية بصيغتها الخاصّة، وهي من كلمات الله العليم الخبير بلفظة أخرى بصيغة أخرى، ولا سيما إذا كان بين اللفظتين بصيغتيهما تقابل بالتضاد، كماهو الشأن في لفظة (نبي) منكر، ولفظة (النبي) معرفة، لأن في هذا التفسير إهداراً لمقاصد القرآن في تعبيراته.

ثم يقال في هذا التفسير الذي نقل الآية من العموم المفيد لمعنى أو معان زائدة على الخصوص إلى معنى معينّ يحصر فيه معنى الآية، ما شأن المعاني الزائدة التي كانت مستفادة من عموم اللفظ الذي نزل به النص القرآني؟

هل بطلت استفادتها من عموم اللفظ؟ أو أن اللفظ العام خصص ليكون المعنى محصوراً في هذا التخصيص؟ ومعروف أن العام إذا خصص، أو أريد به الخصوص كان لتخصيصه موجب يقتضيه لحمل المعنى عليه، وأين هذا الموجب هنا في الآية التي معنا لمقتضى التخصيص؟ لم يكشف أحد من الباحثين الغطاء عن ذلك فيما نعلم.

رأي جمهور المفسِّرين كماذكره القرطبي هو الذي يجب الوقوف عنده والمصير إليه في معنى الآية.

كل ذلك يجعلنا نقف مع رأي جمهور المفسرين الذي قال عنه الإمام القرطبي: وهو الذي لا يصح غيره، من وجوب بقاء الآية على ظاهرها، تقصد إلى الإخبار بأسلوب النفي والتنزيه الذي يفيده قوله: (ما كان) عن سنة من سنن الأنبياء في جهادهم القتالي لإعلاء كلمة الله تعالى، وتخبر في ضمن ذلك أن محمداً ﷺ مثلهم في هذه السنة الحميدة، منفي عنه منزّه عن أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض.

وبهذا الفهم المستقيم تبقى الآية في وضعها وأسلوبها القرآني لا يشتم منها رائحة عتاب للنبي ﷺ لأنه ﷺ لم يقع منه قط ما يستوجب العتاب، وإنما الذي وقع كان من أصحابه الذين توجّه إليهم من العتاب ما توجّه، لأنهم تسببوا في أن النبي ﷺ يكون له على خلاف شأنه ومقامه أسرى قبل أن يثخن في الأرض.

ويزكي هذا ويؤيده تنوّع الأسلوب في الجملتين اللتين كانتا صدراً

للآية، فالجملة الأولى مجرد إخبار من الله تعالى عن سنة من سنن الأنبياء في جهادهم القتالي لأعدائهم، لإعلام رسول الله ﷺ بذلك، وأنه داخل في إطار هذه السنة مع إخوانه الأنبياء عليهم السلام، والجملة الثانيةتوجيه خطاب لجمهور المجاهدين عتاباً لهم على إرادتهم عرض الدنيا الفاني وإعراضهم عن ثواب الآخرة الباقي، وهذه الجملة لم يدخل فيها النبي ﷺ قط لاستحالة إرادة عرض الدنيا منه.

الآية من قبيل التهييج للتأسي بأتباع الأنبياء.

وفي هذا الأسلوب تنبيه لأصحاب النبي ﷺ يهيجهم إلى ما كان عليه أتباع الأنبياء من قبلهم ليكونوا أمثالهم في أنهم لم يتسببوا في أن يكون لأنبيائهم أسرى قبل الإثخان في الأرض، لأنهم منزّهون عن ذلك، فنُفي عنهم فلم يقع منهم، ونبيكم محمد ﷺ أحرَى ألاّ يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، لأنه ليس من شأنه، وهو منزّه عنه بمقتضى التعبير عن ذلك بقوله: ﴿ ما كان ﴾ الموجب للنفي والتنزيه، فلتكونوا أنتم كأتباع الأنبياء الذين لم يتسبّبوا في أن يكون لأنبيائهم أسرى قبل الإثخان في الأرض، وعندئذ يتجه العتاب إلى أصحاب النبي ﷺ في قوله: «تريدون عَرضَ الدنيا» وتبقى ساحة النبي ﷺ نقيّة طاهرة مطهرة، لا يحوم حول حماها شيء من العتاب لعدم قيام موجبه منه ﷺ.

في هذا الإطار يجب أن تفهم قصة أسرى بدر.

في هذا الإطار التحليلي الذي وضعنا فيه أحداث قصة أسرى غزوة بدر في موضعها من واقع التاريخ وأحداث الحياة، يجب أن تفهم معاني الآية الأولى من آيات هذه القصة التي وضعت بنصِّها القرآني بعيدة عن الروايات الضعيفة والآراء الباطلة رسولَ الله ﷺ في مكانه الأعز الأحمى، إذ جاءت إخباراً إعلامياً له ﷺ بأنه لم يكن من طبيعته في رسالته، ولا شيمته في نبوته أن يعطي أعداءه، أعداء دينه ورسالته المفسدين في الأرض من أحلاس الشرك الفاجر والكفر العتيّ والوثنية الباغية فرصة التنفس، وقد سلّطه الله عليهم بقهره وأمكنه منهم بقوة بطشه حتى أوثقهم الرعب منه، وغلّلهم الفزع من هيبته قبل أن يوثقهم أصحابه بالحبال والقدّ، والسلاسل والأغلال، ليذهب ما ألمّ بنفسه الكريمة من آثار كراهيته لما يصنع أصحابه في جمع الغنائم، واستبقاء الرجال وأخذهم أسرى بعد أن مكّنهم الله من هؤلاء الأعداء

الفجّار الذين لم يكادوا يلقَونهم في ميدان المعركة حتى منحوهم أكتافهم مدبرين، يقتلون صناديدهم كيف شاؤوا كما وصفهم أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب في حديثه مع عمه أبي لهب، وقد سأله عن المعركة، فقال له: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، كما جاء في حديث أبي رافع مولى العباس بن عبد المطلب.

وكان رسول الله ﷺ يرى جمهرة جنده المحاربين قد حوّلوا النصر الذي لم يكونوا يتوقعونه بل الذي كانوا يتهيبون الإقدام على تحقيقه، وقوفاً منهم مع مقاييس القلّة والكثرة، وموازين القوة المادية في العدد والعُدّة إلى غنيمة تجمع، ورجال تُستبقَى وتؤسر، وفرّار يهربون في فجاج الأرض مفزّعين مرعوبين كأنما كانت تتخطفهم الشواهين والنسور، وتنقض عليهم البزاة والصقور، وتلاحقهم لتلتهمهم الأُسد والنمور، ولم يكن من الحكمة في سياسة الموقف أن يرد الغانمون والآسرون عن مقاصدهم بعد أن أغمدوا سيوفهم، وشغلوا بتصفية المعركة وجمع الغنائم واستبقاء الرجال، وأخذهم أسرى إرادة عرض الدنيا والإعراض عن الآخرة وما فيها من عظيم الثواب والنعيم المقيم.

وقد جاء العتاب بجلاميده ينقض على رؤوس الذي كان موقفهم سبباً في أن يكون للنبي ﷺ أسرى قبل أن يثخن في الأرض، ويبلغ من أعدائه مبلغاً يكسر شوكتهم ويرعبل قوتهم، حتى يعجزهم عن مواقفته في مواقع القتال، فقال تعالى يخاطب الذين أسرعوا في إنهاء المعركة قبل أن تصل بالنصر إلى نهايته العليا بعد أن أُخبر رسول الله ﷺ أنه بمقتضى نبوته، لا يكون له كإخوانه الأنبياء الذين شرع لهم الجهاد قبله أسرى يفادونهم: «تريدون عَرَض الدنيا» لأنه ﷺ منزّه عن قصد إرادة عرض الدنيا، فلا يقع منه قط، ولا ينبغي أن يقع من جنده فيسند له، ولكنه ﷺ موجّه من الله تعالى لأن يجري في جهاده لإعلاء كلمة الله مع إرادة الله في قصد الآخرة وثوابها، لتبقى دائمًا يده هي العليا في هزيمة أعدائه كلما أظفره الله بهم في ميادين القتال.

رأي أبي حيان في تفسير الآية.

وقد عرض أبو حيان في تفسيره (البحر) لهذا الموقف الذي لم يرتكز في حقائق القصة إلا على الروايات الواهنة الواهية التي اشتملت على ما لا ينبغي في حق الأنبياء وخاتمهم سيد المرسلين محمد ﷺ، والتي وجهت العتاب في الآية إلى جمهور مباشري الحرب كما يفيده أسلوب النص القرآني.

ولكن المتشبثين بزَبَد الروايات، المستعبدين لما ورد فيها من غثاء القول الذي لم يسند إلى صحابي بسندٍ صحيح دون تمحيص يرد ما لا ينبغي أن يقال، ويستمسك بما يصح في العقول وأصول الإيمان ـ جعلوا العتاب موجهاً إلى النبي ﷺ، كما رواه الطبري عن ابن إسحاق وغيره مما لا يمكن أن يثبت في ميزان البحث المدعم بالأدلة والبراهين.

ونحن نسوق كلام أبي حيان لما فيه من الفائدة: قال: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيمٌ. لولا كتابٌ من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ، فكلوا مما غنمتم حلالاً طيِّباً واتقوا الله إن الله غفورٌ رحيمٌ ﴾.

نزلت في أسرى بدر، وكان رسول الله ﷺ قد استشار أبا بكر وعمر وعلياً، فأشار أبوبكر بالاستحياء، وعمر بالقتل، وقرأ أبو الدرداء، وأبو حَيْوة ﴿ ما كان للنبي ﴾ معرفاً، والمراد به في التنكير والتعريف الرسول ﷺ، ولكن في التنكير إبهام في كون النفي لم يتوجه عليه معيناً وهو هنا على حذف مضاف، أي ما كان لأصحاب نبي، أو لأتباع نبي، فحذف اختصاراً، ولذلك جاء الجمع في قوله: ﴿ تريدون عرض الدنيا ﴾ ولم يجيء التركيب تريد أو يريد عرض الدنيا لأنه ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد عرض الدنيا قط، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب.

ثم قال أبو حيان: وقد طوّل المفسرون في قصة هؤلاء الأسارى، وذلك مذكور في السِّيَر، وحذفناه نحن لأن في بعضه ما لا يناسب ذكره بالنسبة إلى مناصب الرسل. إهـ.

ثم ختمت الآية بذكر وصفين من نعوت الكمال الإلهي الذي يقع موقعه من مناسبات الكلام، فجاء قوله: ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ فوصف العزّة

إلماع للغلبة القاهرة والقوة الباطشة، ووصف الحكمة إيذان بما في هذا العتاب لجمهور المحاربين المؤمنين من وضع الأمر في موضعه، وتوجيه العتاب لمستحقيه، وتثبيت للنبي ﷺ على سجيته من عدم إرادته قط عرض الدنيا لأنه منزّه عنه، وعن أسبابه وموجباته، ومنفي عن ساحته فلا يقع منه، ولا يأمر بأسبابه ودواعيه، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي ـ أي نبي ـ أن يكون له أسرى حتى يثخنَ في الأرض﴾ وهو ظاهر جلي في أنه ليس فيه رائحة عتاب له ﷺ، فمن زعمه وقال به فإنما حسابه عند ربه.

تحقيق وبيان لمعنى الآية الثانية.

ثم قال تعالى: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ و(لولا) حرف شرطي امتناعي يفيد أن وجود شرطه مانع من وقوع جوابه، والمعنى لولا وجود كتاب سابق في علم الله الأزلي بأنكم يا أهل بدر لا يعذبكم الله على ما صدر ويصدر منكم من هفوات المخالفات لما كان منكم من مواقف في نصرة الدعوة إلى الله خلّدت ذكركم في تاريخ الحياة، فكنتم بها أفضل أصحاب محمد خاتم النبيين ﷺ، وأفضل أتباع جميع الأنبياء والرسل ـ لمسَّكم من الله فيما أخذتم من الغنائم قبل الإثخان عذابٌ عظيمٌ.

أوالمراد بالكتاب السابق ما سُطِّر في علم الغيب من إحلال الغنائم لكم خاصة دون غيركم من سائر أمم الرسل ـ لمسكم في إسراعكم لها وجمعها قبل أن ينزل لكم الأمر بحلِّها عذاب من الله عظيم، لأنكم ولّيتم وجوهكم شطر الدنيا وعرضها الزائل مما لا يليق بمكانتكم عند الله، ولكنكم أدرككم ضعف البشريّة، فحاد بكم عن نهج كمالكم التربوي في ظل الإيمان، وزيَّن الدنيا في أعينكم فرضيتموها بديلاً عن تساميكم لإرادة الآخرة التي أعدَّها الله لكم بما فيها من نعيم مقيم.

فأنهيتم معركة الشرف والعزة وأنتم في أوج نصرها، وخضتم معركة الغنائم والأسر، واستبقيتم الرجال المحاربين لكم لتفادوهم، فكنتم سبباً في أن ينسب إلى نبيكم خاتم النبيين وسيد المرسلين ما لا ينبغي أن ينسب إليه مما هو منفيٌّ عنه ومنزّه أن يقع منه، وهو أن يكون له أسرى باستبقائكم الرجال قبل الإثخان في الأرض، لكن الكتاب الأزلي سبق من الله تعالى

فعصمكم أن يمسكم من الله عذاب عظيم.

اعتماد جمهور المفسرين في تفسير الآيات على روايات أسباب النزول.

وهنا تتدخل روايات أسباب النزول لتفسر بها الآية، وأسباب النزول كما قلنا مراراً ليست تفسيراً للآيات التي تنزل عندها، وهي أحداث ووقائع خاصّة نزلت الآيات لتعطيها حكمها في ضمن ما تفيده من أحكام عامة، فهي نماذج تطبيقية وليست تفسيراً للآيات، وهذا إذا صحت أسانيدها واتفقت مناسباتها ولم تختلف في معانيها وحقائقها، ولم تتكرر دواعيها.

والذي ورد منها في هذه الآية كاف لتصوير التكرار والاختلاف بالزيادة والنقص، والتقديم والتأخير، والاطلاق والتقييد، مما يجعل الاعتماد عليها مشوباً بالاضطراب الذي يضعف الاعتماد عليها.

يقول أبو جعفر الطبري: يقول الله تعالى ذكره لأهل بدر الذين غنموا وأخذوا من الأسرى الفداء: ﴿ لولا كتابٌ من الله سبق ﴾ يقول: لولا قضاء من الله سبق يا أهل بدر في اللوح المحفوظ بأن الله محلٌّ لكم الغنيمة، وأن الله قضى فيما قضَى أنه لا يُضل قوماً بعد إذْ هداهم حتى يبيِّن لهم ما يتقون، وأنه لا يعذب أحداً شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسول الله ﷺ ناصراً دين الله؛ لنالكم من الله بأخذ الغنيمة والفداء عذابٌ عظيمٌ.

ثم ذكر أبو جعفر الآثار الواردة عن أهل التأويل مبيِّناً أنّ كل أثر منها يختص بمعنى من المعاني المتعددة المختلفة التي ذكرها، وقد أطال في ذلك مع اختلاف في الروايات بالزيادة والنقص، وذكر بعض المعاني التي لا يتطلبها المقام، وذكر بعض المعاني التي فيها شذوذ عن المقام وبُعد عن المقصود.

رأي الطبري في معنى الآية.

ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما قد بيّناه قبل، وذلك أن قوله: ﴿ لولا كتابٌ من الله سبق ﴾ خبر عام غير مخصوص على معنى، وكل هذه المعاني التي ذكرتها عمن ذكرت مما قد سبق في كتاب الله أنه لا يؤاخذ بشيء منها هذه الأمة، وذلك ما عملوا من عمل بجهالة، وإحلال الغنيمة والمغفرة لأهل بدر، وكل ذلك مما كتب لهم، وإذا كان ذلك كذلك فلا وجه لأن يخص من ذلك معنى دون معنى، وقد عمَّ الله الخبر بكل ذلك بغير دلالة توجب صحة القول بخصوصه.

وهذا الذي ذكره أبو جعفر رحمه الله جامع لما تفرّق في الروايات المتعددة المختلفة، لكنَّ إدخاله الروايات التي تجعل ما أخذ من فداء الأسرى في ضمن الروايات المفسرة للمراد بكتاب الله تعالى السابق في علمه الأزلي غير مسلّم، لأن أخذ الفداء من الأسرى لا دخل له في عتاب المؤمنين، بَلْهَ عتاب سيد المرسلين محمد ﷺ، وإنما كان العتاب للمؤمنين على تركهم الإثخان في العدو، ومسارعتهم لإنهاء المعركة واشتغالهم بجمع الغنائم واستبقاء الرجال وأخذهم أسرى.

وهذا هو الذي ذكره الطبري عن الحسن، والأعمش من قوله وروايته عن أبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً، كما يوقف عليه عند النظر في تفسير أبي جعفر رحمه الله، وهو أيضاً عند الطبري قول الضحّاك وعطاء.

وفي تفسير ابن كثير أن هذا هو اختيار الطبري، ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي» ثم ذكر من هذه الخصائص الخمس قوله ﷺ: «وأحلَّت لي الغنائم، ولم تحلّ لأحدٍ قبلي».

وفي كل هذه الآثار والروايات انصب الكلام على جمع الغنائم في أثناء الحرب قبل الإثخان في العدو الذي استلزم استبقاء الرجال وأخذهم أسرى.

وفداء الأسرى وإن كان يدخل في الغنائم بمعناها العام لكنه لا يدخل في أسباب العتاب الذي توجه على جمهور المحاربين من المجاهدين، لأنه كان حلالاً قبل بدر كما وقع في أسيري سريّة عبدالله بن جحش.

وقد طوّل المفسرون وأرباب المغازي والسِّيَر الكلام في هذا الموضع، وعدّدوا الروايات المتعارضة وأكثروا من إيرادها دون تنبيه على ما فيها من الاختلاف والتعارض، وأدخل بعضهم فداء الأسرى في الغنائم التي كان الإسراع إليها قبل الإثخان في المعركة بكثرة القتل في العدو وكثرة الجراحات في رجاله هو منشأ العتاب الموجّه إلى جمهور المؤمنين المحاربين في صدر الآية ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾، وقد عرفنا أن بعض المفسرين ذهب إلى

أن الكلام على حذف مضاف تقديره: ما كان لأصحاب نبي ولا لأتباع نبي أن يتسبّبوا في أن يكون لنبيهم أسرى قبل الإثخان، وإذاً فلا دخل مطلقاً للنبي ﷺ في توجّه شيء من العتاب له، لأنه منزّه عن أسبابه، وهي منفيّة، عنه، فلم تقع منه ولا ينبغي أن تقع.

إجمال في الوضع في قصة الأسرى.

والواقع الذي تدل عليه الآيات أن هناك مقامَين منفصلين: المقام الأول هو مقام الاستعجال في إنهاء الحرب بمجرد ظهور بوادر النصر قبل الإثخان في الأرض بكثرة القتل في العدو والمبالغة في جراحاته لكسر شوكته، وتوهين قوته، والاشتغال بجمع الغنائم واستبقاء الرجال وأخذهم أسرى.

وهذا ما بيّناه في كلامنا على الآية الأولى، وأنه هو الذي كان منشأ العتاب للذين سلكوا هذا المسلك من جمهور المجاهدين، ممّا لم يأمر به رسول الله ﷺ ولم يرضَه وهو القائد الأعظم الذي كان يجب أن تسمع كلمته في الموقف، ويعمل بها ويرجع إليها.

المقام الثاني: مقام فداء الأسرى، وهذا المعنى لم يأت صريحاً في نص الآيات الخمس، وإنما وردت فيه أحاديث وآثار مختلفة، يذكر في بعضها ما لم يذكر في غيرها، وقد اتكأ عليها الباحثون من المفسِّرين وغيرهم، وجعلوها تفسيراً للآيات باعتبارها أسباباً للنزول لما جاء فيها من الأحداث والوقائع التي تتصل بالموضوع، وقد نبَّهنا مراراً إلى أن ما يقال له من الآثار والأحاديث أسباب نزول الآيات لا يصلح أن يكون تفسيراً لها، لما فيها من اختلاف الحوادث والوقائع والأشخاص والأماكن والأزمان.

وتحقيق القول في هذا المقام أن النبي ﷺ أمر بتخيير أصحابه بين أخذ الفداء من الأسرى وإطلاقهم أحراراً، ويقتل من المؤمنين في عام مقبل مثل عدد الأسرى الذين فُودُوا وأطلقوا، وبين أن يقتلوا الأسرى ويسلم المؤمنون كما أخرجه عبد بن حُميد بسنده، وقد عرض النبي ﷺ هذا التخيير على أصحابه فاختاروا أخذ الفداء من الأسرى ليتقووا به على أعدائهم، ويستشهد منهم في عام مقبل أمثال عدد الأسرى الذين فادوهم، واطلقوهم من الأسر في مقابل الفداء.

ولما عرض رسول الله ﷺ هذا التخيير أخرجه مخرج المشاروة لأصحابه في شأن الأسرى ليكشف عما يدور في أنفسهم، مع ما في ذلك من تطييب خواطرهم.

وقد أخرج حديث التخيير الحاكم ـ وصحّحه ـ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ للأسارى يوم بدر: «إن شئتم فاقتلوهم، وإن شئتم فاديتم، واستمتعتم بالفداء، واستشهد منكم بعدّتهم» وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة عن أبي عبيدة رضي الله عنه، قال: نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ يوم بدر، فقال: إن ربك يخيِّرك: إن شئت أن تقتل هؤلاء الأسرى، وإن شئت أن تفادي بهم، ويقتل من أصحابك مثلهم، فاستشار النبي ﷺ أصحابه، فقالوا: نفاديهم فنتقوى بهم، ويكرم الله بالشهادة من يشاء.

أشهر الأحاديث في المشاورة وأقواها سنداً وبياناً لمصير الأسرى.

وقد جاءت في هذه المشاورة روايات متعددة، من أشهرها وأكثرها تفصيلاً وأصحها سنداً حديثان أحدهما أخرجه مسلم في صحيحه عن عمر ابن الخطاب ورواه عنه ابن عباس برواية أبي زُميل، ولم يذكر فيه شيء عن التخيير، والتخيير ليس حكماً، وإنما هو طريق للوصول إلى الحكم الذي يستقر عليه الأمر.

أما الحديث الثاني فقد أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسّنه وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ونحن نورد هذين الحديثين لأنهما مدار الباحثين في موضوع أخذ الفداء من أسرى بدر، وننبه على ما بينهما من اختلاف، ونستخرج ما فيهما من دلالة على أن أخذ الفداء لم يكن موضع عتاب على المؤمنين المجاهدين فضلاً عن رسول الله ﷺ المنزّه بمقتضى أسلوب الآية عن أن يقع منه في هذا المقام ما يستوجب العتاب.

ونص حديث مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق أبي زُميل قال: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما

ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: هم بنو العم والعشيرة أرى أن نأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكّنا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان (نسيب لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وصناديدها. فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلت، فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم بالفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة من نبي الله ﷺ - وأنزل الله عز وجل: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرَى حتى يثخن في الأرض﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ فأحلَّ الله الغنيمة لهم.

وأما الحديث الثاني فقد قال السيوطي في (الدر): وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي - وحسنه - وابن المنذر وابن أبي حاتم، والطبراني، والطبري، والحاكم - وصححه - وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود، قال: لما كان يوم بدر جيء بالأسارَى، وفيهم العباس، فقال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم، لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: كذَّبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، قدِّمهم فاضرب أعناقهم، وقال عبدالله بن رواحة: انظر وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم، فقال العباس وهو يسمع: قطعت رحمك. فدخل رسول الله ﷺ ولم يردّ عليهم شيئاً، فقال ناس: يأخذ برأي أبي بكر رضي الله عنه، وقال ناس: يأخذ برأي عمر، وقال ناس: يأخذ برأي عبدالله بن رواحة.

فخرج رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله ليلينُ قلوب رجال فيه حتى

النبي ﷺ يضرب المثل لصاحبيه الصديق والفاروق بالأنبياء الرسل في رقة العاطفة وفي شدَّة الدين.

تكون ألين من اللبن، ويشدِّد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، **مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: (فمن تبعني فإنه مني، ومن عصاني فإنك** غفور رحيم) ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال: (إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم).

ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال: (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً) ومثلك يا عمر كمثل موسى إذ قال: (ربنا اطمس على أموالهم، واشْدُد على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) أنتم عالة فلا ينفلتنَّ أحدٌ منهم إلا بفداء أو ضربة عنق) فقال عبدالله ابن مسعود إلا سهل بن بيضاء، فإنه سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، قال عبدالله: فما رأيتني أخوف أن تقع عليّ الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ إلى آخر الآيتين.

وهاتان الروايتان ذكرهما أبو جعفر الطبري في تاريخه بسنده، ولم يخرجهما بتفصيل في تفسيره، وأخرجهما القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) وأسند أولاهما إلى مسلم، والثانية إلى يزيد بن هارون بسنده، وجاءت منهما قطع متفرقة عند كثير من المفسِّرين وأرباب المغازي والسِّيَر.

والاختلاف بين روايتي حديث المشاورة في أخذ الفداء من الأسرى يبدو في:

مواطن الاختلاف بين الروايتين.

أولاً: أن رواية مسلم، وهي من رواية ابن عباس عن عمر بن الخطاب، اقتصرت على توجيه الحديث في الاستشارة على الشيخين: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما باعتبارهما أفضل الصحابة رأياً، وأنفذهم في حل المعضلات فكراً، وأقربهم إلى رسول الله ﷺ منزلة، فكانا منه السمع والبصر، وأعمقهم معرفة بأسباب الحوادث، وأحكمهم سياسة في الوصول إلى وضع الأمور في مواضعها، وألزمهم وجوداً في مجالس رسول الله ﷺ ومحاوراته واستشاراته، فقلّما غابا عن حادث مهم، فرأيهما معبر أكمل تعبير عن رأي المجتمع المسلم في جانبيه الرحيم الرؤوف، والشديد القوي الأمين، وقلّما

خرجت آراء أفراد المجتمع المسلم وجماعاته عن رأيهما.

ثانياً: إن رواية مسلم اشتملت على عبارة (فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلتُ) وهي من قول عمر الاجتهادي، ولعلّ عمر رضي الله عنه أخذ هذا المعنى من معرفته الصادقة بغلبة جانب الرحمة والشفقة على خَلْق الله عامة على طبيعة رسول الله ﷺ؛ لأن النبي ﷺ لم يقع منه تصرف يشعر بذلك عقب حديث المشورة منهما مباشرة، بل سمع منهما وسكت، ثم دخل بيته ومكث زمناً ذهب فيه الناس مذاهب بما يأخذ به رسول الله ﷺ.

تخيير النبي ﷺ في حكم الأسرى.

ولعله ﷺ جاءه التخيير في هذا الوقت، فاختار ﷺ ما شاء الله له اختياره، والتخيير إباحة لمحظور، أو تسوية بين مباحين، وهو إنما وقع بين أمرين انتهت إليهما المشاورة، فاختار منهما ﷺ ما جبله الله عليه مما ترتب عليه خير كثير للإسلام والمسلمين؛ لأن الإبقاء بعد القدرة على القهر والتنكيل والقتل من أكرم مكارم الأخلاق وتحبيب الإيمان إلى القلوب، وقد كانت نتيجة ذلك أن حمل هؤلاء الأسرى وذرياتهم لواء الدعوة إلى الله، يدعون لدينه الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ المرسلِ رحمة للعالمين، فهم الذين فتحوا البلاد وأنقذوا العباد، واهتدى بهم الضُّلّال، وأقيمت موازين العدالة والإخاء والمساواة، وقادوا الإنسانية إلى آفاق حضارة مؤمنة، لا يظلم في ظلها أحد.

ولم يكن ما كان من قبيل أن النبي ﷺ هويَ رأياً فاختاره، ولم يهو رأياً فتركه، وإنما كان من قبيل السياسة الحكيمة التي تزرع في النفوس المودة والمحبة.

ثالثاً: إن رواية مسلم ختمت بهذه الجملة: (فأحلّ الله الغنيمة لهم) والغنيمة في العرف العام إنما يراد بها ما يؤخذ من المحاربين في الموقعة، وهي بهذا الإطلاق الأعم الأغلب لا يدخل فيها فداء الأسرى، وبذلك يخرج فداء الأسرى عن نطاق العتاب.

أما الحديث الثاني برواياته المتعددة التي خرّجه بها عدد من المفسرين

وأرباب المغازي والسِّيَر فقد جاء فيه ضرب النبي ﷺ لصاحبيه اللذين شاورهما، فأشار كل منهما بما رآه، المثل بالأنبياء والمرسلين، فجعل أبا بكر رضي الله عنه في لينه ورأفته ورحمته وإشفاقه مثل إبراهيم وعيسى عليهما السلام، وجعل عمر في شدته وصرامته مثل نوح وموسى عليهما السلام.

والمعروف المتعالم أن رسول الله ﷺ كان أرحم الخلق بالخلق، وأشفق الناس على الناس، طبيعة خلقه الله عليها، ولم يُخيَّر ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما وأرفقهما وأرحمهما بأمته ومجتمعه المسلم الذي أقامه على المواساة في الحب والمؤاخاة.

والكلام في هذه الرواية المتعدِّدة التخريج كان مع جمهور الصحابة على مسمع من الأسرى الذين ذكر فيهم العباس عمّ رسول الله ﷺ، وقد اشترك في المشاورة عبدالله بن رواحة الأنصاري، وأشار برأي تناهَى في الشدّة، طلب فيه من رسول الله ﷺ أن يعمد إلى وادٍ كثير الحطب فيضرمه عليهم ناراً، فسمعه العباس فقال له: (قطعتَ رحمك) وهذه اللفظة اختلف ضبطُها في كتب الرواة، فضبطها بعضهم (قُطِعَت) بالبناء للمجهول، فتكون دعاء على ابن رواحة، لأنه أشار بهذه البشاعة المفظعة التي تقطع الأرحام وتفسد القرابات، وضبطت في مواضع أخرى (قَطعْتَ رحمك) بالبناء للفاعل وتاء المخاطبة، فتكون من باب اللوم والاستنكار.

وقد ذكر الرازي في تفسيره أن النبي ﷺ قال لعمر حين أشار بما أشار به من الشدة: «يا أبا حفص تأمرني بقتل العباس؟» فجعل عمر يقول: ويل لعمر ثكلته أمه، ويؤيد رواية الرازي ما جاء في سياق كتب المغازي: وفي بعض الروايات أن عمر قال في مشورته: وتأمر حمزة بقتل العباس. ويظهر أن هاتين الروايتين كانتا عماد الدائرين في محور إدخال قضية فداء الأسرى في آية ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ قصداً إلى أن يسري ما فيها من عتاب لجمهور المجاهدين الذي أنهَوا المعركة ـ دون إذن من النبي ﷺ وانصرفوا إلى جمع الغنائم واستبقاء الرجال قبل الإثخان ـ على أخذ الفداء من الأسرى إلى ساحة النبي ﷺ.

هاتان الروايتان هما عماد من حاول إدخال فداء الأسرى في آية ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾.

وهذا بعيد عن منطوق الآية، مفهومها، وأسلوبها لا يشعر به ولا يفيده، لأن موضع العتاب فيها قوله تعالى: ﴿ تريدون عَرَض الدنيا ﴾ ومصبه الإسراع في إنهاء المعركة بغير أمر من النبي ﷺ، وإنما لجمع الغنائم واستبقاء الرجال، وهو عَرَض الدنيا الذي أرادوه، فعاتبهم الله تعالى عليه، قبل أن تأتيهم قضية فداء الأسرى.

ويدل لهذا حديث سعد بن معاذ رضي الله عنه، وكراهيته لإنهاء المعركة قبل الإثخان في التنكيل بالعدو تنكيلاً يبلغ من العدو غايته في كثرة القتل والجراحات، وأما أخذ الفداء من الأسرى فلم يكن قط موضع عتاب، لأن رسول الله ﷺ خيّر بين أخذه وإطلاق الأسارى وبين قتلهم، وهذا هو نص قوله ﷺ في الحديث الثاني: «أنتم عالة، فلا ينفلتنّ أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق» وفي هذا النص ميل إلى اختيار أخذ الفداء كما يشعر به قوله ﷺ لأصحابه: «أنتم عالَة» أي فقراء محتاجون إلى ما يريشكم لتتقوا على أعدائكم.

الاختلاف في ربط أخذ الفداء بالآية الأولى أو بما بعدها.

ومن هنا اختلفت روايات كثيرة في ربط أخذ الفداء من الأسرى بهذه الآية ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ﴾ أو بما بعدها، ففي حديث أنس عند أحمد أن أبا بكر قال: نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، فنزل ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ الآية، وأخرج نحوه ابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طريق نافع عن مولاه عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما، وفي آخره: فأخذ رسول الله ﷺ بقول أبي بكر ففاداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾.

وحينئذ تكون هذه الآية من قبيل التذكير والامتنان عليهم بنعمة إعلامهم حلّية أكل ما أخذوه من الغنائم، ولهذا جاء التفريع في قوله تعال: ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴾ فوصفه بوصفين عظيمين يجمعان خلوصه من شائبة التبعية، وثقل المسؤولية، إلى ميل النفوس إليه واستطعامه، ومهنئه وحلاوة مذاقه ويسر التصرف فيه، والانتفاع به، فقال: ﴿ حلالاً طيباً ﴾ ثم

أمرهم بتقوى الله لتدوم لهم نعمه عليهم، ويزدادوا أعظم منها، لأن التقوى في هذا المقام بمثابة الشكر، قيد للنعمة وإنماء لها، ثم زادهم إنعاماً فأطمعهم في عفوه ومغفرته فقال: ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أي فلا تبتئسوا بما صدر منكم من إنهاء المعركة والاشتغال بجمع الغنائم واستبقاء الرجال من قبل الإثخان في الأرض، لأن الله عفا عنكم وغفر لكم بإحسانه ورحمته.

فأخذ الفداء من الأسرى لم يدخل قط في إطار العتاب، لأن النبي ﷺ وافق عليه بعد مشاورة أصحابه أو اختاره بتخيير جبريل عليه السلام كما في حديث الترمذي، والنَّسائي، وابن حبّان، والحاكم، وقال عنه ابن حجر بإسناد صحيح.

ما وقع في سرية عبدالله بن جحش قبل بدر القتال قاطع في مشروعية مفاداة الأسرى.

والذي يقطع بعدم دخول الفداء من الأسرى في إطار العتاب للذين أرادوا عَرَض الدنيا من المحاربين المجاهدين ما وقع في سرية عبدالله ابن جحش، وكانت قبل بدر العظمى، وبعد بدر الأولى، ففادى رسول الله ﷺ الحكم بن كَيْسان مولى هشام بن المغيرة، وعثمان بن المغيرة، وكانت سرية عبدالله بن جحش قد أسرتهما، وبعثت قريش في فدائهما، فقبل رسول الله ﷺ الفداء، وهذا كالمجمع عليه، فكيف ذهب من عقول المتشبثين بإدخال فداء الأسرى في إطار العتاب؟ والقصة مذكورة بتفاصيلها في كتب التاريخ والمغازي والسِّيَر والتفسير.

فمن أدخل فداء أسرى بدر في سببية العتاب فقد اشتبهت عليه معالم الطريق، وضرب في بيداء الروايات المختلفة المتخالفة التي كثيراً ما كانت مضلة، يعسر الخروج منها.

والذي يؤكد ما قلناه قوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إنْ يعلمِ الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً ممّا أخذ منكم، ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ لأن الله تعالى جعل هذه الآيةالكريمة وعداً كريماً لمن كانوا تحت يدي رسول الله ﷺ وأيدي أصحابه المجاهدين من الأسرى الذين اشتد عليهم ما أُخذ منهم من الفداء، كما يدل له قول العباس حينما قال له النبي ﷺ: «افدِ نفسك وابني أخويك نوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي

طالب وحليفك عتبة بن عمرو»: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لي ما في الدنيا من شيء، فلقد أعطاني الله خيراً مما أخذ مني، مائة ضعف، وأرجو أن يكون الله غفر لي. وكما يدل له ما جاء في حديث أبي هريرة عند ابن مردويه الطويل: فلما أحلَّ الله لهم فداءهم وأموالهم قال الأسرى: ما لنا عند الله من خير، قتلنا وأسرنا فأنزل الله يبشرهم ﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى ﴾ إلى قوله: ﴿ والله عليم حكيم ﴾ وقد أسلم من هؤلاء الأسرى عدد كبير، يشمل جمهورُهم الكثيرَ من أشراف قريش الذين كانوا أصدق دعاة للإسلام وأقوى حملة لواء دعوته ونشر رسالته بعد إسلامهم.

أسماء بعض من عرف إسلامه من الأسرى ومواقفهم في نشر الدعوة بعد إسلامهم.

وقد ذكر الباحثون أسماء جماعة ممن أسلموا، كان من أفضلهم العباس وابنا أخويه نوفل بن الحارث وعقيل بن أبي طالب، وأبو العاص بن الربيع صهر رسول الله ﷺ، وأبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، والسائب ابن عبيد، وعدي بن الخيار، والسائب بن أبي حُبَيش، وأبو وداعة السهمي، وسهيل بن عمرو، وخالد بن هشام المخزومي، وعبدالله بن السائب، والمطّلب بن حنطب، وعبدالله بن أبيّ بن خلف، وعبد الله بن زمعة أخو سودة بنت زمعة أم المؤمنين رضي الله عنها، ووهب بن عمير الجمحي، وقيس ابن السائب المخزومي، ونسطاس مولى أمية بن خلف، والوليد بن الوليد، وكان النبي ﷺ يدعو له في القنوت لأن قريشاً حبسته بعد أن افتكوه من الأسر، وذهبوا به إلى مكة، فأسلم هناك وعذّبوه، ثم أنجاه الله ببركة دعاء النبي ﷺ له، وهاجر إلى المدينة، ومات بها في حياة النبي ﷺ، ومن لم يسلم منهم فقد أعطَوا للمجتمع المسلم من ذراريهم كتائب من أبطال الجهاد وجند الفتح الإسلامي الذي نشر جناحيه على آفاق المعمور من الأرض، فأضاء الحياة بنور الرسالة الخالدة الخاتمة لرسالات السماء، فنبتوا في أرجاء الأرض دعاة إلى الله وهداة إلى الحق والخير، يحملون في أيمانهم كتاب الله الحكيم مفتوح الصفحات مشرق الكلمات، يهدي إلى صراط الله العزيز الحميد، ويرفعون بشمائلهم سيوف الحق ماضية في طريقها لتخليص الإنسانية من رقِّ العبودية للمخلوقين، وليخرجوها من ظلمات الوثنيات إلى ساحة الإيمان بالله الواحد

المعبود، وليحرروها من رق الطغيان والظلم، ويدخلوها تحت راية العدل الرحيم والإخاء الكريم والمساواة في الحقوق والواجبات.

كان استبقاء الأسرى والعفو عنهم بأخذ الفداء منهم من توفيق الله.

فهل يعقل أن يكون تحتيم قتل هؤلاء الأسرى هو شرع الله دون أن يكون لهم منفذ إلى النجاة للدخول في ساحة الإيمان والجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق، وبسط سلطان العدل، ونشر رسالته على العالمين؟ هذا بعيد جداً عن مقاصد أكرم رسالة ختم الله بها رسالاته السماوية، وأكرم بها الإنسان الذي جعله الله بفضله أكرم مخلوق، وسخّر له ما في السموات وما في الأرض، ورزقه العقل ليكشف أسرار الكون وكنوز الطبيعة، لتكون سبيله إلى معرفة جلال الله وعظمته ومحكم تدبيره حتى يفرده بالعبادة في شتى صورها وأشكالها المشروعة بوحيه إلى أنبيائه ورسله.

فوضع الأسرى ليس كوضع المعركة وهي تدور رحاها تطحن رؤوس الكفر والفجور الذين نابذوا الحق منابذة مضطغنة حاقدة، أعمَتْ أبصارهم وبصائرهم عن النور الذي جاءهم به رسول من أنفسهم ليرفع خسيستهم، ويجعلهم سادة الدنيا، فأبَوا إلا أن يحاولوا إطفاء نوره حسداً من عند أنفسهم، فكان لا بد لهؤلاء الفجرة من كسر شوكتهم وتوهين قوتهم وتقتيلهم تقتيلاً يفقدهم الحياة ويفقد من بقي منهم الحركة لمواقفة أجناد الله المجاهدين، وهذا هو المراد بالإثخان في الآية، ليبسط عليهم سلطان المجتمع المسلم ليحكم فيهم بحكم الله تعالى.

فإذا أخذ منهم من لم يرج منه حركة نظر في أمره بما تقتضيه مصلحة الإسلام ومجتمعه، فإن رؤي فيهم استعداد لقبول الحق والخير والهدى فتح لهم أبواب النجاة، وفاداهم بما يقوِّي المسلمين مادياً، وإن رؤي فيهم استمرار على الفجور والكفر استنطقت للحكم فيهم السيوف بصليلها في أعناقهم حتى تذيقهم مرارة الموت مدحورين.

ويدل لهذا قول النبي ﷺ في حديث أنس عند أحمد، وهو يستشير أصحابه: «إن الله أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس» قال الزرقاني: فيه ترقيقهم عليهم واستعطافهم، لأن العفو بعد المقدرة من شيم الكرام.

وقد كانت مشورة عمر مغضبة للنبي ﷺ، **وكانت مشورة أبي بكر** بالعفو مذهبة لما اعترى النبي ﷺ من الغم، قال القسطلاني في المواهب بعد أن ذكر مشورة أبي بكر بالعفو عنهم وقبول الفداء منهم: فذهب من وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم، وقبل الفداء منهم، وقال لأصحابه: «أنتم عالة فلا ينفلتنّ أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق».

كان النبي ﷺ بما جبل عليه من الرحمة يحب الرحمة والإحسان.

وإذا كان وضع الأسرى ليس كوضع المعركة وهي دائرة والنصر ترفرف أعلامه على رؤوس جند الله المجاهدين، وكان وضع المعركة مقتضياً للإثخان بكثرة القتل والجراحات في الأعداء، وكان وضع الأسرى مقتضياً للنظر والمشاورة لاختيار ما يحقق مصلحة المجتمع المسلم. كان في موقف المجاهدين في المعركة بسرعتهم إلى إنهائها والاشتغال بجمع الغنائم واستبقاء الرجال ما يقتضي العتاب للذين يريدون عرض الدنيا ويعرضون عن ثواب الآخرة، فكانوا كالذي اشترى فانياً ملء بالغصص والأكدار بدائم لا يزول ولا يحول، لا تلحقه غصص ولا مكدِّرات، فعاتبهم الله على ذلك.

ثم تفضّل عليهم بألطافه وإحساناته فرفع عنهم مرارة العتاب بإخبارهم أن كتابه الأزلي الذي سبق بقضائه لهم أن لا يعذبهم على ما كان منهم، وأن ما غنموه كان في ذلك الكتاب السابق حلالاً لهم، لا تبعة عليهم في أكله والانتفاع به، وهو طيب تشتهيه النفوس الكريمة وترغب فيه.

لطف الله تعالى بالمجاهدين بعد العتاب ليرفع عنهم مرارته وشدّته.

وكان درس العتاب درس تربية لهم، لا درس عقوبة، ولذلك ختمت آية العتاب بوصفَي العزّة والحكمة فجاءت فاصلتها ﴿ والله عزيزٌ حكيمٌ ﴾ ليبقى للعتاب أثره الدائم في التربية السلوكية، وختمت آية التفضل بالعفو بوصفي المغفرة والرحمة ليثلج صدورهم بإنعامه عليهم بنعمة العفو، وعدم مس العذاب لهم لأنهم كانوا الدعامات الأولى التي قام عليها بناء الدعوة بالتضحية بالنفس والمال في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر دينه وتبليغ رسالته.

وقد أبانت الروايات أن رسول الله ﷺ كان كارهاً لموقف الذين تعجّلوا إنهاء المعركة وجمع الغنائم واستبقاء الرجال قبل الإثخان في الأرض، وقد مكّنهم الله من عدوهم.

كان ما وقع من القتل والأسر لأعداء الله محققاً للإثخان في أدنى صوره.

ولعله ﷺ رأى باجتهاده أن ما تمّ من النصر محقق للإثخان في الأرض بما سيكون له من أثر بالغ في إشاعة الهزيمة بين من لم يشهد المعركة من قريش ومن يناصرها من القبائل حولها، وقد تحقق ذلك وأصاب قريشاً من الغم والحزن والذل مانكّس رأسها، وأحرق أحشاءها، وشوى أكبادها، وأسكتها غيظاً، ومنعها النوح على قتلاها من الأشراف والصناديد، فكان ذلك من أشد ما أصيبت به من البلاء.

قال ابن كثير في تاريخه: وكان هذا من تمام ما عذّب به الله أحياءهم في ذلك الوقت وهو تركهم النوح على قتلاهم، فإن البكاء على الميت مما يبلّ فؤاد الحزين.

وقال ابن إسحاق: وكان الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده: زَمْعة، وعقيل، والحارث، وكان يحب أن يبكي على بنيه، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل، فقال لغلام له ـ وكان قد ذهب بصره ـ هل أحلّ النحب؟ هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلي أبكي على أبي حكيمة يعني ولده زمعة ـ فإن جوفي قد احترق.

أما وضع الأسرى فكان مختلفاً عن وضع المعركة، لأن الأسرى أصبحوا تحت أيدي المسلمين مملوكين لهم، مرعوبين منهم، مفزّعين من خوف ما يحل بهم، يكاد يقتلهم ترقب المجهول الذي ينتظرهم.

كان التصرف في أمر الأسرى بأخذ الفداء والعفو رفقاً بالمسلمين لضيق ذات يدهم.

وقد أبدى كثير منهم استعدادهم لاعتناق الإسلام ومناصحتهم لرسول الله ﷺ، وأظهروا من الضراعة والمذلّة ما بلغ بهم كل مبلغ، وإبقاؤهم تحت أيدي المسلمين دون تصرف في شأنهم عبء ثقيل على وضع المسلمين الاقتصادي، لأنهم كانوا لايزالون في ضيق من العيش وقلّة في المال، وكان النبي ﷺ قد أوصاهم بالأسرى خيراً، فكانوا يحرمون أنفسهم ويكرمون الأسرى كما تدل على ذلك قصة أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير.

فكان من السياسة الحكيمة أن يفتح باب التصرف في شأنهم، فجمع رسول الله ﷺ أصحابه وشاورهم في أمر الأسرى، وكان الله تعالى قد أباح قبل ذلك مفاداة الأسارى كما سبق أن ذكرناه في الإشارة إلى ما وقع في سرية

عبدالله بن جحش، وكذلك أباح الله له القتل، فقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، كما أباح له المنّ بغير فداء، فمنّ على أبي العاص ابن الربيع، ومنّ على أبي عَزَّة، عمرو بن عبدالله بن عثمان بن أهيب، وكان محتاجاً ذا بنات، فقال لرسول الله ﷺ يستعطفه: يا رسول الله، لقد عرفت ما لي من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال، فمنّ عليّ، فمنّ عليه رسول الله ﷺ، وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحداً، فقال أبو عزة أبياتاً من الشعر، يمدح فيها النبي ﷺ، ولكنه نقض العهد، وشهد مع المشركين أحداً، فأخذ أسيراً، فسأل النبيَّ ﷺ أن يمنَّ عليه مرة أخرى، فأبى رسول الله ﷺ، وقال له: «لا أدعك تمسح عارضيك وتقول: خدعت محمداً مرتين» ثم أمر به فضربت عنقه، وتقول بعض الروايات أن أبا عَزَّة هذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» ويقول أهل الحذق في الأدب: وهذا من الأمثال التي لم تسمع إلا منه ﷺ.

كان اختيار النبي ﷺ أرفق بالأسرى وأصلح للمسلمين.

وكانت مشاورة الصحابة في أمر الأسرى انتهت إلى رأيين، رأي أبي بكر ومن تابعه بالعفو عنهم وأخذ الفداء منهم، ورأي عمر ومن وافقه بقتلهم، وصوّب رسول الله ﷺ الرأيين بما ذكره من ضرب المثل للشيخين بالأنبياء، ولكنه ﷺ اختار بتوفيق الله وتسديده من الصواب أرفقه وأرحمه وأصلحه لحال المسلمين، فاختار المفاداة بالمال أو تعليم عشرة من غلمان المسلمين القراءة والكتابة عن كل أسير لا يفدي بنفسه بالمال أو القتل لمن لم يقدِّم في فدائه مالاً، أو تعليماً للقراءة والكتابة.

وبقي له ﷺ حق المنّ على من يرى أن في المنّ عليه مصلحة للمسلمين، وهذا الوضع هو الذي يدل عليه فحوى الآيات ومنطوق الروايات التي قيل إنها أسباب نزول الآيات، وهو موضع يضع النبي ﷺ في الذروة من الحكمة في سياسة مجتمعه المسلم، فلم يلحقه ﷺ قط شيء من العتاب في قضية أسرى بدر، ولا في سير المعركة التي حقق الله بها نصراً لم تشهد الحياة مثله.

ثم ختم الله تعالى آيات قصة الأسرى بتهديد الذين كانوا في أيدي

تهديد من يضمر الخيانة من الأسرى بعد إطلاقه.

المسلمين، ووعدهم الله أن يؤتيهم خيراً مما أُخذ من الفداء إذا ظهر حسن نياتهم والوفاء بعهودهم بمناصحة النبي ﷺ وأصحابه فإن الله سيعطيكم في الدنيا والآخرة خيراً مما أخذ منكم، ويزيدكم من فضله فيغفر لكم ما سلف من الكفر والمحادّة له ولرسوله ﷺ، لأنه غفور لمن صدق وعده، رحيم لمن وفّى بعهده، فقال تعالى: ﴿وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليمٌ حكيمٌ﴾ والمعنى أن الله تعالى يقول لنبيه محمد ﷺ: إن هؤلاء الأسرى الذين تحت يدك وأيدي أصحابك الذين زعموا بمعسول القول أنهم يضمرون الإسلام وأنهم على عزيمة مناصحتك ومناصحة أصحابك ـ فلا يظاهرون عليكم عدواً لكم، ولا يقفون منكم موقف عداوة في سِلْم أو حرب، وأنهم على استعداد للدعوة إلى ما تدعون إليه من الهدى والخير ـ إن كانوا يريدون بهذا القول خيانتك والمكر بك وخداعك والغدر بما وعدوك من المناصحة، والخيس بما عاهدوك فلا تأسَ، ولا تبتئس بما يصدر عنهم من خيانة، لأن ذلك ليس شيئاً محدَثاً أحدثوه لك، ولكنه شنشنتهم التي مرنوا عليها وسجيتهم التي طبعوا بها، لأن سوابقهم في سجلات الخيانة والغدر مسطورة تنادي عليهم بأنهم قوم لا عهد لهم، ليس معك ومع أصحابك فحسب ولكنهم لفجور خيانتهم، وعتو كفرهم سبقوا إلى خيانة الله تعالى الذي خلقهم وربّاهم على موائد فضله، فكفروا به وهم المتقلبون في نعمائه وعطائه، السابحون في بحار آياته ودلائل وجوده وبراهين وحدته، الضارعون تحت وطأة قهره، المقهورون بسلطان عزته وجبروته، وهو لهم بالمرصاد، لا يفلتون من قبضة انتقامه وبطشه، وها هو ذا جلّ شأنه أخذهم بخيانتهم فسلطكم عليهم وأمكنكم منهم، فنصركم عليهم وهزمهم هزيمة منكرة، فقتلتم صناديدهم وأسرتم أشرافهم، وأذللتم تعززهم بدنياهم وزخارفها، وكلما عادوا إلى الخيانة عدنا إليهم بالقهر والانتقام، والله تعالى عليم بما يضمرون في مداخل أنفسهم وما يسرون في قلوبهم من إخلاص أو خيانة، حكيم فيما يجازيهم من شاكلات خياناتهم، فلا يشغلنّكم تقلبهم بين الخير والشر والهدى والضلال، فإن الله تعالى حافظكم بعنايته ومتوليكم برعايته، فهو حسبكم يكفيكم شرور خيانتهم

ومكرهم، وهو خير الماكرين الذي لا يفوت تدبيره كيد الكائدين.

رأي غريب لأبي حيَّان ونقده وإظهار زيفه.

ومن غريب ما رأينا في تفسير هذه الآيات ما قاله أبو حَيّان في (بحره) وهو كلام يندّ عن أسلوب الآيات، ويبتعد بها عن مراميها ومقاصدها، ونخشى أن يكون هذا من باب التأويل المحرِّف للكلم عن مواضعه، وعهدنا بأبي حيان ـ غفر الله لنا وله ـ أنه ليس من أرباب الوثبات في التأويل.

قال: والذي أقوله: إنهم كانوا مأمورين أولاً بقتل الكفار في غير ما آية كقوله: ﴿ فاقتلوهم حيث وجدتموهم ﴾ ﴿ فاقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ فلما كانت وقعة بدر، وأسروا جماعة من المشركين اختلفوا في أخذ الفداء منهم وفي قتلهم، فعوتب من رأى الفداء، إذ كان قد تقدم الأمر بالقتل، حيث لم يستصحبوا امتثال الأمر، ومالوا إلى الفداء، وحرصوا على تحصيل المال، ألا ترى إلى قول المقداد حين أمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة بن أبي معيط قال: أسيري يا رسول الله، وقول مصعب بن عمير لمن أسر أخاه: شدّ يدك عليه فإن له أماً موسرة، ثم بعد هذه المعاتبة أمر الرسول بقتل بعض، والمّن بالإطلاق في بعض، والفداء في بعض، فكان ذلك نسخاً لتحتم القتل.

ثم قال تعالى: ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ في تأييدكم ونصركم وقهركم أعداءكم حتى استوليتم عليهم قتلاً وأسراً ونهباً على قلّة عددكم ـ لمسكم فيما أخذتم من غنائمهم وفدائهم عذاب عظيم منهم، لكونهم كانوا أكثر منكم عدداً وعُدداً، ولكنه سهل تعالى عليكم ولم يمسكم منهم عذاب لا بقتل ولا أسر ولا نهب، وذلك بالحكم السابق في قضائه أنه يسلطكم عليهم ولا يسلطهم عليكم.

فليس المعنى لمسَّكم من الله، وإنما المعنى لمسَّكم من أعدائكم كما قال: ﴿ إن يمَسَسْكم قَرْح فقد مسَّ القوم قَرْح مثله ﴾ وقال: ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ أي مّما غنمتم، ومنه ما حصل بالفداء الذي أقرّه رسول الله ﷺ وقال: «لا ينفلتنَّ منهم رجل إلّا بفِدْية أو ضرب عـنق» وليس هذا الأمر منشأ لإباحة الغنائم إذ قد سبق

تحليلها قبل يوم بدر، ولكنه أمر يفيد التوكيد واندراج مال الفداء في عموم ما غنمتم، إذ كان قد وقع العتاب في الميل للفداء ثم أقره رسول الله ﷺ.

هذا كلام ليست له أزمَّة ولا خُطُم، وإنما هو شيء أشبه بهذه السابحات التي تتراءى في أشعة الشمس وأضوائها إذا نفذت من كوّة إلى داخل بيت مظلم تراها تلف وتدور هنا وهناك دون أن تستقر، حتى إذا عمّ البيت نور أضاء أكنافه اختفت دون أثر يدل على وجودها.

التنبيه إلى ما في كلام أبي حيّان من أغاليط.

ولسنا نجد من فسحة الوقت ما يسمح لنا بوقفة مع هذا الكلام لنقده نقداً تفصيلياً يردّه إلى مكانه من جعبة أبي حيّان، ولكنا نرى أن ننبه إلى بعض ما ظهر لنا فيه بقدر ما يسمح به الوقت؛ ليكون في ذلك باعث لمن يقرؤه أن يتعمق في بحثه لعله يجد فيه ما يغري بالحرص عليه، أو يدفع إلى ما عسى أن يكون فيه مما يوجب تنحيته عن الولوج إلى حقائق تفسير القرآن الحكيم.

فأبو حيان كشف في صراحة أن هذا الكلام لم يؤثره عن أحد من سلف الأمة أو خلفها، ولكنه رأي مولّد له من بنات أفكاره، لأنه بدأه بقوله: والذي أقوله، فهو لم يسنده إلى كتاب أو سنة، أو قول صحابي أو تابعي.

ونلاحظ على أبي حيان في هذا الكلام: ـ

غلط أبي حيان في نصوص كلمات القرآن التي استدل بها.

أولاً ـ أن أبا حيان زعم أن الصحابة وسائر المسلمين من بعدهم كانوا من قبل وقعة بدر مأمورين بقتل الكفار في غير ما آية، واستشهد على زعمه بقوله تعالى: ﴿ فاقتلوهم حيث وجدتموهم ﴾ وقوله: ﴿ فاقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾.

وهاتان الجملتان جاءتا في آيات القرآن المتلو تعبداً وإعجازاً بالواو، وهما من سورة النساء، أولاهما برقم (٨٩) والثانية في آية رقم (٩١)، وقد ساقهما أبو حيّان في كلامه بالفاء، فقال: في قوله: ﴿ فاقتلوهم ﴾، وقد أتت الجملة الثانية بالفاء في سورة التوبة، لكن تلاوتها هكذا ﴿ فاقتلوا المشركين حيث ثقفتموهم ﴾ آية (٥) وهي في صورتها المتلوّة مغايرة لما أورده أبو حيّان مغايرة جوهرية، وبعيد جداً أن يقصدها أبو حيان، وأتت الجملة الثانية كما

أوردها أبو حيان بالواو في سورة البقرة آية (١٩١).

والاستشهاد بالآيات يوجب ضبطها بنص التلاوة، ولا سيما إذا كان المستشهد ممن نصب نفسه لتفسير القرآن الكريم، وكان فيه صدراً متقدِّماً.

زعم أبي حيان أنَّ الأمر بقتل الكفار تقدم على غزوة بدر زعم باطل.

ثانياً ـ أن أبا حيان زعم أن الأمر بقتل الكفار كان قبل وقعة بدر كما هو بيِّن في قوله: إذ كان قد تقدّم الأمر بالقتل، والآيتان اللتان استشهد بهما أبو حيّان على تقدّم الأمر بالقتل على وقعة بدر هما اللتان في سورة النساء، وسورة النساء متأخرة النزول عن وقعة بدر، لأنها نزلت بعد سورة الممتحنة التي نزلت بعد سورة الأحزاب النازلة بعد آل عمران التي نزلت بعد الأنفال، وهي سورة بدر، ذكرت فيها قصتها كاملة بمقدماتها ونتائجها، وسورة آل عمران بعد غزوة أحد التي كانت في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، وبدر كانت قبلها بنحو سنة، لأنها بدأت في اليوم السابع عشر من رمضان السنة الثانية، وفرغ منها رسول الله ﷺ عقب رمضان.

فليس لأبي حيان مستمسك في الاستشهاد بجملتي سورة النساء، مع التجاوز عن غلطه في إيرادهما بالفاء، وهما تلاوة بالواو، أما آية البقرة وهي الآية الثانية في استشهاد أبي حيان، وقد أصاب في إيرادها بالواو كما هي في التلاوة، وسورة البقرة أول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة، ولنسلِّمْ جدلاً أنهـا كلها نزلت بما فيها آية الاستشهاد قبل وقعة بدر ليصح أن الأمر بالقتل قد تقدم لهم قبل وقعة بدر، لكن الجملة التي استشهد بها أبوحيان جاءت في سياق خاص لا عموم فيه حتى يشمل الأمر بتوجيه الخطاب إلى المسلمين بقتل الكفار على الإطلاق، إذ هي قد جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ فالضمير المنصوب في قوله ﴿ فاقتلوهم ﴾ إلى ماذا يرجع؟ ونظن أنه لا مناص من اعتراف أبي حيان ـ وخصيصته تتجلّى في الجانب الإعرابي من آيات القرآن ـ إن مرجع هذا الضمير هم أولئك الذين يقاتلون المسلمين ظلماً وعدواناً.

والمعروف تاريخياً أنه لم يكن قد وقع قتال في مواجهة قوة بقوة، وجيش

أمام جيش قبل غزوة بدر، وإنما الذي سبق بدراً كان جملة من السرايا والبعوث التي يرسلها رسول الله ﷺ إلى مواطن القوم أو للتعرض لهم وهم مارّون بتجاراتهم، وقد يخرج في بعضها رسول الله ﷺ بنفسه الشريفة.

فوقعة بدر كانت هي أول وقعة مواجهة بين كتائب المسلمين وحشود الكافرين، وكان المسلمون قبل بدر لا يزالون في قلّة وضعف بالنسبة لأعداد وعدد المشركين، وقد قال الله لهم: ﴿ لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة ﴾ أي ضعفاء في قلّة عدد وضعف عُدة، فكيف ومتى توجه إلى المسلمين الأمر بقتل الكافرين قبل غزوة بدر، فقول أبي حيّان: إذ كان الأمر بالقتل قد تقدّم غير مسلَّم، لأنه بعيد عن مراحل تدرج الجهاد القتالي الذي انتصر فيه المسلمون في أول وقعة مواجهة هي غزوة بدر.

أبو حيّان يستدل بالخاص على تعميم الحكم على أفراد العام وهذا غير سديد.

ثالثاً ـ أن أبا حيّان تمسّك بحادثة فردية في الدلالة على حرص جمهور الصحابة على المال وتحصيله، وذلك قوله: ألا ترى إلى قول المقداد لرسول الله ﷺ حينماأمر بقتل عقبة بن أبي مُعَيط: أسيري يا رسول الله، وقول مصعب بن عمير للذي أسر أخاه: شدّ يدك عليه فإن له أُمّاً موسرة، أيكفي هذا في التدليل على حرص الصحابة على المال وتحصيله الذي استوجب عليهم العتاب لتطلُّعهم إلى أخذ الفداء، ولو سلّم ذلك ـ جدلاً ـ في قول المقداد؛ فأين هي الدلالة في قول مصعب، وهو لم يكن الآسر لأخيه الذي سيفيد من أسره؟

وكان أمام أبي حيّان الموقف الجمهوري الذي وقفه جمهور الصحابة في تعجُّلهم إنهاء المعركة قبل الإثخان في العدو، واشتغالهم بجمع الغنائم واستبقاء الرجال، وقد كانوا متمكنين من قتلهم وإكثار الجراحات فيهم، وهو الذي عوتبوا عليه بقوله تعالى: ﴿ تريدون عَرَض الدنيا ﴾.

لا نسخ فيما ثبت عن رسول الله ﷺ من تصرف في الأسرى.

رابعاً ـ إن أبا حيّان جعل تصرف رسول الله ﷺ في الأسرى بين الفداء والمنّ والقتل نسخاً، وهذا إذا سلّم يكون من قبيل نسخ القرآن بالسنة، وهو محل اختلاف الأصوليين، والقائلون به يشترطون في الناسخ من السنة أن يكون متواتر الثبوت، ولم يجوزوه شرعاً بخبر الواحد، وإن قال به

أبو المعالي الجويني إمام الحرمين، وأنكر الإمام الشافعي نسخ القرآن بالسنة المتواترة، وقال بقوله بعض أئمة المالكية، وأبو حيان لم يحقق هذا النسخ في هذه المسألة من جهة الناسخ والمنسوخ، وشرط المنسوخ أن يكون حكمًا شرعياً ثابتاً قبل النسخ، والأمر بقتل الكفار قبل بدر لم يثبت ثبوتاً قاطعاً وقد عرفت سبيل الآيات التي استدل بها أبو حيان على تقدم الأمر بالقتل قبل بدر، وشرط الناسخ أن يكون قرآناً عند الشافعي إذا كان المنسوخ حكمًا قرآنياً،وعند غير الشافعي أن يكون متواتراً قرآناً أو سنة.

خامساً ـ شذوذ ما ذهب إليه أبو حيان من أن المراد من قوله تعالى: ﴿ لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ لمسّكم من أعدائكم، على وجه القهر والغلبة، لا من الله على وجه العقوبة على ما صدر منكم من فعلٍ أردتم به عرض الدنيا، وعلَّل ذلك أبو حيان بكثرة عدد الأعداء وعُددهم، وأن هذا كان في الكتاب السابق الأزلي الذي سجَّل فيه أن الله تعالى يسلِّطكم عليهم، ولا يسلطهم عليكم.

ويؤكد ذلك أبو حيان، فيقول: ليس المعنى لَّمسكم من الله، وإنما المعنى لَّمسكم من أعدائكم، وهذا ما لم يقل به أحد من أهل العلم بالقرآن وتأويله ـ فيما نعلم ـ وكلام أبي حيان مؤذن بأنه قولُه وهو من مبتكراته وأنه لم يتبع فيه أحداً من أئمة العلم.

وقد استشهد أبو حيان على ما ذهب إليه من هذا المعنى الشاذ بآيتين لا يدلّان على ما قال من قريب أو بعيد، لأنهما من الآيات العامة التي جاءت لتذكير المؤمنين بنعم الله عليهم وتحريضهم على الصبر على ما يصيبهم في حروبهم مع أعدائهم، فإنهم إذ أصيبوا في مواقفة أعدائهم للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله فإن أعداءهم أصيبوا كذلك في محاربتهم لهم لإطفاء نور الله، وللمؤمنين ميزة فَضْلِ الله بما يرجونه بإيمانهم من نعم الله وإحساناته مما ليس للكافرين مثله.

ونكتفي بهذا القدر، ونكف عنان القلم عن الاستمرار في ملاحظاتنا على أبي حيان رحمه الله، لأنه في مكانته العلمية لا تغض وقفتنا في نقد كلامه

من قدره، فهو في عداد أساطين الفكر في تاريخ الإسلام الذين أثرَوا التراث اللغوي والفكري في هذا التاريخ ممن يعزُّ وجود أمثالهم.

تنبيه إلى أنَّ ما فصلناه في قصة الأسرى إنما اعتمدنا فيه على آيات القرآن.

لقد أقمنا دعائم بحث قصة أسرى بدر، وتصرف النبي ﷺ في أمرهم، وفي الأحداث التي احتفّت بأسرهم، وتوجيه العتاب لجمهور المؤمنين المجاهدين على سلوكهم فيما استوجب هذا العتاب ـ على الآيات القرآنية التي وردت في شأن هذه القصة، ووجهنا جهدنا إلى تفسيرها واستخراج ما فيها من الحقائق والمعاني، مسترشدين بما قاله أئمة العلم من سلف الأمة وخلفها.

وأبنّا بالبراهين الواضحة أن منشأ العتاب الذي تفيده الآيات بسياقها وأسلوبها كان في تعجّل جمهرة المؤمنين المجاهدين إنهاء المعركة بمجرد أن لاحت لهم في أفق المعركة لوائح النصر قبل أن يثخنوا في الأرض بإشباع سيوفهم من هامات أعدائهم وإكثار الجراحات فيهم؛ مما أدَّى إلى استبقاء الرجال وأخذهم أسرى في أيديهم.

إجمال ما فصَّلناه من البحث.

وقد وصّلنا البحث بمنهاجنا الذي اتخذناه طريقنا إلى إبانة الحقائق أن التصرف في الأسرى وأخذ الفداء منهم لم يكن له مدخل قط في موجبات العتاب، وأن هذا التصرف كان أمراً مشروعاً قبل غزوة بدر، وأن النبي ﷺ خُيِّر فيه بين الحسنيَيْن، فاختار أرفقهما وأرحمهما وأصلحهما لمستقبل مسير الدعوة ونشر الرسالة.

وحياة المجتمع المسلم في جهاده لإعلاء كلمة الله لا يستقيم في شِرْعة النضال بين الحق والباطل أن تخمد له جذوة، وقد رأى النبي ﷺ بسياسته الحكيمة ـ لمجتمعه المسلم، وتدبيره المحكم في تربية هذا المجتمع الذي نيطت به قيادة الإنسانية لتنشىء حضارة مؤمنة على أنقاض الحضارات الكافرة الملحدة ـ أن يجعل من هذا التخيير درساً تربوياً لأمته في مستقبل حياتها، ليعلمهم كيف يعالجون المعضلات من الحوادث التي لا بدّ أن تقابلهم في حياتهم، وكيف يحلّون المشكلات التي تغافصهم في مسيرتهم بدعوة الهدى والنور، ورسالة الحق والخير، سواء أكان ذلك في مواقف الجهاد ومعامع

القتال أم كان في مواقف السياسة وفتح مغاليق الأمور الفكرية والاجتماعية.

فدعا ﷺ من شهده من أصحابه وجنوده في بدر، ولبّى الدعوة من أتيحت له فرصة التلبية من الخاصة والعامة، وهذا هو الأشهر الذي يؤخذ من نصوص الروايات وفحواها، وفي بعض الروايات أنه ﷺ دعا أبا بكر وعمر وعلياً، وفي بعضها الاقتصار على أبي بكر وعمر، وهذا الخلاف له قيمته في فهم الشورى، ومن هم أهلها وهل هم عامة الناس وخاصتهم؟ أو هم ذوو الرأي الناضج والفكر السويّ من الخاصة، بيد أن الذي كان في هذه الشورى أن الذي أخذ بزمام الحديث، وخصهم رسول الله ﷺ به هم الخاصة، بل هم خاصة الخاصة.

وبدأ الحديث أبو بكر رضي الله عنه كما هو في أشهر الروايات أيضاً، وفي رواية أن المتحدث أولاً هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان أبو بكر رضي الله عنه في حديثه رحمة كله، وكان في شفقته ولين عريكته وسجاحة نفسه ولطف تأتّيه على قدم الخليل أبي الأنبياء والحنفاء إبراهيم عليه السلام، وعلى سنن روح الله وكلمته المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، فأشار بالعفو عن الأسارى، وإطلاقهم بأخذ الفداء منهم ليتقوّى به المسلمون على أعدائهم.

ثم تحدث الفاروق عمر بن الخطاب، فكان حديثه يمثل طبيعة المؤمن القوي الأمين، وكأنه شظايا من اللهب تتساقط على رؤوس الكفرة الفجرة المشركين الذين كذبوا رسول الله ﷺ، وقاتلوه، وأخرجوه من أحب البلاد إليه، واضطهدوا المستضعفين من طلائع الإيمان وعذبوهم، فأشار بقتل الأسارى جزاء وفاقاً على طغيانهم وفجورهم، فكان في مشورته جارياً على طبيعته من الشدّة في الله، وكان في شدّته أشبه بأول الرسل نوح عليه السلام، والكليم موسى عليه السلام، ولم يتحدث غيرهما سوى عبدالله ابن رواحة، فقد أشار بعقوبة لاتتواءم مع سماحة الإسلام لما فيها من بشاعة مفظعة، فأعرض عنه النبي ﷺ، بَيْدَ أنه كان لكل من الشيخين موافقون على رأيه الذي أشار به.

ولما فرغ النبي ﷺ من استطلاع رأي أهل الشورى قام عنهم دون أن

يقضي بشيء حتى دخل بيته ليخلو بنفسه إلى ربه، وظلّ الناس يدوكون، ويصورون لأنفسهم اختيار رسول الله ﷺ، وبأي الرأيين يأخذ، فقال ناس يأخذ برأي أبي بكر، وقال آخرون يأخذ برأي عمر.

ثم خرج عليهم صلوات الله وسلامه عليه، وقال لهم كلمته الجامعة: «أنتم عالَة، فلا ينفلتنَّ منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق» فكان هذا القضاء الحكيم المحكم جامعاً بين أخذ الفداء لمن يقدمه فيطلق أسره، وبين القتل لمن ينكل عنه ويرفضه، ونزلت سورة الأنفال، تقص قصة بدر في مباديها منذ كانت خَرْجة لملاقاة عير قريش وهي تحمل تجارتهم وأموالهم، إلى أن صارت معركة حامية الوطيس انتهت بنصر الله تعالى لنبيه ﷺ وأصحابه نصراً مؤزراً هزّ عواطف المسلمين بالفرحة السابغة التي أنستهم أن يصبروا مع أعدائهم المنهزمين حتى يثخنوا في الأرض بكثرة القتل والجراحات، وشغلوا بجمع الغنائم واستبقاء الرجال الذين أخذوهم أسرى في أيديهم، فعاتبهم الله تعالى على إرادتهم عرض الدنيا في اشتغالهم بجمع الغنائم وأخذ الأسرى، والنبي ﷺ كاره لصنيعهم هذا، وكذلك خاصة أصحابه كانوا كارهين لذلك؛ كما جاء ذلك صراحة في حديث سعد بن معاذ رضي الله عنه وموافقة النبي ﷺ على موقف سعد بن معاذ.

ثم جاء تلطف الله تعالى بالأسرى متوافقاً مع قضاء رسول الله ﷺ في شأن الأسرى الذين وعدهم الله في تلطفه بهم بأنهم إن أظهر الله تعالى علمه للناس بأن الأسرى يضمرون في قلوبهم خيراً بوعدهم بأن يسلموا ويناصحوا رسول الله ﷺ وأصحابه ولا يظاهروا عليهم عدواً لهم، يؤ تهم خيراً مما أخذ منهم من الفداء ويزيدهم من فضله بمغفرته ما سلف من ذنوبهم، لأنه سبحانه غفور رحيم.

اختلاف المتمسكين بالروايات في أي الرأيين في الشورى كان أصوب.

وقد غلبت روايات المشاورة على عواطف أهل العلم وتفكيرهم، فاختلف السلف كما يقول ابن حجر في الفتح في أي الرأيين كان أصوب؟ فقال بعضهم كان رأي أبي بكر، لأنه وافق ما قدّر الله في نفس الأمر، ولما استقر عليه الأمر، ولدخول كثير منهم في الإسلام، إما بنفسه أو بذريته التي

ولدت منه بعد الواقعة، ولأنه وافق غلبة الرحمة على الغضب، كما ثبت ذلك عن الله تعالى في حق من كتب له الرحمة.

وأما من رجّح الرأي الآخر فتمسك بما وقع من العتاب على أخذ الفداء وهو ظاهر، لكن الجواب عنه أنه لا يدفع حجة الرجحان عن الأول، بل ورد للإشارة إلى ذم من آثر شيئاً من الدنيا على الآخرة ولو قلّ.

وقول الحافظ ابن حجر في تعليل قول من رجّح الرأي الآخر ـ أي قول عمر ـ أنه تمسك بما وقع من العتاب على أخذ الفداء وهو ظاهر، غريب جداً من الحافظ رحمه الله، ويزيد في غرابته تأكيده بقوله: وهو ظاهر، لأننا نعلم يقيناً أن الحافظ يعلم أن أخذ الفداء من الأسرى مشروع في سرية عبدالله بن جحش التي لقب فيها بأمير المؤمنين، وهي قد كانت قبل بدر العظمى، فكيف يتوجه عتاب على أخذ الفداء من أسرى بدر، وقد قضى به رسول الله ﷺ في بدر الكبرى بعد أن شرعه الله تعالى لرسوله ﷺ وأحله لأمته في سرية ابن جحش، وقصتها معروفة مشهّرة في القرآن والسنة، وابن حجر بهما عليم.

إغفال ابن حجر منشأ العتاب.

وقد أغفل ابن حجر المنشأ الحقيقي للعتاب وهو ـ كما قلنا مراراً وتكراراً ـ الإسراع في إنهاء المعركة والاشتغال بجمع الغنائم واستبقاء الرجال قبل أن يتم للمنتصرين المجاهدين الإثخان في العدو، وهذا ما لم يرضه قط رسول الله ﷺ ولا أمر به، ولو كان العتاب على أخذ الفداء من الأسرى لكان رسول الله ﷺ داخلاً في المعاتبين مع الذين أرادوا عرض الدنيا وأعرضوا عما يريده الله تعالى لهم من الآخرة وثوابها باعتبار أن إرادة الدنيا هي السبب في العتاب كما هو صريح القرآن الكريم، ولكان مندرجاً مع الذين أرادوا عَرَض الدنيا، وحاشاه ﷺ من هذا التقوّل عليه بالباطل، لأن هذا محال في حقه ﷺ لمكانه من العصمة.

ولقد أردنا التنبيه إلى هذه السهوة من الحافظ ابن حجر خشية أن يقع فيهاأحد من مقلّديه الذين تغلبهم عواطفهم على متابعته فيما يرى ويقول. وأصل كلام ابن حجر في اختلاف الناس أي الرأيين في المشاورة كان أصوب

كلام ابن حجر أصله لابن القيم.

تقدّمه به ابن القيم في كتابه (الهدى) وابن حجر أخذه واختصره وتصرف فيه دون أن يشير لمصدره، ونحن نسوق كلام ابن القيم لأنه أوفى أداء للموضوع.

قال رحمه الله: وقد تكلم الناس في أي الرأيين أصوب، فرجَّحت طائفة قول عمر لهذا الحديث - أي حديث مسلم برواية ابن عباس عن عمر ابن الخطاب - ورجَّحت طائفة قول أبي بكر رضي الله عنه، لاستقرار الأمر عليه، وموافقته الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم، ولموافقته الرحمة التي غلبت الغضب، ولتشبيه النبي ﷺ له في ذلك بإبراهيم وعيسى، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء، ولموافقة رسول الله ﷺ لأبي بكر أولاً ولموافقة الله تعالى له آخراً، حيث استقر الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصديق فإنه رأى ما استقر عليه حكم الله آخراً وغلبة جانب الرحمة على جانب العقوبة.

ولا يخلو كلام ابن القيم من نحو ما أخذنا على ابن حجر، ولعل السبب في اتجاههما هذا تمسكهما بحديث مسلم وماجرى في شوطه من روايات أخرى.

* * *

إلى هنا ننتهي من تسجيل ما رأينا تسجيله من أحداث غزوة بدر العظمى من جوانب منهج الرسالة الخالدة رسالة الإسلام الخاتمة لرسالات السماء، ونحن على ما نشعر به من إطالة رشاء البحث في عرض الأحداث المنهجية التي رأينا إخراجها في إطار هذا البحث في الغزوة المباركة لم نستوعب روايات التاريخ المسطورة في كتب المغازي والسير، لأننا لم نستهدف في بحثنا جمع الروايات والأحداث التي وقعت في إطارها، ولكنا استهدفنا التزاماً منا في كتابنا هذا عرض الوقائع والأحداث التي تعطينا معالم من المنهج الذي أقام الله تعالى على دعائمه رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ، لتكون كتاباً سرمدياً

لهداية الإنسانية في تفكيرها وهي تسير مع الأجيال المتعاقبة في أطوارها الفكرية وأوضاعها الاجتماعية المتوثبة سيراً سلوكياً، يجعل من الحياةكلها حقيقة موحّدة الوسائل والأهداف في ظل الإيمان بالله ورسله للنهوض بهذه الحياة إلى آفاق حضارة علمية مؤمنة.

غــزوة أُحُــد

أحداثها، وآثارها في تربية المجتمع المسلم

تشابه في بعض المواقف بين بدر وأحد

اتصال الحوادث بين بدر وأحد

كانت غزوة أحد امتداداً لغزوة بدر في الوسائل والمقدمات، والمقاصد والغايات، والوقائع والأحداث، وكانت الفواصل الزمنية بينهما - على تقاربها - معالـم للاتصال الوثيق لتوقعات المستقبل ومايحويه بين جنباته من ترقبات لوصل حاضر المجتمع المسلم في نضاله المرير بماضيه في كفاحه الصبور، ليكون هذا الماضي في إطار الإيمان خطّاً متوحّد المنازل والمسالك مع حاضر المجتمع في ظل رسالته الخالدة الخاتمة لرسالات السماء في حياة خاصّة ممتدة عبر الحياة الإنسانية العامة في كفاح لا ينقطع، ونضال لا تسكن حركاته ولا يهدأ أواره، من أجل إنقاذ الإنسانية المعذبة في الأرض من تورطاتها الوثنية المتهالكة وشركها الطاغي العنيد.

في هذا الإطار الإيماني كانت خطوط حياة المجتمع المسلم في جهاده القتالي لنرسم له معالم مسيرته في دعوته إلى الله، ونشر رسالته، رسالة الخير والهدى التي بعث الله بها نبيه محمداً ﷺ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وقد كانت غزوة بدر ضربة قاصمة لملأ الفجور الوثني، ترنّح منها طواغيته ترنّحاً أدار رؤوسهم واستدار بهم كما تستدير الحمر النّعِرة، ولكنهم بعد صحوة من سكر الهزيمة تماسكوا مستمسكين بعتو كفرهم، وأبَوا إلا أن يعودوا إلى مواقفة جند الله، ليصلوا ماضي وثنيتهم الجاهلية الباغية بحاضر فجورهم الكفور حتى يكون ماضيهم الخبيث وحاضرهم الفاجر صـورة

لطغيان مستقبلهم الإلحادي المشرك الكفور، ليكون هذا الحاضر الخبيث حلقة اتصال في توحيد الزمن بأحداثه في النضال بين الكفر والإيمان، والهدى والضلال، حتى يكون هذا الماضي حلقات متواصلة في سلسلة الفجور الوثني لحياة الطغيان في لفائف الشرك الملحد، والطغيان الحقود.

تلك السلسلة التي وَهتْ حلقاتها من طول ما مرّ بها من الزمن، وكثرة ما ألقى عليها الظلم المظلم من صدئه وأقذاره، لأن التجاذب بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والنور والظلام، والعدل الرحيم والظلم الظلوم طبيعة أصيلة في الحياة بين الناس والأشياء، هذه الطبيعة المتجاذبة هي في الحقيقة آية من آيات الله، تحمل في طياتها أعظم البراهين وأعمق الأدلة على إطلاق مشيئته تعالى في تدبير الكون المتآلف في نظامه التكويني، المتخالف أشد التخالف في سيره العملي، وبين التآلف والتخالف تناقض في نظر العقل الإنساني الذي لا يؤمن في دائرة مدركاته بغير الخط الموحّد لسير الحياة في أحداثها ووقائعها سيراً مستقيم المعالم المنصوبة على حفافي الطريق.

معالم الهداية في منهج رسالة الإسلام لا توافق بينها وبين العقل الوثني.

وسيّان عند هذا العقل ـ إذا لم يهده الإيمان بخالق الكون واقتداره على قهر الحوادث، وإطلاق مشيئته في طريقة وجودها الواقعي في مسيرة الحياة ـ أن يتغلب الخير على الشر، فيسود الخير أرجاء الحياة، وينقمع الشر متوارياً في الظلام أو يغلب الشر الخير، فيعلو صوت الشر في آفاق الحياة صيّاحاً صاخباً معربداً، ويخفت صوت الخير فلا نسمع منه إلا همساً، والشر والخير في التغالب لن يجمعهما خط متوحد في حيِّز وجودي من الزمان والمكان، لأن العقل الذي لم يتخذ من الإيمان بخالق الحياة هادياً ليس في يده معيار ذاتي يعرف به الشر متميزاً بخصائصه عن الخير سوى معيار النفع والضرر، فما كان في نظر العقل نافعاً فهو خير، وما كان ضاراً في تقديره فهو شرّ.

والنفع والضرر في مجريات الحياة للناس والأشياء أمران نسبيان قد يشتبه أحدهما بالآخر في كثير من الصور والأشكال التي تغلف الوقائع والحوادث، فيعطي من الأوصاف ما ليس له في حقيقة الواقع الوجودي.

وكثيراً ما يكون الأمر الواحد نافعاً في بعض جوانب الحياة، ويكون هو نفسه بعينه ضاراً في بعض جوانب أخرى من الحياة.

فإذا رأى العقل الإنساني بمدركاته الذاتية التي لم تهتد بالإيمان بخالق الحياة الجانب النافع ـ في نظره ـ حكم له بالخيرية، ورغب فيه ودافع عنه، وإذا رأى هذا العقل الجانب الضار ـ في نظره ـ حكم عليه بالشرّية، ورغب عنه، ودافعه ليكتم أنفاسه حتى لا يتنسَّم نسمة الوجود في الحياة.

ومن ثَمَّ كان إطلاق العقل الذي لم يهتد بالإيمان ليقود الحياة بمعاييره الذاتية المحدودة تعويقاً للحياة عن سيرها إلى آفاق الهداية لتوطيد دعائم السلام والإخاء والمحبة بين الناس في أرجاء الأرض.

لكن الذين أشركوا بالله آلهة أخرى اتخذوها معبودات لهم مع الله تعالى يدعونها ويتقربون إليها بأنواع القرابين، والذين ألحدوا في آيات الله بالتكذيب والاستهزاء والسخرية فأنكروا وجود الله، وعميت أبصارهم وبصائرهم عن حكمته في نظام الكون ودلالة هذا النظام المحكم على وجوده واقتداره وإطلاق مشيئته وإحاطة علمه ـ يأبَون إلا أن يقودوا الحياة بأزمة عقولهم الوثنية القاصرة، ويسوقوها بسياط الكفر والفجور ليجعلوا من أنفسهم حماة للحياة الفاجرة، ويجعلوا من فجورهم طرائق لمسيرة الحياة يوجهونها بمشيئاتهم.

موقف كفار قريش من رسالة الهدى والنور نموذج للفجور الوثني العنيد.

وكان كفّار قريش ومشركوهم ممن عسَوا في حمأة الوثنية الباغية نموذجاً لهذا الفجور العنيد بوقوفهم أمام دعوة الحق والهدى التي جاءتهم على يد رجل منهم، يعرفون صدقه وأمانته، ويعرفون منبعه ومرباه، ويعرفون مدخله ومخرجه، وغدوه ورواحه، وحركته وسكونه، وأخذه وعطاءه، وسلوكه في الحياة وعشرته مع الناس والأشياء.

فانبعثوا لمناهضة هذه الدعوة الراشدة الهادية التي أرادتهم سدنة لها لتجعل منهم سادة ذادة، يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهَون عن المنكر، وقادة يأخذون بزمام الإنسانية إلى آفاق حضارة إيمانية، يبنون دعائمها

على قواعد منهج الرسالة الخالدة، ولكن هؤلاء الكفرة ركبوا متن الشيطان غروراً وعتواً، وطغياناً وكفراً، فجعلوا من ظهور طلائع الإيمان مهابط لسياط تعذيبهم يصبونه عليهم بلاء ليفتنوهم عن دينهم، حتى أخرجوهم من ديارهم وأموالهم مهاجرين إلى إخوانهم أنصار الله بالمدينة التي صارت عاصمة المجتمع المسلم وقلعته الحصينة التي فيها بناء المجتمع الجديد في تركيبه الاجتماعي المتكافل على دعائم التآخي بين أفراد هذا المجتمع وجماعاته، فكان بهذا التآخي قوة موحدة الوسائل والأهداف، تستطيع أن تواقف أعداء الدعوة إلى الله ورسالة الهدى والنور، مهما بلغ طغيانهم المادي، وقوتهم الخاوية من دوافع الإيمان وأهدافه الإنسانية.

وقد كانت هجرة طلائع الإيمان من السابقين الأوّلين إلى المدينة غصّة في قلوب قريش وطواغيتها، أشجت صناديدها، وأثارت في نفوس أشراف جاهليتهم حفائظ الحقد الحانق والغيظ الكظيم، ممّا جعلهم في همٍّ مقيم مقعد، يفكِّرون ويقدِّرون، ولا هدف لهم في تدبيرهم وتقديرهم إلا القضاء على المجتمع المسلم الجديد الذي سيقضي على تجاراتهم وهي صاعدة نازلة، غادية رائحة، مارّة على مدينتهم في عيراتها وقوافلها، وفي هذه العيرات والقوافل الأموال التي نهبوها في مكة من المهاجرين، وجعلوها مع أموالهم في تجاراتهم.

ولم يكن يغيب عن ملأ أولئك الطغاة من فجّار الكفر وأحلاس الوثنية الفاجرة أن المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديد، وقوته التي كانت ثمرة من ثمرات وحدته الإيمانية ومؤاخاته التكافلية ينام على الضيم مطمئناً دون أن ينهض ليسترجع أمواله المنهوبة منه، ودون أن يقف في طريق عيراتهم وقوافلهم المحمّلة بهذه الأموال وغيرها لينتزعها من أيديهم كرهاً وقسراً، ودون أن يعمل كل ما يستطيع في وضعه الجديد لتكسيد تجاراتهم، وتبوير سعيهم، وكسر شوكتهم المادية المتعززين بها.

وقد كان هذا التصور ـ وهو حقيقة كشف عنها تحفز المجتمع المسلم للوقوف في طريق قوافلهم ليصدّها عن المرور على مدينته، ويغنم ما فيها

المجتمع المسلم في تركيبه الجديد بعد الهجرة كان قوة إيمانية موحّدة.

من أموال كانت مصدر غرور هؤلاء الفجرة، عملاً بأبسط قواعد الحرب المعمول بها في قانون الحياة الإنسانية ـ يملأ أدمغة أولئك المستكبرين في الأرض، فكان لا بدَّ لهم من الاستعداد لمقاومة هذا المجتمع المسلم وفتح الطريق أمام عيراتهم وقوافلهم، وحمايتها بقوة السلاح.

وها هوذا محمد ـ ﷺ ـ وأصحابه، قد تعرّضوا لها ليغنموها، ويغلقوا الطريق أمام تجارتهم، وقد أرسل إليهم أمير أضخم عيراتهم أبو سفيان ابن حرب ينذرهم ويحرِّضهم لينفروا لحماية أموالهم التي خرج إليها محمد ـ ﷺ ـ في جموع أصحابه ليستولي عليها عنوة، فتجمعوا بأضخم ما في استطاعتهم من قوة مادية عدداً وعدّة، موعبين في حشودهم كل من له طاقة بالحرب والقتال تحت قيادة لعينهم الفاسق أبي جهل بن هشام، مما كان سبباً مباشراً لوقعة بدر، وهي أول وقعة واقف فيها مجتمع الإيمان بالله، وحماة الحق، والدعاة إلى الله القائمون على نشر الهدى والنور والإصلاح أحلاسَ الشياطين من فَجَرة الشرك وطواغيت الوثنية الباغية.

وكانت بدر، فكانت نكالاً لهم، ووبالاً عليهم، هزموا فيها شر هزيمة، حسّت صناديدهم بالمهندات من السيوف المسلمة، واستأصلت أشراف جاهليتهم قتلاً، وأسراً، وتشريداً، وفراراً في فجاج الأرض، حتى بلغ فلّهم مكةمهزومين أذلاّء يعضّون بنان الحسرة والاندحار، وهم في ذهول وحَيْرة، لا يصدِّقون ما يبصرون بأعينهم، لأن هذه الهزيمة لم تكن تمر بخيالهم المظلم بظلمات الغم والحزن الكظيم.

وقد منّ عليهم رسول الله ﷺ بما جبل عليه من مكارم الأخلاق والعفو عند المقدرة فأطلق أسراهم، وقبل منهم الفداء بعد أن كانوا في ملك يده، محكومين بسلطانه، يستطيع أن يلقي برؤوسهم تحت أقدامهم.

وذهب طلقاء بدر يجرّون أذيال الخيبة والحسرة إلى مكة، وكانت فلول الجبن المشرّدة قد باءت ذليلةإليهم، واجتمع هؤلاء وهؤلاء، والحقد الحانق يشوي أكبادهم، وحفائظ الضغينة تملأ قلوبهم، فلم تترك فيها مكاناً لغير المناداة بالثأر لقتلى أشرافهم في بدر، ممَّن سُحِبوا على وجوههم إلى القليب

على أوجع صورة وأشنع ما يستحقه الفاجرون من الكافرين المفترين على الله الكذب، المغرورين بما في أيديهم من قوى مادية بشرية، وعتاد حربي.

أبو سفيان يرفض أنين قريش بعد هزيمتها في بدر فتزعمها في قيادة غزوة أحد.

وكان أبو سفيان أمير العير بعد إذ نجا بها وبما فيها من أموال، ووصل إلى مكة وجدها تئن من الأحزان التي ألمت بها، وتتأوّه من أوجاعها التي حلّت بأهلها، ولم يجد إلا رؤوساً منكسة، قد جلّلها الذلُّ وأحاط بها الهوانُ وأمال أعناقها الغيظ على مناكبها، غماً وكمداً، فمشى إليه عبدالله بن أبي ربيعة ابن المغيرة المخزومي، أحد أشراف الجاهلية في قريش، وقد أسلم يوم الفتح، وهو أخو عيّاش بن أبي ربيعة لأبيه وأمه، وكان عيّاش من السابقين الأولين في الإسلام، وكان رفيقاً لعمر بن الخطاب في هجرته، وعيّاش وعبدالله ابنا أبي ربيعة أخوان لأبي جهل لأمه، أسماء بنت مخرِّبة، ومشى مع عبدالله ابن أبي ربيعة عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية بن خلف ـ وكان أبواهما من قتلى بدر ـ في رجال من قريش ممن قتل آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب أمير العير، وكلموا من كان له في تلك العير من قريش تجارة وأموال، فقالوا لهم: يا معشر قريش إن محمداً قد وَتَركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال ـ يقصدون ما كان في العير من تجارة ـ على حربه، لعلنا ندرك منه ثأراً، فأجابوهم إلى ما طلبوه منهم.

ونهض الموتورون لحرب رسول الله ﷺ، واستأجر أبو سفيان ألفين من الأحابيش بزعامة سيدهم الحليس بن زيان أخي بني الحارث بن عبد مناة، فخرج بهم مع من أطاعه من قبائل كنانة وتهامة، ومع من كانت به قوة على الخروج من فلّ قريش الذين فرُّوا من بدر إلى مكة، ومع الخائنين من طلقاء أسرى بدر أمثال أبي عزة الذي منّ عليه النبي ﷺ بغير فداء لشكواه سوء حاله وقلة ذات يده، وأخذ عليه ألاّ يظاهر عليه عدواً، ولكنه خان العهد وغدر، وخرج إلى أحد مع المشركين فأسر وقتل جزاء غدره وخيانته، فكانت حشودهم ثلاثة آلاف، معهم مئتا فرس، وثلاثة آلاف بعير، وساروا يقصدون المدينة حتى نزلوا في سبخة في وادي عينين أحد أجْبُل المدينة، ويقع في مقابلة أُحد.

العباس بن عبد المطلب يكتب إلى رسول الله ﷺ بمسير قريش لحربه.

وكتب العباس بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ كتاباً يخبره خبر قريش وسيرهم لحربه في عدد وعُدة وبعث بالكتاب رجلاً من بني غفار، اشترط عليه أن يأتي المدينة في ثلاثة أيام بلياليها ليسبق بالخبر قريشاً ويستعد رسول الله ﷺ لملاقاتهم، فقدم رسول العباس على رسول الله ﷺ فلقيه في قباء، وسلم إليه كتاب العباس رضي الله عنه، وأعطى رسول الله ﷺ الكتاب إلى أبيّ بن كعب ليقرأه عليه، فقرأه أبيّ واستكتمه رسول الله ﷺ ما فيه من خبر قريش وقدومها لحربه بحشود وافرة العدد والعدة لمهاجمته في مفاجأة تقيد حركة المجتمع المسلم في النهوض للقتال والاستعداد له، وأطلع رسول الله ﷺ سعد بن الربيع أحد سادة الأنصار وخلصائهم على كتاب عمه العباس.

هذا الموقف الكريم الذي وقفه العباس رضي الله عنه موقف يستحوذ على ذروة الإخلاص، ويعيد للذاكرة موقفاً للعباس قبل أن يسلم كان من أنبل المواقف وأشرفها بالنسبة لمواقف الحمية القومية، ذلك هو موقف العباس يوم بَيْعة العقبة الكبرى، فقد حضر بَيْعة الأنصار لرسول الله ﷺ، وخطب خطبته المشهورة المروية بصحيح الروايات، وذكر فيها: إن محمداً في عزٍّ ومَنَعة من قومه، فإن كنتم مبايعيه على تحمل عداوة الأحمر والأسود، فأنتم وما تحملتم، وإلاّ فدعوه بين قومه. وتمت البيعة والعباس من شهودها وهو على دين قومه.

كما يعيد هذا الموقف للذاكرة مواقف الحميّة الهاشمية التي كان يقفها أبو طالب حمية قومية للنبي ﷺ دفاعاً وردّاً للعدوان على دعوته، بيد أن موقف العباس موقف ينم عن الإخلاص الإيماني الذي يجعل الباحث مطمئناً إلى أن الإيمان برسالة محمد ﷺ كان يملأ قلب العباس قبل أن يلحق بمكة بعد إطلاقه من الأسر وقبول الفداء منه، كما يدل عليه قول العباس: فينا نزل قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً ممّا أخذ منكم، ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾[1].

(١) سورة الأنفال آية (٧٠).

مواقف العباس وحكمة بقائه في مكة ليرصد حركات المشركين ويحمي المستضعفين.

وإذا كانت حمّية أبي طالب جعلت موقفه ـ لعدم إيمانه ـ من قبيل الحب الطبيعي للقرابة الدانية والحمية القومية؛ فموقف العباس رضي الله عنه كان موقف الحب الإيماني الذي يكنفه الإخلاص للمجتمع المسلم في ظل الإخاء الإيماني، فهو موقف لمحمد ﷺ ابن الأخ الحبيب.

وهو موقف لحماية رسالة محمد ﷺ، وحماية دعوته إلى الله تعالى.

وهو موقف لأداء حق الإيمان بهذه الرسالة الكريمة الراشدة.

وهو موقف للدفاع عن أصحاب محمد ﷺ، ومجتمعه المسلم.

وهو موقف يحمل بين طيّاته دلائل على أن النبي ﷺ جعل من عمه العباس رضي الله عنه رئيس مخابراته في مكة وجندياً من خواص جنود دعوته وحماية رسالته، يذود عنها بسلاح التعرف على حركات أعداء هذه الدعوة فيما يحاك لها من الكيد وسوء المكر، وما يدبّر لمجتمعها تحت أستار الظلام للقضاء عليه وعلى دعوته.

وهذا سلاح من أقوى أسلحة المعارك التي تربط النصر على الأعداء بنجاحه وإحكام أمره.

وكان العباس رضي الله عنه يحب القدوم على رسول الله ﷺ ليقيم معه بالمدينة، ويشهد معه مشاهده، ويكون إلى جانبه في مواقفه، ولكن رسول الله ﷺ استبقاه بمكةليقوم للدعوة بما لا يستطيع جندي يحمل سلاحه ويخوض معمعة المعركة أن يقوم به.

والمتأمل في هذه السياسة الحكيمة التي وضع أساسها رسول الله ﷺ يظهر له جلياً ما فيها من حسن التدبير المحكم الذي يحف به التوفيق من جميع جوانبه، لأنها سياسة تمثل ما ينبغي للقائد الأعلى أن يتخذه في مواقفه الحذرة التي لا تنام ولا تنيم.

قال القسطلاني في المواهب: وكان العباس يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان العباس يحب القدوم على رسول الله ﷺ، فكتب إليه عليه الصلاة والسلام: «إن مقامك بمكة خيرٌ لك» وهو خير للمسلمين ـ أيضاً ـ لما فيه من العون للمقيمين بها من المسلمين المستضعفين، وتقوية

ثباتهم على الإيمان، ولما فيه من معرفة أخبار أعداء الإسلام، وتآمرهم على المجتمع المسلم ومكرهم به، ووضع هذه الأخبار بين يدي رسول الله ﷺ في حينها المناسب لاتقاء أخطارها، وأخذ الأهبة لردِّ ما فيها من كيد للإسلام والمسلمين، وكان هذا من دأب رسول الله ﷺ، كما أوضحناه في الحديث عن بدر،وعلى هذا السّنن درج رسول الله ﷺ، وقد بعث أنساً ومؤنساً ابني فَضَالة الظفري في غزوة أحد ليتعرّفا له أخبار عدوه، فذهبا وقاما بما كلفهما رسول الله ﷺ، وعادا فأخبراه بخبرهم، وذكروا له أنهم أرسلوا إبلهم وخيلهم في زروع الأنصار بالصمغة حتى تركوها ليس بها خضراء، وكان ذلك من بواعث الحمية في أنفس الأنصار.

ثم أرسل ﷺ الحباب بن الجموح ليحزر له أعداد أعدائه فذهب إليهم، وداخلهم، ودخل في عسكرهم، وعاد إلى رسول الله ﷺ يخبره بما علم من أخبارهم وأعدادهم وعددهم القتالية.

رؤيا النبي ﷺ أحداث أحد وشدائدها.

وكان رسول الله ﷺ قد رأى رؤيا منامية، ورؤيا الأنبياء وحي ينزل بما احتجب من الغيب عن غير الأنبياء والمرسلين، فحدّث بها أصحابه، وذكر لهم تأويلها وما أنبأت به من أحداث ستقع عندما يحين وقتها.

وحديث رؤيا أُحد رواه البخاري ومسلم، والترمذي وابن ماجه، والبيهقي وجميع رواة المغازي والسِّيَر. قال البخاري من حديث أبي موسى الأشعري من طريق أبي كريب ـ واسمه محمد بن العلاء ـ وقد ذكره البخاري باسمه ـ عن أبي أسامة عن النبي ﷺ قال: «ورأيت أني هززت سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء به الله من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت بقراً والله خير، فإذا هم النفر من المؤمنين يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير، وثواب الصدق الذي أتانا بعد يوم بدر».

ورواية البيهقي عن شيخه أبي عبدالله الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أشمل وأوضح، قال: وذلك أن رسول الله ﷺ لما جاءه المشركون يوم أحد كان رأيه أن يقيم بالمدينة، فيقاتلهم فيها، فقال له ناس لم يكونوا

شهدوا بدراً: نخرج يا رسول الله إليهم نقاتلهم بأحد، ورجوا أن يصيبهم من الفضيلة ما أصاب أهل بدر، فمازالوا برسول الله ﷺ حتى لبس أداته، ثم ندموا وقالوا: يا رسول الله أقم، فالرأي رأيك فقال لهم: «ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعدما لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»

وكان ﷺ قال لهم يومئذ قبل أن يلبس الأداة: «إني رأيت أني في درع حصينة، فأولتها المدينة، وأني مردف كبشاً فأولته كبش الكتيبة، ورأيت سيفي ذا الفقار فلّ، فأولته فلاً فيكم، ورأيت بقراً يذبح، فَبَقر والله خير» وفي حديث أنس عند البيهقي من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد قال أنس يرفعه إلى النبي ﷺ: «رأيت فيما يرى النائم كأني مردف كبشاً، وكأن ضبّة سيفي انكسرت، فأوَّلت أني أقتل كبش القوم، وأولت كسر ضبّة سيفي قتل رجل من عترتي» فقتل حمزة، وقتل رسول الله ﷺ طلحة وكان صاحب اللواء، أي أن كبش الكتيبة قتل في المبارزة بينه وبين علي رضي الله عنه، فنسب قتله إلى رسول الله ﷺ، لأنه القائد الأعلى.

سياق موسى بن عقبة لرؤيا النبي ﷺ.

وفي سيرة موسى بن عقبة ـ كما نقله ابن كثير في البداية، واختصرناه عنه ـ قال: وكان رجال من المسلمين لم يشهدوا بدراً قد ندموا على ما فاتهم من السابقة، وتمنّوا لقاء العدو، ليبلوا ما أبلى إخوانهم يوم بدر، فلما نزل أبو سفيان والمشركون بأصل أحد فرح المسلمون الذين لم يشهدوا بدراً بقدوم العدو عليهم، وقالوا قد ساق الله علينا أمنيتنا، ثم إن رسول الله ﷺ أري ليلة الجمعة رؤيا، فأصبح فجاءه نفر من أصحابه فقال لهم: «رأيت البارحة في منامي بقراً تذبح والله خير، ورأيت سيفي ذا الفقار انفصم من عند ضبَّته، أو قال به فلول، فكرهته، وهما مصيبتان، ورأيت أني في درع حصينة، وأني مردف كبشاً» فلما أخبرهم رسول الله ﷺ برؤياه قالوا: يا رسول الله ماذا أوّلت رؤياك؟ قال: «أوّلت البقر الذي رأيت بقراً فينا وفي القوم، وكرهت ما رأيت بسيفي، وأوّلت الكبش أنه كبش كتيبة العدو، يقتله الله، وأوّلت الدرع الحصينة المدينة، فامكثوا، واجعلوا الذراري في الآطام، فإن دخل علينا القوم في الأزقة قاتلناهم ورموا من فوق البيوت».

فقال الذين لم يشهدوا بدراً: كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله، فقد ساقه الله إلينا وقرب المسير، وأبى كثير من الناس إلاّ الخروج إلى العدو، ولم يتناهوا إلى قول رسول الله ﷺ.

عبدالله بن أبيّ رأس المنافقين كان يرى عدم الخروج من المدينة لمعرفته بها وتحصينها.

وكان رأي عبدالله بن أبي بن سلول موافقاً لرأي رسول الله ﷺ في عدم الخروج من المدينة والمكث فيها، وابن أبي كان مع نفاقه من ذوي الشرف الجاهلي، وهو خزرجي من كبارهم وأهل الخبرة والتجربة فيهم، ولهذا أشار على رسول الله ﷺ برأيه مبيناً الأسباب التي بنى عليها رأيه في خبرته ببلده وتجاربه في قومه، فقال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج منها، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوٍّ لنا قط إلا أصاب منّا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منهم، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، فإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا.

وكانت الكثرة وجمهور الأكابر من الصحابة يرون رأي رسول الله ﷺ، ولا سيما بعد أن أخبرهم برؤيـاه، فكان رأيهم تبعاً لرأي رسول الله ﷺ، وكانت كثرة الشباب ومن فاتهم مشهد بدر يرون أن يخرج بهم رسول الله ﷺ إلى عدوهم، ليعوّضوا ما فاتهم من فضل بدر، وما سمعوه منه ﷺ في فضلها وفضل من شهدها، وكانوا يودّون لو أتاح الله لهم غزوة ينالون بها مثل ما نال البدريون من الفضل وعظيم الثواب.

كان رأي شباب المجتمع المسلم وبعض الأكابر ملاقاة العدو خارج المدينة.

وكان مع هؤلاء الشباب بعض الأكابر من المهاجرين والأنصار، مثل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ومثل سعد بن عبادة سيد الخزرج، والنعمان بن مالك أحد أبطال الأنصار، وغيرهم من أبطال المجتمع المسلم، وقالوا مسوّغين لرأيهم: إنا نخشى أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليه جبناً عن لقائهم فيكون هذا جراءة منهم علينا.

وقال حمزة رضي الله عنه: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خـارج المدينـة، وقال النعمـان بن مالـك الأنصاري: يا رسول الله لا تحرمنا الجنة، فوالذي نفسي بيده لأدخلها، فقال

رسول الله ﷺ «لمه؟» فقال: لأني أحب الله ورسوله، ولا أفرّ من الزحف، فقال ﷺ «صدقت» فاستشهد يومئذ.

مناقشة العلامة الزرقاني في سؤال أورده وأجاب عنه.

وقد أورد الزرقاني في شرحه مواهب القسطلاني سؤالاً، وأجاب عنه فقال: فإن قيل لم عدل ﷺ عن رأيه الذي لا أسدّ منه، وقد وافقه عليه أكابر المهاجرين والأنصار وابن أبي وإن كان منافقاً لكنه من الكبار المجرِّبين للأمور، ولذا أحضره ﷺ واستشاره ـ إلى رأي هؤلاء الأحداث؟ قلت: لأنه ﷺ مأمور بالجهاد، خصوصاً وقد فجأهم العدو، فلما رأى تصميم أولئك على الخروج، ولا سيما وقد وافقهم بعض الأكابر من المهاجرين كحمزة والأنصار كابن عبادة ترجَّح عنده موافقة رأيهم، وإن كرهه ابتداء ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، قال الزرقاني: وهذا ظهر لي، ولم أره لأحد.

وهذا الذي ظهر للعلّامة الزرقاني ولم يره لأحد من العلماء والأئمة قبله يحتاج إلى نظر وبحث، لأن النبي ﷺ لم يطلب من أصحابه المكث بالمدينة وعدم الخروج عنها لمقاتلة أعدائه خارجها رأياً اجتهادياً، وإنما هو تبليغ لما أوحي إليه في رؤياه المنامية التي رآها وأوّلها وبلَّغها لأصحابه، ورؤيا الأنبياء وحي بإجماع الأمة، ويدل لذلك حديث عائشة عند البخاري في بدء الوحي، إذ قالت رضي الله عنها: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

فإيراد السؤال بالصورة التي أورده عليها الزرقاني ينافي أن الأمر من قبيل الوحي الذي لا تجري عليه مشاورة قط، ولا يدخله الاجتهاد، لأنه لا مشاورة في أمر نزل به الوحي، ولا اجتهاد مع النص، لأن الاجتهاد قد يدخله الخطأ فيصح العدول عنه إلى رأي آخر تظهر صوابيته، وهنا قد ثبت الوحي بالرؤيا الصادقة وتأويلها من رسول الله ﷺ، والوحي لا يصح العدول عنه إلا بوحي مثله أو أقوى طريقة من نوعه.

فلا وجه لهذا السؤال بالصورة التي أوردها الزرقاني، وإذاً لا محل لهذا الجواب الذي أجاب به عن السؤال، بل كان يجب أن يكون السؤال: لم عدل رسول الله ﷺ عن مقتضى رؤياه وهي وحي من الله تعالى إلى رأي

هؤلاء الأحداث الذين استحوذت عليهم عواطف حب الجهاد في سبيل إعلاء لكلمة الله وكلمة الحق والهدى والنور، مع أن النبي ﷺ أخبرهم برؤياه وسألوه عن تأويلها فأخبرهم بها وأولها به، وهم يعلمون أن رؤياه ﷺ ضرب من الوحي وطريق من طرائقه؟

مخالفة رسول الله ﷺ كانت من أكبر أسباب أزمات أحد.

وحينئذ يكون الجواب الملاقي لهذا السؤال ملاقاة متلائمة أن رسول الله ﷺ لم يعدل عما طلبه بمقتضى رؤياه وتأويلها ـ من المكث بالمدينة ومقاتلة أعدائه في طرقاتها ومن فوق بيوتها، وعدم الخروج عنها لملاقاة أعدائه خارجها كما هو رأي الشبان الأحداث الذين يريدون أن يعوضوا فضلاً فاتهم في بدر بالخروج في غزوة يكون لهم فضلها ـ إلا بوحي ناسخ لوحي الرؤيا الصادقة التي رآها ليتم قضاء الله ويتحقق ما قدره في غيبه من ابتلاء المؤمنين، ليكون ذلك الابتلاء درساً تربوياً شديد الوقع، عميق الأثر في مستقبل المجتمع المسلم الذي لا ينبغي له أن يخضع للتأثر بالعواطف، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ينزل عليه الوحي، بل يجب أن يكون هوى كل مسلم تبعاً لما يبلِّغه رسول الله ﷺ من الوحي إليه بأية طريقة من طرائقه، وليس بلازم أن يُخْبِر ﷺ بالنسخ، ولهذا لما رأى رجال من أهل الرأي والسداد أن مخالفة رسول الله ﷺ وخيمة العاقبة ندموا وقالوا: أمرنا رسول الله ﷺ أن نمكث بالمدينة، وهو أعلم بالله وما يريد، ويأتيه الوحي من السماء، فقالوا لرسول الله ﷺ: أمكث كما أمرتنا، فقال ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب، وأذن بالخروج إلى العدو أن يرجع حتى يقاتل، وقد دعوتكم إلى هذا المكث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو، وانظروا ما أمركم الله به فافعلوه». ففي هذا دليل على أنهم كانوا يعلمون أن رؤيا النبي ﷺ وحي من الله، وأنهم خالفوا رسول الله ﷺ وهو فيهم يأتيه الوحي، وأنه لا يتصرف إلا بأمر من الله وهو ﷺ أعلم بالله وما يريد، فمخالفته ومطاوعة العواطف مهما كان نبلها خروج عما يجب على المجتمع المسلم أفراداً وجماعات من الطواعية له ﷺ لأنه أعلم بالله وما يريد ويأتيه الوحي من السماء، ونبل العاطفة قد يكون في مضها العذر للمخالفين لأنهم أرادوا الخير.

ولهذا لما ثابوا إلى طريق الاستقامة وعرفوا الحق طلبوا من رسول الله ﷺ أن ينفِّذ رؤياه على تأويله لها، ويمكث في المدينة لمقاتلة أعدائه في أزقتها وفجاجها وأسطح بيوتها، فأبى عليهم أشدّ الإباء، لأن هذا الموقف منهم بعد موقفهم الأول يؤدي إلى التردِّد المفكك لوشائج العزائم الصافية، وهذا التردُّد يطمع العدو فيهم ويجعله يظن بهم الظنون، والله تعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ فالعزيمة بعد المشاورة لا تقبل التردد، والرجوع عن سمتها الذي اتجهت إليه ووضعت قدمها في أول خطوة من خطواتها في مسيرتها نحو هدفها.

تغلبت فكرة الخروج للقاء العدو ومقاتلته خارج المدينة، وكان الموجّه لهذا التغلب عاملين: -

أولهما: موقف الذين فاتتهم بدر فلم يشهدوا معركتها، ولم يشاركوا في جهادها وحرموا فضلها، وكانت الكثرة الغامرة في هؤلاء من الأحداث الذين لم تتح لهم فرصة شهود أول معركة في الإسلام، التي أربى فضلها على كل فضل، تلك هي معركة بدر وهذا العامل كان يمكن أن يتلاشى، وتتبدد عناصره، ويذوب وينماع ويذهب تأثيره لولا ظهور العامل الثاني في قوة حازمة وعزيمة ماضية وإرادة قاهرة.

أما العامل الثاني فيتجلّى في موقف القوة الحازمة التي لا تقف مع الأحداث في تقلباتها، ولكنها تتخطاها مسرعة في عزيمة صارمة، وقوة قاهرة، لا تبالي بالنتائج مع إعطائها وزنها الصحيح في مقاييس الحياة المستقبلة. ذلك هو موقف النبي ﷺ في المضي إلى المعركة خارج المدينة على ما في جنباته من آلام قاسية، كان النبي ﷺ وحده هو الذي يقرأ أسطره في صفحات الغيب من لوح الأقدار.

وهنا يلمع بصيص من النور في قلبي رجلين من سادة الانصار، كانا عند إسلامهما مشرق شمس لهداية الإيمان، ذانك العظيمان هما سعد ابن معاذ، وأسيد بن حضير، فيقولان للذين استأسرتهم عواطف الشباب واستفزّهم التطلع إلى البطولة: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج وقلتم له

ما قلتم، والوحي ينزل عليه من السماء فردُّوا الأمر إليه، فخرج عليهم ﷺ وقد لبس لأمته، وتهيأ بأداة الحرب، وظاهَرَ بين دِرْعيـن، فندم الذين كانوا يرون الخروج، وقالوا له ﷺ: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت، فرد عليهم ﷺ بقوله: «ما ينبغي لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه».

قرارات مستقبل الأمّة في المعارك الحربية يجب أن لا تخضع للعواطف.

وفي هذا الموقف درس من دروس منهج الرسالة الخالدة مُحَصَّلُه أن اتخاذ القرارات في المعارك الحربية ونقض هذه القرارات يجب أن لا يخضع للعواطف النفسية مهما تبلغ من الإخلاص واحتمال تحقيق الهدف المطلوب، وإنما ينبغي أن تسبق هذه القرارات دراسة واعية متعمقة تبلغ بها مداها في الكشف عن الحقائق المحيطة بالموقف من جميع جوانبه، وعلى ضوء هذه الدراسة تتخذ القرارات في المعارك التي يرتبط بها مستقبل المجتمع، ثم يعقبها التنفيذ دون تردد مهما كانت العواقب، والنبي ﷺ بوصفه نبياً رسولاً، وقائداً لمجتمعه في حربه وسلمه كان قد درس مع أصحابه الموقف دراسة وافية واستشارهم فيه، وأخبرهم برؤياه وما أوّلها به، وأخبرهم أنه بمقتضى وحي الرؤيا التي رآها في منامه ورؤيا الأنبياء وحي - يرى أن يمكثوا بالمدينة، فإن دخل عليهم عدوهم قاتلوه في أزقتها وفجاجها ومن أسطح بيوتها، ولا يخرجوا منها لملاقاة عدوهم خارجها.

فخالفه الذين لم يشهدوا بدراً، وسمعوا بفضلها وفضل شهودها، وأرادوا مخلصين مع عواطفهم أن يكون لهم من هذه الغزوة التي حضرتهم، وجاءهم فيها العدو إلى بلدهم لمهاجمتهم عوضاً عما فاتهم من فضل بدر، وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال خارج المدينة عملاً بمقتضى رؤياه المنامية، ولبس أداة الحرب وخطب الناس وحرضهم على القتال، وحثهم على الصبر والجد، وتهيأ الناس للخروج، وفرح الذين كانوا يرونه أمنية ساقها الله إليهم، ولكنهم وجدوا من بعض الأكابر مَنْ ندّمهم على ما كان منهم من استكراه رسول الله ﷺ على الخروج وهو أعلم بالله وما يريد، ينزل عليه الوحي من السماء فندموا وردوا الأمر إليه ﷺ وقالوا معتذرين: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما تريد.

ولكنه ﷺ أبى عليهم أن يرجع عن عزيمته وإصراره على الخروج لملاقاة عدوه خارج المدينة، وقد كان في هذا الرد الحازم تعليم لهم أن لا ينساقوا مع عواطفهم في مواقف تتعلق بمستقبل الدعوة إلى الله، وأخبرهم ﷺ بما أشعرهم بأن النفوس تهيأت للخروج وموافقة العدو خارج المدينة، فردُّها عن عزيمتها إضعافٌ لقوتها وتوهين لإرادتها وتثبيط لعزائمها، وإن من سنن النبوة في قيادة المعارك الجهادية لإعلاء كلمة الله أن لا ترجع إذا توجهت، وأن لا تتوقف إذا صممت، وأن لا تتردد إذا عزمت، وأن لا تنقض ما أبرمت، وأن لا تجادل إذا درست، وأن لا تخشى اللوم إذا شاورت، وأن لا تظهر أمام أعدائها بمظهر المتراجع قبل أن يحكم الله بينها وبين أعدائها في معمعة الحرب.

عتاب أهل بدر على مخالفتهم نموذج لما ينبغي أن يكون عليه الجنود من الطاعة المطلقة لقيادتهم العليا.

وإذا كان أهل بدر عوتبوا على مخالفاتهم لخطط القيادة العليا للمجتمع المسلم، وأوامر هذه القيادة المتلقاة من الوحي مباشرة أو عن طريق تصويب الاجتهاد أو التنبيه على ما عسى أن يقع فيه من الخطأ غير المقصود، واقتحام المجاهدين ما لم تأمر به القيادة العليا الحكيمة ولم ترضه منهجاً لها - فغيرهم أحق وأولى.

وهذه المخالفات البدرية تتمثل في:

أولاً: كراهية فريق من المؤمنين المجاهدين الخروج للقاء عدوهم ومقاتلته، وهو قد قدم في عدده وعُدَدِه لمهاجمتهم بقصد استئصال المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي التكافلي الجديد، وفضّلوا على هذا اللقاء القتالي المضي وراء العير وغنم ما فيها من أموال ومتاع لقلة حاميتها وسهولة أخذها، بعد أن فاتتهم، ونجا بها أميرها أبو سفيان بن حرب، وقد حكى الله ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ وقد فسرنا الآية في موضعها المناسب، وبيّنا ما فيها من هذا المعنى مستشهدين بحديث أبي أيوب عند الترمذي الذي سقناه أكثر من مرة لتطلّب المناسبة لهذا المساق..

وقد جاء في هذا الحديث قول بعض الصحابة رضي الله عنهم والنبي ﷺ يشاورهم ويقول لهم: «ما رأيكم في لقاء القوم؟» بعد أن ذهبت العير ناجية إلى مكة: لا طاقة لنا بقتال القوم، عليك يا رسول الله بالعير، فإنها ليس دونها أحد، فيزيدهم الله تعالى في معاتبته لهم شدة ـ ويذكّرهم إن أخذ العير أو لقاء النفير وعد صادق من الله لا يتخلّف، وقد فاتتكم العير، فلم يبق لكم إلا ملاقاة النفير ينبغي لكم أن تخرجوا لملاقاته فهو أعظم فائدة لكم من العير، لأنه برجاله وغنائمه قد صار موضع تحقيق الوعد، فلا تتهيبوا ما فيه من قوة عددية في الرجال وقوة عتادية في الأسلحة والأموال، فإنكم ستغنمونها وتقتلون صناديد أعدائكم وتأسرون أشرافهم، وتشرِّدون فلّالهم، وتفزعون فرّارهم تحقيقاً لوعد الله الذي لا يتخلف فقال لهم عز شأنه: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ـ العير أو النفير ـ أنها لكم﴾ وقد تعيّن هذا الوعد في النفير بعد فوات العير، ولكنكم تهيَّبتم لقاءه وغفلتم عن وعد الله لكم، وارتبطت همتكم وعزائمكم بالتطلُّع إلى العير لسهولة أخذها وما فيها من عرض الدنيا، لأنها ضعيفة الشوكة قليلة الحامية، فوددتموها لذلك كما أخبر الله في قوله جل شأنه: ﴿وتودُّون أنَّ غير ذات الشوكة ـ أي العير ـ تكون لكم﴾ لما فيها من الأموال، التي ليس لها قوة كافية للدفاع عنها، ولا تحقق لكم إلا غرضاً شخصياً هو الحصول على عرض الدنيا الزائل الفاني ونسيتم أن لقاء النفير والظفر به يحقق إرادة الله في إعزازكم، وإذلال عدوكم ونصركم عليه، وهزيمته أمامكم، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته، ويقطع دابر الكافرين﴾ ليثبت الحق في مغارزه، ويزيل الباطل عن منازله.

ثانياً: مخالفة أهل بدر في تعجّلهم إنهاء المعركة بمجرد ظهور بوادر النصر الذي لم يكن متوقعاً عندهم ولا كان يمر بخيالهم، وإقبالهم على عرض الدنيا والاشتغال بجمع الغنائم واستبقاء الرجال لأخذهم أسرى قبل الإثخان في الأرض، لإضعاف شوكة العدو بتكثير القتل في رجاله وصناديده وأشراف جاهليته، والمبالغة في جراحاته لتوهين قوته، فقال لهم منتقلاً عن أسلوب الغيبة في إخبار النبي ﷺ بأنه ما كان من شأنه في نبوته ولا كان مما يمكن أن

يقع منه أن يكون له أسرى قبل أن يثخن في الأرض بإشباع سيوف مجاهدي كتائبه من أعناق الكافرين المحاربين له الذين يريدون القضاء على دعوته ومجتمعه، قبل أن يبلغ في جراحاتهم ما يعجزهم عن مواقفة المؤمنين المجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله ـ إلى أسلوب المواجهة بالخطاب معاتباً لهم على ما كان منهم من مخالفة القيادة العليا في خططها، يريدون بهذه المخالفة عرض الدنيا الزائل، معرضين عن الآخرة وثوابها ونعيمها المقيم: ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم﴾ ومعنى هذا الأسلوب ـ الذي أوضحناه في الحديث عن وقعة بدر التي هي موضع النص، ونعيد بعضه هنا تأكيداً لإظهار الترابط بين بدر وأحد ـ (ما كان لنبي) الذي أُخبر به النبي ﷺ إعلاماً له بما كان عليه الأنبياء قبله من شأن وحال وهو خاتمهم وجامع فضائلهم ـ نفي أن يقع منه ذلك كما هو منفي عن إخوانه الأنبياء وتنزيه له عن الاتصاف به، فهو أسلوب نفي وتنزيه لا أسلوب نهي صريح ولا ضمني ـ كما صرح به أبو حيّان في تفسيره ـ فهو في الحقيقة مدح وثناء افتتح به عتاب الذين كانوا سبباً لكينونة ما لا ينبغي أن يكون. . والمخالفة الأولى لأهل بدر، وهي كراهية فريق منهم الخروج إلى لقاء النفير ومقاتلتهم، كانت في مقدمات المعركة قبل نشوبها والمخالفة الثانية كانت في نهاية المعركة وتصفيتها. .

التشابه بين مخالفات بدر وأحد واختلاف النتائج.

بيد أن أهل أحد عوقبوا على مخالفاتهم أوامر القيادة العليا، فتعرّضوا لفتنة الهزيمة والقتل والذهول عن مواقفهم حتى صار بعضهم يقتل بعضاً دون قصد ومعرفة من شدة ما انتابهم من الفوضى والدهش؛ مما أدّى إلى فرار جمهورهم عن النبي ﷺ حتى تعرّض لأشد البلاء وأقسى المحن، فقد أصيب ﷺ بأبلغ الجراحات ودُمي وجهه الشريف، وكسرت رباعيته، ودخلت حلق المغفر في وجنته الطاهرة، ووقع في حفرة مما كادهم بها أبو عامر الفاسق، فلم يستطع النهوض للخروج منها حتى أنهضه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ـ لأنهم خالفوا وحي الرؤيا، وكما كانت المخالفة الأولى لأهل بدر في مقدِّمات المعركة قبل نشوبها كانت المخالفة الأولى لأهل أحد في مقدمة المعركة قبل احتدامها، غير أن مخالفة أهل أحد الأولى كانت على عكس

مخالفة أهل بدر الأولى، لأن مخالفة أهل بدر كانت كراهية فريق منهم لقاء العدو وتهيب قتاله لقلة عددهم وضعف عُدّتهم، وكثرة العدو وقوة عتاده..

وأما مخالفة أهل أحد فكانت ممثلة في شدة حرصهم على الخروج إلى العدو ومقاتلته خارج المدينة لإعلاء كلمة الله، ولكن منهج الرسالة لا يقر مخالفة القيادة العليا على أيّة صورة كانت تلك المخالفة ولا سيما أن القائد الأعلى في المعركة هو رسول الله ﷺ الذي تجب طاعته نبياً ورسولاً وقائداً دون نظر إلى جهة المخالفة، وكان رسول الله ﷺ قد أخبرهم برؤياه وهي وحي من عند الله يقتضي وجوب متابعته وطاعته واطّراح العواطف وعدم الالتفات إليها، لأن النبي ﷺ أعلم بالله بما يريد من كل أحد منهم، وقد أبدى لهم في تأويل رؤياه دوافع عدم الخروج من المدينة وأن القتال في فجاجها أضمن لنصر المؤمنين..

إعداد الناس للخروج إلى المعركة في أحد وعقد الألوية.

وبدأ رسول الله ﷺ يهيىء الناس للمعركة خارج المدينة حفاظاً على الوحدة الإيمانية للمجتمع المسلم، فعقد ثلاثة ألوية: لواء للأوس جعله بيد أُسيد بن حضير، ولواء للخزرج جعله بيد سعد بن عبادة، ولواء للمهاجرين أعطاه علي بن أبي طالب، وكان رسول الله ﷺ قد سأل عمن يحمل لواء المشركين فقيل له إنه بيد طلحة بن أبي طلحة العبدري، فقال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالوفاء منهم» فأخذه من علي ودفعه إلى مصعب بن عمير، لأنه من بني عبد الدار بن قصي، وكان عبد الدار بِكْر قصي فجعل إليه اللواء والحجابة والسقاية والرفادة، وكان قصي مطاعاً في قومه لا يرد عليه شيء صنعه، فجرى ذلك في عبد الدار وبنيه حتى قام الإسلام، فإلى هذا أشار ﷺ بقوله: «نحن أحق بالوفاء منهم» يعني الوفاء بعهد قصي في جعل اللواء في بني عبد الدار، وخرج ﷺ يمشي على رجليه، وفي رواية أنه كان راكباً فرسه السكب، والناس حوله يحفُّون به عن يمينه وعن شماله، وأقام على الحرس محمد بن مسلمة، وقيل ذكوان بن عبد قيس، وخرج السعدان: سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج يعدوان بين يدي رسول الله ﷺ حتى بلغ الركب ثنية الوداع ـ وإذا رسول الله ﷺ بكتيبة خشناء لها زجل بأصواتها الصاخبة المدوية فسأل عنها فقال:

كتيبة يهودية يردها رسول الله ﷺ عن الخروج معه.

«من هؤلاء؟» فقال له أصحابه: هؤلاء حلفاء عبدالله بن أبي في ستمائة من مواليه اليهود، فقال ﷺ: «وقد أسلموا؟» قالوا: لا يا رسول الله قال ﷺ: «مروهم فليرجعوا، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين» وعند ابن سعد «لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك» وهي أنسب لما فيها من وضع مبدأ عام للمجتمع المسلم في مستقبله، وهذا الحديث أخرجه الطبراني في معجميه الكبير، والأوسط برجال ثقات عن أبي حميد الساعدي، وقد أطلق النبي ﷺ على هؤلاء اليهود اسم المشركين وفي هذا الاطلاق دلالة على أنهم كانوا غير المنافقين من شيعة عبدالله بن أبي الذين خرجوا معه، ثم انخزلوا عن جيش المسلمين قبيل نشوب المعركة لأن المنافقين لم يطلق عليهم اسم مشركين، وإن كانوا أشد كفراً وخبثاً من المشركين.

وفي رواية عن الزهري أن الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ في الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة فقال ﷺ: «لا حاجة لنا فيهم» ومعنى هذا الاختلاف بين الروايات أن الأنصار رأوا من مواليهم اليهود رغبة لم يدركوا ما فيها من مكر في أن يخرجوا معهم لقتال مشركي مكة وألفافها ومرتزقتها الذين استأجرهم أبو سفيان بأموال عير قريش، فلم يعارضوهم، ورأى اليهود بخبثهم أن هذه فرصة فليهتبلوها ليكيدوا المسلمين في ميدان المعركة كيداً خبيثاً لا يعلم عواقبه الوخيمة إلا الله تعالى، فتأهبوا للخروج وأعدوا له عدتهم وكوّنوا كتيبتهم الخشناء بقوة حسبوا فيها للمستقبل القريب والبعيد حسابه، وخرجوا ولهم زجل وأصوات صاخبة لا يُدرى مصدرها في نفوسهم، ورأى الأنصار بحسن نية وضمير مخلص طاهر أن يستأذنوا النبي ﷺ في السماح لمواليهم اليهود أن يخرجوا معهم ليحاربوا مشركي مكة القادمين بعددهم وعُددهم لمحاربة المجتمع المسلم وليثأروا لقتلاهم في بدر. ولكن النبي ﷺ إذ رأى اليهود سأل عنهم فأخبروه خبرهم، فاستأذنوه لهم فأبى ﷺ، وردَّ استئذان الأنصار بأسلوب سياسي محكم فقال لهم: «من هؤلاء؟» فقالوا: هؤلاء حلفاء عبدالله بن أبي في ستمائة من مواليه اليهود فقال رسول الله ﷺ: «وقد أسلموا؟» فقال الصحابة: لا يا رسول الله، فقال «مروهم فليرجعوا، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين» وقد قدمنا رواية ابن سعد بلفظ: «لا تستنصروا

بأهل الشرك على أهل الشرك». .

والمقصد من ذلك أن ينبه رسول الله ﷺ مجتمعه المسلم إلى لون من الحذر في حياته المليئة بالمفاجآت ولدد العداوة، فلا يستقيم لهذا المجتمع المسلم أن يأمن كل من لم يكن معه في وحدة الإيمان والعقيدة أن يداخله ويعرف أسراره في معاركه الجهادية التي يقاتل فيها لإعلاء كلمة الله. .

مبدأ عدم الركون إلى أعداء الإسلام في الاستنصار بهم.

وهذا سبب عام في عدم الركون إلى أعداء الإسلام والاستعانة بهم، وهو من أهم دعائم منهج الرسالة الخالدة وأقوى حصونها التي تحميها من المفاجآت الغادرة التي يديرها أعداء هذا المجتمع المسلم لوقف مسيرته بل للقضاء عليه. وقد حرص القرآن الكريم على تنبيه المسلمين إلى ما في إغفال هذا السبب من خطر على الإسلام والمسلمين، كما يؤذن بذلك الكثير من الآيات المحذِّرة في صراحة لا تحتمل التأويل والتردد والاحتيال على النصوص لوضعها في غير موضعها.

ولو لم يكن في ذلك إلا قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدِّوي وعدوَّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾[1] وأي إلقاء بالمودّة أكثر من أن يستعينوا بهم ويداخلوهم في معاركهم الجهادية، ويعرفوا أسرارهم ويقفوا على مقادير قواهم المادية في حروبهم وطرائق تدبيرهم وأساليب قتالهم. . وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فإنه منهم﴾[2] وقوله جل شأنه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودُّوا ما عنتّم، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾[3].

وهناك وراء هذا السبب في عدم الركون إلى المشركين وائتمانهم على مصالح المجتمع المسلم أسباب خاصة تؤكد وجوب مباعدة كل مخالف في

---

(١) أول سورة الممتحنة.

(٢) المائدة آية (٥١).

(٣) آل عمران آية (١١٨).

الدين والعقيدة، وهذه الأسباب تغطِّيها السياسة الماكرة وتكشفها المعاملة الباغية . .

وننبه إلى أن هذه المباعدة لأعداء الإسلام والمسلمين لا يدخل فيها سوء المعاملة في العشرة الدنيوية لأن الله تعالى يقول للمؤمنين: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾[1] وسوابق اليهود في الغدر والخيانة ونقض العهود، وسوء الكيد للمسلمين والمكر بهم، والتحريض على حربهم ولا سيما بعد انتصارهم في وقعة بدر التي كشفت عن ذات صدورهم معلومة. ولعل هذه السوابق تمثلت لرسول الله ﷺ فرأى فيها كل سوء فأبى أن يقبلهم في حشد كتائبه، وأمر بهم أن يرجعوا واكتفى في تنبيه أصحابه بذكر السب العام الذي يوجب أن لا يقبلوهم معهم في صفوفهم لمحاربة المشركين، وأن لا يستعينوا بهم على المشركين، لأنهم أقرب إليهم في الكفر وعداوة الإسلام والمسلمين.

وهذا الجانب من منهج رسالة الإسلام مما أهمله المسلمون حتى أصبح خلصاء حكام المسلمين وأصفياؤهم، المداخلون لهم في سياسة شعوبهم، والمتحكِّمون في سياستهم وثرواتهم، الراسمون لخططهم في حياتهم التعليمية ومناهجهم الثقافية وبرامجهم التربوية وأنظمتهم الاجتماعية وخططهم الاقتصادية ـ كلهم من المشركين أصالة أو إلحاداً، فالمسلمون اليوم إما داخلون تحت سلطان الإلحاد الشيوعي أو منحازون إلى الكتلة الصليبية المقنعة مما يبعدهم أشد البعد عن منهج رسالة الإسلام، ولن يعود لهم عزهم حتى يعودوا إلى منهج رسالتهم.

* * * * *

وكان مجموع من خرج مع رسول الله ﷺ بعد المشاورة والانتهاء إلى الخروج عن المدينة ألف رجل بما فيهم شيعة عبدالله بن أبي رأس النفاق

---

(١) الممتحنة آية (٨).

والمنافقين وكانوا ثلاثمائة رجل، وسار الركب حتى بلغ مكاناً يقال له الشوط بين المدينة وأحد، وعند ابن سعد وانتهى إلى أحد إلى موضع القنطرة اليوم..

انخزال ابن أبيّ بثلث الجيش سياسة مبيتة بين اليهود والمنافقين.

وانخزل ابن أبيّ من ذلك المكان، وقال ابن أبي يعتذر عن انخزاله - وهو كاذب -: عصاني - يقصد رسول الله ﷺ - وأطاع الولدان ومن لا رأي له فعلام نقتل أنفسنا؟ فتبعهم عبدالله بن حرام والد جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، وكان خزرجياً من قوم ابن أبيّ نسباً، فقال للمنخزلين ولم يكن على علم بنفاقهم: أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم بعد ما حضر عدوهم، فقالوا له كاذبين: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أن يكون قتال، ومضوا مدحورين مخذولين وأبوا أن يستجيبوا لعبد الله بن حرام، فقال لهم لمّا يئس منهم: أبعدكم الله يا أعداء الله فسيغني الله نبيه عنكم..

وقد ذكر الله قصة هؤلاء المنافقين في انخزالهم وخذلانهم يفضحهم ويكشف نفاقهم وجبنهم في قوله تعالى خطاباً للمؤمنين يسلّيهم عن انخزال أولئك المخذولين، ويربط على قلوبهم بروابط الإيمان، ويثبت أقدامهم بعزائم الجهاد: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون﴾[1].. وقد كان لهذا الانخزال المخذول أثره السيء الذي قصده المنافقون من تثبيط عزائم المؤمنين وإدخال الخور في قلوبهم، قال موسى بن عقبة في مغازيه وسيرته: فلما انخزل ابن أبي بمن معه سقط في أيدي طائفتين من المسلمين وهمّا أن يقتتلا، وهما بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الأوس، وفي صحيح البخاري عن جابر ابن عبدالله رضي الله عنه قال: فينا نزلت ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما﴾ قال جابر: نحن الطائفتان بنو حارثة، وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقول الله عز وجل: ﴿والله وليهما﴾ قال الحافظ ابن حجر: أي إن الآية وإن كانت في ظاهرها غضّ منهم لكن في آخرها غاية الشرف لهم،

أثر انخزال المنافقين في كتائب المسلمين وما أحدثه من البلبلة في صفوفهم.

(١) سورة آل عمران (١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨).

وقال ابن إسحاق: قوله: ﴿والله وليهما﴾ أي الدافع عنهما ما همُّوا به من الفشل لأن ذلك كان من وسوسة الشيطان من غير وهن منهم في دينهم. . .

قال القرطبي: والهمُّ من الطائفتين كان بعد الخروج لمَّا رجع عبدالله ابن أبي بمن معه من المنافقين فحفظ الله قلوبهم فلم يرجعوا، فذلك قوله: ﴿والله وليهما﴾ يعني حافظ قلوبهما عن تحقيق هذا الهم. وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن زيد: لما خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة أحد ورجع ناس ممَّن خرج معه وكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم: فنزل ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾. . . . وهذا الحديث أخرجه مسلم من حديث زيد بن ثابت وأخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، قال القرطبي: والمعنيّ بالمنافقين هنا عبدالله بن أبيّ وأصحابه الذين خذلوا رسول الله ﷺ يوم أحد، ورجعوا بعسكرهم بعد أن خرجوا.

انخزال المنافقين دسيسة مبيتة بينهم وبين اليهود لكيد المسلمين.

ولا شك عندنا أن هذا الموقف المخذول الخبيث من رأس المنافقين عبدالله بن أبيّ وشيعته من خبثاء النفاق وربائب اليهود كان موقفاً مبيّتاً مدروساً في تآمر خبيث بين المنافقين وأوليائهم من اليهود، أرادوا به المكر السيء بالمجتمع المسلم والكيد له ليحدثوا في صفوفه البلبلة والاضطراب واختلاف الكلمة، لأن هؤلاء المنافقين خرجوا بزعامة رأس النفاق عبدالله ابن أبي بن سلول مع حشد المسلمين حتى بلغ الركب إلى أقرب موضع لنشوب القتال، والمسلمون يرون أن ابن أبيّ ومن معه من شرذمة النفاق سيقاتلون معهم، وأنهم جند من معسكرهم، قد وضعوهم في حسابهم وخطتهم الحربية، حتى إذا حضر القتال انخزل هذا الخبيث ابن أبيّ المنافق بمن معه من المنافقين عن جيش المسلمين، فكشفوا أحد جناحيه، والأعداء يرونهم في انخزالهم مما أطمعهم في جيش المسلمين، وقلَّلهم في أعينهم وجرَّأهم عليهم، ولو لم يكن هناك مكر مبيَّت بين اليهود والمنافقين رسموا فيه خطة غدر بالمسلمين فلِمَ لم يقعد المنافقون بزعامة رأس النفاق ابن أبي عن السير مع حشد المسلمين قبل أن يخرجوا إلى عدوهم، وهذا الخروج كان ضد رأي ابن أبيّ، وكان عذره الذي انتحله ـ كاذباً ـ قائماً قبل الخروج؟ وإذا انضم إلى

هذا الموقف الانخزالي المخذول موقف الغدر الخبيث من كتيبة اليهود الخشناء التي خرجت دون علم بخروجها من النبي ﷺ، متظاهرين بأنهم يشدُّون عضد المسلمين بالقتال معهم في صفهم، وكانوا ستمائة دارع، فردَّهم رسول الله ﷺ فور علمه بخروجهم وأنهم مقيمون على كفرهم وشركهم، وأبى أن يقبل منهم أدّعاءهم الباطل، وقال لأصحابه: «مروهم فليرجعوا فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين» ولم يأمنهم على البقاء بين حشد المسلمين ورواية ابن سعد «لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك».

إذا تأملنا الموقف على هذه الصورة وجمعنا موقف المنافقين الخبثاء الغادرين إلى موقف اليهود ظهر جلياً أن هذا الموقف الخبيث من الطائفتين اليهود والمنافقين أنه كان كيداً مدسوساً على المسلمين، وكان رجوع كتيبة اليهود الخشناء قبل انخزال ابن أبّي وشيعته من المنافقين هو الدليل على ما أخفوه من الكيد للمسلمين.

كان رسول الله ﷺ على أتم العلم بغدر اليهود وخيانة المنافقين.

ولم يغب عن تقدير رسول الله ﷺ ووزنه للأمور أن هؤلاء وهؤلاء أعدى أعداء الإسلام ومجتمعه، وأنهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خبالاً، ولأوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة والفشل، فلذلك رد ﷺ كتيبة اليهود ولم يعبأ بانخزال ابن أبي وشيعته من أهل النفاق، ويقول القسطلاني في المواهب: ويقال: إن رسول الله ﷺ أمرهم - أي ابن أبيّ وشيعته أخابث المنافقين - بالانصراف لكفرهم. وهذا القول جدير بصيغة التمريض والضعف التي ساقه بها القسطلاني، ولا سيما أن تعليل هذا الأمر بالانصراف بالكفر بعيد لأن المنافقين وهم أخبث طوائف الكفر والإلحاد لم يعهد إطلاق الكفر عليهم، والقرآن الكريم غاير بينهم وبين عموم الكافرين في قوله: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ فعطفهم بوصفهم الخاص، وصف النفاق على الكفار، وهذا التعبير قد تكرر في القرآن لمقتضيات مناسباته.

وقد حاول الزرقاني في شرحه أن يجعل لهذا القول وضعاً في التأويل لما نقله عن بعضهم من الجواب عن التنظير فيه فقال: إن المعنى - أي في قوله:

شواهد العداوة الخبيثة بين اليهود والمسلمين في نصوص القرآن.

(أمرهم بالانصراف) أنه أمر بالكف عنهم وردهم إلى جيش المسلمين، ونهى عن طلب رجوعهم، فكأنه أمرهم بالانصراف حقيقة. ومع هذه المحاولة من شارح المواهب فإنه لم يأخذ مكانه في التأويل بل وصمه بالتعسف والجمع بين الأمر والنهي.

ولم يردّ النبي ﷺ عبدالله بن أبيّ وشيعته من أخابث المنافقين كما رد كتيبة اليهود الخشناء لأن اليهود مشركون يُعرف شركهم وغلظ كفرهم وسوء عداوتهم للنبي ﷺ ودعوته ورسالته، وما رُكب في طبعهم من حب الغدر والخيانة ونقض العهود وتدبير المكايد للمسلمين.

وقد سجل الله تعالى سوء ما انطوت عليه جوانحهم من الحقد والحسد والضغن في سورة البقرة وهي أول سورة نزلت بالمدينة، واليهود فيها متوافرون عدداً وأموالاً وحصوناً ومزارع وتجارات، ففضحتهم وكشفت أسرارهم وسرائرهم فقال تعالى: ﴿ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾[1] وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾[2]. .

وأما المنافقون فلم يكن العلم باستبطانهم الكفر وسوء الكيد للإسلام والمسلمين شائعاً بين المجتمع المسلم بالنسبة لأفرادهم، وكان تستر النبي ﷺ عليهم وعدم أخذهم بما يصدر عنهم من جرائم وآثام، ومعاملتهم في الظاهر معاملة المسلمين، وإخباره أصحابه بحكمة ترك قتل من يستحق منهم القتل في غير حدّ بأنهم يصلون مع المسلمين، وبأنه قتلهم مع تظاهرهم بالإسلام مما يساء تأويله لمن لم يعرف سياسة الإسلام في معاملة فئات الناس، فيقولون إن محمداً يقتل أصحابه أخذاً بظاهر حالهم ومداخلتهم للمجتمع المسلم في صلواته وجوامع أمره، وهذا مما يعوِّق سير الدعوة والإقبال عليها. .

فلهذا بادر النبي ﷺ برد كتيبة اليهود، ولم يرض أن يكونوا في صفوف

---

(١) سورة البقرة آية (١٠٩).
(٢) سورة آل عمران آية (١٠٠).

جيشه لأنهم مشركون، ولا ينبغي للمجتمع المسلم أن يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك لأنهم غير مأمونين على نصرة الإسلام والمسلمين، ولا سيما أنه كانت لليهود بالمدينة في صدر الهجرة شوكة وقوة مادية يحسب حسابها ويخشى غدرها، ولم تكن للمنافقين شوكة يخشى من عواقبها لأنهم عرفوا بالجبن والتستر وراء أستار ظلام النفاق، فخطرهم ضعيف لا يقام له وزن ولا يعمل له حساب، وقد دمغهم الله بذلك في قوله جل شأنه: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرَقُون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدّخلاً لولّوا إليه وهم يجمحون﴾[1] على أن بعضهم كان معروفاً لدى النبي ﷺ وأكابر أصحابه، وكانوا يعيشون بين المجتمع المسلم كما تعيش الطفيليات المفسدة للزروع والثمار، وكان المجتمع المسلم يداريهم لضعف وزنهم واتقاء شرهم في الأراجيف وإشاعة السوء، وإغضاء عن شرورهم بإهمالهم حفظاً لوحدة المجتمع المسلم لأنه كان في أقوامهم من تحمله العصبية القومية على الغضب لهم وإثارة الفتنة عصبية لقوميتهم.

ويؤكد ذلك نزول آية ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾ عند انخزال ابن أبّي وشيعته واختلاف المسلمين في شأنهم إلى فئتين، فئة تقول: نقاتلهم، والأخرى تقول: لا نقاتلهم.

بعد انخزال ابن أبّي بثلث من خرج مع رسول الله ﷺ إلى قتال عدوّه وكانوا ثلاثمائة بقي جيش المسلمين في سبعمائة مقاتل معهم مائة درع وفرس أو فرسان، وكان هؤلاء هم خلاصة صفوة المجاهدين، فصفّهم رسول الله ﷺ وعدَّل صفوفهم وهو يرى أعداءه، وأعداؤه يرونه، وجعل على الحرس محمد ابن مسلمة في خمسين رجلاً، خشية غدر المشركين.

أوامر رسول الله ﷺ للرماة ووعظه لهم

وأقبل ﷺ عليه أداة الحرب درعان ظاهر بينهما ومغفر وبيضة، وجعل أحداً خلف ظهره مستقبلاً المدينة، وجعل عَيْنَيْن ـ جبل قريب من أحد ـ عن يساره وأقام عليه الرماة، وكانوا خمسين رجلاً أميرهم عبدالله بن جبير،

(١) سورة التوبة آيتا (٥٦، ٥٧).

فوعظهم محذِّراً منذراً، وأوصاهم فقال لهم: «قوموا على مصافِّكم هذه واحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا انتصرنا فلا تشـركونـا، وإن رأيتمونـا نقتل فـلا تنصرونا». .

وفي صحيح البخاري أنه ﷺ قال لهم: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزَمْنـا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم» وعند ابن إسحاق: «انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا» وفي رواية «وارشقوهم بالنبل، فإن الخيل لا تقوم على النبل، إنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم». .

نظرة بحث وتحقيق في وصايا رسول الله ﷺ للرماة ومخالفتهم لها.

ولا بد لنا من وقفة أمام هذه الوصايا الحكيمة الصريحة الحازمة القوية البالغة في قوتها مبلغ أعمق ما يمكن أن يوصي به قائد جنده وهو على نفس المعركة لكتيبة من جيشه، عقد بنواصيها النصر المؤزر إن هي وعت الوصية وصبرت وصابرت، ولم تهتز قناتها، أو الهزيمة المدمرة إن هي تخلخلت في موقفها فلم تقو على تحمل مرارة الصبر والمصابرة واستزلهم الشيطان بتزيين الدنيا لهم.

تلك هي طائفة الرماة وكتيبة حامية جيش المسلمين أن يؤتى من خلفه في هجوم خاطف يفقده نظامه العسكري، ويفسد عليه خطته للمعركة، ويتبدد تدبيره الذي أحكم وضعه على أساس وضع الرماة وموقفهم في تنفيذ ما كلِّفوه من الثبات في أماكنهم.

ونحن وإن كنا لسنا من أهل العلم الحربي، والسياسة العسكرية، ولا من ذوي الخبرة بخصائص المواقف الحربية وما ينبغي فيها من تحركات الجيوش وكتائب المحاربين، لكنا نقرأ ونحاول أن نفهم ما نقرأ، وقد نستعين بمباحثة أهل الدربة والتجربة من فنيي الحرب ورسومها العسكرية.

وللحروب كتب ووثائق تتحدث بإفاضة عن الوقائع الحربية في القديم والحديث، والمتحدثون فيها من المتخصصين في فن القيادات الحربية الذين يرسمون خطط المعارك الحربية على مقتضى طبيعة الحياة والأرض والأسلحة

والقوة البشرية وما وصلت أو ما يجب أن تصل إليه من تدريب وخبرة، ومعرفة موقف الأعداء من هذا كله وتقدير ما يجري من خداع في الخطط المعلنة وغير المعلنة . .

وقد استفدنا مما قرأناه في هذه الكتب والوثائق التي سمحت بنشرها المواقف التاريخية أن سلاح الرمي ـ وهو في الاصطلاح الحديث للحروب سلاح الطيران في عمومه، وسلاح القاذفات في خصوصه ـ هو أهم أسلحة الحرب؛ لأن هذا السلاح قد يوجه ضربة قاضية تحت ستار خدعة مدبرة إلى جيش أعدائه فيشل بها حركته، بل قد يقضي عليه وعلى كثير من أسلحته الزاحفة، سواء أكانت هجومية أو دفاعية وتحل الهزيمة هنا، وتخفق ألوية النصر هناك . .

ومن ثَمّ كانت الأهمية البالغة للوصية التي خص بها النبي ﷺ بوصفه قائداً عسكرياً كتيبة الرماة في غزوة أحد، لأن جو المعركة في هذه الغزوة كان يتطلب إعداد سلاح الرمي، وإعداد كتيبته من المتخصصين في استعمال هذا السلاح، كما كان جو المعركة يتطلّب التوجه إلى كتيبة سلاح الرمي بأوامر قياديّة خاصة بالرماة، توجه إليهم في صور وأساليب منذرة محذّرة . .

فالنبي ﷺ إذا تحدّث إلى فرقة الرماة ـ بعد أن وضعهم في مكان الحماية لظهر الجيش ـ إنما يتحدث بهذه الأوامر والوصايا الحكيمة الحازمة الصارمة إليهم بوصفه القائد الأعظم للمعركة.

وقد أعلمهم في وصاياه بصراحة لا تحتمل التأويل بما لا يكون للعلم الموثّق والمعرفة المؤكدة سبيل وراء ما أوصاهم به، وحذّرهم من مغبة مخالفته، ملقياً على استجابتهم أو عدم استجابتهم عبء المعركة، ومحمِّلاً لهم نتائجها في النصر أو الهزيمة.

ولم يترك ﷺ تعبيراً في أسلوب القيادات الحربية المحذرة إلا حدّثهم به في أوامره ووصاياه، وأراهم منافع المحافظة على هذه الأوامر والوصايا، وبيّن لهم مضار ووخامة التهاون والغفلة عنها، وعرفهم مكانتهم ووزنهم الخطير في موقفهم لحماية ظهر الجيش، لأن الجيش الذي تحمي ظهره قوة يثق بها،

ويطمئن إلى يقظتها وحرصها عليه يجعل ثقله كله في حملته على بؤرة جيش أعدائه.

عبارات التحذير للرماة كانت واضحة في قوتها وصرامتها.

ومن أجل هذه الأهمية العظمى لهذه الحماية أبرزها القائد الأعظم محمد ﷺ في أسلوب القيادة الحازمة والأوامر الحربية الصارمة، وصاغها في عبارات تكاد تكون معجزة في معانيها ومراميها، وإن كانت قد جاءت في سهولة بيانها وسماحة تعبيرها من قبيل الأحاديث المرسلة في معالم الحياة، خالية من الغموض والتعقيد حتى لا تترك مجالاً للتأويل والتحريف، ولو لم يكن فيها إلا قوله ﷺ: «إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم» لكفى لمن كان له قلب لا تستهويه الدنيا بزخارفها.

هذه الوصايا والأوامر نضعها بين يدي أهل الاختصاص من قادة الحروب وساسة المعارك لأنهم هم أهلها وأحق الباحثين بالنظر فيها وبيان مقاصدها وأهدافها، حتى يتبين من دراستها فنياً مدى مبلغ رسول الله ﷺ من العلم في سياسة معاركه، فوق إنافته على المستوى القيادي في معرفة أقدار فئات الكتائب المحاربة وفرق الجيش، والأسلحة التي تتجهز بها كل فرقة في حدود اختصاصها في كل موقعة على مقتضى وضعها الجغرافي والسياسي والعسكري.

ونحن لا نستطيع أن نصدر أحكاماً في الأمور الفنية الاختصاصية التي يقصر إدراكنا الدراسي عن فهم مداخلها وأسرارها.

بيد أننا نبادر إلى القول بأننا لم نر في مطالعاتنا وقراءاتنا من زعم أن شيئاً من الإعجاز قاد زمام هذه المعركة، بل إنها كانت تدار بمحض القوة الفكرية التي أوتيها رسول الله ﷺ بوصفه قائداً عسكرياً وسياسياً حربياً، ومن هنا كانت هذه الواقعة بشرية في مباديها ونهاياتها.

وصل النبي ﷺ إلى مشارف أحد ومعه أصحابه الذين خرجوا معه للمعركة، وتراءى الجمعان، جمع المسلمين الذين أخذ رسول الله ﷺ في تعبئتهم وتسوية صفوفهم، ورأى في الجيش عدداً من الشباب الذين لم يبلغوا سن الجهاد والصبر على عض السيوف، فرد ـ كما يقول الإمام الشافعي ـ سبعة

عشر شاباً كانوا في حدود الرابعة عشرة سنة، رحمةً بهم وإشفاقاً عليهم، فلما استداربهم الزمان أجازهم في العام المقبل، وكان هؤلاء الشباب في جمهرتهم نخبة ممن حملوا في مستقبل حياتهم لواء العلم بالسنة وقيادة الجيوش في الجهاد لإعلاء كلمة الله ونشر راية التوحيد، وكتابة الوحي ورسائل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأقيال والفتوى والرواية عن رسول الله ﷺ وعن أكابر أصحابه.

رد عدد من شباب الصحابة استصغرهم رسول الله ﷺ عن شهود المعركة.

وكان في مقدمة هؤلاء الأشبال من خُلّص شباب الصحابة الحبّ ابن الحِب أسامة بن زيد، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وزيد بن ثابت، وأسيد بن ظهير، وعرابة بن أوس الذي يقول فيه الشمّاخ:

إذا ما راية رفعت لمجد　　　تلقّاها عرابة باليمين

والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وسعد بن عقيب، وسعد ابن حبته، وزيد بن جارية الأنصاري، وجابر بن عبدالله الراسبي أو العبدي، وهو غير جابر بن عبدالله بن حرام الأنصاري أحد رواة السنة، وعمروابن حزم، ورافع بن خديج، وأوس بن ثابت الأنصاري، وسمرة بن جندب..

ومن الطريف في قصة هؤلاء الأشبال أن النبي ﷺ أجاز رافع ابن خديج بعد أن ردّه كما ردّ أقرانه المساوين له أو القريبين من سنه، إذ قيل له ﷺ: إن رافعاً يحسن الرمي، فبلغ ذلك سمرة بن جندب، فراح إلى زوج أمه مرّي بن سنان بن ثعلبة عم أبي سعيد الخدري وهو الذي ربى سمرة في حجره ـ يبكي وقال له: يا أبت أجاز رسول الله ﷺ رافعاً وردَّني، وأنا أصرع رافعاً، فرفع زوج أمه ذلك إلى النبي ﷺ، فالتفت النبي ﷺ إلى رافع وسمرة فقال لهما تصارعا، فصرع سمرة رافعاً فأجازه كما أجاز رافعاً وجعلهما من جنده وعسكر كتائبه، ولكل منهما مجاله واختصاصه الذي لا تستغني عنه وقائع الحرب، وموضع الطرافة في هذه الأطروفة التي تمثل جانباً من جوانب منهج الرسالة في تربية النشء أن رسول الله ﷺ أجاز رافعاً إذ أجازه دون أقرانه في السن لامتياز حربي امتاز به على غيره منهم، وإنما ردّ ﷺ من ردّهم خشية أن لا يكون لهم صبر على عض السيوف، ووقع السهام، ووخز

أطروفة في الرد لصغار الصحابة.

الرماح، فيفروا من المعركة إذا مسهم لفح أوارها، فيحدث فرارهم خلخلة في صفوف المسلمين، فلما قيل لرسول الله ﷺ: إن رافعاً يحسن الرمي، والرمي هو رأس القوة في الحرب وبه فسَّر رسول الله ﷺ القوة في قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ فقال وهو على المنبر: «ألا إنّ القوة الرمي» ثلاث مرات ـ قبل رافعاً وأجازه، لأنه بإحسانه الرمي يؤدي للجيش من الأعمال الحربية ما لا يستطيع أن يؤديه ذوو الأسنان العالية، لأن الرمي لا يتطلَّب علواً في السن لكنّه يتطلَّب علماً ومعرفة ودربة وسواعد قوية.

بَيْد أن حمية الشباب والغَيْرة على مواقف البطولة في ظل الإيمان والجهاد لإعلاء كلمة الله بعثت في نفس سمرة بن جندب حماسة عارمة، فرفع أمره إلى رسول الله ﷺ بأنه أوتي قوة بدنية ودربة في المصارعة يستطيع بها أن يصرع رافعاً، وهذا امتياز تتطلبه الحرب لا ينزل في ميدان المعارك عن مستوى إحسان رافع الرمي.

وأراد الرسول ﷺ وهو القائد الأعظم والمعلم المربي أن يُري أصحابه درساً عملياً في تربية النشء ليكون منهجاً لهم في تربية أولادهم لينهضوا في حياتهم أقوياء، ذوي مهارة على مواقف الغلبة في كل ما يفيد المجتمع المسلم في حياته ومستقبله، ليعيش بأفراده وجماعاته قوياً شجاعاً، لا تفارقه الجرأة على اقتحام المخاطر ووقائع الأحداث.

تعبئة كتائب الإسلام وموقف أبي عامر الفاسق.

ولما أكمل رسول الله ﷺ تعبئة كتائبه وسوّى صفوفهم، والمشركون ينظرون إليه كان أول من ألقى به الشيطان في جحيم الغرور الفاجر فأنشب الحرب أبو عامر الفاسق، وكان يُدعى في الجاهلية الراهب لتبتله وترهبه، ولكنه كان فريسة للحسد الموبق الذي أضلَّه عن الهدى، ولم يكن يطيق أن يرى رسول الله ﷺ بالمدينة والمؤمنون من المهاجرين والأنصار حوله حافين بـه يفدونه بأعز ما يملكون، فخرج الفاسق عن المدينة مباعداً لرسول الله ﷺ وأنصاره ممن آمن منهم بالله ورسوله، وأبو عامر أوسي نغل صدره الحقد فهرب إلى مكة وأخذ معه فئة من غلمان قومه الأنصار أفسدهم وغرّهم،

وداخل قريشاً بعداوته للنبي ﷺ، وجعل يحرضهم على حرب المجتمع المسلم ويَعِدُهم ويمنّيهم ويكذب عليهم بزعمه أنه لو لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان، فأغرته قريش وجمعت حوله لفيفاً من عبدانهم وأحابيشهم وأخرجته في هؤلاء الغوغاء معها إلى أحد.

ورأى أبو عامر الفاسق كتائب المجتمع المسلم في تعبئتها في ظل وحدة الإيمان والتآخي التكافلي، وفيهم قومه الأوس يقفون في صدر صفوف المجتمع المسلم على أهبة القتال أمام حشد المشركين من قريش ولفائفها المستأجرين من أحابيش المرتزقة، وممن استهواهم أبو سفيان من القبائل الضاربة حول مكة، وممن بقي فيه نفس من فَلّ غزوة بدر الذين فروا هاربين يكاد الرعب يقتلهم، والفزع يمزقهم..

وخرج أبو عامر الفاسق متقدماً إلى صفوف المجتمع المسلم ليري قريشاً ما وعدهم به من الغرور والكذب، وما له من مكانة عند قومه، فنادى: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، فقالوا له: يكذّبونه ويفضحونه فيما أرجف به عنهم إلى قريش: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ـ هذا اللقب اسم سمّاه به رسول الله ﷺ ـ وكان في الجاهلية يسمّى (الراهب). وعند ابن سعد في طبقاته أنهم قالوا له: لا مرحباً بك ولا أهلاً يا فاسق.

حنظلة الغسيل ابن أبي عامر كان ليلة المعركة معرساً فخرج جنباً إلى المعركة.

ومن عجيب تقدير الله في حكمته أن حنظلة غسيل الملائكة في أحد، وهو ابن أبي عامر الفاسق كان في الليلة التي في صبحها دارت المعركة قد بنى بأهله، فلما سمع الهَيْعة أخذ سيفه وطار إلى المعركة فقاتل وقتل شهيداً، ورآه النبي ﷺ والملائكة تغسله، فسأل عن شأنه وقال: «اسألوا أهله» فسألوا زوجته وهي أخت عبدالله بن أبي بن سلول، فذكرت لهم ما كان منه معها وهي عروس ليلتها، وخرج وهو جنب لم يغتسل، فلما استشهد غسلته الملائكة، وهكذا تتجلّى قدرة الله تعالى في قوله تعالى: ﴿يخرج الحيّ من الميِّت﴾ فأخرج حنظلة الغسيل من أبي عامر الفاسق اللعين.

ولما سمع أبو عامر الفاسق ردّ قومه عليه، ونبزهم له باللقب الذي سمّاه به رسول الله ﷺ جن جنونه، فقال ينفح عن نفسه ويداري فضيحته

أمام مشركي قريش ويدفع عنه خزي موقفه وأنه لا شيء عند قومه ولا وزن له في تقديرهم، وكان في مكة يتكذّب للناس، ويريهم أنه سيقود قومه إلى قريش ليكونوا معهم في محاربة محمد ﷺ ومجتمعه المسلم: لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ، وقد جمع كيده وجهده في قتال قومه الذين أكذبوه ونبزوه باللقب أمام مَنْ خدعهم من شظايا قريش، وكان هو ومن معه من عبدان قريش وأحابيشها يترامون مع قومه بالحجارة ترامياً شديداً حتى أزلق أبطالُ الأوس هذا الفاسق وعبدانه وأحابيشه، ففرّ هو ومن معه من عبدان قريش ولفائفها هارباً إلى مكة لا يلوي على شيء.

فَجْأَةُ انكشاف موقف أبي عامر لدى قريش.

تيقظت قريش من ذهول سكرتها بغرور أبي عامر الفاسق وعرفت أنه ليس أكثر من طبل أجوف متورِّم بالأكاذيب الفاجرة، فتركته في فراره وهربه ولم تأبه لفراره لأنه كان في فراره من تساقط الحجارة عليه وعلى من اغترّبه من العبدان والأحابيش كوجوده بين حشودها المحاربة لا يُحلي ولا يُمر، ولا ينفع ولا يضر، وعادت على نفسها باللائمة المعنّفة إذ جعلت لهذا الفاسق قدراً فوق قدره ووزنته بميزان غير موازين أمثاله، لأنه مقتول الروح والضمير، ضائع كذوب، وتوهمته قريش شيئاً تعتمد عليه في حربها مع المجتمع المسلم وهي حرب جمعت لها المرتزقة من الأحابيش، ولفائف المفزَّعين من القبائل الضاربة حول مكة الذين جاءتهم النذُر من بين أيديهم ومن خلفهم تحمل إليهم دوي النصر المؤزر في بدر، ذلك النصر الذي أشجى قريشاً ولفّها من أحلاس الشرك وعبيد الوثنية، ودنا الجمعان بعضهم من بعض بعد فرار أبي عامر الفاسق المتكذب، وأوتر الرماة قسيهم يرشقون بها خيل المشركين فتوليِّ جامحة تحطم كل ما يعترض شرعها وهي هاربة من مواقع النبل ورشق القسي لأنها كما قال رسول الله ﷺ في وصيته للرماة، لا تقوم على النبل.

طلحة بن أبي طلحة العبدري كبش حشود قريش يدعو إلى المبارزة فيصرعه عليّ أو الزبير رضي الله عنهما.

وهنا يصيح حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري لينقذ موقف قومه الذي بدأ يتدهور: من يبارز؟ فيبرز له يعسوب الإسلام وصنديده علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فيلتقيان بين الصفّين، ويبادره عليّ بضربة على رأسه فيفلق هامته فخر صريعاً، وتركه عليّ ولم يجهز عليه، فقال له بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ فقال عليّ: إنه استقبلني بعورته

وعطفتني عليه الرحم، وعرفت أن الله قد قتله، وفي هذا وأمثاله يقول الشاعر معيِّراً هؤلاء الجبناء الذين يتقُون الموت بكشف سوآتهم:

أفي كل يوم فـارس غير منتـهٍ وعورته وسط العجـاجة بـادية

ويقول ابن كثير: وذكر يونس عن ابن إسحق أن طلحة بن أبي طلحة العبدري حامل لواء المشركين يومئذ دعا إلى البراز فأحجم عنه الناس، فبرز إليه الزبير بن العوام فوثب حتى صار معه على جمله ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه وذبحه بسيفه، فأثنى عليه النبي ﷺ، قال: «إن لكلِ نبي حوارياً وحواريّ الزبير» وقال: «لو لم يبرز إليه لبرزت أنا إليه لما رأيتُ من إحجام الناس عنه»..

تتابع حملة لواء الأعداء في مصارعهم.

وصُرع لواء المشركين مع حامله كبش الكتيبة طلحة بن أبي طلحة وسقط على الأرض، وقد سُرّ النبي ﷺ بقتل كبش كتيبة المشركين تحقيقاً لرؤياه المنامية التي رآها عشية ليلة الموقعة، وأظهر ﷺ التكبير وكبَّر المسلمون لتكبيره، وحمي وطيس المعركة، واشتدت حماسة المسلمين وقويت شوكتهم فشدوا بجمعهم على حشد المشركين يضربونهم حتى أنْقضوا صفوفهم.

وكان عثمان بن أبي طلحة قد رفع اللواء من الأرض فحمله بعد أن جندل عليّ أو الزبير أخاه طلحة بـن أبي طلحـة فحمل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب فتى فتيان قريش رضي الله عنه فضرب عثمان بـن أبي طلحة على كاهله فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره وبدا سحره، ورجع عنه حمزة رضي الله عنه وهو يقول منتشياً مفاخراً: أنا ابن ساقي الحجيج.

ثم أخذ لواء المشركين أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرته فأدلع لسانه ادلاع الكلب فقتله، فسقط اللواء صريعاً فتناوله كلاب بن طلحة، بن أبي طلحة فقتله الزبير بن العوام..

ثم حمل اللواء الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة، فقتله طلحة بن عبيد الله.

ثم أخذ اللواء أرطأة بن شرحبيل فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وحمل اللواء بعده شريح بن قارظ وهو أول من حمله من غير بني أبي

طلحة، فقتل شريح ولم يعرف قاتله من المسلمين.

وكأنما قضى على فرسان العدو فلم يبق حاملاً للوائهم إلا عِبْدانهم وغلمانهم، فأخذه بعد شريح غلام لهم يدعى صؤاب، وقاتل به حتى قطعت يداه، ثم برك عليه وأخذه بصدره وعنقه حتى قتل عليه وهو يقول: اللهم هل أعزرت؟ قال ابن كثير: يعني اللهم هل أعذرت؟..

فقال شاعر الإسلام حسان بن ثابت في ذلك، يعيِّر القوم بأن لواءهم لم يجد من يرفعه ويقاتل به إلا غلام من غلمانهم وقد نكلوا عنه جميعاً جبناً ورعباً:

فخرتم باللواء وشر فخر ... لواء حين ردّ إلى صؤاب
جعلتم فخركم فيه لعبد ... وألأم من يطا عفر التراب

وصؤاب هذا لم يشرَّف بأن يقتله مسلم، فضلاً عن بطل من أبطال المسلمين الذين قتلوا العبدريين، وإنما قتله قزمان الذي خرج وهو كافر مع المسلمين يقاتل حمية على أحساب قومه لا للإسلام..

قصة قزمان وإخبار النبي ﷺ بأنّه من أهل النار فمات منتحراً.

وقد ذكر قصته ابن إسحاق عن قتادة: قال كان فينا رجل أتّي لا يُدْرى من هو؟ يقال له قزمان، فكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكِر عنده قزمان «إنه من أهل النار»، فلما كان يوم أحد قاتل قزمان قتالاً شديداً، فقتل وحده من المشركين ثمانية أو سبعة، وكان ذا بأس، فأثبتته الجراحة، فاحتمل إلى دار بني ظفر، فجعل رجال من المسلمين يقولون له: أبشر يا قزمان، فوالله لقد أبليت اليوم، قال: بماذا أبشر؟ فوالله إن قاتلت إلاّ عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت، فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته، فقتل به نفسه.

وقد روى ابن كثير عن الإمام أحمد قصة شبيهة بقصة قزمان في غزوة خيبر، قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر، عن الزهري، عن ابن المسيِّب، عن أبي هريرة قال: شهدنا مع النبي ﷺ خيبر، فقال لرجل ممن يدّعي الإسلام: «هذا من أهل النار» فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً

شديداً، فأصابته جراحة فقيل: يا رسول الله، الرجل الذي قلت «إنه من أهل النار» قاتل اليوم قتالاً شديداً وقد مات، فقال النبي ﷺ: «إلى النار» فكاد بعض القوم يرتاب، فبينما هم على ذلك إذ قيل: فإنه لم يمت، ولكن به جراح شديدة، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: «الله أكبر، أشهد أني عبدالله ورسوله» ثم أمر بلالاً فنادى في الناس، أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وأن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

فلما قتل حملة اللواء من المشركين، واحداً إثر واحد، حتى بلغوا ثمانية رجال كلهم يعدّون من أبطال قريش الطلحيين العبدريين، وأكثرهم من ولد أبي طلحة عثمان أخي شيبة وحفدته، حتى انتهى القتل إلى غلامهم صؤاب الحبشي الذي كان آخر حامل للواء، وبقتله صرع معه اللواء، وظل ساقطاً على الأرض لا يجرؤ أحد من المشركين على رفعه من الأرض وأخْذِه حاملاً له ليقاتل به حتى جاءت امرأة يقال لها عمرة بنت علقمة الحارثية، والمشركون يعرفون أن المسلمين لا يقتلون النساء والولدان والعجزة، فرفعت عمرة اللواء للمشركين فلاثُوا به، واستداروا حوله بعد أن جبنوا عن الإقدام على رفعه، ولكن سيوف المسلمين مشت إلى أعناقهم تجتثها بهاماتهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وكانت الدائرة أول النهار للمسلمين على الكافرين، وحسّوهم بإذن الله حسّاً تصديقاً لوعده في قوله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه﴾.

ثم ذكر الله تعالى ما كان من الرماة من عصيان ومخالفة لأمر رسول الله ﷺ في قوله لهم: «لا تبرحوا ولو رأيتمونا تخطّفنا الطير» فقال تعالى: ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم﴾[1].

وفي حديث ابن عباس عند الإمام أحمد أنه قال: ما نصر الله

---

(١) سورة آل عمران آية (١٥٢).

حديث ابن عباس في نصر أحد وتحوله بعد مخالفة الرماة.

النبيَّ ﷺ في موطن كما نصره يوم أحد، فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول في يوم أُحد: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ الآية وإنما عنى بهذا الرماة، وذلك أنّ النبي ﷺ قد أقامهم في موضع وقال: «احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا» فلما غنم النبي ﷺ وأزاحوا عسكر المشركين أكب الرماة في العسكر ينهبون، وقد التفّت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ في المشركين وتشابكوا فيهم وانتشبوا، فلما أخلَّ الرماة تلك الخلّة التي كانوا فيها دخلت خيل المشركين من ذلك الموضع على أصحاب الرسول ﷺ فجعل يضرب بعضهم بعضاً، التبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير، وقد كان النصر لرسول الله ﷺ أول النهار، حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة وجال المشركون جولة نحو الجبل.

قال ابن كثير في تفسيره بعد أن ساق الحديث بطوله: هذا حديث غريب، وسياق عجيب وهو من مرسلات ابن عباس، فإنه لم يشهد أحداً ولا أبوه، وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي النضر الفقيه عن عثمان ابن سعيد عن سليمان بن داود بن علي بن عبدالله بن عباس به، وهكذا رواه ابن أبي حاتم والبيهقي في دلائل النبوة من حديث سليمان بن داود الهاشمي، ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها.

وأخرج الإمام أحمد من حديث الشعبي عن ابن مسعود، قال: إن النساء ـ أي المسلمات ـ كنّ يوم أُحد خلف المسلمين ـ أي ساعة نصرهم على المشركين ـ يجهزن على جرحى المشركين، فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبر: أنه ليس منا أحد يريد الدنيا حتى أنزل الله ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ ـ يعني الرماة ـ وعصوا ما أُمروا به أُفرد النبي ﷺ في تسعة أو سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، وهو عاشرهم ﷺ.

وحديث ابن مسعود رضي الله عنه في أنه كان يرى أن ليس أحداً من

قول ابن مسعود ما كنا نرى أنَّ أحداً من الصحابة يريد الدنيا معارض بآية الأنفال ﴿تريدون عرض الدنيا﴾.

أصحاب النبي ﷺ يريد الدنيا حتى أُنزل ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ لا ندري ما وجهه، وهو مروي بعدة روايات من وجوه مختلفة، مع قول الله تعالى في قصة غزوة بدر، يعاتب جمهور المجاهدين الذين تسرّعوا في إنهاء المعركة بمجرد ظهور بوادر النصر قبل الإثخان في العدو وكسر شوكته، دون أمر من القائد الأعظم رسول الله ﷺ، ودون رضاً منه عن هذا التصرف استعجالاً منهم لجمع الغنائم واستبقاء الرجال لأخذهم أسرى: ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ قال الزرقاني: وقد يرد عليه ـ أي على قول ابن مسعود ـ قوله تعالى في عتاب أهل بدر في قصة الأسرى: ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ وهي من سورة الأنفال السابقة في النزول على سورة آل عمران.

وقصة بدر ووقعتها أسبق من قصة أحد وغزوتها، وآية ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ التي نزلت عتاباً لجمهور المجاهدين في بدر من سورة الأنفال التي نزلت مستوعبة لقصة بدر وغزوتها وأحداثها ووقائعها، وهي أسبق نزولاً من سورة آل عمران التي فصّلت فيها قصة أُحد وغزوتها وأحداثها ووقائعها.

وعبدالله بن مسعود رضي الله عنه قد شهد الغزوتين، وكان له في غزوة بدر موقف لا ينسى، فهو الذي أجهز على الفاسق أبي جهل، وبشّر النبي ﷺ بقتله، وحمل إليه رأسه.

وابن مسعود من أقرأ أصحاب النبي ﷺ للقرآن وأحفظهم له وأعرفهم لموارد آياته ومصادرها، وفهمهم لمقاصدها وأهدافها، فكيف يقول عن قوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ وهو من سورة آل عمران التي ذكرت قصة أحد. . . وأحداثها وهي متأخرة عن بدر وأحداثها: ما كنا نرى أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾، والله تعالى قد قاله لبعض أصحاب رسول الله ﷺ في سورة الأنفال يعاتب به جمهور المجاهدين في غزوة بدر، ولا بد أن يكون ابن مسعود من أكثر وأسبق من سمعه، وذلك في قوله جل شأنه خطاباً للمعاتبين به من المؤمنين المجاهدين في غزوة

بدر، فهل نسي ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية من سورة الأنفال وهو الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «من أراد أن يقرأ القرآن غضاً فعليه بقراءة ابن ام عبد». وجلّ من لا يسهو.

اختلاف الرماة بعد أن رأوا هزيمة المشركين.

ولما رأى الرماة الهزيمة تحيق بالمشركين اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا، هل يظلون ثابتين في مقامهم الذي أقامهم فيه رسول الله ﷺ على عيْنَيْن أو ينزلون لمشاركة إخوانهم المجاهدين في أخذ الغنائم، وكانت كثرتهم تجنح إلى النزول للغنائم لئلا يستأثر بها جامعوها، بيد أن رئيسهم عبدالله بن جُبير رضي الله عنه كان يرى الثبات في مقامه الذي أقامه فيه رسول الله ﷺ ونصح إخوانه ووعظهم، وذكّرهم بأمر رسول الله ﷺ ووصيته أن لا يبرحوا من مكانهم حتى يرسل إليهم، وأن المسلمين لا يزالون غالبين ما ثبتم في مكانكم، فردُّوا عليه وعظه لهم وقالوا متشبثين بالتأويل: لم يُرد رسول الله ﷺ ذلك، قد انهزم المشركون، فما مقامنا هاهنا؟.

وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب: فقال أصحاب عبدالله ابن جبير: . . . الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبدالله ابن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟. وفي كتاب المغازي من الصحيح فقال عبدالله بن جبير: عهد إليّ رسول الله ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا، وقالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبنَّ من الغنيمة.

فلما صمموا على مخالفتهم لرئيسهم، وأتوا الناس ليأخذوا معهم من الغنيمة حُوِّلت وجوههم عن اتجاهها وقصدها، وعادوا من حيث أتوا منهزمين عقوبة لهم لمخالفتهم أمر القائد الأعظم رسول الله ﷺ وقوله لهم حين أقامهم مقامهم قبيل نشوب المعركة «لا تبرحوا». .

شؤم ارتكاب النهي ومخالفة أوامر القيادة في الحرب. .

قال الحافظ ابن حجر: وفيه شؤم ارتكاب النهي، وأنه يعم ضرره من لم يقع منه لقوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾ وأن من آثر دنياه أضر بآخرته ولم تحصل له دنياه.

والمتأمل في أوامر رسول الله ﷺ ووصاياه للرماة يرى أنه لا وجه لتأويلهم أمر رسول الله ووصيته، ولا محل لاجتهادهم في كلامه ﷺ وصرفه

عن مدلوله الظاهر الذي لا يحتمل التأويل، وقد كان تأويلهم وخيم العاقبة عليهم وعلى جميع المجاهدين في موقفهم من المعركة، حتى لحق أثر شؤم هذا التأويل رسول الله ﷺ فيما أصابه من شدة المحنة ولحقه من الجراحة البالغة، لأن مخالفة الرماة لأمره ﷺ كانت هي السبب في انتقاض صفوف المسلمين واستدارة رحاهم وتحوّلت ريحهم دبوراً تلفحهم بلهب الهزيمة بعد أن كانت صَبَاً تحمل إليهم نسمات النصر، حتى اختلط أمرهم وصاروا يقتتلون على غير شعار يضرب بعضهم بعضاً من شدة ما أصابهم من ذهول المفاجأة والدهش، وفي حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري قالت: لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بيّنة فصاح إبليس لعنه الله: أي عباد الله أخراكم، وهي كلمة يكيد بها المسلمين، قال ابن حجر: أي احترزوا من جهة أخراكم، وهي كلمة تقال لمن يخشى أن يؤتى عند القتال من ورائه، فرجعت أولاهم - أي أولى طائفتي المسلمين فاجتلدت مع أخراهم، وهذا تصوير لما حلَّ بصفوف المسلمين من نغض واضطراب وفوضى لما أصابهم من الدهش.

صيحة إبليس كانت كيداً للمسلمين.

وعند الحاكم والإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن المسلمين لما رجعوا حين سماعهم كلمة إبليس لعنه الله اختلطوا بالمشركين، والتبس العسكران، فلم يتميزوا لشدة ما فاجأهم من الاضطراب والدهش، فصاروا لا يعرف المسلم من الكافر، فوقع القتل في المسلمين بعضهم في بعض حتى قتلوا خطأً اليمان أبا حذيفة رضي الله عنهما، وجعل حذيفة لما رآهم قد أحاطوا بأبيه وتناولوه بسيوفهم يقول: أبي، أبي، فما تحاجزوا حتى فرغوا منه فقتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم، وأبى أن يأخذ ديته وتركها للمسلمين.

تراجع المشركين وتجمعهم وثبات رسول الله ﷺ في موقفه لا يزول.

وتراجع المشركون بعد هزيمتهم، وتجمّعوا، وتنادوا بشعار وثنتيهم وهم يهتفون بآلهتهم الباطلة، وأوجعوا في المسلمين قتلاً، حتى ولَّى المسلمون الأدبار تاركين رسول الله ﷺ ثابتاً في مقامه لا يزول عنه وهو يضارب المشركين، ولم يثبت معه من أصحابه إلّا عصابة من أربعة عشر رجلاً، سبعة من المهاجرين فيهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وسبعة من الأنصار،

وضربه ابن قمئة لعنه الله بسيفه فاتقاه طلحة بن عبيد الله فشلّت أصبعه، وصرخ ابن قمئة في المشركين بأنه قتل محمداً ﷺ - وكان قد قتل مصعب بن عمير وهو ينافح عن رسول الله ﷺ، ويتلقّى عنه قعص السيوف وطعن الرماح - يرى أنه رسول الله ﷺ، فصرخ ابن قمئة في صفوف المشركين صائحاً: قتلتُ محمداً، فلما سمعه أبو سفيان طار بها غروراً، ثم علا نشزاً يشرف منه على المسلمين وهو يقول: أفي القوم محمد؟ فقال رسول الله ﷺ «لا تجيبوه» حتى قالها ثلاثاً، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة ثلاثاً؟ فقال رسول الله ﷺ «لا تجيبوه»، ثم قال: أفي القوم عمر؟ ثلاثاً، فقال النبي ﷺ «لا تجيبوه»، ثم التفت أبو سفيان إلى أصحابه المشركين، فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، فلم يملك عمر نفسه دون أن يقول له: كذبت يا عدو الله، فقد أبقى الله لك من يخزيك، إن الذين عددت لأحياء كلهم.

فلما أجاب عمر أبا سفيان، قال له: هلمَّ إليّ يا عمر، فقال رسول الله ﷺ لعمر: ائته فانظر ما شأنه؟ فأتاه عمر، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللّهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، فقال أبو سفيان: أنت عندي أصدق من ابن قمئة وأبرّ.

شجاعة خارقة تحلى بها رسول الله ﷺ في أشد المواقف تأزماً.

وثبت النبي ﷺ وحده ما يزول عن موقفه، وهو يضارب العدو بالحجارة بعد أن تشظّت قوسه كما رواه البيهقي عن المقداد قال: فوالذي بعثه بالحق ما زالت قدمُه شبراً واحداً وإنه لفي وجه العدو، وتفيء إليه طائفة من أصحابه مرة وتفترق مرة، فربما رأيته قائماً يرمي عن قوسه ويرمي بالحجر حتى انحازوا عنه.

وروى أبو يعلى بسند حسن عن علي رضي الله عنه قال: لما انجلى الناس يوم أحد نظرت في القتلى فلم أر رسول الله ﷺ، فقلت والله ما كان ليفر وما أراه في القتلى، ولكن أرى أن الله غضب علينا فرفع نبيه فما لي خير من أن أقاتل حتى أقتل، فكسرت جفن سيفي ثم حملت على القوم فأفرجوا لي فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم يقاتلهم.

وروى الحاكم في المستدرك بسند على شرط مسلم عن سعد بن أبي

سعد بن أبي وقاص يفدي رسول الله ﷺ بنفسه.

وقاص قال: لما جال الناس عن رسول الله ﷺ تلك الجولة يوم أحد قلت: أذود عن نفسي فإما أن أستشهد وإما أن ألحق حتى ألقى رسول الله ﷺ، فبينا أنا كذلك إذا برجل مخمر وجهه ما أدري من هو، فأقبل المشركون حتى قلت: قد ركبوه، فملأ يده من الحصى ثم رمى به في وجوههم فتنكَّبوا عنه على أعقابهم القهقرى حتى يأتوا الجبل ففعل ذلك مراراً، ولا أدري من هو؟ وبيني وبينه المقداد، فبينا أنا أريد أن أسأل المقداد عنه إذ قال المقداد: يا سعد هذا رسول الله ﷺ يدعوك فقلت: وأين هو؟ فأشار لي إليه، فقمت ولكأني لم يصبني شيء من الأذى، وأجلسني أمامه، فجعلت أرمي، وأقول: اللَّهم سهمك فارم به عدّوك، ورسول الله ﷺ يقول: «اللهم استجب لسعد، اللهم سدِّد رميته، وأجب دعوته» حتى إذا فرغت من كنانتي نثر ﷺ ما في كنانته، فنبَّلني سهمًا نضّاً ـ أي الذي قد ريش ـ وكان أشد من غيره، وفاء إليه ﷺ بعض أصحابه الذين لم يذهبوا بعيداً إذْ تولوا عنه إثر صرخة الشيطان وقاتلوا دونه وهم يقولون: وجوهنا دون وجهك ونفوسنا دون نفسك وعليك السلام غير مودّع.

وكان من هؤلاء الذين ثبتوا بين يديه ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعمر وعبد الرحمن بن عوف وسعد وطلحة والزبير وأبو عبيدة وأبو دجانة والحباب بن المنذر وعاصم بن ثابت والحارث بن الصمّة، وسهل بن حنيف وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة.

وكان علي بن أبي طالب حامل لواء المجتمع المسلم بعد مصعب ابن عمير، ولم يعرف أن لواء الإسلام سقط من عليّ رضي الله عنه قط.

شدَّة الفزع أخرجت عصارة الضعف في حدثاء الإسلام.

ولما فشا في الناس أن رسول الله ﷺ قد قتل رُعِب المسلمون رعباً شديداً، وأخذهم الفزع واستولى عليهم الهلع والجزع حتى فقدوا توازنهم وزلزلوا زلزالاً شديداً لعب بصبرهم وحميتهم الإيمانية، واستحوذ عليهم ضعف الطبيعة البشرية، فتقاولوا فيما يصنعون بعد فجيعتهم بقائدهم الأعظم ورسولهم الأكرم، فقال بعضهم وقد هزت الفجيعة العظمى والكارثة المدمرة إيمانهم هزاً عنيفاً: ليت لنا رسولاً إلى عبدالله بن أبي بن سلول فيأخذ

لنا أمنةً من أبي سفيان، يا قوم إن محمداً قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم.

وهذا كلام لا يخرج من قلب أضاءه الإيمان بنور الفدائية المسلمة، فهو إما من دسيس المنافقين، وإما من عصارات حدثاء الإسلام الذين لم يذوقوا حلاوة الإيمان، وقد يكون هذا الكلام مما أُدخل على الوقائع التي صار جوّها بعد الهزيمة مسرحاً لتقبل ما يقال إن صدقاً وإن كذباً.

كان في صفوف الكتائب المسلمة دسيس من المنافقين.

والقرآن قد دلَّ في آياته على أن بعض المنافقين لم ينخزلوا مع ابن أبيّ، ولكنهم ظلُّوا في جيش الإسلام طمعاً في الغنيمة والإرجاف بالمؤمنين يبغونهم الفتنة، وفي المؤمنين ضعفى القلوب الذين يتلقفون أراجيف المنافقين فتذيبهم رعباً وخوفاً.

وفي هؤلاء يقول الله تعالى: ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يقولون هل لنا من الأمر من شيء، قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا﴾[1]. قال القرطبي: وطائفة قد أهمتهم أنفسهم، يعني المنافقين، مُعتّب بن قشير وأصحابه وكانوا قد خرجوا طمعاً في الغنيمة.

ولما رأوا الهزيمة جعلوا يلومون أنفسهم على خروجهم في صفوف المسلمين ويقولون: لو كانت لنا عقول ما خرجنا إلى قتال أهل مكة وما قتل رؤساؤنا وعشائرنا.

إقامة الله تعالى العذر لصادقي الإيمان وعفوه عنهم.

ثم عذر الله عز شأنه الذين تولَّوا عن رسول الله ﷺ منهزمين، وتلطف بهم فعفا عنهم، وأنزل في ذلك قرآناً يتلى حتى لا يتعلَّق بما كان منهم أحد يعيبهم به فقال تعالى: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلَّهم الشيطان ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾[1] والمعنى أن هؤلاء المنهزمين عن رسول الله ﷺ إنما حملهم على الزلل والخطيئة

---

(١) سورة آل عمران آية (١٥٤).

(٢) سورة آل عمران آية (١٥٥).

شدة ما غافصهم من الهول في موقفهم، فضعفوا عن الثبات، وجانبهم الصبر على رغائب أنفسهم في الإصابة من المظالم، وذلك بسبب معصيتهم رسول الله ﷺ ومخالفتهم أوامره ووصاياه في الثبات في موقفهم الذي وقفهم فيه على الجبل لحماية ظهر المجاهدين الواقفين في مواجهة العدو يقاتلونه، والمقصود بالاسم الموصول هم الرماة.

قال القرطبي: وعلى الجملة فإن حُمِل الأمر على ذنب محقق فقد عفا الله عنه، وإن حمل على انهزام مسوغ فالآية فيمن أبعد في الهزيمة.

معاتبة بين عثمان وعبد الرحمن بن عوف تزيد عثمان رفعة وشرفاً.

ثم روى القرطبي عن أبي الليث السمرقندي قال: حدثنا الخليل ابن أحمد قال: حدثنا السراج، قال: حدثنا قتيبة قال: حدثنا أبو بكر بن غَيْلان عن جرير أن عثمان كان بينه وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال له عبد الرحمن بن عوف أتسبني وقد شهدتُ بدراً ولم تشهد، وقد بايعت تحت الشجرة ولم تبايع، وقد كنت تولَّى مع من تولى يوم الجمع - يعني يوم أحد..

فردّ عليه عثمان رضي الله عنه فقال: أما قولك: أنا شهدتُ بدراً ولم تشهد فإني لم أغب عن شيء شهده رسول الله ﷺ إلّا أن بنت رسول الله ﷺ كانت مريضة، وكنت معها أمرضها، فضرب لي رسول الله ﷺ سهماً في سهام المسلمين، وأما بيعة الشجرة فإن رسول الله ﷺ بعثني ربيئة على المشركين فضرب رسول الله ﷺ يمينه على شماله فقال: «هذه لعثمان» فيمين رسول الله ﷺ وشماله خير لي من يميني وشمالي، وأما يوم الجمع فقال الله تعال: ﴿ولقد عفا اللهم عنهم﴾ فكنت فيمن عفا الله عنه فحجّ عثمان عبد الرحمن.

ويتعلق من يغمز ذا النـورين بالعيب بما وقع في غزوة أحد، وهذا الحديث عن عبد الرحمن بن عوف يدفع في صدور هؤلاء العيّابين ويرد عليهم فريتهم على ثالث الراشدين.

وعثمان رضي الله عنه لم ينفرد بما كان يوم أحد بل شاركه فيه جمهرة الأصحاب، وحسب العيّابين لو كانوا يعقلون موقف عمر بن الخطاب رضي

الله عنه، وهو من هو في قوة إيمانه وصرامته في الحق فإنه كان ممن ولّى منهزماً ولكنه لم يبعد.

حديث ابن عمر في بيان أسباب الأمور التي يأخذها العيابون على عثمان.

وقد روى البخاري في صحيحه ما يقيم دعائم الدفاع عن عثمان رضي الله عنه في حديث عبدالله بن عمر من طريق عثمان بن مَوْهَب قال: جاء رجل حجّ البيت، فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القعود؟ قيل هؤلاء قريش، قال: من الشيخ؟ قالوا: ابن عمر، فأتاه فقال: إني سائلك عن شيء أتحدثني؟ قال: أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان ابن عفان فرّ يوم أحد، قال: نعم، قال: فتعلمه تغيَّب عن بدر فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم، فكبَّر الرجل.

قال ابن عمر: تعال لأخبرك ولأبينِّ لك عما سألتني عنه، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه، وأما تغيبه يوم بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له النبي ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه»، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فإنه لو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث عثمان وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال النبي ﷺ بيده اليمنى «هذه يد عثمان» فضرب بها على يده فقال: «هذه لعثمان». اذهب بها الآن معك.

قتل أبّي بن خلف بيد رسول الله ﷺ.

وقد قَتَل رسولُ الله ﷺ - وهو في أشد الوجع من آلام جراحاته التي أصيب بها - أبي بن خَلَف إذ أقبل هذا الكفور العنيد، ورسول الله ﷺ يدعو أصحابه ليردّهم عن الاسترسال في الهزيمة وهو يقول لهم: «إليّ عباد الله إليّ عباد الله» وأبّي لعنه الله يصيح أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا، لأقتلنَّه، فسمعه رسول الله ﷺ فقال: «بل أنا أقتله إن شاء الله».

ولما قرب هذا الفاجر الكفور من رسول الله ﷺ خشي بعض من كان قد فاء إلى رسول الله ﷺ على رسول الله ﷺ من أن يناله هذا الفاجر بضرر، فهم به ليدفعه، فقال لهم رسول الله ﷺ دعوه، ثم تناول الحربة من الحارث ابن الصمّة، فقذفه بها فوقعت في جيب درعه فكسرت ضلعاً من أضلاعه

واحتقن الدم، فلم يخرج، فوقع أبيّ وهو يتدأدأ من فوق فرسه، فخار كما يخور الثور واحتمله المشركون وهم يقولون له: ليس بك جراحة فما يجزعك؟ فقال لهم أبيّ لعنه الله أليس قد قال: «لأقتلنَّك» لو كان ما بي بجميع ربيعة ومضر لقتلهم، فلم يلبث إلا يوماً أو بعض يوم حتى هلك.

شدَّة الفزع أدهشت المسلمين ففرقتهم.

وقد بلغ الفزع والدهش بالمسلمين مبلغاً أذهلهم عن التدبر في الموقف وعواقبه، وفيما يجب عليهم أن يقابلوه به من الفيئة والثبات والدفاع عن عقيدتهم وكيانهم، فذهبوا مولِّين في فجاج الأرض لا يجمعهم مكان. قال الحافظ ابن حجر: والواقع أنهم صاروا ثلاث فرق: فرقة استمروا في الهزيمة إلى قرب المدينة فما رجعوا حتى انفض القتال، وهم قليل، وهم الذين نزل فيهم ﴿إن الذين تولَّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ وفرقة صاروا حيارى لمّا سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل، فصارت غاية الواحد منهم أن يذبّ عن نفسه ويستمر على بصيرته في القتال إلى أن يقتل وهم أكثر الصحابة، وفرقة ثبتت مع النبي ﷺ حتى أدركتهم الفئة الثانية.

كانت غزوة أحد منحة في طيات المحن
نماذج من بطولاتها أظهرتها الشدائد

مظاهر شجاعة الصحابة في أحد.

كانت مظاهر الشجاعة البطولية في أصحاب رسول الله ﷺ مختلفة أشد الاختلاف، وقد محّصهم البلاء الذي أصابهم يوم أحد تمحيصاً جعل منهم مجتمعاً له معالمه الخالصة من شوائب الضعف النفسي الذي يفتك بقوة الإيمان فتك جراثيم الأوبئة الجائحة بمقوِّمات الأبدان ووشائج تماسكها، أو فتك الرِّيّب والشكوك بعواصم الأرواح، وإلى هذا التمحيص يشير رسول الله ﷺ بقوله: «لا يصيب منا المشركون مثلها حتى يفتح الله علينا».

وكان رسول الله ﷺ أعلم الناس بأصحابه في تربيته لهم وآثار تلك التربية في اختلاف مظاهر شجاعتهم، وكان يعطيهم من هذا العلم الذي عنده بأحوالهم ما يعطيه الطبيب الحاذق العليم للمرضى الذين يعالجهم من أمراض أبدانهم، والذين يداويهم من أسقامهم حتى يبرئهم منها، ليخوضوا غمرات الحياة أقوياء، أصحّاء، لا تعجزهم العقبات عن اقتحامها، وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾[1].

(١) بطولة أبي دجانة

حوار مستطلع يكشف عن مظاهر البطولة.

أخرج مسلم في صحيحه، والإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، والطبراني عن قتادة بن النعمان، وابن راهويه، والبزار عن

---

(١) سورة آل عمران آية (١٧٩).

الزبير، قالوا: عرض رسول الله ﷺ سيفاً يوم أحد، فأخذه رجال فجعلوا ينظرون إليه ويبسطون أيديهم رغبة في أخذه، فقال ﷺ: «من يأخذه بحقِّه؟» فأحجم القوم، ثم قام إليه رجال، فيهم أبو بكر، وعمر، وعلي، والزبير، فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة ـ سماك بن خرشة ـ فقال: وما حقّه يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أن تضرب به في وجه العدو حتى ينحني، ولا تقتل به مسلمًا، ولا تفرَّ به عن كافر» فقال أبو دجانة: أنا آخذه بحقِّه يا رسول الله فأعطاه له.

وهذا الحوار المستطلع لخفايا النفوس يمثل لوناً من ألوان الفراسات النبوية الصادقة، وتوسّمات القيادة العليمة المعلِّمة، وفي ذلك من معالم التربية القيادية في مجال المعارك لإظهار أسرار الرجال درس تربوي يجب على القادة أن يتعلّموه ويعملوا به.

وكان أبو دجانة رجلًا شجاعاً جريئاً، لا يهاب الموت، وكان إلى جانب ذلك ميمون النقيبة في الحرب إذا خاضها مشى في حومتها متخايلًا تيّاهاً يتبختر في مشيته، فلما أخذ سيف رسول الله ﷺ مشى مشيته، فرآه رسول الله ﷺ وهو يتخايل فقال ﷺ: «إنها لَمشْية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

بطولة أبي دجانة يرصدها الزبير.

قال الزبير بن العوام ـ وهو من صناديد أبطال الإسلام ـ لقد وجدت في نفسي ـ أي تأثرت في شيء من الغضب الحزين ـ حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانة، وقلت: أنا ابن صفيّة عمته ومن قريش، وقد قمت إليه وسألته إياه قبله، فأعطاه أبا دجانة وتركني، فقلت: والله لأنظرنّ ما يصنع أبو دجانة؟ فاتبعته، فأخذ أبو دجانة عصابة له حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له، إذا تعصب بها، فخرج لا يلقى أحداً من المشركين إلا قتله، وعند الإمام مسلم من حديث أنس: ففلق أبو دجانة هام المشركين.

وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا ذفّف عليه، فلقيه أبو دجانة، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما

والتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته، فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة فقتله.

قال الزبير: ثم رأيت السيف على رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها، وكانت تحمِّس الناس حمساً شديداً، تحرِّضهم على القتال وتغريهم بإشعال نار الثأر لقتلى بدر، فلما حمل عليها أبو دجانة ولولت مستغيثة؛ قال أبو دجانة: فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

وقال الزبير في رواية أخرى: خرج أبو دجانة بعدما أخذ السيف من رسول الله ﷺ، واتبعته، فجعل لا يمر بشيء إلا أفراه وهتكه، وفلق به هام المشركين حتى أتى نسوة في سفح الجبل، ومعهن هند بنت عتبة، وهي تغني تحرض المشركين، فحمل عليها فنادت يا لَصخر، فلم يجبها أحد، فانصرف عنها، فقلت له: كل سيفك أعجبني غير أنك لم تقتل المرأة؟ قال: كرهت أن أضرب بسيف رسول الله ﷺ امرأة لا ناصر لها.

هذا لون من الشجاعة النفسية والبدنية منسوج بخيوط من الجراءة العارمة، وكان هذا اللون معروفاً لصاحبه بطل الإسلام أبي دجانة الأنصاري يعرفه هو من نفسه، ويعرفه له قومه الأنصار، له معالم عندهم، يتخذها وشُهر بها، وعرفها له قومه، وصاحب هذه الشجاعة البطولية يزينها بالنخوة والمروءة، فلا يصب نيرانها على ضعيف لا ناصر له، ولا سيما إذا كان سلاحه في هذه الشجاعة مشرَّفاً، خُصَّ به دون سائر أبطال الإسلام وشجعانه، ولهذا أبت عليه نخوته البطولية، ومروءته الإسلامية أن يقتل بسيف رسول الله ﷺ امرأة صاحت تطلب الصريخ، وتستصرخ مستغيثة إذ رفع السيف على رأسها تطلب النصراء فلا تجد نصيراً، لكنه فلق به هامات الأبطال المشركين، فكان لا يلقى جمعاً منهم إلا فضَّه، ولا يعرض له بطل من أبطالهم إلا جعله كأمس الدابر.

معرفة رسول الله ﷺ بأقدار الرجال وخصائصهم.

وكان رسول الله ﷺ يقدِّر هذه الصفات البطولية في أبي دجانة، ويعرف له حقَّه فيها، إذ لم تكد الحرب في أُحد تزأر بالأبطال ويتنادى أُسدها باللقاء حتى عرض رسول الله ﷺ سيفاً كان في يده ونادى في أصحابه: «من

يأخذ هذا السيف بحقه؟» فاستشرف له جماعة من خاصّة أبطال الجهاد في الإسلام، وجعلوا ينظرون إلى هذا السيف الذي تخيّره رسول الله ﷺ ليعرضه عليهم ويثير في نفوسهم حميّة بطولية الجهاد لإعلاء كلمة الله، نظر تفحص وتطلع إلى سرِّه الذي جعل رسول الله ﷺ ينادي عليه بين أصحابه، فيطلبه أبو بكر الصديق وعمر وعلي رضي الله عنهم، ويطلبه معهم الزبير ابن العوام، ابن عمة رسول الله ﷺ القرشي، وهو أشهر في شجاعته البطولية شهرة ملأت أرض الإسلام، فيعرض عنه رسول الله ﷺ ثلاث مرات.

وإذا بأبي دجانة سماك بن خرشة الأنصاري، يسأل رسول الله ﷺ عن حقِّ هذا السيف المغلَّف بالأسرار، فيجيبه النبي ﷺ بقوله: «حقه أن تضرب به في العدو حتى ينحني» ومعنى هذا أن حق هذا السيف شجاعة تملك على من يأخذه ليحارب به المشركين مشاعره ومعالم بطولته، وكرّة على العدو، فيضرب به في صفوفه ضرباً متواصلاً، يفري به الهامات لا يكلُّ ولا يعيا حتى ينحني السيف في يده.

وكان أبو دجانة أصدق وفاء بوعد رسول الله ﷺ، فأدّى حق السيف الذي خصّه به رسول الله ﷺ دون أكابر أصحابه وأبطالهم، وهذه الميزة التي ظفر بها أبو دجانة رضي الله عنه وإن كانت لا تدل على تفضيله على من استشرفوا للسيف متطلِّعين إلى أخذه، والنبي ﷺ يعرض عنهم، وفيهم ابن عمته الزبير بن العوام، وهو من لا تنكر بسالته وشجاعته وبطولته في جهاد الإسلام؛ لكنها تدل على فضله وشجاعته في معامع الوغى.

الزبير ينظر ما يصنع أبو دجانة بسيف رسول الله الذي آثره به فيرى بطولته فيعلم حكمة إيثاره على غيره.

وقد تأثر الزبير رضي الله عنه من إعراض النبي ﷺ وهو يطلب منه السيف ثلاث مرات، فيأبى عليه ﷺ إعطاءه إياه، كما أبى إعطاءه غيره من الذين استشرفوا لأخذه، وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وفيهم يعسوب الإسلام علي بن أبي طالب، وثلاثتهم في مكانتهم من رسول الله ﷺ ومن المجتمع المسلم من لا ينكر فضلهم في مواقف البطولات.

ولما رأى الزبير هذا الصنيع من رسول الله ﷺ - وهو يعلم أن رسول الله ﷺ لا يصنع شيئاً إلا لحكمة - قال: والله لأنظرنَّ ما يصنع أبو دجانة،

فاتبعته فجعل يفلق هام المشركين بالسيف، ولا يلقى مشركاً إلا علاه بالسيف فقضى عليه، فعرف الزبير حكمة اختيار رسول الله ﷺ أبا دجانة بطلاً لسيفه وتمييزه به دون سائر أصحابه رضي الله عنهم.

(٢) بطولة أنس بن النضر

بطولة فدائية وشجاعة إيمانية.

وهذا بطل من أشجع وأجرأ أبطال غزوة أحد، يمثل في شجاعته وبطولته لوناً من أصدق ألوان الرسوخ في الإيمان والعقيدة، والحب لرسول الله ﷺ، وفدائه بروحه.

غاب أنس بن النضر عن شهود بدر، فشقَّ عليه ذلك، فجعل يقول: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ في قتال المشركين غبتُ عنه، ولئن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليريَّن الله ما أصنع، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فاستقبل وهو في طريقه إلى القتال سعد بن معاذ، فقال له: يا أبا عمرو، واهاً لريح الجنة، أجده دون أحد، ثم خاض المعركة، فقاتل المشركين حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من ضربة بسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم حتى خفيت معالم بدنه وصار لا يعرف من كثرة الجراح والتمثيل به، فقالت أخته الربيّع بنت النضر: ما عرفت أخي إلا ببنانه، وكان كثير من أهل العلم يرون أن قول الله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ نزل في أنس بن النضر وأمثاله من الأبطال الفدائيين.

الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله لا يتوقف على وجود النبي ﷺ.

وفي دلائل البيهقي عن طريق ابن أبي نجيح عن أبيه، قال: مر رجل من المهاجرين يوم أحد على رجل من الأنصار، وهو يتشحط في دمه، فقال المهاجري للأنصاري: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلَّغ الرسالة، فقاتلوا عن دينكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين﴾ قال الإمام ابن كثير: ولعل هذا الأنصاري هو أنس بن النضر، عم أنس بن مالك رضي الله عنهما.

الإخلاص في الجهاد يفتح بصيرة المجاهد حتى يرى ما أعدَّ الله للشهداء.

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك، قال: غاب عمي أنس ابن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبتُ عن أول قتال قاتلتَ فيه المشركين، والله لئن أشهدني الله قتال المشركين ليريّن الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال أنس بن النضر: اللَّهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فاستقبل سعد بن معاذ، فقال أنس بن النضر: أي سعد، هذه الجنة وربِّ أنس، أجد ريحها دون أحد، فقال سعد بن معاذ: فما استطعت ما صنع، فقاتل - أي حتى قتل - قال أنس بن مالك: فوجدنا فيه بضعاً وثمانين ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، وقد مثَّل به المشركون فما عرفته أخته الربيِّع بنت النضر إلا ببنانه، قال أنس بن مالك: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾.

أنس بن النضر ممن أخلصهم الله له يجيبهم إذا أقسموا عليه.

وكان أنس بن النضر - نضر الله وجهه - إلى جانب شجاعته الخارقة وبطولته الفدائية الصادقة راسخ الإيمان رسوخاً عميقاً جعل معرفته بالله تعالى معرفة شهودية، يشهد بها فضل الله تجري به مقاديره، كأنما يجري فيها مع هذه المقادير في فجاج الغيب، وقد رزقه الله تعالى بهذا الإيمان ثقة في الله تعالى واعتصاماً به، بلغا به مقام المقسمين على الله فيجيبهم إلى مطلوبهم.

أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: كسرت الربيّع - أي أخت أنس بن النضر - ثنية جارية من الأنصار، فطلب القوم القصاص، فأتوا النبي ﷺ فأمر ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر: لا، والله لاتكسر ثنيتها - يعني ثنية أخته الربيّع قصاصاً - يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «كتاب الله القصاص» فرضي القوم وقبلوا الأرش، فقال ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه».

وذكر ابن إسحاق أن أنس بن النضر جاء إلى عمر وطلحة في رجال من المهاجرين والأنصار، قد ألقوا بأيديهم، فقال لهم: ما يجلسكم؟ قالوا:

قتل محمد ﷺ، قال أنس: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم استقبل العدو فقاتل حتى قتل رضي الله عنه.

هذا اللون من رسوخ الإيمان وثبات اليقين اللَّذين تحدّث بهما التاريخ الإسلامي عن هذا البطل هو الذي ارتفع بالمجتمع المسلم إلى منزلة قيادة الإنسانية إلى آفاق حضارة الإيمان بالله وإخلاص الدين كله له، حتى تبوأ هذا المجتمع الذروة في إصلاح الحياة وتطهيرها من أوضار الجاهليات الضالّة الظالمة، وهو الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهذه البطولة التي ترى بعين الشهود أن الموت ـ استشهاداً في سبيل الله لإعلاء كلمته ـ إنما هو تجديد للحياة في دار الخلود، والنعيم المقيم.

(٣) بطولة طلحة بن عبيد الله

حسبه في الفضل والشرف أنه أحد المبشرين بالجنة من الصادق المصدوق ﷺ، وحسبه قول النبي ﷺ فيه: «أوجب طلحة الجنة» هكذا ذكره القرطبي بزيادة لفظ الجنة، وفي بعض الروايات الاقتصار على لفظ: «أوجب طلحة» والشرّاح هم الذين يذكرون لفظ (الجنة) عند شرحهم للحديث، لأن عبارة (أوجب فلان) معناها إنه فعل فعلاً عظيماً استوجب به جزاء يوائمه، فإذا كان هذا القول وارداً في حقِّ رجل مؤمن بَلْه صحابياً كان معناه وجبت له الجنة لأنها الجزاء الذي يوائم الأفعال العظيمة في الإسلام، وإذا كان هذا القول في رجل كافر كان معناه وجبت له النار.

بيان معنى (أوجب فلان) وقول النبي ﷺ (أنتم شهداء الله على خلقه).

ويشهد لذلك حديث: «أنتم شهداء الله على خلقه» إذ أثنى الصحابة على رجل خيراً فقال ﷺ: «وجبت» وأثنوا على آخر شراً فقال ﷺ: «وجبت»، فقال الصحابة: ما وجبت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «أثنيتم على الأول خيراً فوجبت له الجنة، وأثنيتم على الثاني شراً فوجبت له النار، أنتم شهداء الله على خلقه».

وهذا الثناء على الأمة الإسلامية مذكور في القرآن في مواضع من سوره، فمنها قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على

الناس﴾ ومنها قوله تعالى: ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ فلفظة (الجنّة) في حديث طلحة يتطلبها المعنى، فإن كانت من ألفاظ الحديث فهي توضيح للمراد، وإن لم تكن من ألفاظ الحديث فهي من قبيل المدرج، أدرجها أحد الرواة لانسياق المعنى إليها.

طلحة يفدي رسول الله ﷺ بنفسه.

وقد قال النبي ﷺ ذلك في حق طلحة رضي الله عنه، حينما ثبت معه يوم أحد عند اشتداد الموقف وتولّي المسلمين إثر صرخة الشيطان بأن محمداً قتل، فوقف بين يدي رسول الله ﷺ، يدفع عنه ويقيه بنفسه، ففي حديث عائشة رضي الله عنها قالت في قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ الآية، منهم طلحة بن عبيدالله، ثبت مع النبي ﷺ حتى أصيبت يده، فقال النبي ﷺ: «أوجب طلحة الجنة» ومن حديثها أيضاً عند الطيالسي قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال: كان ذلك اليوم كله لطلحة ثم أنشأ أبو بكر يقول: كنت من أول من أفاء يوم أحد، فرأيت رجلاً يقاتل في سبيل الله دونه - أي دون رسول الله ﷺ - فقلت: كن طلحة، حيث فاتني ما فاتني، فقلت: يكون رجلاً من قومي أحب إليَّ، وبيني وبين المشركين رجل لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه وهو يخطف المشي خطفاً لا أخطفه، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ، وقد كسرت رباعيته، وشجّ في وجهه، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر، فقال رسول الله ﷺ: «عليكما صاحبكما» يريد طلحة، وقد نزف، فلم نلتفت إلى قوله، وذهبت لأنزع ذاك من وجهه، فقال أبو عبيدة: أقسمت عليك بحقي لما تركتني فتركته، فكره تناولها بيده، فيؤذي رسول الله ﷺ، فأزم عليها بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثنيته مع الحلقة، وذهبت لأصنع ما صنع، فقال: أقسمت عليك بحقي لما تركتني ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى، فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هَتَماً، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ، ثم أتينا طلحة فإذا به بضع وسبعون من بين طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت أصبعه، فأصلحنا من شأنه.

حوار إيثاري بين أبي بكر وأبي عبيدة ابن الجراح في مظاهر محبة رسول الله ﷺ.

(٤) بطولة أبي طلحة: زيد بن سهل الأنصاري الخزرجي

شجاعة أبي طلحة وصبره على البلاء بين يدي رسول الله ﷺ.

وهذا لون من الشجاعة الجامعة لفضائل الرجولية، وخصائص البطولة الإيمانية والشجاعة النفسية، تزكِّيها القوة البدنية، وتعينها الدربة على القتال والصبر في حومة النضال.

لما انهزم المسلمون المجاهدون يوم أحد، وولَّوا عن رسول الله ﷺ إثر إخلاء جمهور الرماة لمواقفهم ونزولهم للغنائم وقد صرف الله وجوههم عن صمدهم، والتبسوا بالمشركين والمسلمين حتى صار المسلم يضرب المسلم وهو لا يشعر، وكان الشيطان قد أرجف بقتل رسول الله ﷺ وأحاط المشركون برسول الله ﷺ، وتوالت عليه ضرباتهم وطعناتهم، وهو ﷺ ثابت في موقفه لا يزول عنه شبراً ـ وكان ﷺ يرد على المشركين ضرباتهم وطعناتهم، ويرميهم بقوسه حتى تشظَّت في يده ـ لم يكن معه في هذا الموقف سوى هذا البطل الفدائي الشجاع أبي طلحة الأنصاري، يتلقَّى عنه الضربات ويسوّر عليه بنفسه ليقيه سهام الأعداء وهي تتساقط وابلاً، لا تنقطع.

روى الإمام أحمد رحمه الله، قال: حدثنا عفّان، أخبرنا ثابت عن أنس ابن مالك رضي الله عنه، وكان ربيب أبي طلحة، زوج أمه أم سليم بنت ملحان الأنصارية، أن أبا طلحة كان يرمي بين يدي رسول الله ﷺ يوم أحد، والنبي ﷺ خلفه وهو متترس عليه، وكان أبو طلحة رامياً، وكان إذا رمى رفع رسول الله ﷺ شخصه ينظر أين يقع سهم أبي طلحة، فيرفع أبو طلحة صدره، ويقول لرسول الله: هكذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك، وكان أبو طلحة يسوّر على رسول الله ﷺ نفسه، ويقول له: إني جَلْد يا رسول الله، فوجهني في حوائجك ومُرْني بما شئت.

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي رسول الله ﷺ مجوّب عليه بجحفة له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمرُّ به معه الجعبة من النبل، فيقول رسول

الله ﷺ: «انثرها لأبي طلحة» ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول له أبو طلحة: بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، ولقد وقع السيف من يدي أبي طلحة مرتين أو ثلاثاً.

غشي النعاس أبا طلحة والحرب مشتعلة.

وسقوط السيف من يدي أبي طلحة وهو في غمرات الوغى مَعْلَمٌ من معالم شجاعته واطمئنانه وثبات قلبه، وقد تحدّث أبو طلحة عن نفسه بذلك كما رواه البخاري فقال: كنت فيمن تغشّاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط فآخذه، ويسقط فآخذه، وحديث أبي طلحة عن نفسه بهذا من باب التحدث بنعمة الله وشكر الله تعالى على امتنانه بهذه المنة العظمى في تثبيت قلوب المؤمنين، وهم يخوضون أشرس معركة مجاهدين في سبيل الله لإعلاء كلمته، كما قال تعالى: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغمِّ أمنةً نعاساً يغشى طائفة منكم﴾.

والنعاس في الحرب شجاعة واطمئنان، وصبر وثبات، وإيمان راسخ، ويقين لا يداخله جزع ولا يهزه هلع.

يقول ابن الأثير: كان أبو طلحة من الشجعان المذكورين في الصحابة ومن الرماة المشهورين، وله يوم أحد مقام مشهود، كان يقي النبي ﷺ بنفسه، ويرمي بين يديه، ويتطاول بصدره ليقي رسول الله ﷺ ويقول: نحري دون نحرك، ونفسي دون نفسك.

وأخرج ابن عبد البر في الاستيعاب عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: إن رسول الله ﷺ قال يوم حنين: «من قتل كافراً فله سلبه» فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً من المشركين، وأخذ أسلابهم.

ويقول أنس بن مالك: كان أبو طلحة يجثو بين يدي رسول الله ﷺ في الحرب، ويقول:

نفسي لنفسك الفداء ووجهي لوجهك الوقاء

ثم ينثر كنانته بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «لَصَوتُ أبي طلحة في الجيش خير من مائة رجل».

(٥) بطولة نسيبة بنت كعب الأنصارية

نسيبة بنت كعب أم عمارة تشهد مع رسول الله ﷺ أكبر وأكثر مشاهده.

كانت أم عمارة، نسيبة بنت كعب الأنصارية النجّارية المازنية من أسبق وأشهر السابقين والسابقات في الأنصار إلى الإسلام، وأكثرهم وأكثرهنّ مشاهد مع رسول الله ﷺ، شهدت العقبة الكبرى مع زوجها وولديها حبيب وعبدالله ابني زيد، وبايعت رسول الله ﷺ يومئذ.

ذكر الواقدي عن ابن أبي صعصعة قال: قالت أم عمارة: كانت الرجال تصفِّق على يد رسول الله ﷺ ليلة العقبة، والعباس آخذ بيد رسول الله ﷺ، فلما بقيت أنا وأم سبيع نادى زوجي عربة بن عمرو: يا رسول الله، هاتان امرأتان حضرتا معنا، يبايعنك، فقال رسول الله ﷺ: «قد بايعتهما على ما بايعتكم عليه، إني لا أصافح النساء».

ثم شهدت نسيبة أحداً مع زوجها وولديها، ثم شهدت بيعة الرضوان والحديبية وخيبر والقضية والفتح وحنيناً، وعاشت حتى شهدت اليمامة مع ابنها عبدالله، فقاتلت في هذه الموقعة حتى قطعت يدها وجرحت يومئذ اثني عشر جرحاً بين طعنة وضربة.

حبيب بن زيد ولد أم عمارة كان مثلاً شروداً في الصبر على أمرّ البلاء وقوة الإيمان وهو ينظر إلى الموت يأتيه من كل مكان.

وولدها حبيب بن زيد كان في إيمانه مثلاً شروداً، أرسله رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذّاب لعنه الله، فأخذه مسيلمة ليقتله وعرضه لامتحان إيمانه وصدق يقينه، في صورة من البلاء كانت من أفجر ما سجلته الحياة الطاغية، فكان إذا سأله: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، وإذا قال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال حبيب بن زيد: أنا أصم لا أسمع، وكرر ذلك مسيلمة مع حبيب وهو ثابت اليقين راسخ الإيمان لا يتزعزع ولا يتحول، فلما يئس منه مسيلمة وعلم رسوخ إيمانه وصلابة يقينه وقوة صبره على تحمل أبشع البلاء قتله قِتْلة شنيعة، لا يقدم عليها إلا أفجر طاغوت من طواغيت الكفر والفجور، فجعل كلما سأله ويجيب حبيب بجوابه الذي لا جواب غيره قطع منه عضواً حتى أتى عليه عضواً، عضواً، وحبيب ينظر إلى قتلته الشنيعة وهو قرير العين، رضي القلب، هانىء النفس بهذا الاستشهاد في سبيل الله الذي انفرد به، فلما بلغ أمه نسيبة بنت كعب الأنصارية

الخزرجية صنيع مسيلمة الكذاب بولدها نذرت ألّا يصيبها غسل حتى يُقتل مسيلمة، فلما جاء يوم اليمامة في وقائع الردة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه شمَّرت عن عزيمة بطولية ينوء بأثقالها شجعان الأبطال، فشهدت ذلك اليوم مع ابنها عبدالله، شقيق حبيب قتيل مسيلمة، وخاضت مع أبطالها وقاتلت قتالاً شديداً حتى أبرَّ الله نذرها، وقُتل مسيلمة الكذاب لعنه الله، قتله وحشي بن حرب بالحربة التي قتل بها حمزة سيد الأبطال والشهداء يوم أحد، وقيل إن مسيلمة الكذاب لعنه الله قتل بسيف رسول الله ﷺ بيد البطل أبي دجانة رضي الله عنه.

ولما شهدت أم عمارة: نسيبة بنت كعب رضي الله عنها أحداً أبدت من الشجاعة الخارقة والفدائية الصادقة في الدفاع عن رسول الله ﷺ وهو متعرض لطعنات الأعداء وضرباتهم حينما ولى عنه جمهرة المجاهدين، ووقف وحده لا يزول عن مقامه ولا يحول، ما يعجز الأبطال المغاوير عن مثله.

بطولة أم عمارة في غزوة أحد وشهادة النبي ﷺ لها بذلك.

قالت أم سعد بنت سعد بن الربيع: دخلت على أم عمارة، فقلت: حدثيني خبرك يوم أحد، فقالت نسيبة رضي الله عنها: خرجت أول النهار ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ، فجعلت أباشر القتال وأذبُّ عن رسول الله ﷺ، وهو في أصحابه، والريح والدولة للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فجعلت أباشر القتال، وأذب عن رسول الله ﷺ بالسيف، وأرمي بالقوس حتى خلصت إليّ الجراحة، قالت أم سعد: فرأيت على عاتقها جرحاً له غور أجوف أصابها به ابن قمئة أقمأه الله، لّما ولّى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلُّوني على محمد، فلا نجوت إن نجا، قالت أم عمارة، فاعترضت له لأمنعه أنا ومصعب ابن عمير، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة، ولكن ضربته على ذلك ثلاث ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان.

وفي شرح المواهب للزرقاني عن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول - أي في حق أم عمارة وموقفها من الذبِّ عنه ﷺ -: «ما التفت يوم أحد يميناً ولا شمالاً إلا وأراها تقاتل دوني».

وهذه شهادة صدق، هي أعظم شهادة من أعظم مخلوق شهيد، تتوج هامة الشرف والفضل والشجاعة والبطولة لهذه الفدائية العظيمة، وتضعها في مصافِّ البطولة الإسلامية الخالدة في تاريخ الحياة، وتضعها في سجل الفدائية حرفاً في أول سطر من سطور الفداء الإيماني، بل تضعها نقطة من النور في مشرق شمس الهداية ورسوخ الإيمان وقوة اليقين.

ونحن إنما ذكرنا نماذج من البطولات التي كشفت عنها محنة أحد في شدائدها وقسوة أحداثها على المجتمع المسلم، لأننا قصدنا ضرب المثل وذكر الشاهد، ولم نقصد إلى الاستيعاب في الروايات، وذكر البطولات المشهّرة في تاريخ الغزوات، فتلك بطولات غامرة متعالمة، جعلت من حياتها كلِّها شواهد منها، لها، وعليها.

سيد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب كانت بطولته أرفع بطولات الأبطال.

ولا نستثني من ذلك بعدما ذكرناه من النماذج شيئاً سوى قصة مقتل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه، لما كان لها من الوقع الشديد على رسول الله ﷺ، مما ضاعف آلامه ﷺ إلى جانب ما أصيب به من جراحات بالغات الألم في وجهه الشريف ﷺ، ولما فيها من ثقل وزن الإيمان بالنسبة إلى جميع الأعمال، وأنه يجبّ ما قبله مهما كان فيه من شدة السوء والقبح كما هو واضح في قبول إسلام وحشي.

ولما فيها من عظيم الصبر الذي احتواه رسول الله ﷺ وهو ينظر إلى عمه وصفيّه أسد المجتمع المسلم كلِّه، مجندلاً، وممثلاً به أشنع تمثيل، فيقسم ليمثلنَّ بسبعين من المشركين إذا أظفره الله بهم، فيردّه الله تعالى عن عزيمته إلى الاعتصام بصبره العظيم، ويأبى عليه إلا العدل السويّ، وينزل عليه وهو قائم لم يبرح مكانه: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ الآية.

فيرضى رسول الله ﷺ أكمل الرضا، ويُسْلِم أجمل التسليم لأمر الله تعالى، ويصبر على مصابه في عمه كما صبر على مصابه في نفسه ﷺ.

ونحن نسوق القصة من صحيح البخاري منسَّقة مختصرة، قد يدخل فيها شيء من الروايات الأخرى يتطلبه توضيح المعنى ويستدعيه السياق،

وهي كما جاءت في حديث وحشي، وكما زعم أنه حدّث بها النبي ﷺ إذ جاء ليسلم فسأله النبي ﷺ فحدّثه.

قصة مقتل حمزة سيد الشهداء

قال وحشي: إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حر، فلما خرج الناس عام عينين - أي لغزوة أحد - خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سباع بن عبد العزّى الخزاعي، فقال: هل من مبارز فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع يا ابن أم أنمار، مقطّعة البظور - أي ختانة للنساء - أتحادّ الله ورسوله، ثم شد عليه حمزة، فكان سباع كأمس الدابر، أي صيَّره عدماً، ثم قال وحشي: وكمنت تحت صخرة، فلما دنا - أي حمزة - مني رميته بحربتي فأضعها في ثنّته - أي عانته - وعند الطيالسي: فجعلت ألوذ من حمزة بشجرة، ومعي حربتي، حتى إذا استمكنت منه هززت الحربة حتى رضيت منها، ثم أرسلتها فوقعت بين ثندوتيه، وذهب ليقوم فلم يستطع، فكان ذلك آخر العهد به.

نبو البلاد بوحشي بعد قتله حمزة وقبول إسلامه فيما بعد.

فلما رجع الناس إلى مكة رجعت معهم فأقمت بمكة، حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا - أي أهل الطائف - رسلاً إلى رسول الله ﷺ، فقيل لي: إن رسول الله ﷺ لا يهيج الرسل ولا يزعجهم، فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ فلما رآني قال: «أنت وحشي؟» قلت نعم، قال: «أنت قتلت حمزة؟» قلت قد كان من الأمر ما بلغك. وعند ابن إسحاق من رواية يونس بن بكير، فقيل هذا وحشي، قال ﷺ: «فلإسلام رجل واحد أحب إلي من قتل ألف كافر» ثم قال ﷺ: «فهل تستطيع أن تغيِّب وجهك عني؟» فخرجت، فكنت أتقى أن يراني رسول الله ﷺ، وعند الطبراني فقال رسول الله ﷺ: «يا وحشي اخرج فقاتل في سبيل الله كما كنت تصدّ عن سبيل الله».

فلما كان من أمر مسيلمة ما كان انبعثت مع البعث - أي لمقاتلة مسيلمة الكذاب - فأخذت حربتي، فقلت: لعلي أقتله فأكافؤ به حمزة،

فخرجت مع الناس، فإذا رجل قائم في ثلمة جدار كأنه جمل أورق ثائر الرأس، فرميته بحربتي فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من كتفيه، ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته، فربك أعلم أينا قتله، فإن أكُ قتلته، فقد قتلت خير الناس وشر الناس.

معالم من منهج الرسالة في قصة وحشي وقتله خير الناس وشر الناس.

وفي هذه القصة معالم مضيئة لمنهج رسالة الإسلام، مما يدل على أن محن الابتلاء في هذه الرسالة الخالدة محفوفة بالمنح الربانية التي تدفعها في مسيرتها إلى أهدافها الحميدة وغاياتها النبيلة.

فإذا جاء في القصة من رواية ابن إسحاق أن بعض الصحابة لما رأوا وحشياً قالوا: هذا وحشي، فيقول النبي ﷺ ليشعرهم أنه لا بأس عليه إذْ جاء مسلماً: «فلإسلام رجل واحد خير من قتل ألف كافر» ومعنى ذلك أن النبي ﷺ لا يريد من أصحابه أن يهيجوا وحشياً ولا أن يزعجوه وقد جاء مسلماً، والإسلام يجبُّ ما قبله من كفر مهما كانت آثاره وجرائره.

وفي هذا دليل على أن رسالة الإسلام إنما تستهدف الهداية والعدل والرحمة والإخاء، ولا تقيم وزناً لغير الحق، ولا ترضى عن أحقاد الثأر الجاهلية والله تعالى يقول لنبيه ﷺ: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ ويقول له ممتناً برسالته على العالمين: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ تجمع الناس في ظلال الهدى والتعاون على البر والتقوى ولم نرسلك معنتاً، ولا مثيراً لأحقاد الضغن بين أفراد وجماعات المجتمع الإنساني.

وإذا جاء في القصة من رواية الطبراني قوله ﷺ لوحشي: «اخرج فقاتل في سبيل الله كما كنت تصدُّ عن سبيل الله» كان ذلك من قبيل التوجيه الإرشادي إلى مكفِّرات ما سلف من الكفر ومحادة الله تعالى ورسوله، وذكر القتال في سبيل الله بيان للأمر الأنسب في التكفير، وفيه حضٌ من النبي ﷺ لإعلاء راية الجهاد، ولعل مخرج وحشي إلى اليمامة وقتله مسيلمة الكذاب كان أثراً من آثار توجيه النبي ﷺ إلى أفضل ما يمحو الخطايا، ويحتُّ الذنوب، ويطهِّر من الآثام.

وقد أدرك وحشي ذلك فقال حين قتل مسيلمة الكذاب: قتلت خير

الناس يعني سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، وقتلت شر الناس - يعني أخبث الفجّار من الكذابين، مسيلمة الحنفي صاحب اليمامة، وقد صدق وحشي في هذا القول.

أما قول النبي ﷺ لوحشي: «فهل تستطيع أن تغيِّب عني وجهك؟» فالمقصود به أن النبي ﷺ أراد أن لا تحرك رؤيته وحشياً في نفسه ذكريات حادث القتل وما تبعه من تمثيل شنيع بشع، فتثير عنده حزازات بشرية، ربما لا يكون من المستطاع منعها ومقاومتها إلا بشيء من العسر والعنت الشديد، مما قد يشغل النبي ﷺ ويقلقه.

وقد يؤدي ذلك إلى تحريك الحزازات النفسية عند من لا يملك ثورة نفسه إذا تمثلت له أحداث قتل حمزة، وبشاعة التمثيل به إلى أن يحدث في صفوف المجتمع المسلم ما لا تحمد عقباه من الأمور المنافية لسماحة الدعوة وتسامحها في سبيل وحدة كلمة المجتمع المسلم.

* * *

تحليل لما في غزوة أُحُد من تمحيص

كانت غزوة أحد تمحيصاً للمؤمنين، وامتحاناً لقوة إيمانهم، وتحقيقاً للعقيدة التوحيدية في أكمل معانيها، وأرفع مراتبها، وأصفى معالمها، وأصدق مراميها وأهدافها، وأحكم منازلها، وأخلص صورها، وأضوأ منائرها، وأهدى سبلها، وأرشد مراشدها، وأزكى غاياتها ومقاصدها.

إن العقيدة التوحيدية هي محور رسالات جميع الأنبياء والمرسلين، ولم يرسل الله تعالى رسولاً إلا كان قوله لقومه: ﴿أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ وعبادة الله تشمل كل طاعة لا ينبغي أن تكون إلا لله جل شأنه، وهذا هو معنى إسلام الوجه لله تعالى، وإخلاص الدين كله له وحده عز شأنه، وهو يقتضي اختصاص رسل الله صلوات الله عليهم بأعظم درجات الحب والاتباع والتسليم لجميع ما يبلِّغونه عن الله تعالى من الوحي، تسليماً لا يداخله حرج في النفس ولا يخالجه شيء من حزازات النفوس وأهوائها ورغائبها، لأنهم رسل الله المبلِّغون عنه شرائعه التي تعبَّد بها عباده، ولأنهم هم الوسيلة الموصلة إلى رضاء الله تعالى لمتابعتهم في جميع ما جاؤوا به من عند الله، وهم الباب الوحيد الذي يدخل عن طريقه جميع الخلق إلى منازل الإيمان بالله إلهاً واحداً لا شريك له في تدبير ملكه وملكوته.

وهم الذين يقفون بالمؤمنين على مشارف العبودية لله وحده، يأخذون بحُجَزهم أن يتقذفوا إلى مهاوي الضلالات والهوى، فتتحكم فيهم عواطفهم التي قد تجمح، فتجعل من الرسول أكثر من عبد اصطفاه الله لرسالته وكلفه تبليغها إلى خلقه و﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

هذا هو المنهج الإلٓهي الذي جعله الله تعالى طريقاً لمهبط رسالاته وتبليغها، والرسل بعد ذلك وقبل ذلك بشر، يعتريهم ما يعتري سائر البشر، وهم معصومون عن الإتيان بأي عمل لا يتفق مع طبيعة رسالاتهم، وهم صلوات الله عليهم متفاضلون في إطار هذا المنهج الربّاني، وخيرهم أعمهم رسالة، وأدومهم هداية، وأشملهم شرائع، وأكثرهم يوم القيامة تابعاً، وأقربهم إلى منازل الشهود منزلة، وهي منزلة خاتمهم نبينا محمد ﷺ.

التزيّد العاطفي في حب النبي ﷺ لا يدخل في معالم منهج الرسالة.

هذه هي الصورة المجملة للرسالات الإلٓهية، فإذا التزم أتباعهم بها كانوا خير جماعة أخرجت للناس، وإذا انحرفوا عنها كانوا بمعرض العقوبة من الله تعالى ليردهم إلى ساحة صدق الإيمان ونقائه، ويربّيهم على التزام المتابعة لما جاءهم به الرسل من الهداية وشرائع العبودية لله وحده دون تزيد أو تنقص ليكونوا أسوة لمن يجيء بعدهم من الأجيال والقرون.

كان موقف الصحابة في مبدأ غزوة أحد موقفاً يغلب عليه الحب العاطفي.

وقد كان موقف أصحاب رسول الله ﷺ من هذا المنهج في غزوة أحد موقفاً مشوباً بحب العاطفة التي قادتهم بعيداً عن مهيعه، وسلكت بهم مسلك المبالغة في الحب العاطفي، مما كان سبباً فيما أصابهم في هذه الغزوة من شدائد الأزمات، وفواجع البلاء التي كان من أشدها أثراً في عواقب هذه الغزوة أنهم ربطوا إيمانهم وعقيدتهم ودعوتهم إلى الله لإعلاء كلمته بشخص رسول الله ﷺ، إذ لم يكادوا يسمعون صرخة الشيطان بأن محمداً ـ ﷺ ـ قتل حتى انفرط عقدهم وتفرّقوا منهزمين، لا يلوون على شيء من شدة ما أصابهم من المفاجأة والدهش، وقساوة ما نزل على قلوبهم من الغم لسماعهم هذه الكلمة الكاذبة التي كادهم بها الشيطان، لينشر الفشل بينهم، ويوهن عزائمهم، ولولا وجود مَنْ ربط الله على قلوبهم فثبتهم ـ من أضراب أنس ابن النضر، وسعد بن الربيع، وسعد بن معاذ، ونسيبة بنت كعب المازنية، وأبي طلحة زيد بن سهل النجاري، وطلحة بن عبيد الله، وأبي دجانة ـ لكانت العاقبة أوخم وأشنع مما كان، لأن هؤلاء الأبطال راسخي الإيمان قالوا للذين أذهلتهم المفاجأة: إذا كان محمد ـ ﷺ ـ قد قتل فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ.

الربط بين الرسالة وبقاء شخص الرسول كان السبب فيما نال الصحابة من الفوضى والدهش فهزموا بعد النصر.

فهذا الربط بين عقيدة الإيمان بالله رباً معبوداً وحده وبين بقاء شخص النبي ﷺ خالداً فيهم خالطه الحب المغلوب بالعاطفة، فزيّدته، وهذا التزيد في الحب العاطفي هو الذي جعل بقاء رسول الله ﷺ بين أصحابه غاية أضفت عليه ﷺ شائبة الخلود بينهم، لا يلحقه الموت، بل يبقى فيهم يقودهم من نصر إلى نصر، ويدبِّر لهم أمورهم حتى يكون آخرهم رحيلاً عن الدنيا، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم نزل بالإسلام والمسلمين ما هاضهم وزلزل مفاصلهم، وغطّى على عقول جماهيرهم بنزول أبأس كارثة نزلت بهم بوفاة رسول الله ﷺ فأُخذ عمر رضي الله عنه عن مشاعره ومداركه، واستولى عليه الدهش المذهل، حتى جاء الصدِّيق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه فوجد عمر يرعد ويزبد، ويوعد الناس بالويل والثبور، ويقول: إن رسول الله ﷺ لم يمت، وإنه خارج إلى من أرجف به وقاطع أيديهم وضارب أعناقهم وصالبهم، فطلب منه أبو بكر أن يسكت ويسمع فأبى، فتركه أبو بكر وتوجه إلى الناس فقال لهم: إن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿وما محمد إلاّ رسول قد خَلَت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾(١) فمن كان يعبد محمداً فقد مات إلٰهه الذي كان يعبده، ومن كان يعبد الله لا شريك له فإن الله حي لا يموت.

وقد اعتذر عمر رضي الله عنه عن قوله، وصحّح موقفه، بعدما سمع الآية الكريمة فقال: أيها الناس إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة، ما كانت إلا عن رأيي وما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهده إليّ رسول الله ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سَيَدْبُرنا حتى يكون آخرنا، وإن الله تعالى قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسوله ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم لما كان هداه له.

ولقد كان موقف أبي بكر رضي الله عنه في هذه النازلة القاصمة للظهور المحشرجة للصدور ـ التي أصيبت بها الحياة كلها بمن فيها وما فيها

(١) سورة آل عمران آية (١٤٤).

شجاعة أبي بكر ورسوخ يقينه وقوة صبره كانت حصناً للمجتمع المسلم حفظته من انفراط عقده.

بَلْه المسلمين الذين سحقتهم هذه الكارثة المدمِّرة لولا لطف الله بدينه وعباده المؤمنين، والتي لن يصابوا بمثلها أبد الآبدين ـ موقفاً بلغ قمة الذروة من الشجاعة النفسية والثبات والصبر، والعلم بالله تعالى ومجاري أقداره في غيبه، ومعرفته بحقيقة الرسل وعلمه بمكانه في بشريته وروحانيته، وإدراكه لما يتطلبه الموقف من التجلد لعظيمات الأحداث والسرعة في اتخاذ الموقف الحاسم، والعمل لحفظ الدين ووقاية المسلمين شر جائحات الفتن، وجامحات النوازل، ومزالق الأفكار، وتجنيبهم غوائل الفرقة والتمزق، وقد اندسّ فيهم شرار المنافقين، وتربّص بهم أخابث اليهود الدوائر، ووهنت عزائم الدهاة، وضعفت قدرات القادرين، وتخلخلت إرادات أولي الحزم الصليب، ووهنت شجاعة القلوب، واضطربت في مسارها مدارك العقول، وأظلمت الآفاق، وماج الناس، وعمِّيت المسالك على السائرين، وغيِّبت المعالم على الناظرين، وانسدت نوافذ المخارج، وذهب الدهش بالمشاعر، واستحوذ الإزعاج على الإحساسات، وطاشت الأفكار، وماتت الكلمات، وخرست الألسنة إلا من هذيان أعقل العقلاء.

وجاء أبو بكر من السُّنح خارج المدينة، ولحكمة مّا استأثر الله بعلمها، لم يقدّر له أن يشهد وفاة رسول الله ﷺ، فرأى وسمع، فتكلم فكان الحكيم الملهم والعليم المعلَّم، والعيلم المعلِّم، فسكت المتكلمون الذين كانوا يقولون وهم في غمرة المفاجأة والدهش ما يقولون، واستمع الناس إلى الصدِّيق الأكبر رضي الله عنه وهم في وجوم الصبر الحزين.

واستنطق أبو بكر القرآن الحكيم فأسعفه بما يوازن أحزانه، التي كان سكونها إلى الرضا بقضاء الله أبلغ في التعبير عن صدقها من فلتات الدهش، ومسكتات الألسنة، فقال رضي الله عنه بعد أن كشف عن وجه رسول الله ﷺ وقبَّل جبينه، وعرف يقيناً أن اليقين الذي لا شك فيه قد نزل بساحة النبوة فألمَّ برسول الله ﷺ ونقله عن دنيا الناس إلى الرفيق الأعلى، فبكى وصاح: وانبياه، واخليلاه، واصفياه، وخرج إلى الناس وهم في حالة من الهرج والمرج والغم والأحزان والدهش والذهول تعجز العبارة عن وصفها.

عمر رضي الله عنه لم يتحمل ما ورد عليه من عظم المصيبة فتكلَّم بما لا يُعرف.

ووجد عمر ـ وهو من هو ـ يتكلم حتى أزبدّ شِدْقاه، والناس من حوله عمر رضي الله عنه يسمعون له، ولا يفهمون عنه، فقال له أبو بكر: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فتركه الصدِّيق، ثم تشهَّد، فأقبل عليه الناس وتركوا عمر يرعد ويزبد، ويتهدّد ويتوعّد، ثم قال أبو بكر: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خَلَت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾.

وهنا أيقن الناس أن رسول الله ﷺ قد مات، حينما تلا عليهم أبو بكر هذه الآية، فقال قائل: والله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية أنزلت حتى تلاها أبو بكر، وقال عمر رضي الله عنه: والله ما هو إلّا أن سمعتُ أبا بكر يتلوها فعُقِرتُ حتى والله ما تقلني رجلاي وأنا قائم حتى خررت إلى الأرض، وأيقنت أن النبي ﷺ قد مات، فنشج الناس يبكون.

هذا لون من الشجاعة انفرد به الصديق أبو بكر رضي الله عنه لم يعرف في التاريخ لأحد سواه، لأنه رضي الله عنه كان فيه أثبت الناس قلباً، وأقواهم جأشاً عند نزول أشد الكوارث وقعاً، وأعظمها إيلاماً موجعاً، وحلول أبأس المصائب هَيْضاً للنفوس، إذْ لا كارثة أشدُّ على نفوس المسلمين في الدنيا من موت نبيهم ﷺ وانقطاع الوحي بهذا الموت الذي فصم وشائج السماء بالأرض، ولا مصيبة أعظم بأساً من مفارقته ﷺ لأمته مفارقة أبدية في الحياة الدنيا.

مصاب الصديق بموت رسول الله ﷺ أشد وأوجع من مصاب جميع الناس به ﷺ.

وإذا كان مصاب جميع الخلق بموته ﷺ أشد وأقسى مصاب يلقاهم ويلقونه في دنياهم، فإن هذا المصاب بالنسبة لأبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ـ أول صفيٍّ لرسول الله ﷺ، سبق السابقين إلى الإيمان به وبرسالته ودعوته فآزره، وفداه بنفسه وماله، ولازمه في مواقفه ومشاهده، وكان معه ثاني اثنين في الغار، وطريق الهجرة المحفوفين بأخطر المخاطر ـ أوجع ما يصيب حبيباً في حبيبه، وآثر الخلق عنده، وأفدح ما ينال صديقاً في أصدق صديق كان له في الحياة.

ولكن شجاعة أبي بكر رضي الله عنه جعلته ينسى نفسه، ويُنَحّي جانباً حبه العاطفي لرسول الله ﷺ، ويتمسك بحبه رسولاً، أرسله الله لهداية الخلق وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ويقف إلى جانب الدين الحق موقفاً أنقذ به الأمة من صدمة كادت تأتي عليها، فقد كان همه رضي الله عنه أن يبينّ للناس أن الدين لله وحده، وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح للأمة، وكشف عن الحياة غمّة الشرك والوثنية، وترك بين يديها كتاب الله، فيه الهدى لمن أراد أن يهتدي، وفيه قوام حياة المجتمع المسلم وما ينبغي أن يكون عليه في سلوكه القيادي للإنسانية إلى آفاق الإخاء والعـدل والمحبة والتعـاون على البـر والتقوى.

ثم أبان أبو بكر أنَّ هذا الكتاب الكريم الذي هو الدستور الأصيل لحياة الأمة في مستقبلها هو الذي أُنزل الله فيه على محمد ﷺ أنه أحد رسل الله الذي أرسلهم برسالاته إلى أقوامهم وأممهم، يمضي إلى لقاء ربه مفارقاً للدنيا بما فيها ومن فيها إذا بلَّغ رسالته وأتم الله عليه نعمته بإكمال دينه، لم يكتب له خلود في هذه الدنيا دونهم، وقال له: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ فالله وحده هو المنفرد بالبقاء السرمدي الأبدي الذي لا يلحقه فناء، فهو وحده الحي الذي لا يموت.

وإنما أُرسل محمد ﷺ إلى الناس جميعاً ليعبدوا الله وحده حتى يكون الدين كله لله، ولم يُرسل ليبقى مع أمته في هذه الدنيا، فإذا جاءه أجله وافاه اليقين، وما عند الله خير له وأبقى، والآخرة خير له ﷺ من الأولى.

ومن ثَمّ كان موقف أبي بكر رضي الله عنه في تذكيره الناس بما جاء به الكتاب الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ من أن محمداً ﷺ بشر رسول، حتى يفيقوا من أثر المفاجأة والدهش ـ أعظم موقف في الإسلام.

والآية التي تلاها أبو بكر رضي الله عنه على الناس يوم كارثة وفاة النبي ﷺ إنما نزلت في غزوة أُحد، حينما ربط المؤمنون المجاهدون بقاء الدين

والجهاد في سبيل الدفاع عنه ونشر رسالته لإعلاء كلمة الله ببقاء شخص النبي ﷺ بينهم مخلداً لا يلحقه الموت.

كان الحب المتزيد بالعاطفة أوّل العوامل المؤثرة في هزيمة أُحد.

هذا الربط المتزيد في الحب العاطفي ـ الذي ادّى إلى هزيمة المجاهدين في غزوة أحد، فنزلت الآية ﴿وما محمد إلا رسول﴾ عتاباً للمؤمنين المجاهدين على موقفهم في هذه الغزوة الممحصة ـ هو الذي كشف الصدِّيق عنه الغطاء عندما نزلت بالمسلمين داهية الدواهي التي أذهلتهم وسلبت مقدرتهم على وزن الأمور إذا أعضلت؛ إذ لم تحتمل عزائم إيمانهم تلقِّي الخبر بوفاة النبي ﷺ.

لقد وقف الصدّيق رضي الله عنه وحده في شجاعة فذّة، لا توزن معها شجاعة أحد من البشر بعد رسول الله ﷺ، لأن الشجاعة الحقيقية ليست قتلاً وقتالاً، ولكنها كما رسمها الصديق رضي الله عنه قوة القلب وثباته عند المخاوف، وهذه الشجاعة هي التي يحتاج إليها قادة الأمم في حربهم وسلمهم، لأن شجاعة القلب تحمل على الثبات في مواطن الشدائد وشدائد الأزمات.

والصدِّيق رضي الله عنه رأى ما حلّ بالأمة عند وفاة رسولها ﷺ، وجحافل الفتن تكتنفها من جوانبها، فتغلب على حزنه الذي لا يلحقه في شدته حزن، ووقف يذود جحافل الدمار عن الإسلام والمسلمين، وألهمه الله تشخيص الداء، فتكلّم وداوى وعالج دون جراح، وذكّر المائجين بما ردَّهم إلى حظيرة الهدوء، فاستمعوا له، وأقرَّعين العقيدة التوحيدية ونبَّه إلى أصولها في أعراق أرض الهداية، وارتفاعها في سماء الإخلاص والتعبد لله وحده.

يقول القرطبي: هذه الآية ﴿وما محمد إلا رسول﴾ أدلُّ دليل على شجاعة الصدِّيق وجرأته، فإن الشجاعة والجرأة حدُّهما: ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ فظهرت عنده شجاعة الصدِّيق وعلمه.

قال الناس: لم يمت رسول الله ﷺ، منهم عمر، وخرس عثمان،

واستخفى علي، واضطرب الأمر، فكشفه الصدِّيق بهذه الآية: ﴿وما محمد إلا رسول﴾.

مفاجأة الدهش عند وفاة النبي ﷺ أصابت عمر بما أذهله.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها الطويل عند ابن ماجه أن أبا بكر صعد المنبر فقال: من كان يعبد الله فإن الله حي لم يمت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ثم تلا الآية، فقال عمر لما سمعها: فلكأني لم أسمعها إلا يومئذ، ورجع عن مقالته التي قالها وهو دَهِش مذهول من هول المصيبة بموت النبي ﷺ.

ثم قال القرطبي: ذكر الوائلي أبو نصر عبيد الله في كتابه الإبانة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سمع عمر بن الخطاب حين بويع أبو بكر في مسجد رسول الله ﷺ، واستوى على المنبر تشهّد قبل أبي بكر، فقال: أما بعد، فإني قلت لكم بالأمس مقالة، وإنها لم تكن كما قلت، وإني والله ما وجدت المقالة التي قلت لكم في كتاب أنزله الله ولا في عهد عهده إليّ رسول الله ﷺ، ولكني كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يَدْبرنا ـ أي حتى يكون آخرنا موتاً ـ فاختار الله لرسوله الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسوله، فخذوه تهتدوا لما هدى الله له رسوله ﷺ.

قال الوائلي أبو نصر: المقالة التي قالها ثم رجع عنها: إن النبي ﷺ لم يمت، ولن يموت حتى يقطع أيدي رجال وأرجلهم، وكان قال ذلك لعظيم ما ورد عليه، وخشي الفتنة، وظهور المنافقين، فلمّا شاهد قوة يقين الصدّيق الأكبر أبي بكر رضي الله عنه، وتلاوته للآية: ﴿وما محمد إلا رسول﴾ تنبَّه وثبت، وقال: كأني لم أسمع بالآية إلا من أبي بكر، وخرج الناس يتلونها في سكك المدينة كأنها لم تنزل قط إلا ذلك اليوم.

وكما كان في حب جمهور من شهد أحداً من الصحابة تزّيد عاطفي، جعلهم يربطون بين بقاء النبي ﷺ بين أظهرهم حتى يدبرهم فيكون آخرهم موتاً، كما كان في رأي عمر ساعات دهشه وأخذه عن اتزانه بما فاجأه من الخبر المصعق، أو لعله كان من بينهم من يتوهَّم أن النبي ﷺ لا يلحقه الموت، وبين بقاء الدين والدعوة إليه والجهاد في سبيله لإعلاء كلمة الله،

وتبليغ الرسالة إلى الخلق ـ كان في متابعتهم له ﷺ في جميع ما يأتي به عن الله تعالى تنقص عند بعضهم، وفي طليعة هذا البعض الرماة إلا من ثبت منهم مع أميرهم عبدالله بن جبير، واستشهدوا معه رضي الله عنهم.

وقد يلحق الذين خالفوا رسول الله ﷺ في رأيه أن يبقى داخل المدينة، ولا يخرج منها لقتال عدو خارجها رشح قليل أو كثير من هذا التنقص في المتابعة، ولا سيما أنه ﷺ قصّ عليهم رؤياه التي رآها في منامه عشية المعركة وتأويلها، ورؤياه ﷺ وحي كما يقضي به حديث عائشة عند البخاري في بدء الوحي.

وكان في رؤياه ﷺ أنه أدخل يده في درع حصينة قالوا: فما أوَّلت ذلك يا رسول الله، فذكر لهم البقاء بالمدينة، وأنها هي الدرع الحصينة، فلا يخرجون منها، فإن هاجمهم العدو قاتلوه في الطرقات والأزقة، ورماه النساء والصبيان من فوق أسطح البيوت، فخالفوه ﷺ، وعقدوا عزائمهم على الخروج لملاقاة العدو خارج المدينة خشية أن يجبّنهم العدو، وكانت عزائمهم على الخروج مما حمل ﷺ على موافقتهم، حذر الفرقة وحزازات النفوس.

ولم يكن لرجوعهم عن عزائمهم حينما نصحهم بعض الأكابر، وقالوا لهم استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج، بعد أن تهيأ رسول الله ﷺ للقتال خارج المدينة، ولبس أداة الحرب ـ وزن لأنّ رسول الله ﷺ أبى عليهم ذلك خشية أن تكون عزائمهم قد أصابها بعض التردد، وخشية أن يرى العدو هذا الموقف فيظن بالمسلمين الخوف والضعف.

كان التلبث في سرعة المتابعة أولاً وآخراً والتزيد في الحب العاطفي هما مفتاح اضطراب صفوف المسلمين في أحد.

كان هذا التنقّص في المتابعة عند هؤلاء وهؤلاء مفتاحاً لما أصاب المسلمين من الهزيمة، ولما أصاب رسول الله ﷺ من جراحات داميات، لتفرِّق من كان معه عنه وتركهم له في غمرات المعركة وحيداً، يضارب المشركين بكل ما يستطيعه إلى أن فاء إليه بعض من عصمهم الله، وكان في طليعتهم الصدِّيق أبو بكر رضي الله عنه، فوقفوا بين يديه يتلقَّون عنه الطعنات والضربات.

وكان هذا التلبث في متابعته ﷺ سبيلاً إلى تمكين طواغيت الكفر من

قتل أبطال المسلمين والتمثيل بهم، حتى بلغ قتلى المسلمين بضعاً وستين من الأنصار وحدهم، وأربعة نفر من المهاجرين، حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وعبدالله بن جحش، وعثمان بن شاش، وقد مُثّل ببعضهم كحمزة وعبدالله بن جحش أشنع تمثيل، ممّا زاد في غم النبي ﷺ وإيلامه إذ رأى ما رأى من شناعة الفجور والكفر في المبالغة في التمثيل حتى عملت هند بنت عتبة قلائد من آذان وآناف الأبطال، وبقروا بطن حمزة رضي الله عنه وأخرجوا منه كبده.

وكل ذلك لم يكن ليكون لو أن المخالفين من المجاهدين أولاً وأخيراً جعلوا عواطفهم وأهواءهم وآراءهم تبعاً لما يقول رسول الله ﷺ، ولهذا عاتبهم الله عتاباً شديداً في قوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل؛ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾.

نزلت آية ﴿وما محمد إلا رسول﴾ عتاباً للذين أفرطوا في حب النبي ﷺ فظنوا خلوده في هذه الدنيا.

وقد تضمن عتاب المؤمنين بهذه الآية وهي التي تلاها أبو بكر يوم وفاة النبي ﷺ وسكّن بها الفتنة وأنقذ بتلاوتها المجتمع المسلم من شر مستطير، وبلاء ساحق أمرين، التزيّد العاطفي في حب النبي ﷺ بربط بقاء الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيلها ببقاء شخص رسول الله ﷺ مخلداً، لا يلحقه موت وانتقال من الدنيا إلى دار الخلود.

وهذا هو معنى ما ذكره أبو جعفر الطبري في قولة أبي بكر الصديق رضي الله عنه التي فسّر بها آية العتاب: إن الربط بين بقاء محمد ﷺ وبين بقاء الدعوة إلى الله والجهاد في سبيلها يتعدّى حقيقة بشرية محمد ﷺ، فيخرجه في توهم الذين وقفوا موقف الهزة الإيمانية عن كونه بشراً مثل سائر البشر، يلحقه ما يلحق البشر، ومنها الموت بعد استيفاء الأجل المكتوب له، كما لحق إخوانه المرسلين قبله كما قاله أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وهو يسمع مقالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم توفي رسول الله ﷺ: فمن كان يعبد محمداً فقد مات إلهه الذي كان يعبده ـ يعني أن استبعاد أو إنكار

موت محمد ﷺ تأليه لمحمد ﷺ، لأن المتفرد بالأبدية الذي لا يلحقه فناء هو الإلّه الحق الذي أرسل محمداً ﷺ برسالة الهدى والنور.

ومثل ذلك ما وقع في غزوة أحد، فإن بعض المجاهدين المؤمنين لم يكد يسمع الصرخة الفاجرة التي أرجف بها الشيطان بين صفوف المسلمين بأن محمداً قتل حتى اضطربت صفوفهم واستولى عليهم الدَّهَشُ والفزع، واختل نظامهم وذهب تثبُّتهم، ومرج أمرهم، فاختلط صفُّهم بصفوف المشركين، وجعل بعضهم يضرب بعضاً وهم لا يشعرون، ثم ولَّوا الأدبار منهزمين، وتفرّقوا حتى بلغ بعضهم في فراره المدينة، وبعضهم مكث ثلاثة أيام بعد انتهاء المعركة حتى فاء إلى إخوانه المسلمين.

وقد وجد أنس بن النضر رضي الله عنه، وهو مقبل على النبي ﷺ للدفاع عنه بالقتال دونه، وتلقّي الضربات عنه بعضاً من الذين استحوذ عليهم الدهش، وغلبتهم المفاجأة، وملكهم الاضطراب النفسي حتى هزّ إيمانهم جلوساً يكاد يقتلهم الغم، فقال لهم: ما جلوسكم هنا؟ قالوا: قتل محمد ـ ﷺ ـ، فقال هلم: قوموا فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد.

فكانت هذه المحاورة القصيرة السريعة إيقاظاً لمشاعرهم، وتثبيتاً لقلوبهم، ففاؤا إلى رسول الله ﷺ، وقاتلوا دونه مدافعين عنه حتى انتهت المعركة.

كانت إصابات المسلمين في أنفسهم وفي جراحات النبي ﷺ أعظم درس تربوي للمجتمع المسلم في أحد.

وقد كانت لإصابات النبي ﷺ بالجراحات الكثيرة الدامية في وجهه الشريف، وإصابات من أصيب من المسلمين بالقتل أو الجراح والتمثيل البشع الشنيع ببعض من استشهد، ولا سيما سيد الشهداء حمزة عم رسول الله ﷺ ـ أبلغ الأثر في نفس رسول الله ﷺ، وكانت تلك الإصابات وآثارها الوخيمة على المجتمع المسلم درساً تربوياً، تلقّاه المجتمع المسلم ليتخذ منه معالم لمسيرته القيادية في مستقبل حياته، وكانت مظاهر لتمحيصه ليخلص من شوائب الجموح العاطفي في حبِّه ﷺ الذي ساقه إليه التزيد العاطفي في هذا الحب، وليكون هذا المجتمع على أرفع درجات المتابعة له ﷺ في كل ما يأمر به رسولاً وقائداً، والمتابعة تقتضي التسليم المطلق في تنفيذ وصاياه دون

حرج أو تأويل يبعد تلك الأوامر والوصايا عن أهدافها ومراميها.

وقد دلّت آية العتاب ﴿وما محمد إلّا رسول قد خَلَت من قبله الرسل﴾ على أن حبّ النبي ﷺ يجب أن لا يتعدّى بشريته ورسالته، فهو ﷺ بشر رسول أو رسول من البشر، والبشر رسلاً أو غير رسل لا عاصم لهم من الموت، وقد كان قبله ﷺ رسل من البشر بلّغوا رسالات الله تعالى إلى خلقه، ثم ماتوا، ولم يكتب لأحد منهم الخلود في هذه الدنيا.

قال القرطبي: فأعلم الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبداً، وأنه يجب التمسُّك بما أتت به الرسل وإنْ فقد الرسل بموت أو قتل، فهذه الآية من تتمة عتاب المنهزمين، أي لم يكن لهم الانهزام وإنْ قتل محمد، والنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء.

وذِكْرُهُ ﷺ في الآية باسمه الأكرم إيذان بتأكيد بشريته، وهذا التأكيد يكسب العتاب شيئاً من الشدّة الملائمة، ووصفهُ ﷺ بوصف الرسالة بأسلوب الحصر الإخباري مشعر بوجوب متابعته في كل ما يأمر به دون تأويل يبعده عن الامتثال، لأنه بمقتضى وصف الرسالة مبلِّغٌ عن الله تعالى ما أرسله به من شرعه وأحكامه التي يجب متابعته فيها مهما تكن الأسباب والنتائج، لأنه بإطلاق هذا الوصف وعمومه مفيد أنه لا يأتي بشيء من عنده، وإنما هو حامل لأمانة رسالة الله تعالى يبلّغها كما أوحاها إليه ربه ﴿إنْ أتّبع إلا ما يوحى إليّ﴾.

فالذي يحب دين الله وشرعه، ويؤمن بالله إلهاً واحداً ليس له منصرف إلا متابعة مبلِّغ دينه الذي أرسله به، كما قال تعالى: ﴿فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، ويسلِّموا تسليماً﴾[١] وكما قال عز شأنه: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحْبِبْكم الله﴾[٢].

---

(١) سورة النساء آية (٦٥).

(٢) سورة آل عمران آية (٣١).

متابعة الرسول هي العنوان على محبة الله ومحبة الرسول محبة إيمانية.

فاتباع الرسول ﷺ هو العنوان على محبة الله تعالى ومحبة دينه وبذل النفس والمال في سبيل نصرة هذا الدين للوصول إلى رضاء الله تعالى، وليس على الرسول إلّا بلاغ رسالة الله كما أنزلها الله عليه، فإعطاؤه فوق حقه بالتزيّد العاطفي في حبِّه وربط بقاء الدين ببقائه، فإذا مات أو قتل رجعتم عن متابعته، خروج منكم عن التبعية فيما وجب عليكم (ومن ينقلب على عقبيه) بالتزيد العاطفي في حب الرسول (فلن يضرَّ الله شيئاً) لأن الله هو الغني الحميد، لم يبعث رسله إلى خلقه لحاجة إلى هؤلاء الرسل والمرسل إليهم، وإنما بعثهم ليبلِّغوهم رسالات ربهم ليفردوه بالتعبد، ويستمسكوا بما آتاهم على رسله لإصلاح حياتهم، فمن اتّبع هدى الله كان شكوراً لله تعالى مستحقاً جزاء الشاكرين الذين سيؤتيهم ثواب شكرهم في التزامهم بالحق، لا يتعدّونه إلى جامحات العواطف، ولا يخرجون في التزامهم عن طبيعة الرسالة في متابعتهم الرسل في كل ما يبلغونه عن الله تعالى.

ومتابعة الرسول أساس وجوب التأسِّي به في الصبر على المكاره، والعمل الدائب على نشر الرسالة وتبليغ الدعوة ونصرة الحق ومقاومة الظلم، وهذا التأسِّي هو الجانب الأغر من جوانب منهج رسالة الإسلام، لأنه الدعامة الأولى في بناء مسيرة الدعوة لإعلاء كلمة الله ونشرها في آفاق الأرض.

الحب الإيماني بمتابعة الرسول هو وشيجة تماسك المجتمع المسلم التي لا تنفصم عراها.

وعدم ربط بقاء الدين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النبي ﷺ في هذه الدنيا لا يلحقه فناء بموت أو قتل، وإيجاب متابعة الرسول والتأسِّي به علماً وعملاً هما الوشيجة العظمى لتماسك المجتمع المسلم ولا سيما الدعاة إلى الله من أتباعه، وهما المعيار السوي لتقدير الشخصيات مهما كان شأنها من الرفعة بعيداً عن المبالغات المفسدة لموازين الحق والعدالة، لأن البشر بأعلم علمائهم وأتقى أتقيائهم لم يخرجوا عن كونهم بشراً مخلوقين لله تعالى، والبشر في طبيعتهم الخطأ فهم خطاؤون لم يعصم الله أحداً منهم عن أن يكون بمعرض الخطأ والخطيئة، حاشا رسل الله وأنبياؤه، فهم الذين ينفردون بالعصمة عن الخطأ فيما يبلِّغونه عن الله تعالى من شرائع وأحكام.

فالذي وقع في غزوة أحد إنما كان من قبيل الابتلاء الممحِّص، ليعرف المجتمع المسلم وخيم عاقبة معصية الرسول ومخالفة أمره عموماً، ويتأكد ذلك في المواطن الأصيلة لبناء الدعوة إلى الله تعالى، وليعرف هذا المجتمع المسلم شؤم مخالفة الرسول في أوامره ووصاياه، وخاصّة إذا كان ذلك في ظل حياته وشهوده وقيادته العليا لكتائب المجاهدين من أصحابه الذين اصطفاهم الله لَبِنات لبناء المجتمع المسلم الذي ربّاه ويربيه على منهج رسالته ليكونوا حملة أمانتها إلى الناس في أكناف الأرض.

وهذه المخالفة هي التي وقعت من الرماة الذين أقامهم رسول الله ﷺ في أماكنهم من جبل عَيْنين وراء الجيش المسلم ليحموا ظهره، فلم يطيقوا الصبر على البقاء في أماكنهم كما أمرهم رسول الله ﷺ، وتركوها متأوِّلين بمجرد ظهور بوادر النصر مع الجولة الأولى التي صدق فيها المجاهدون الحملة على المشركين فهزموهم.

وكانت أوامر رسول الله ﷺ لهم صريحة واضحة لا غموض فيها ولا إبهام، فإنه أمرهم أن لا يبرحوا من أماكنهم مهما كان سير المعركة حتى يرسل إليهم، ووعدهم ووعد جميع المجاهدين معهم إن هم ثبتوا حيث أقامهم كان النصر حليف المسلمين.

قال الزرقاني: وإلى هذا أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تَحُسّونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾[١].

ثم قال الزرقاني: أخرج الطبري عن السُّدِّي وغيره أن المراد بالوعد قوله ﷺ - أي للرماة - «إنكم ستظهرون عليهم فلا تبرحوا من مكانكم حتى آمركم».

بيان موطن العتاب في آية الوعد بالنصر.

وفي هذه الآية الكريمة ضَرْبٌ من العتاب الشديد المعلِّم، فالله جل

(١) سورة آل عمران آية (١٥٢).

شأنه يخبر فيها المؤمنين المجاهدين أنه تعالى صدقهم وعده بالنصر إذ صدقوه عهده بالإخلاص في جهاد عدوِّه وعدوِّهم، وأنه عز شأنه سلَّطهم على المشركين يحسونهم بسيوفهم حسّاً يستأصلهم بإذنه وأمره، ولكنهم لم يطيقوا مرارة الصبر على الجهاد، ففشلوا وداخلهم الرعب المشاب بشيء من الهلع عن الاستمرار في خوض المعركة حتى تصل إلى غايتها.

وقد زاد في ضعفهم عن الاستمرار في القتال تنازعهم في الأمر، فقال فريق من الرماة إذْ رأوا مخايل النصر تلوح في أفق المعركة: ما بقاؤنا ها هنا ـ يعنون أماكنهم التي أقامهم فيها رسول الله ﷺ، وأمرهم أن لا يبرحوا منها حتى يرسل إليهم ـ قد نصرنا الله على أعدائنا وهزمهم أمامنا؟ وتنادى الرماة: الغنيمة، الغنيمة، فأبى عليهم أميرهم عبدالله بن جبير، وذكرهم بعهد النبي ﷺ أن لا يبرحوا من أماكنهم حتى يرسل إليهم رسول الله ﷺ، فأبوا طاعة أميرهم إلى جانب إبائهم طاعة أوامر رسول الله ﷺ التي سلّطوا عليها التأويل المباعد بينها وبين صراحة نصوص تلك الأوامر والوصايا.

ولم يكتف النص القرآني في الآية المعاتبة بذكر الفشل، وهو رعب مشوب برشح من الجبن المذل، فهو عيب عيّرتهم به الآية في عتابها وهو عصيان ووهن، والله تعالى يقول لهم: ﴿ولا تَهنوا﴾ بل عقّب الله تعالى ذلك بذكر العصيان ليسجل عليهم ما حملوه من وخيم المخالفة، وما حملوه للمجاهدين من هزيمة وقتل وتمثيل على أبشع وأشنع صورة عرفها الفجور في طغاة المشركين من عبيد الوثنية.

ولو لم يكن من ذلك إلا ما أصاب النبي ﷺ من الجراحات الداميات المؤلمات، وإلا ما أصابه ﷺ من غم وغيظ وهو ينظر إلى عمه سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقد مُثِّل به، فبقر بطنه وأخرجت كبده، لكان كافياً في بيان حكمة توجيه هذا العتاب القاسي إلى أولئك المخالفين المتسببين في نزول ما نزل بالمؤمنين من بلاء قلب عليهم ميزان المعركة من نصر للمؤمنين رأوه بأعينهم إلى هزيمة هزّت كيانهم ومست بعنفها مداخل الإيمان في نفوسهم.

وقد ضمنت الآية الكريمة ذكر أسباب العتاب ببيان أن تلك الأسباب إنما كانت من المخالفين بعد أن أراهم الله رأي أعينهم ما يحبُّون من النصر على عدوهم، ولكن الآية الكريمة إمعاناً في تأديب العتاب ليكون درساً مذكوراً في الحياة المسلمة عيّرتهم بأن فريقاً منهم ـ أسدلت عليه جلباب الستر فلم تسمِّهم أو تصفهم ـ نزلت بهم رغائب الدنيا عن سموٍّ ما كان ينبغي أن يكونوا عليه من التجافي عن هذه الرغائب التي لا تتسامى بهم عن الإخلاد إلى الأرض.

كانت إرادة الدنيا من بعض الصحابة هي السبب فيما ابتلي به المجاهدون من محنة التمحيص

ثم أبانت الآية الكريمة أن ما وقع من المعاتبين من تعلّقهم بزخارف الدنيا الفانية إنما هو ابتلاء من الله تعالى ليمحِّص الذين آمنوا ويمحق بهم الكافرين، ثم ختمت الآية متلطِّفة بالمعاتبين بذكر منّة الله تعالى عليهم بعفوه فضلاً منه وهو ذو الفضل العظيم.

ومن الحكم التي تضمَّنتها محنة الابتلاء والتمحيص في غزوة أُحد أن سنة الله تعالى مع أنبيائه ورسله أن يبتليهم في الدنيا ويجعل لهم فيها العاقبة الحميدة، وخاصة في معارك الجهاد في سبيل الله، لأنهم لو انتصروا دائماً في حروبهم مع أعدائهم لفتن الناس بهم، فتزيدوا في حبهم وطاعتهم، وفي الاعتقاد فيهم بما يباعد بينهم وبين بشريتهم، وأنهم مخلوقون يجري عليهم ما يجري على سائر البشر من المحن والبلايا فيما لا يمسُّ حقيقة رسالاتهم وقداساتها، وهذا كما قال تعالى: ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحِّص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾[1] وقوله عز شأنه: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾[2].

ولو انكسروا دائماً لم يتحقق المقصود من بَعْثتهم لهداية الناس لأن الانكسار دائماً يدعو إلى الشك فيهم وفي صدقهم، فاقتضت الحكمة الإلٓهية الجمع بين الانتصار لفتح طريق مسيرة الدعوة إلى الله، وإزالة العقبات التي تقف أمامها، وبين الابتلاء للتربية على احتمال مرارة الصبر والتفكير في

(١) آل عمران آية (١٥٤).

(٢) السورة نفسها آية (١٧٩).

مناشىء الابتلاء وعواقبه للتوقّي منها، وليتأسّى بهم من يحمل عبء الدعوة بعدهم، فيتذرّع بالصبر على المكاره، وتحمّل المحن وشدائد الأزمات التي تقابلهم في طريق نشر الهدى والخير، وليعلموا أن الوصول إلى رضاء الله لا تبلّغه أعمالهم، فكان لا بد للدعاة إلى الله من حوافز تبعثهم على المزيد من الصبر والاحتمال ومقابلة السيئات بالحسنات، وهذا كما قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ قال ابن إسحق في تفسيرها: أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة فتصيبوا من ثوابي الكرامة، ولم أختبركم بالشدّة والابتلاء بالمكاره حتى أعلم صدق ذلك منكم في الإيمان بي والصبر على ما أصابكم فيّ.

وقول الله جل شأنه: ﴿ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ معناه: ولما تتثّبت نفوسكم من الرضا بقضائي وقدري والصبر على بلائي، حتى يتجلّى ذلك منكم وتظهر للناس آثاره ليقتدوا بكم، ولتكونوا معالم على طريق الهدى يسترشد بها أهل البلاء من عبادي، فيعجز الشيطان أن يسدّ عليهم منافذ الركون إلى مناجاتي بطلب العفو من بلائي والرضا بقضائي.

هذه هي أصول الحكم الربانية التي أنعم الله بها على عبده وحبيبه محمد ﷺ، وعلى عباده المجاهدين معه في غزوة أحد التي كانت أعظم درس تربوي في تاريخ المجتمع المسلم، وهي جامعة لجوامع الفوائد التي لا بد للمجتمع المسلم في مسيرته بالدعوة إلى الله من أن يمرّ بها.

لم تكن محنة أحد مسخطة لله وإنما كانت لوناً من التربية الإلهية للمجتمع المسلم.

وهذه الأحداث الدامية، والمحن القاسية، والبلايا المرزئة التي أصابت المجتمع المسلم في هذه الغزوة لم تكن قط من عقوبات المساخط الإلهية، وإنما كانت دروساً تربوية كان المجتمع المسلم في أشد الحاجة إليها وهو في دور النشأة والتكوين لتمحيصه تمحيصاً يصفّي عواطفه الإيمانية، ويصقل غرائزه البشرية، ويصونه عن الإفراط في الحب بالتزيد فيه وإعطاء ما ليس بحق صورة ما هو حق، ويحفظه عن التفريط في المتابعة بالتنقّص منها بتحريف التأويل.

نعم إن ما جرى في غزوة أحد من أحداث وابتلاء ومحن وأزمات كان لوناً من التربية الصادقة القاسية، وهي تربية اقتضاها الموقف بدءاً ونهاية ليتحقق الزجر الذي يحوّل النفوس عن رغائبها العاطفية إلى إرادات إيمانية، فهي في حقيقتها وعواقبها البعيدة رحمة، من شذاها استمد حكيم الشعراء قوله:

فَقَسا ليزدجروا ومن يَكُ حازماً فَلْيَقْسُ أحياناً على من يرحم

والذي يدل على أنها أحداث تربية رحيمة غلّفتها الشدة القاسية ما نزل في قصَّتها من آيات الكتاب الحكيم.

فقد تلطف الله بمن كان متنزل هذه الأحداث القواصم من المؤمنين المجاهدين، فلاحقهم بالعفو عنهم بعد أن أذاقهم مرارة العتاب لئلا تنفطر نفوسهم كمداً وغماً، فختم الله تعالى آية العتاب المتضمنة لوعد الله بالنصر إذا حقق الرماة ما أوصاهم به رسول الله ﷺ ونفّذوا أمره بقوله عز شأنه: ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾.

تلطف الله تعالى بالمجاهدين في العتاب ملاطفة في التربية والتوجيه.

وهذا التلطف من الله تعالى بهؤلاء المجاهدين الذين هفوا هذه الهفوة يجعل العتاب منه تعالى من قبيل الملاطفة التي تحمل في طيّاتها التأنيس لهم بعد أن نأت بهم جفوة المعاتبة، ليثوبوا إلى منابع الامتنان الإلّهي والإحسان الربّاني، ويقفوا بين مرارة العتاب فلا ينسوا ما كان منهم ليعودوا إلى مثله، وبين حلاوة الملاطفة فلا ييتئسوا همّاً وغمّاً.

ويرشح صيرورة التلطف ملاطفة ختم الآية الكريمة بما وصف الله عز شأنه به نفسه من أنه أهل التفضل والإنعام لإبانة أنّ ملاطفتهم بعد العتاب نابعة من بحار كمال جوده الذي سبقت فيه رحمته غضبه، مع وصفه لهؤلاء المعاتبين بالإيمان الذي هو ذروة الكمالات لتنزل المراحم والإنعام، فقال تبارك وتعالى: ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾ لا يتركهم لمرارة العتاب تُمرّ حياتهم، ولكنه تداركهم بحلاوة الملاطفة لِيَحْلوا لهم مذاق الإيمان.

وهذه الجملة، كالتعليل لجملة العفو قبلها، كأنه قيل: ولقد عفا

عنكم متفضِّلاً، لأنه ردكم إلى الاعتصام بوصائل الإيمان.

ثم عاد ربنا تبارك وتعالى بعائدة العفو مرة أخرى فختم بها آية التعيير بمعصية التولِّي عند التقاء الجمعين في قوله تعالى: ﴿إن الذين تولَّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلَّهم الشيطان ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾[1].

اختلاف أسلوب آيتي العتاب دليل على اختلاف الموقفين لاختلاف أسبابهما.

واختلاف الآيتين: آية الوعد بالنصر المشروط باتباع أوامر القيادة العليا للمعركة وتنفيذ تلك الأوامر لصدورها من رسول الله ﷺ بوصفي النبوة والقيادة العليا، وآية التعيير بمعصية التولِّي يوم التقاء الجمعين في أسلوب العتاب والعفو ـ دليل على ما بين الموقفين في العتاب تبعاً لاختلافهما في الأسباب المقتضية لهما والنتائج المترتبة عليهما، ففي آية الوعد المشروط جاء الأسلوب خِطَابياً موجّهاً، وفي آية التعيير بالتولِّي جاء الأسلوب غيابياً حاكياً، لأن ما وقع فيها ذكرته آية الوعد بالنصر من الفشل والتنازع والعصيان كان سبباً فيما وقع من التولِّي الذي عوتبوا عليه في الآية الثانية.

ولا شكّ أن أثر السبب في النتيجة أقوى وأعمق من أثر النتيجة بعد انتهاء أسبابها، فلهذا جاء الأسلوب في آية الوعد مواجهاً بالخطاب الحضوري ليكون أثره في النفس أبلغ وأعمق وليقول لهم: فعلتم كذا، ووقع منكم كذا، فكانت النتيجة أنكم توليتم عن المعركة وأخليتم الموقف، فكانت هزيمتكم وجراحكم وسائر ما أصابكم من البلاء، وجاء الأسلوب في الآية الثانية غيابياً حاكياً ليذكِّرهم بما وقع منهم ليحذروا أن يقع مثله في مستقبل مجتمعهم المسلم.

لون من التلطف الإلهي عُلِّق بالنبي ﷺ ليجعله من معالم التأسي به.

ليس هذا فقط، ولكن الله الرحيم بعباده أنزل على عبده ورسوله وحبيبه ﷺ ـ وهو الذي كانت إصاباته في نفسه، وفي عمِّه سيد الشهداء، وفي خاصة أصحابه من القتل والجراحات والتمثيل أشد ما أصيب به المجاهدون خاصة والمسلمون عامة ـ يخاطبه ممتناً ومرشداً وآمراً: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك، فاعف

(١) سورة آل عمران آية (١٥٥).

عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكّلْ على الله إن الله يحب المتوكلين * إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكّلِ المؤمنون﴾[1] وهاتان الآيتان من أعظم آيات التربية للقادة والزعماء والحكام وولاة الأمور ورؤساء الأمم والجماعات، ويدخل في ذلك الآباء والأمهات وأساتذة التربية والتعليم ومديرو المؤسسات والشركات، لأن كل أولئك مطالبون بالاقتداء والتأسِّي برسول الله ﷺ في منهج رسالته التربوي، لأن الآية ترسم سياسة تدبير أمور حكم الأمم والشعوب، وترسم سياسة تربية الأفراد والجماعات ولا سيما في أوقات الشدائد والأزمات.

وقد افتتحت الآيتان بامتنان الله على نبيه وحبيبه محمد ﷺ بأن ما طُبع عليه من اللين والرفق والرحمة إنما هو من نعم الله عليه، لأن مهمته في الحياة رسولاً مبلِّغاً عن الله رسالته ليخرج الناس من الظلمات المحيطة بهم من كل جانب إلى نور الهداية والخير مهمة شاقة عسيرة، تتطلب صبر أولي العزم مجتمعاً، وتتطلب السماحة والتسامح فيما لا يمس جوهر الرسالة، ثم كشف الله لرسوله ﷺ بأنه لو كان على نقيض ما جبله الله عليه من لطف ولين ورفق ورقّة رحيمة لما كان مستطيعاً أن يجمع حوله هذه الجموع لأن طباع البشر تغلب عليها النفرة والنشوز من كل ما هو مظهر من مظاهر السيطرة المرتفعة، والسلطان الآمر الناهي في جفوة الترفع والتعالي.

تحليل في بيان التلطف الذي اشتمل عليه قول الله: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾.

فإذا غلط بعض أصحابك في بعض مواقفهم لتغلب منازع البشرية عليهم فتلطَّف بهم لتعيدهم إلى ساحة رضاك عنهم ونمط تربيتك لهم ومنهج رسالتك لتعليمهم، ولا تعاملهم معاملة تزيد من نفرتهم عنك لأن حياء الغلط نُفَرة خجول، يحتاج إلى من يمسح عنه بيد لطفه ندى هذا الخجل، فإذا جاءته جفوة ناصحة فربما دفعته إلى شموخ جموح فلا يسمع صاحبه إلا صوت نفسه الأنوق عن ملامة التقريع، فينفضُّوا من حولك أنفةً أو خجلاً أن تنظر إليهم بعين اللوم الصامت.

---

(1) سورة آل عمران آيتا (١٥٩ - ١٦٠).

وهذا توقيف لسير دعوتك، وعقبة كؤود أمام انتشار رسالتك، ولكن عاملهم معاملة المربي الحاذق الذي يكشف في تؤدة وأناة مشفقة عن مزالق الأخطاء، حتى يروا بعين بصيرتهم أن ما وقع منهم ما كان ينبغي أن يقع، ويداخلهم ندم شفيف لموقفك المتلطِّف بهم، فيحذروا أن يقع منهم مثل ما وقع فأخجلهم، دون أن تثور أنفسهم أنفة لشخصياتهم.

وتجاوز بالعفو عنهم عما كان منهم في حقك، وحقِّ أنفسهم، وحق مجتمعهم، وعرِّفهم واجبهم نحو الدعوة إلى الله، لأن هذا العفو من أعظم معاقد الحب الذي يعيد قلوبهم المنكسرة بعد جبر كسرها بالعفو الرفيق الرحيم.

ثم زادهم الله تلطفاً عند نبيهم ﷺ بجذبهم إلى القرب منه قرباً يزيد في محبتهم له ومتابعتهم لأوامره، فقال له: ﴿واستغفر لهم﴾ أي لا تتركهم تحت طائلة الشك والتردّد في مغفرة الله لهم، لأن هذا يعيق نهوضهم معك في مسيرة رسالتك.

وقد يولِّد في أنفسهم بعض اليأس، وهو أخطر آفات الفناء الروحي، لكن استغفارك لهم يحيي فيهم روح النهوض، ويجدِّد في نفوسهم دوافع الإيمان والجهاد في سبيل الله، وفي سبيل عقيدتهم ودينهم، لأنهم يوقنون أن استغفارك لهم مقبول، فتطمئن قلوبهم فيزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

ثم جاءت في الآية واسطة عقد التلطّف الرباني، فأمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يزيدهم قرباً إليه فيشاركهم الرأي ويخلطهم بالمشاورة، ليشعرهم أنهم عادوا لما كانوا من القرب والمشاركة في تحمّل المسؤولية، فقال له ربه: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ لأن مشاورتهم تفتح قلوبهم وتنير أفكارهم، وتوقظ مشاعرهم وإحساساتهم لتلقّي ما يأمر به ويطلبه بأعظم القبول، والطواعية والحب ورغبة المسارعة في الامتثال.

مبدأ المشاورة أصل المبادىء الاجتماعية في الإسلام.

والمشاورة أصل كل خير تناله الأمة من قادتها، فهي مبدأ اجتماعي شرعه الله في رسالة الإسلام ليكون منهجاً للمجتمع المسلم في مستقبل حياته، لأن الرأي المردَّد للنقاش والبحث أنظف وأصفى من رأي الفرد مهما

يكن قد أوتي من رجاحة التفكير، ومن البداهة أن المشاورة لا تكون إلا في الأمور الاجتهادية التي لا نصٌّ فيها، لذلك كان مجالها الأمور النظامية الاجتماعية، وهي معزولة عن العقيدة عزلاً تاماً، لا يجعل لها سبيلاً إليها، وكذلك هي معزولة عن العبادات إلاّ في طرائقها ووسائل الوصول إلى أدائها مع ملاحظة الشرط العام، وهو عدم وجود النص.

ثم جاءت العاقبة لكل هذا البيان أن المشاورة التي تأتي بعد صفاء الصدور لا بدّ أن تنتهي إلى أمر قد أحكمته التجارب ولم يبق وراءه إلا عزيمة ماضية، يكنفها صدق التوكل على الله، مع السمع والطاعة والاتّباع.

ثم قفّى ذلك كله بجامعة الجوامع، ليخلِّص النفوس من نزعات الغرور، فبيّن أن النصر بيد الله تعالى، يؤتيه من يشاء متى شاء، لا يقدر عليه غيره تبارك وتعالى، فلا يستطيع أحد أن يرّده إذا نزل، ولا يستطيع أحد أن يجلبه إذا خذل الله من يريد خذلانه فقال تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ وإذا كان النصر بيد الله، فمن ينصره الله فلن يغلب، لأنه ليس هنا قوة في الحياة تستطيع أن تقف أمام بطش الله وقهره، مهما كانت وسائل قوة البشر ووسائلهم.

ومن يخذله الله القوي القّهار فمن ذا الذي يستطيع أن ينصره مع خذلان الله له، وهذا بيان لتقوية قلوب المؤمنين حتى يكون إيمانهم بالله وعظمته واقتداره وقهره هو الدعامة الأولى في جهادهم لأعدائهم وأعداء الله من الكافرين والملحدين، وهم يوم أن كانوا مستمسكين به كانوا قادة الإنسانية ورعاتها، فلما طرحوه وراء أظهرهم وفتنوا بمظاهر الحضارات الكافرة أنزلهم الله من علياء مكانتهم وعبّدهم لهؤلاء المفتونين بالعلم الكفور.

وقد ختمت الآيتان بتوجيه تربوي أفسده أعداء الإسلام على المسلمين فقلبوه من عمل دؤوب في سبيل العزّة والكرامة إلى تواكل وانغماس في رغائب الشهوات، فقال تعالى: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ والتوكل على

اختلاط معنى التوكل والتواكل أمال شمس النصر عن أفق المسلمين في غزوة أُحد.

الله معناه صدق الإيمان به وبأنه مالك القوى والقُدَر، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، وليس معنى إطلاق المشيئة أن الله تعالى يعزّ الكُسَالى المتثائبين، ويذلّ العاملين الناهضين، فذلك لم يكن من سنة الله في الخلق، وإنما معناه أن تبذل طاقتك في العمل، وتعدّ ما أمرك الله بإعداده من وسائل القوة والنهوض، ثم لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وهنا تنطلق مشيئة الله بنصر العاملين ولو قلّت أعمالهم وإعداداتهم ويرد كيد أعدائه في نحورهم، والتاريخ أعظم شاهد على ذلك بما كان فيه من وقائع الجهاد والفتوحات الإسلامية التي تمّت في ظل المنهج الذي كان هدف الرسالة.

ولقد كان هذا الاتجاه المنهجي في صدق التوكل على الله بعد القيام بما ينبغي من حق العمل التطبيقي والمشاورة واليقين بأن النصر بيد الله هو المنهج الذي سار عليه النبي ﷺ في حياته وتربية مجتمعه.

التربية الفردية في الإسلام هي الأساس لتربية المجتمع المسلم.

وقد كانت اللبنة الأولى في هذا المنهج هي التربية الفردية، لأن الأفراد في أي مجتمع هم عناصره الأولى التي يتألف منها، وهم مادته التي تتركب منها عناصره، فإذا أحسنت تربية الأفراد ـ في تصفية أرواحهم من كدورات العقائد الوثنية، لتغرس فيها يانعات الإيمان، وتصفية عقولهم من ظلمات الإدراكات الإلحادية، وتصفية تفكيرهم من أثقال موروثات التراث الجاهلي، وتصفية عواطفهم من جامحات الغرائز، وتصفية وجداناتهم من ذلّة الاستكانات والاستسلام للرغائب الشهوية، ليعوّدوا على تجرع مرارة الصبر في سبيل نصرة الحق، وإقامة معالم العدالة، وإراداتهم بالحزم الذي لا يعرف التردّد، وأشربت قلوبهم الرحمة والرفق والإحسان في عزائم ماضية، وسقيت مشاعرهم بحب المعرفة التي تأخذ بهم إلى سرمدية النظر في الكون ليكشفوا عن أسراره، حتى يروا بعين بصيرتهم يد الله وهي تحرِّك كل ذرة من ذراته في سَمْتها المقدّر لها ـ كان كل فرد منهم أمة في رسوخ إيمانه، واستقامة تفكيره، وإشراق روحه، واستثارة عقله، وقوة عزيمته واتجاهه إلى مقصده وغايته في الحياة الكريمة التي هي هدف منهج الرسالة الخالدة.

وتربية الأفراد بهذا الاتجاه المتكامل في عناصر تركيبه يجعل من المجتمع أمة سويّة التركيب، مستقيمة الطريق، مهذّبة السلوك، مهيّأة لكل خير،

ولا سيما في مطالب القيادات الإنسانية التي نيطت بالمجتمع المسلم.

ومن ثَمّ تبدأ التربية الجماعية للمجتمع، ليكون مجتمعاً موحّد الوسائل والأهداف والأماني والآمال، والوسيلة العظمى إلى ذلك هي المؤاخاة الاجتماعية التكافلية الملزمة الملتزمة.

منهج النبي ﷺ في تربية مجتمعه المسلم.

وقد قام النبي ﷺ وهو يبني مجتمعه المسلم في المدينة المنوّرة بهذا العمل العظيم بعد أن تكاملت لهذا المجتمع المؤاخاة الفردية في ظل الوحدة الإيمانية على أحسن وأفضل ما يكون الترابط بين وحدة الإيمان بين الأفراد ـ أولاً ـ ؛ ثم الترابط بين جماعات المجتمع كله ـ ثانياً ـ؛ ليجعل من هذا المجتمع وحدة إنسانية مؤمنة بكل القيم الفاضلة التي ينبغي أن تبلغها أمة الإسلام في سيرها بدعوتها ورسالتها.

كانت التجربة لتطبيق منهج الرسالة في بدر هي اللبنة الأولى التي أربى نجاحها على كل تقدير وترقب.

وكانت التجربة الأولى في (بدر) لهذا الاتجاه المنهجي في تربية المجتمع المسلم آية الآيات إذ وصل فيها المجتمع إلى حصيلة التكوينات الاجتماعية، وهي مليئة الروح بقوة الإيمان، بصورة خارقة لمألوف الحياة ومعارفها، لأن المجتمع المسلم في (بدر) كان سليم التكوين، لا تبلغ أخطاؤه أن تكون انحرافاً عن المنهج الأصيل لرسالة هذا المجتمع، وإنما هي أخطاء الساعة التي تتغلب فيها الغرائز البشرية على بعض نوازع الإيمان في وقت قد تحجب فيه الأحداث هذه النوازع، ولكنه يصحو فيسرع إلى الأوبة متطلّباً طبيعته الإيمانية.

أما الذين لم يستمكنوا من غرز الإيمان، ولم يدركوا مدرسة التربية الأولى قبل أن تنتقل إلى متسع الجهاد والعمل من شباب الأحداث الذين لم تسعفهم أعمارهم لتلقّي التربية السلوكية عن طريق القدوة والتأسّي بالنبي ﷺ في تطبيق نصوص القرآن وهو ينزّل على النبي ﷺ يانعاً، ويتلقّاه روّاد المدرسة الأولى غضّاً طرّياً في حقائقه ومعانيه، وفي تطبيق البيان النبوي النابع من عين الحياة القرآنية ـ فهؤلاء الذين هم أرادوا في غزوة أحد أن يدركوا ما فاتهم من فضل مشهد (بدر) إذ فاتتهم (بدر)، فحرصوا على حماسة العواطف الإيمانية، ولم يكن حرصهم على المتابعة الإيمانية يساوق

حرصهم على عواطف الحب المتزيّد، واختلفت بهم المسالك في غزوة (أحد) بدءاً ونهاية، وكان ما أراده الله مما فصلناه تفصيلاً أتى على مواضع العبرة في جوانب المنهج.

ثم كان ما كان من تلطّف الله تعالى بهم بالعفو وتوجيه النبي ﷺ إلى الرفق بهم، ومسح جراحات قلوبهم بقطرات غيث العفو عنهم، والاستغفار لهم، ومشاورتهم، ولفت نظرهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه في مستقبل حياتهم وحياة من يأتي بعدهم من صدق التوكل على الله، وقوة العزائم، ومعرفتهم بأن النصر بيد الله العزيز الحكيم.

النبي ﷺ يدعو أصحابه إلى أرفع منازل العبودية

وقد أراد النبي ﷺ أن يجعل من محنة (أحد) على شدَّتها وقسوة أحداثها ووقائعها بعد أن بلغت نهايتها ـ مرتعاً لسارحات الأرواح في مراعي العبودية لتنطلق في مجالات شهود اللطف الإلٓهي ليغسل عن صدور أصحابه صدأ أحزانهم، ويعيد إليهم يقين الهدوء ويعيدهم إلى يقين هدوء الإيمان، ليستقبلوا حياتهم الجديدة بأرواح قوية مشرقة ترتفع فوق الأحداث والوقائع.

خطبة لرسول الله ﷺ لانتشال المسلمين من وهدة ما أصابهم من الحزن والغم.

أخرج الإمام أحمد في مسنده، قال: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكِّي، عن ابن رفاعة الزرقي، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «استووا حتى أثني على ربي عز وجل» فصاروا خلفه صفوفاً فقال: «اللهم لك الحمد كلُّه، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضلَّ لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرِّب لما باعدت، ولا مبعِّد لما قرّبت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم يوم العَيْلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعتنا، اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من

الراشدين، اللهم توفّنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفار الذين يكذّبون رسلك، ويصدُّون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفار الذين أوتوا الكتاب، إله الحق» قال ابن كثير في البداية: ورواه النسائي في اليوم والليلة.

من لواحق غزوة أحد
المسير إلى حمراء الأسد

شجاعة فذة وعزيمة حازمة تحلى بهما المجاهدون فملأتا قلوب أعدائهم رعباً وهلعاً.

لما انتهت معركة أحد بما انتهت به وانصرف المشركون نادى أبو سفيان قائدهم بقوله ليُسمع المسلمين: إن موعدكم (بدر) العام القابل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «قل: نعم، هو بيننا وبينك موعد» ثم بعث رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال له: «اخرج في آثار القوم، وانظر ما يصنعون، وما يريدون، فإن كانوا قد جنّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها، ولأناجزنّهم» فخرج علي رضي الله عنه في أثرهم، فرآهم جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة.

مواقف من الشجاعة للتأسي والتربية.

وهذا موقف من المواقف التي لا يحصيها العدّ من المواقف التي تمثّل شجاعة النبي ﷺ وثبات قلبه ومضاء عزيمته ورساخة قدمه في غرز الجهاد لنشر دعوته وتبليغ رسالته، على رغم ما نزل به ﷺ وبأصحابه من شدائد البلاء وقاسيات المحن، لأن الشجاعة الحقّة إنما هي في ثبات القلب وقوته عند النوازل والمخاوف وفادحات الكوارث دون أن يكون لآلام الجراحات أثر يمنع عن ملاحقة ومواقفة الأعداء في ميادين الجهاد، وإن كانت الجراحات لا تزال تبض بالدماء، وتسري موجعاتها إلى سائر الأعضاء.

ولما جاء علي رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ بنبأ مسير القوم إلى مكة لم يهدأ بال رسول الله ﷺ وجمهور من شهد (أحداً) معه من أصحابه، بل بات ﷺ يقظان، لم يرنق جفنيه النوم، وهو يفكر في اللحاق بالقوم في

مسيرهم إلى مكة ليرهبهم ويريهم أنّ ما نالوه من المسلمين لم يكن ليوهن قوتهم ويضعف شوكتهم، بل إنهم لا يزالون في سواء قوتهم وذروة تحرِّقهم على لقاء أعدائهم وجرأتهم واستعدادهم، وأقصى غايات الرسوخ في إيمانهم بدينهم وعقيدتهم وحبهم لرسول الله ﷺ، واقتدارهم على مواقفة عدوِّهم رغم ما ألمّ بهم من فادح البلاء وبالغ الجراحات.

وبات أصحابه ﷺ على بابه يحرسونه، خشية غدرة كافرة، حتى إذا أصبح من اليوم الثاني ليوم المعركة وانتهائها، وهو يوم السبت للنصف من شوال، وصلّى بأصحابه صبح يوم الأحد، أمر بلالاً أن يؤذن في الناس: إن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوِّكم، ولا يخرج معه إلا من شهد القتال بالأمس، وكان لواؤه ﷺ لا يزال معقوداً لم يحلّ، فدعا به وسلّمه لعلي رضي الله عنه، وقيل لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه.

مخرج رسول الله ﷺ لمتابعة أعدائه مع ما به من شدائد الآلام.

قال ابن سعد في طبقاته: وخرج ﷺ وهو مجروح في وجهه، مشجوج في جبهته، ورباعيته قد شظيت، وشفته السفلى قد كلمت في باطنها، وهو متوهن منكبه الأيمن من ضربة ابن قمئة ـ لعنه الله ـ وركبتاه مجحوشتان.

وحشد أهل العوالي إذ جاءهم الصريخ، وركب رسول الله ﷺ فرسه، والناس من حوله يسيرون بسيره، وبعث ثلاثة نفر من أسلم طليعة في أثر القوم فلحقهم منهم اثنان (بحمراء الأسد) وهي من المدينة على عشرة أميال في طريق العقيق متياسرة عند ذي الحُلَيفة، فسمعا للقوم زجلاً وأصواتاً صاخبة، وهم في هَرْج ومَرْج، يأتمرون بالرجوع إلى المسلمين ليستأصلوهم، وصفوان بن أمية ينهاهم عن الرجوع إليهم، فبصر المشركون بالرجلين ربيئتي رسول الله ﷺ فعطفوا عليهما فقتلوهما، ومضَوا في طريقهم إلى مكة، يسوقهم الجبن بسياط الفزع والرعب، ومضى رسول الله ﷺ بأصحابه في طريقه لملاحقتهم، حتى عسكر بحمراء الأسد، فلقي الرجلين مقتولين فدفنهما في قبر واحد، وهما المعروفان بالقرينين.

غدر وجبن المشركين وفرارهم من حمراء الأسد هرباً من لقاء المسلمين.

وكان المسلمون يوقدون في الليالي التي أقامها بهم رسول الله ﷺ في حمراء الأسد، وهي خمس ليال خمسمائة ناراً ليزيد في إرهاب أعدائه

وإخافتهم، وكانت هذه النيران لعظمها وكثرتها ترى من المكان البعيد، وذهب صوت معسكر المسلمين ومظهر نيرانهم في كل وجه، فكبت الله عدوهم، وملأ قلوبهم بالرعب منهم، وانصرفوا يغذُّون السير إلى مكة خائفين مدحورين، يظنون أن محمداً ﷺ لا يزال هو وأصحابه أقوياء تُخشى شوكتهم، وأنه لا بد أن يكون قد جمع جموعاً كثيرة لمناجزتهم والانقضاض عليهم، وأن ما كان من نيل فيهم في أحد إنما كان شواشي جولة، لم يدخل إلى صميم قوتهم.

على هذا النمط كانت الفكرة في المسير إلى حمراء الأسد، وفي هذا المسير نزل قول الله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتّقوا أجر عظيم﴾[1].

مشهد من مشاهد الصبر والفداء وحب الجهاد في سبيل الله.

وأخرج ابن إسحاق من حديث السائب مولى عائشة بنت عثمان، أن رجلاً من بني عبد الأشهل، قال: شهدت (أحداً) أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذّن مؤذّن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جرحاً من أخي، فكان إذا غلب حملته عقبة، ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

ومن حديث معبد بن أبي معبد الخزاعي أخرج ابن إسحق من طريق عبدالله بن أبي بكر بن حزم ـ وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة رسول الله ﷺ بتهامة، صفقتهم معه، لا يخفون عليه شيئاً كان بها ـ ومعبد يومئذ مشرك مر على رسول الله ﷺ وهو مقيم بحمراء الأسد، فقال: يا محمد، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أنّ الله عافاك فيهم.

ثم خرج معبد من عند رسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتى لقي أبا

---

(١) سورة آل عمران آية (١٧٢).

سفيان بن حرب ومن معه بالرَّوحاء وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا: لقد أصبنا حدّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع عنهم قبل أن نستأصلهم، لنكرنَّ على بقيتهم فلنفرغنَّ منهم.

معبد الخزاعي في موقف من مواقف الوفاء الكريم.

فلما رأى أبو سفيان معبد الخزاعي قال له: ما وراءك يا معبد..؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرّقاً، قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط.

فقال له أبو سفيان وقد فزع من قوله: ويلك، ما تقول؟ فقال معبد والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، فقال أبو سفيان: فوالله لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصل شأفتهم، قال معبد: فإني أنهاك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيت أن قلت فيه أبياتاً من الشعر، قال أبو سفيان: وما قلت؟ قال معبد: قلت:

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتي	إذ سالت الأرض بالجُرْد الأبابيل
تَرْدي بأسد كرام لا تنابلة	عند اللقاء ولا ميل معازيل
فظَلْتُ عَدْواً أظن الأرض مائلة	لما سموا برئيس غير مخذول
فقلت: ويل ابن حرب من لقائكم	إذا تغطمطت البطحاء بالخيل
إني نذير لأهل البسل ضاحية	لكل ذي إربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وخشى قنابله	وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

وفي هذه الأبيات نَفَسٌ من قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير، جرت على وزنها ورويِّها، واشتملت على ألفاظ من ألفاظها.

وقد فَتَّ كلام معبد الخزاعي ومحاورته أبي سفيان في عضده، وثناه ومن معه عن قصده، وزعزع عزيمتهم وردهم عن همهم الذي كانوا قد همّوا به، وانصرفوا مرهوبين خائفين.

أخدوعة فاشلة في أكذوبة متهالكة.

ثم لجأ أبو سفيان إلى أكذوبة ظنّها أخدوعة، فقد رأى وفداً من عبد القيس يمرون بهم، فاستوقفهم متسائلاً أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة،

قال أبو سفيان: ولِمَ؟ قال القيسيون: نريد الميرة، فقال أبو سفيان: فهل أنتم مبلِّغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمِّل لكم إبلكم هذه زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم، قال أبو سفيان: فإذا وافيتموه فأخبروه بأنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم.

فمر ركب عبد القيس بالنبي ﷺ وهو معسكر بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال النبي ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

وفي كون حامل رسالة أبي سفيان المتكذبة إلى رسول الله ﷺ وفد عبد القيس خلاف، وهو رأي السُّدِّي، والمشهور عند أهل السير والمغازي أن الذي حمل هذه الرسالة من أبي سفيان وأبلغها رسول الله ﷺ هو نُعيم ابن مسعود الأشجعي، وهذا رأي مجاهد ومقاتل وعكرمة والكلبي، وقيل: إنه أعرابي مجهول لم يُسَمّ، جعل له أبو سفيان جُعْلاً، وكيفما يكن فهي أكذوبة فاشلة.

قصة حمراء الأسد تمثل لوناً من الشجاعة ورسوخ الإيمان.

هذه الروايات والأحاديث والوقائع التي وردت في قصة المسير إلى حمراء الأسد في عقبة أحد مباشرة تمثل في إطارها الذي ذكرناه وصورتها التي رسمناها من واقع ما كان لوناً من الشجاعة التي انطوت عليها عزيمة رسول الله ﷺ وعزائم أصحابه ـ وهم يقاسون آلام جراحاتهم ـ لم يعرفه التاريخ لغيرهم قط.

فملاحقة العدو وهو منصرف من المعركة، مزهو بانتصاره فيها، يوحي إليه من التصوّرات والظنون التي لا بد أن يكون منها في نظر هذا العدو أن جيش المسلمين لا يزال سليماً في قوته، أو أنه قد جاءه مددُ ماديٌّ من الرجال والأسلحة، فتكون تلك التصورات والظنون مدخلاً للرعب إلى قلوب أولئك الأعداء، ولا سيما أنّ هذه الملاحقة كانت من الذين أصابتهم القروح والجراحات، وهم لا يزالون يكمدون جراحاتهم ويعالجون قروحهم، ويكتمون آلامهم.

وقد حظر رسول الله ﷺ على كل من لم يشهد (أحداً) أن يخرج مع الذاهبين لملاحقة العدو وإرهابه وإشعاره بقوة جيش المسلمين الذي كان إلى

الأمس يواقفهم في ميدان المعركة، وأن ما نالوه منه من الجراحات لم يبلغ أن يكون انتصاراً يقعد هذا الجيش المسلم عن ملاحقتهم للالتحام بهم كرة أخرى، قبل أن يتركوهم منصرفين بما يعتقدونه نصراً لهم، لأنه لا بد أن يكون من بين تلك الوجوه التي واقفتهم في ميدان المعركة بالأمس وجوهاً تلاحقهم لمواقفتهم كرّة أخرى.

وذلك مما يفتُّ في أعضادهم ويزعزع عزائمهم، ويوحي إليهم أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً مما توهمونه نصراً لهم، لأن قوة محمد ﷺ وأصحابه ما زالت سليمة تستطيع أن تقف في وجههم محاربة منتصرة كما انتصرت في (بدر).

وقد مهّد رسول الله ﷺ لذلك بإرسال علي رضي الله عنه ليعرف وجهة المشركين في سيرهم، وأقسم ﷺ ليناجزنهم إن ساروا إلى المدينة، ولم ير رسول الله ﷺ أن يقعد عن ملاحقة أعدائه ليستريح من آلام جراحاته ويريح أصحابه ليداووا قروحهم، بل أمر ﷺ بملاحقة القوم وهم منصرفون إلى مكة، وأرسل بين يديه الرسل ليعرفوا له أخبار القوم، ومضى في أثرهم ومعه أصحابه في جراحاتهم وآلامهم التي تمثِّلها أروع تمثيل قصة الأخوين الأشهليين.

الشدائد اختبار لصدق الوفاء.

والشدائد دائماً هي مظاهر صدق الوفاء الذي لا يقف عند وحدة العقيدة، بل الوفاء الذي يتجاوز ذلك إلى وفاء الإخلاص ومودة العهود والمحافظة عليها، ولو لم تكن معها وحدة الدين.

وقصة معبد الخزاعي تمثل أكمل تمثيل هذا اللون من الوفاء، فمعبد بمجرد أنه خزاعي يعرف ما بين رسول الله ﷺ وبين قومه من عهود مودّة، وأنهم عَيْبة رسول الله ﷺ وذوو صفقته، وأنهم لا يكتمونه شيئاً يبلغهم عن أعدائه، وقد زاد الإسلام عهد رسول الله مع خزاعة قوة وثباتاً، تصرَّف إذ رأى رسول الله ﷺ بحمراء الأسد هذا التصرف النبيل في وفائه وصدق إخلاصه، فبدأ بمواساة النبي ﷺ فيما أصاب أصحابه في (أحد) مواساة مودة ووفاء وإخلاص بكلمات معدودات، ولكنها تنطوي على كثير من معاني النبل والوفاء والإخلاص الحميم.

كان وفاء معبد الخزاعي عملاً إيجابياً خذل أعداء الإسلام.

ولم يكتفِ معبد بهذه المواساة الوفية الصادقة، بل عمد إلى عمل إيجابي يدفع به عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه غائلة الكرّة عليهم من هؤلاء الفجرة من المشركين، ويناصرهم بكل ما يستطيع من قول وعمل.

وكان معبد قد رأى المشركين بزعامة قائدهم أبي سفيان بن حرب قد أجمعوا الرجعة إلى محمد ﷺ وأصحابه ليفرغوا من القضاء على بقيتهم، فقام معبد مقاماً اشتدت فيه وطأته على المشركين وقائدهم فأرعبهم وأفزع قلوبهم، وأرهبهم بما صوره لهم من تأهّب محمد ﷺ وأصحابه للكرة عليهم بما لم يكن يدخل في خيالهم، حتى ثناهم عن الرجعة إلى المجتمع المسلم في عُقْر داره، ولم يجد أبو سفيان حيلة يغطِّي بها ما أصابه من الفزع إلا أن يتشبث بركب يمر عليه من عبد القيس وهم يتيممون المدينة للميرة، فعاقدهم على أن يبلِّغوا محمداً ﷺ أكذوبة من نسيج دهائه الذي لم يسعفه في هذا الموقف المتأزم في رسالة يبلِّغها رسول الله ﷺ ليصدَّه عن ملاحقتهم.

ومرّ وفد عبد القيس برسول الله ﷺ وأصحابه وهم معسكرون بحمراء الأسد، فألقوا إليه ﷺ أكذوبة أبي سفيان التي استأجرهم بحملان الزبيب من عكاظ لتبليغها، فلم يزد رسول الله ﷺ حين سمعها على قوله: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

رسوخ الإيمان وقوة الثقة بالله لا يوازيهما شيء

وهذه الكلمة الموجزة جداً في لفظها لا توزن بثقلها في الإيمان والثقة بالله تعالى رواسي الجبال وشامخات الأطواد، وقد جعلها الله فاصلة ختم بها ما أنزله على رسوله ﷺ ممّا يمثل الموقف كله في حقائقه ومعانيه، وأحداثه ووقائعه، قال عز شأنه: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾[1].

تم بعونه تعالى الجزء الثالث
من كتاب محمد رسول الله

---

(١) سورة آل عمران آيتا (١٧٣ ـ ١٧٤).

الفهرس

دعائم بناء الأمة الإسلامية
بعد تثبيت عقيدتها
الدعامة الأولى: بناء المسجد الأعظم بالمدينة

الدعامة الثانية
التي يستند عليها بناء المجتمع المسلم
هي المؤاخاة بين عناصر هذا المجتمع
على الحب في الله

النوع الثاني من المؤاخاة
المؤاخاة الاجتماعية التكافلية

تحقيق نفي التوارث بالمؤاخاة
بين المهاجرين والأنصار

المؤاخاة على الحب في الله
أقوى دعائم بناء حياة الأمة
فإذا وهت تآكل بنيانها

مؤاخاة الحب بين أفراد المجتمع المسلم فتحت الطريق إلى بناء مجتمع مسلم متكافل بحكم الميثاق الذي أمر رسول الله ﷺ بكتابته وتنفيـذه

تحقيق حول كتاب المؤاخاة التكافلية الذي أمر النبي ﷺ بكتابته بين عامة المؤمنين وبيان هل قصد بهذا الكتاب أساساً موادعة اليهود؟

نص الكتاب من سيرة ابن إسحاق ونقل ابن كثير وصاحب (العيون)

بيـان وتعليـق

الدعامة الثالثة

التي يستند عليها بناء المجتمع المسلم
في مستقبل حياته
هي الجهاد في سبيل الله

غزوات النبي ﷺ وبعوثه وسراياه
تحقيق الروايات في ذلك

المنهج النبوي
للجهاد في الإســلام

مشارق أنوار النصر من آفاق

بدر العظمى

منهج نبوي، ومجتمع مسلم

أعظم مواقف العبودية الضارعة بين يدي الكبرياء الإلهي

هدفنا من الحديث عن الغزوات

تنزل النصر مع آيات السماء

شهود الملائكة غزوة بدر

هل باشرت الملائكة القتال مع المؤمنين في بدر أو غيرها؟

فـرائـد بـدريَّـة

الفريدة الأولـى

مشهد يمثل ذروة صدق الإيمان

الفريدة الثانية
ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله

الفريدة الثالثة
مقتل أبي جهل ـ لعنه الله ـ بسيوف ابني عفراء
(وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين)
شجاعة فدائية ـ إخوة بعضهم من بعض

الفريدة الرابعة

بلال مؤذن الإسلام يقضي على حياة ثاني طواغيت الكفر أمية بن خلف

الفريدة الخامسة
تجاذب الإيمان والعاطفة البشرية
يتمثل في نموذج الإيمان
موقف أبي حذيفة بن عتبة وهو يشهد نهاية أبيه
﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر عن الإيمان ﴾

في الطريق من بدر إلى المدينة
(ولسوف يعطيك ربك فترضى)
وقائع وأحداث تسترفد تطبيق منهج الرسالة
في تربية المجتمع المسلم لحماية الدعوة ونشرها

قتل النضر بن الحارث
صبراً في الطريق من بدر إلى المدينة

قتل لصيق قريش
عقبة بن أبي مُعَيط

* * *

قصة أبي العاص بن الربيع
صهر رسول الله ﷺ

قصة عمير بن وهب وما تحويه من تدبير إلّهيٍّ أكسب الدعوة قوة في مسيرتها

قصة فداء أسرى بدر في القرآن الكريم وموقف النبي ﷺ من أحداثها بحث وتحقيق

كانت غزوة أحد منحة في طيات المحن

نماذج من بطولاتها أظهرتها الشدائد

١ ـ بطولة أبي دجانة

٢ ـ بطولة أنس بن النضر

٣ ـ بطولة طلحة بن عبيد الله

٤ ـ بطولة أبي طلحة: زيد بن سهل الأنصاري الخزرجي

٥ ـ بطولة نسيبة بنت كعب الأنصارية

تحليل لما في غزوة أحد من

تمحيص للإيمان

النبي صلّى الله عليه وسلّم
يدعو أصحابه إلى أرفع منازل العبودية

من لواحق غزوة أُحُد
المسير إلى حمراء الأسد



تأليف
اللواء الركن
محمود شيت خطاب

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

